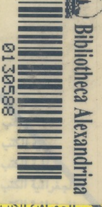
الفكر الجغرافي

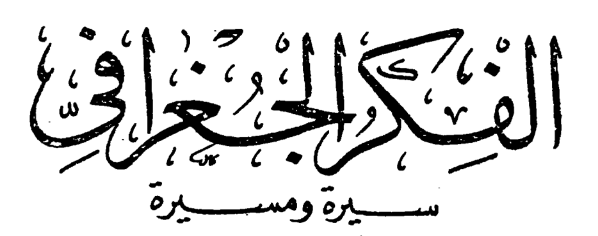
سيرة ومسيرة

دكتور
صلاح الدين الشامي
أستاذ الجغرافيا
كلية الآداب - جامعة بنها



منشأة المعارف
جلال حزي وشركاه بالإسكندرية

الكتب الجغرافية



سيرة ومسيرة

دكتور صلاح الدين علي الشامي

أستاذ الجغرافية - جامعة بنها

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية

جلال حزي وشركاه

تصـــديـر

عندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى ، الذى أخذ بما أملته الحاسة الجغرافية فى المكان على الارض ، والذى فجر الاهتمام الموضوعى بالجغرافية وما تصبو اليه من استطلاع أبعـاد التفاعل الديناميكى الايجـابى أو السلبى بين الانسان والأرض . وعنــدما يستشعر الجغـرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى الرشـــيد ، الذى أفلح فى تكوين وصياغة وصقل وتطوير حساب الحاسة الجغرافية ، وهى تغــذى وتطوع البحث الموضوعى الهادف ، وصولا الى الاسهام الفعال المفيــد فى خدمة محصلة التفـاعل الحياتى المثمر المتطور الى الأفضل على الأرض ، وعنــدما يستشعر الجغــرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى البصير ، الذى أرسى قواعد وأسس علم الجغرافيا وصاغ وصقل الخبرة الجغرافية التى تحملت المسئولية قبل الانســان ، وهو يطلب المعـرفة الكاشفة عن الأرض أو وهــو يتحسس العوامل أو الضوابط الحاكمة لارادة التفاعل الحياتى فى أرجاء الأرض ، وعندما يستشعر الجغرافى كنه وماهية الاجتهاد العقلانى المبدع ، الذى بصر ورشد الجغرافيين ، وهم يأخذون بزمام البحث البناء ، ويتصدون لصنع النتائج المفيدة ، من أجل تحسين محصلة التفاعل الحياتى ، اوترشـيد مسيرة الحيـاة فى أحضان الأرض ، وعنـــدما يستشعر الجغرافى ذلك كله ويحصيه ويقومه ، تراوده الرغبة ويطالعه الرجاء فى مطالعة موضوعية كاشفة ، تتبين مسيرة الفكر الجغرافى وتتابع الاجتهاد الذى وجه هذه المسيرة وأخذ بزمامها فى الاتجـــاه الصحيح • كما تراوده الرغبة ويطالعه الرجاء ، فى تقصى الحقـائق ونقط التحول التى أسفرت عن تقدم وتطور مسيرة الفـكر الجغرافى ، لحساب الانســان فى كل مكان وكل زمان •

وحركة الفـكر الجغرافى فى مسيرتها السوية واتجاهها الصحيح ، كانت ـ بكل تأكيد ـ رتيبة ومتــأنية ، بقـــدر ما كانت مستمرة وموضـوعية ومتطـورة • وصحيح أن هــذه المسـيرة الفكرية الموضـوعية المتطورة ، قد قطعت أشواطا كبيرة على المدى الطويل وهى تشبع نهم الانسان وتخـدم انتصار الحياة فى المكان • وصحيح أن بعض الأعلام الفذة والصفوة المرموقة

من الجغرافيين المجتهدين ، قد سجل ـ بكل التفوق ـ الاضافات واستثمر نقط التحـــول وهم يتحملون مسئولية توسيع وتعميق المعرفة الجغرافية ، فى كل مرحلة من مراحل التحرك البناء المثمر فى الاتجاه الصحيح • ولكن الصحيح أيضا أن الاجتهاد الجغرافى الرشيد الذى اولى اهتمامه توسيع دائرة المعرفة الجغرافية واشـباع نهم النـاس ، كان أسبق من الاجتهـاد الجغرافى الموضوعى الذى أولى اهتمامه أبعاد المعرفة الجغرافية واشباع منفعة الناس بها • وهذا ـ فى حقيقة الأمر ـ اتجاه منطقى وضرورى ، لأنه يعنى ـ بكل الصدق ـ تحرك حذر غير متهور ، اسـتهدف ارساء قواعد علم الجغرافيـة وتطوير اجتهــاده لحساب الانسان على أرضية ثرية بالمعـــرفة الجغرافية ، فى الوقت المناسب •

ولـكى نتابع مسيرة الفكر الجغرافى وهى تخطو خطواتهـا المتأنية ، ولكـى نطالع الاجتهاد الجغرافى الرشيد ، فى كل مرحلة من مراحل التحرك البناء الى الأفضل ، فى الاتجاه الصحيح ، ولـكى نتبين ولادة علم الجغرافية فى القرون القليلة الماضية وما أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى العلمى فى النظرية وفى التطبيق لحساب الحياة ، نقدم هذا البحث الموضوعى لقارىء العربية ، فى شـكل كتاب متكامل • ويسعدنى أن أجتهد لـكى يضاف هذا الـكتاب الى رصيد المدرسة الجغرافية المصرية فى المكتبة الجغرافية العربية المعاصرة • وأتمنى على الله ـ وهو على كل شىء قديـر ـ أن يـكون اجتهـادى موفقـا ، وأن ينتفع به طلاب المعرفة الجغرافية • وعلى الله قصد السبيل •

صلاح الدين على الشامى

إهـــداء

الى زوجتى التى شاركتنى الحياة ، وشدت ازرى وانا اكتب كل كلمــة من انتــاجى العــلمى ، وباركت اجتهادى فى موكب المجتهدين ، اهدى هذا الكتاب •

المؤلف

تمهيد

الفكر الجغرافى ورفقة الحياة

الفكر ربيب الحياة

مسيرة الفكر بكل ما تعلنه أو تخفيه من حصاد العقل ، وبكل ما تعنيه وتبتغيه من أجل الحياة ، كانت — بكل تأكيد — رفيقة عمر الحياة — حياة الانسان — لحساب الانسان على الأرض فى أى مكان • بمعنى أن مسيرة الفكر التى حفلت بابداع الانسان وثمرة اجتهاده ، وهو يمسك بزمام مصيره فى المكان على الارض ، ينبغى أن تبدأ مع ميلاد الحياة ، وأن تخطو خطوة بخطوة لكى ترافق مسيرة الحياة والتفاعل الحياتى فى أى مكان على الأرض •

هذا وينبغى أن تكون خطوات هذه المسيرة المثمرة فى رفقة الحياة رتيبة ومستمرة • بمعنى أن تتحرك فى سياق متطور وحلقات متلاحقة ، من بداية كانت بارادة الله فى أحضان المكان على الأرض ، الى نهاية تكون بارادة الله فى المكان أيضا فى الأرض • ولأن الانسان يطلب الحياة فى المكان . ولأن الانسان يصنع الايقاع الرتيب لنبض الحياة فى أحضان المكان ، فانه يطالع المكان الذى يحتويه بفكره ، ويتحسسه بعقله وادراكه وفكره ، لكى يتعرف على الواقع فيه . ولكى يتلمس حاجات الحياة منه ، ولكى يؤمن ذاته به ، ولكى يفرض سيطرته عليه •

ومن قائل حكيم عاقل — بكل الصدق — أن الانسان حيوان مفكر عاقل ، الى قائل حكيم آخر — بكل الموضوعية — أن الانسان العاقل يفكر لأنه موجود ، يتجلى معنى استخدام العقل وافراز الفكر • بل ومن الطبيعى أن نستشعر جدوى الفكر سلبا وايجابا ، لحساب الحياة فى وجودها ونبضها الرتيب وتفاعلها وانجازها على الأرض فى أى مكان • ودعوة الله صانع الحياة الانسان الى التفكير وحسن استخدام العقل واستثمار حصاده ، هى توجيه صحيح سوى وترشيد صريح واضح ، لكى يلتزم الانسان بتدبر عاقل

رزين يسخر الاجتهاد العقلانى من أجل حياة أفضل على الأرض فى كل مكان وفى كل زمان .

وهكذا ينبغى أن نستشعر بداية ، كيف كان ميلاد الفكر البناء فى رفقة ميلاد الحيـاة على الأرض . بمعنى أن نتصور كيف لازمت وزامنت مسـيرة الحياة فى اتجاه متواز ، وهى تدب عـلى الأرض . كما يجب أن نستشعر أيضا كيف جمع الانسان حصاد فكره وانتفع به فى مواجهة أعبـاء الحياة فى المكان على الأرض ، وكيف حفظه ونقله وورثه من جيل الى جيـل آخر ، وكيف صنع تراثا مفيدا بصر وما زال يبصر مسيرة الحياة ويدعم انتصارها فى أى مكان على الأرض .

ولأن التفكير نبض حيوى بنـاء متداخـل فى كنه وجوهـر الحياة على الأرض ، ومتعلق بجـدوى وماهية الوجود فى المكان ، قد نستشعر الحاجة - بكل تأكيد - الى تصور ذكى بارع ، لكى يتكشف له كيف يكون الفـكر حصاد مثمر وثمر مفيـد ، يطلبه الانسـان بذاته الخاصة أو بذاته العـامة من أجل تجسيد الغايات التى تتطلع اليها الحياة ، أو من أجل صنع الانتصار الذى تزهو به ارادة الحياة فى المكان وفى الزمان .

وهل يملك الانسان و.. يتشبث بالانتصار للحياة فى المكان أن يكف عن التدبر واعمال العقل وافراز الفكر . الذى يؤكد وجوده السوى ، أو أن يمتنع عن استثمار حصـاد الفكر يـد الذى يؤمن ذاته ويبصر وجوده على الأرض ؟

وهل يملك الانسان حيلة غير اعمال العقل وجنى حصـاده المتجدد ، لكى يقبض على زمام مصيره ، وهو يخوض الجولة بعد الجولة لحساب الواقع الحياتى وانتصاره فى حضن المكان ، أو وهو يواجه التحدى الصعب والضبط الحاكم للحياة ومسيرة الحياة ومصير الحياة ، لحساب التفاعل الحيوى الصـانع لكل سبب من أسباب انتصار الحياة واستمرار نبضها السوى وتقدم خطاها على الأرض ؟

وهكذا نستشعر الحاجة الى تصور ذكى وبارع وشجاع ، يكشف كيف كانت فى عمق الانسان وهو يواجه أعباء الحياة ، حاسة تحفز التفكير وتفجره ، لكى يرشد ويبصر الحياة لحساب شكل أو نمط التعايش فى أحضان المكان . وقد نستشعر الحاجة مرة أخرى الى تصـور ذكى بارع شجاع يكشف كيف كانت هذه الحاسة فى مغـزاها ومرماها من وراء افراز الفـكر المفيد ، لدى

الإحساس بأبعاد المواجهة الصعبة ، التى تعين أن ينتصر فيها الانسان لحساب الحياة ودعم مصير الحياة فى المكان وفى الزمان ·

وهذه الحاسة - فى اعتقادى - وليدة الاحساس بالمكان الذى يحتوى الحياة · ومن الطبيعى أن يعطى المكان حاجات الحياة ولكن ليس قبل ان يأخذ المكان من الانسان اجتهادا وجهدا · ومن الطبيعى أيضـا ان الاحساس بما يطلبه المكان كان من وراء تنشيط الحاسة التى تحفز الفكر وتفجر التفكير وتستلهمه القدرة على التفاعل المحصور فى الأخذ والعطاء لكى تؤمن حاجات الحياة · وهذا معناه أن يعتمد فكر الانسان الذى ينتصر لارادة الحيـاة على صدق هذه الحاسة وحسن استخدامها · ومعناه أن هذا الفـكر وليد شرعى لهذه الحاسة ، لكى يؤمن مصالح الحياة ويمكن لها من أن تقبض على زمام مصيرها فى أحضان المكان على الأرض ·

ولئن كان الانســـان حيوانا مفكرا بطبعه ، وكان التفـكير والتـدبر مطية الارادة والاصرار والالتزام ، الذى واجه به أعباء الحياة فى كل مكان ، وكان الفكر حصادا مثمرا مفيدا وهو يرشد ويبصر ويصنع التعايش فى أى مكان على الأرض ، فمن الطبيعى بل ومن الضرورى أن يتشبث الانســـان بالتفكير والتدبر واعمال العقل ، وأن يحسن استخدام ثمرات فكره ، منـذ أن بدأت قصة الحياة على الأرض واستشعرت الحاسة الكامنة فيه المكان وأعباء الحياة فيه وواجهت الضوابط الحاكمة لمسيرة الحياة فى أى مكان · ومن شأن هذا الفكر أن يمثل النـــافذة العريضة ، التى يطل من خلالها الانسان على الأرض فى المـكان من حوله ، وهو يطلب الانفتاح على الواقع فى أنحائه ، لكى يتفاعل ويتعامل ويعطى ويأخذ وينتفع ، ولكى يتعايش ويقبض عـلى زمام مصيره ·

ومن شـــأن نبض الفـكر الذى فجره الاحساس بالمكان ، أن يسعف الانسان وينصره فى المواجهة الحاسمة مع الأرض وهو يعطيها او وهو يأخذ منها · ومن شأنه أيضا أن يكون رصيدا لحساب الحياة ، لكى يؤمن الوجود والتعايش فى المكان وهو ينتزع حقه وحاجاته من براثن التحـــدى · بل ومن شأن هذا النبض الفكرى البناء المفيـد الذى خاض التجربة فى معترك الوجود وتأمين حق الحياة ، أن يكون لحساب الذات العامة أو لحساب الذات الخاصة على السواء ، لكى يقبض الانسان على زمام مصيره فى المكان ، ولكى يؤكد حقه وتشبثه بالعطاء المتاح فى هذا المكان ·

وبهذا ينبغى أن ندرك أو أن نركز على ثلاثة أمور هامة ، نعتمد عليها فى تصور نقطة بداية أصلية انطلقت منها مسيرة الفكر الجغرافى • وهذه الأمور الثلاثة هى :

١ - ان الوجود فى المكان - أى مكان - على الأرض ، وأن الانفتاح على هذا المكان استجابة لارادة الحياة والتعايش فيه ، يولد فى الانسان كنه وماهية الاحساس بالمكان والواقع الذى يحتوى الحياة •

٢ - ان كنه وماهية الاحساس بالمكا نوالواقع الذى يحتوى الحياة ، وان حيوية وجدوى الاستيطان فى هذا المكان ، استجابة لارادة الحياة والتعايش فيه ، يلهم الفكر الابداع الذى ينصر الانسان ، وهو يطوع المكان لحساب الحياة ويطوع الحياة لحساب المكان •

٣ - أن تطويع المكان لحساب الحياة وتطويع الحياة لحساب المكان ، وضع التفاعل الحياتى فى اطار التفكير العملانى وما يسفر عنه من فكر مثمر ، وهو يسوق ويصنع سياق قصة الحياة •

....

وتأسيسا على ذلك كله ، ينبغى أن نتصور كيف كان الاحساس بالمكان والفكر الذى تفجر تأسيسا على هذا الاحساس الأسبق من غيره فى سياق قصة الحياة وما تمتلكه من رصيد أو تراث فكرى • ومع مرور الوقت ، وتوالى السياق الرتيب لقصة الحياة ، الذى سجل نبض الفكر ، وهو ينصر ويشد ازر الانسان فى المكان ، يتولد فى الانسان الاحساس بالزمان وحركة الزمان - واجتماع الاحساس بالمكان مع الاحساس بالزمان مسالة مهمة لانها كانت - بالضرورة - من وراء مزيد من التفكير واعمال العقل وزيادة رصيد الانسان من حصاد الفكر •

وعندما يصبح الاحساس بالزمان فى المكان من وراء استشعار بالتغير وكيف يطوى الزمان من يوم الى يوم آخر صفحات الحياة ، وكيف تتحرك مسيرة الحياة ويتشبث الانسان باستمرارها ، يتصدى الفكر الى صيانة حق الحياة فى المكان من زمان الى زمان آخر • وعندئذ ينبغى أن نستشعر كيف يكون الفكر الذى يفجره الاحساس بالزمان ، نافذة عريضة يطل من خلالها الانسان على الصفحات الذى تقص وتحكى قصة الحياة ، وهو يطلب ويتشبث

ارها في المكان ، لكي يتعايش ويقبض على زمام مصيره ويؤمن حقه
اثها مع مسيرة الزمان .

وفي اعتقادي ، أنه في بداية قصة الحياة في احضان المكان الأصل على
ض ، لم يمتلك الانسان وسيلة غير احساسه بالمكان من حوله ، وغير
اته الذاتية في مواجهة الضوابط الحاكمة للحياة ، لكي يتعايش ويعيش .
من شك في أن هذا الاحساس بالمكان كان احساسا فطريا بالطبع .
و الذى أطلق - بالضرورة - العنان ، وفجر الفكر المبكر الذى أسعف
ان وشد أزره ، أو الذى أسفر عن تهيئة قدراته في مواجهة الضوابط
دة للحياة ، لكي يؤمن وجوده ويتعايش في أحضان المكان .

وفي اعتقادي أيضا ان حركة المسيرة التي تحكي قصة الحياة في المكان
صل على الأض ، قد ولدت في الانسان الاحساس بالزمان وهو يطوى
نحات الحياة من يوم الى يوم آخر . وما من شك في أن هذا الاحساس
مان كان احساسا مبنيا على استشعار حركة الليل والنهار بالفعل .
ذا الاحساس هو الذى أطلق - بالضرورة - العنان ، ووجه الفكر المبكر
الاتجاه الذى أسفر عن اجتهاد في رصد التغيير واستشعار وقع خطوات
سيرة الحياة التي يطوى صفحاتها الزمان .

وتأسيسا على هذا الاعتقاد - وهو صحيح - ينبغي أن ندرك كيف كان
حساس بالمكان ، واستشعار الضوابط الحاكمة للحياة في المكان كاشفا
اسة الجغرافية . وقد كانت هذه الحاسة الجغرافية بالضرورة من وراء
جيه الفكر توجيها جغرافيا ، يبصر الحياة ، ويشد أزرها وينتصر لارادتها
أحضان المكان . كما ينبغي أن ندرك كيف كان الاحساس بالزمان ،
استشعار وقع خطوات مسيرة الحياة في الزمان كاشفا للحاسة التاريخية .
وقد كانت هذه الحاسة التاريخية بالضرورة ، من وراء توجيه الفكر توجيها
اريخيا ، يتابع حركة الحياة ويرصد استمرارها في الزمان .

وهكذا نستشعر - بكل الصدق - كيف كان الاحساس بالمكان أسبق
من الاحساس بالزمان ، وكيف اتخذ الفكر من وراء ذلك ، وجهين هامين ،
وجه عمل في خدمة الحياة في المكان ، ووجه آخر عمل في خدمة الحياة في
الزمان . وعندما يكون نبض الفكر البناء وليد الاحساس بالمكان والتعايش
فيه ، أو وليد الاحساس بالزمان والاستمرار فيه ، ينبغي أن نتبين - بكل
الوضوح - مسألتين هما :

أولا - كيف يكون الفكر في الاتجاه الجغرافي مفيدا ومطلوبا - بكل الالحاح - لكي يبصر الانســـان بالمكان من حوله ، ويحيطه علما بالضوابط الحاكمة للحياة فيه ، ويرشــد اجتهاده في مواجهة أعبـــاء الحياة ، لحساب التعايش في أحضان المكان ٠

ثانيا - كيف يكون الفكر في الاتجاه التاريخي مفيدا ومطلوبا - بكل الالحاح - أيضا ، لكي يسعف حرص الانسان على استمرار الحياة ، ويتابع سياق اجتهاده في مواجهة أعبـــاء الحياة ، ويسجل خطوات انتصاره لارادة الحياة ، لحساب التعايش في المكان مع حركة الزمان ٠

وصحيح أن استشعار المكان واستخدام الحس الجغـــرافي الذى صنع انتصار الحياة في المكان ، كان أسبق من استشعار الزمان واستخدام الحس التاريخي الذى تابع حركة أو مسيرة انتصار الحياة في المكان ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الاستشعار المبكر ، قد دعا - بكل تأكيد - الى قدر كبير من التداخل والخلط ، بين اتجاه الفكر في الاتجاه الجغرافي ، واتجاه الفــكر في الاتجاه التاريخي ٠ ومع مرور الوقت ربما تطـور الامر وأفلح الانســـان في صنع الخيط الرفيع الذى فصل بين الفكر الجغرافي والفكر التـــاريخي ٠ ومع ذلك فما زال الاحساس بالمكان مطلوبا في سياق الزمان ، وما زال الاحســاس بالزمان مطلوبا في اطار المكان ٠ واذا كانت الحياة وجود وتعايش وانتصار في المكان ، فان حركة الحياة مصير واستمرار وتقدم في الزمان ٠

ومن غير أن ننكر أو نتنكر لهذا التداخل والخلط ، بين حصـــاد الفكر الجغرافي الذى فجره استشعار الانســـان بالمكان ، لحساب الوجود والتعايش فيه ، والفكر التاريخي الذى فجره استشعار الانســـان بالزمان ، لحساب استمرار الوجود والتعايش فيه ، ينبغي أن نؤكد على قيمة الحس الجغرافي ٠ وهذا الحس الجغرافي - في تقديرى - قد أسفر عن نصرة الانســـــان وهو يؤمن وجوده ويؤكد ذاته ويدعم تعايشه في أحضان المكان ٠ ومن غير هذا الانتصار الحقيقي ، ينتفي - في تقديرى - ضمان استمرار الحياة الذى أسفر عن حقيقة الاحساس بحركة الزمان ، وغرس في الانسان الحس التاريخي ٠

وهكذا ، ينبغي أن نتبين - على كل حال - كيف كانت الحاسة الجغرافية - وهي صادقة لا تضلل أو تخون أو تكذب - من وراء ابداع الفكر الجغرافي والخط الذى سار فيه ، وكيف كان هـــذا الفــكر الجغرافي - وهو صـــادق

لا يضلل أو يخون أو يكذب ـ من وراء انتصار الانسان على الضوابط الحاكمة للحياة في المكان . وحركة الحياة في الزمان ، في وقت واحد ٠

وعندما توجه الحاسة الجغرافية الانسان ، لكي يفكر التفكير البنـــاء في الاتجاه الجغرافي لمواجهة أعباء الحياة ولاحكام قبضته على أسباب الحياة في المكان ، وعندما ينمى الاتجاه الفكرى الجغرافي الحاسة الجغرافية ويصقلها ويحسن استخدامها ، يولد على الأرض أقدم شكل من أشكال الفكر الجغرافي ولادة عفوية تلقائية ٠ بل هو ـ في تصورى ـ أول وأقدم رصيد أو حصاد أسعر عنه استخدام العقل ٠ وكان المطلوب من هذا الفكر الجغرافي أن يقـدم الخدمة والخبرة ، لنصرة الحياة ودعم وجودها وتأمين حقها في المكان والزمان على الارض ٠

ــــــــــــــ

ورحلة الفكر الجغرافي التى رافقت عمر الحياة على الأرض ، رحلة طويلة ومستمرة ٠ وقد استشعر الانسان حاجته دائما الى هذا الفكر ٠ بل لقـد ترقى ـ بكل الاجتهاد العقلاني ـ دفع هذه المسيرة الفكرية على طريق التطور والتجديد والاضافة ٠ وكانت آماله معلقة بأن يجـد في معين هذا الفـكر الجغرافي ما يشبع تطلعه الى المعرفة الجغرافية أو ما يخدم التفاعل الحياتى مع الأرض أو ما يعينه على استخلاص حق وحاجة الحياة من الأرض ٠ ومن الجائز أن تفتقد الاجتهاد الجغرافي المتخصص في مرحلة ، وأن يتبنى الاجتهاد الجغرافي المتخصص الفكر الجغرافي في مراحل أخرى ، ومع ذلك فان المسيرة الفكرية الجغرافية مسيرة جادة ومفيـدة وهى ترافق مسيرة الحيـــاة في كل مرحلة أو وهى تبصرها وتقودها وترشد وجودها في أحضان المكان على الأرض ٠

ــــــــــــــ

فصل تمهيدى

الفكر الجغرافى العفوى

هذا الفكر يمثل فكرا بسيطا بعيدا عن كل تعقيد ٠ بل قد لا نجد له منهجا واضح المعالم بصفة عامة ٠ ومن شأن هذا الفكر الجغرافى العفوى البسيط ، أن يصور مدى ادراك الانسان للأرض من حوله ، أو أن يعبر عن مدى استشعاره خصائص ومواصفات المكان الذى يحتويه ويعوله ٠ ومن شأن هذا الفكر الجغرافى البسيط أيضا ، أن يصور الاجتهاد الذى تكفل بترشيد آداء الانسان وهو يواجه الضوابط الحاكمة للحياة فى المكان ، أو الذى اضطلع بشد أزر الانسان ، وهو يستخدم الموارد المتاحة فى المكان٠

وهذا الفكر الجغرافى نشأ بالضرورة نشأة عفوية تلقائية ، لكى يجنب الانسان التخبط فى المكان ، أو لكى يرشد التعايش فى المكان ٠ وهذا معناه أنه ــ بكل تأكيد ــ خلاصة التجربة وما تنتهى اليه من صواب نافع أو خطأ ضار ٠ بل انه من غير شك حصاد الفكر الذى يعبر ــ بالفعل ــ عن سعة حيلة الانسان واحتياله ، لكى يفلح فى تأمين الحياة وضمان وجودها وانتصارها فى أى مكان على الأرض ٠

وصحيح أننا قد نفتقد القدرة الكاملة على تصور موضوعى متكامل ، يصور شكل وأبعاد ومنطق هذا الشكل من اشكال الفكر الجغرافى العفوى الوليد مع ميلاد الحياة فى المكان الأصل على الأرض ، لأنه فكر غير مكتوب ٠ وصحيح أن شكل وأبعاد ومنطق هذا الشكل المبكر من أشكال الفكر الجغرافى ، غير شكل وأبعاد ومنطق الشكل الآخر المكتوب من الفكر الجغرافى الذى أنجب التخصص الجغرافى البحت ، أو أسفر عن قواعد وأسس علم الجغرافية ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الشكل المبكر من أشكال الفكر الجغرافى كان ــ بكل تأكيد ــ مثمرا وهو وليد مع ميلاد الحياة عندما :

١ ــ رشد الحياة وهى تقبض على زمام مصيرها ، وبصر التعايش فى أبسط شكل من أشكال التفاعل الديناميكى الحياتى بين الانسان والأرض

فى موطنه المنتخب فى أى مكان على الأرض ٠

٢ - أطلق العنان للابداع المفيد وصولا الى صياغة وتأسيس القاعدة الصلبة التى ارتكز عليها الاجتهاد الجغرافى العقلانى ، الذى أسفر عن بواكير التخصص الجغرافى فى خدمة الحياة ٠

وبهـــذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نستشعر كيف أحس الانسان بالمكان من حـــوله ، وكيف استلهم حسه الجغرافى لكى يتعرف على موطنـه فى هذا المكان ٠ كما ينبغى أن نستشعر كيف فجر هـــذا الحس الجغرافى الاجتهاد العقلانى لكى يسعف الانســان ويشـد أزره ويظاهره فى مواجهة الواقع الطبيعى والضوابط الحاكمة للحياة فى هـذا الموطن فى أى مكان ٠ وكان من شأن هذا الاجتهاد العقلانى أن يسفر عن الفـكر الجغرافى البسيط الذى يعبر - بكل الصدق - عن مدى احساس الانسان بالمكان من ناحية ، ويرشده وهو يدب على الأرض فى طلب أسباب التعايش وتأمين الحياة فى كل مكان من ناحية أخرى ٠

ومن غير اصرار على تصور شكل وأبعاد ومنطق الفكر الجغرافى العفوى الوليد مع ميلاد الحياة ، ينبغى أن نتصور كيف بصر هذا الفـكر الانسان وهداه وهو يغرس جذوره فى الأرض أو وهو ينتخب الأرض التى يجعل منها موطنا ، أو وهو يحدد ويمارس أسلوب انتفاعه بها ٠ بمعنى أنه - من غير شك - وليد الحاجة ، عنـــدما تحسس الانسان المكان من حـوله وأحسن استخدام حسه الجغرافى لـكى يؤمن الحيـــاة السوية التى انتخبت الموطن وبدأت مسيرتها المكافحة على الأرض أى أرض ، وفى المكان أى مكان ٠ وهل يستغنى الانسان عن ثمرة الحاسة الجغرافية الصـادقة ، وهو يطوع ذاته للواقع الطبيعى فى أحضـان أى مكان معين منتخب ، أو وهو يطوع الواقع الطبيعى فى أحضان أى مكان معين منتخب لحساب هذه الذات ؟ بل وهل يستغنى الانسان عن استثمار ثمرات الفـكر الجغرافى العفوى التى أبدعهـا استشعار الحس الجغـرافى الذكى ، وهو يتعـايش مع الواقع الطبيعى فى أحضـان الموطن المنتخب ، أو وهو يقبض على زمام مصـــيره فى أى موطن منتخب ؟

ومن غير اصرار مرة أخرى على تصـــور شكل وأبعـاد ومنطق الفـكر الجغرافى العفوى المولود ولادة تلقائية مع ميلاد الحياة ، ينبغى أن نتصور كيف كان هذا الفكر دليل الانسان ، وهو يطلب الاستيطان فى أنحـــاء الأرض ، أو وهو ينتخب المكان الأنسب لاستيطانه على الأرض ، أو وهو يغرس جذوره

فى أى موطن أنسب على الأرض . وهو - من غير شـك - وليـد الحاجة ، عندما تحسس الانسان طريقه فى أنحاء الأرض ، وعندما أحسن استخدام حسه الجغرافى لكى يستكشف المكان ، ويؤمن مصيره فى أحضـان الموطن الأنسب المنتخب . وهل يستغنى الانسان عن استخدام الحاسة الجغرافية ، وهو يتحـرك من موطن طارد مقتر لا يستجيب أو وهو يتحـرك الى موطن جاذب سخى يفيض بالعطاء ؟ بل وهل يستغنى الانسان عن استثمار ثمرات الفكر الجغرافى العفوى التى تفتق عنها الحس الجغرافى الذكى ، وهو يفر من الشح والتقتير الذى أعلنه الواقع الجغرافى فى مكان . أو وهو يلوذ بالسخاء والعطاء المجزى الذى يجود به الواقع الجغرافى فى مكان آخر ، أو وهو ينتخب الطريق السوى الأفضل طلبا للتحرك من مكان يطرد الى مكان يجذب ؟

وبكل الصدق والموضوعية ، ينبغى أن نتصور كيف أودع الخالق فى صميم الانسان الحس الجغرافى ، وكيف تولد فيه مع ميـلاده . كما ينبغى أن نتصور أيضا كيف وجه هذا الحس الجغرافى ، لحساب الحياة . وبكل الصدق والموضوعية ، نتبين كيف أصبح الفكر الجغرافى العفوى المولود مع ميلاد الحياة ، رفيق عمر الانسان فى المكان ، لحساب الحياة ، ودليل مصيره فى كل مكان ، لحساب التنوع فى أنماط أساليب الحياة .

ولكى نستوعب هذا التصور ، ونقوم الحس الجغرافى تقويما صحيحا ، علينا أن نرقب الطفل الوليد فى المـاضى والحاضر والمستقبل ، وأن نرصد تحركاته فى أى مكان . ومن الطبيعى أن نتبين كيف يتحسس من حـوله المكان وهو يجلس قعيـدا أو وهو يحبو أو وهو يمشى فى أضيق الدوائر ، لأنه يطلب المعرفة والاحاطة التى تخدم التعايش فى هذا المكان . وهل يطلب هذا الوليد وهو فى أول مرحلة من مراحل نبض الحيـاة ، من غير الحس الجغرافى الكامن فيه المعـرفة بالمكان فى أضيق الدوائر من حـوله ، لكى يستشعر وجوده ويؤمن مصيره ؟

ولكى نستوعب هـذا التصور ونقوم الحس الجغرافى تقويما صحيحا مرة أخرى ، علينا أن نرقب الرجل الكبير فى الماضى والحاضر والمستقبل ، وأن نرصد تحركاته فى أى مكان يفـد اليه . ومن الطبيعى أن نتبين كيف يتحسس من حول المكان فى أوسع الدوائر ، لأنه يطلب المعرفة ويستهدف التعايش مع الواقع الجغرافى فيه . وهل يطلب هذا الرجل الوافد توا الى المكان من غير الحس الجغرافى الكامن فيه المعـرفة بالمكان فى أوسع الدوائر

من حوله ، لكى يؤدى دوره ويؤمن وجوده ويمسك بزمام مصيره لحساب الحياة فى هذا المكان ؟

ومن غير الحس الجغرافى الذكى لا يكاد يفلح الانسان فى عملية تطويع المكان لارادة الحياة أو فى تطويع الحياة لارادة المكان ، وصولا الى حد التعايش الأمثل مع الواقع الجغرافى فى أى مكان منتخب لحساب الحياة . وصحيح أن الحس الجغرافى يلهم الانسان ويبصره وهو يطلب المعرفة بالمكان من حوله ، أو وهو يتعامل مع الأرض فى المكان من حوله ويطلب العطاء منها لحساب الحياة . ولكن الصحيح أيضا أن طلب المعرفة بالمكان واستخدام الحس الجغرافى من أجل استشعار الواقع الجغرافى فيه ، ينمى - بكل تأكيد - الحس الجغرافى ويصقله ويشحذه ويحسن مستوى فاعليته وأدائه ، وأن نمو الحس الجغرافى وشحذه وتحسين مستوى أدائه ، يفجر الفكر الجغرافى العفوى وينمى ابداعه لحساب الحياة .

وهكذا نتبين أن الحس الجغرافى يقود ويوجه ويرشد المعرفة بالمكان ، وأن المعرفة بالمكان انفتاح ينشط وينمى ويشحذ الحس الجغرافى ، وأن تنشيط وشحذ الحس الجغرافى ، تفتح ذكى يطور الفكر الجغرافى العفوى ويثريه . وبمعنى آخر ، ينبغى أن نتبين ، كيف كانت حاجة الانسان لمعرفة المكان مقدمة منطقية مطلوبة - بكل الالحاح - لحساب الحياة فيه ، وكيف استلهم الانسان حسه الجغرافى الكاشف فى التعرف على المكان واستيعاب المقدمة المنطقية المطلوبة لحساب الحياة فيه . ومن خلال التجربة التى رشدها الحس الجغرافى ، تفجر الفكر الجغرافى العفوى لكى يوجه التعامل مع الأرض ولكى يبصر التعايش مع الواقع الطبيعى فى المكان .

وفى اعتقادى - على كل حال - أن الحس الجغرافى يمثل قوة من قوى الادراك المبصرة الكامنة فى الانسان . وقد أودعها الخالق فيه لكى تبصر حياته وتقود مصيره وتشد أزره وترشد اجتهاده فى المكان على الأرض . وصحيح أن الانسان قد اعتمد - بكل الفطنة - على صدق هذا الحس الجغرافى الذى لا يضل ولا يضلل ، لكى يتعرف على المكان من حوله ، ولكى يتعايش مع الواقع الجغرافى فى أى مكان على الأرض . ولكن الصحيح أيضا أن حسن استخدام الحس الجغرافى العفوى قد حول ادراك المكان من ادراك بالقوة الى ادراك بالفعل . ومن ثم فجر هذا الادراك بالفعل الفكر الجغرافى العفوى وبلور أهدافه ، وأخرج ما فى الجعبة من حيلة أو ابداع أو اجتهاد ، لحساب التعايش بين الواقع الجغرافى فى المكان والحياة التى تشبثت بهذا المكان .

واذا كان الفكر الذى يسفر عنـــه التفـكير العقلانى ، يمثل فى رأى الفلاسفة ، دليلا على وجود الانسان ماديا ومعنـــويا ، فان الفكر الجغرافى الذى يسفر عنه الحس الجغرافى ، يمثل فى رأى الجغرافيه دليلا على حيوية هذا الوجود ، وهو يبصر التوافق والانسجام مع الواقع الجغرافى فى المكان• بمعنى أنه اذا كان وجود الانسان لا يستقيم أو يتأتى من غير فكر بناء فان حيوية هذا الوجود وانتظام نبضه الفعال ، وانتصاره للحياة لا يتأتى من غير فكر جغرافى عفوى ، يؤمن مصير الحياة فى أحضان المكان •

وبهذا المنطق الموضوعى الرشـــيد ، نتبين كيف كان الفكر الجغرافى العفوى ، وليدا شرعيا نافعا ، للادراك الذكى ، الذى هيأ له حسن استخدام الحس الجغرافى الكامن فى عمق الانسان أن يولد • ومن الطبيعى أن نستشعر كيف كان الفكر الجغرافى العفوى ، وهو وليد مبهما لبعض الوقت الطويل،الذى افتقد فيه الانسان أساليب التسجيل وحفظ التراث وتوريثه • ومع ذلـك فقد تولى هذا الفكر الجغرافى العفوى ، وهو مبهم مسئولياته بكل الصـــدق والواقعية ، لحساب الحياة • ومن غير شك أفلح هذا الفكر الجغرافى العفوى فى مهمته عندما توجب عليه ادراك الواقع الجغرافى فى أحضـان أى مكان ، أو عندما تولى ترشيد التفاعل الديناميكى الحيوى بين الانســان والأرض ، لحساب دعم الحياة تارة ، أو لحساب صياغة الحياة الأفضل تارة أخرى •

هذا وينبغى – عندئذ – أن نتصور كيف أسلم الفكر الجغرافى العفوى زمامه لاجتهاد الحس الجغرافى الكامن فى عمق الانســـان ، وكيف استهلم من ملاحظاته المعرفة الكاشفة لأهم أبعـــاد المواجهة والصراع بين الانســان والأرض ، وكيف ترك لاجتهاده أن يوجه ويقود الانتصار فى هذه المواجهـة فى الاتجاه الذى أملته حاجة الانسان فى اطار الممارســة الحياتية الصـعبة المكافحة فى أحضان المـــكان • بل يجب أن نستشعر – بالضرورة – كيف أصبح رصيد الفكر الجغرافى العفوى وخبرته وهى تسعف الانسان وتشد أزره وتلهم كفاحه ، ومضات ضوء مشعة تبصر الانتصار لحساب التعايش ، وتؤكد فاعلية وجدوى الحس الذكى الجغرافى ، لحساب الحياة فى أى مكان •

وهكذا كانت الحاسة الجغرافية التى نمتها التجربة وشحذتها الحاجة فى المواقف العصيبة التى واجهت مسيرة الحياة ، وهى تخدم الاحساس بالمكان ، وترشد الادراك بالواقع الجغرافى فيه ، من وراء الاجتهاد الذى صنع الفكر الجغرافى العفوى ونمى رصيد خبراته ومعطياته ، وحدد مساره ، من أجل مسيرة سوية للحياة • بل لقد كان هـــذا الفكر الجغرافى العفوى ، وهـو

يخدم التعامل مع الأرض ، ويبصر التعايش مع الواقع الجغرافى من وراء الاجتهاد الانسانى الخاص والعام ، الذى أطلق عنان الابداع ، وصنع الاضافات المفيدة ، وأنتج أدوات الحضارة ، لحساب المسيرة الحياتية المتأنية على الأرض ٠

وصحيح أن الحس الجغرافى الذكى الصادق ، قد اعتصر التدبر من خلال التجارب الحياتية المستمرة وهى تنتصر لارادة الحياة فى المكان ، لكى تتحدد أبعاد العلاقات المكانية فى الزمان بين المكان الموطن فى أضيق دائرة من حول الانسان ، والأماكن الأخرى - المواطن - فى أوسع دائرة تغطيها معرفته على الأرض الموطن الكل الكبير للانسان ٠ ولكن الصحيح أيضا أن الحس الجغرافى الذكى الصادق ، قد استهواه تجسيد الخيال والأمل من خلال التفاعل الحياتى المتجدد ، وهو يطوع الواقع الجغرافى لارادة الحياة ويطوع ارادة الحياة للواقع الجغرافى فى المكان ، لكى يجنى ثمرات المعرفة بالعلاقات المكانية ، بين الأرض الوطن الذى يحتوى الحياة ، والكون الفسيح الذى يحتوى الأرض ، ويشبع ادراكه بمكانة الأرض فى هذا الكون ، وبمكانة وجوده وانتصاره على الأرض ٠

وهكذا قدم الحس الجغرافى الصادق - بحسن استشعاره وبكامل اختياره - ثمرات الاجتهاد بكل السخاء والوفاء ٠ وكان من شأن هذه الثمرات أن تمثل الالهام الذى غرس نواة الفكر الجغرافى العفوى ، بل لقد أضاف هذا الاجتهاد رصيدا أثرى الفكر الجغرافى العفوى وهو يتحمل مسئوليته قبل الحياة وترشيدها فى المكان ، أو وهو يتحسس طريقه السوى ويقدم عونه لمسيرة الحياة ، أو وهو يظاهر وينصر الحياة فى مواجهة الواقع الجغرافى فى أى مكان ٠ وقد كان تحرك الفكر الجغرافى العفوى - فى اعتقادى - على ثلاثة محاور متوازية ، وصولا الى ثلاثة ثمرات على وجه التحديد ٠ ومن شأن هذه الثمرات أن تمثل - فى تصورى - أبعاد الشكل العام الذى حدد محتوى وأهداف وتطلعات الفكر الجغرافى العفوى لحساب الحياة ، بل والحياة الأفضل ٠

هذا وتتمثل هذه الثمرات التى حددت محتوى وأهداف الفكر الجغرافى العفوى على المدى الطويل الذى افتقد فيه الانسان الكتابة ووسائل التسجيل والمحافظة على التراث فى :

١ - **الثمرة الأولى** ، وكانت بالضرورة من وراء الاحساس بسطح

الأرض ، وادراك كل العوامل التى تشترك فى صياغة خصائصه ، ومن وراء استشعار التجربة الحياتية فى حضن المكان الذى يحتوى الحياة ويستجيب لارادتها وفاعليتها بشكل أو بآخر ٠ ومن خلال هذا الاحساس ، ومن خلال هذا الاستشعار تكشفت للانسان أنمــاطا من التحديات التى تواجـه ارادة الحياة فى هذا المكان ، الذى تشبث به لبعض الوقت أحيانا أو الذى عاش فيه لكل الوقت أحيانا أخــرى ٠ وفى أى من الحالتين ، أستلهم الحيلة التى هيأت له الحل أو الحلول التى كفلت صموده فى أحضان هذا المكان ٠

وكان من شأن الخبرة التى استوعبت رصيد الفكر الجغرافى العفوى ، أن تعجم عود هذه التحديات وأن تسبر غورها وأن تحـــدد أبعادها ، لكى ينفتح لها باب الأمل وهى ترشد أو تبصر اجتهاد الانسان ، وهو ينصاع لبعض هذه التحديات أحيانا ويمتثل لارادتها أحيانا ، أو وهو يهيىء الضبط الحاكم لها والمنتصر لارادته عليها أحيانا أخرى٠وسواء امتثل الانسان للتحدى الذى أملاه الواقع الجغرافى فى المكان ، وطوع ذاته وارادته ، لكى يتعايش ، أو أحبط الانسان التحدى وأبطل مفعوله وطوعه لارادته ، لكى ينتصر لحياته فى هذا المكان ، فينبغى أن نتبين كيف تحدد المسار الذى سار فيه الفكر الجغرافى العفوى لحساب الحياة ودعم صيغ المعايشة مع الواقع الجغرافى فى أى مكان ، مسارا واضحا ، وهو يستلهم الصدق والواقعية وحسن الترشيد من الحس الجغرافى الذكى المتفتح ٠

وصحيح أن ثمرات الفكر الجغــرافى العفوى ، قد استهدفت — بكل المرونة — الادراك الكلى والجزئى للخصائص من وراء الواقـــع الجغرافى فى المكان ، وألهمت وبصرت التفاعل الحياتى الإيجابى والسلبى بين الانســـان والأرض فيه ، ورصدت جدوى التأثير المتبادل فى المصارعة بين الانســـان والواقع الجغرافى فى المكان لحساب الحياة ٠ وصحيح أيضــا أن ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، قد أسعفت وبرهنت على حسن أدائها ودعمها تأكيـــدا للحياة وحرصا على استمرار وجـــودها وتأمينها فى أحضـــان أى مكان ، وأسهمت فى صياغة وتشكيل وتنويع أنماط الحياة فى كل مكان ٠ ولـــكن الصحيح أيضا أن ثمرات هذا الفكر الجغرافى العفوى ، قد تابعت — بكل الفطنة — عوامل التغيير على سطح الأرض فى المكان وهى تبدل الأحـــوال وتعدل من مواصفات وخصائص الواقع الجغرافى فى المكان ٠

ومن ثم ينبغى أن نتصور كيف لعبت ثمرات الفكر الجغرافى العفوى دورها الوظيفى بمهارة ، وكيف بصرت الحياة وهى تقبل بهذا التغيير وتقبل

عليه وتستوعبه أو وهى ترفض هـــذا التغيير وتتحرك من المكان الى المكان الأنسب الآخر • وفى أى من هاتين الحالتين ، وهو القبول بالتغير ومعايشـة الواقع الجغرافى فى المكان أو رفض التغيير واستحالة معايشة الواقع الجغرافى فى المكان ، تولى الفكر الجغرافى مهمة ترشيد ودعم اختيار الانسان • بمعنى انه رشد الانسان وهو يقبل على صنع التغيير فى حياته من أجـــل التشبث والبقاء فى المكان ، ورشد الانسان وهو يرفض التغيير ويلتزم بالتحرك الى المكان الأنسب • وهذا معناه أيضا أن الفكر الجغرافى العفوى كان بصـــيرة الحياة المتفتحة لأنه أخذ على عاتقه دائما خدمة الحياة ودعمها فى المكان، بقدر ما أخذ على عاتقه تأمين مسيرة الحياة وتركها وتعايشها مع الواقع الجغرافى فى كل مكان •

وفى اعتقاد أى من الجغرافيين المعاصرين المنصـــفين ، أن الاحســـاس بالمكان الذى يحتوى الحياة ، وأن الادراك الحسى لخصائص وسمات المكان الذى يعطى ويؤمن الحياة ، تمثل أبعـــادا هامة وكاشفة لمفاهيم الفـكر الجغرافى العفوى • قد تعبر تعبيرا جيدا عن آداء هـــذا الفكر الوظيفى ، وهـو يجسد الواقع الجغرافى فى المكان تجسيدا واضحا • وتنبنى عليه بالضرورة المتابعة الذكية واستشعار منطق التغيير فى هذا الواقع الجغرافى ، وكيف يسهم فى تطوير الحياة فى المكان أو كيف ينقلها ويحركها من المكان الى المكان الأفضل•

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعـــاصرين أيضا ، أن الفـكر الجغرافى العفوى عندما تكفل بتجسيد الواقع الجغرافى فى المكان لم يبدأ من فراغ لأنه استلهم الحس الجغرافى • كما أنه لم ينكب على آداء دوره الوظيفى عبثا ، لأنه حقق بالفعل أقصى قدر من الاستجابة لطلب المعرفة التى طلبهـــا الانسان لحساب الحياة فى المكان •

وهكذا نستشعر كيف وقف الفكر الجغرافى العفوى فى صف الانسان وكيف همس فى أذنيه كلما واجه أعباء التحدى فى المكان • وهذا معناه أن اتخذ الانسان من الفكر الجغرافى وأدائه الوظيفى رفيقا يظاهره ، وهو يقبض على زمام الواقع الجغرافى ويؤمن مصيره فى أحضان هذا الواقع فى أى مكان، بل لقد اتخذ الانسان منه أيضا رفيقا يظاهره ، وهو يبصر الحياة التى تدس جذورها فى المكان أو التى تتحرك وتنتقل مطرودة من مكان الى مكان أفضل•

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العفوى الذى جمع أوصالها وتولى صياغتها وليدة التفتح وحسن اســـتخدام

الحس الجغرافى وتدبر ما يستشعره فى أنحاء المكان • وكانت هـذه الثمرة الطيبة — بكل تأكيد — بصيرة الانسان على الأرض ، وهو يتعايش فى أحضان أى مكان أو وهو يتعامل مع الأرض ويطلب الاستجابة منهـا والوفاء لارادة الحياة فى هذا المكان • كما كانت هذه الثمرة الطيبة — بكل تأكيد — دليل الانسان على الأرض ترشد وتقود خطاه ، وهو يضرب فى الدروب ويتحرك طلبا للموطن الأفضل فى المكان الانسب ، أو وهو يتشبث بالأرض ويواجه أعباء التحديات ويحل عقدتها ويبطل مفعولها وينتصر لارادة الحياة فى المكان الأفضل للموطن الأنسب • ومن ثم نتبين — بكل الواقعيـة — كيف اتخذ الانسان من مهمة الفكر الجغرافى الوظيفية سلاحا ، لكى ينتصر لارادة الحياة فى المكان ، أو لكى ينصر انتشار الحياة وتنويع الاستيطان فى كل مكان عـلى الأرض •

٢ — **الثمرة الثانية** ، وكانت بالضرورة من وراء الاحسـاس بمشـقة التجربة الحياتية فى المكان المعين الذى احتوى الموطن الصـغير ، ومن وراء استشعار العلاقات الأصولية بين التجربة الحياتية الذاتية فى المكان المنتخب الذى احتوى على الموطن الصـغير على الأرض ، والتجارب الحياتية العـامة فى الأماكن المنتخبة التى احتوت المواطن فى أنحاء الوطن الكبير الكل الأرض• ومن خلال هذا الاحساس ، ومن خلال هـذا الاستشعار تكشفت للانسان معنى التنوع فى أنماط التعامل مع الأرض لحساب الحياة ، ومعنى الوحدة فى المصير الذى يواجه مسيرة الحياة •

هذا وكان من شأن الحس الجغرافى الذى استلهم ماهية العلاقة الايجابية والسلبية بين الحياة فى المكان والحياة فى الأماكن الأخرى ، واستوحى منطق الاطار الجامع لأنماط الحياة المتنوعة والمنتشرة على صـعيد الأرض ، أن يحفز الفكر الجغرافى العفوى لكى يتدبر معنى وفاعلية المسافة بين المكان والأماكن الأخرى ، ولكى يواجه التحدى الذى يعلنه حاجز المسافة بين أوصال الحياة فى كل مكان • وهذا معنـاه أن الفكر الجغرافى العفوى قد تطلع الى صيغة أو صيغ تحقق معنى وجدوى الانتصار على حاجز المسافة واختراقه ، وصولا الى درجات من الترابط بين أوصال الحياة فى كل مكان ، أو وصولا الى درجة من التكامل والدعم المتبـادل بين التجربة الحياتية فى أى مكان والتجـارب الحياتية الأخرى فى كل مكان على صعيد الأرض •

هكذا فتح الحس الجغرافى الصادق باب الاجتهاد ، عندما حمل الفـكر الجغرافى العفوى مسئولية الاضـافة أو الابداع الذى يسعف الانسـان فى

مواجهة حاجز المسافة . وقد تمثلت هذه الاضافة أو الابداع فى ضبط عامل على اسقاط هـــذا الحاجز واختراقه واحبــاط أو ابطال مفعوله لكيلا تنقطع الصلة بين المكان والأماكن الأخـــرى . وما من شك فى أن حرية التحـرك أو تحرير التحرك لم يكن عبثا أو مقصودا لذات الحـركة ، بل كان من وراء هذا التحرير التطلع الانسانى الى استثمار الاتصال وجنى حصــاد التكامل بين التجارب الحياتية المنتشرة على أوسع مدى فى أنحاء الأرض .

وسواء أفلح هذا الضبط الذى أسفر عنه الفكر الجغرافى العفوى وتبناه ورشده فلاحا كليا ، لكى تنتصر العلاقة والاتصال ويتحرر التحرك ، لحساب التكامل بين أنماط الحياة المتنوعة فى أنحاء الأرض ، أو لم يفلح هذا الضبط فى اسقاط حاجز المسافة واختراقه الا فى حـدود معينة ، فينبغى أن نتبين كيف قاد الفكر الجغرافى العفوى الانسان فى الاتجاه الصحيح ، وكيف ألهمه الوسيلة التى وسعت دائرة تحركه وانتقاله من حول موطنه فى المكان المعين الى موطن الحياة فى الأماكن الأخرى . بل ينبغى أن نتبين أكثر من ذلك وكيف أسفر تحرير التحرك وتوسيع دائرته الانتقـــال عن ادراك حقيقتين هامتين هما ، وحدة الأرض ووحـدة الناس على الأرض . وعنـــدئذ انبرى الفـكر الجغرافى العفوى الى استيعاب هاتين الحقيقتين ، وما ينبنى عليهما معا لحساب الحياة فى كل مكان .

وصحيح أن وعى الفكر الجغرافى العفوى ، قد استلهم من الحس الجغرافى معرفة الكل المتكامل فى اطار جامع يشمل الأرض ووحدة الناس على هـــذه الأرض ، من خلال المعرفة بالجزء المتميز من هذا الكل . وصحيح أن اهتمـام الفكر الجغرافى العفوى بهذا الجزء المتميز من الكل ، قد قوم معنى وكنه وجدوى العلاقة المكانية التى ربطت بين الأجزاء المتباينة ، من مكان الى مكان آخر على الأرض ، من خلال انتشار الاستيطان البشرى على المـدى الواسع وانتقـال نبتة الحيـــاة من موطن الى موطن آخر فى أرجاء الأرض . ولـكن الصحيح أيضا ، أن هذا الفكر الجغرافى العفوى الذى استشعر حقيقة وحـــدة الأرض وحقيقة وحدة الناس ، وتلمس أبعـاد وحدة الحياة ومدى التنوع فى أنماطها وأساليبها ومناهج تعايشها فى سائر المواطن المتنـوعة ، قد تابع ـ بـكل الفطنة ـ أسباب وجدوى التكامل والاتصـال والدعم المتبادل بين الحيـــاة فى الموطن المعين والحياة فى سائر الأوطان على امتـداد الأرض . ومن خلال اسقاط حاجز المسافة واختراقه فى البر والبحر ، تولى هذا الفـكر ترشيد الخبرة التى تولت أمر التحرك والانتقـال من المكان الى المكان الآخـر . كما

تولى بالضرورة تهيئة الدعم المتبـادل بين الحيـاة المنتشرة على المدى الواسع فى أرجاء الأرض ٠

وهكذا استشعر الفكر الجغرافى العفوى مسئوليته وأداء دوره الوظيفى ، وهو يخدم المصلحة المشتركة للحياة ، لكى يؤمن مصيرها ويشـد أزرها ، وينمى انتفاعها بالدعم المتبـادل بين المكان والمكان الآخـر ، أو بين الموطن والموطن الآخر ، لحساب الناس كل الناس فى الأرض كل الأرض ٠ بل لقد أصبح من شأن الفكر الجغرافى العفوى الذى صاحب مسيرة الحيـاة وأخذ على عاتقه مهمة استيعاب وترشيد المصلحة المشتركة للحياة فى أرجاء الأرض ، أن يأخذ بالانفتاح ومنطق الأخـذ والعطاء ، لكى يحقق أهدافه ويؤدى دوره الوظيفى البنـاء ، وأن يرفض الانغـلاق ومنطق الانطواء والتقوقع الـذى لا يخدم التكامل بين المـكان والمكان الآخر ، ولا يتوافق مع التسليم بوحدة الأرض ووحدة الناس على امتداد الأرض ٠

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن حسن استخدام الحس الجغرافى الذكى الـذى لا يضل ولا يضلل ، من أجل ادراك موضوعى للواقع الجغرافى فى الكل من خلال الواقع الجغرافى فى الجزء على الأرض ، ومن أجل استشعار التكامل الذى يجمع شمل الأجزاء المتباينة والمتبـاعدة فى اطار الكل الشامل للأرض ، كان — بكل تأكيد — من وراء التـدبر والتفكير وشحذ العقل الذى أسفر عن الفـكر الجغرافى العفوى وتسخير انجازه لدعم ومظاهرة التعايش فى أى مكان ٠

وفى اعتقـاد أى منصف من الجغرافيين المعـاصرين أيضا ، أن حسن استخدام الحس الجغرافى الـذى لا يضل ولا يضلل ، من أجل استشعار كنه وماهية وحدة الأصل الذى يجمع شمل الناس والبناء البشرى على امتـداد الأرض ، ومن أجل ادراك جدوى الانفتـاح والتفتح الكاشف عن موضـوعية وأهمية العلاقات بين الناس فى المكان والنـاس فى كل مكان على الأرض ، كان — بكل تأكيد — من وراء التدبر والتفكير وشحذ العقل الذى أسفر عن الفـكر الجغرافى العفوى وتسـخير دوره الوظيفى وأدائه التلقائى ، لحسـاب الحياة فى كل مكان ٠

هذا ولقد كان من شأن هذا الفكر الجغرافى ودوره الوظيفى ، أن يفلح فى مغزاه ومرماه الى حد كبير ٠ ذلك لأنه لم يتأت إلا من خلال استيعاب كنه وماهية جدوى حقائق أصولية ترتكز اليها النتائج التى يصل اليهـا التدبر والتفكير ٠ وتتمثل هذه الحقائق فى :

(أ) الحقائق الأصولية التى أنبأت بوحدة الأرض من حيث النشـــأة والتكوين ، بصرف النظر عن مدى التنوع والتباين بين خصائص المكان والمكان الآخر ٠

(ب) الحقائق الأصولية التى أنبأت بوحـــدة الناس من حيث الأصل والمصـــير ، بصرف النظر عن مدى التنـــوع والتباين بين الناس والناس فى أحضان الأوطان المتميزة على امتداد الأرض ٠

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، الذى جمع أوصالهـــا وتولى صياغتها ، ولبـــدة الانفتاح وحسن استخدام الحس الجغرافى وتدبر ما يستشعره عن كل الأرض وكل الناس ٠ وكانت هذه الثمرة الطيبة — بكل تأكيد — بصيرة الانسان التى لم تضلله ، عندما انفتح من خلال رؤية الجزء الذى يحتوى موطنه على الأرض على تصور شمل الكل الذى يضم الأوطان الجامعة شمل كل الناس فى أرجاء الأرض٠كما كانت هذه الثمرة الطيبة — بكل تأكيد — أيضا دليل الانسان الذى لم يخطىء عنـــدما استشعر من خلال استيعاب وتدبر العـــلاقة بين الجزء والكل معنى وجدوى المصلحة المشتركة للحياة على الأرض ٠ وكيف تكون مطلوبة وحاسمة لحساب وحدة المصير الذى يشترك فيه الناس فى كل أنحاء الأرض ٠ ومن ثم يمكن أن نتبين — بكل الواقعية — كيف اتخذ الانســـان من مهمة الفـــكر الجغرافى العفوى ودوره الوظيفى سلاحا ، لكى ينتصر لارادة الحياة ، ولـــكى يبصر ويرشد وجوده بجدوى المنطق الذى ينتصر لوحـــدة الناس ومصلحة الحياة المشتركة فى الاطار الجامع الذى يتمثل فى وحدة الأرض ٠

٣ — **والثمرة الثالثة** ، كانت بالضرورة من وراء الاحســـاس ، بوضع الأرض التى احتوت الحياة ، فى أحضان الكون الفسيح الذى يطوقها بأنواع متنـــوعة من الأجرام السماوية ، ومن وراء استشعار شـــكل أو أشكال من العلاقة المنطقية بين الأرض والكون ٠ ومن خلال هذا الاحساس الذى شـــد البصر الى السماء والتطلع الى أبعادها الفسيحة وهى صافية ، من خـــلال معاينة الأجرام فى مواضعها ومتـــابعة تحركاتها فى مسالكها ، ومن خـــلال الانفتـــاح والتفتح على ما ينبىء بالـــكون وماهيته من حول الأرض ، كان الابصار والرؤية وكانت البصـــيرة والتأمل وسيلة الانسان لكى يتـــدبر ويستنفر الحس الجغرافى ، وصـــولا الى استشعار وضع الأرض فى الكون ، والى استطلاع علاقة الأرض بالكون ، والى ادراك مكانة الأرض فى الكون ٠

هذا ولقد كان من شـــأن الحس الجغرافى الصادق أن يستجيب لارادة التدبر ويشبع حاجتها لارضاء شهوة المعرفة • بل وكان من شأنه أيضا أن يسعف الانسان وينتشله من الفزع الذى انتــابه كلما تغيرت الأحوال من حوله في السماء ، وهي تزمجر بالغضب أحيـــانا أو وهى تصفو بالبشاشة أحيانا أخرى ، أو كلما تغيرت أوضـــاع الشمس والقمر والأجرام فى قبة السماء ، وهي مشرقة بنور وضاء أو وهى آفلة بظلمة حالكة • وهل للحياة حيلة غير أن تسأل الحس الجغرافى لكى يبصر التدبر والتفكير فى أمر هـــذا الكون وتقلباته التى تفزعها حينا وتؤمنها أحيانا أخرى ؟

وهكذا كا نعلى الحس الجغرافى فى الانسان أن يستوعب - بكل الفطنة - مكان الأرض فى الكون ، وأن يتحسس - بـكل الموضوعية - علاقة الأرض بالكون ، وأن يتصور - بكل الوعى - مكانة الأرض فى الكون ، لكى يبصر التدبر ويرشد التفكير فى أمر هذا الكون الفسيح من حول الأرض • وهذا معناه أن الفكر الجغرافى العفوى قد تبنى أمر هذا الكون • وربما تطلع الى كشف غموض الكون وبيـــان جدوى تأثير الأجرام السماوية فى الكون على الحياة ووقع خطوات مسيرتها وتنوع مكانتها على الأرض • وأضاف هـــذا الاهتمام الى رصيد الفـكر الجغرافى العفوى اضـــافة مفيدة على الكون ، على اعتبار أنها تخدم وجود الانســـان وتؤمن فزع الحيـــاة من غضب وزمجرة السماء •

ويبدو أن رصيد الفكر الجغرافى العفوى الذى تحمس للمعرفة بالكون ، قد حفز الانسان لأن يتصور الأرض وكيف أنهـــا تحتل أو تشغل المركز القلب النابض من الكون • وربما فشل فى نفس الوقت فى تأمين الانســـان وفزعه من غضبة السماء التى يزمجر بها الكون • بمعنى أنه بث فى الحياة روح ومنطق الاستعلاء وهو يتدبر أمر الكون من حول الأرض ، وأنه لم يبث الأمن أو يشيع الطمأنينة لحساب الحيـــاة التى تتخوف وتفزع من التقلبات فى الكون •

وربما ذهب الفكر الجغرافى برؤية الانسان وتدبره فى أمر الكون الى حد تجاوز منطق الاستعلاء بالذات ، لكى يتصور كيف كان الكون لــكى تكون الأرض ، وكيف كانت الأرض لكى تكون الحياة على الأرض ، وكيف كانت الحياة على الأرض ، لكى يكون الانسان سيدا فى الأرض • بمعنى أنه من أجل الانسان كانت الحياة ومن أجل الحيـــاة كانت الأرض ، ومن أجل الأرض كان الكون • وسواء أصاب الانسان وهو يقدح فكرة الجغرافى أو أخفق فى

هذا التصور النابع من الذات ، فينبغي أن نستشعر كيف صاغ أو صنع هذا التصور الذاتي النزعة مسارا واضحا تحرك فيه التفكير الجغرافي تحركا متخبطا ، لحساب ذاتية الحياة على الأرض أو لحساب أنانية الانسان على الأرض في اطار الكون العظيم من حوله ٠

وصحيح أن حسن استخدام الحس الجغرافي الصادق قد ألهم الفكر الجغرافي العفوي ، وهو يرصد الاطار الجامع لامتداد الكون الفسيح من حول الأرض ٠ وصحيح أيضا أن حسن استخدام الحس الجغرافي الصادق قد أشبع الفكر الجغرافي العفوي وساند خطاه ، وهو يتدبر وضع الأرض في مكانها في المركز القلب من الكون ٠ ولكن الصحيح - بكل تأكيد - أيضا أن حسن استخدام الحس الجغرافي الصادق قد بصر وحفز الفكر الجغرافي العفوي ، لكي يحدد معنى ومغزى وقيمة العلاقة بين الأرض والأجرام السماوية في الكون الفسيح ٠ وربما كان ذلك من وراء القفزة الفكرية التي استثمرت هذه العلاقة السرمدية ، من خلال استشعار كنه القوة أو القوى الخفية أو من خلال غرس نبتة العقيدة المؤمنة بفاعلية وقدرة هذه القوى ومدى تأثيرها على نبض الحياة وكينونتها ومصيرها في المكان وفي الزمان على الأرض ٠

وهكذا ينبغي أن نتبين - بكل الوضوح - كيف تابع الفكر الجغرافي العفوي ، من خلال انفتاح الحس الجغرافي على السماء والتطلع الى الأجرام السماوية ، والتأمل في حركتها ومدى انتظامها ورتباتها ، مهمته لكي يشبع نهم الانسان الى معرفة المجهول الذي يفزعه حينا ويذهله أحيانا أخرى ٠ كما ينبغي أن نتبين - بكل الفطنة - أيضا ، كيف تفتقت مهمة الفكر الجغرافي العفوي ، من خلال مطالعة قبة السماء ، عن استشعار فاعلية وجدوى كل الضوابط والسنن الحاكمة للحركة السرمدية في الكون الفسيح الغامض من حول الأرض ٠ ومن المؤكد أنه غفل عن الفكر ادراك واقعي صحيح يصور كنه وماهية هذه الضوابط والسنن الحاكمة ، ولكنه استل منها تصورات مبهمة غريبة تلعب دورا غير مرئي في مصير الحياة على الأرض ٠

وبصرف النظر عن مدى الخلط الشديد بين رصيد الفكر الجغرافي العفوي عن المعرفة بالكون ، وعن التنجيم ومطالعة الحظ ، وعن نبتة الاعتقاد في قوى الخير والشر في جوف هذا الكون ، نستشعر كيف أخذ التفكير على عاتقه مسئولية التدبر في أمر الكون ومسئولية تلمس العلاقة بين الأرض وما عليها والسماء وما فيها ، لحساب الحياة ٠ ومن ثم كان تشبث الانسان

بالانفتاح على قبة السماء دائما مطلبا يحفز الفكر الجغرافى العفوى لكشف غموض المجهول فيها الذى يفزعه ، ولتطويع الحركة فيها لحساب الزمان الذى يطوى صفحات الحياة . بل لقد أبى الانسان أن ينطوى الفكر الجغرافى العفوى انطواء يصرف معاينته عن قبة السماء ، وينكر أو يتنكر لجدوى الاستطلاع الفلكى فى خدمة الحياة على الأرض .

وفى اعتقاد أى من الجغرافيين المعاصرين المنصفين ، أن الاحساس بالاطار الجامع للكون كله من حول الأرض ، واستشعار الفزع من المجهول الذى يزأر بالغضب أو يشرق بالصفاء ، واستطلاع كنه ومغزى العلاقة بين الأرض وما عليها من نبض الحياة والسماء وما تحتويه من أجرام ، تمثل أبعادا هامة وكاشفة لاهتمام وتدبر تولى أمره الفكر الجغرافى العفوى . وولاية الأمر من شأنها عندئذ أن تعبر عن أداء وظيفى يتسم بالقدرة على التخيل أولا وتجسيد هذا التخيل ثانيا بصرف النظر عن مدى الأخطاء التى تردى فيها وهو يكشف النقاب عن المجهول فى الكون .

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين أيضا ، أن الفكر الفكر الجغرافى عندما تكفل بتدبر أمر الكون وتجسيد تخيله عن هذا الكون لم يبدأ من فراغ لأنه استلهم - فى الحقيقة - الحس الجغرافى الذى علق استشعاره بقبة السماء وتابع زئير الغضب حينا واشراقة الصفاء حينا آخر . كما أنه لم ينكب على أداء دوره الوظيفى عبثا ، لأنه قد حقق بالفعل أقصى قدر من وضوح التصور لكنه وماهية الكون استجابة لتطلع الحياة الى كشف النقاب عن المجهول فى الكون .

وهكذا نستشعر كيف وقف الفكر الجغرافى العفوى فى صف ارادة الانسان وكيف صور له ما وراء قوى الطبيعة التى تشرق بالصفاء وتزمجر بالغضب . ومن غير أن يبدد عنه الفزع ، ربما أفلح الفكر الجغرافى العفوى أيضا فى أن يغرس فى قلب الانسان نبتة العقيدة التى تتخوف من القوة الخفية المتخفية فيما وراء قوى الطبيعة الشريرة والخيرة . وما كان لهذا الدور الوظيفى أن يفلح لولا أن تأتى بالفعل من خلال استيعاب كنه وجدوى السنن الكونية التى حددت مكان ومكانة الأرض فى الكون الفسيح ، وصورت موضعها وهى تحتوى نبض الحياة بين أجرام السماء .

وبهذا المنطق الموضوعى ، كانت هذه الثمرة من ثمرات الفكر الجغرافى العفوى ، والتى جمع أوصالها وتولى صياغتها التدبر ، وليدة حسن استخدام

الحس الجغرافى الذكى • ولقد كانت ـ من غير شك ـ بصيرة الانسان التى لا تضلله وهـــو يتطلع بالأمل الى السماء من فوق رأسه ، لـكى يتحسس مصلحة الحياة فى العلاقة المعنية بأجرام السماء والتى تجسدت فى الضوء والحرارة والمطر ، ولكى يستشعر هـــذه المنح السخية من السماء وأجرام السماء وكيف تدعم الحياة وتشد أزرها وتؤمن حاجاتها فى أحضان الأرض• كما كانت ـ من غير شك ـ أيضا رفيقة الانسان التى لا تضلله وهو يتطلع بالخوف والفـــزع الى السماء من فوق رأسه ، لـكى يتحسس غضبة قوى الطبيعة التى تتجسد فى زمجرة وزئير وبريق يخطف الابصـــار وصواعق حارقة مدمرة ولكى يستشعر هذه النقم التى تفزع وتهدد بها السماء مصلحة الحياة فى أحضان الأرض • كما كانت هذه القوة أيضا ـ ومن غير شك ـ دليل الانسان الذى لا يكذب عليه وهو يلتمس رضا وعون القوة الخفية التى تفجر تقلبات السماء وتحولها من عطاء النعم مدرارا الى صب النقم والبلايا• ومن ثم يمكن أن نتبين ـ بكل الوضوح ـ كيف أخذ الفكر الجغرافى العفوى بيد الحياة وكيف تحمل مسئولية التدبر وهو ينفتح بكل التفتح على حصاد الحس الجغرافى الذى يرقب السماء ويتطلع الى الكون الفسيح ، بالمنطق الذى انتصر لمصلحة الحياة فى رصد العلاقة بين الأرض والكون من حولها •

— — — — — — — — — — — —

هكذا كانت ارادة الحيـــاة فى المكان على الأرض ، وفى أى مكان على امتداد الأرض ، والتى تزودت بالحس الجغرافى وأحسنت استخدامه ، من وراء حفز التدبر والتفكير ، الذى فجر الفكر الجغرافى العفوى الذى يسعفه فى مواجهة أعباء الحياة • كما كانت حقيقة الموت التى تنهى حياة كل انسان فى كل مكان عـــلى الأرض من وراء حفز التدبر والتفكير الذى فجر الفـكر التاريخى العفوى ، الذى يرقب ويعالج تقدم وتجدد مسيرة الحياة •

ومن قبيل الاستجابة لارادة الحياة والتشبث بها والتطلع الى التطويع المتبادل بين الانسان والأرض ، كانت الرغبة فى معرفة الواقع الطبيعى فى المكان الذى يحتوى الحياة فى أضيق دائرة من حول الانسان ، وفى أوسع دائرة من حول كل الناس • وتطلع الفكر والاجتهاد عندئذ الى دراسة واقعية كاشفة ، تصور المسرح الذى يستجيب لارادة الحياة •

وعندما يتطلع الفكر الانسانى ـ بكل الاجتهاد ـ الى معـرفة المكان ، لأن الانسان يتشبث بالحياة ويتشوق الى دعم عطـــاء واستجابة الأرض فى

المكان لها ، ويتلمس الضوابط الحاكمة للتفاعل الحياتى الديناميكى بينه وبين الأرض لحساب الحياة ، يتجه هذا الفكر الذى استثمر الحس الجغرافى فى الاتجاه الجغرافى • وهو - من غير شك - الاتجاه الهادف الذى يسفر عن نتائج طيبة وعطاء مفيد ، يخدم ارادة الحياة وانجاح تعايشها مع الواقع الجغرافى فى المكان • بل انه السبيل الأمثل الذى يسعف الانسان ، وهو يمسك بزمام الأرض ويطوعها ، أو وهو يعمل من أجل تأمين حق الحياة فى الأرض •

ومن قبيل الاستجابة لحقيقة الموت والانصياع لها لكى تتجدد الحياة ، كانت الرغبة فى حساب الزمان الذى يمضى وتمضى معه فصول قصة أو مسيرة الحياة فى حدود أقصر مدى لحياة الانسان ، أو فى حدود مدى الحياة الانسانية كلها • وتطلع الفكر والاجتهاد - عندئذ - الى دراسة التطور الكاشف الذى يصور استمرار وتجدد قصة الحياة ، وكيف يطويها أو يطوى صفحاتها الزمان بقدر ما تطويه •

وعندما يتطلع الفكر الانسانى - بكل الاجتهاد - الى حساب الزمان ، لأن الانسان يستشعر الوقت الذى يفصل بين ولادة الحياة ونهاية الحياة ، ويتلمس الضوابط الحاكمة لتجدد نبض الحياة واستمرار مسيرتها ، ويتشبث برصد الفصول التى تحكى فصول أو سياق قصة الحياة وتجددها من خلال الترابط بين السلف والخلف ، يتجه هذا الفكر الذى استثمر الحس التاريخى فى الاتجاه التاريخى • وهو - من غير شك - الاتجاه الهادف الذى يسفر عن نتائج طيبة وعطاء مفيد يخدم ارادة استمرار ومواصلة الحياة وانجاح تجددها فى الزمان • بل انه السبيل الأمثل الذى يسعف الانسان ، وهو يتابع صفحات الحياة التى يطويها الزمان لكى تتجدد من زمان الى زمان آخر •

وهكذا ولد الحس مع ولادة الانسان على الأرض • وكان له - بكل تأكيد - وجهين مختلفين اختلافا جوهريا • وجه تطلع بكل اللهفة الى استشعار قيمة المكان فى الزمان ووجه قطاعا من الفكر لكى يصبح فكرا جغرافيا • ووجه آخر تطلع بكل الاهتمام الى استشعار حركة الزمان فى المكان ووجه قطاعا من الفكر لكى يصبح فكرا تاريخيا • ومن الطبيعى أن تبدأ مسيرة الفكر الجغرافى قبل أن تبدأ مسيرة الفكر التاريخى لأن استشعار قيمة المكان فى الزمان لحساب الحياة سبق استشعار حركة الزمان فى المكان لحساب مسيرة تجدد الحياة • ومع ذلك لا ينبغى أن نغفل العلاقة

الأصولية بين هذين الوجهين المختلفين أو بين الفكر الجغرافى العفوى والفكر التاريخى العفوى . ومن الجائز - فعلا - ألا تكون هذه العلاقة عضوية فى الأصل ، ولكنها - بكل تأكيد - علاقة موضوعية الى أبعد الحدود .

هذا ولا ينبغى أن ينكر أى جغرافى معاصر منصف موضوعية هذه العلاقة بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، أو أن يتنكر لكنهها وماهيتها وجدوها . ذلك أن دراسة المكان تصور القاعدة أو المسرح الذى يشهد ديناميكية الحياة فى الزمان ، وأن دراسة الزمان تصور السياق أو التطور الذى يشهد فصول قصة الحياة فى المكان . ولأن الانسان يحيا ويتشبث بدعم أسباب الحياة فى المكان ، فينبغى أن يفكر الانسان جغرافيا ، لكى يتبين كيف تكون فرصة الوجود . بمعنى أن التفكير الجغرافى يكون مطلوبا وهادفا ، لتأمين التعايش مع الواقع الجغرافى فى أحضان أى مكان على الأرض . ولأن العمر يمضى وينتهى الموت فصلا من فصول الحياة مع مرور الزمان ، فينبغى أن يفكر الانسان تاريخيا ، لكى يتبين كيف يطوى الزمان صفحات الحياة ويشهد تجدد الحياة . بمعنى أن التفكير التاريخى يكون مطلوبا وهادفا ، لتأمين استمرار فصة التعايش مع الواقع الجغرافى فى أى مكان على الأرض .

ومن شأن العلاقة الموضوعية بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى فى أى مرحلة من مراحل المسيرة ، أن تتجلى من خلال استشعار الضوابط الحاكمة للصلة الواقعية بين الحياة والموت . وهى - من غير شك - علاقة مصير لا ينبغى أن تنفصم . وكيف نتصور أنها علاقة يمكن أن تنفصم وهى كاشفة عن صلة بين استشعار المكان الذى يحتوى الحياة فى الزمان المعين ، واستشعار الزمان الذى يشهدد تجدد الحياة فى المكان المعين . وهل تولد الحياة الا لأنها تموت ؟ وهل يموت الانسان الا لأنه يحيا ؟ والموت بحق لا يوقف العجلة الدوارة بحركة ومسيرة الحياة من زمان الى زمان آخر .

وهكذا عاش الفكر الجغرافى - تأسيسا على موضوعية هذه العلاقة - قبل أن يكون مكتوبا ، وحتى بعد أن أصبح فكرا مكتوبا ، عاش متداخلا ومخلوطا مع الفكر التاريخى . بل ان الخلط والتداخل بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، لكى يمتزج الاحساس بالمكان مع الاحساس بالزمان لحساب التعايش واستمراره فى المكان والزمان يمثل أمرا حيويا . وحتى عندما يتطور التفكير ويتوالى الابداع ، وعندما ترفض الصفوة الرائدة على رأس مسيرة كل من الفكر الجغرافى والفكر التاريخى الخلط والتداخل وتتلمس الخيط

الرفيع الفاصل بينهما ، يظل الفكر الجغرافى فى خدمة الفكر التاريخى يبصره ويرشد اجتهاده بدور العامل الجغرافى من وراء حركة الأحداث ونتائجها ٠

وهذا معناه مرة أخرى ، أن الفكر الانسانى الذى فجره الحس والادراك فى مواجهة المواقف الصعبة بحثا عن الحيلة أو الوسيلة ، قد تبنى من خلال الاحساس بالمكان ومعرفته ، ومن خلال الاحساس بالزمان وحسابه ، أهداف الانسان ٠ والتبنى معناه أن يبصر مصيره ويحقق مصلحته وينصر وجوده ، فى أحضان الواقع فى المكان وهو يعيش ، أو فى سياق حركة الزمان ، وهو يطوى صفحات الحياة لكى يواصل التعايش فى أحضان الواقع المتغير فى المكان ٠ ولكن هل ينبغى أن نتوقع عندئذ أن تكون بداية الفكر الجغرافى والفكر التاريخى بداية مشتركة ومتزامنة فى وقت واحد ؟ وهل صحيح أن هذا الفكر يكون فكرا عفويا ونابعا من الذات الانسانية بكل التلقائية ؟

وصحيح أن الكل يصور لنا ، كيف كانت مسيرة الفكر الجغرافى فى خدمة مسيرة الفكر التاريخى ٠ وصحيح أن الكل يصور لنا الفكر الجغرافى فى مرحلة ما بعد الانسلاخ قد لعب دور المعلم والرائد الذى بصر ورشد مسيرة الفكر التاريخى ٠ وصحيح أن البعض يصور لنا كيف أن حصاد الفكر الجغرافى فى الزمن الحاضر هو موضع اهتمام الفكر التاريخى فى المستقبل ٠ وصحيح أن البعض يصور لنا كيف أن الجغرافية هى تاريخ اليوم ، وأن التاريخ هو جغرافية الماضى ٠ ولكن الصحيح أيضا ـ بكل تأكيد ـ هو :

أولا ـ أن حصاد الفكر الجغرافى حصاد مفيد مثمر ، يعيه الانسان ويستوعبه ويستثمره ويعمل بموجبه ، لحساب الحياة فى أى مكان ، من غير حاجة ـ بالضرورة ـ لأن يكون هذا الحصاد حصادا مسجلا أو مكتوبا ٠ بمعنى أنه خبرة تكتسب ترشد الحياة وتشد أزرها وتورث هذه الخبرة انحدارا من جيل الى جيل آخر ٠

ثانيا ـ أن حصاد الفكر التاريخى حصاد مفيد ومثمر ، تحتويه قصة وترويه حكاية ٠ وقد يتعرض لاضافات وتضخيم أو لحذف وتشويه بقصد أو من غير قصد ٠ وهذا معناه أنه لا يكون مثمرا وموثوقا به الا اذا ابتكر الانسان ، وسيلة لحساب الزمان لضبط التسلل الدقيق الذى يحكى فى سياق رتيب حركة ومسيرة قصة الحياة ، ووسيلة للتسجيل لتأمين السياق وحركة الأحداث التى تحتويها قصة أو حكاية الحياة ٠

وهكذا ، يمكن أن يكون الفكر الجغرافى فكرا عفويا ينبع من الذات بكل التلقائية لكى تحتويه الخبرة بالمكان والتعايش فيه بل ويمكن أن يعيش هذا الفكر الجغرافى عفويا ، وان ينتقل حصاده من جيل الى جيل آخر ، فلا يشوهه التوريث ولا يفرط فيه الانسان لأنه يبصر الحياة فى المكان • أما الفكر التاريخى الذى يمكن أن يكون عفويا فلا ينبغى أن نثق فيه أو نبحث عن حصاده ، لأن انتقاله بالرواية من جيل الى جيل آخر ، يشوهه ويفرط فى تسلسل السياق الرتيب أو المنضبط الذى يحكيه •

وفى اعتقادى - على كل حال - بل وفى اعتقاد كل منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن حصاد الفكر الجغرافى العفوى ، الذى يكون من وراء تطويع المكان للحياة ، وتطويع الحياة للمكان ، ينبغى أن تنتظمه مسيرة وينبغى أن تبدأ هذه المسيرة من غير حاجة ملحة الى التسجيل والكتابة • وهذا معناه أن مسيرة الفكر الجغرافى العفوى قبل ابداع التسجيل تتكشف من خلال انحدار وتوريث حصادها من جيل الى جيل آخر ومن خلال استيعاب هذا الحصاد والانتفاع به فى مواجهة أعباء الحياة ، بل ان بداية مسيرة الفكر الجغرافى المكتوب كانت من حيث انتهت مسيرة الفكر الجغرافى العفوى غير المكتوب •

وفى اعتقادى أيضا أن الحس التاريخى قد فجر الفكر التاريخى وأن هذا الفكر قد أعطى حصادا بكل تأكيد أشبع نهم الانسان الى تصور سياق حركة الحياة • ولكن الذى لا شك فيه أن هذا الحصاد لم يهيىء للفكر التاريخى مسيرة تنتظمه • ذلك أن حصاد هذا الفكر الذى احتوته القصة أو الحكاية ونقلته الرواية وعرضته للتشويه بقصد أو من غير قصد لا يفلح فى صياغة مسيرة • وما من شك أن هذا الحصاد كان أحوج ما يكون الى التسجيل والكتابة لكى تصونه وتحفظ سياقه وتحقق مصلحة الانسان فى حساب حركة الحياة فى الزمان •

وولادة الفكر الجغرافى الذى أسفرت عنه استخدامات الحس الجغرافى ولادة مبكرة مع ميلاد الحياة على الأرض ، مسألة يجب أن تلفت الانتباه • بل قد لا تستحق الجدل بحثا عن الدليل • ذلك أن الحس الجغرافى الذى كان بمثابة النافذة التى أطل من خلالها الانسان على المكان الذى يحتويه ، لكى يتحسس أبعاده ويستشعر خصائصه ولكى يتلمس الضوابط الحاكمة للانتفاع بالأرض فيه ، قد حفز التدبر والتفكير الذى أشرق بنوره وأثمر بحصاده الفكر الجغرافى •

وهذا المعنى يقود الى تصور كيف يولد الانسان جغرافيا بحسه ، لكى تتكشف له أبعاد المسرح الذى يجب أن تستوعبه الحياة من أجل أن يتسع ويستوعب ويستجيب للحياة · بل ولكى تتكشف له أيضا قدرات المسرح الذى يجب أن تستخدمه الحياة من أجل أن يعطى للحياة · ومعنى ذلك أيضا أن الفكر العفوى رفيق عمر الحياة قد بدأ فكرا بالطبع فى ضمير الانسان قبل أن يصبح فكرا مجردا بالتخصص فى عقلية الانسان ·

وفى اعتقاد أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن دور الحس الجغرافى فى ولادة ونشأة الفكر الجغرافى مع ولادة الحياة على الأرض ، كان دورا طبيعيا · بل أن دور هذا الحس الجغرافى وهو يوجه الفكر الجغرافى فى الوجهة المفيدة التى تخدم الحياة فى المكان وتحدد علاقة المكان بالمكان ، وتقوم التفاعل الحياتى بين الناس والأرض ، لحساب الحياة ، كان دورا منطقيا · ومنطقية هذا الدور وطبيعته ، تنبنى على ادراك كيف تطلعت الحياة دائما الى البصيرة قبل البصر والى التأمل قبل الأمل لكى تؤمن ذاتها فى أحضان المكان على الأرض ·

وصحيح أن البحث يفتقد الدليل المادى الكاشف عن كنه وماهية الفكر الجغرافى المولود مع ميلاد الحياة ، لأن الانسان لم يمتلك الوسيلة لتسجيل نبضات هذا الفكر عن المكان أو بصمات اجتهاده وترشيده فى المكان ، الا بعد مسيرة طويلة وتفاعل بناء مثمر ثبتت جذور الحياة فى المكان · ولكن الصحيح أيضا أن هذا التفاعل المثمر الذى أسفر عن تثبيت الجذور ودعم وجود الحياة فى أى مكان ، لا يمكن يتأتى أو لا يمكن أن يسلم زمام الانتفاع بالأرض للحياة ، الا اذا كان الفكر الجغرافى قد بصرها فى المكان وهداها ورشد صمودها للتحديات التى أعلنتها الأرض فى المكان · والا فكيف طوع الانسان هذه التحديات ؟ وكيف أبطل مفعولها وأحبطها ومكن وأمن وجوده فى الأرض فى كل مكان ؟

هكذا تفتق اجتهاد الانسان عن استخدام الحس الجغرافى ، وتسخيره تسخيرا وضع الأساس والقاعدة الأصلية للفكر الجغرافى من ناحية ، وحدد معالم الطريق الذى اجتازته مسيرة هذا الفكر الجغرافى من ناحية أخرى · وقد اعتمد الانسان على الفكر الجغرافى فى مواجهة أعباء الحياة فى أى مكان ، وهو يستخدم الأرض ويطلب منها أن تعطيه وأن تستجيب لارادة الحياة ، قبل أن يعرف التسجيل أو الكتابة · ومن شأن الاعتماد على حصاد فكر غير مكتوب يشد أزر الحياة ويبصرها ، أن يصور مدى الترابط العضوى بين

الحس الجغرافى وهو يستشعر خصائص المكان ، والفكر صاحب هذا الحصاد ، وهو يخدم ويبصر الحياة فى هذا المكان • بل ان الترابط أو العلاقة العفوية بين الحس الجغرافى والفكر الجغرافى علامة على أن هذا الفكر قد نبع من ذات الناس وانطلق من احساسهم وهم أصحاب المصلحة فيه عندما يتشبثون بأسباب انتصار الحياة فى المكان • وقد نقول أن استشعار الحس الجغرافى يعطى حصادا بالقوة وأن تدبر الفكر الجغرافى يحول هذا العطاء الى حصاد بالفعل •

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور كيف نفتقد التسجيل الذى يصور أو يجسد الفكر الجغرافى المولود ولادة طبيعية مع ميلاد الانسان على الأرض ، ولكن الذى لا ينبغى أن نفتقده هو الحصاد والنتائج والثمرات التى تصور كيف رافق هذا الفكر مسيرة الحياة ، وكيف كان بصيرة الانسان فى أى مكان ودليل التحرك والانتقال من المكان الى المكان الآخر • وصحيح أن هذا الفكر الجغرافى كان بسيطا وعفويا ، ببساطة أنماط الحياة وما تتطلع اليه من ضرورات فى أى مكان • ولكن الصحيح أيضا أنه سلم الانسان زمام مصيره وساند صراعه ، لكى يعايش الواقع وتستجيب له الأرض فى المكان•

وبهذا المنطق أيضا ، يجب أن نتصور كيف ولد الفكر مع ميلاد الانسان ، وكيف وجهته ارادة التعايش مع الواقع فى المكان هذا الفكر فى الاتجاه الجغرافى • كما يجب أن نتصور كيف عاش حصاد هذا الفكر الجغرافى فى ضمير الانسان على المدى الطويل لكى يبصره ، منذ أن عاش أو تعايش الانسان فى المكان وانتصر لحساب الحياة • ومن ثم ينبغى أن ننتهى الى :

(أ) أنه طالما كان الانسان موجودا فى المكان على الأرض ، فانه يلتزم بتدبر ما يستشعره الحس ويتولى العقل افراز الفكر الذى يدلل على وجوده •

(ب) أنه طالما كان الانسان موجودا فى آحضان الواقع الجغرافى فى المكان على الأرض ، فانه يلتزم بتدبر ما يستشعره الحس الجغرافى ، ويتولى العقل عندئذ افراز الفكر الجغرافى الذى يدلل على سعيه واجتهاده لكى يطوع الواقع لحياته ويطوع حياته للواقع ويدعم وجوده •

وافتقاد الوعاء الذى يحتوى على الفكر الجغرافى العفوى ويجسد حصاده وافتقاد الأسلوب الذى يسجل نبضه واجتهاده لحساب ترشيد الحياة فى المكان شىء ، لا يجب أن يتعارض مع وجود هذا الفكر فى ضمير الانسان ، أو مع رصد البصمات التى تعلن عنه ، أو مع ثمرات استخدامه التى رشدت التعايش مع الواقع الجغرافى فى المكان • ومن غير أن نعتصر كل النتائج الباهرة التى حققها اجتهاد الانسان ، وهو يقبض على زمام مصيره فى المكان ، ومن غير أن نتبين الاجتهاد الدؤوب الذى بذله الانسان ، وهو يجنى ثمرات معرفته بالمكان ، ومن غير أن نتلمس النجاح الذى حققه الانسان ، وهو يتعايش مع الواقع الجغرافى للمكان ، لا يمكن أن نستشعر دور الحس الجغرافى ، وهو يوجه الفكر فى الاتجاه الجغرافى • كما لا يمكن أن نستشعر دور الاتجاه الجغرافى وهو يرسخ قاعدة الفكر الجغرافى العفوى ، من غير أن نتصور عطاء هذا الفكر وهو يسعف الانسان وانتصاره فى المكان •

وهكذا بدأت مسيرة الفكر الجغرافى بداية هادئة بسيطة ، مع بداية الوجود الانسانى على الأرض • وما من شك فى أن الحس الجغرافى قد ألهب الفكر الجغرافى الذى ألهم الانسان ودعم تعايشه من خلال صراع بناء مع الواقع الجغرافى فى كل مكان • ومن غير أن نتحسس القاعدة الأصلية التى ارتكز عليها الفكر الجغرافى العفوى ، ومن غير أن نتبين الاضافات التى بصر بها الفكر الجغرافى العفوى التعايش فى المكان ، لا يمكن أن ندرك صدق وجدوى الحس الجغرافى العفوى غير المكتوب فى مرحلة طويلة • كما لا يمكن أن ندرك صدق وجدوى الحس الجغرافى ، وهو يحفز ويلهم التدبر ، لكى يتبنى ويتحمل مسئولية عطاء الفكر الجغرافى المكتوب ، الا من خلال تصور قيمة هذا العطاء وأهميته ، وهو يسعف الانسان وانتصاره فى المكان •

وبهذا المنطق ، يجب أن نتصور كيف أن الفكر الجغرافى الذى سجله اجتهاد الانسان ، بعد ابداع الكتابة وأساليب التسجيل ، لم يبدأ من فراغ• بمعنى أن ابداع الكتابة وأساليب التسجيل ، يمثل نقطة تحول ، أطلقت العنان للفكر الجغرافى العفوى الذى توارثته الأجيال على المدى الطويل ، لكى يعلن عن نفسه ، ولكى يجد الوعاء الذى يحتويه ويجسده ويسجل نبضه المفيد ، فى اطار التراث الفكرى البشرى ، لحساب الحياة ومسيرة الحياة • ومن ثم نستشعر أن اسقاط أو اغفال الفكر الجغرافى العفوى غير المكتوب فى المرحلة الطويلة السابقة لابتكار وسائل التسجيل والتعبير عن اجتهاد الانسان ، يجب أن يكون مرفوضا • وصحيح أننا نفتقد أبعاد وأعماق هذا الفكر الجغرافى العفوى وهو بسيط • ولكن الصحيح أيضا أننا لا نفتقد

الاحساس بماهيته وجوهره و لاننكر جدواه ونتائجه واجتهاده فى خـــدمة أهداف التعايش مع الواقع الطبيعى فى أى مكان على الأرض ٠

ولئن اتفق الجغرافيـــون على أن مســـيرة الفـكر الجغرافى الحقيقية ، هى المسيرة التى تبدأ مع بداية التسجيل والكتابة ، فلا ينبغى أن ننكر الفكر الجغرافى العفوى الذى يمثل الارهاص المبكر الذى هيـأ وأعد وجهز لهـــذه المسيرة ٠ بل لا يجب أن نتنكر للتصور الذى يستشعر العلاقة بين ميـــلاد الحياة وميلاد الفكر الجغرافى ٠ وكيف يمكن أن نتنكر لهذا التصور والعلاقة حتمية ووليـــدة الاستجابة للحس الجغرافى الـذى حفز التـدبر واستنفر التفـكير ، لـكى يظـــاهر ويدعم وينصر ارادة التعايش مع الواقع الجغرافى فى أى مكان وفى كل مـكان ٠ بل وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لماهيـــة وجدوى الفكر الجغرافى العفوى ، وهو قطاع من كل الفـكر الانسانى الذى اقترن بوجوده على الأرض ، تولى تأمين هذا الوجود وترشيده فى أحضـان الواقع الجغرافى فى أى مـكان ٠ والتعايش مع الواقع الجغـرافى فى المكان ، وتطويع المكان للحياة وتطويع الحياة للمكان ، وترشـيد التحرك من المكان الى المكان الآخر ، كلها من بين أهم العـلامات والأدلة المادية ، التى لا تكذب وهى تدحض انكار الفكر الجغرافى العفوى ، وتحبط التنكر لماهية وجدوى هذا الفكر الفعال لحساب الحياة ٠

هذا ، ولا ينبغى أن ننكر أيضا أن الحس الجغرافى الذى حفز التـدبر ونشط التفكير ، كان له فى بعض المواقف ديناميكية الفعل ، وله فى بعض المواقف الأخرى ديناميكية رد الفعل ٠ وهذا معناه أن ديناميكية الفعل أو رد الفعل قد اشتركا معـا فى ولادة الفـكر الجغرافى العفوى فى أبسط صورة ٠ ولا يجب أن نتنكر لفعـــل ورد فعل ينى على اســـتخدام الحس الجغرافى ، وهو يلتقط ويجمع أوصال الصور الكلية للمكان ، ويرشد ويوجه الفـــكر فى الاتجـــاه الجغرافى ٠ وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لديناميكية الحس الجغرافى وفاعليته فى مواجهة المواقف التى تعترض حركة الحياة وتستوجب التدبر والتفكير الذى يظاهر ويدعم انتصار مشيئة الحياة ؟ بل وكيف يمكن أن ننكر أو نتنكر لديناميكية وفاعلية الحس الجغـــرافى وهو يوجه ويحفز ويوسع دائرة الفكر الجغرافى لكى يسعف الحياة فى المكان ، ولـكى يكترث بالدعم الأنسب للتعـايش فى المـكان فى أضيق دائرة تحتوى الانســـان أو فى أوسع دائرة تحتوى الناس كل الناس فى أرجاء الأرض ؟

فى اعتقادى ـ على كل حال ـ أنه ينبغى أن نضيف المرحلة التى عاش

فيها الفكر الجغرافى العفوى فى ضمير الانسان حصادا يبصر الحياة الى مسيرة الفكر الجغرافى التى حفظ حصادها التسجيل على المدى الطويل من وقت أن عرف الانسان الكتابة الى الوقت الحاضر • وصحيح أن افتقاد وسائل التسجيل قد أخفى ملامح هذا الفكر الجغرافى العفوى رغم أنه رفيق عمر الانسان منذ ميلاد حياته على الأرض ، وصحيح أن حصاد هذا الفكر وحده قد أظهر دوره الوظيفى وهو يبصر ويرشد وينصر ارادة الحياة فى أحضان المكان على الأرض • ولكن الصحيح أيضا أن الفكر الجغرافى الذى حفظه التسجيل وأعلن عن جدواه ، وليد شرعى للفكر الجغرافى العفوى وأدائه الوظيفى فى رفقة عمر الحياة وانتصارها فى أى مكان • وفى أى من المرحلتين اللتين عاش فيهما الفكر الجغرافى غير المكتوب والمكتوب ، لا نفتقد فى مغزاه ومرماه وحدة الهدف ، تلك التى تمثلت دائما فى اطار خدمة المعرفة بأى مكان ، لحساب الحياة وانتصار وجودها فى كل مكان •

وفى المرحلة الطويلة التى عاش فيها الفكر الجغرافى العفوى فى ضمير الانسان حصادا وخبرة وفاعلية تبصر الحياة ، كان التدبر والتفكير اجتهادا وفريضة والتزاما من شأن كل انسان وهو يعايش الواقع الجغرافى فى أى مكان ، ويحقق الانتصار لحسابه الشخصى ولحساب الحياة فى كل مكان • وهذا معناه أن نفتقد فى هذه المرحلة الطويلة وضوح رؤية خط سير المسيرة الفكرية ، وأن نفتقد الصفوة المتخصصة التى تنكب على التفكير وتتولى اثراء هذه المسيرة • ومعناه أيضا أن استشعار وتلمس ثمرات الاجتهاد الذى بصر الانسان فى مواجهة الواقع الجغرافى وتحدياته وضوابطه ، أهم وأجدى من تحرى كنه وماهية الفكر الجغرافى وهو يهيىء فرص جنى هذه الثمرات لحساب الانسان •

وفى اعتقادى أيضا ، أن تطور هذا الفكر الجغرافى العفوى فى هذه المرحلة الطويلة ، كان تطورا بطيئا ومتأنيا بقدر ما كان منطقيا ومفيدا • وكانت مسيرة هذا التطور البطىء تدب فى رفقة الانسان وتلبى حاجته فى الاتجاه الصحيح • وصحيح أن ولادة الحياة البشرية على الأرض كانت نقطة بداية لكى تبدأ وتتحرك هذه المسيرة الفكرية وتتولى ترشيد الانسان فى المكان المعين • وصحيح أن هذا الفكر الجغرافى قد بصر الانتشار والاستيطان فى أنحاء متفرقة على امتداد الأرض • ولكن الصحيح أيضا بعد ذلك كله ، أن هذا الانتشار الاستيطانى فى الأقاليم المتنوعة وما بنى عليه من مواجهة أعباء التنوع فى الواقع الجغرافى من اقليم الى اقليم آخر ، كان

من أهم الدوافع أو الحوافز التى أسهمت فى تطوير وإثراء هـذا الفكر الجغرافى العفوى •

وهكذا ينبغى أن نستشعر جدوى الصحبة بين الانسان والفكر الجغرافى فى رحلة عمر الحياة • كما ينبغى أن نبنى على هذه الجدوى حقيقتين هامتين• ومن شأن هاتان الحقيقتان صياغة الاطار الذى يحدد أبعـاد هذه الصحبة المثمرة • وتتمثل هاتان الحقيقتان فى :

(أ) ان طلب الحيـاة وتأمين الحيـاة وصياغة التعـايش مع الواقع الجغرافى فى أى مكان على الأرض قـد اتخذ من الملاحظة بالعين والاستشعار بالحس قاعـدة للتـدبر والتفـكير ، وأن التـدبر والتفكير قد أطلق عنـان الفـكر لكى يتجه ويحلق فى الاتجـاه الجغرافى وهو يتحمل مسئوليته قبل الحياة وترشيدها •

(ب) ان هذا الانطلاق الـذى تأتى استجابة لحسن الصحبة وامتثـالا لارادة الحيـاة ، قد أسفر عن حصـاد فكرى جغرافى مفيـد • وقد انتظم هذا الحصاد الـذى تمثل فى مكاسب وثمرات فى مسيرة فكرية ، يشوبها الغموض ولا ينبغى أن نبحث عن وقع أو بصمات خطواتها الوئيدة • ومن الأفضل أن نحصى جدواها وأن نتبين كيف شـدت أزر الحيـاة وكيف سددت خطواتها فى أى مكان على الأرض •

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نستشعر كيف كان حصاد الفكر الجغرافى العفوى اضافة وابداعا ، فى قاعدة تراث الانسان على الأرض • كما ينبغى أن نتصور كيف أصبحت اللبنات فى هذه القاعدة أساسا ومقـدمة لاضـافات وابداعات الفـكر الجغرافى المكتوب التى تسجل وقع خطوات المسيرة الفكرية انتصارا لارادة الحياة فى كل مكان • وهذا معناه أن الفـكر الجغرافى المكتوب لم يبدأ من فـراغ • ذلك أنه من غير شك استمرار للفكر الجغرافى غير المكتوب • وصحيح أننا نفتقد القدرة على تجسيد العلاقة بين فكر جرغافى مبهم وفكر جغرافى جلى • ولـكن الصحيح أيضا أن الفـكر الجغرافى الجلى الواضح وليد الفكر الجغرافى الغامض ، وأن مسيرة هذا الفكر الجغرافى ما خفى علينا منها وما ظهر ، كانت رفيقة عمر الحياة على الأرض •

- - - - - - - - - - -

والتسجيل والكتابة ، ابداع وابتكار ، أعلن عن تطلع الانسان وهو صاحب هذه الاضافة ، الى حصر تراثه وصيانته والابقاء عليه وتوريثه لحساب ركب ومسيرة الحياة • ومن الطبيعي أن نستشعر كيف هيأ هذا الابداع وعاء احتوى الفكر الجغرافى ، وكيف أسفر هذا الاحتواء عن تحديد بمعالم الخط الذى سارت فيه المسيرة الفكرية الجغرافية • وهذا معناه أن ابداع أو ابتكار أساليب التسجيل والكتابة بالكلمة أو بالصورة قد أنهى مرحلة طويلة عاش فيها الفكر الجغرافى العفوى مبهما وغامضا • ومعناه أيضا أن نقطة التحول كانت مثيرة وفعالة لأنها كفلت بداية الفكر الجغرافى فى مرحلة جديدة ، ولأنها طورت الاجتهاد الذى تولى مسئولية هذا الفكر لحساب الحياة •

وفى هذه المرحلة ، ينبغى أن نتبين كيف تبنى الاجتهاد والتدبر والتفكير الفكر الجغرافى ، وكيف تولى أمر هذا الاجتهاد والتدبر والتفكير فريق معين من زمرة المفكرين • وهذا أول مظهر من مظاهر التغيير فى مسألة الفكر الجغرافى ، حيث كانت نقطة البداية فى التخصص والتزام المتخصص بالاجتهاد والتدبر لحساب الفكر الجغرافى • وصحيح أن ثمرات الفكر الجغرافى كانت حقا مشاعا لحساب الحياة • ولكن الصحيح أيضا أن ولاية أمر هذا الفكر التى آلت الى فريق المتخصصين ، قد سلكوا دروبا مسدودة أحيانا ، وتخبطوا فى اجتهادهم تخبطا شديدا ، حتى أفلتت منهم بعض أهم الحقائق الجغرافية ، وضاعت ثمرات الاجتهاد فى زحمة الانبهار بالعجائب والغرائب أحيانا أخرى •

هذا ، وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد وجدت مسيرة الفكر الجغرافى المكتوب دائما من بين المجتهدين ، نفرا ذكيا يعدل أوضاعها ويحركها فى الاتجاه الصحيح ، ويضيف اليها اضافات مفيدة • وهذا من شأنه أن نعرف للمسيرة الفكرية الجغرافية – بكل تأكيد – بداية محددة واتجاها صحيحا هادفا ، وأن نعرف لأولياء أمر الاجتهاد الذى قاد وطور هذه المسيرة الفكرية الجغرافية تطلعا وابداعا ، لحساب الحياة •

ولكى نستطلع أمر هذه المسيرة الفكرية الجغرافية ، ولكى نتابع حركتها وتقدمها من حين الى حين آخر فى الاتجاه الصحيح ، ولكى نتبين الاجتهاد السوى البناء من وراء التقدم والتطوير ، ولكى نقوم الابداع والاضافات التى أثرت الفكر الجغرافى ، لحساب الحياة ، ينبغى أن نؤكد على الخطوات المتأنية وجدوى الاجتهاد والمثابرة والتفرغ على المراحل التالية :

١ - المرحلة العتيقة وهى المرحلة التى شهدت تحرك مسيرة الفكر الجغرافى تحركا محليا ، على المستوى الاقليمى فى أقاليم معينة • وكان الفكر الجغرافى آنذاك ، وكأنه قطاع من قطاعات الاجتهاد الحضارى فى أحضان بعض الأقطار أو بعض الاقاليم ، التى شهدت قيام ونشأة ونمو بعض الحضارات القديمة المتميزة • وقد كان الاجتهاد الجغرافى المبكر معروف الهوية • وقد استجاب بالضرورة للتطلع الشديد الى توسيع دائرة المعرفة بالأرض ومكان الحياة فيها ، وبالكون ومكان الأرض فيه •

٢ - المرحلة القديمة وهى المرحلة التى تبنى فيها الاجتهاد الفلسفى والتأمل العميق مسيرة الفكر الجغرافى فى اطار محلى على المستوى الاقليمى فى أفكار محددة فى حوض البحر المتوسط • وكان الفكر الجغرافى آنذاك ، وكأنه قطاع من قطاعات الاجتهادات الفلسفية النشيطة فى أحضان الفلسفة اليونانية فى أوسع انتشار لها • وقد سار الفكر الجغرافى من خلال التأمل الفلسفى العميق فى الاتجاه الكاشف عن الحقائق أو الصانع للنظريات • وعلى نفس الدرب والت مسيرة الفكر الجغرافى أدائها الوظيفى وحققت بعض الاضافات التى أشبعت التطلع المتحفز الباحث عن المعرفة الجغرافية فى أوسع الدوائر من حول الحياة وانجازها الحضارى •

٣ - المرحلة الوسيطة ، وهى المرحلة التى تأثرت فيها مسيرة الفكر الجغرافى بالمنطق والفهم والادراك الدينى ، الذى أضاف الى نظرة الانسان وتطلعه الى المعرفة الجغرافية بعدا روحيا وهو يطل على الأرض وعلى الكون الذى يحتويها • وقد تجلى هذا التأثير مرة عندما كبلت الكنيسة المسيحية ارادة الفكر واستنكرت الفلسفة وألزمت التفكير الجغرافى بالسير فى طريق مسدودة • وأوشك ذلك كله أن يسفع حصاد الاجتهاد الجغرافى ويضيع تراث الفكر الجغرافى ، وأن يشيع فكرا جاهلا وأن يضلل المعرفة الجغرافية • ولولا أن تدارك الاسلام الفكر الجغرافى لكان الضياع بالفعل ولعظمت الخسارة خصما ونقصانا من تراث الانسان ، وما من شك فى أن الاسلام قد أطلق العنان للفكر الحر وبارك احياء الفكر الجغرافى السوى وتطويره وأمن مسيرته فى الاتجاه الصحيح • وكان الاجتهاد الجغرافى العربى من وراء الانجاز المفيد الذى وسع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض والكون من حولها ، والذى أرسى لبنات فى الأساس العريض الذى كفل التحول الى تعميق المعرفة الجغرافية وهيأ الفرص لصياغة الاطار الذى جعل من الجغرافية علما موضوعيا •

٤ ـ المرحلة الحديثة ، وهى المرحلة التى بدأت من بعد تفجر النهضة الأوروبية وتولى أمر مسيرة الفكر الجغرافى فيها الاجتهاد الأوروبى المنفتح . وقد تأثرت مسيرة هذا الفكر الجغرافى بالواقع الانسانى المتطور الذى أخذ بمنطق الانفتاح وتأكيد روح العالمية فى اطار وحدة الأرض ووحدة الناس على الأرض . وكان الاجتهاد الجغرافى البناء والمنفتح نشيطا عندما أخذ على عاتقه تفجير طاقات التخصص الباحث عن الحقائق الجغرافية ، وعندما حدد الاطار المنضبط الذى حدد مفهوم ومعنى ومغزى علم الجغرافية واهتمامه المتوازن بالأرض وبالناس وبالتفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وقد أسفر تعميق المعرفة الجغرافية من خلال الاجتهاد الجغـــرافى المتخصص الى الاضافات التى صعدت مكانة علم الجغرافية وأفردت لها مكانا وسطا بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية . وقد تولى هذا الاجتهاد المتخصص أمر نشـأة المدارس الجغـرافية العلمية الوطنية التى انبرت وتبارت فى تطوير البحث الجغرافى وفى تطويع الخبرة الجغرافية وتطويرها لكى تسهم اسهاما موضوعيا فى خدمة الحياة .

٥ ـ المرحلة المعاصرة ، وهى المرحلة التى أسفر عنها الحوار الفكرى والجدل والاجتهاد الجغرافى الذى وظف ثمرات الفكر الجغرافى فى خـــدمة الحياة . ومن أهم ثمرات هذا التوظيف هو تطويع الجغرافية لكى تنخرط فى زمرة العلوم التطبيقية المتنوعة . وما من شك فى أن الخبرة الجغرافية المتخصصة قد أخذت من تقويم الظاهرة الجغرافية سبيلا لهذا التحول العظيم الذى جعل من الاجتهاد الجغرافى اجتهادا تطبيقيا وهو يبصر الحياة ويشد أزر التفوق الذى أحرزته الحياة فى مواجهة الاعباء وتطويع الواقع الجغرافى فى أى مكان تطويعا يتمثل لارادة تقدم الحياة .

الفصل الأول

فجر الاجتهاد الجغرافي القديم

- الحضارات القديمة وصناعة الفكر الجغرافي.
- الاجتهاد الجغرافي المصري
- الاجتهاد الجغرافي البابلي
- الاجتهاد الجغرافي الفينيقي
- الاجتهاد الجغرافي الفارسي

فجر الاجتهاد الجغرافى القديم

الحضارات القديمة وصناعة الفكر الجغرافى :

فى مرحلة طويلة ، نعرف بشىء كبير من وضـــوح الرؤية متى بدأت وكيف بدأت ، نستشعر اجتهاد الانسان ، وهو يتحسس مكانه فى الأرض ويتعرف على الواقع الجغرافى من حوله ٠ وقد نستشعر أيضا ، كيف تطلع الانسان بكل الاجتهاد الى تحسين مستوى تعايشه وهو يتطلع الى قبة السماء ويود لو اخترق الحجاب وأحاط بالكون علما ، ويتطلع الى تطويع الأرض والواقع الجغرافى فيها لارادة حياته فى احضان مساحات وأقطار وأوطان من حول حوض البحر المتوسط الشرقى ٠

هذا ، وكان من الطبيعى أن يتأتى ذلك الاجتهاد فى تلك المساحات والأوطان التى شهدت الانسان وهو يفجر ويلد الحضارات ٠ وما من شك فى أن ابداع وسائل التدوين والكتابة والتسجيل قد أتاح للانسان أن يسجل ابداعه وأن يدون تراثه ، وأن يكتب خلجات فكره ، بقدر ما أتاح للخلف أن يرث ويستوعب وينتفع بتراث السلف ، وأن يتحمل هذا الخلف أمانة التطوير والاضافة والتجديد ٠ وهذا معناه أن بدأ تزود الانسان بزاد حضارى مفيد ٠ وما من شك فى هذا الزاد الحضارى المفيد قد وضع الانسان فى الموضوع الذى أثار فيه شهية متفتحة ورغبة متعطشة ، للمعرفة بالأرض من حوله ، واستطلاع سبل دعم وتحسين الحياة فيها ٠

وينبغى أن نذكر بداية ، كيف حرر التقدم الحضارى حاجة الانسان آنذاك من منطق الاكتفاء الذاتى ، وكيف أطلق تطلعه الى صيغة من صيغ التكامل بين المكان والمكان الآخر ، وما من شك فى أن هذا التطلع الذى حفز التحرك من المكان الى المكان الآخر ، واخترق حاجز المسافة بينهما ، قد أسفر عن استشعار حقيقى لمعنى ومغزى وصدى التباين والتنوع بين الأوطان ٠ وهذا معناه أن التقدم الحضارى الذى بنى على الاستقرار والاستيطان فى أوطان معينة بعد أن طوع الواقع الجغرافى فيها لحياته وطوع حياته فيها للواقع الجغرافى ، قد صعد للعلاقات بين الناس فى أوطانهم حرباً وسلما ٠ وعندئذ حمل هذا التصعيد مسئولية توسيع دائرة رؤيته للأرض توسيعاً

كبيرا ، وأطلعه على مدى ومعنى وجدوى التباين بين الواقع الجغرافى الذى يميز كل وطن من هذه الأوطان · وكانت بالضرورة دعوة استقطبت اجتهاد الانسان وفرضت عليهم تقصى الحقائق واستيعاب التباين واستطلاع ماهية التنوع الجغرافى من مكان الى مكان آخر ·

هكذا استوجب أمر الحياة فى مواطن الحضارات القديمة الاهتمـــام بالواقع الجغرافى فى دائرة اتسعت مع اتساع وتصاعد اختراق حـــاجز المسافة فى أنحاء الأرض من حولها · كما استوجب أيضا وضعه فى اطار التدبر والتفكير والاجتهاد الباحث عن مزيد من المعرفة الجغرافية · وعندئذ نبغ بعض الناس فى هذه المواقع فى تجسيد رؤيتهم الجغرافية وتفوق من بين هؤلاء صفوة تفرغت وأخذت على عاتقها مسئولية الاستغراق فى التدبر والتفكير الكاشف لأبعاد المعرفة الجغرافية · وكان هدف هذه الصفوة التى أسفرت عن شكل فج من أشكال التخصص ، هدفا واضـــحا ، تمثل فى الاحاطة بالأرض علما والتعرف على خصائصها جملة والكشف عن أنماطه انتفاع الناس بها ضمنا فى كل مكان عاينوه أو استمعوا للرواية عنه · كما تمثل فى هذا الهدف فى تجسيد هذه المعـرفة والتعبير عنهـــا بالكلمة أو بالصورة وتوصيلها الى غيرهم من الناس واشباع نهمهم اليها ·

وقبل أن نبحث عن اجتهاد هذه الصفوة ، وقبل أن نتقصى حقيقة هذا الاجتهاد الجغرافى ، وقبل أن نسبر غوره ونقوم أهم نتائجه ، يجب أن نذكر كيف أن المرحلة التى عاشتها مسيرة الفكر الجغرافى من خلال اجتهاد هذه الصفوة سعيا وراء المعرفة بالأرض ، وبحثا عن الحقائق الجغرافية كانت مرحلة شاقة · وقد واجه الاجتهاد حاجز المسافة ، وكان عليه أن يسخر الوسيلة لاختراق هذا الحاجز بين المكان والمكان لكى يؤدى دوره الوظيفى · كما واجه مشقة الرحلة وتمويلها وتهيئة أسباب ودواعى الانفتاح على الناس والتعامل معهم وجنى ثمرات التفتح لحساب المعرفة الجغرافية ·

هذا وكان من الطبيعى أن يجنى الاجتهاد حصادا ، وأن يكون هذا الحصاد اضافة ، تنمى المعرفة بانحاء الأرض · ولكن كان من الطبيعى أيضا أن تتحقق هذه المكاسب ببطء شديد وعلى مدى زمنى طويل · ومن شأن هذا الحصاد ، الذى تأتى على المدى الطويل ، والذى فتح الباب لزيادة رصيد المعرفة الجغرافية ، أن يتمثل فى شقين كبيرين · وقد ركز الشق الأول على الأرض ، وتطلع الشق الثانى الى الكون الذى يحتوى الأرض · وانشطار الاجتهاد الى هذين الشقين كان انشـــطارا منطقيا وموضوعيا · بل لعـله

كان من وراء الاجتهاد المتوازى الذى انكب كل فريق منهما على الشق الذى شد اهتمامه وأثار أو استنفر فكره .

وعن الاجتهاد الذى انكب على دراسة الأرض ، نذكر كيف اهتم بالمعرفة الجغرافية فى اطار ثلاث دوائر متداخلة ومتكاملة . وانصب الاجتهاد الجغرافى فى الدائرة الأولى على توسيع دائرة المعرفة بالأرض على المستوى الأفقى من حول مواطن الحضارات القديمة ، والاحاطة بمدى التباين الجغرافى بين المكان والمكان الآخر . وفى الدائرة الثانية ، كرس الاجتهاد الجغرافى اهتمامه بتوسيع دائرة المعرفة بالناس فى اطار الأوطان المتنوعة ورصد اختلاف ألوانهم وألسنتهم وانماط وأساليب حياتهم . وركز الاجتهاد الجغرافى فى الدائرة الثالثة على رؤية واستيعاب مدى التنوع فى أساليب التفاعل بين الناس والأرض ، وعلى رصد مدى التنوع والتباين اجتماعيا واقتصاديا بين الناس والاقوام فى أوطانهم المتباينة فى أنحاء الأرض .

وعن الاجتهاد الذى تفرغ لدراسة الكون ، نذكر كيف اهتم بالتطلع الى قبة السماء ورصد الاجرام فى أنحائها ، فى اطار ثلاث دوائر متداخلة ومتكاملة . وانصب الاجتهاد فى الدائرة الأولى على متابعة حركة الشمس وحركة القمر ورصد مرور الوقت الذى تستغرقه هذه الحركة وصولا الى ابداع التقويم وحساب الزمن . وفى الدائرة الثانية كرس الاجتهاد الجغرافى اهتمامه بمتابعة الأجرام السماوية وانتقال الشمس من حين الى حين وتغيير أوضاع الأجرام وصولا الى رصد الأبراج والربط بينها وبين أحوال الناس على الأرض وحظوظهم . وركز الاجتهاد الجغرافى فى الدائرة الثالثة على تقصى أوضاع الأجرام السماوية فى الكون واستشعار مكان الأرض ومكانتها فى هذا الكون وصولا الى انها تحتل قلب الكون .

وربما كانت المعرفة فى اطار أى دائرة من دوائر البحث - انذاك - سطحية ومن غير عمق مشبع . وربما كانت الاضافات تدون أو تكتب ، من غير أن يتوخى الكاتب الدقة ، أو من غير أن يلتفت الى تقصى الأسباب التى تفسر تفسيرا مقنعا . ومع ذلك فهو حصاد نقبله على علاته ، ولا يستحق أن نجادل تحسبا لبيان مدى صدقه أو كذبه . وكيف نجادل وكيف لا نقبله، وهو يمثل الاضافة التى اشبعت حاجة الانسان آنذاك الى المعرفة الجغرافية بالأرض من حوله أو بالكون الفسيح من حول الأرض . وهو بأى المقاييس حصاد أثرى رصيد الانسان من المعرفة ، وجاوب تطلعه الى الانفتاح على

الكون ومكانة الأرض فيه أو الى الانفتاح على الأرض ونبض الحياة فى الأوطان المتنوعة ·

هذا ، وقد اشترك فى جمع وتكوين هذا الرصد الذى امتلأت به جعبة الفكر الجغرافى المكتوب فى ذلك الوقت المبكر ، نفر كثير من الرجال المجتهدين من مصر وبابل والعرب والهند وغيرها من بلدان ، على امتداد زمن طويل · ولم تكن - بكل تأكيد - ثمة مناهج أو معايير متفق عليها ، لكى يتوافق اجتهاد العاملين فى الحقل الجغرافى توافقا فكريا مقبولا أو مقنعا وهم بصدد جمع الحصاد وتسجيل الرصيد الجغرافى · وما من شك فى أن الأمر كله قد خضع - انذاك - لمدى اقتناع كل مجتهد من المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى · وما من شك فى أن حصاد كل مجتهد من هؤلاء المجتهدين، قد أضاف شيئا الى رصيد المعرفة الجغرافية · ولعلهم أسهموا جميعا فى اشباع نهم الناس الى المعرفة الجغرافية ، وارضاء تطلعهم الى كشف النقاب عن المجهول ·

وينبغى أن نفطن الى أن الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الكون ومكان الأرض فيه ، قد تأتى من خلال معاينة السماء والتطلع الى حركة الاجرام فيها ، طلبا لشكل من أشكال ادراك المجهول عن هذه الحركة · وهذا معناه أن الرصد بالعين المجردة من مواقع منتخبة كاشفة لقبة السماء قد أسعف هذا الاجتهاد وبصره بجدوى الانفتاح ومتابعة التغير فى مواقع الأجرام · ومعناه أيضا أن معاينة السماء ومطالعة التغير فى حركة الأجرام قد شد اهتمام الاجتهاد الى المجهول وحفزه الى كشف النقاب عنه ، على اعتبار انه الهدف الأساسى الذى تطلبه المعرفة الجغرافية استجابة لارادة الحياة ·

وينبغى أن نفطن مرة أخرى الى أن الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الأرض والناس ، قد تأتى فى اطار ادراك حقيقة وحدة الأرض ووحدة الناس ، ومن خلال حركة بعض الناس طلبا لشكل من أشكال التعامل مع غيرهم من الناس · وهذا معناه أن الحركة سواء كانت سلمية بناءة أو عدوانية هدامة ، كانت من وراء الانفتاح الذى أسفر عن حصاد لحساب المعرفة الجغرافية · وما من شك فى أن خطوات التقدم الحضارى فى اقطار بعينها قد حفزت الحركة السلمية لحساب الحصول على انتاج معين من قطر معين · وما من شك أيضا فى أن صيانة التقدم الحضارى فى أقطار بعينها قد حفزت الحركة السلمية لحساب الحصول على انتاج معين من قطر معين · وما من شك أيضا فى أن صيانة التقدم الحضارى فى أقطار بعينها قد حفزت الحركة

العدوانية لحساب ردع العدوان المغير عليها من قطر أو أقطار معينة مجاورة . وفى أى من هاتين الحالتين يفتح التحرك لهدف أســـاسى الباب لكى يصبح استطلاع المكان وجمع المعلومات لحساب المعرفة الجغرافية هدفا جانبيا الى حد كبير .

ورحلة فى ركب التحرك السلمى البناء لحساب شكل مبكر من أشكال التجارة والتبادل التجارى ، أو فى ركب التحرك الحربى العدوانى الهدام لحساب الغزو أو التصدى للعدوان وردعه ، فى البر أو فى البحر ، يمكن أن تسعف الاجتهاد فى طلب المعرفة الجغرافية عن الأرض والناس . ولكن الرحلة التى تتصدى أصلا للكشف الجغرافى تكون هى الأفضل فى خدمة المعرفة الجغرافية . ومما لا شك فيه أن هذا النوع من الرحلات لم يكـــن هناك استعداد له فى ذلك الوقت . بمعنى أن التسجيل الجغرافى وجمـــع المعلومات قد اعتمد على الرحلة التابعة . بل ربما انبرى نفر من الذين عمل فى ركب التحرك السلمى أو فى ركب التحرك الحربى لأداء مهمة العمـــل الجغرافى . وربما تمثل هذا الآداء فى رواية أو حكاية ما استرعى انتباهه لكى يتلقفه المجتهدون ويسجلونه لحساب المعرفة الجغرافية .

وبصرف النظر عن شكل الرحلة ، وبصرف النظر عن مدى الصـــدق فى الرواية التى أسفرت عنها الرحـــلة ، ينبغى أن نستشعر كيف فتحت الرحلة وهى برية تضرب فى دروب الأرض ، أو وهى بحرية تطـــوع البحر وتركبه ، باب المشاهدة والمعاينة والملاحظة فى أنحاء من الأرض . وصحيح أن الرحلة أسقطت حاجز المسافة ووسعت دائرة الرؤية والمعاينة ، وأتاحت فرص التزود وجمع المعلومات ، وأسهمت فى زيادة رصيد المعرفة الجغرافية. ولكن الصحيح أيضا أن هذه الرحلات الجماعية ، قد وسعت مصادر الرواية والقصص ، وهيأت فرص الاستماع والانصات ، لكى يسجل ويضيف الى رصيد المعرفة الجغرافية ويثريها .

هذا ، وكان من شأن المجتهدين الذين اشتراكوا من خلال المعاينة أو من خلال الاستماع الى الرواية فى جمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية أن ينكبوا على تسجيل اجتهادهم والتعليق عليه . وقد فعلوا ما يجب أن يفعل كبداية مبكرة فى حقل التسجيل الجغرافى ، وافلحوا فى اثراء المعرفة الجغرافية واثارة التدبر فى بعض الحقائق الجغرافية . وهذا الاجتهاد الجغرافى مشكور ، لأنه يعبر عن استجابة للتطلع الموضوعى الى دراســـة الأرض

والتعرف على الناس وانماط حياتهم فى احضانها ، ولانه ، استوعب أهم المضامين التى تخدم ارادة الحياة ٠

ولا ينبغى أن نتوقع بداية التسجيل الجغرافى من غير أن يستغرق فى وصف سطحى عام بالأسلوب الذى يشبع رغبة الناس فىالمعرفة الجغرافية بمساحات وأقطار وأقاليم من الأرض ٠ كما ينبغى أن نتوقع ممــارسة التسجيل الجغرافى الكاشف عن أهم مضامين دراسة الأرض من غير عرض وتركيز على الصور الغريبة التى لفتت الانتباه ، وأشبعت حاجة الناس للتفكير والتدبر فى المجهول ٠ كما لا ينبغى أن نتوقــع عرض التسجيل الجغرافى الكاشف عن مضامين دراسة الأرض وحياة الناس فيها ، من غير الخلط بين السرد التاريخى والتصوير الجغرافى ، ومن غير الخلط بين الغرائب والعجائب والخرافات والحقيقة والواقع ٠

وهكذا أوردت المعرفة الجغرافية التى أسفر عنها التسجيل الجغرافى صورا مشوهة عن كثير من الأقطار التى دخلت فى اطار الاجتهــاد العتيق ٠ وقد نجد فى ذلك التصوير حشوا من الخرافات والأساطير والغرائب التى تفسد فى كثير من الاحيان معنى ومغزى التعبير الجغرافى ودلالته المفيدة ٠ وكانت الاضافات فى بعض الأحيان غاية فى الغرابة ، لأنها نبعت فى حقيقة الأمر من صميم المعتقدات الدينية العتيقة أو من تقاليد الناس البالية أو البائدة ، لكى يستجيب التصوير الجزافى لفضول الناس وانغماسهم فى الخرافة وانبهارهم بالعجائب والغرائب ٠ وصحيح أن الخيال الخصب قد لعب دورا هداما ، وهو يغرق الاجتهاد الجغرافى فى الخلط بين الحقيقة والخرافة٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الخلط الذى أشبع فضول الناس ، قد تسبب فى طمس وجه الحقيقة الصحيحة ، وضيع معالمها الى الحد الذى أخل بالعرض الموضوعى لحساب المعرفة الجغرافية ٠

ومن غير اطار واضح يحدد أبعاد الاجتهاد الجغرافى أو يوجهه فى اتجاه سوى ، اشترك نفر كبير من المجتهدين الذين استقطبتهم المعرفة الجغرافية ، فى تسجيل أو تدوين حصاد اجتهادهم ٠ ومن الجــائز أن شفع بعض هؤلاء المجتهدين التسجيل الذى يصور حصاد اجتهادهم بالخريطة أو الصورة التى تمثل امتدادا للاجتهاد الحريص على وضوح العرض الجغرافى ٠ ولأن الاجتهاد الجغرافى افتقد المنهج ، فقد خضع أمر التسجيل والتــدوين الجغرافى كله ، لتصور كل مجتهد وقدرته على استيعاب رؤيته الجغرافية من ناحية ، ولمنطق

الواقع الحضارى الذى بث النبض الحيوى فى هـــذا الاجتهاد وحدد أهدافه من ناحية أخرى ·

ومن خـــلال حصـــاد الرحلات التى أكسبت الاجتهـــاد الجغرافى فرص المعاينة والملاحظة والمعايشة ، أو فرص الاستماع الى الرواية والقصـــة تأتى التسجيل ، الذى أثرى المعـرفة الجغرافية مع مرور الوقت · وكانت حاجة التسجيل الجغرافى الى الرحلة ، لا تعنى فقط الحـــاجة الى جسارة الرجـــل المغامر ، لكى يقتحم المجهـــول ويسقط الحجاب عنه ، ولكنها احتاجت بالفعل بالفعل الى الرجل الحصيف صاحب الحس الجغرافى المرهف ، لكى يجنى الثمرة الجغرافية المفيدة ، من خلال اختراق حاجز المسافة الى المجهول من الأرض · وصحيح أننـــا لا نملك بيانا كاشفا ينبىء بما كان من أمر هـــذه الرحلات فى صحبة التحرك لحساب التجـارة أو التحرك لحساب الحرب أحيـــانا ، أو بما كان من أمر خروج هذه الرحلات لحساب المعرفة الجغرافية أحيانـــا أخرى · ولـكن الصحيح أيضـــا أن هـــذه الرحلات قد بدأت فى جملتها من المواقع التى عاشت فيها الحضارات القديمة الى الاقاليم من حولها · وما من شك فى أن المنطق الحضارى ، كان أهم قوة من قوى الدفع التى حفزت الرجل الحصيف ، لكى يخرج فى سبيل الاجتهـــاد الجغرافى ، ولكى يقتحم المجهول وصولا الى الاضافة الى الرصيد الجغرافى ·

وبهـــذا المنطق ، ينبغى أن نتصور أيضـــا الفارق الزمنى بين بداية الاجتهاد الجغرافى وبداية التسجيل الجغرافى · وربما تسبب هـــذا الفارق الزمنى فى بعض الخطأ أحيانا وبعض الخلط أحيانا أخرى · ومن الطبيعى أن نتوقع هذا الخطأ والخلط والمغالطة الذى شوه التسجيل الجغرافى بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى · ومع ذلك فالتسجيل الجغرافى علامة على حرص الاجتهاد الجغرافى على رصيد جغرافى يضاف الى تراث الانسان · ومن ثم نستطيع أن نفسر لماذا كانت البداية فى أحضان المواقع التى شهدت تفتح ونمو الحضارات القديمة فى ثلاثة مواقع رئيسية كبرى هى :

١ ـ الصين الحقيقية China Proper التى تطوقها الجبال والهضاب فى المكان القصى من آسيا الشرقية ·

٢ ـ الهند الكبرى التى تطوقها الجبال الشمالية والشمالية الغـربية وتعزلها فى آسيا الجنوبية ·

٣ ـ الأقطار فى ظهير حوض البحر المتوسط الشرقى الذى يحتل الموقع القلب من جزيرة العالم ·

وصحيح أن الحضارات المتفتحة في هذه المواقع قد استقبلت البحر ، وتعلمت الملاحة وركوب البحر لحساب الرحلة ، التى خدمت شكلا أوليا مبكرا من أشكال التجارة الدولية والتبادل التجارى ، وحققت صورة مشرفة من صور الانفتاح على العالم من حولها • وصحيح أن هذه الحضارات قد وجهت بعض الرحلات على الدروب البرية لأهداف تجارية ، استجابة لتصاعد الطلب على سلع ومنتجات من أقطار فى غير متناول الرحلات البحرية • وصحيح أن الرحلات البحرية والبرية قد خدمت أهداف الكشف الجغرافى وجمع المعلومات واثراء المعرفة الجغرافية • ولكن الصحيح أيضا أن الموقع الجغرافى كان ــ بكل تأكيد ــ من وراء اختلاف حقيقى بين اسهام الحضارات فى الصين والهند ، واسهام الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية وتسجيل الاضافات واثراء الرصيد الجغرافى •

ولكى نتفهم ذلك الاختلاف ، نذكر أن موقع الصين والهند من وراء الحاجز التضاريسى الذى يطوقهما ، قد تسبب فى اهدار أهم منجزات الاجتهاد الجغرافى • بل يمكن القول أنه كان بحكم الموقع الجغرافى فى المكان القصى المعزول اجتهادا منطويا على ذاته لأنه لم يجد الفرصة للانفتاح أو للاحتكاك المثمر مع الاجتهاد الجغرافى فى أجزاء أخرى من العالم • أما الاجتهاد الجغرافى الذى انطلق من مواطن الحضارات فى أنحاء من الأقطار فى حوض البحر المتوسط الشرقى فقد أسعفه الموقع الجغرافى وظاهره الى أبعد الحدود • بل يجب أن نتصور كيف كان هذا الاجتهاد الجغرافى منفتحا على أوسع مدى ، وكيف استثمر الاحتكاك مع الاجتهادات الجغرافية الأخرى •

ومن المفيد ــ على كل حال ــ أن نطالع الاجتهاد الجغرافى المتفتح الذى وليت أمره الحضارات القديمة فى أقطار حوض البحر المتوسط الشرقى • ويكون الهدف أن نتبين كيف سار هذا الاجتهاد الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، وكيف أسفر عن اضافات أثرت الرصيد الجغرافى ووسعت دائرة المعرفة الجغرافية ، لحساب الانسان • ومن الطبيعى أن نستشعر أبعاد الانفتاح على العالم سواء كان لحساب الحرب وردع العدوان وصيانة الوجود الحضارى ، أو كان لحساب السلام وخدمة التجارة واشباع الوجود الحضارى ، وهو يشد أزر الاجتهاد الجغرافى فى صحبة التحرك والرحلة • ومن الطبيعى أيضا أن نتبين الاسهام الذى قدمه الاجتهاد الجغرافى لارضاء شهوة المعرفة

الجغرافية ، ولتهيئة الأساس الذى ارتكز عليه التدبر والتفكير وبناء قواعد الفكر الجغرافى القديم ٠

هذا وينبغى أن نحسب حساب الموقع الجغرافى الممتاز فى قلب جزيرة العالم النابضة بالحياة ، لكى نتصور كيف كان الواقع الجغرافى والواقع الحضارى فى كل من مصر والعراق والشام ، من وراء كل الحوافز التى فتحت أبواب الانفتاح على العالم من حولها ، ووجهت الاجتهاد الجغرافى لكى يطل على هذا العالم ٠ وصحيح آن الرحلة دلفت من أبواب الانفتاح لحساب الحرب أو لحساب السلام وفى صحبتها الاجتهاد الجغرافى ٠ ولكن الصحيح أيضا آن الاجتهاد الجغرافى الذى أطل على العالم وسجل معرفته ببعض أقطاره قد بصر ورشد الرحلة وهى سبيل الحرب أو السلام وقاد مسيرتها الى أهدافها فى تلك الأقطار ٠

كما ينبغى أن نستشعر كيف أفلح الابداع الحضارى فى اسقاط واختراق حاجز المسافة فى البر وفى البحر ، وكيف كفل هذا الابداع تحريك الرحلة لحساب الانفتاح على العالم من حول مواطن الحضارات فى حوض البحر المتوسط الشرقى ٠ وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى قد استثمر هذا التحريك وهو يركب البحر أو يتسلل عبر الدروب والمسالك على الأرض ٠ وهذا معناه أن هناك علاقة موضوعية بين تطوير وسيلة النقل وزيادة كفاءة اختراق حاجز المسافة من ناحية ، وتصاعد الاجتهاد الجغرافى وتأمين مسيرته فى البر والبحر على السواء من ناحية أخرى ٠

ولكى نجرى حصرا شاملا عن الرصيد الجغرافى الذى انتهى اليه الاجتهاد الجغرافى النشيط ، يجب آن نطالع قصة كلا من المصريين القدماء والبابليين والفينيقيين من هذا الاجتهاد ٠ كما ينبغى آن نتبين اتجاهات هذه الاجتهادات الجغرافية العامة ، وهى تعالج وتسجل الاستشعار الجغرافى عن الأرض ووضعها فى الكون مرة ، وعن مساحات الأرض المعمور ةمن حول أوطانهم مرة أخرى ٠ ومن ثم نستطيع أن نقوم الرصيد الجغرافى الذى اشترك الاجتهاد الجغرافى فى جمعه وتسجيله ، وأن نتبين كيف اشترك الاجتهاد المصرى والفينيقى والبابلى اشتراكا حقيقيا فى ريادة مسيرة فكرية جغرافية ، حققت القاعدة التى بنى عليها الفكر الجغرافى القديم ٠

الاجتهـاد الجغرافى المصـــرى

هـذا شكل من أشكال الاجتهاد الجغرافى المبكر الذى كفله الاجتهـاد الحضـارى المصرى على ضفاف النيل . وهو ـ من غير شك ـ وليـد شرعى لكل العوامل الطبيعية والضوابط الحاكمة التى اشتركت فى صياغة تحديد ملامح شخصية مصر الأرض ومصر الناس ، ومصر الحضارة ، ومصر الدولة . ويمكن القـــول أن ضبط النهر ومواجهة غدره ، وترويض الجـريان فيه ، لحساب الاستقرار وتأمين الحياة ـ قد فجر ـ بكل تأكيد ـ هـذا الاجتهاد الجغرافى ، على المستوى المحلى منذ وقت مبكر . وكان حسن استخدام الحس الجغرافى فى مراحل الاقتراب من ضفاف النهر والتشبث بها فى اطار الوادى من وراء هذا الاجتهاد .

وكان من شأن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى رشد الحياة ونصر ارادتها على ضفاف النيل ، أن يدعم ويظاهر انفتاحها على العـــالم من حولها ، وأن يصحب تحركاتها وعلاقات السلام والحرب مع الناس فى الارض على الصعيد الافريقى وعلى الصعيد الآسيوى . ولقد أسفر هذا الاجتهاد الجغرافى المصرى مع مرور الوقت عن التركيز على اتجاهين هامين لحساب المعرفة الجغرافية . بمعنى أنه تبنى التدبر والتفـكير واعمـال العقل باهتمام الاجتهاد الجغرافى المصرى باتجاهين هما :

١ ـ الاتجاه الذى تطلع فيه الاجتهاد الى توسيع المعرفة بالكون ومكان الأرض فيها ، والى تصور شكل الأرض وقياس أبعادها .

٢ ـ الاتجاه الذى تطلع فيه الاجتهـاد الى توسيع المعـرفة بمساحات الأرض من حول مصر واشباع نهم المعرفة بالناس فيها .

وفى الاتجـاه الأول استغرق الاجتهـاد الجغرافى المصرى فى الرصـــد والمعاينة الفلكية والتطلع الى قبة السماء . وربما انغمس هـذا الاجتهاد من غير قصد ، فى تصورات وافتراضات ، مبنية على الخلط الشديد ، بين حصاد الأساطير ونسج الخيال من ناحية ، وحصاد الرصد والتمعن ومتابعة أجرام السماء وحركتها السرمدية من ناحية أخـرى . والمهم أنه أسفر عن تجسيد هذه التصورات والافتراضات تجسيدا تقبله الحس الجغرافى واقتنع به .

وصحيح أن هذا الاجتهاد الجغرافى الذى وضع لبنات الأساس فى صرح الفكر الجغرافى القديم قد ضل كثيرا ، عندما اتخذ من حصاد الأساطير أساسا

لتصوير مسألة خلق وتكوين الارض ووضعها فى اطار الكون الفسيح ٠ وصحيح مرة أخرى أن هذا الاجتهاد قد ضلل الفكر الجغرافى كثيرا ، عندما اتخذ من الوهم والخيال سبيلا لمناقشة مسألة شكل الأرض وتفسير حركة الشمس وحدوث الليل والنهار ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الاجتهاد الجغرافى قد أفلح عندما بصر مسألة الرصد ومعاينة أجرام السماء ، وقاد ورشد الفكر الذى تولى صياغة التقويم وحساب الزمن ٠

هذا وربما اتخذ الاجتهاد المصرى فى زمن سابق لقيام الدولة المصرية الفرعونية من حركة القمر ودورته ، أساسا لحساب الزمن لبعض الوقت ٠ ولكنه فطن بعد ذلك إلى مزالق التقويم القمرى ، وتحول الى حساب التقويم الشمسى الأكثر انضباطا ٠ بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى المصرى قد اهتدى من خلال رصيد واستطلاع حركة النجوم ، ومن خلال متابعة نجم معين فى كبد السماء ، الى حساب السنة الشمسية منذ أكثر من ٧٠٠٠ سنة بل لقد أفلح هذا الاجتهاد تماما ، عندما أكد على أن حساب السنة فى نظام التقويم الشمسى يتكون من ٣٦٥ر٢٥(١) ٠

وتحقيق الانضباط الفعلى فى حساب الزمن منذ أكثر من القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، علامة على أن الاجتهاد الجغرافى كان مدعوما بفكر ممتاز يحفزه واقع حضارى تطلع الى جدوى هذا الانضباط ٠ ومن الجائز أن رصد حركة الشمس التى بنى عليها وضع خطة صياغة التقويم الشمسى قد جنب حساب الزمن التردى فى الفروق التى حققها التقويم القمرى ، وتضرر بها الانتفاع الحياتى فى مصر ٠ ومن ثم ينبغى أن نستشعر جدوى الاجتهاد الجغرافى المصرى من وراء هذا الضبط ، وكيف أنه أنجز مهمته من خلال حسن استخدام الحس الجغرافى ، لتهيئة أقصى درجة من التوافق بين التغير الذى يطرأ على مناسيب الجريان فى النيل من ناحية ، وحركة الزمن ودورته المنضبطة انضباطا كاملا من ناحية أخرى(١) ٠

---

(١) يقال ان الحكيم الطبيب المصرى ، توت ، هو الذى تولى مسئولية ابداع خطة صياغة التقويم المصرى القديم على نظام الحركة الشمسية ـ راجع : شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الأنجلو ، صفحات ٤٨ ، ٤٩ ٠

(١) مر وضع التقويم وصياغة الاجتهاد المصرى له بمرحلتين متكاملتين ٠ وهاتان المرحلتان هما :

أولا ـ مرحلة أولية انتهت الى جعل طول السنة ٣٦٥ يوما ٠ وعندئذ قسمت السنة الى اثنى عشر شهرا بواقع ثلاثين يوما لكل شهر ٠ وتكفل هذا التقسيم اضافة خمسة أيام كاملة

وفى يقين أى منصف من الجغرافيين المعاصرين ، أن التقويم الشمسى وهو حصاد وابداع الاجتهاد المصرى ، أساس اعتمدت عليه الحيــاة بصفة عامة فى حساب الزمن • وهذا من غير شك ابداع مفيـد أضيف الى تراث الانسان • ولـكنه فى نفس الوقت يعنى نجاحا حقيقيـا ، يتيه أو يزهو به الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم • وكيف لا يتيه بهـذا الانجاز الذى برهن على حسن استخدام الحس الجغرافى ، وهو يرقب العلاقة ومدى الانضباط ، بين معاينة قبة السماء وحركة الأجرام السماوية الرتيبة فيهـا من ناحية ، ومتابعة الرتابة التى توالت بهـــا مناسيب الحريان فى النيل فى الموسمين التكاملين ، عندما يفيض الماء وترتفع المناسيب ، وعندما تغيض المياه وتنخفض المناسيب من ناحية أخرى •

وهكذا ، ينبغى أن نسجل كيف كان الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم الذى حفزته حضارة مصر الزراعية القديمة رائدا ومعلما ، وهو يقود حركة الاهتمام برصد قبة السماء والتطلع الى حركة الأجرام فيها قيـادة هادفة • كما نسجل أيضا كيف كان الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم موفقا ومبشرا وهو يجمع أطراف الابداع والاضافة ، لكى يضع نقطة البداية ويصوغ لبنات القاعدة التى ارتكز اليها التفكير والتدبر الجغرافى الفلكى • وهـذا معنـاه أن هــــذا الاجتهاد مسئول عن صناعـة أساس وقاعـدة الجغرافية الفلكية أو الجغرافية الرياضية واطلاق ملكات الفـكر لحسابها • ومعنـاه أيضا ، أن الاجتهاد الجغرافى المصرى القديم ، قد أفلح فى استخدام الحس الجغرافى ، وفى تجسيد حصاد هذا الحس ، لكى ينشىء شكلا من أشكال الفكر الجغرافى التى صاحبت ارادة الحياة واهتمامها بالواقع الفلكى من حولها •

وفى الاتجاه الثانى كان للاجتهاد الجغرافى المصرى شأن آخر فى الكشف الجغرافى والتطلع الى الأرض من حول مصر • وقد أسفر هـــذا الاجتهاد عن شكل من أشكال توسيع المعرفة الجغرافية ، وتزويدها بمعلومات كثيرة من مساحات من الأرض ومن الناس فى هذه الأرض • ومن غير حاجة الى دليل

فى نهاية هذا التقسيم لاتمام عدة السنة •

ثانيا – مرحلة تالية استشعرت من خلال رصد مستمر لنجم الشعرى اليمانية بفرق طفيف يتراكم بواقع يوم كامل كل أربع سنوات كاملة • وعندئذ ادرك الاجتهـــاد الجغرافى أن طول السنة بالفعل ٣٦٥¼ يوما ، وأن أيام النسىء المضـــافة تصبح ستة أيام بدلا من خمسة كل اربع سنوات ، وصولا الى أقصى حد من الضبط الزمنى وحساب الزمن •

ينبغى أن نستشعر جدوى الانفتاح على العالم من حول مصر ، وكيف سارت رؤية الاجتهاد الجغرافى فى سبيلين ، هما سبيل التعرف على الأرض ، وسبيل التعرف على الناس فى هذه الأرض • وتلك - من غير شك - بداية مبكرة فى تسجيل الاهتمام الجغرافى الذى يجمع جمعـا منطقيا بين الأرض التى تحتوى الناس ، والناس الذين يعمرون الأرض •

وصحيح أن الغزو الذى كانت تشنه بعض الشعوب غير المستقرة ، فى أنحاء الأرض من حول مصر ، وتعقب المصريين القدماء لهذا الغزو المعتدى وردعه ، قد فتح العيون على الأرض التى صدرت هذا العدوان ، وأثار فيهم الرغبة والتطلع الى التعرف عليها وعلى أحوال الحياة فيها • وصحيح أيضا ، أن حركة التجارة بين مصر وبعض البلدان من حولها على طريق البحر أو على طريق البر ، قد شد اهتمام المصريين ودعاهم الى ارتياد هذه الأرض والتعرف على أحوال الناس فيهـا • ولكن الصحيح من قبل ذلـك كله ، أن الواقع الحضارى المتطور فى مصر ، ومكانتها السياسية المرموقة فى الموقع الجغرافى الحـاكم ، كان من وراء كل حوافز ودواعى التحـرك الذى بصر الاجتهـاد الجغرافى وهو فى معية المطاردة وملاحقة الغزو ، أو وهو فى صحبة التعامل التجارى مع الناس فى البلدان من حول مصر •

وينبغى أن نتصور كيف كانت عمليـات التربص بالغزاة ومطاردتهم وتعقبهم الى عقر دارهم وهى مسئولية ملحة ، لاحباط العدوان على الاستقرار ، الذى يصنع الابداع الحضـارى ويطورها على أرض مصر ، ولتـأمين مسيرة الحياة الرتيبة فى أحضان وادى النيل الأدنى ، مسئولة فى نفس الوقت عن فتح الباب ووضع العلامات على الطريق لحساب الاجتهاد الجغرافى • وما من شك فى أن حصاد هذا الاجتهاد الجغرافى قد تولى بدوره دعم التحرك الحربى لأن المعرفة بالأرض تضمن على أقل تقـدير مواجهة التحديات التى تفرضها الأرض على هذا التحرك • وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى المصرى الكاشف عن الأرض قد كسب الأرض وطوعها أحيـانا لكى تحارب فى صف التحرك الحربى الذى طارد العدوان وأبطل مفعوله •

وينبغى أن نتصور أيضا كيف كانت عمليات التعامل التجارى والتبادل مع الناس فى أقطـار وبلدان من حول مصر ، وهى مسئولية ملحة أخـرى ، لاشباع حاجة الاستقرار الذى يطور الحضـارة وينمى حاجاتها الضرورية ، ولاشاعة المد الحضارى البناء وترسيخه لحساب الحياة ، مسئولة فى نفس الوقت عن الانفتاح ووضع العلامات على الطريق لحساب الاجتهاد الجغرافى •

وما من شـك فى أن حصاد هـــذا الاجتهاد الجغرافى ، قد تولى بدوره دعم التحرك التجارى ، لأن المعـــرفة بالناس تضمن على أقل تقدير التجاوب مع حاجة الأسواق • وهذا معنـــاه أن الاجتهاد الجغرافى الكاشف عن النـــاس قد كسب اهتمام الناس واستشعر حاجتها ، لكى تتهافت على التحرك التجارى الذى يعطى ويأخذ •

وهكذا كان الحصاد الحضارى فى مصر ، الذى يمثل ابداع الحيـــاة المستقرة ، الآمنة فى أحضان النيل الأدنى ، من وراء الانفتاح ، الذى التزمت به الحياة فى مصر • وما من شك فى أن مصر قد استشعرت جدوى هـــذا الانفتاح ، وأفلحت دائمـــا فى جنى ثمراته اقتصاديا وحضاريا • ومن ثم أصبح هذا البعد الحضارى العريق المتفتح فى مصر ، من وراء الانفتاح الذى قاد ووجه الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وحمله المسئولية عندما حفزه ، لكى يطل على الأقطار والبلدان من حولها • كما كان هذا البعد الحضارى العريق المتفتح فى مصر ، من وراء رصد وتسجيل حصاد الاجتهاد الجغرافى المصرى فى سجل تراثها الثرى •

ولكى نتصور لماذا التزمت مصر بالانفتاح ، الذى أسفر عن كل شكل من أشكال العلاقات السوية مع أقطار وبلدان من حولها ، ينبغى أن نستشعر جدوى الحس الجغرافى ومدى صدقه ، عندما بصر بالتباين بين مصر والواقع الجغرافى فيهـــا ، والواقع الجغرافى فى الأقطـــار الأخرى ، ودعا الاجتهـــاد الجغرافى الى تقصى حقيقة هذا التباين وتفهم أبعاده وادراك ماهيته • كمـــا ينبغى أن نستشعر أيضا كيف دعا التطور الحضـــارى فى أحضان مصـــر الانفتاح ، وهو يطلب ما يؤمن المصريين وحقهم فى حياة مستقرة ، وما يتمم حاجاتهم الضرورية المتزايدة من الأقطار والبلدان فيما وراء أرضها الطيبة ، دعوة ملحة ، لكى يكفل الاجتهاد الجغرافى ويؤمن أهدافه •

ولكى نتصور كيف خدم الانفتاح الاجتهـــاد الجغرافى المصرى ، الذى أسفر عن شكل من أشكال الكشف الجغرافى ، وتوسيع المعـــرفة الجغرافية من حول مصر ، ينبغى أن نستوعب جدوى الاجتهاد الحضارى المصرى ، الذى انكب على تطويع وتحسين استخدام الوسائل ، التى أسقطت أو اخترقت حاجز المسافة ، وخدمت التحرك برا وبحرا ، من المكان الى المكان الآخـــر • كما ينبغى أن نستشعر أيضا جدوى هذا الاجتهاد الحضارى ، وهو يجنى ثمرة انفتاح الاجتهاد الجغرافى المصرى ، الذى أتاح شكلا من أشـــكال الأخذ والعطاء المتبادل حضاريا واقتصاديا ، مع أقطار وبلدان من حول مصر •

هذا وقد اعتمدت مصر لبعض الوقت على الرجال المشاة ، فى التحرك البرى بعيدا عن وادى النيل الأدنى ، فى دروب الصحراء الغربية أو الشرقية. كما اعتمد هذا التحرك أيضا على الحيوان . وصحيح أن الاجتهاد المصرى قد افتقد الحيوان الأفضل لأداء هذه المهمة ووصولا الى الهدف . وصحيح أيضا أن افتقاد الحيوان الأفضل قد حرم التحرك البرى من مرونة الحد الأقصى لاجتياز الصحراء واختراق حاجز المسافة على أى اتجاه . ولكن الصحيح — بكل تأكيد — أنهم استعاضوا بالحمار فى مرحلة وبالحصان فى مرحلة أخرى عن الجمل فى خدمة التحرك البرى[١] ، وهو يطارد الغزو ويحبط العدوان أو وهو يتحسس الأرض ويتعامل مع الأقطار والبلدان من حول مصر على الصعيد الآسيوى (الشام) ، وعلى الصعيد الافريقى (حوض النيل)[٢] .

ومن شأن هذا التحرك المصرى البرى ، الذى برهن على حسن استخدام الوسيلة لاختراق أو لاسقاط حاجز المسافة ، أن يصور كيف انفتح باب الاجتهاد العسكرى والتجارى والجغرافى فى وقت واحد ، وهو يتصدى للعدوان ويطارده أو وهو يتعامل مع الناس فى الأقطار من حول مصر ، أو وهو يتعرف على الأرض وأحوال الناس وأنماط حياتهم فى هذه الأقطار .

---

(١) لقد عرف المصريون القدماء الجمل وعاينوه من خلال علاقاتهم مع موطنه فى جنوب غرب آسيا . ولكن الذى لا شك فيه أنهم لم يستخدموه ولم يضموه الى ثروتهم الحيوانية لأداء وظيفى معين . ولعلهم أضمروا له البغض لأنه كان — فى نظرهم — الحيوان الذى حرك العدوان عليهم وأسعفه وهو يجتاز الصحراء الى حيث يتهدد الخطر الاستقرار المتشبث بضفاف النيل الأدنى وفروعه فى الدلتا . والمفهوم أن — الجمل — لم يتسلل الى افريقية وينتشر على صعيد الشمال الافريقى لكى يخدم اجتياز الصحراء الكبرى الا فى حوالى عصر البطالمة . وعن الحمار نذكر كيف خدم الانسان المصرى فى الحقل وفى الرحلة على مدى طويل . ثم عرف المصريون الحصان واقتنوا أعدادا منه حصلوا عليها من خلال التعامل مع العرب (العماليق) وأحسنوا استخدامه فى الكر والفر وفى تعزيز مظاهر العز والوجاهة وقد أثر استخدام الحصان كثيرا على مكانة الحمار .

(٢) رحلة حرقوف المصرى فى الأرض جنوب مصر فى اطار حوض النيل ، تعد — فى تقديرى — نموذجا ممتازا يعبر عن شكل وجدوى التحرك البرى الذى أحسن المصريون استخدام الحمار فيه ، لحساب التعامل التجارى وردع العدوان والكشف الجغرافى فى وقت واحد . ومن غير استغراق فى الحديث الأسطورى المشوق الذى يجسد ويجسم المغامرة الجسورة ويضيف اليها الاضافات المثيرة من نسج الخيال ، ينبغى أن نستشعر جدوى الحس الجغرافى الذى يصر هذه الرحلة فى الذهاب وفى الاياب ، وفى تسجيل ثمرة الاجتهاد الجغرافى الذى كشف النقاب لأول مرة عن بعض الأرض الافريقية جنوب الصحراء .

بل ومن شأن هذا التحرك المصرى البرى أيضا، أن يصف ويصور كيف أحسن هذا الاجتهاد استخدام الحصـــاد ، لكى يصعد مكانة مصر ، ويدعم تفوقها المرموق سياسيا وعسكريا واقتصاديا وحضاريا ٠

ومن الجـائز أن التحرك البرى المصرى قد تمـادى فى أداء مهمـاته الممتازة ، وفى تسجيل انجازات مفيدة ، لحساب الانفتاح المصرى على بعض الأقطار من حولها ، ومعرفتها جغرافيا وتحديد مواقعها ٠ ولكن من المؤكد فعلا أن هذه المنجزات التى أشبعت شهوة الانفتاح المصرى وسجلت انتصار الاجتهاد الجغرافى ، قد استنفرت حسه الجغرافى وصعدت التدبر والتفـكير فى مدركات هذا الحس ٠ ويبدو أن هذا الاستنفار كان من وراء شهوة ركوب البحر ، من أجل انفتاح على المدى الأوسع ، وتوسيع دائرتى التعامل والمعرفة الجغرافية بالأقطار من حول مصر ٠

ويتفق الباحثون على تصـــاعد الاجتهاد التجـارى المصرى فى ركوب البحر(١) ، وجنى ثمرات هـذا الاجتهاد ٠ وفى نفس الوقت وسع هـــذا الاجتهاد دائرة الرؤية الجغرافية توسيعا حقيقيا ، وشـد اهتمام الاجتهـاد الجغرافى فى صحبته الى أقطار كثيرة من حول مصر ٠ ومن الطبيعى أن نشير الى الابداع فى انجاز صناعة السفينة الأنسب للملاحة البحرية ، وأن نشير الى مشقة استحضار الأخشاب الجيدة لها من أقطار بعيدة(٢) ، لكى نتصور مدى الاهتمـام بركوب البحر قبل أن نتبين جدوى الاجتهاد وهو يخـــدم الانفتاح المصرى التجارى ويدعم الاجتهاد الجغرافى المصرى ٠

والرحلة البحرية ، سواء كانت فى البحر المتوسط ، أو كانت فى البحر

---

(١) فى اعتقاد بعض الباحثين ، أن صفحة النيل الأدنى كانت من أهم المدارس ان لم تكن أول مدرسة تعلم الانسان فى أحضانها ركوب الماء ٠ وفى اعتقادهم أيضا أن اسهام الاجتهـاد الحضارى المصرى فى صناعة وتجهيز السفينة وفى تشغيلها لا يمكن أن ننكره أو نتنكر له ٠ ويبدو أن حركة الملاحة وركوب البحر لم تنطلق – بكل الاطمئنان – من صفحة النهر الهـادىء الى سطح البحر الصاخب الا بعد أن اكتسبت مهارات وخبرات كثيرة ٠ وما من شك فى حاجة الملاحة البحرية الى هذه المهارات والخبرات لكى يتسنى لها تطويع البحر واذعانه لارادة التحرك الواثق ، وصولا الى الهدف ٠

(٢) هناك أكثر من دليل مادى تنطق به المدونات الفرعونية وصور استحضار الأخشاب من بر الشام لصناعة السفن ٠

الأحمر ، أو انطلقت من خلال أى من هذين البحرين ، تعنى المغامرة الجسورة التى تمضى بالضرورة من أجـــل هدف أو غاية • وصحيح أن القصص عن هذه الرحلات ، يحكى كيف واجه الاجتهاد المصرى الخطر فى عرض البحر ، ويقص كيف تضرر بغدر وعدوان وغضب البحر • ولـكن الصحيح أيضا ، أن هذا الاجتهاد المصرى الجسور لم يحجم أو لم يكف أو لم يرجع مقتنعا من الغنيمة بالاياب • وما من شك فى أنه قد واصل وداوم على ركوب البحر ، وبرهن على جلد واصرار فى الانفتاح على الأقطـــار التى استهدفتها • بل وما من شك أيضا فى أنه قد جنى ثمار هـــذا الانفتاح ، لحساب التعامل التجارى أو التعامل والمعرفة الجغرافية فى وقت واحد •

هذا ، وينبغى أن نذكر كيف حفلت المدونات من خلال هـــذه الرحلات البحرية المثيرة بالقصص الذى جســـد الاثارة أكثر من أى شىء آخر • بل تفننت رواية الأساطير(١) فى عرض الغرائب وتصوير العجائب ، واعتصرت الخيال فى ومجال وصف الأقطار التى أطلت عليها هـــذه الرحلات • ومن الجائز أن ننكر تماما ذلك التصور الذى يذهب ويتصور أن الأساطير بـكل ما انطوت عليـــه من خرافة ووهم وتهويل واثارة ، كانت من وراء الرحلة البحرية حافزا(٢) • ولكن الذى يجب أن نؤكد عليه هو ما أسفرت عنـــه

---

(١) من شأن كل أسطورة أن تحكى قصة عجيبـــا • ومن القصص الأسطورى فى التراث المصرى القديم نذكر أسطورة الملاح الذى نجا بعد أن غرقت سفينته فى البحر الأحمر • وتحكى هذه الأسطورة كيف أنه تشبث بجزيرة قابل فيها ثعبانا ناطقا بكلام • وتصور هذه الأسطورة كيف عايش الملاح هذا الثعبان ودار بينهما الحوار لبعض الوقت ، قبل أن يغادر هذه الجزيرة على سفينة انتشلته وعادت به الى مصر • ومن نفس هـــذا المعين الأسطورى ، نذكر أسطورة سيزوتريس البطل التى تمجد جسارته وتعظم انتصاراته • وتحكى هذه الأسطورة حكاية عجبا عندما تصور كيف أخضع هذا البطل الأسطورى مساحات كبيرة ، امتدت من البحر الأسود غربا الى الهند شرقا والى غرب افريقية جنوبا •

(٢) ما جاء فى قصص الأساطير التى حفل بها التراث المصرى القديم ـ رغم كل شىء ـ لا يمكن أن ينشأ من فراغ ، ولا يمكن أن يكون كله من صنع الوهم والخيال • بل هو ـ فى تقدير معظم الباحثين ـ قصص طوعت الرواية الحقيقية فيه لشطحات الخيال والوهم والتهويل• وقد أسفر هذا التطويع عن اضافات عجيبة الى سياق الرواية • وقد تتحول هذه الرواية مع مرور الوقت وتكرار الاضافة اليها الى شىء مثير غريب ، أبعد ما يكون عن واقع الحقيقة الصحيحة فيها • بمعنى أن شطحات الخيال التى تضيف الغرائب والعجائب تغطى على صـــدق الحقيقة وتطمسها فى نهاية الأمر • ومن الأدلة على ذلك أن الأســـاطير تضع رحلة الملاح الذى نجـــا بسفينته فى زمن سابق للرحلات المصرية البحرية الى بنت • وهذا بكل تأكيد عكس ما ينبغى أن نتصوره تماما •

الرحلة البحرية من حصـــاد وثمرات واضافات لحساب الاجتهاد المصرى • وقد تمثل هذا الحصاد فى تسجيلات متنوعة كثيرة ، تخلط بين الخيـال ، وهو يعتصر الوهم وينسـج الأسطورة ويركز على الغـرائب من ناحيـة ، والحقيقة ، وهو يعاين الواقع الجغرافى ويشاهد حقيقة الناس ويتعامل معهم اقتصاديا فى حالة السلام وعسكريا فى حالة الحرب(١)، من ناحية أخرى •

ومن المؤكد أن الرحلة البحرية قد أسفرت عن فرص حقيقية لاستطلاعات جغرافية كاشفة ، وعن معرفة بصفات الأرض وأحوال الناس • بل ربمـا أطلعت الاجتهاد الجغرافى المصرى على التفاعل الحياتى بين الناس والأرض فى بعض الأقطار التى أطلت عليها من البحر • ويستوى فى ذلك أن تكون الرحلة البحـــرية رحلة منتظمة أو رحلة غير منتظمة ، فى أى من البحرين الأحمر والمتوســط • وهنـــاك أكثر من دليل أو علامة ، تدلل على حسن اســـتخدام الحس الجغرافى الذى حفز بدوره التـــدبر والتفـكير من وراء الاجتهاد المصرى الذى سجل اهتمامه ومعرفته بالأقطار وتقصى الحقائق عن الحياة فيها(٢) •

وكان من شـــأن الرحلة البحرية ، فى البحر الأحمر ، وقد تطلعت ـ بكل الأمل ـ الى ادراك بلاد بنت ، والى التعامل التجـارى مع سكانها ، أن تصور مدى حرص الواقع الحضارى المتطور ، على انجـــاح الرحلة وعلى

---

(١) فى اعتقاد معظم الباحثين عن التراث الأسطورى القديم ، أن ترديد القصص الأسطورى يعكس انطباعا بشريا يجنح الى التهويل والاثارة • وكثيرا ما اعتاد الرواة دس الغريب والعجيب وحتى المستحيل فى الرواية الأسطورية ، لكى يجسد أو يضخم اعجابه وانبهـاره بالشخصية أو الشخصيات الأسطورية • ومن شأن هذا الاتجـــاه الذى يزين الحقيقة الثمينة بشطحات الخيال ، أن يتسبب فى مسخ هذه الحقيقة وطمس معالمها فى كثير من الأحيان وابعـاد الرواية عن أهدافها • وقد يصل الأمر فى كثير من الأساطير الى حد العجز التام لدى الفصل والتمييز بين صدق الحقيقة ووهم الخيال • وهذا معناه أن نفتقد فيها القدرة على استخلاص الواقع من الشوائب التى تعلق وتشوه ملامحه •

(٢) هناك أكثر من تسجيل شاهد يدلل على جدوى هذه الرحلة البحرية • بل وهنـاك أكثر من دليل على أن الدولة فى مصر كانت ـ بكل امكانياتها ـ ماديا ومعنويا ، من وراء تنظيم وتمويل ودعم هذه الرحلة • كما كانت الدولة أيضا فى انتظار عودتها وهى ترقب حصـــادها المرتجى • وهذا معناه ـ بكل تأكيد ـ أن التحرك البحرى الذى صحب الاجتهـــاد الجغرافى فى معيته ، وفجر الحس الجغرافى لحساب المعرفة الجغرافية بالأقطار من حول مصر ، قد اتخذ فى بعض الأحيان مسحة الطـــابع الرسمى ، الذى خططت له الدولة ووجهته توجيها هادفا ، لحساب مصلحة الدولة العليا •

حسن استثمار العــلاقات التى تنتهى اليها أهداف الرحلة مع أهل هــذه البلاد(١) . بل وكان من شـــأن هذه الرحلة البحرية الناجحة فى الغدو والرواح ، أن تسجل بيانا كاشفا ومفيدا ، يجسد شكلا من أشكال الاجتهاد الجغرافى وهو يطل على بعض الأقطار من حول مصر . ومن الجائز أن هــذا البيان الكاشف لم يفلح فى تحديد موقع بلاد بنت الجغرافى تحديدا قاطعا . ولكن الصحيح أيضا أن هذا البيان لم يضلل البحث عنها ، لأنه احتوى كل أهم البيانات ، التى تسعف الباحث وتبصره وترشد اجتهاده ، وهو يحدد موقعها الجغرافى من حول البحر الأحمر الجنوبى(٢) .

أما الرحلة البحرية فى البحر المتوسط ، فقـــد تطلعت بشكل يلفت النظر الى الوصول والتعامل ، مع أهم الموانى على ساحل بلاد الشام . ولقد كان من شأنها أن تمثل انطلاقة التعامل التجارى المصرى المبكر(٣) ، الذى

---

(١) أقدم التسجيلات الكاشفة عن الرحلة البحرية الرسمية الى بلاد بنت ، كان على عهد خوفو فرعون مصر فى حوالى الألف الثالثة قبل الميلاد . وهناك تسجيل آخر عن رحلة بحـــرية رسمية أخرى الى بلاد بنت جهزتها وأرسلتها حتشبسوت فى حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . وقد اتخذت هذه الرحلات البحرية شأنها فى ذلك شأن كل الرحلات البحرية الأخـــرى طابع المغامرة الجسورة . وكانت تتطلع ـ بكل تأكيد ـ الى التعامل التجارى مع بلاد بنت ، طلبـــا للبخور والعطور وغيرها من السلع التى ترنو اليها الحضارة المصرية . وهذا معناه أن رحلة بحرية من هذه الرحلات ذات الطـــابع الرسمى الى بلاد بنت لم تمثل عدوانا أو لم تستهدف الغزو العسكرى والقهر . ومعناه أيضا أن توالى هذه الرحلات البحرية يعبر عن تصاعد الحنكة فى ركوب البحر الأحمر تصاعدا أسعف التقدم جنوبا ووسع دائرة التعـــامل مع بلاد بنت . ومعناه بعد ذلك كله انفتاح الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وهو يصحب هذه الرحلات ويطلع بمعاينة الواقع الجغرافى فى بلاد بنت .

(٢) اجتهاد فريق من الباحثين ، يصور موقع بلاد بنت على الجانب الافريقى فى ظهير البحر الأحمر الجنوبى ، امتدادا من اريتريا الى الصومال . ويصور اجتهـــاد فريق آخر من الباحثين ، أن بلاد بنت تقع على الجانب الآسيوى فى ظهير البحر الأحمر امتدادا من عسير الى اليمن . وفى اعتقادى ـ على كل حال ـ أن بلاد بنت كانت تتمثل فى الأرض على الجـــانبين الافريقى والآسيوى من حول باب المندب . ويبدو أن المصريين قد استخدموا هذا الاسم استخداما مرنا ، لكى يصدق على الظهير الأرضى على جانبى البحر الأحمر والتى يتأتى وصولهم اليهـــا من خلال رحلات بحرية أو رحلات برية ، وحصولهم من أنحـــائها على البخور والعطور وكل السلع التى مثلت آنذاك انتاجا متخصصا فى بلاد بنت .

(٣) علاقة مصر بساحل الشام وبعض جـــزر البحر المتوسط قديمة ، ترجع الى حوالى الألف الرابعة قبل الميلاد . ويمكن أن نميز بين رحلات بحرية تولى أمرها نفـــر من المصريين العاملين فى حقل التجارة ، ورحلات بحرية تولى أمرها الدولة المصرية . ومن أشهر الرحلات =

سجل أول اجتهاد مصرى بنـــاء وهو يرسى قواعد أولية لحساب التجــارة الدولية • وكان من شأنها أيضا أن تصحب الاجتهاد الجغرافى المصرى فى معيتها ، الذى يسجل أول بيان كاشف لمدى اهتمام هذا الاجتهاد بالمعرفــة الجغرافية • وصحيح أن هذا البيان قد أفلح فى تجسيد التطلع المصرى ، الى ثمرة الاجتهاد الجغرافى ، وتوسيع دائرة المعــــرفة الجغرافية • ولــكن الصحيح أيضا ، ن هذا البيان قد أنجح الاجتهاد الجغرافى ، وكان من وراء شحذ الحس الجغرافى ، واعمال الفكر الجغرافى اعمالا ، يسفر عن انجــاز مشبع للمعرفة الجغرافية عن بلاد الشام •

هذا وينبغى أن نفطن الى دور الاجتهــاد الجغرافى المصرى النشيط ، عنـــدما حفز الفينيقيين واســـتخدم خبراتهم المكتسبة فى ركوب البحر(١) وكلفهم بالطواف وتحسس الطريق البحرى من حول اليابس الافريقى(٢) • وصحيح أن الجدل كان شديدا وما زال بين فريقين، فريق يكذب(٣) وقد رفض التصديق بما أورده هيردوت عن هذا الطواف ، وفريق يصدق (٤) وقد تلمس الأدلة على نجاح رحلة الطواف الفينيقية حـــول اليابس الافريقى • ولــكن الصحيح أيضا ، أن الاجتهــاد الجغرافى المصرى النشيط قد تلمس استثمار الاجتهــاد الفينيقى استثمارا واســـعا ، وتلمس منه حصادا يزودهم بزاد

الرسمية فى البحر المتوسط رحلة بحرية ، تمت بأعلى سنفرو فرعون مصر فى حوالى ٣٢٠٠ ق•م • وكانت هــــذه الرحلة مؤلفة من أربعين سفينة ومكلفة باستحضار الأخشاب لصناعة السفن •

(١) من الجائز أن نؤكد على أن المصريين قد أبدعوا فى بناء السفينة وتجهيزها للرحلة البحرية • وتجد فى التراث الاغريقى اعترافا بدور الاجتهاد المصرى المبدع فى صنع السـفينة ذات الخمسين مجدافا • ولكن الذى لا شك فيه أن المصريين قد اعترفوا اعترافا صريحا بكفاءة الفينيقيين وكيف أنهم أكثر خبرة ومهارة فى ركوب البحر الى المدى البعيد •

(٢) كانت رحلة الطواف حول افريقية ، بتكليف من نخاو فرعون مصر ، الذى قام حكمه فى الفترة بين ٦١٠ ، ٥٩٤ قبل الميلاد •

(٣) من الفريق الذى كذب بهذه الرحلة قديما بوليبيوس وحديثا وب • وقد بنى الانكار أو التكذيب على أساس أن هيردوت لم يعرض تقريرا شاملا عن هـــذه الرحلة ، يضمنه اسم قائدها ويبين أنواع السفن التى استخدمتها لانجاز مهمتها • وهناك اعتراض آخر على الوقت الذى استغرقته هذه الرحلة البحرية الطويلة ، وكيف أنه أقصر من أن يبث فى النفس الثقة والاقتناع بقيام هذه الرحلة بالفعل واتمام مهمة الطواف حول اليابس الافريقى •

(٤) فريق المصدقين برحلة الطواف حول افريقية الذى يقوده هولر ، لا يرتاب فى ضخامة الانجاز • وقد تصدى بكل المنطق والموضوعية للرد على الاعتراضات وتفنيدها فى مواجهة فريق الرفض • وهناك اعتقاد سائد بين هذا الفريق الذى يصدق بالرحلة وانجاز مهمتها يصور =

متجدد من المعرفة الجغرافية عن الأقطار التي يتعاملون معها في حوض البحر المتوسط ٠

والرحلة البرية بدورها ، سواء كانت على الصعيد الآسيوى ، أو على الصعيد الافريقى ، تعنى المغامرة الجسورة وهى تضرب فى دروب الصحراء الموحشة ، من أجل هدف أو غاية مباشرة(١) ٠ وصحيح أن قصص هـذه الرحلات البرية قصص مثير ، وهو يحكى كيف واجه الاجتهاد المصرى الخطر والمشقة على الطريق ، وكيف تضرر بوحشة ووعورة وطول الطريق ٠ ولكن الصحيح أيضا أن هذا الاجتهاد لم يجبن أو يتوقف أو يكف عن أداء دوره الوظيفى وتحمل مسئوليته ٠ وقد واصل هـذا الاجتهاد مهمته وانجازه ، وبرهن على جلد ومثابرة واصرار فى متابعة الانفتاح وجنى ثمراته ، لحساب ردع وترويض وتأديب العـدوان(٢) ، أو لحسـاب التعـامل التجارى(٣) ، أو لحساب المعرفة الجغرافية ، فى وقت واحد ٠

كيف ان هذه الرحلة البحرية كانت من وراء هدف تجارى باحث عن توسيع دائرة التعـامل التجارى مع أقوام وأقطار جديدة على الصعيد الافريقى ٠ واجتهاد مولر فى تصوير رحلة الطواف حول اليابس الافريقى تمثل — على كل حال — شيئا ممتعا وهو يوجه أو يقود دفاعا منطقيـا عن قيمة الحصاد الذى أسفرت عنه هذه الرحلة ٠ كما يصور مولر كيف انتفع الاجتهاد الجغرافى المصرى بهذا الحصاد فى نهاية الأمر واستثمره لحساب المعرفة الجغرافية ٠

(١) هناك أكثر من تسجيل شاهد — بكل الصدق — عن هذه الرحلة ٠ بل وهناك أكثر من دليل يدلل على تبنى حاكم مصر هذا الاجتهاد المثابر الذى حقق أهداف الرحلة البرية ٠ وهذا معناه أن بعض التحرك البرى الذى فجر الحس الجغرافى وفتح باب التدبر والتفـكير الجغرافى لحساب المعرفة الجغرافية ، قد اتخذ فى بعض الحالات الطابع الرسمى الذى خططت له الدولة وترقبت نتائجه ٠

(٢) كان ردع العدوان أو احباطه ورده على أعقابه مطلبا وهدفا عزيزا لتأمين الاستقرار وانجازه الحضارى الشامخ فى مصر ٠ وقد استشعرت مصر حكومة وشعبا وطأة هذا الخطـر الذى يبادر به البدو غير المستقرين على حدود مصر ، وكان حقا عليها أن تتصـدى له ٠ وفى اعتقادى أن الرحلة البرية سواء كانت رحلة سلام أو رحلة حرب ، قد اتخذت من الاستطلاع الجغرافى والكشف مطية لانجاح أغراضها وانجاز مهمتها على أفضل وضع ٠

(٣) عندما أخذ الاستقرار بزمام المبادرة ، وهو يرسى قواعد البناء الحضارى المصـرى بشقيه المادى والروحى ، قد استشعر الحاجة الى التعامل التجارى مع بعض الأقطار من حول مصر ، لاستكمال حاجة مصر من سلع ومنتجات لا تتوفر فيها ٠ وهذا معناه أن الواقع الحضارى وهو ينوع ويوسع دائرة ضروريات الحيـاة فى مصر ، كان — بكل تأكيد — من وراء الرحلة البرية وتجهزها وترقب عودتها ٠ وعندئذ كان الاستطلاع الجغرافى مطلوبة لـكى يبصر الرحلة ويوجه مسيرتها ، ولكى يرشد التعامل التجارى ومسيرته فى القنوات الصحيحة بين مصر وبعض الأقطار من حولها ٠

ومن المؤكد أن الرحلة البـرية كانت تتكرر من حين الى حين آخر ، بشكل غير رتيب الى بعض الأقطـار من حول مصر · ومع ذلك فليس من شأن هذا التكرار أن ينبىء بالانتظـام · بل وقد ينبىء بالدوام والاستمرار والاصرار على انجاز المهمة وتحقيق الهدف الذى تطلع اليه الاجتهاد المصرى النشيط · وفى اعتقاد زمرة من الباحثين ، أن هـذا التكرار والاستمرار فى الرحلة البرية ، قد فتح البـاب على مصراعيه ، لـكى يتحقق الاستطلاع الجغرافى والمعـاينة الكاشفة عن النـاس والأرض والتفاعل الحياتى فى كل الأقطار التى تعامل معها هـذا التحرك البرى(٤) · وهناك أكثر من دليل واضح ، يدلل على ذلك الانفتاح ، ويصور كيف كان الحس الجغرافى متيقظا ، وهو يبصر الاجتهـاد الجغرافى المصرى ، لكى يسـجل معرفته بالأقطـار ، ويكشف النقاب عن المجهول فيها ·

وكان من شـأن الرحلة البرية التى تحركت على الصعيد الافريقى ، أن تجتـاز حد مصر الجنوبى(١) صعودا الى بلاد كوش ويام فى أحضـان النيل · وصحيح أن بعض هذه الرحلات البرية ، قد أفلحت فى احبـاط العدوان على مصر وردته على أعقابه · وصحيح أيضا أن بعض هذه الرحلات البرية ، قد أفلحت فى جنى ثمرات التعامل التجارى مع أقطار افريقيا جنوب مصر · ولكن الصحيح — بكل تأكيد — أن هـذه الرحلات البرية جميعها ، قد أفلحت فى توسيع دائرة المعـرفة الجغرافية ، عنـدما ضمنت القصص الذى يحكى حكايتها بيانا جغرافيا كاشفا عنها بالتصريح أحيانا وبالتلميح أحيانا أخرى(٢) · وينبغى أن نؤكد على أن هذا التوغل الذى سار فى دروب

---

(٤) من أهم ثمرات هذا التحرك البرى النشيط أن كانت المواجهة المباشرة بين الاجتهاد الحضارى المصرى والاجتهاد الحضارى فى الأقطار الأخرى من حول مصر · وكانت هذه المواجهة سلمية فى بعض الأحيان · ومن ثم تحقق شكل من أشكال الاحتكاك الحضارى البناء ، لحساب الانسان بصفة عامة ، وهناك أكثر من دليل على جدوى هذا الاحتكاك الحضارى وما بنى عليه من أخذ وعطاء وتفتح من أجل بناء حضارى أفضل فى مصر أو فى الأقطار من حول مصر ·

(١) فى كثير من الأحوال اتخذت الرحلة البرية شكل الحملة العسكرية على بلاد النوبة · وقد حملت الدولة هذه الحملة مسئولية ردع العدوان وتعقبه كلما تهدد أمن مصر واستشعرت الخطر الذى يدق على بابها الجنوبى · وفى بعض الأحوال الأخرى ، اتخذت الرحلة شكل حملة السلام والتعاون مع بلاد النوبة وما ورائها جنوبا · وقد تحملت هذه الحملة عندئذ مسـئولية نجاح الانفتاح والتعامل الذى كان مطلبا اقتصاديا وحضاريا فى وقت واحد ·

(٢) من خلال مراجعة سجل الرحلات البرية التى تزخر بالقصص والروايات عن التقدم الى بلاد كوش وبلاد يام — وفى مقدمتها رحلة حرقوف ذات الطابع الرسمى البحت — نتبين بكل =

تحاذى النيل فى بعض مراحل الرحلة(١) ، وسار فى دروب تبتعد عن النيل فى مراحل أخرى منها ، قد ترك من ورائه بصمات الحضارة المصرية وغرس جذورها وأشاع المعرفة بها بين الناس ، لكى تنمو وتعيش وتشيع فى أحضان الاستقرار المتشبث بالنيل جنوب مصر(٢) .

هذا وقد كانت هذه الرحلات البرية ـ بكل تأكيد ـ من وراء الاجتهاد الجغرافى المصرى الذى انبرى للتعرف على النيل وكشف النقاب عن بعض الحقائق المجهولة عن مجرى النيل وروافده ، جنوب مصر(٣) .

الوضوح ـ مدى الاجتهاد الذى يحكى بالتصريح أو بالتلميح عن جغرافية الأنحاء التى مرت بها قوافل الرحلة فى الغدو والرواح . ومن الجائز أن يكون الخلط شديدا بين الحقيقة والخيال أو بين حصاد الرؤية الجغرافية ، وسيرة الأحداث التاريخية . ولكن الصحيح أيضا أن هذا التصوير المخلوط كان ـ رغم التهويل والمبالغة التى أضافتها شطحات الخيال ـ تصويرا مفيدا ، لحساب المعرفة الجغرافية وكيف لا يكون مفيدا وهو كاشف النقاب عن ظلمة المجهول من بعض الأرض ونبض الحياة عليها .

(١) ألزمت الجنادل التى تنتشر فى مجرى النيل النوبى الرحلة جنوب حد مصر الجنوبى الى اسقاط أو اختراق حاجز المسافة وصولا الى الهدف على امتداد الطرق والدروب البرية فى الصحراء الكبرى . وليس من قبيل الصدفة أن تشبثت الرحلة البرية بضفة النيل الوعرة التى تختنق المجرى ولا تفسح المجال لوادى يحتوى النهر . ولكنها اتخذت هذا الطريق ، لكى تضمن مورد الماء وهى تستخدم الحمار لاجتياز القطاع الوعر من الصحراء على جانبى النيل النوبى . وليس من قبيل الصدفة أيضا أن تحررت الرحلة البرية من الالتصاق بضفة النيل جنوب خط عرض دنقلة ، ولكنها اتخذت هذه الطريق الى كردفان التى يوفر المطر فيهما مورد الماء بكم أنسب .

(٢) صحيح أن النيل والتربة الفيضية فى كل جيب من الجيوب التى تحتوى الارساب على ضفة من ضفتى النيل النوبى ، كان من وراء نمط الاستقرار المتميز فى انحاء من النوبة جنوب أرض مصر . وصحيح أن الآثار القديمة التى تكشف عن الوجه الحضارى المادى والروحى فى النوبة ، تمثل تراثا قديما من صنع وانتاج هذا الاستقرار . ولكن الصحيح أيضا أن التشابه والتكامل بين تراث مصر القديمة من الآثار وتراث النوبة منها فى كل من مروى القديمة والنجمة والمصورات لم يكن من قبيل الصدفة البحتة أبدا . وفى اعتقاد كل الباحثين المنصفين ان الانفتاح العريض الذى تأتى تأسيسا على دور الرحلات البرية الوظيفى وأدائها ، قد هيأ فرص الاحتكاك الحضارى ، وتولى مسئولية ترشيد الأخذ والعطاء الحضارى المتبادل بين الشركاء فى صناعة وتطوير الحضارة ، على ضفاف النيل فى النوبة ومصر . وفى اعتقادى أيضا أن المعرفة الجغرافية بالنوبة قد أتاح للحضارة المصرية أن تتخذ منها مأوى تعتصم به ، عندما تستشعر الخطر الزاحف على أرض مصر فى بعض فترات الضعف من الأرض الآسيوية .

(٣) أثار النيل وجريانه الرتيب وهو يؤدى دوره فى دعم ومظاهرة الحياة على الضفاف ، انتباه الحس الجغرافى المصرى . وكان هذا الحس الجغرافى ـ بكل تأكيد ـ من وراء التدبر =

أما الرحلة البرية على الصعيد الأسيوى ، فقـــد اتخذت سبيلها عبر الدروب الصحراوية فى سيناء الى أرض الشـــام • ونستطيع أن نؤكد على قيمة هذه الرحلات البرية وجدواها ، وهى تطارد العدوان وتتعقبه أو وهى توقف مد الغزو وتحبطه أو وهى تكبح جماح التسلل الى أرض مصر واحتلال أطراف من أرضها الطيبة • كما نستطيع أن نؤكد أيضـا على قيمة هـــذه الرحلات البرية وعلى جـــدوى دورها الوظيفى وهى تفتح باب الاحتكاك الحضارى مع حضارات الشعوب والأقوام فى الأرض الآسيوية(١) ، أو وهى تصحب الاجتهـــاد الجغرافى فى معيتهـــا فيصقل معرفته الجغرافية ويتزود برصيد عن الأرض والناس وانماط حياتهم فى أحضان أوطانهم فى ظهير البحر المتوسط • ثم هى بعد ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، رحلات نشيطة لحساب التعامل التجارى ، فى خدمة الانتفاع المباشر أو غير المباشر ، بحركة تجارة المرور ، التى كانت تنساب بين رأس الخليج العربى وموانى البحر المتوسط الشرقى(٢) •

= والتفكير الذى تطلع الى الرحلة البرية جنوب مصر وحفزها للكشف عن منابع النيل • وفى اعتقاد بعض الباحثين المنصفين على الأقل أن هذه الرحلات قد أفلحت فى معاينة الجريان النيلى جنوب خط عرض الخرطوم ، وفى تزويد المعرفة عن النيل وصولا الى خط عرض ملكال • بل لقـــد تجاوز البعض هذا التصور واعتقد أن المعرفة بلغت أطرافا من حوض بحر الغزال • ومن الجائز أن نؤكد على أن رؤية الاجتهاد الجغرافى المصرى قد توقفت عند خط عرض الخرطوم وأن ما تلاها جنوبا كانت معرفة مشوهة وممسوخة • ولكن الصحيح الذى نؤكد عليه انه من خلال الخيال والتخمين والتهويل استخلص الاجتهـــاد الجغرافى المصرى فكرة ورود الايراد النيلى من منبعين متباينين ، وعجز فى نفس الوقت فى ابراز ماهية هـــذه الحقيقة وتنقيتها من كل أو بعض الشوائب التى زخرت بها الأساطير والروايات القديمة عن منابع النيل •

(١) كان من شأن الاجتهاد المصرى أن يمرح فى بعض الفترات فى أرض الشـــام ، وأن يجنى ثمرة وجوده اقتصاديا وعسكريا ، وأن يتراجع عنها فى بعض فترات الضعف • وهـــذا معناه أن مصر لم تؤكد على صيانة سلطانها وحيازة أرض الشام • ومعناه أيضا أن هذه الأرض كانت نطاقا عريضـــا حاجزا بين الوجود الحضـــارى المصرى فى وادى النيل الأدنى والوجود الحضارى البابلى فى ما بين النهرين • ولم يكن غريبا أن تشهد هذه الأرض الحاجزة مد الوجود المصرى وجزره ومد الوجود البابلى وجزره ، أو أن تشهد هـــذه الأرض الحاجزة المواجهة التى أسفرت عن شكل من أشكال الاحتكاك الحضارى بين نمط الحضـــارة المصرية ونمط الحضـــارة العراقية •

(٢) كانت حـــركة القوافل بين خليج العرب والبحر المتوسط عبر أرض الشـــام بمثابة شريان من الشرايين الحيوية التى خدمت حركة التجارة بين مواطن الانتاج فى أحضان حضارات جنوب آسيا ومواطن الحضارات فى أحضان حوض البحر المتوسط •

وهكذا نتبين كيف أبلى الاجتهاد الجغرافى المصرى بلاء حسنا ، سواء وهو يتجه فى الاتجاه الفلكى الرياضى ، أو وهو يتجه فى الاتجاه العـــامل فى حقل المعرفة الجغرافية بالأرض والناس فى مساحات من حول مصر • وينبغى أن نستشعر كيف رشد الحس الجغرافى هذا الاجتهاد ، لكى يضع اللبنات الأولية فى بنية الفكر الجغرافى القـــديم • كما ينبغى أن نستشعر أيضا كيف انكب التسجيل على كتابة حصاد هذا الاجتهاد ، لكى يمثل قطاعا هاما من تراث مصر القديمة •

وفى مقابل هذا الاجتهـــاد الجغرافى المصرى النشيط ، نفتقد الاهتمام برسم وتجهيز الخريطة • بمعنى أن انصب التعبير عن ثمرات هذا الاجتهاد ، على استخدام الكلمة المكتوبة ، أكثر من أى شىء آخر • وبمعنى أن التعبير الجيد من خلال رسم الخريطة لم يكن أمرا واردا ، وأن انتاج الخرائط كان — بكل تأكيد — انتـــاجا متواضعا الى حد كبير بالقياس الى الانتـــاج الجيـــد المكتوب من المعرفة الجغرافية •

ومن الجائز أن عملية رسم الخريطة كانت مبنية على براعة فى مسح الأرض مسحا تفصيليا ، عقب كل فيضان ، من أجل حساب وتقدير الضرائب الواجبة على الفلاحين • ومن الجائز أيضـــا أن تفتقـــد نماذج الخرائط(١) الدقة ، وتعبر عن بدايات متواضعة ، فى خدمة المعـــرفة الجغرافية • ولكن

---

(١) تتمثل نماذج الخرائط المصرية القديمة فى :

(أ) خريطة للمســـاحة التفصيلية ، متمثلة فى النموذج المحفوظ فى متحف تورينو • ويرجع تاريخ انشاء هذه الخريطة الى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد • وهى مرسومة لكى تبين منطقة من مناطق تعدين الذهب فى الصحراء الشرقية •

(ب) خريطة جغرافية متواضعة ، تتمثل فى النموذج المحفوظ فى متحف تورينو أيضا • وتوضح هذه الخريطة — بصرف النظر عن مدى التشويه — خط سير حملة من حملات مصر على أرض الشام • وتتضمن هذه الخريطة المتواضعة بعض البيانات الجغرافية عن مصر والشام •

(جـ) خريطة ارشاد من نوع غريب • وقد توخى رسم هـــذه الخريطة الغريبة قيـــادة أو توجيه الموتى فى طريقهم الى الدار الآخرة •

راجع ١ — د• صبحى عبـــد الحكيم وماهر الليثى : علم الخرائط — الجـــزء الأول — القاهرة — مكتبة الانجلو ١٩٦٦ •

٢ — د• شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى — الجزء الأول — القـــاهرة — مكتبة الانجلة ١٩٦٩ •

٣ — Thomson, J.O.: History of Ancient Geography, Cambridge, 1948.

المؤكد أن هناك نماذج متنوعة من الخرائط ، تصـــور استشعار الاجتهـاد الجغرافى المصرى قيمة هـــذه الخرائط ، وتعبر عن ريادة فى اســـتخدام الخريطة لبيـان كاشف عن بعض المعـــرفة الجغرافية أحيانا ، وعن بعض الأغراض الأخرى أحيانا أخرى ٠

ومهما يكن من أمر فان الاجتهـاد الجغرافى المصرى القديم ، قد حقق انجازات مفيـــدة ، تستحق ــ بـكل تأكيد ــ التقدير ٠ وكيف لا تستحق ــ بالفعل ــ هذا التقدير وهى انجازات رائدة واضافات مجـددة ٠ وما من شك فى أن الدعم الحضـارى العـريق قد أيد الاجتهـاد الجغرافى وظاهره ، وهو يحقق هـــذه الانجـازات ٠ وليس من قبيل الصدفة أن تكون هـذه الانجازات لبنات سوية فى بنية الفـكر الجغرافى وقاعدتها العريضة ، وأن تحدد الاضافات معالم الطريق التى سارت فيه مسيرة الفكر الجغرافى القديم فى طريقها السوى ٠

— — — — — — — — — — —

الاجتهـاد الجغرافى البابلى

هذا اجتهاد آخر قديم بنى على حسن استخدام الحس الجغرافى ٠ ولقد كان الاجتهاد ــ بالضرورة ــ وليدا شرعيا ، لكل العوامل الطبيعية والبشرية التى اشتركت فى صياغة الشخصية الحضارية ، التى عاشت فى أحضـان السهول الفيضية من حـــول دجلة والفرات ٠ وبصرف النظر عن جـدوى العلاقات الايجابية البنـاءة ، بين الواقع الحضارى فى وادى النيل الأدنى ، والواقع الحضارى فى سهول الرافدين ، وبصرف النظر عن جدوى الاحتكاك الحضارى التى تأتى تأسيسا على هذه العلاقات ، ينبغى أن نستشعر كيف تفجر الحس الجغرافى باهتمام باحث عن الواقع الجغرافى فى سهول الرافدين ، وكيف حمل الاجتهاد البابلى أمانة ومسئولية هـذا الاهتمام الباحث ، عن المعرفة الجغرافية ٠ كما ينبغى أن نتبين أيضـا كيف سار الاجتهاد البابلى الجغرافى على نفس الدرب ، الذى سار فيه الاجتهاد الجغرافى المصرى ، وصولا الى هدفين ٠

ومن أجل الهـــدف الأول ، تطلع الاجتهاد الجغرافى البابلى ــ بـكل الوعى ــ الى الكون الفسيح وهو يعـــاين قبة السماء ويرصـد أجرامها ٠ وقد سعى هذا الاجتهاد ــ بكل تأكيد ــ الى استشعار مكان الأرض فى هذا الكون الفسيح ٠ كما تلمس الاحاطة بمكانة الأرض بين أجـــرام السماء ٠

وقد أسفر هذا الاجتهاد - بالفعل - عن اسهام جيـــد مناسب فى البحث الجغرافى الفلكى • كما أسعف العمل الرياضى الذى عكف على صناعة التقويم وحساب الزمان •

ومن أجل الهدف الثانى ، تطلع الاجتهـاد الجغرافى البابلى - بـكل الفطنة - الى الارض والأقطار من حول سهول الرافدين • وقد سعى هذا الاجتهاد - بكل تأكيد - الى استشعار قيمة الرحلة فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، وهو يتلمس كشف النقاب عن المجهول من الأرض وأحوال النـاس فيها • وقد أسفر هذا الاجتهـــاد - بالفعل - عن اسهام جيد مناسب فى صناعة الجغرافية الوصفية ، وعن ارتيـــاد مساحات من الأرض ومعايشة النـاس فيها •

ولقد كان من شـأن الاجتهاد الجغرافى البابلى الذى انغمس فى بحث تحسس أبعاد الكون ، وفى تصور مكان الأرض ومكانتها فى هـذا الكون ، أن يزج برؤيته فى أحضان التصور الأسطورى ، وأن يستغرق فى الوهم والخيال(١) • وصحيح أن هذا الاجتهاد قد توصل من خلال التدبر والتفكير الى أن الماء هو أصل كل شىء ، وأن قوة الخالق كانت من وراء بداية التكوين وصناعة الحياة والأحياء • ولكن الصحيح أيضا أن تسلط الخيال والتصورات الأسطورية قد شوه حصاد وثمرات هذا الاجتهاد الى حد يلفت النظر • وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى البابلى قد تخبط أحيانا وهـو يقفز من التفكير المنطقى السـوى الى التفـكير الفج غير السوى • ومعناه أيضـا أن الحس الجغرافى الصادق كان بصيرة رشدت هذا الاجتهاد عندما أسفر عن التفكير المنطقى السوى فقط • أما التفكير الفج غير السوى فهو علامة على مدى تنكر هذا الاجتهاد فى بعض الأحيان ، للاستشعار الذى ينبض به الحس الجغرافى الصادق •

وبصرف النظر عن التردى فى هـــذه السوءة التى أغرقت الاجتهـاد البابلى فى التصور الأسطورى الكاذب ، ينبغى أن نتصور كيف وجه هـــذا الاجتهاد صناعة التقويم وحساب الزمان فى الاتجاه الصحيح • وما من شك

---

(١) تذهب الأسطورة البابلية التى تنسجها خيال الاجتهاد الجغرافى البابلى الى تصور شكل الأرض على هيئة قفة مقلوبة تطفو على سطح المحيط ، كما تذكر أنها تتألف من سبع طبقات • ويوغل التصور الأسطورى الى حد تصور مركز الكون كله عند منبع الفرات فى منحدرات جبال طوروس •

فى أن هذا الاجتهاد قد أجاد رصد الأجرام فى السماء ، وأحسن استخدام بعض الأجهزة الأولية ، التى أبدعها لحساب عمليات الرصد ومعاينة قبة السماء(١) • وقد تجرأ هذا الاجتهاد البابلى - بكل تأكيد - عندما عكف على استشعار العلاقة بين الأجرام فى السماء وحظوظ الناس وأقدارهم •

هذا ، وقد رصد الاجتهاد البابلى الجغرافى حركة القمر وحركة الشمس واستشعر الحس الجغرافى ما تعنيه بالنسبة لحركة الزمان ومرور الوقت • واعتمد هذا الاجتهاد على حركة القمر فى حساب الزمان ، وتحديد طول الشهر فى هذا التقويم بما يتراوح بين ٢٩ ، ٣٠ يوما • ثم أفلح هذا الاجتهاد فى ادراك الفرق الزمنى ، بين حساب التقويم القمرى وحساب التقويم الشمسى للزمان • ولقد أضاف عندئذ شهرا الى السنة حسب التقويم القمرى ، لكى تصبح ١٣ شهرا ، وتحقق الحساب الاكثر انضباطا لحركة الزمان •

ولم يتوقف الاجتهاد البابلى عند هذا الحد ، بل لقد قسم الشهر الى أسابيع امعانا فى ضبط حساب حركة الزمان • بل لقد قسم هذا الاجتهاد - بكل الوعى والفطنة - اليوم الواحد الى أربع وعشرين ساعة ، وقسم الساعة الى ستين دقيقة ، وقسم الدقيقة الى ستين ثانية • ومن شأن ذلك كله أن يصور كيف طوع الاجتهاد الجغرافى البابلى ثمرة من ثمراته تطويعا ممتازا لحساب حركة الزمان وهى مسألة جوهرية حضاريا • وهذا معناه أن هذا الاجتهاد قد أسعف البناء الحضارى لكى يسجل البابليون فضل الريادة فى حساب الزمان • بل ومعناه أيضا أن هذا الاجتهاد الذى أفلح فى تصور العلاقة بين حركة القمر وحركة الشمس ومدى عدم التوافق وعدم الانضباط بينهما ، قد أوصل التراث الحضارى العالمى الى نقطة تحول هامة ، تحقق عندها التمييز بين التقويم القمرى والتقويم الشمسى •

وأضاف الاجتهاد البابلى الى ذلك كله محاولة فجة لتفسير تعاقب الفصول على مدار السنة • كما رصد حركة انتقال الشمس ونزولها فى البروج(٢) أو الكويكبات البروجية التى تتمثل فى اثنتى عشر برجا • بمعنى

---

(١) سجل المرصد الفلكى بعض الكواكب ومنها عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل• كما سجلت المعاينة ظاهرتى الخسوف والكسوف وتحدث عنهما من تعليق يحاول تفسيرهما •

(٢) يورد هذا البيتان من الشعر هذه البروج مرتبة حسبما تجىء فى حساب السنة على التقويم الشمسى • وهذا البيتان هما :

حمل الثورة جوزة السرطان ❋❋ ورعى الليث سنبل الميزان

ورمى عقرب بقوس لجدى ❋❋ نزح الدلو بركة الحيتان

أنه تصور نزول الشمس فى زيارة كل برج من هـــذه البروج لمدة ثلاثين يوما • وبمعنى أنه تعرف على قاعدة الحساب لحركة الزمان ، التى بنى عليها التقويم الشمسى • وتولى عنـــدئذ مظاهرة الابداع الحضـارى الذى عكف على صناعة السنة الشمسية •

أما الاجتهاد الجغرافى البابلى الـــذى انفتح على رؤية ومعاينة الأرض فى الاقطار من حول سهول الرافدين ، فقد انساق فى معية الرحلات من كل نوع وصـــولا الى هدفه • وكان من وراء الرحلات التى اصطحبت الاجتهـاد الجغرافى البابلى فى صفوفها ، واقع حضارى متفتح يحفز ، ويدعو — بـكل الالحاح — الى الانفتاح على العالم من حوله ، وجنى ثمرات التعامل التجارى(١) مع الناس فى تلك الأقطار • وهـــذا معنـاه أن الرحلة ســواء كانت برية أو بحرية ، قد أسعفت الاجتهاد الجغرافى وهو يوسع دائرة المعرفة الجغرافية • وفى نفس الوقت انتفعت الرحلة بثمرات هذا الاجتهاد ، وهو يبصر تحركاتها فى الغدو والرواح على الطريق ، أو وهو يرشد التعامل التجارى مع الناس فى الأقطار التى وصلت اليها(٢) •

وحتى عندما خرجت الرحلات من أرض بابل فى خدمة العمل العسكرى ، لحساب الغزو عنوة ، أو لحساب ردع العدوان ، انســاق الاجتهاد الجغرافى البابلى فى ركابها • ومن الجائز أن يستعين العمل العسكرى بالحس الجغرافى وحسن استشعاره خصائص الواقع الجغرافى فى الأرض لكيلا تنحاز الى صف الغريم وتحارب ضده • ولكن من المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى الذى استشعر هذا الحس الجغرافى قد أطل — بكل تأكيد — على الأرض التى تشـهد الغزو أو مطاردة العدوان ، وانتفع بمعاينة الواقع الجغرافى فى أنحائها •

ومن خلال المعاينة للأرض والتعايش مع الناس ، ومن خلال الاستماع الى الرواية عن المشاهدات فى الرحلة ، جمع الاجتهاد البابلى أوصال معرفته

---

(١) افتقار الحضارة البابلية الى كثير من المواد الخام فى وطنها فى أحضان سهول الرافدين قد الزمهم بالبحث عن معين يعطى هذه المواد الخام • وهذا معناه أن الخروج فى رحلات قد بنى على ارادة الحصول على هذه المواد الخام من الأقطار المجاورة • ومعناه أيضا أن التعامل التجارى الذى أسفرت عنه هذه الرحلات كان من قبيل الاستجابة لطلب الخام الذى يمثل ضرورة ملحة لحساب الحضارة البابلية ووجودها السوى •

(٢) لا غرابة فى أن نستشعر جدوى المصلحة أو المنفعة بين الاجتهاد التجارى والاجتهـاد الجغرافى ، لحساب الواقع الحضارى فى دولة بابل •

الجغرافية . وقد عكف هذا الاجتهاد ـ بكل تأكيد ـ على تسجيل حصاد معرفته الجغرافية في الوثائق البابلية ، التى تحكى وتصور فى سرد وتوصيف جغرافى عام أبعاد هذه المعرفة فى الأقطار التى تعرف عنيها من حول بابل . ويشهد هذا التسجيل على نجاح هذا الاجتهاد وهو يطل على الأرض من حول بابل أو وهو يطلق عليها أسماء ويحدد مكانها وموقعها الجغرافى الصحيح من حول أرض بابل(١) .

هذا ، ومن شأن السجلات والمدونات(٢) التى احتوت بعض جوانب التراث البابلى القديم ، أن تسجل قصصا يصور بعض الرحلات التى خدمت التحرك الحربى أو فتحت باب التعامل التجارى مع جيران بابل . كما تسجل هذه المدونات أيضا بيانات كثيرة تنبىء بحسن استخدام الحس الجغرافى وكيف أدت هذه الرحلات دورا وظيفيا فى الكشف الجغرافى . وهذا معناه أن الاجتهاد الحضارى الذى عكف على تسجيل التراث استشعر قيمة وجدوى الاجتهاد الجغرافى ، وهو يوسع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض والناس وبالتفاعل الحياتى فى كثير من الأقطار من حول بابل .

ومن الجائز أن يكشف التسجيل عن خلط شديد ، بين ما يحكيه القصص الأسطورى وهو يضخم الأبطال والشخصيات الأسطورية(٣) ، وما يحكيه الواقع عندما يجسد نمط أو أنماط الحياة فى الأقطار من حول بابل . ومن الجائز أن يشوه هذا الخلط المعرفة الجغرافية وأن يضلل الباحث عن الصحيح منها . ولكن الصحيح أن هذا التسجيل يجسد الانفعال وطابع الانبهار الذى تردى فيه الرحالة(٤) ، وهم يخوضون تجربة الرحلة

---

(١) أطلقت بابل اسم عيلام على الأرض جنوبها ، واسم أكاد على الأرض فى شمالها ، واسم سوبارتو على الأرض فى شرقها واسم أمورو على الأرض فى غربها .

(٢) تضم هذه السجلات ثمرات الاجتهاد الجغرافى ، التى تبصر السفر والرحلة من مكان الى مكان آخر فى بعض الأحيان ، والتى ترشد الحكم والادارة وفرض النظام وسلطان الحكم فى بعض الأحيان الأخرى .

(٣) من أهم وأخطر الشخصيات الأسطورية جلجاميش . وقد أوردت التسجيلات الكثير بشأن تصوير بطولته وتجسيد قوته وتعظيم اقدامه الجسور فى رحلة طويلة فى أحضان شبه جزيرة العرب وعبور البحر قرب عدن الى جزيرة سوقطرة . أما شخصية سميراميس فقد أبرزها التسجيل الأسطورى عندما صور كيف أنجزت هذه الشخصية الجسورة رحلات جريئة فى حوالى سنة ٦٨٠٠ قبل الميلاد ، وكيف قادت الانتصار البابلى فى أقطار كثيرة .

(٤) من أهم فريق المغامرين البابليين ، الذين سجلوا نشاط وتفتح الاجتهاد الجغرافى من خلال الرحلة فى مساحات من حول أرض بابل ، تذكر : (=

ويغاملون ــ بكل الجسارة ــ وصولا الى أهداف ، أضيفت بقصد أحيـانا ، ومن غير قصد أحيانا أخرى الى حساب المعـــرفة الجغرافية • بل قد يبدو تسجيل الانفعال والانبهار أروع وأصدق من تسجيل الحقائق التى تعبر عن الرؤية الجغرافية الصحيحة •

هذا ، ويبدو أن الرحلة ســواء كانت برية تدب فى دروب وعرة على الأرض ، أو كانت بحرية تخاطر فى البحر المخيف ، قد أطلقت العنان للحس الجغرافى وهو يرقب ويلاحظ ويبصر مسيرة هذه الرحلة • بل لقــد برهنت النتائج على أن هذا الحس الجغرافى قد فجر قدرات وطاقات الاجتهاد الجغرافى ، وشحذ التدبر والتفكير الجغرافى • وفى اعتقــــاد معظم الباحثين أن الواقع الحضـــارى قد نمى هـــذا الحس الجغرافى ، وأحسن توجيهه واستخدامه أو تسخيره لحساب الاستشعار الجغرافى المفيد[١] •

وفى نفس الوقت ، أدى الاجتهاد الجغرافى البابلى دوره ــ بكل صدق ــ وهو ينتج بعض الخرائط الجيدة[٢] • وما من شك فى انه قد اتخذ من هذه الخرائط وسيلة يصب فيها تعبيره وتصوراته عن جغرافية المكان • ومن الجائز أن ندرك كيف أسهم الاجتهاد فى الرصد الفلكى والرياضيات فى حسن اخراج هذه الخرائط وسلامة ما تنبىء به أو تعبر عنه • ولكن الذى لا شك فيه أن حسن استخدام الحس الجغرافى فى التصور عـلى المستوى الاقليمى لأرض بابل وما حولها ، قد أسعف الاجتهاد البابلى ، وأبرز نجاحه

(أ) أسرحدون الذى طوف كثير فى أرجاء ميديا •

(ب) بنوخذنصر الذى رحل فى اتجاه الغرب وطوف بالأرض وعايش الناس فيها •

(ج) سرجون الذى رحل فى البحــر وأطل على كثـير من البـــلاد التى حملته اليهــا الرحلة البحرية •

(١) تحفل مدونات سرجون بتصوير شيق يصور أبعاد المخاطرة التى واجههــا فى عرض البحر • وقد ذكر أنه خرج فى أكثر من رحلة بحرية طويلة • كما لجا الى أساليب الغـــزو وأحسن استثمار الانفتاح على شعوب الأقطار التى أطل على سواحلها •

(٢) يضم التراث البابلى خرائط متعددة نقشت حفرا على ألواح من الطين • وهناك اعتقاد عام أن الأعمال المساحية فى بابل ، قد هيأت لأن تكون الخرائط معبرة عن الغرض الذى وضعت وجهزت من أجله • وترجع أقدم خرائط بابل (لوحة جاسور) الى حوالى عام ٢٥٠٠ قبــل الميلاد • وتصور هـــذه اللوحة ارض بابل وهى تلتئم من حول الجريان النهـــرى فى سهول الرافدين • وقد سجل عليها الجهـــات الأصلية ، امعـــانا فى التعبير عن مكان بابل وموقعها الجغرافى •

فى رسم هذه الخرائط واعدادها(١) ٠

ومهما يكن من أمر ، فقد حقق اجتهاد الجغرافى البابلى انجازات مفيدة، تلفت النظر وتستحق - بكل تأكيد - التقدير ٠ وكيف لا تستحق بالفعل هذا التقدير ، وهى اسهام صادق وخلاصة فكر ذكى فجره حسن جغرافى يقظ ٠ ولا نشك - بالطبع - فى قيمة الدعم الحضارى العريق الذى أيد هذا الاجتهاد الجغرافى البابلى وظاهره ، وهو ينكب على آداء دوره الوظيفى ٠ وليس من قبيل الصدفة أن تكون هذه الانجازات لبنات سوية فى بنية الفكر الجغرافى القديم وقاعدتها العريضة ٠ بل وليس من قبيل الصدفة أيضا أن تحدد الاضافات البابلية التى أسفر عنها الاجتهاد الجغرافى معالم الطريق التى سارت فيه مسيرة الفكر الجغرافى القديم فى سبيلها السوى ٠ ولكن المؤكد بالفعل أن هذا كله كان وليد الانجاز الحضارى فى حضن الاستقرار فى سهول الرافدين ٠

الاجتهاد الجغرافى الفينيقى :

وهذا اجتهاد قديم آخر فجره حسن جغرافى ، استشعر الحاجة الى معرفة تكشف النقاب عن الارض ، فى أوسع اطار من حول الوطن الفينيقى(٢) ٠ ولقد كان هذا الاجتهاد - من غير شك - وليدا شرعيا ، لكل

---

(١) هناك خريطتان مهمتان فى اطار التراث الجغرافى البابلى ٠ وينبغى تذكر كيف انهما تعبران - بكل تأكيد - عن مهارة الأداء والاعداد وعن كفاءة فى تصوير بعض جوانب الواقع الجغرافى ٠ وتمثل الخريطة الأولى وثيقة هامة فى المستوى المحلى ، حيث سجلت الأقاليم وتوزيع المدن البابلية ٠ أما الخريطة الثانية فهى خريطه بلورت وصورت فكرة الاجتهاد الجغرافى البابلى عن شكل العالم ٠ ومن شأن هذه الخريطة أن تصور العالم على هيئة قرص مستدير ، يحيط به البحر المحيط ٠ وفى هذه الخريطة التى تمثل قمة التفوق المرموق الذى وصل اليه الاجتهاد الجغرافى البابلى فى اعداد وتجهيز الخرائط وفى تصور شكل العالم ، يرسم الرسم خارج قرص العالم المستدير سبع جزر لكى تمثل - فى اعتقادهم - المعابر الى المحيط السماوى الفسيح الذى يطوق الأرض ٠

(٢) الفينيقيون شعب سامى هاجر الى موطنه ، واستوطن الساحل الشرقى للبحر المتوسط ، الذى أطل منه على العالم ، ومن الجائز أن الفينيقيين قد أحسنوا استثمار العلاقة التى وضعتهم ، بين معين الحضارة البابلية فى العراق ، ومعين الحضارة الفرعونية فى مصر ٠ ولكن المؤكد أنهم أخذوا بزمام حركة التجارة التى اتخذت من أرض الشام فى ظهير الوطن الفينيقى معبرا حيويا للتعامل بين الشرق الغرب ، وقطفوا ثمرات هذه الحركة ٠ كما شهد عرض البحر المتوسط النشاط التجارى الفينيقى الذى خاض المغامرة الجسورة ، وهو يخدم التجارة ويقوم بدور الوسيط على مستوى المعروف آنذاك من العالم ٠ واقدام الفينيقيين على =

العوامل الطبيعية والعوامل الحضارية ، التي وجهت اهتمام الفينيقيين كله الى ركوب البحر . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى كان ربيب تجارة البحر والتعامل التجارى ، مع الأقطار التى تشغل الظهير المباشر فى حوض البحر المتوسط على الصعيد الأفريقى وعلى الصعيد الأوروبى(١) . ومعناه أن اسهام الفينيقيين فى ارساء قواعد أولية لشكل مبكر من أشكال التجارة الدولية رافق اسهام الاجتهاد الجغرافى الفينيقى فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية .

وبصرف النظر عن روح البداوة(٢) التى حفزت حركة الفينيقيين فى عرض البحر ووضعت الاطار العام لنمط حياتهم ، ينبغى أن نؤكد على هذه الظاهرة وكيف كانت الخبرات التى قوت ساعد النشاط الفينقى البحرى ، من وراء تنشيط الاجتهاد الجغرافى ، وزيادة معدلات انجازاته ، فى مجال توسيع دائرة الكشف الجغرافى ، وفى مجال توسيع دائرة التعامل التجارى البحرى ، فى وقت واحد . كما ينبغى أن نؤكد على هذه الظاهرة مرة أخرى

التحول من الملاحة الساحلية المحدودة المدى والانطلاق الى الملاحة فى أعالى البحار والمخاطرة فى البحر ليلا ونهارا ، يقوم دليلا أو علامة على التفوق فى أداء المهمة التى حملوا مسئوليتها . بل هذا دليل بين كاشف عن اصرار على الأخذ بزمام الريادة فى الوساطة التجارية وعلى جنى ثمرات الانفتاح على الشعوب التى تلعب دور الوسيط فيما بينها .

(١) من الجائز أن الاجتهاد التجارى الفينيقى قد خدم حركة التجارة بين كثير من الأقطار . ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الذى كفل التعامل التجارى البحرى قد تحمل مسئولية الاحتكاك الحضارى البناء على المدى الواسع بين شعوب الأقطار التى تعاملوا معها . ومع ذلـــك فان الفينيقيين كانوا بعد ذلك كله أكثـــر الملاحين انطواء وحرصا على أسرار تحركاتهم البحرية ، وتكتما لمعالم الطرق التى سلكوها فى عرض البحر . كما أنهم كانوا حريصين وقد ضنوا كثيرا بأسرار معرفتهم الجغرافية وخاصة ما يتعلق منها بالأقطـــار التى يحصلون منها على السلع والبضائع .

(٢) بداوة الفينيقيين من نوع فريد لأنها قذفت بهم الى البحر ، وحببت لهم عدم الاستقرار فى موطن معين . وعدم الاستقرار كان من وراء الانتقال والنزوح من موقع منتخب الى موقع منتخب آخر بكل الحرص ، لحساب الحركة على المدى الأوسع فى البحار وخدمة التجارة الدولية فى شكلها المبكر . وقد يفسر لنا ذلك كله ، كيف أنهم امتلكوا أكثر من موقع ممتاز للاستيطان فى أنحاء متفرقة على سواحل البحر المتوسط . ومن الجـائز أن نتبين مدى الثراء الذى تحقق لهم من خلال الوساطة التجارية بين شعوب كثيرة . ولكن الذى يمكن أن نؤكده هو انشغالهم انشغالا صرفهم عن صناعة حضارة مادية متميزة . وهذا معناه أن الرحلة التى قذفت بهم من بحر الى بحر ومن ميناء الى مينـــاء آخر قد فرضت عليهم الاستيطان المتشتت ، وحرمتهم فى نفس الوقت من صنع واستثمار الاحتكاك الحضارى لتطوير وتنمية الحضارة .

وكيف انها عندما ألزمت النشاط الفينيقي بأكبر قدر من الانفتاح على العالم من حولها ، لكى يخدم أهدافها الاقتصادية ، حفزت الاجتهاد الجغرافى ودوره الوظيفى الذى يبصر ويرشد هذا الانفتاح .

ومن غير أدنى تجنى على الاجتهاد الجغرافى الفينيقى ، نذكر أن انصراف الفينيقيين انصرافا كليا الى ركوب البحر وتجارة البحر ، ، قد صرف هذا الاجتهاد عن الاهتمام بالبحث الفلكى . وصحيح أنهم تطلعوا الى قبة السماء ، وتمرسوا فى رصد الأجرام السماوية ، واتقنوا متابعة وجودها وانتشارها فى كبد السماء ، واسترشدوا بها ، لدى التحرك فى عرض البحر فى ساعات الليل المظلم . ولكن الصحيح انهم لم يتركوا فى التراث علامة أو أثر أو مؤشر ينبىء باستخدام الحس الجغرافى استخداما يعبر عن انطباعاتهم بشأن العلاقة بين الأرض والأجرام السماوية فى الكون الفسيح ، أو يصور اجتهادهم فى تقصى الحقائق عن العلاقة بين الأرض والكون(١) .

وهكذا اختصر الاجتهاد الجغرافى الفينيقى الطريق ، ولم ينكب على تدبر رؤيته أو معاينته لقبة السماء . بل لقد ثبت أن الفينيقين قد تخففوا من بذل أى اجتهاد بناء بشأن وضع تقويم منضبط لحساب الزمن وحركة مرور الزمن . وفى اعتقاد بعض الباحثين - وهو مقبول - أن الفينيقيين قد انتفعوا بالتقويم الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى الفلكى البابلى والاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى القديم . وربما كفاهم ذلك ولم يجدوا حاجة للتدبر والتفكير فى صناعة تقويم خاص بهم . وفى اعتقاد فريق آخر من الباحثين - وهو مقبول أيضا - أن الفينيقين عاشوا التشتت وعدم الاستقرار وقد شغلتهم تجارة البحر ومخاطر الركوب فى عرض البحر عن تدبر وتفكير بناء يصنع حضارة خاصة بهم . وربما ملك البحر بأهواله زمام تفكيرهم ولم يجدوا مجالا للتدبر والتفكير فى ابداع فن أو صياغة علم.

وبهذا المنطق ، ينبغى أن ندرك كيف اتجه الاجتهاد الجغرافى الفينيقى اتجاها كليا الى آداء مهمة الكشف الجغرافى ، وتوسيع دائرة المعرفة بكل قطر أطلت عليه سفنهم التى لم تكف عن الحركة فى البحر . كما ينبغى أن نفطن الى أن الرحلة البحرية الهادفة كانت الحافز الذى حفز همة هذا الاجتهاد ، وهى تتلمس ثمراته التى رشدت التعامل التجارى وبصرت

---

(١) د. شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى - جـ ١ - القاهرة - مكتبة الأنجلو - صفحة ١٠٧ .

الوساطة التجارية بين الشعوب والاقطار · وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى قد انتفع بالرحلة البحرية لحساب الرحلة البحرية وأهـــدافها الاقتصادية · كما ينبغى أن نفطن أيضا الى أن الاجتهاد التجارى الفينيقى الذى تولى مهمة تأسيس قواعد الاستيطان فى مواقع منتحبة على ساحل البحر وتشبث بها واستغل البحر واستدبر اليابس وانصرف عنه ، قـــد حمل الاجتهاد الجغرافى الفينيقى العامل فى معيته على الانفتاح على الظهير المباشر بحساب طلبا للمعرفة الجغرافية التى تؤمن الوجود الفينيقى فى قواعده وحركة التجارة التى تستثمر مواقع هذه القواعد الاستيطانية على أوسع مدى · وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى قد انتفع بقواعد الاستيطان الفينيقى المتشتت ، لحساب هذا الاستيطان وكـــل أهـــدافه الاقتصادية ·

من غير أدنى تجنى على الاجتهاد الاقتصادى الفينيقى ، نذكر انه قد جعل من الاجتهاد الجغرافى اجتهادا ملتزما بشكل يلفت النظر · وصحيح أن الاجتهاد الجغرافى قد انتفع بالرحلة البحرية التى سخرها الاجتهـــاد الاقتصادى لحساب أهدافه اقتصاديا واجتماعيا · ولكن الصحيح أن هذا الاجتهاد الجغرافى فى معيةأو صحبة الاجتهاد الاقتصادى قد امتثل وأذعن وركز على حسن استخدام الحس الجغـرافى وعلى استنفار التـدبر والتفـكير لحساب الاجتهاد الاقتصادى أولا وأخيرا · بمعنى أن ثمرات هذا الاجتهاد الجغرافى التى جمعها وحققها ، وهو فى صحبة الرحلات البحريـة الفينيقية ، كانت وليدة ارادتها من ناحية ، وعينها التى تبصر بهـا لكى تؤدى دورها الوظيفى من ناحية أخرى · وهذا بحق ما نعنيه بالالتزام الكامل الذى وضع الاجتهاد الجغرافى فى خدمة الاجتهاد الاقتصادى الفينيقى(١) ·

وعلى صعيد الشرق ، خرجت رحلات الفينيقين ، التى بدأت من البحر الأحمر لآداء دورها الوظيفى· ولقد انطلقت هذه الرحلات البحرية انطلاقا حرا لكى تجول فى المحيط الهندى ، وتخدم التعامل الاقتصادى · وقد أفلحت هذه الرحلات أن تدرك أطرافا من ساحل شرق افريقية ، بقدر ما أفلحت فى الوصول الى الهند · وهناك من يبالغ أو يهول وهو يصور كيف تمادى نشاط بحريتهم الاقتصادية التجارية الى سومطرة وشانتنج فى سنة ٦٨٠

---

(١) Cary, M. & Warmington, E.H. : The Ancient Explorers (Poelician Book), London, 1929, p. 76.

قبل الميلاد(١) • وتصف هذه المبالغات وصفا شيقا فتصور كيف أسس الاجتهاد البحرى الفينيقى مستعمرات استيطانية فى أكثر من موقع منتخب ، وكيف امتد نشاط الاجتهاد الجغرافى الفينيقى وغطى برؤيته مساحات كبيرة ورشد التعامل التجارى الفينيقى فى أنحاء جنوب وجنوب شرق آسيا •

وسواء تمثل هذا الانجاز الفينيقى العظيم فى المحيط الهندى ، فى رحلات بحرية قصيرة المدى ، أو رحلات بحرية ساحلية تقفز من موقع الى موقع آخر ، أو فى رحلات طـــويلة ومـــلاحة غزت عرض البحر وتحملت مخاطرها ، فقد أسلم الاجتهاد التجارى ، زمام المعرفة الجغرافية بالأقطار فى حوض هذا المحيط ــ بكل تأكيد ــ للاجتهاد الجغرافى الفينيقى(٢) • بل ولقد حافظ ذلك الاجتهاد على ذلك الزمام ، بالاشتراك مع نظرائهم من جنوب جزيرة العرب لبعض الوقت ولم يفرطوا فيه ، وأدوا دورهم الوظيفى بأمانة وجلد • كما استطاع هذا الاجتهاد الموفق أن يحفظ سر حركة الملاحة فى المحيط الهندى ، ولم يكشف عنه الى الاجتهاد البحرى اليونانى ، الذى ظهر على مسرح الملاحة فى البحر الأحمر ، وتطلع بعد الاسكندر الى ارتياد البحار الجنوبية •

وعلى صعيد الغرب ، خرجت رحلات الفينيقيين(٣) ، الى عرض البحر

---

(١) اختلف الباحثون فيما بينهم كثيرا لدى مناقشة جدية الاجتهـاد الفينيقى فى المحيط الهندى • ويتصور فريق منهم أن هذا النشاط البحرى كان نشاطا عربيا خالصا • ويتصور فريق آخر أن الفينيقيين كانوا شركاء فى هذا النشـــاط البحرى وقد تركوا بصمات الاستيطان فى قواعد تجارية احتوت وجودهم ودعمت ملاحتهم • ولكى نتجنب هـــذا الاختلاف ونقضى فيه برأى ، تذكر أن الفينيقيين من أصول عربية سامية ، وأن الوجود الفينيقى فى البحر الأحمر والخليج العربى والمحيط الهندى ، هو جزء من هيمنة النشاط العربى الذى صرف اهتمامه وتولى أمر الوساطة التجارية متفردا على مدى طويل فى البحار الجنوبية •

(٢) لا نملك الوسيلة أو الحيلة لاستشعار الخيط الرفيع الفاصل بين الاجتهاد الفينيقى البحرى والاجتهاد العربى البحرى فى البحار الجنوبية • وربما اشترك هذان معا بروح الفريق التى صنعتها أصالة الانتماء فى اداء دورها الوظيفى الصعب فى عرض البحر •

(٣) تعتبر رحلة هملكو التى انطلقت من قرطاجنة فى عام ٥٠٠ قبل الميلاد ، فى عرض البحر أهم مغامرة بحرية فينيقية جسورة تقتحم المحيط وتبحر فى المحيط بحذاء ســاحل غرب أوروبا • وقد هيأ نجاح أو توفيق هذا التحرك البحرى المغامرة فرصة حصـــول الفينيقيين على معدن القصدير الذى قيل أنه مستخلص من موارد مستخدمة فى الجزر البريطانية • ويبـــدو أن الاجتهاد الفينيقى البحرى قد مارس أسلوب تواجده واستيطانه وأسس مراكز وقواعد استيطان فى مواقع منتخبة ، واتخذ منها نقط أمن تؤمن الرحلات البحرية الرافدة وتكفل حقهم فى احتكار تجارة وتسويق بعض السلع ومن بينها العنبر • وفى اعتقاد بعض الباحثين الذين رشدتهم آثار وبصمات التواجد الفينيقى ، أن هذا الاجتهاد قد بلغ حد الاتصال والتعامل مع الناس فى أقطار بحر بلطيق فى شمال غرب أوروبا •

المتوسط ، وتقدمت — بكل الثقة — من الشرق الى الغرب ، وأدت دورها الوظيفى ووسعت دائرة التعامل التجارى مع كثير من الأقوام • ولقد انطلقت هذه الرحلات البحرية انطلاقا مغامرا وجسورا من بعد اجتياز مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) فى المحيط المجهول لكى تحقق أهدافها الاقتصادية • ومن الجائز أن التزمت المغامرات الجسورة بالملاحة الساحلية مع ساحل أوروبا الغربية فى اتجاه الشمال وتقدمت بقدر كبير من التأنى والثقة • ومن الجائز أيضا أن التزمت المغامرات الجسورة بالملاحة الساحلية أيضـــا مع ساحل غرب افريقية[١] ، لكى تحقق أهدافها الاقتصادية مرة أخرى • ولكن المؤكد أن هذه المغامرات الفينيقية الجسورة قد تهيبت عرض البحر فى المحيط وتجنبت التوغل فيه والتصدى للمجهول فى ظلماته • وهذا معناه — بأى مقياس — أن الاجتهاد التجارى البحرى الفنيقى النشيط ، قد حمل فى معيته الاجتهاد الجغرافى وحمله مسئولية استثمار الانفتاح على مساحات جديدة • ومعناه أيضا — بأى مقياس — أن الاجتهاد الجغرافى قد بصر ورشد اختيار مواقع الاستيطان الفينيقى بقدر ما بصر ورشد حركة التعامل التجارى مع الناس فى ظهير المساحات التى احتوت مواقع الاستيطان •

وهكذا واصل الاجتهاد التجارى البرى الفينيقى انجاز مهمته فى البحر المحيط ، تدعمه روح المغامرة وترشده خبرات الاجتهاد الجغرافى • وهناك اعتقاد يصور كيف تقدم الاجتهاد الفينيقى المغامر بحرا فى طواف مباشر حول اليابس الأفريقى تقدما ناجحا بلغ الى حد التعامل التجارى مـــع العاملين فى حقل التجارة البحرية فى حوض المحيط الهندى[٢] • بل لقد أقدم هذا

---

(١) فى رأى بعض الكتاب أن بعض الملاحين من غير الفينيقيين قد اقتحموا المحيط الأطلنطى وساروا فى ملاحة ساحلية بحذاء ساحل افريقية• ومع ذلك هذا لاينفى الاجتهاد اتلجارى البحرى الفينيقى بداية من سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ولا يسقط عنهم أمانة الكشف الجغرافى عن هـــذا الساحل • وتعتبر رحلة هانو انجاز مفيد ومثير • وتسجل هـذه الرحلة صورة فذة من صور الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى • ذلك أنها تسجل رؤية هانو وانطباعاته عن الأقطار التى تعامل مع أهلها • وبصرف النظر عن تحامل بعض الباحثين على هانو وانكار اجتهاده واصرارهم على أنه لم يبتعد جنوبا فى مقابل الساحل الافريقى لأبعد من رأس نون فى المغرب ، ينبغى أن نذكر له كيف صور ما يمكن أن يمثل تقدما حثيثا بحذاء الساحل الى حد السنغال على أقل تقدير •

(٢) فى كتابات التراث فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ينبىء بهذا الطواف حول افريقية • ومن الجائز أنه كان حيلة الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى ، لكى يتجنب مواجهة النشاط البحرى اليونانى الذى تصاعد فى حماية الوجود البطلمى فى مصر فى البحر الأحمر •

الاجتهاد الفينيقى التجارى النشيط الى التـــوغل بداية من بعض مواقـــع استيطانهم المنتخبة فى بعض أنحاء واسعة من أرض الظهير الأفريقى • ويثنى هذا التصور على مهارة التوغل السلمى وعلى مهارة التعامل التجارى دون اثارة أو تخويف أو ازعاج الافريقيين البدائيين فيما وراء الصحراء الكبرى جنوبا •

ومن غير أى تجنى على الاجتهاد التجارى البحرى الفينيقى ، ومن غير أى تنديد بالاجتهاد الجغرافى ، الذى سار فى ركابه وأمن مسيرته وبعـــد تعامله واستيطانه ، ينبغى أن ننكر على الفينيقيين انطـوائهم على أسرارهم وأعراضهم عن أى تسجيل أو تدوين يصور أبعاد انفتاحهم على العالم • بمعنى انهم أحجموا بالفعل عن تسجيل معرفتهم الجغرافية تسجيلا كاشفا عن الأقطار التى تعاملوا معها أو عن مراكز الاستيطان التى احتوتهم • بل لقد امتد هذا الاحجام الى حد عدم رسم الخرائط التى تحدد مسارات رحـلاتهم البحرية وتوضح مدى تحركاتهم فى خدمة أهدافهم الاقتصادية(١) •

وهــذا الاحجام الذى يمثل كل معنى الانطواء على الذات ، لا يجب أن يسقط عن الاجتهاد الجغرافى الفينيقى الملتزم حسن استخدام الحس الجغرافى وتطويع التدبر والتفكير الجغرافى لحساب الرحلة البرية والتعامل التجارى الفينيقى مع كثير من الأقطار • ولعله انطواء من قبيل تكتم الأسرار فى مجال المنافسات بينهم وبين غيرهم من رواد البحر والتعامل التجارى • وربما اتخذوا من الانطواء سبيلا لتأمين مصالحهم وحرمان أى منافسة من استثمار معرفتهم الجغرافية ومشاركتهم فى أرزاقهم التى يكفلها التعامل التجارى مع كثير من الأقطار •

ومهما يكن من أمر ، فقد أنجز الاجتهاد الجغرافى الفينيقى انجـــازا مفيدا ، عندما وسع دائرة المعرفة الجغرافية وطوع هـــذه المعرفة لحساب الاجتهاد التجارى البحرى • ومن شأن هذا الانجاز أن يلفت النظر ويستحق التقدير • وكيف لا يستحق هذا التقدير وهو خلاصة فكر ذكى فجره حس جغرافى نشيط • وصحيح انهم حرموا مسيرة الفكر الجغرافى من خلاصة هذا الانجاز • ولكن الصحيح أيضا انه قد حفز الاجتهاد الجغرافى لكى يخوض تجربة الملاحة فى عرض البحر وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية •

---

(١) Skes, P. : A History of Explorations. London, 1949. P.G.

الاجتهاد الجغرافي الفارسي :

وهذا اجتهاد قديم آخر ، فجره حس جغرافي ، استشعر الحاجة الى معرفة جغرافية تدعم التفوق الفارسي حضاريا وعسكريا • ولقد كان هذا الاجتهاد - بحق - وليد الفكر والتدبر الذى شحنه الابداع الحضارى فى فارس ، فى حوالى القرن السادس قبل الميلاد • ويبدو أن هذا الاجتهاد الجغرافي الذى أسهم فى تحديد ملامح الشخصية الفارسية ، قد كفله الواقع السياسى الذى هيأ للفرس بلوغ ذروة التفوق والمجد ، وظاهر نشاطه فى الداخل والخارج •

ولقد أتاح التوسع الفارسى الامبراطورى ، على الصعيدين الآسيوى والافريقي ، الحد الأقصى من استثمار الاحتكاك الحضارى ، وما بنى عليه من اخذ وعطاء • كما أتاح هذا التوسع فرصا ممتازة لكى يطلع الاجتهاد الجغرافي الفارسى بأداء دوره الوظيفى آداء سويا • وما من شك فى أن هذا الآداء قد أثرى الرصيد الذى جمع أوصاله الاجتهاد الجغرافى سواء كان الاجتهاد الجغرافى من أجل الرصد الفلكى وتصور مكان ومكانة الارض فى الكون ، أو كان هذا الاجتهاد من أجل توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأقطار من حول فارس•

وفى مجال الاجتهاد الجغرافى الفلكى ، هناك أكثر من دليل على تبنى الاجتهاد مسألة الرصد واستطلاع الأجرام وانتشارها فى قبة السماء • بل وهناك أكثر من مؤشر يؤكد على تكثيف هذا الاجتهاد الذى انكب على صياغة رؤيته الموضوعية الكاشفة عن مكان الأرض فى الكون الفسيح • ومن الجائز أن نتبين كيف أسفر هذا الاجتهاد الجغرافى الفلكى عن حساب حركة الزمان وصناعة تقويم شمسى(١) ، ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد قد فشل الى حد انه لم يسفر عن صياغة أى تصور معقول يعالج مكان أو مكانة الأرض فى الكون •

وفى اعتقاد بعض الجغرافيين المنصفين ، أن العلاقة بين الفرس والمصريين والتى فرضتها دواعى وجود الحكم الفارسى وانتصاره فى مصر قد أطلعتهم على خلاصة الرصيد الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى •

---

(١) هناك اعتقاد أن الفرس قد أخذوا عن المصريين عملية صناعة التقويم • بمعنى أنهم لم يجدوا حاجة تدعوهم الى التفرغ الى حساب الزمان • ومعناه أيضا أنهم قد جعلوا من تقويمهم تقويما شمسيا •

ويبدو أن الاجتهاد الفارسى لم يجد أى فرصة لكى يبدع أو يبتكر اضافة مفيدة ، تضيف الجديد الى ما تعلموه واقتبسوه من الاجتهاد الجغرافى الفلكى المصرى • وهذا معناه أن نفتقد فى رصيد الاجتهاد الجغرافى الفلكى الفارسى التجديد • وحسب هذا الاجتهاد أن نذكر كيف انكب على صناعة الازياج(١) أكثر من أى شىء آخر ، وكيف عجز عن تطويع المهارة فى الرصد الفلكى وحصادها لابداع اضافة عن وضع الأرض فى الكون •

وفى مجال الاجتهاد الجغرافى الباحث من المعرفة الجغرافية ، هناك أكثر من دليل يدلل على النشاط الذى انكب — بكل الالحاح — على توسيع دائرة المعرفة بالأرض فى الأقطار من حول فارس • ويحتوى سجل التراث العريق التى تعتز به فارس ، على بيان صريح عن هذا النشاط ، وعن جدوى هـذا النشاط ، الذى يتحمل مسئولية ارتياد الأقطار وتسجيل رؤيته الجغرافية لها • وهذا معناه أن الرحلة كانت حيلة هذا الاجتهاد لكى يتجول ويجوس فى أقطار كثيرة من حول فارس • ومعناه أيضا أن هذا الاجتهاد قد اصغى الى همس الحس الجغرافى وهو يفكر أو وهو يسجل انطباعاته عن رؤيتـه الجغرافية أثناء الرحلة •

هذا ومن الجائز أن نتصور كيف خدم التوسع الامبراطورى الفارسى وشن الحرب(٢) وغزو الأقطـار بالقوة ، والانتصـار وحيـازة الأرض على الصعيدين الآسيوى والافريقى عمليات الكشف الجغرافى • بل ومن الجائز أن السلطة الفارسية المنتصرة قد أمنت وظاهرت الرحلات التى خرجت تدب فى بعض أنحاء الأرض ، وتخدم أغراض الاجتهاد الجغرافى الفارسى • ولكن الذى لا شك فيه أن الاجتهاد الجغرافى الناجح قد أحسن استخدام الانفتاح على أقطار العالم من حول فارس وحقق الرؤية الجغرافية التى بصرت ورشدت وقادت الغزو الفارسى ، وأسعفت أهداف التوسع الامبراطورى الفارسى

---

(١) صناعة الأزياج التى تمثل ضربا من ضروب الحسابات الفلكية التى تتلمس العلاقة بين الانسان وحظه ومصيره وحركة الأجرام السماوية ، هى علامة من العلامات التى يحتويها تراث الفرس • وما من شك أنها تنبىء بقدر كبير من التقدم فى مسألة الرصد الفلكى ومتابعة حركة الأجرام السماوية • وقد تصور مدى شغف الفرس باستطلاع المجهول من حياة الانسان ومدى ارتباط مصيره بحركة أجرام السماء •

(٢) شهد القرن السادس قبل الميلاد ، تصاعد الابداع الحضـارى الفارسى الذى كفل الغزو والتوسع العسكرى الذى قامت به القوة الفارسية الفتية ، لكى تبلغ الامبراطورية الفارسية أقصى اتساع لها • ولقد سخرت هذه الامبراطورية كل الاجتهادات ، الحضارية والعسكرية والاقتصادية والجغرافية فى تأييد مكانتها ، حتى أصبحت فى الموقع القلب من آسيا وافريقية وأوروبا ، القوة الأعظم فى مجتمع الدول آنذاك •

الذى مكن لسلطته فى الأرض على نطاق واسع ٠

هكذا كانت الرحلة مطية الاجتهاد الجغرافى الفارسى وكان الدعم الحكومى الذى أمنها وحفزها لكى تتجول فى انحاء كثيرة من الارض ٠ ولقد توج بعض ملوك الفرس هذا الاجتهاد الجغرافى وكرمه وأسبغ عليه المنح والعطاء ٠ بل لقد تصدى أكثر من ملك من ملوك الفرس لتمويل الرحلة أو لقيادة مسيرتها بنفسه(١)٠ وكان الهدف مزيدا من الانفتاح على الأرض والناس، ومزيدا من المعرفة الجغرافية بالأقطار التى وطئتها الرحلة الفارسية ، وجاست فى أنحائها ٠ وما من شك فى أن كل رحلة قد عكفت على تسجيل الحصاد الكاشف عن مدى توفيقها فى استطلاع الأرض ومعاينتها ، وفى معرفة الناس وأنماط حياتهم فى تلك الأنحاء ٠ ويستوى فى ذلك أن تكون الرحلة البرية تضرب فى دروب الأرض ، أو أن تكون بحرية تخاطر فى عرض البحر ٠

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتصور كيف كانت شهية الاجتهاد الجغرافى الفارسى منفتحة ، وكيف كان الواقع الحضارى والواقع السياسى ظهيرا لهذه الشهية المتفتحة ٠ وما من شك فى آن حسن استخدام الحس الجغرافى لاستيعاب مشاهدات الرحلة ، قد جاوب - بكل تأكيد - تفتح هذه الشهية الى أبعد الحدود ٠ وربما حفز هذا الحس الجغرافى الاجتهاد لكى يتدبر ويفكر

(١) سجل قمبيز دور الامبراطور الرائد ، وهو يتبنى الرحلة ويتولى تمويلها وقيادتها بنفسه وصولا الى الهدف ٠ ومن الجائز أن تصور قمبيز قيمة الرحلة ، وكيف أنها تفتح الطريق وترشد الغزو ، لكى يواصل التوسع الامبراطورى الفارسى تمدده وانتشاره وانتصاره ٠ وكانت الرحلة الفريدة التى قادها قمبيز عام ٥٢٥ قبل الميلاد ٠ ولقد نظم هذه الرحلة مع لفيف شجاع ومغامر من رجاله المخلصين ، بعد أن انتصر وأفلح فى ضم مصر الى بنية الامبراطورية الفارسية ٠ وهناك اعتقاد أن قمبيز بكل زهو الانتصار قد تطلع الى وصول هذه الرحلة الى أرض جديدة ربما سمع أنها تزخر بمناجم الذهب فى اثيوبيا ، جنوب نطاق الصحراء الافريقية الكبرى. وكان على هذه الرحلة أن تغامر مغامرة جسورة ، لكى تعبر الصحراء وتجتاز المشقة وصولا الى الهدف ٠ ولا ندرى - بالطبع - ان كانت الرواية التى استمع اليها عن مناجم الذهب قد ضللته ، أو أن كانت جهالته وعدم استخدام الحس الجغرافى قد خذلته ٠ بل ولا ندرى بالطبع كيف اختار طريق الرحلة وكيف تحسس الدرب فى الصحراء الموحشة ولكن الذى نعرفه بالضبط أن قمبيز ذهب مع رجاله وغابت أخباره وضاع وضاعوا معه واحتوتهم ظلمة الصحراء وجهل الناس بها ٠ وهذا معناه أنها رحلة خاسرة لم تسفر عن نتيجة ايجابية ٠ ومعناه أن الخسارة مبنية على عدم الانتفاع بالحس الجغرافى ٠ ومع ذلك تستطيع هذه الرحلة الخاسرة أن تنبىء بمدى الاهتمام الفارسى بالرحلة والعجلة فى القيام بها لكى تضرب فى أعماق المجهول من الأرض استجابة لطلب المعرفة وخدمة الأهداف لحساب الانسان ٠

عليا ، وهو يعاين الأرض ويعايش الناس فى أقطار التوسع الامبراطورى ، أو فى الأقطار التى دخلت فى شكل من أشكال التعامل التجارى والحضارى ، مع الوجود الامبراطورى الفارسى ، طلبا لثمرات هذا التدبر والتفكير •

ولكى نتبين دور الرحلة التى خدمت انفتاح الاجتهاد الجغرافى ، نذكر تلك الرحلة التى انطلقت على الصعيد الآسيوى فى عام ٥١٠ قبل الميلاد • ولقد كان دارا من وراء هذه الرحلة البحرية ، فهو الذى مولها وحدد أهدافها • ولقد اختار لقيادتها سكاى لاكس الاغريقى الأصل ، وضم تحت امرته لفيفا مغامرا من الرجال الأشداء(١) الذين تمرسوا فى ركوب البحر ومواجهـة الخطر فى أحضانه • وتوقع دارا أن تكشف هـذه الرحلة البحرية الشاقة النقاب عن مصب نهر السند ، وأن تشبع تطلعه الى ثمرة الاجتهاد الجغرافى فى التعرف على مساحات الأرض والنـاس فى هذه الأرض من حـول الامبراطورية الفارسية •

وبدأت هذه الرحلة من بلدة اتوك وسارت مع مجرى نهر السند الى المصب • ثم تحولت الى البحر والتزمت بالملاحة الهادئة وهى تتحرك بحذاء الساحل الآسيوى فى اتجاه الغرب • ولقد طافت هذه الرحلة البحرية حول جنوب جزيرة العرب ، وتسللت من باب المندب الى البحر الأحمر ، ووصلت الى ارسينو المصرية(٢) على رأس خليج السويس • وتمام هذه الرحلة البحرية التى استغرقت حوالى ثلاثين شهرا ، قد أسفر بالفعل عن نتائج محدودة لحساب الاجتهاد الجغرافى الفارسى(٣) •

وقصة هذه الرحلة فى التراث الفارسى تحكيها أسـطورة وتسجل نتائجها • ومن الطبيعى أن يردد سياق هذه القصة الاسطورية التوصيف

---

(١) كان رفقـاء سكاى لاكس من الاغريق الأيونين الذين خدموا مرتزقة فى عمليات التجارة البحرية •

(٢) ميناء قديمة قامت فى موضع ميناء السويس الحالية •

(٣) صحيح أن هذه الرحلة ، لم تسفر عن تحديد حقيقى لمجرى نهـر السند ومصبه • وصحيح أنها لم تفلح فى الاتجاه الصحيح ، لكى تكشف النقاب عن المجهول من الأرض شرق شبه جزيرة الهند • وصحيح أنها تخبطت فى مرض التوصيف الجغرافى مع سـياق القصص الأسطورى • ولكن الصحيح أيضا أنها أشبعت نهم الفرس للمعرفة عن جزيرة العرب التى كانت مجهولة ومغلقة عليهم من ناحية ، وللمعرفة عن البحر الأحمر وحركة الملاحة النشيطة فيه من ناحية أخرى •

الذى يضم حجم هذه المغامرة الجسورة ، ويضيف اليها المبالغات التى تجسد المخاطرة • ولكن من المؤكد أن هناك توصيف جغرافى للأرض والناس فى بعض أنحاء المساحات التى جاس خلالها سكاى لاكس وصحبه ، وارد فى سياق الرواية الاسطورية • ويبدو أن دارا قد اقتنع بالانجـــاز الجيد ، الذى أسفرت عنه هذه الرحلة البحرية ، اقتناعا كبيرا • بل لقد أقبل — بكل الاهتمام — على حسن استثمار هذا الانجاز الجيد الجغرافى ، لحساب أو لمصلحة التفوق الامبراطورى الفارسى(١) ، وهو ويدعم مكانة فارس المرموقة سياسيا ، ولحساب أو لمصلحة الاجتهاد الامبراطورى الفارسى ، وهو يحاول أن يقبض على زمام التجارة الدولية(٢) •

ومن النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد ، أخرج اكزركس فريقا من المغامرين فى رحلة مهمة وخطيرة • وقد تولى ساتاسبس(٣) توجيه دورها الوظيفى وتمويلها • وقد استهدفت هذه الرحـــلة البحرية الطواف

---

(١) يرهن دارا بشكل عملى على دعم اجتهاد فارسى ، حاول محاولة جادة لاستثمار نتائج هذه الرحلة البحرية المثيرة • وتمثل ذلك فى حفر قناة ، تصل فيما بين البحر الأحمر والنيل • وقد تطلع دارا بالضرورة الى جدوى هذه القناة الاصطناعية فى الإمساك بزمام حركة التجـارة التى تعبر أرض مصر ، بين أقطار حوض المحيط الهندى ، وأقطـــار حوض البحر المتوسط • ومن ثم يتبغى أن نذكر أن محاولة حفر القناة قد انساقت الى الفشل • وقد توقف العمل فيها خشية الخطر الذى استشعره الفنيون عنـــدما توهموا الاختلاف بين مناسيب الجريان النيل ومناسيب الماء فى خليج السويس • ومن شان هذا الاستشعار الخاطىء ، أن يصور كيف اخفق الحس الجغراق وخاب أمل الاجتهاد الجغراق الفارسى ، وعجز عن ترشيد هذا العمل الهندسى • وهذا معناه أن الاجتهاد الجغراق الفارسى لم يكن على المستوى المناسب عندما خيبت آمال دارا والفرس فى تصعيد كفاءة سيطرتهم على حركة تجارة المرور بين الشرق والغرب •

(٢) لا غرابة فى أن يكون الوجود الفـــارسى الحاكم فى مصر وســـيطرته ، من وراء استثمار جدوى حركة تجارة المرور التى تعبر أرض مصر بين الشرق والغرب • بل ولا غرابة فى أن يصبو الفرس الى جنى واستثمار ثمرة هذه الحركة بالشكل الذى يدعم مكانة الامبراطورية اقتصاديا ، وهى تحتل مكانة القوة السياسية الأعظم فى مجتمع الدول آنذاك •

(٣) هو واحد من أبناء عم اكزركس الذى يكرهه ويتوجس منه خوفا • وقيل ان تسليم قيادة الرحلة البحرية له ، كان من قبيل الابعاد وانزال العقاب به • بل لقد صور البعض كيف تمنى اكزركس أن يخرج ساتاسبس مع الرحلة لكى يواجه مصيره فلا يعود • وليس ثمة دليل يعبر عن أحاسيس اكزركس بالضبط لدى سماعه بعودة ابن العم سالما ، بعد أن فشل فى اتمام الرحلة وانجاز الهدف الذى خرجت من أجله •

حول افريقية ، بداية من جبل طارق لكى تصل الى البحر الأحمر فى خاتمة المطاف • وهذا معناه انها اتجهت فى اتجاه معاكس للرحلة البحرية العتيقة ، التى تحمل نخاو مسئولية قيادتها من أجل الطواف حول افريقية من الشرق الى الغرب • وربما استمرت هذه الرحلة نفس الاتجاه الذى سلكته رحلات فينيقية من قبل ، بحذاء ساحل افريقية الغربى •

هذا وقد خرجت هذه الرحلة البحرية فى سفينة من مصر • وضمت هذه السفينة الفريق المغامر الجسور من الملاحين الاغريق وبعض الفينيقيين الذين عرفت عنهم المهارة فى ركوب البحر ، ومواجهة الخطر فى أحضـــانه • ومن الجائز أن خاضت الرحلة التجربة الصعبة ، وهى تتحسس طريقها فى اتجاه المجهول فى ملاحة ساحلية هادئة بحذاء الساحل الأفريقى الغربى • ولكن الصحيح انها انتهت الى الموقف الأصعب(٢) الذى اضطرها الى التراجـــع والعودة من حيث أتت ، وقبل أن تنجز المهمة المنوطة بها •

ومن غير أدنى تحيز للاجتهاد الجغرافى الفارسى ، ينبغى أن نسقط أى طعن فى جدوى الحس الجغرافى وعجزه فى ترشيد الرحـــلة ودعمها ، لكى تتجاوز المحنة • ذلك أن الحس الجغرافى لا يمكن أن يجنب التحرك الملاحى مشقة الدخول فى منطقة تكف الرياح فيها عن دفع وتحريك السفينة ، وهو لم يستشعر ماهية الركود فيها • بل ولا يمكن أن ينتشل الحس الجغرافى السفينة من منطقة الركود بعد أن انساقت اليها وواجهت تأثير هذا الركود ، لأنه لا يملك الوسيلة للخروج من هذا المأزق •

وقصة هذه الرحلة البحرية المثيرة – كما رواها ساتاسبس على أسماع اكزركس – تصور أن تقدم السفينة فيما وراء مضيق جبل طارق جنوبا كان مطمئنا • وقد أفلح هذا التقدم فى تجاوز قطاع الساحل الذى تقع فى ظهيره المباشر الصحراء الكبرى • كما تصور الرواية كيف وصلت السفينة تجاه الساحل الأفريقى ، الذى تقع فى ظهيره أرض تنيض بالحياة ، ويعيش

---

(٢) ليس أصعب من أن تواجه السفينة حالة الركود فى المنطقة الاستوائية • ذلك أنها تفتقد الرياح التى تدفع السفينة • ومن غير الرياح قد يستحيل التحرك أو يصبح صعبا • وما من شك أن ساتاسبس قد واجه هذا الموقف واستشعر صعوبة هذا التحدى • ومن الجائز أن احتال لكى يبطل مفعول هذا التحدى • ولكن الظـــاهر أنه لم يفلح فى احباطه واستشعر العجز الحقيقى • ومن ثم لم يكن بد من أن يعود • ويبدو أنه لم يتصور أن هذه العودة تمثل فشلا يلحق به العار •

مكانها الاستقرار في القرى والمدن الصغيرة • وهذا معناه أن الرحلة البحرية المثيرة قد بلغت على وجه التقريب ساحل غينيا ، وانها قدمت تصويرا جغرافيا يحكي مشاهداتها عن الأرض والناس في هذا القطاع الغربي من أفريقية •

وسياق القصة أو الرواية التي تحكي مراحل هذه الرحلة البحرية ، يحرص على عرض الصورة الجغرافية التي تشهد بفطنة الحس الجغرافي وهي تعمل لحساب الاجتهاد الجغرافي الفارسي في معية هذه المغامرة التي أجهضها التحدي الطبيعي • ومن شأن التصوير الجغرافي الذي أسفرت عنه هذه الرحلة أن يصور انتشار الأقزام ووجودهم في ظهير قطـــاع من الساحل الأفريقي التي سارت بحذائه • كما يصور كيف عاش الأقزام البدائية بكل ما تعنيه من تأخر وسلبية وجمود ، في أوطان تكفل حاجتهم المحدودة بقدر من السخاء[١] •

ومهما يكن من أمر ، فينبغي أن نتبين كيف كان انجاز الاجتهاد الجغرافي الفارسي انجازا متواضعا الى حد لا يرقى الى مستوى الانجازات الأقدم المصرية والبابلية والفينيقية • ومما لا شك فيه أن الانجاز المتواضع لا يعني أن الاجتهاد الجغرافي الفارسي قد سجل اضافات قليلة ومحدودة فقط ، بل الذي يعنيه بالفعل هو انه رغم التفوق السياسي والثراء الحضاري كان أعجز من أن يحرك مسيرة الفكر الجغرافي في اتجاه المعرفة الأوسع والأوضح • ومن الجائز أن استخف هذا الاجتهاد برسم الخرائط وانشائها ونفتقد وضوح الرؤية الجغرفية عن الأقطار التي شهدت الالحاح على معرفتها جغرافيا • ولكن المؤكد أن الدعم الامبراطوري للاجتهاد الجغرافي الفارسي كان متعجلا فلم يصنع جيدا للاجتهاد الجغرافي، ورغما استهان ولم يطلب ترشيد الاجتهادالجغرافي للرحلاتالتي أوفدها•ومع ذلك لا ينبغي ـمن قبل الانصافـ أن نتنكر أو ننكر تأجج الحس الجغرافي وحسن استعداده وهو يفجر الاجتهاد الجغرافي الفارسي، والا فكيف استجاب في وقت لاحق للفكر الجغرافي الهارب من تزمت ومطاردة الكنيسة ، وكيف أعطاه المأوى الذي حافظ على بقية من جذوته في أحضان فارس ؟

هذا ، ومن خلال التأمل الهادىء في كنة وماهية حصاد هذه الاجتهادات

---

(١) جاء في هـــذا التصوير الجغرافي أن الاقزام يسترون عوراتهم بلباس من أوراق الشجر ، ويقتنون بعض الحيوانات • كما يذكر كيف أنهم يتخوفون من الغرباء الوافدين على ديارهم • وليس هناك دليل على تعامل الرحلة مع هؤلاء الأقزام •

الجغرافية التى شبت وترعرعت فى احضان الحضارات القديمة ، وأثرت معرفة الانسان بالأرض ، واستثمرت نظرته الى الكون ، يجب أن ندرك كيف تأجج وحسن استخدام الحس الجغرافى والانسان يتدبر ويفكر فى مشاهداته وصولا الى حد تجسيد مناسب وتوسيع فعلى لمعرفته الجغرافية • وبصرف النظر عن المبالغة والتهويل والانبهار وما أسفر عنه من خلط وتخبط وتشويه المعرفة الجغرافية ، يجب أن ندرك أيضا سلامة الخط الفكرى الذى سار فيه الاجتهاد الجغرافى ، وهو يتطلع الى ترجمة رؤيته الجغرافية والتعبير عنها ، واضافتها الى تراث الانسان •

وقد تحدد تجسيد وتسجيل حصاد الاجتهاد الجغرافى الذى انتفع بالانفتاح وأحسن استخدام الحس الجغرافى على ثلاثة محاور رئيسية • وقد حددت هذه المحاور ملامح الخط الفكرى الجغرافى ، وعبرت عن سلامته وهو يسير فى الاتجاه الصحيح • وتمثلت هذه المحاور فى :

١ ـ محور انهمك فى الرصد الفلكى واستطلاع قبة السماء وهو يطلب استثمار رؤيته لحساب المعرفة بمكان الأرض فى الكون •

٢ ـ محور انبرى لمشقة الرحلة واستطلاع المكان من حولها وهو يطلب استثمار رؤيته لحساب المعرفة بكل مكان فى الأرض •

٣ ـ محور انكب على تسجيل المعرفة وحصادها فى خرائط ومصورات وهو يطلب توضيح رؤيته واشباع حاجة الناس للمعرفة الجغرافية •

وحصاد الاجتهاد الجغرافى فى مجال الرصد الفلكى ، قد تمثل فى تصورات متفاوتة عن شكل الأرض تتصور أن الأرض لها شكل هندسى ، يتراوح بين المربع والدائرة والمستطيل(١) ، وأن البحر المحيط يطوقها ويدور من حولها تطويقا كاملا • ومن الجائز أن هذه الاجتهادات الجغرافية المتنوعة ، قد أقدمت على تفسير حركة الشمس ، وكيف تظهر لكى تشرق ،

---

(١) انساقت الاجتهادات الجغرافية بصفة عامة الى تصور نشأة الوجود كله من خلال قوة الهية عليا ، فصلت بين الأرض والسماء ، انطلاقا من الماء الأزلى • وأضاف الى ذلك التصور وجود عمد عند أطراف الأرض تحمل السماء • وهذا لا يعنى سوى انزلاق فى تخريف أسطورى غير واقعى •

وكيف تختفى لكى تغرب ، تفسيرا ساذجا الى أبعد الحدود(١) • ومن الجائز أن أى من هذه الاجتهادات لم يتصور ثبــات الشمس وأن الأرض هى التى تتحرك من حولهــا • ولــكن المؤكد أن معظم هــذه الاجتهادات الجغرافية قد انبرت وأفلحت فى ابتكار أو ابداع التقويم لحساب حركة الزمان ، سواء كان هذا التقويم محسوبا تأسيسا على حركة الشمس(٢) ، أو كان هــذا التقويم محسوبا تأسيسا على حركة القمر(٣) •

وحصاد الاجتهادات الجغرافية مجتمعة فى المجال الاقليمى على امتداد الأرض ، قد تمثل فى سرد القصص وحكاية الأســاطير التى رويت ، لكى تصــور الرحلات فى البحــر والبحــر على الصــعيد الأوروبى الافريقى والآسيوى(٤) • وما من شك فى أن التسجيل قــد خلط بين الغث والثمين من المعلومات أحيانا ، وانغمس فى تجسيم الغرائب والعجائب أحيانا أخرى• وكان ذلك من وراء تشويه وطمس بعض المعــرفة الجغرافية وضياع معــالمها فى زحمة هذا الخلط الغريب الذى استهوى أسماع المعجبين بالأسطورة(٥) •

---

(١) زعم الاجتهاد الجغرافى المصرى أن الشمس تركب قارب ينساب ليلا فى نيل السماء عندما تغرب عن حافة الأرض • أما الاجتهاد البابلى فقد تصور اختفاء الشمس وراء جبل شامخ شمال الأرض •

(٢) قاد الاجتهاد الجغرافى المصرى صــناعة التقويم الشمسى وجعــل من السنة ٣٦٥¼ يوما • وقسم السنة الى اثنى عشر شهرا طول كل منها ٣٠ ثلاثين يوما وما زاد كان عيدا •

(٣) قاد الاجتهاد الجغرافى البابلى صناعة التقــويم القمرى • وقد قسم الشهر الى أربعة أسابيع وجعل من اليوم ٢٤ ساعة ومن الساعة ٦٠ دقيقة ومن الدقيقة ٦٠ ثانية •

(٤) لم تجد الرواية التى حكت حكايات الرحلات من يهتم موضوعيا بتسجيلها فى حينها تسجيلا صادقا • وانتقال التوصيف الجغرافى من خلال الرواة ، قد أفسح المجال حقا ، لــكى تتسلل الى الروايات مزاعم وأباطيل وأوهام أسطورية • وهذا معنــاه أن الرحلات وجدت من الملوك من مولها واهتم بحفز المغامرين للقيام بهــا ولكنها فى نفس الوقت افتقدت من يولى تسجيل أخبارها وتدوين المعلومات التى أسفرت عنها الاهتمام والعناية • ومن ثم أفلتت فى كثير من الأحيان فى زحمة السرد الأسطورى المستغرق فى الخيال والوهم الخطوط الرئيسية الهامة التى تصنع وتجسد صلب الحقيقة الجغرافية المفيدة •

(٥) شهدت الأذرع المائية التى تتوغــل فى قلب جزيرة العــالم ، وهى البحر المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر والخليج العربى ، تحركات الاجتهادات الجغرافية التى استهدفت المعرفة الجغرافية • وعلى الصعيد الأوربى ، كشفت الرحلات النقاب عن ساحل غرب أوروبا وعن الأقطار من حول البحر الأسود • وامتدت المعرفة عندئذ بأوروبا جنوب خط يمتد من نهر الراين غربا الى مصب الدانوب شرقا • وعلى الصــعيد الافريقى ، كشفت الرحلات النقاب عن ساحل غرب افريقية وساحل شرق افريقية وما وراء الصحراء الكبرى جنوبا الى خط عرض =

وهكذا جنى الاجتهاد الجغرافى ثمرات الرحلة وانتفع بمسيرتها • ذلك أنها خدمت الانفتاح وفتحت البـــاب على مصراعية لكى يستغل الاجتهـاد الجغرافى عنصر المشاهدة والمعاينة(١) والمعايشة سبيلا لجمع أوصال المعرفة الجغرافية بالأرض فى كثير من أنحاء جزيرة العالم • هذا بالاضافة الى دور الاجتهاد الجغرافى الذى بصر التعامل التجارى مع الاقطار التى كشف النقاب عن الواقع الجغرافى فيها ، ورشد الأخذ والعطاء وهيأ المناخ المناسب للاحتكاك الحضارى بين الأقوام فى الأقطار التى وطئتها فى صحبة أو معية الرحلات•

أما حصاد الاجتهادات الجغرافية المختلفة ، عنـــدما عكفت على رسم الخرائط وتجهيز الرسوم التوضيحية ، فقد تمثل فى انتاج متواضع نسبيا• ومن شأن هذا الانتاج أن يصور رؤية هذا الاجتهاد لأبعاد المكان على المستوى المحلى أكثر من أى شيء آخر ، أو على المســتوى الاقليمى فى حالات قليلة • ومن الجائز أن تكون عمليـات المسح المحلية ، لحساب النظـام الحاكم فى الدولة وتصريف الأمور وتطبيق الضوابط وجباية الضرائب ، قد أسعفت رسم الخرائط على المستوى المحلى • ولكن المؤكد فعـــلا عن الحس الجغرافى الذى شد انتباه الفكر واستنفر التـدبر ، قد أسعف الرؤية الجغرافية لكى تعبر عن ادراكها من خلال رسم الخريطة على المســتوى الاقليمى ، لحســاب الترشيد وتوجيه حركة النقل والاتصال والتعامل التجارى البرى والبحرى بين مجتمع الأقطار والدول التى كشفت الرحلات النقاب عنها آنذاك •

وخريطة من الخرائط التى أسفرت عنهـــا الاجتهـادات الجغرافية ، لا يمكن أن تمثل صـــدقا موضوعيا فى التعبير عن الرؤية الجغرافية • ومع ذلك هى من غير شك خطوة على الطريق واضافة مجددة • بمعنى أن الاجتهاد

= الخرطوم •وامتدت المعرفة الجغرافية عندئذ بافريقية شمال خط عرض الخرطوم داكار بالاضافة الى مساحات الظهير من وراء البحر الأحمر وساحل شرق افريقية • وعلى الصعيد الآسيوى كشفت الرحلات النقاب عن ساحل جنوب آسيا على امتداد أشباه الجزر الجنوبية الثلاث • وقد امتدت المعرفة الجغرافية الى أطراف من أرض الصين وجنوب الطريق البحرى الذى يصل اليها عبر قلب آسيا الوسطى •

(١) من خلال المعاينة كان التوصيف الكاشف جغرافيا حصادا للاجتهاد الجغرافى وهو يزور الأقطار فى صحبة الرحلات • وينبغى أن تفطن الى أن السرد قد تردى فى الخلط بين الحقيقة والتصور الأسطورى الحافل بالغرائب ، بقصد أحيانا ، وهو يســتهدف التضليل والتمويه لكيلا تتضرر مصالح الاحتكار التجارى ، ومن غير قصد أحيانا أخرى وهو يستهدف التهويل ، لكى يصور ضخامة المغامرة الجسورة التى واجهت الرحلات •

الجغرافى لم يقنع بالتعبير عن رؤية الجغرافية بالكلمة ، وعندئذ أضـــاف الخريطة لكى تمثل شكلا آخرا من أشكال التعبير عن هذه الرؤية ٠

ومهما يكن من أمر ، فان الاجتهادات الجغرافية فى ذلك الوقت المبكر قد فتحت الباب - مشكورة - على مصراعية ، لكى تصنع القاعدة العريضة ، التى ارتكز اليها وانطلق منها التدبر والتفكير ، الذى صنع الفـكر الجغرافى ووضع أقدامه على بداية الطريق فى الاتجاه الصحيح ٠ وهذا معناه أن الفكر الجغرافى القديم الذى بدأ فى أحضان النظرية الفلسفية ، قد تأتى تأسيسا على حصاد هذه الاجتهادات الجغرافية التى شبت فى أحضـــان الحضارات المبكرة ٠ ومعناه أيضا أن حصـــاد الاجتهادات الجغرافية الذى أسـفر عنه التدبر فيما استشعره الحس الجغرافى قد تولى تحديد القنوات التى ســار فيها الفكر الجغرافى القديم استجابة لحاجة الانسان الى المعرفة الجغرافية ٠

الفصل الثالث

الفكر الجغرافى القديم

- الفلسفة والفكر الجغرافى
- الفكر الجغرافى الاغريقى
- الفكر الجغرافى اليونانى المصرى
- الفكر الجغرافى الرومانى المصرى

الفـكر الجغرافى القـديم

الفلسفة والفـكر الجغرافى

لكى يتأتى الفكر الجغرافى بكل أبعاده التى يحددها استخدام العقل ، ولكى يسفر هذا الفكر عن انجازات مفيدة لحساب الانسـان ، ولكى تشتد خطوات مسيرته ويتمخض عن اضافات مجددة مثمرة لحساب الحياة ، كان من الضرورى أن يستجيب العقل لنداء الحس الجغرافى ، وأن يشحذ العقل أداته ومعطياته ، وهو يطلب عمق المعـرفة الجغرافية بالأرض والناس ، وصولا الى حد التفكير السوى البناء ، فى كنه وماهية الصور الجغرافية التى يعانيها بذاته ويتحسس أبعادها هنا وهنـاك ، أو التى يستمع الى الرواية المشرقة عنها من هذا أو ذاك ٠

وهكذا كان التحول من مرحلة شهدت الاجتهاد الجغرافى الذى وجهته وأشبعته يقظة الحس الجغرافى ، لكى يمثل أو يصور حصاد الرؤية والمعاينة والاستشعار فى أى مكان ، الى مرحلة جديدة يستجيب فيها العقل لنـداء الحس الجغرافى ، لكى يتفجر الفكر الجغرافى ، لكى يمثل ويصور حصـاد التدبر والتأمل والتفكير فى خصائص المكان ، تحولا طبيعيا ومطلوبا بكل الالحاح لحساب الحياة ٠ وهذا معناه أن نداء الحس الجغرافى للعقل قد أطلق العنان لكى يتحمل العقل مسئولية التفكير الجغرافى ٠

وأصبح من شأن الفكر الجغرافى فى شكله الفلسفى النظرى وهو وليد شرعى لاعمال العقل وحسن استخدام التدبر ، أن يتبنى رؤية الاجتهـاد الجغرافى وأن يتولى مهمة استيعابها ومناقشتها ٠ وكان من الطبيعى أن يتفجر هـذا الفـكر الجغرافى فى المكان الأنسب وفى الزمان الأنسب ، الذى حمل فيهما الاغريق أمانة التفكير المجرد ، ومسئولية اعمال العقل ، وتبعة تطويع التدبر ، وصولا الى الحصاد العقلى المقنع والمفيد ٠ وهـذا معناه أن التفـكير الفلسفى العقلى اليونانى النـابض بالابداع ، قد استجاب لنـداء الحس الجغرافى ورؤيته الجغرافية ، لأبعاد المعرفة بالأرض والناس ٠ ومعناه أيضا أن التفكير الفلسفى العقلى اليونانى ، قد انكب على هذه الرؤية الجغرافية ، وأفلح فى ابداع فكر مفيد ، يبصر ارادة الحيـاة ويشبع نهمها الى أبعـاد المعرفة الجغرافية بالأرض والناس ٠

وبصرف النظـــر عن كل العوامل التى كمنت من وراء النضج العقلى الذى أطلق ملكات الفكر الاغريقى فى الاتجاه الفلسفى(١) ، وبصرف النظر عن كل العوامل التى كانت من وراء المنـــاخ الفكرى الأنسب الذى ظاهر البنـاء الفلسفى الفـكرى الاغريقى ، ينبغى أن نتصور كيف كان حصـاد الاجتهادات الجغرافية الذى نشـــأ ونما وتطور استجابة للحس الجغرافى ، فى أحضـان الحضـارات القديمة فى مصر وبابل وفارس وغيرها ، معينـا ومنهلا ، نهل منه الفكر الجغرافى الاغريقى • بل ينبغى أن نتصـور أيضا ، كيف نجح التفكير الفلسفى الاغريقى فى تبنى ثمرات الاجتهادات الجغرافية العتيقة وفى احيائها ، وفى الاضافة اليه ، من خلال اعمال العقل والتـدبر فى الرؤية الجغرافية • ومن الجـائز أن نتبين كيف حاول التفكير الفلسفى الاغريقى انتشال المعرفة الجغرافية من حضيض الأسطورة أو الخرافة التى شوهتها وطمست الحقيقة التى تكشف النقاب عنها • ولكن المؤكد أن هذا التفـــكير الفلسفى الاغريقى قد انتصر للعقل وحسن استخدامه وتصـعيد قدراته وهو يرشد ويبصر المعرفة الجغرافية •

هذا وقد حظى التفكير فى الأرض والتدبر فى مكان الأرض فى الكون ، باهتمام الاجتهاد الفلسفى العقلى على أوسع مدى ، وصـولا الى حد الاجابة على تساؤل الانسان وتطلعه الى معرفة كاشفة عن ماهية الوجود من حوله • وكان من شـــأن الفلاسفة الاغريق الذين كدوا عقولهم بالبحث عمـا وراء الطبيعة أن يزجوا بالتفكير فى الاتجـاه الباحث عن قاعدة انطلاق المعـــرفة الجغرافية • بل لقد أنجب هذا الاهتمام الاسم (جغرافية) الذى أصبح علما وتعبيرا عن حصاد الاجتهـــاد الباحث فى وصف الأرض ومكانها فى الكون الفسيح •

وهكذا تسللت الاجتهادات الجغرافية من خلال التـأمل الفلسفى الى

---

(١) انحدر التفكير الاغريقى الى عمق الجـــدل والاجتهاد النظرى ، وتنكر تمـاما للبحث التجريبى والاجتهاد التطبيقى • ومن ثم كان فكر الاغريق فكرا فلسفيا نظريا يدور فى جمود النظرية ويتجنب مرونة التجريب والتطبيق • وصحيح أن الفـــكر الفلسفى النظرى قد افلح فى صياغة أرضية صلبة للعلوم • ولكن الصحيح تماما ، أن تنكر هذا الفكر للبحث التجريبى ، قد أدى الى الاخفاق فى تجسيد العلوم • وقد أسفر التفكير الفلسفى الاغريقى عن فـكر هلامى من غير اطار محدد أو شكل معين يحتويه • وقد استغرقت هذا الفكر مراحل طويلة ، لكى يتخذ شكل العلم ، ولكى تتجسد القواعد والأصول ، التى تمثل الصلب السوى فى بنية هذا العلم •

أحضان التفكير العقلى الذى أصغى باهتمام وعنـاية لنداء الحس الجغرافى • وصحيح أن التسلل الـذى أغرق الاجتهادات الجغرافية فى خضم التـأمل والتدبر والتفكير ، قد أوقف أو جمد تطور وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية لبعض الوقت • ولكن الصحيح أن التـأمل الفلسفى قد خلصها من التخبط فى مجال البحث عن المعرفة من ناحية ، وهيأ لها الأساس الذى بنيت عليه النظرية وأصبحت فيما بعد قاعدة عريضة لنشـأة علم الجغرافية من ناحية أخرى •

وينبغى أن نذكر كيف أن التحـــول الـذى زج بالاجتهـاد الجغرافى فى اطار التأمل الفلسفى والتفكير العقلى ، قد بدأ فى حوالى القرن السادس قبل الميـلاد • ومن الجـائز أن كان وضع الاغريق ومكانتهم السـياسية والحضارية فى اطار مجتمع الدول من وراء احتضان الاجتهاد الجغرافى وتذوق طعم حصاده وتولى التأمل الفلسفى والتفـكير العقلى أمره • ولكن المؤكد أن التأمل الفلسفى قد فجر الفكر الجغرافى ارهاصا باحثا عن النظرية ، وأن الفلاسفة قد قادوا هـــذا الارهاص وسجلوا رصيدا لحساب النظرية التى انكب الفكر الجغرافى القديم على صياغتها •

ولقد خطت مسيرة ذلك الفكر الجغرافى القديم على ثلاثة مراحل متكاملة ومتداخلة • وقد استغرقت هـــذه المراحل حوالى خمسة قرون كاملة قبل الميلاد • ومن الطبيعى أن كانت الخطوة الأولى لكى يعيش الفـــكر الجغرافى فى أحضان التأمل الفلسفى اغريقيا بحتا • وقد استغرقت هذه المرحلة العصر الهلينى الذى شهد مســيرة الأحـداث التى بوأت الاغريق المكانة المرموقة حضاريا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا • ومع موت الأسكندر وتصاعد وزن مصر البطلمية واحتـــلال المكانة المرموقة اقتصـاديا وسياسيا وعسـكريا واقتصاديا ، كانت الخطوة الثانية التى حولت الفكر الجغرافى إلى مصر لكى يعيش فى أحضان التفكير العلمى مصريا بانتمائه ويونانيا بلغته وتسجيلاته • وقد استغرقت هذه المرحلة العصر الهلينى الذى وضع البطالمة فيه مصـــر فى مركز الثقل على المستوى العـــالمى • ومع هزيمة البطالمة وضم مصر الى الحكم الرومانى كانت الخطوة الثالثة التى حولت الفكر الجغرافى الى الانتعاش فى مصر وروما ، لكى يعيش فى أحضان التفـكير العلمى المصرى وأحضـــان التوسع الامبراطورى الرومانى ، مصريا يونانيـــا رومانيـــا فى وقت واحد • وقد استغرقت هـــذه المرحلة العصر الذى شهد التفوق الرومانى ونشاطها الامبراطورى وانتهى بظهور المسيحية •

- - - - - - - - - - -

الفكر الجغرافى الاغريقى

لكى نتلمس نقطة البداية التى زجت الاجتهاد الجغرافى واهتمام الانسان بحصاده فى اطار التأمل الفلسفى الاغريقى ، ينبغى أن نتابع ما ورد فى ملحمة الالياذة(١) وملحمة الأوديسة(٢) ، كيف سجل هومير تسجيلا واضحا ما يصور أو يعبر عن الاهتمام الاغريقى بالمعرفة الجغرافية اهتماما يلفت النظر . ومن الجائز أن يختلط عرض المعرفة الجغرافية بالغرائب والعجائب وشطحات الخيال الأسطورى الى الحد الذى يشوهها ويطمس ملامحها ويخفى دلالتها . ولكن المؤكد أن هذا العرض علامة أو مؤشر ينبىء بمدى الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، وتطلع الناس اليها(٣) .

ويبدو أن الاغريق قد استقوا هذه المعرفة الجغرافية من مصادرها الأصلية ، من خلال احتكاك حضارى أو من خلال مطالعة رصيد التراث الحضارى المصرى والبابلى والفارسى والفينيقى . ومن الجائز أن هذا الاهتمام الاغريقى قد أسفر عن اضافة عن المعرفة بالجهات الأصلية(٤) ، أو عن شرح أصول تسمية المجموعات النجمية(٥) . ولكن المؤكد أن هذا الاهتمام الاغريقى قد هيأ للتأمل الفلسفى الذى أجاب على نداء الحس الجغرافى الاغريقى المتأجج برغبة فى المعرفة الجغرافية ونداءه الى العقل لكى يتدبرها أن يبدأ من حيث انتهت الاجتهادات الجغرافية القديمة .

وتأسيسا على ذلك كله ، نذكر أنه اعتبارا من القرن السادس قبل

---

(١) تحكى ملحمة الالياذة قصة حرب مدمرة ، بكل ما تعنيه من انتصار وهزيمة ، وبكل ما تسفر عنه من تخريب وافساد .

(٢) تحكى ملحمة الأوديسة قصة سلام بناء ، بكل ما تعنيه من بناء واضافة ، وبكل ما تسفر عنه من تفرغ للاجتهاد والتجديد والتطوير .

(٣) هومير شاعر اغريقى سجل بالشعر أحاسيسه وانطباعاته عن قصتى الحرب والسلام. وهو مفجر نبع الثقافة الاغريقية بكل تأكيد ـ وتتنازع أكثر من سبع مدن اغريقية هومير بدعوى أنه ولد فيها . ومع ذلك هناك من يتصور أنه شخصية أسطورية لم تولد بالفعل . وهناك جدل حول تاريخ صياغة الالياذة والأوديسة . ومن قائل أنها وضعت فى سنة ١٢٨٠ قبل الميلاد الى قائل آخر أنها وضعت فى سنة ١١٨٠ . والأرجح أن هذه الصياغة الفنية لا يمكن أن ترجع الى أقدم من القرن التاسع قبل الميلاد .

(٤) من الجائز أن دعا شروق الشمس وغروبها الى معرفة للشرق والغرب ، ولكن الانجاز المفيد قد تمثل فى معرفة الشمال والجنوب والتمييز بينهما .

(٥) سجل هزيود الشاعر فى حوالى أواخر القرن الثامن الميلادى بحثا عن الفلك حاول فيه أن يفسر أصول تسمية المجموعات النجمية .

الميلاد ، انبرى بعض أعلام الفكر الاغريقي للاهتمام بالرؤية الجغرافية ، وحسن الاستماع لهمس الحس الجغرافي الذي فجر فيهم هذا الاهتمام . ومن هؤلاء الرواد نذكر أربعة هم : طاليس(١) وانكسمندر(٢) وهيكاتيوس(٣) وزينوفان(٤) . وقد فتح هؤلاء المفكرون الباب على مصراعيه، لكي يهتم التفكير الفلسفي بالاجتهاد الجغرافي ، أو لكي يهتم المفكرون الاغريق بالتأمل في الرؤية الجغرافية ، في الفترة التي امتدت الى وفاة الاسكندر الأكبر في سنة ٣٢٣ قبل الميلاد .

وبصرف النظر عن مدى ازدهار التفكير العقلي الاغريقي ، ومدى انتفاعه بازدهار التوسع الامبراطوري ، نذكر كيف فجر التفكير العقلي الفلسفي

---

(١) طاليس فيلسوف قيل عنه أنه من أصل فينيقي . وقد عاش في الفترة من سنة ٦٢٤ الى سنة ٥٤٥ قبل الميلاد . وتجلى اهتمام طاليس بالمعرفة فرحل الى مصر لكي ينهل من معين العلم فيها ، ويتعلم طائفة من أهم الحقائق الفلكية والهندسية التي يحتويه تراثها العلمي الثرى . ومع اكتمال نضجه الثقافي انطلق فكره الفلسفي ، لكن يمثل مفكرا رائدا في الفلك والرياضة .

(٢) انكسمندر اغريقي من تلاميذ طاليس . وقد عاش في الفترة من سنة ٦١٠ الى سنة ٥٤٧ قبل الميلاد . وقد ارتوى من نبع فكر طاليس الفلسفي ، وسار على دربه لكي يتم ويضيف الى انجازه الفكري . وقد سجل أفضل انجاز له عن الفلك . كما تفرغ لصناعة خريطة للعالم كما تصوره .

(٣) هيكاتيوس مفكر اغريقي ، قيل عنه أنه أبو الفكر الجغرافي الصحيح . وقد عاش في الفترة من سنة ٥٥٠ الى سنة ٤٨٥ قبل الميلاد . وتفرغ هيكاتيوس للرحلة أحيانا وصاغ السمع الى حكايات الرحالة أحيانا ، لكي يجمع رصيدا من المعلومات الجغرافية . وتجلت براعته وابداعه ، عندما صنف وميز بين المعلومات الطبيعية والمعلومات البشرية . وتلك أول بداية في مجال التمييز بين دراسة الأرض ودراسة الناس والتي أسفرت بعد وقت طويل عن تقسيم الجغرافية الى جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية . ومن أهم منجزاته ، نشر أول كتاب جغرافي بعنوان الفترات الزمنية ، ويختص القسم الأول منه بأوروبا والقسم الثاني بآسيا وامتدادها في افريقية . وقد ألحق بهذا الكتاب الرائد خريطة انكسمندر بعد أن أدخل عليها بعض التصويب .

(٤) زينوفان مفكر اغريقي انغمس في الاجتهاد الجغرافي . وقد عاش في الفترة من سنة ٥٧٠ الى سنة ٤٧٠ قبل الميلاد . ولقد استهوت الرحلة زينوفان الى حد كبير . ومن ثم أصبحت هذه الهواية معينا من وراء فكره ، وهو يعلن عن رأيه الفلسفي العقلي في وحدة الوجود . وقد تفرغ بكل تأمله الى تقصى حقيقة العلاقة بين اليابس والماء . بل وبحث بحثا عقليا عن الأدلة الجغرافية التي تؤكد هذه العلاقة . وانساق فكره وبحثه الى حد أن أصبح في آخر الأمر صاحب الريادة في المجال الجيولوجي عندما لفت الانتباه الى الحفريات ومدى دلالتها في البحث عن العلاقة بين اليابس والماء .

الاغريقى تباشير الفكر الجغرافى المبكر ، وكيف انبرى الى تقسيم وصف الأرض الى أقسام رئيسية تمثلت فى الفكر الجغرافى الفلكى وفى الفكر الجغرافى الاقليمى(١) • بل لقد تمادى هذا التفكير الى حد ابداع مبكر يسجل الاهتمام بالأرض وحقائق وسنن عن حياة الناس فى الأرض • بمعنى أن كانت تباشير استشعار الحد الفاصل بين الفكر الجغرافى الذى يستوعب ويتدارس الأرض (جغرافية طبيعية)(٢) والفكر الجغرافى الذى يستوعب ويتدارس الناس (جغرافية بشرية)(٣) فى ذلك الوقت المبكر •

وهكذا ينبغى أن نتصور كيف تبنى التفكير الفلسفى الاغريقى النابض بالحيوية والتجديد والابداع الاهتمام بالأرض والناس ، وكيف انساق هذا التفكير فى الاتجاه الصحيح لكى يضىء كاشفا عن أبعاد حقيقة المعرفة الجغرافية • وقد أسفر التأمل الفلسفى الاغريقى ، ومن ورائه التطلع الشديد الى المعرفة وكشف النقاب عن الأرض ، عن نتائج واضافات وتطوير وتقدم المسيرة الفكرية الجغرافية فى اتجاه رشيد ومفيد ، لحساب الانسان • ويمكن أن نحصى ذلك كله من خلال متابعة عطاء الفكر الفلسفى فى كل من الجغرافية الفلكية والجغرافية الطبيعية والجغرافية الوصفية ، لكى تتبين حقيقة الاضافات والتطوير فى هذه المرحلة •

وفى الجغرافية الفلكية ، انساب التأمل والتفكير الفلسفى فى اتجاه باحث عن الكون ونشأته ونظامه أولا ، وفى اتجاه باحث عن الأجرام السماوية وحركتها فى قبة السماء ثانيا ، وفى اتجاه باحث عن مكان ومكانة الأرض ثالثا • وهذا معناه نظرة تأملية الى الكل الذى يشمل الكون وصولا الى الأجزاء التى يتألف منها هذا الكل • ومعناه أيضا نظرة تستطلع الكون من غير اغفال للعلاقة السرمدية بينه وبين الأرض • ومعناه مرة ثالثة أن نظرة التأمل الفلسفى ، توغل — بكل العمق — فى البعد اللانهائى ، لكى تنتهى الى تصور مقنع ، يفصح عن مكان ومكانة الأرض فى الكون •

---

(١) د/ محمد السيد غلاب : البيئة والمجتمع ط ٣ ، ١٩٦٣ ، مكتبة الانجلو ، القاهرة صفحة ١٣ •

(٢) سجل ثيوفراش من تلاميذ ارسطو دراسة مقارنة للنبات ، ودراسة عن العلاقة بين المناخ والنبات • ومن ثم كانت له الريادة وهو يقدم أول انجاز مفيد عن جغرافية النبات •

(٣) سجل هيبوقراط وافلاطون وغيرهم من المفكرين الاغريق الاهتمامات التى بنيت عليه دراسة البيئة• وقد سجل هؤلاء المفكرون كيف يمكن أن نتلمس فى خصائص البيئة ، مايكشف عن شكل ونمط الواقع الاجتماعى فيها •

وفي الإتجاه الباحث عن أصل الكون ونشأته ، تلمس الفكر الفنسفي ، هذا الأصل في الماء • وقد استشعر التـأمل الفلسفي العميق دور الألوهية الخلاق في تكوين الكون ونشأته نشأة سوية متوازنة(١) • ومن الجائز أن نتبين كيف ضل هذا التفكير وكيف ضلل التأمل الفلسفي المفكرين الى حد كبير • ولكن المؤكد أن هذا التفكير قد أفلح في تصور وحدة الوجود ، وأن الأرض والسماء كانتا متصلتين في شكل هيولى قبل أن ينفصلا •

وقد تضمنت فلسفة طاليس(٢) ذكر المـــاء وكيف أنه الجوهر الذى تولدت منه الأشياء • وتصور هذه الفلسفة ، كيف خرجت الأرض من المـاء في شكل قرص يطفو في بحر هائل • كما تصور أيضا ، كيف يسرت الحركة على الماء انفصال السماء عن الأرض • أما فلسفة انكسمندر(٣) فقد رفضت تصور طاليس من أساسها • واعتقدت هذه الفلسفة في مادة أولية ، تمثلت في مزيج من الأضداد كلها ، أصلا وأساسا في تكوين الكون • وقد أكدت هذه الفلسفة التي سجلت فكر وتصورات انكسمندر ، على أن الحركة تسببت في انفصال عناصر الأضداد بعضها عن بعض أحيـــانا ، واجتماع الأضداد بعضها مع بعض أحيانا أخرى(٤) •ومن خلال الانفصال ومن خلال الاجتماع ، تكونت الأجســـام المتنوعة الطبيعية • والأرض في هـذا التصور الفـكرى الفلسفي جسم من هذه الأجسام ، وأنها تحتل - بالضرورة - مركز الكون كله •

أما فيثاغورس ومدرسته الرياضية الفلكية ، فقـــد نبذت وعارضت - بكل الاصرار - فكرة احتـلال الأرض مركز الكون • وسيطر على فكرهم

---

(١) بعث هذا التصور هومير وثنى عليه هوزيود الذى حاول أن يضع قاعدة عامل تحكم تسلسل التكوين في ثلاثة أصول هي :
أ - كارس وهو الخلاء الذى يحتوى الوجود ب - جايا وهي الارض في قلب هذا الوجود•
جـ - ابروس وهي قوة التوالد والانتاج والبقاء •

(٢) زار طاليس مصر ونهل من معين المعرفة فيها ، وربما شغلته مسألة فيضان النيل واستشعر قيمة الماء لحساب الحياة • وقد تأثر فكره بما اطلع عليه من رأى المصريين والبابليين • ولا يكاد يختلف فكر طاليس كثيرا عما ورد في التراث عن علاقة الماء بالحياة •

(٣) يرى انكسندر أن التكوين كان على مراحل ، وأن الانفصال قد أدى الى تكوين الهواء في مرحلة ، والى تكوين البحر في مرحلة ثانية ، والى تكوين الارض في مرحلة ثالثة •

(٤) الحركة في فكر انكسندر حركة دائرية ازلية • ومن ثم يصور تفـكير انكسمندر الفلسفي ، كيف أن الكون يشمل مكانا لا حدود له ، وزمانا لا نهاية له •

التأملى الفلسفى تصـــور آخر ، تمثل فى نار مركزية تبث الحــرارة الى الشمس التى تحتل مركز الكون • وناقش هــذا الفكر ــ بكل التـأمل والتدبر ــ كيف تعكس الشمس الحرارة التى تبث اليها ، لكى تضىء الأجرام السماوية وتكسبها الحرارة •

هذا ولقد عارض فــكر انكسمين الفلسفى أيضــا ، رؤية طاليس ورفض فكرة المــاء وكونها جوهر التكوين فى الكون • وقد سيطر تصــور آخر أسفر عنه فكر فلسفى أصر على أن الهواء هو الأصل وكيف أنه جوهر التكوين والنشأة • بل لقد تمادى هذا الفكر فى تصور جرىء ، يتبين كيف تسبح الأجرام السماوية التى تتخذ شكل الأقراص فى الهواء ، ســباحة سرمدية أو لا نهائية •

وعندما أقحم أرسطو فكره وتأمله الفلسفى فى مســألة البحث عن أصل وتكوين الكون ، سجل تصوره ورؤيته الفكرية من خلال تجديد يؤكد على أن شكل كروى هو الشكل الذى يحتــوى الكون كله • وفى اعتقــاد أرسطو أن الشكل الكروى هو الشكل الأنسب والأمثل ، لأنه يكفل حــركة الكون حركة أزلية أبدية لا متناهية • وتصور أرسطو أن الأثير هو المــادة الأصل فى تكوين جوهر الأجرام السماوية • أما عن الحركة فقد أسفر فكر أرسطو الفلسفى ، عن تصور ثبات الكواكب فى مواضعها ، وأن الحــركة هى وليدة تحرك الفلك الذى يحمل كل كوكب • وفى اعتقاده أن هذه الحركة السريعة السرمدية ، تتسبب سرعتها فى ارتفــاع الحرارة ارتفــاعا كبيرا ، وفى انبعاث الضوء المنير منها •

والواقع ــ على كل حال ــ أن الفلســفة الاغريقية التى اســتغرقت فى التأمل والتدبر واعمال العقل ، قد استغرقت ــ بكل الجدية ــ فى البحث عن كنه وماهية الوجود • بل لقــد تطلعت الفلسفات المجتهدة ، من خلال رغبة متأججة ، الى كشف النقاب عن الكون وتكوينه ، والى تصور المــادة التى هى أصل أصيل فى هذا التكوين • وما من شك فى أن أكثر من مفكر اغريقى ، قد سعى وفــكر ــ بكل العمق ــ لكى يجد على فــكره البرهان ، ويسوق الأدلة على صدق منهجه وتصوره وتصويره • ومن الجائز أن هــذا التفكير الذى استسلم للتأمل فى قبة السماء من حول الأرض ، قد تملص الى حد كبــير من معظم الخرافات والأوهام التى أوردتها أســاطير الأولين • ومن الجائز أيضا أن هذا التفــكير قد انتشل التدبر والتــأمل من سقطات وشطحات الخيال والوهم ، وحاول أن يستلهم الواقع والحقيقة • ولكن المؤكد ان هذا التفكير قد انغمس من غير قصد أو على غير ارادته فى خيال اسطورى

اغريقى غريب ، وهـــو يناقش ويعـرض رؤيته الفـكرية عن خلق وتكوين الكون ٠

وفى الاتجاه الثانى الباحث عن كنه الأجرام فى السماء ، تطلع الفكر الفلسفى الاغريقى الى معاينة قبة السماء ، بعــد أن نهل من معين التراث العريق كما ورد لدى الاجتهاد البابلى والمصرى القديم ٠ وكان من الطبيعى أن يمعن النظر ويتأمل ويتدبر ويفكر تفكيرا ، يلهم التصور الأصوب والرؤية الأفضل ٠ ومن الجائز أن الفــكر الفلسفى الاغريقى قد أقحم قدرة الآلهة فى تصور خلق السماء وما يبدو فيها من نجوم وكواكب وبروج ٠ بل ومن الجائز أيضا أن أوكل هذا الفكر فى تصور أسطورى لكبير الآلهة مهمة تنظيم وانتشار هذه الأجرام فى السماء ٠ ولكن المؤكد أن هذا الفكر الذى أطلق عنان التأمل والتدبر قد أفلح فى تناول المسائل الفلكية بشكل أكثر ادراكا وفهما ، وهو يتابع الرؤية الكاشفة للأجرام فى قبة السماء(١) ٠

هذا وقد تصـــور فكر انكسمين كيف أن الكواكب على شكل أقراص فى الهواء ٠ وتصور أيضا أنها تدور دورة تدخلها من حين الى حين فيما وراء جبال عند طرف الكون ، لكى تختفى عن أنظار الناس ، ثم تخرجها من وراء هـذه الجبـال ، لكى تظهر لأنظـار الناس ٠ أما فـكر فيثاغورس الفلسفى الرياضى ، فقد تصور هذه الأجرام السماوية فى شكل كروى ٠ وتصور أنها تتحرك وهى متعلقة بأفلاكها فى مدارات ، حـركة منتظمة مستديرة ٠ كما ميز فكر فيثاغورس بين قطاعين من الكون ، قطاع فوق فلك القمر وهو أزلى لا يتغير وموطن للخلود ، وقطاع تحت فلك القمر وهو غير أزلى متغير وموطن للفساد والموت ٠ والأرض – بكل تأكيد – تقع فى هـــذا القطاع الأخير غير الأزلى ٠

وقد تحققت واحدة من الاضافات المهمة بالفعل ، عندما أسفر تفـكير

---

(١) صورت الرؤية الفلكية فى فكر الفلاسفة الاغريق صورتان ، هما صورة السماء الشمالية وصورة السماء الجنوبية ٠ وفى تصور السماء الشمالية ، وضع من حول الدب الأصغر كوكبات هى ، التنين وقبفلرس والبقار والاكليل الشمالى والجاثى وذات الكرسى وفرسوس والحواء والعقاب والفرس الأعظم والمرأة المسلسلة ٠ وفى تصور السماء الجنوبية وضع كوكبات قيطس والجبار والنهر والسفينة والشجاع وقنطورس والحوت الجنوبى ٠ أما عن البروج فقد أسفر الفكر الفلسفى الاغريقى عن انها تتمثل فى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان ، والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت تماما كما وردت فى حصاد الاجتهاد الجغرافى البابلى ٠

انكسوجراس عن الحقيقة التى تصور كيف يستمد القمر نوره من الشمس • ومع ذلك قد يتخبط التفكير كثيرا بعيدا عن الحقيقة من خلال الرؤية الفلكية • ونذكر كيف ضل الفكر الأفلاطونى عن الحقيقة كثيرا وهو يؤكد على مكان الأرض فى مركز الأرض أو وهو يصور الكواكب والشمس والقمر كلها تدور فى أفلاك من حول الأرض • وفى هذه المناسبة ينبغى أن نستشعر مقـــدار الاهتمام الذى زج بالفكر الفلسفى الاغريقى فى مطالعة السماء ورصد البروج والادلاء برأى فى حركة الأجرام • كما ينبغى أن نتقبل الخطأ أو الأخطـــاء التى أسفر عنها اجتهاد بعض المفكرين من أمثال كيلو ستراتس ويودكسس فى تصور هذه الحركة والادلاء برأى فيها •

ومن غير تجنى، ودون أن نعبأ بالاخطاء ، نتبين أن انسياق الفكر الفلسفى الاغريقى فى الاتجـــاه الباحث عن حركة الأجرام ، التى ذكرها هومير لأول مرة وتصور كيف أنها لا تضىء عنـــدما تمر فى وادى الظلمات فى العـــالم السفلى كان انسياقا طبيعيا • ومن الجائز أن أدى هذا الانسياق الى ابداع تصورات غير صحيحة تحكى مثلا كيف تنطفىء الشمس كل ليـلة ، وكيف تنشأ مع طلوع النهار شمس جديدة • ولكن المؤكد أن هذا الانسياق قد رشد اتجاه البحث فأقلع عن تصور الأرض فى مركز الكون ووضع الشمس فى هذا المركز(١) • وهذا التغيير لا يعنى وصول التفـكير الاغريقى الى الحقيقة اطلاقا ، ولكنه يعنى تغييرا يقود الى تصور دوران الأرض حول الشمس بدلا من أن تدور الشمس حول الأرض •

وفى الاتجاه الثالث ، الباحث فى كنه الأرض ، تطلع الفـكر الفلسفى الاغريقى الى تصور شكلها العام والى مسألة نشأتها ، وهى وطن يحنو على الحياة فى مكان ويقسو على الحياة الى مكان آخر • وربما أخذ هذا الفكر عن التراث القديم الذى أسفر عنه الاجتهاد الجغرافى المصرى والبابلى والفينيقى ، بعض التصورات وانكب على تدبرها بكل الاهتمام • ولكن المؤكد أن هـــذا الفكر الفلسفى قد توصل الى ادراك شكل الأرض الكروى وجمع الأدلة التى تؤيد هذا الادراك السوى •

واستشعار أو ادراك هذا الشكل الكروى ، قد تأتى من خلال بداية

---

(١) اهتم ارسطو بالشمس وتامل وضعها بل لقد ناقش دور الشمس من وراء ظاهرات المناخ • ونظر اريسطارخس الى الشمس نظرة التامل أيضا لأنها فى فكرة الجرم الأهم فى قبة السماء • وقد أسفر تفكيره عن تصور مكان الشمس ووضعها فى مركز الكون •

أو بدايات ظنية • وكان أول تصور من اجتهاد هومير الذى أشار الى البحر المحيط الذى يطوق الأرض ويحيط بها من كل جانب • أما طاليس فقد تصور قرص الأرض الذى يسبح فى البحر • وقد فتحت هذه التصورات الباب على مصراعيه لكى يتصاعد تفكير فيثاغورس ومدرسته ويسفر عن اضافات هامة عن شكل الأرض • وقد تمثلت هذه الاضافات فى :

١ - تصور الأرض فى شكل كروى ودعمه هذا التصور بالبراهين •

٢ - تنحية الأرض عن التمركز فى قلب الكون واحلال النار المركزية التى تعكس حرارتها الشمس محلها •

٣ - استشعار حركة الأرض من حول النار المركزية من الغرب الى الشرق مرة واحدة كل نهار وليلة •

وهكذا تفجرت ثورة فكرية خطيرة ، أمسكت بطرف الخيط فى هذا الموضوع الهام • وما من شك فى أن هذه الثورة الفكرية قد تجاوزت كل التخبط الذى تردى فيه أصحاب الاجتهاد الجغرافى الفلكى السابق ، وانطلقت - بشىء كثير من الثقة والجدية - تتقصى بعض الحقائق الفلكية • وربما رفض بعض المفكرين الاغريق من أمثال ديمقريطس وانكزجراس فكرة التكدير رفضا قاطعا ، واستهانوا بها • ولكن سقراط وأفلاطون قد قبلا هذه الفكرة قبولا كليا • بل لقد عمل كل منهما على تأكيد صدق هذه الفكرة وجديتها •

وينبغى أن نذكر فى هذا المجال ، كيف تمادى أفلاطون فى استملاح فكرة كروية الأرض ، وأسفر تفكيره عن تصور أسطورى فى شأن بيان بعض الدلالات الكونية • ومن الجائز أن أضاف أفلاطون الى فكرة التكور مسألة توازن الأرض بالنسبة لما حولها توازنا سرمديا يحفظها فى وضعها أو فى مكانها من غير أن تسقط من حالق • ولكن المؤكد أنه أصر على وضع الأرض الكروية فى مركز الكون ، وعلى ثباتها فى مكانها من غير حركة •

وعن السرد الأسطورى الذى يحكى فكر أفلاطون ومدى دعمه لكروية الأرض ، فقد ميز بين الأرض العليا والأرض الوسطى والأرض السفلى تمييزا كاملا • وتكشف حكاية أفلاطون الأسطورية التى تعبر عن مدى تصوره وادراكه لكل أرض من هذه الأراضى ، عن مدى الاستغراق فى الوهم ،

والتردى فى الخيال • بل ينساق أفلاطون بفكره الفلسفى الغارق فى الوهم والخيال ، الى ربط غريب بين هذه الأرض التى حسبتها رؤيته الأسطورية من ناحية ، ومصائر النفوس والناس • وفى كثير من المواضع ، يكون التصور الأفلاطونى الذى ابتدع هـذا الربط الغريب غامضا ومبهما الى حد كبير ، يضلل ولا يرشد •

ومن بعد أفلاطون الذى حاول أن يوجه التفكير الجغرافى عن الأرض فى الاتجاه العلمى فانحدر به الى التخريف الأسطورى ، جاء أرسطو لكى يعيد التفكير الجغرافى الى صوابه فى اطار أسلوب فلسفى علمى رشـيد • ومن الجائز أن تردى أفلاطون فى الخطأ عندما أكد على سكون الأرض وعلى وضعها فى مركز الكون الفسيح • ولكن المؤكد أنه أورد من خلال منهج علمى الادلة والبراهين التى تؤكد على كروية الأرض • كما ذهب أرسطو من خلال الخبرة الرياضية الى تقدير طول محيط الأرض الذى قدره بنحو ٧٣ الف كيلومتر •

وتمادى فكر أرسطو المتفتح ، فى تصور المعمور من الأرض ، فذكر أنه يشمل مساحة على شكل مستطيل ، طوله ينتشر فيما بين اسبانيا والهند وعرضه يمتد فيما بين اثيوبيا وبحر أزوف • أما عن المحيط فيما وراء غرب اسبانيا فهو فى تصور أرسـطو محيطا عظيما يطوق الأرض تماما • وبلغ فكر أرسطو قمة الصدق وسلامة الرؤية الجغرافية الكلية ، عندما ادرك مدى التطابق بين النصف الشمالى والنصف الجنوبى من الكرة الارضية مناخا • بمعنى أنه تصور تكرار النطاق الحار ، والنطاق المعتدل ، على امتداد النصفين الشمالى والجنوبى من الأرض •

وفى الجغرافية الطبيعية الكاشفة عن خصائص الأرض ، فقد انساب الفكر الفلسفى الاغريقى باحثا ومتقصيا الحقائق التى تبين هذه الخصائص • وقد تأتى هذا الفكر الفلسفى وأسفر عن حصـــاده ، من وراء ملاحظة بعض الظاهرات الطبيعية التى كانت لافتة للنظر فى بعض أنحاء الأرض • ومن الجائز أن انكب هذا الفكر على مزج أو خلط بين الحقيقة والخيـــال ، وأن استغرق فى تصورات أسطورية غريبة ، وهو يناقش الظاهرات الطبيعية • ولكن المؤكد أن أسفر هذا الفكر الفلسفى ، عن صياغة قاعدة ، أو أرضية صلبة ، وهو يغرس النواة العلمية ، لحساب البحث الموضوعى ، عن بعض خصائص الأرض الطبيعية •

وفى سياق السرد الأسطورى الغارق فى الوهم والخيال ، دس الفكر

الفلسفي الاغريقي بعض التصورات التي صورت رؤيته الكاشفة عن بعض جوانب جيولوجية عن الأرض أحيانا ، أو عن بعض جوانب جيمورفولوجية أحيانا أخرى ٠ وما من شك في أن زينوفان قد لفت النظر الى الحفريات وأثار انتباه الفكر ، وهو يصور التداخل بين اليابس والماء ، عندما عثر على مخلفات الحياة البحرية ، في أحضان تكوينات الجبال في أكثر من موضع ٠ وقد تأسس على ذلك التصور ، الذى بين كيف تكون سهل تساليا على رواسب بحرية ، ارتفعت بفعل حركة رفع أرضية ، تسببت في حدوث الانكسار أو الصدع الذى تسرب من خلاله الماء وتنكشف الأرضية السهلية ٠

وعن البحر ، وضع أرسطو نظرية عن أحواض البحار ٠ وقد بين فيها كيف أن السواحل التى تحدد امتداد البحر تتغير على المدى الزمنى الطويل ٠ كما ناقش أرسطو بقدر كبير من التدبر والتفكير حركات الماء فى البحر ٠ ومن الجائز أنه لم يفطن - بالفعل - الى حقيقة المد والجزر ٠ ولكن المؤكد أن هذا النقاش قد فتح باب الاجتهاد الذى انكب على تصور ارتفاع الماء مع المد وانحساره مع الجزر ، وكيف كانت هذه الحركة من وراء الطوفان ٠ وربما كان هذا التصور من الأهمية الى الحد الذى دفع هيردوت - فيما بعد - الى تصوير حركة المد والجزر اليومية ، فى حضن واحد من خلجان بحر ايجه تصويرا فنيا ٠

وعن الحركات الباطنية والتقلبات الأرضية ، التى تتسبب فى الزلازل والبراكين ، انكب الفكر الفلسفى الاغريقى على وضع وتصور نظرية عقلية تفسرها ٠ ومن الجائز أن نتبين كيف انغمست هذه النظرية فى بحر الخيال الأسطورى الغريب ، وكيف نسبت الزلازل والبراكين لغضب الآلهة التى تهز الأرض هزا ، أو التى تقذف سطحها بالحمم والصهير ٠ ولكن الصحيح أيضا أن أرسطو حاول أن يتصور دورا وظيفيا لحركة الرياح وكيف تتسلل من مسارب ومنافذ فى الأرض لكى تهز كيانها هزا عنيفا ، أو لكى تفجر النار والحمم من باطنها الملتهب ٠

وعن الأنهار والجريان النهرى ، اهتم الفكر الفلسفى الاغريقى بظاهرة الارساب أو الاطماء وما تسفر عنه من بناء أرضى ٠ وتصور هذا التفكير من خلال رؤيته التأملية فاعلية هذا البناء ، وكيف يصنع الرواسب الفيضية ويبنى الدالات النهرية ٠ وقد انساق هذا التفكير الفلسفى الى معالجة مسألة الجريان النهرى فخلط بين الحقيقة والخيال ٠ وأعطى أفلاطون وأرسطو

تصورات غريبة تحكى مسألة الجريان النهرى السطحى والجريان النهرى الجوفى • بل لقد زعم أرسطو أن ثمة خزانات أرضية زاخرة بالماء تمد الأنهار الجارية بالماء لكى تواصل جريانها •

وعن المناخ وأحوال الجو ، انبرى الفكر الفلسفى الاغريقى - بكل التدبر - لاستشعار خصائص المناخ ومدى التغير الذى يطرأ على أحوال الجو من وقت الى وقت آخر • ولقد تلمس هذا التفكير دس ادراكه للمناخ فى ثنايا السرد الأسطورى فى بعض الأحيان • ومن الجائز أن هذا الفكر قد تحسس العلاقة بين خصائص المناخ وأحوال الاقليم أو الاقاليم ونبض الحياة فيها • ولكن المؤكد أنه انكب على تصور العلاقة بين المناخ من ناحية وصفات الناس وطبائع الشعوب من ناحية أخرى • وتمادى هذا الاجتهاد الى حد استشعار تأثير المناخ وحالة الجو فى مسيرة الحياة •

وامعانا فى التفكير فى المناخ وتأثيره واختلافه من مكان الى مكان آخر ، أخرج هذا الفكر الفلسفى الاغريقى أول أو أقدم محاولة مفيدة ، تقسم العالم الى عدد من الاقاليم المناخية المتميزة • وصحيح أن هذا التقسيم العتيق قد بنى على درجات العرض وما يترتب عليها من اختلاف فى الحرارة وبالذات للفصل بين اقليم واقليم آخر ، ودون أن يفطن هذا التفكير الى كل العوامل الأخرى التى تعدل الحرارة • ولكن المؤكد أن هذا التفكير قد اتجه فى الاتجاه الصحيح الى حد كبير ، وخاصة عندما تلمس أثر بعض العوامل المحلية ، وكيف تكون من وراء اختلافات مناخية هامة وجوهرية بين الأقطار فى اطار الاقليم المناخى الواحد •

وعن الغلاف الحيوى النابض بالحيوية والحياة على سطح الأرض ، تصدى الفكر الفلسفى الاغريقى لمدى التنوع الحيوى من ناحية ، ولكنه وماهية النشأة والتطور الحيوى من ناحية أخرى • وأفلح انكسمندر فى تصور العلاقة الأصولية بين الماء والحياة • وقد ساد اعتقاد غالب بين المفكرين الاغريق ، يصور كيف نشأت الحياة فى البحر ، وكيف تسللت من البحر الى البر • وتمادى هذا التفكير فى أمر الحياة ، لكى يتصور كيف تطورت الحياة من كائنات بسيطة التركيب دنيئة الى كائنات معقدة التركيب راقية • وهذا - من غير شك - علامة على أن الفكر الفلسفى الاغريقى ، قد وضع أول لبنة فى مسألة تطور الحياة فى أحضان الأرض على المدى الجيولوجى الطويل •

بل ويجب أن نؤكد أن الفكر الفلسفى الاغريقى الذى انبرى من خلال

الملاحظة الى تقصى بعض الحقائق الطبيعية وأدلى بفكره فيها لم يقف اهتمامه عند حد معين • ومن الطبيعي أن نستشعر كيف اجتهد اجتهادا فكريا عميقا وهو يقدم على تصور تفسير معين يقتنع به لكى يفسر هـذه الحقائق ، أو وهو يتلمس العلاقة بين الحقيقة الطبيعية الجغرافية والحياة على الأرض • ومن الجائز أن يشطح هـذا الفكر ويتردى فى الخطأ أو يحلق فى الوهم والخيال الأسطورى ، أو أن يبتعد عن الواقعية السوية • ولكن المؤكد أنه أعطى أول خطوة فى الاتجاه الصحيح وهو يحتم على التفكير الجغرافى البحث عن تفسير أو البحث عن العلاقة • بمعنى أنه لم يقف عند حد عرض الصورة الجغرافية ، بل تلمس السبيل الكاشف عما وراء الصورة •

وفى الجغرافية الوصفية ، تطلع الفكر الفلسفى الاغريقى ، الى استيعاب وتدبر حصاد المغامرات الجسورة التى انبرى المغامرون فيها الى كشف النقاب وتوسيع دائرة المعرفة بكثير من أنحاء الأرض من حول بلاد الاغريق • وهذا معناه أن فريق المغامرين قد اجتهـد وتولى مسئولية الكشف الجغرافى وأن المفكرين قد انكبوا على تدبر نتائج هذا الكشف • ومعنـاه أن الرحلة كانت مطية هذا الاتجاه ، وأن التفكير كان استثمارا مفيدا لحساب الانجاز الجغرافى الذي استفاد من هذه الرحلة •

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف انفتح الفكر الفلسفى الاغريقى انفتاحا من غير حدود ، لكى يستوعب حصاد الاجتهـادات الجغرافية الأقدم ، وهى تحكى فى السياق الأسطورى وتخلط بين الحقيقة والخيـال ، فى مجـال توصيف الأقطار التى شهدتها أو استمعت الى الرواية عنها • وما من شـك في أن هذا الانفتاح قد فتح شهية الفـكر الفلسفى الاغريقى ، لكى يتدارس حصاد الاجتهاد الجغرافى المغامر فى صحبة البحارة أو التجار العاملين فى البر والبحر(١) ، أو فى صحبة الجيش العـامل فى خـدمة أحلام الاسـكندر الأكبر(٢) •

---

(١) نضرب لذلك مثلا بمدى الانتفاع برحلة بتياس الاغريقى فى القرن الرابع قبل الميلاد فى المحيط وصولا الى غرب أوروبا • ومن الجائز أنه قد تطلع الى تجارة القصدير وتجارة العنبر من خلال مغامرة بحرية الى الجزر البريطانية وقد حقق هدفه التجارى بالفعل ، ولكن المؤكد أنه قد سجل وصفا جغرافيا جيدا عن أحوال الناس وأوطانهم فى انحاء هذه الجزر •

(٢) قاد الاسكندر التحرك الاغريقى المنتصر على كل الجبهات فى آسيا وأفريقية فى القرن الرابع قبل الميلاد • وقد اصطحب مع الجيش نفرا من المفكرين علامة على استشعاره قيمة العلم والتفكير وعلى تطلعه الى كشف النقاب عن المجهول وتوسيع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض =

وتراث الفكر الاغريقى ، فى جعبته حصيلة مفيدة وثرية ، عن المعرفة الجغرافية • ومن شأن هذه الحصيلة أن تعبر - بكل الصدق - عن تصاعد الاجتهاد الجغرافى الذى انبرى له نفر من رجال مغامرين خرجوا فى صحبة التحرك الاغريقى برا وبحرا فى أنحاء متفرقة • وما من شك فى أنهم وضعوا أول تمييز واضح بين القارات آسيا وأوروبا وافريقية فى جزيرة العالم • وبصرف النظر عن مدى الخلط بين الحقيقة والخيال فى السرد الأسطورى ، وبصرف النظر عن الصور المبهمة والشخصيات الأسطورية والغرائب الكاذبة فى التصوير أو التوصيف الجغرافى الذى أسفر عنه هذا الاجتهاد المغامر ، ينبغى أن نستشعر صدى الفكر اليونانى وتعلقه بأمل التدبر الواعى للكشف الجغرافى والتعرف على الأقطار وصور الحياة فى أحضانها •

وعلى الصعيد الأوروبى ، كان النشـــاط التجارى الاغريقى البحرى والبرى على حد سواء ، من وراء معرفة جغرافية وتوصيف جغرافى عام لبعض أنحائها • ومن الجائز أن التوغل الاغريقى الى القلب الأوروبى لم يحـدث الا من بعد عام ٦٥٠ قبل الميلاد • ولـكن المؤكد أن الاستيطان الاغريقى فى بعض مستعمرات خصوصية على شروم وخلجان السـاحل الأوروبى قد أتاح رؤية جغرافية مبكرة فى الظهير المباشر ، وتسجيل هذه الرؤية عن قطاعات من أوروبا الجنوبية والجنوبية الشرقية ، على وجه الخصوص •

هذا وقد اقتحم هيرودوت بذكاء ميدان التسجيل الجغرافى عن أوروبا • وقد تلمس توصيف الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا • كما أورد فى توصيفه الجغرافى ذكر المجـــارى النهرية فى أوروبا الشرقية ، وصـــور وضع البحر الأسود وبحر أزوف ، والجريان الرتيب فى نهر الدانوب • وفى مقـــابل التسجيل الذى كشف أبعاد هـــذه الرؤية الجغرافية والانفتـاح على شرق أوروبا ، أسهمت رحلة بثياس عن رصيد سجل الرؤية الجغرافية فى ظهير ساحل أوروبا الغربية والبحر البلطى • وهذا معناه اجتهاد ودلو أنه كشف النقاب وعرف الطريق لكى تغطى الرؤية الجغرافية أوروبا بأسرها •

= والناس• ولقد راودت الاسكندر الاحلام ، لكى تتحقق أكثر من رحلة بحرية تدور حول جزيرة العرب من الخليج العربى الى البحر الأحمر (الاريترى) • وسارت بالفعل رحلة بحرية مغامرة فيما بين مصب نهر السند والخليج العربى • وسير رحلة برية مغامرة أخرى فى قلب جزيرة العرب المجهول تلتمس الطريق وتكشف النقاب عن طريق البخور الذى يخترق جزيرة العرب • ومن خلال العرض الاسطورى الذى أسفر عه الفكر الفلسفى الاغريقى تمجيدا للاسكندر وبطولته الفذة ، تدارس هذا الفكر أهم حصاد هذه الرحلات المغامرة لحساب الاضافة الى رصيد المعرفة الجغرافية •

وبصرف النظر عن الخطأ والتخبط والاستغراق فى سوءات الخلط بين الواقع والخيال ، وبصرف النظر عن شطحات الفكر فى التصور الأسطورى المبهم الغشيم ، وبصرف النظر عن سقطات هيرودوت وزلات بثياس وأخطاء غيرهم ممن أسهم اجتهادهم البرىء فى كشف النقاب عن أوروبا ، ينبغى أن نؤكد على قيمة التسجيل الاغريقى وهو يميط اللثـام عن قطاعات من أرض أوروبا وصور الحياة فيها • أو ليس هذا هو الانفتاح الحقيقى الذى فتح الباب على مصراعية ، لكى يتوالى من بعـد الاغريق ورؤيتهم الجغرافية ويتصاعد الاجتهاد الجغرافى للكشف عن أوروبا ، وادخالها الى مسرح التـاريخ الذى يوجه أحداثه ويحرك مسيرته ويسجل نبض أصحاب الحضارات فى حوض البحر المتوسط ؟

وعلى الصعيد الآسيوى ، كان النشـاط التجارى الاغريقى البـرى والبحرى والنشاط الحربى المنتصر على حد سواء ، من وراء معرفة جغرافية وتوصيف جغرافى عام كاشف عن بعض أنحائها • ومن الجائز أن بدأ التسلل الاغريقى بداية مبكرة الى بابل واستوعب تراثها وتعايش على زادها الحضارى العتيق • ولـكن المؤكد أن الانتشـار الفارسى والانتصـار الامبراطورى ، قد أجهض هذا التسلل ، وأوقفه وجمد فاعليته لبعض الوقت • ومع ذلك فلقد استثمر الاجتهاد الجغرافى الاغريقى هذا التسلل ، استثمارا نتبينه من خلال البيان الجغرافى الذى سجلـه الاغريقى هيكاتيوس فى القرن الخامس قبل الميلاد • وفى هذا البيان تصوير للرؤية الجغرافية الاغريقية التى جمع هيكاتيوس أوصالها وصاغ صورتها وبيانها من خـلال استيعاب الروايات التى أصغى الى رواتها • كما سجل هيرودوت بدوره الرؤية الجغرافية عن أقطار آسيوية مثل ايران والهند اعتمادا على معلومات أسفرت عنها بعض الرحلات المغامرة فى آسيا •

وفى كنف السلطة الفارسية ، وتحت سمعها وبصرها ، انطلق الاجتهاد الاغريقى ـ بكل الجدية ـ الى الرحلة وجمع المعلومات الجغرافية من بعض أنحاء من آسيا الغربية • واستطاع بعض الرحالة المغامرين مثل سكايلاكس وكتسياس من التجول وتسـجيل الرؤية الجغرافية فى تلك الأنحاء[١] •

---

(١) يشهد كتاب كتسياس عن الهند على حصافة ومهارة الاجتهاد الجغرافى الاغريقى فى كنف السلطة الفارسية • ومن الجائز أن يحتوى هذا الكتاب على كثير من الاخطاء والمعلومات الزائفة ، وأن يتردى كاتبه فى سقطات وزلات تشوه رؤيته الجغرافية • ولكن المؤكد أن اخراج هذا الكتاب علامة على جرأة الاجتهاد الاغريقى وهو متصدى لكشف النقاب عن الهند ••

وما من شك في أن حصاد الاجتهاد الجغرافى الـذى استهدفته الرحلة كان خطـوة مهمة على الطريق التى قادت الانطلاق الاغريقى - بكل الحماس - الذى انفتح على آسيا وتطلع الى توسيع دائرة رؤيته الجغرافية فى أنحائها ٠

أما الانطلاق الحقيقى وعلى أوسع مدى فقد تحقق عندما استثمر الاجتهاد الجغرافى انتصار الاسـكندر الأكبر ٠ وما من شك فى أن الرحلة فى البر والبحر ، قد استشعرت الأمن والأمان وهى تسعف الاجتهـاد الجغرافى الاغريقى لكى يفتح لها السبل ويرشده ٠ والمهم أن الفكر الاغريقى قد انكب على استيعاب حصاد هـذا الاجتهاد وتولى تسجيل المعرفة الجغرافية وتزويد التراث برصيد هذه المعرفة ٠

وعلى الصعيد الافريقى ، كان الاجتهاد الاغريقى البحرى وفى صحبته الاجتهاد الجغرافى من وراء عرض الرؤية الجغرافية الكاشفة عن بعض أقطـار أفريقية ٠ ويمكن أن نتصور كيف أدى هذا الاجتهاد دوره الوظيفى ، من خلال استيطان ووجود أغريقى تشبث بسواحل برقة وليبيا ، أو من خلال انفتاح اغريقى مصرى متبادل ٠ وهذا معناه أن تهيأت لانفتاح حقيقى اغريقى عـلى الأرض الافريقية ، ومعناه أن نشأت الخبرة وبدأت المحاولات فى البر والبحر من أجل كشف النقاب عن أنحاء أفريقية فى ظهير الساحل الشمالى ٠

وقد اعتمد الاجتهاد الجغرافى الاغريقى على الرحلة البرية للتوغل فى الظهير الافريقى ، بقدر اعتماده على الرحلة البحرية للاقتراب من السـواحل الافريقية الشمالية(١) ٠ ومن الجـائز أن واجـه التحرك الاغريقى البحرى التحدى الذى خذلهم وأحبط آمالهم ٠ ومن الجائز أن كان هـذا التحدى من صنع الخيال الفينيقى فى قرطاجنة الذى أدخـل فى روع الاغريق - كذبا - أن المحيط غرب افريقية ضحل لا يصلح للرحلة البحرية ، وسدوا الطريق فى سبيلهم ٠ ولكن المؤكد أن التحرك الاغريقى قد واجه التحدى الصحراوى الذى أقام سدا وحاجزا مانعا تغلغلهم فى اتجاه القلب الافريقى ٠ وهذا معناه أن أكثر من عقبة قد أحبطت التطلع الاغريقى وأجهضت اجتهادهم الجغرافى على الصعيد الافريقى(٢) ٠

---

(١) رفض الفكر الاغريقى قصة الطواف حول أفريقية التى رواها هيردوت ، واعتقد فى استحالة هذا الطواف ٠ ويبدو أن تجارة البحار الجنوبية قد استقطبت معظم الاجتهاد الاغريقى ٠

(٢) افتقد التحرك البرى الاغريقى الجمل الذى لم يكن قد شاع استخدامه فى مصر حتى ذلك الوقت ٠ ولم يجد فى الحمار وسيلة مناسبة لاختراق حاجز الصحراء ٠

من خلال رحلات محدودة أوقفت التحديات الصعبة مسيرتها فى البر والبحر ، ومن خلال روايات وقصص أسطورى وحكايات ، اعتصر الاجتهاد الجغرافى معرفته بالأرض الافريقية فى أضيق اطار لا يتجاوز بعض وليس كل الظهير المباشر للساحل الشمالى • ولم يكن غريبا أن تكون هذه المعرفة سطحية • بل لعلها كانت معرفة تضلل ، ووقع الفكر الجغرافى فى سقطات وأخطاء فاحشة • وليس أدل على ذلك من تردى هيردوت فى الخطأ الشنيع وهو يتصور جريان النيل وانسياب أحباسه العليا من جبال أطلس فى شمال غرب افريقية وجريانها على محور غربى شرقى مسافات طويلة(١) ، قبل أن ينعدل اتجاهه ويصبح من الجنوب الى الشمال فى مصر(٢) •

وفى الوقت الذى أحبطت فيه الصحراء الافريقية الرحلة الاغريقية البرية ولم يسعفها النيل بجنادله ولم يفتح لها الحمار الطريق الى القلب الافريقى ، والذى غرر فيه السرد الأسطورى الفينيقى بالرحلة الاغريقية البحرية ، ولم تنطلق فى المحيط غرب افريقية ، فى هذا الوقت نفسه ، تصدت العناصر الافريقية البدائية الشرسة للتوغل الاغريقى الذى حاول التسلل من مراكز التجارة الاغريقية التى تناثرت على ساحل البحر الأحمر (الارترى) وساحل شرق افريقية الى القلب الافريقى • وهذا معناه أن الاجتهاد الاغريقى لم يملك حرية الحركة على الصعيد الافريقى • ومعناه أيضا انهم أطلوا على ظهير محدود من الأرض الافريقية وتطلعوا من وراء حواجز طبيعية أو بشرية تطلعا لم يسفر عن رؤية جغرافية سوية • ومن ثم كان حصاد الاجتهاد الجغرافى على الصعيد الافريقى زائفا أو غامضا • وقد أوقع

---

(١) زعم هيردوت بوجود منابع النيل فى جبال أطلس يمثل تصورا بنى تحت تأثير النظام السميترى الذى انزلق فيه الفكر الاغريقى بصفة عامة • ويبدو أن التشبث بفكرة السميترية قد دعت الى تصور جريان النيل فى نفس الاتجاه الذى يجرى فيه نهر الدانوب •

(٢) توغل هيردوت فى اتجاه جنوب مصر سنة ٤٤٨ قبل الميلاد • وقد وصل بالفعل الى فيله قرب مدينة أسوان • وقد هيأ له هذا التوغل أن يشهد النيل وأن يشده لكى يسجل دراسة عنه • ومن الجائز أنه اخفق فى الكشف عن منابع النهر واماطة اللثام عن المجهول فيما وراء مصر جنوبا • ولكن المؤكد أن هيردوت قد أشار الى منابع حبشية بالاضافة الى المنابع التى تصور انسيابها من جبال أطلس • وبصرف النظر عن سقطات وزلات هيردوت ، الا انه فتح الباب على مصراعيه وشد انتباه الفكر الاغريقى الى النيل • وقد تحقق بالفعل اهتمام ارسطو بالنيل وناقش أهميته • بل لقد انساق هذا الفكر الاغريقى الى حد المحاولة التى تصدت لتفسير ظاهرة الفيضان والضوابط الحاكمة لتغير مناسيب الجريان فى هذا النهر من موسم الى موسم آخر •

هذا الزيف أو الغموض الفكر الجغرافى الذى تدبر الرؤية الجغرافية فى الضلال والخطأ ٠

وفى مجال أعداد وتجهيز الخرائط التى تمثل شكلا من أشكال التعبير عن المعرفة الجغرافية ، ينبغى أن نفطن الى أن الاجتهاد الاغريقى لم يبدأ من فراغ ٠ ذلك انه قد انتفع واستثمر خبرة وحصاد الاجتهادات الجغرافية الأقدم والأسبق ٠ ومع ذلك فقد تأتى هذا الاجتهاد الاغريقى - بكل التفتح - لكى يسجل نقطة تحول فى انجاز وابداع الخريطة للعالم ٠ وهناك خريطتان على الأقل قد أوضحت هذا التحول ٠

وتمثل الخريطة التى أسفر عنها تصور انكسندر أول خريطة للعالم ٠ وقد رسمت هذه الخريطة الرائدة فى القرن السادس قبل الميلاد ٠ وتصور هذه الخريطة الأرض قرصا فى محيط يطوقها ٠ ومن الجائز أن انكسمندر قد تحمس لموطنه فوضع اليونان فى مركز هذا القرص الأرضى ٠ ومع ذلك فان مطالعة هذه الخريطة تصور مدى الحرص على عناية بتسجيل كل الحقائق المعروفة عن الأرض ٠ ولأن هذا الاغريقى كان حريصا على أكبر قدر من الصدق الموضوعى ، فقد ترك بعض المساحات الكبيرة بيضاء على الخريطة ، اعترافا بجهله بها وتأكيدا لصدقه ٠

أما الخريطة الثانية فهى التى تمثلت فى محاولة هيكاتيوس فى سنة ٥٠٠ قبل الميلاد ٠ وهذه بدورها خريطة كلية للعالم أضيفت اليها تفاصيل كثيرة لم تتضمنها خريطة انكسمندر ٠ وفى اعتقاد الجغرافيين المنصفين أن هذه الخريطة تمثل نقطة انطلاق حقيقية فى رسم الخريطة العالمية التى تحكى أو تعبر عن المعرفة الاغريقية الجغرافية على صعيد جزيرة العالم(١) ٠ ومن الجائز أن رسم الخريطة قد أخطأ عندما وضع البحر المتوسط وبحر قزوين لكى يفصل بين أوروبا فى الشمال وآسيا فى الجنوب ٠ ولكن الذى يهم فى

---

(١) قام هيردوت برسم خريطة للعالم كما كانت أبعاد العالم فى تصوره ٠ ويبدو أن هيردوت كان من الرافضين لفكرة استدارة الارض ٠ ومن ثم رسم هذه الخريطة لكى تتخذ شكلا طوليا ٠ وعلى هوامش هذه الخريطة ، ترك هيردوت مساحات كثيرة دون أن يحدد سواحل تحد شكل اليابس ٠ وكأنه كان يرفض أيضا فكرة احاطة البحر المحيط بالارض ، كما وردت فى خريطة هيكاتيوس ٠ وربما كان ذلك أيضا تعبيرا عن مدى الجهل بشكل اليابس وصدق تعبيره عن هذا الجهل ٠

هذه الخريطة هو أن الشكل العام يعطى الانطباع الذى يشعر ويصور مدى معرفتهم العامة عن جزيرة العالم(١) ·

* * *

مهما يكن من أمر ، فقــد أفلح الفكر الفلسفى الاغريقى فى تبنى الاجتهاد الجغرافى · وما من شك فى أن الفكر الجغرافى القديم الذى سجل ابداع العقل الاغريقى سار فى الاتجاه الصحيح أولى خطواته بأقدام ثابتة · وعندئذ تبدأ - بالفعل - مسيرة فكرية حافلة بما يشبع تطلع الانسان للمعرفة الجغرافية · ومن الجائز أن نعيب الخلط بين الحقيقة كمــا ينبغى أن تكون ، والخيال كما حدث بالفعل وكيف تسبب فى تشويه الفكر الجغرافى وتقدمه بطيئا · ولكن الذى لا شك فيه أن ومضات هذا الفكر المتفتح كانت مضيئة وكاشفة وهى تبصر خطوات المسيرة الفكرية الجغرافيــة المتأنية ، فى المرحلة التالية فى كنف التفوق المصرى البطلمى ·

* * *

الفكر الجغرافى المصرى اليونانى

من الجائز أن كانت وفاة الاسكندر فى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد مسـئولة عن صدمة عنيفة ، بددت شمل التوسع الاغريقى الامبراطورى · ولكن المؤكد أن التواجد البطلمى الذى انتصر فى حيــازة مصر ، كان من وراء استقطاب أهل الفكر وأقطاب الاجتهاد الاغريقى ، واغرائهم للاستقرار فى أحضان العز والرفاهية والتقــدم الحضارى فى مصر · وعندئذ يجب أن نتصــور كيف أصبحت مصر مركز الثقل فى حوض البحر المتوسط ، حضــاريا وسياسيا واقتصاديا وفكريا ، وكيف أقام البطالمة صرحا شامخا احتوى الفكر والمفكرين وأجزل لهم العطاء فى أحضان الاسكندرية(٢) ·

---

(١) اتسم تسجيل هذه المرحلة بالصدق والعلهم حرصوا كل الحرص على تسجيل المعلومات التى يثقون فيها ، ومن ثم تركوا بعض المساحات المجهولة بيضاء ·

(٢) الاسكندرية مدينة من صنع الانتصار لحساب الوجود اليونانى الذى تشبث بمصر · وقد عكف البطالمة بعد أن قدر لهم أن يرثوا حكم مصر بعد الاسكندر ، على دعم مكانة الاسكندرية · وما من شك فى انهم صنعوا كل ما يجب أن يصنع ، لكى ترث الاسكندرية أثينا ، حتى أصبحت بالفعل منارة العلم والمعرفة وحصن المفكرين فى العالم ·

وما من شك فى أن المكتبة العلمية ، التى جمع البطالمة فيها ، أعظم ما أسفر عنه الفكر الاغريقى والمصرى من تراث قد أشبع نهم العلماء والمفكرين المبرزين(١) ، بل ان العطاء السخى الذى قدمه البطالمة لأهل العلم والفكر الوافدين الى رحاب الاسكندرية ، قد فتح شهية الاجتهاد وشحذ الفكر لكى تتوالى الأجيال المجتهدة العاملة فى كل حقول الفكر بصفة عامة ، ولكى ينجلى الابداع فى حقل الفكر الجغرافى(٢) ·

هذا وقد أفلحت شخصية مصر فى تمصير المفكرين الوافدين اليها واذابتهم وصهرهم فى سبيكة البناء البشرى المصرى بعد وقت قليل · ومن ثم كان الاجتهاد الجغرافى والفكر الذى تدبر ثمرة هذا الاجتهاد مصريا من حيث الانتماء ويونانيا من حيث اللغة التى سجلت ابداعه واضافته الى رصيد الفكر الجغرافى(٣) · بل لقد تفتحت مدرسة الاسكندرية الفكرية وتولت تنشئة أجيال من المفكرين الجغرافيين الذين اعتزوا بهويتهم المصرية ، وتحملوا مسئولية تطوير وتحويل مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ·

وبصرف النظر عن دور المدرسة الفكرية الاسكندرانية الوظيفى البناء ، الذى ساق الفكر الجغرافى فى الاتجاه السوى ، ينبغى أن نتصور كيف استفاد الفكر الجغرافى من وجوده فى الاسكندرية مرتين · مرة وهو يستثمر

---

(١) تولى بطليموس فيلادفيوس مسئولية تزويد مكتبة الاسكندرية بالكتب التى تزخر بالتراث الفكرى العالمى · كما تولى أيضا مهمة تقديم الحوافز والعطاء السخى لاستقطاب المفكرين الى الاسكندرية ·

(٢) ازدهار الفكر فى احضان الاسكندرية ، كان معناه ـ بكل تأكيد ـ تحول الفكر من الاطار الاغريقى القومى المحدود الذى ساد فى احضان اثينا ، الى الاطار الواسع العالمى الفضفاض· وهذا معناه التفتح والانفتاح من غير حدود على العالم لحساب الانسان · ومعناه أيضا أن اجتماع العلماء فى أحضان الاسكندرية وتكوين مدرسة الفكر الاسكندرانى ، قد جعل من الاسكندرية بوتقة ، ينصب فيها الاجتهاد الفكرى الواعى ، الذى اطلع على أهم تراث الانسان فى مصر وبابل وفارس واليونان والهند ، لكى يكون الصهير فكرا متجددا مجددا عالميا ، ومعناه مرة ثالثة أن الفكر الاسكندرانى قد تولى ـ بكل الكفاءة والثقة ـ زمام المسيرة الفكرية ، لكى تكون الاضافة فى كل علم وفى كل فن ·

(٣) أشاع انتصار الاسكندر الامبراطورى ودوره الاسطورى الرائع الذى تألق فى الاقطار التى سجل فيها انتصاره الباهر الثقافة اليونانية على أوسع مدى · بل لقد ازدهرت هذه الثقافة اليونانية ، وأفلحت فى تثبيت جذورها ، لكى تصبح اللغة اليونانية لغة العلم فى هذه الاقطار على مدى حوالى ثلاثة قرون كاملة بعد وفاة الاسكندر ·

العمق الحضارى والثراء الحضارى الذى صنعه الاجتهاد الحضارى المصرى المبدع على المدى الطويل ، ومرة أخرى وهو يستثمر المناخ الفكرى العلمى الآمن فى أحضان الاسكندرية • بل وينبغى أن نستشعر أيضا كيف استثمر الفكر الاسكندرانى المتألق فى ظل مصر ، عز البطالمة وسخاء عطائهم من العلوم الطبيعية والرياضية ، وكيف بصر هذا الاستثمار المفكرين الذين تحملوا مسئولية الفكر الجغرافى وعملوا على تزويد رصيده بكل جديد •

هذا وقد كرس التفكير الجغرافى الموضوعى ، الذى ترعرع فى أحضان المدرسة الفكرية الاسكندرية ، كل اهتمامه ، لكى يتولى الاضافة المجددة والابداع الى رصيد كل فرع من فروع الجغرافية ، التى أسفر عنها الفكر الفلسفى الاغريقى فى أحضان اثينا • وصحيح أن نشأة التفكير الجغرافى الموضوعى فى رحم فلسفى اغريقى مفكر ، قد أنجب وليدا سويا وشرعيا • وصحيح أن هذا الوليد السوى الشرعى قد تولى أمره المفكرون الاسكندارنيون الذين سجلوا لأنفسهم الريادة فى التخصص الباحث — بكل العمق — فى كل فرع من فروع الجغرافية وفكرها المتجدد • ولكن المؤكد بعد ذلك كله أن هذا الفريق المفكر الذى تولى أمر وليد الفكر الفلسفى الاغريقى ، لم يسعفه الابداع أو التجديد ، لكى يضيف أو يبتكر فرعا جديدا يضاف الى فروع الجغرافية ، التى أبدعها وأثار قضيتها وأثرى رصيدها ، هذا الفكر الفلسفى الاغريقى •

وهكذا ينبغى أن نستشعر كيف ساق التفكير الجغرافى الموضوعى من خلال الاضافة والابداع مسيرة الفكر الجغرافى الى الأمام ، وكيف أحجم هذا التفكير فى نفس الوقت عن بذل أى اجتهاد ، يمكن أن يسفر عن اضافة فرع أو فروع مستحدثة جديدة ، لحساب الفكر الجغرافى وتوسيع دائرة بحثه • وهذا معناه أن فريق المفكرين الجغرافيين من مدرسة الاسكندرية ، الذين جنحوا الى شكل فج من أشكال التخصص فى التفكير الجغرافى ، قد سجلوا ريادتهم لكى تتقدم بالتوازى مسيرة الفكر الجغرافى المؤلفة من حصاد أو رصيد الجغرافية الفلكية والجغرافية الطبيعية والجغرافية الوصفية • هذا بالاضافة الى التجديد والتطوير والابداع فى رسم الخرائط وتحسين دلالتها الجغرافية •

وفى الجغرافية الفلكية ، اهتم البطالمة اهتماما خاصا بدعم الرصد الفلكى ومظاهرته • ومن ثم انطلق التفكير والتدبر ، وهو يحملق فى قبة السماء ويعاين الأجرام وحركاتها • وقد أسفر هذا التفكير والتدبر فى الرؤية

الفلكية عن اضافات الى رصيد الفكر من الكون ومكان الأرض فيه • ومن الجائز أن ندرك كيف أن اعتماد التفكير والتدبر فى الرؤية الفلكية ، على الأساس الرياضى ، قد وجه الاضافة والتجديد فى الاتجاه الأفضل • ولكن المؤكد أن التطلع الى السماء والاهتمام بالرصد وتسجيل الملاحظات الفلكية ، قد فجر بعض الأفكار الجريئة ، التى أسفرت عن تطوير واضافة وتجديد بصفة عامة •

ومن أهم هذه الأفكار الجريئة ، فكرة دوران الأرض فى حركة يومية وهى مركز الكون ، التى فجرها وتحمس لها فكر هيكتاس وتدبره • وقد صور فكر هذا الرجل أيضا كيف تدور الشمس ويدور القمر كل فى فلك حول الأرض ، فى الوقت الذى تكون النجوم ثابتة مستقرة فى مواضعها لا تتحرك • وبصرف النظر عن جسامة بعض الأخطاء التى تردى فيها هذا الفكر الجرىء ، نذكر أنه قد أطلق عنان التدبر والتفكير من بعده وأثار قضية هامة تطلب مزيدا من التدبر •

وحول هذه القضية ، تفجر فكر هرقليدس لكى يتصور حركة الأرض ودورانها مرة كل أربع وعشرين ساعة • كما تصور أراتوس المحور الذى تدور من حوله السماء ، مع توازن الأرض فى القلب الوسط المركز للكون كله • بل لقد سجل فكر ارستاركوس سبقا واضافة جريئة أخرى ، عندما تصور كيف أن الأرض هى التى تتحرك فى فلك دائرى حول الشمس التى تحتل المركز القلب الوسط فى الكون ، وأن هذا الدوران السرمدى حول محور يتم دورة كاملة يوميا أمام الشمس •

ومن الجائز أن نذكر كيف رفض المفكرون فكر ارستاركوس رفضا قاطعا ، وكيف استحق التجريم والمحاكمة لأنه دنس بفكره وخطيئته أشياء مقدسة • ولكن المؤكد أن سليكوس قد أنصف ارستاركوس وتحمس لفكرته الجريئة ، وأيد رؤيته الفكرية الذكية ، عندما تصور أن الشمس بوصفها الكتلة الأعظم فى الكون ، ينبغى أن تكون فى مركزه • ووقفة الانكار - على كل حال - علامة على أن القضية قد شغلت العقول وان التفكير قد تولى أمر تعميق المعرفة بأبعادها •

والمهم أن كفة الفكر الذى قاد حملة الرفض والانكار والاستنكار لتصور ارستاركوس قد رجحت تماما • بل وقد أيد الرفض والانكار هيباركوس من خلال ردة فكرية استنكرت فكرة دوران الأرض حول الشمس من

أساسهـا ، واستهجنت وضع الشمس بديلا عن الأرض فى مركز الكون • وكان من الطبيعى أن يستمر هذا الخلاف والجدل ، بين أقلية تتبنى الفـكر الصحيح المرفوض ، وأغلبية تدافع عن الفكر الخاطىء الرافض ، حتى يقضى فيه اجتهاد وتفكير وتدبر المفكرين فى مرحلة لاحقة بعد مئات السنين •

وبقدر استنكار فكر هيباركوس الذى ضيع وأهدر الفكرة الصحيحة ، ينبغى انصاف اجتهاد هيباركوس الاسـكندرانى الذى وضع الرؤية الفلكية فى اطار المنهج العلمى السليم • ومن الجائز أنه أخطأ خطأ خطيرا عنـــدما عارض ورفض فكر ارستاركوس الذى وضع الشمس فى مركز الكون وصور حـركة ودوران الـكواكب فى أفلاك من حولهـا ، وأجهض التقـدم الجزئى فى المسيرة الفكرية • ولكن المؤكد أنه قد طور جهاز الأسطرلاب ، من أجل تحسين استخدامه فى قياس زوايا ارتفـــاع الأجرام فى قبة السماء • كما أنه طور استخدام الرياضيات ، من أجل تحـديد درجات العرض • هـــذا بالاضافة الى تأكيده على ميل المحـــور الذى تدور من حوله الأرض دورتها اليومية السرمدية •

وهكذا التهب التفكير الجغرافى وهو يتطلع من خلال رؤية فلكية كلية الى استشعار كنه الـكون ومكان الأرض فيه • كما التهب الفـكر الجغرافى أيضا ، وهو يتطلع من خلال حسابات رياضية فلكية الى قياس أبعاد الأرض• وهذا معناه اتجاه المدرسة الفـكرية الجغرافية فى الاسـكندرية الى توسيع قاعدة بحثها واهتمامها ، والى تكثيف اجتهـادها وتدبرها فى خـدمة هذا القطاع العريض من المعرفة الجغرافية • ومعناه أيضا بداية مبكرة فى تأهيل التفكير الجغرافى تأهيلا يكسبه حسن استخدام نتائج بعض العلوم (الرياضة) وتأسيس اضافاته وابداعه عليها •

وفى مجال قياس أبعاد الأرض الذى برهن على حسن استخدام المنطق التركيبى ، اقتحم ديكاركس هذا الميدان لأول مرة ، عندما عقد العـزم على هدفين هما ، تحديد خط العرض المركزى وقياس طوله الكلى • ومن شـأن الهدف الأول الذى استهدف تقسيم متكافىء يحـدد نصف الـكرة الشمالى ونصف الكرة الجنوبى ، أن يحـــدد بالضبط محيط الأرض الحقيقى ضمنا فى نفس الوقت • وهذا معناه أن التوفيق فى الهدف الأول ، يقود الاجتهاد فى تحقيق وانجاح الهدف الثانى •

ونذكر بـكل الانصـاف أن ديكاركس قد فتح البـــاب على مصراعيه واكتسب فضل الريادة فى هذه المسـألة • وقد توالت من بعـده محاولات

واجتهادات طوعت الحساب الرياضى من أجل قيـــاس محيط الأرض(١) • وما من شك أن كل هذه الاجتهـادات قد رشدت ايراتوستين الذى اضطلع بمهمة هذا القياس وسجل قمة التفوق بمقاييس عصره فى هذا المجال(٢) • كما أنها سجلت ابداعا واضـــافة طالما تاهت به مدرسة الفـــكر الجغرافى فى أحضان الاسكندرية •

فى الجغرافية الطبيعية ، نتبين اتجاه التفكير الجغرافى الذى زاد تمرسه فى استيعاب الرؤية الجغرافية على سطح الأرض ، الى دراسة بعض الظاهرات الطبيعية وتصويرها تصويرا فنيا وصفيا • وكان التركيز على صور التضرس الذى عاينه بعض المفـكرين ولفت انتباههم على امتداد سطح الارض الرؤية الجغرافية التى ميز فيهـــا التـدبر والتفـكير بين أشكال هـذا التضرس • وما من شك فى أن التضرس الموجب العـالى الذى يتمثل عـــلى اليابس ، قد أوحى للعقل والتــدبر شـكل التضرس السالب الهـابط الذى يحتـوى البحار • ومن ثم استهوى التفكير الجغرافى تدبر موضــــوع اليابس والماء ، وتوزيع التضرس الذى ينتشر على سطح الأرض •

ويبدو أن هذا الفكر قد انساق ـ بكل الجدية والاهتمام ـ الى دراسة البحار دراسة كاشفة عن امتداد المسطحات المـائية وكيف يتخلل انتشارها كتل اليابس • ومن الطبيعى أن نتبين اتجاه هذا التفـكير وهو يعاين البحر المتوسط والبحر الأسود نموذجا لامتـداد المسطحات المـائية ، فى الاتجـاه

---

(١) تضاربت الأقوال حول من اضطلع بهذه المهمة من خلال تطويع الاعتماد على الحساب الرياضى • وفى رواية ينسب الفضل الى يودوكسوس • وفى رواية أخرى ينسب هذا الفضل الى ارتسياكوس • ومن خلال حساب التسامت النجمى بين بلدتى أسوان ولزمشيا والتى قدرت المسافة فيما بينها بما يساوى حوالى ١ : ١٥ من طول محيط الارض ، انتهى التقدير الحسابى الى أن طول المحيط يقدر بحوالى ٣٠٠ ألف ستاذيا •

(٢) ومن خلال حساب الزاوية المحصورة بين الشمس العمودية على بلدة أسوان والشمس غير العمودية على بلدة الاسكندرية فى لحظة واحدة معينة والتى بلغت ٧ درجات ، ١٢ دقيقة ، وتعادل فى نفس الوقت ١ : ٥٠ من محيط الدائرة ، استخلص ايراتوسنين طول محيط الارض • ذلك أن تصور أن طول محيط الارض يمثل حاصل ضرب المسافة بين الاسكندرية وأسوان وهى ٥٠٠٠ ستاذيا فى ٥٠ • ومن ثم أصبح محيط الارض فى تقدير ايراتوستينى ـ بصرف النظر عن احتمال الخطأ فى تقدير المسافة بين أسوان والاسكندرية ـ ٢٥٠ ألف ستاذيا • وعلى اعتبار أن الاستاذيا المقياس الطولى المستخدم فى ذلك الوقت تساوى ١٨٥ مترا ، فان تقدير طول محيط الأرض حسب قياس ايراتوستين يبلغ حوالى ٢٦٦٠٠ ميلا • وهذا الرقم قريب جدا من الطول الحقيقى لمحيط الارض الذى استخدمت فى قياسه وسائل أحدث ويبلغ بالضبط ٢٥٠٠٠ر٢٥ ميل •

الباحث عن تكوين هـذه البحار فى أحواض الهبوط السالب وعلاقة منسوب الماء فيها بمنسوب الماء الذى ينساب جريانا عذبا فى المجارى النهرية اليها. وربما قفز التفكير والتدبر بذكاء الى تصور التغيرات فى منسوب ماء البحر وعلاقة ذلك التغيير بخط الساحل ·

ومن الجائز أن أسفر هذا الفكر والتدبر فى أمر البحر ، عن بعض تفسيرات وتصورات فجة وغير واقعية ، فى معظم الأحوال · ولكن المؤكد أن التفكير الجغرافى الذى ينكب على رؤية البحر جغرافيا ، ويتصدى لاستطلاع أمور جوهرية وهامة ، قد برهن على تطلع الى تفسير مقنع ، وعلى رغبة حقيقية فى تعميق المعرفة الجغرافية ببعض العوامل من وراء التكوين التضاريسى للحوض الذى يحتوى البحر · وهـذا معناه تحول التفكير من سطحية الرؤية المباشرة للصورة الجغرافية الى محاولة تجسيد هذه الرؤية وتعميقها ·

وأثار انتباه التفكير الجغرافى أيضا رؤية الكساء النباتى وانتشاره الحيوى ومعنى نموه الطبيعى على امتداد صفحة الأرض · وما من شك فى أن الملاحظة قد شدت هذا الانتباه ، وأن المعاينة على المدى الواسع قد كشفت لهذه الملاحظة سوء التوزيع فى النمو وكثافته ، بقدر ما كشفت عن التنوع فى هذا النمو الطبيعى · وقد انكب هذا التفكير على تدبر ذلك كله وتطلع الى ادراك واقعى كاشف لما شد الانتباه من تنوع فى الكساء النباتى الطبيعى· وهذا معناه تساؤل يبحث عن اجابة مرضية أو عن تفسير مقنع ·

وقد سخر ثيوفراسطوس فكره وتأمله ــ بكل الامعان ــ فى تصور سوء التوزيع النباتى على صفحة الأرض · واعتمد ــ بالفعل ــ على أساس جغرافى توصيفى تابع مدى التغير فى التوزيع والتباين فى النمو من صورة طبيعية الى صورة نباتية طبيعية أخرى · وانتهى من خلال التفكير والتدبر الى انجاز مفيد ، تمثل فى تصور علاقة بين أحوال المناخ وخصائص ومواصفات النمو النباتى الطبيعى · وصدق هـذا الانجاز لا غبار عليه بالطبع وعلامة على أن تدبر ثيوفراسطوس قد سار فى الاتجاه الصحيح · وينبغى أن نذكر كيف أن انجاز هذا المفكر من أبناء مدرسة أرسطو كان ناجحا لأن من ورائه خبرة عميقة أثمرت عندما سجل نبض فكره عن المناخ وميز بين المناخ القارى الذى لا يتأثر بالبحر والمناخ الجزرى الذى يبين فيه صدى وتأثير البحر · بمعنى أن خبرة هذا المفكر بالمناخ قد ظاهرت فكره وهو يعالج سوء التوزيع النباتى الطبيعى على الأرض · وبمعنى أن خبرة

هذا المفكر الناضج قد أفلحت فى استشعار وتلمس العلاقة والربط(١) .

هذا ولا ينبىء بتصاعد الاهتمام والتفكير فى الظاهرات الطبيعية تفكيرا جغرافيا ، أكثر من أن نشير الى مدى حرص بعض الرحالة على امعان النظر فى هذه الظاهرات التى تشد انتباههم واطلاق عنان التدبر فى كنهها أثناء الرحلة . وكأن الرؤية والمعاينة فى أثناء الرحلة نقطة انطلاق التفكير انطلاقا باحثا وهو ينكب على تأمل الظاهرة الطبيعية . وفي اعتقاد بعض الباحثين أن مدرسة الاسكندرية الفكرية قد خطت خطوة موفقة بالرحلة عندما حررتها من الرؤية السطحية وألزمتها بتأمل وتدبر هذه الرؤية . بل وفى اعتقاد بعض الباحثين أن هذه البداية قد وضعت أول لبنة فى تبنى الفكر الجغرافى الدراسة والرؤية الميدانية وادراك جدوى التأمل والتدبر فى أمر هذه الرؤية الميدانية ، لحساب البحث فى شأن الظاهرات الطبيعية على سطح الأرض .

وفى **الجغرافية الوصفية** ، أسفر الفكر الجغرافى من مدرسة الاسكندرية عن كتابة أدبية جيدة ، تولت توصيف الأقاليم توصيفا مشبعا ومعبرا عن أبعاد الرؤية الجغرافية والمسح الجغرافى لهذه الأقاليم . والمؤكد أن هذا التوصيف قد كشف عن مدى الاجتهاد فى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية بأقطار الأرض . ومن الطبيعى أن نذكر دور الرحلة البحرية والبرية فى هذا الاجتهاد ، وأن نذكر كيف أسفر حسن استخدام وسائل النقل وزيادة كفاءة تشغيلها عن تيسير مهمة الرحلة وتأمين اختراق حاجز المسافة وصولا الى المدى الأبعد والأوسع .

وتأسيسا على ذلك ، حدث التقدم الحثيث فى الكشف الجغرافى الذى أماط اللثام عن مساحات وأقطار واسعة على صعيد جزيرة العالم . ومن الجائز أن خرج الكشف الجغرافى فى صحبة أو معية الرحلات التى خدمت التعامل أو التى واجهت الغزو ودرء العدوان . ولكن المؤكد أن ثمة رحلات قد خرجت تستهدف الكشف الجغرافى أصلا ، وأن الرحلات تشبثت بالخبرة الجغرافية لكى ترشدها على دروب الأرض أو على صفحة البحر . والمؤكد أيضا أن الرؤية الجغرافية والملاحظة كانت متيقظة ولم تجنح أو تستغرق كثيرا ، فى أوهام الخيال .

هكذا كانت روايات الرحالة وحكاياتهم النبع أو المعين الذى استقى منه التفكير الجغرافى فى مدرسة الاسكندرية ، معرفته وبياناته ومعلوماته عن الأقطار والمساحات التى أطلت عليها الرحلة . ويبدو أن هذه الروايات قد تحرت التصوير الصادق الى حد كبير . وربما تناقص معدل الخلط بين

الواقع والخيال وتقلص معدل الانبهار بالعجائب والغرائب وتغليب الحديث عنها تغليبا يطمس الحقائق الجغرافية ويضيعها • وهذا معناه أن التوصيف الجغرافى أصبح أكثر واقعية ، وأقل تخريفا وانغماسا فى أوهام الخيال الأسطورى • ومعناه أيضا أن التوصيف الجغرافى ومن ورائه كل هذا التغيير فى حصاد الرحلة ، أعطى التفكير الجغرافى فرصة العرض الجغرافى الأحسن• ومعناه أيضا أن اجتهاد الرحالة والمفكرين المشترك(١)، قد أسفر عن خطوات حقيقية طورت ووسعت دائرة المعروف من الأرض فى جزيرة العالم •

وعلى الصعيد الأوروبى ، افرغ الاجتهاد المقدونى الذى اتخذ شكل الرحلة أحيانا ، وشكل الغزو المسلح أحيانا أخرى ، فى أنحاء من شرق ووسط أوروبا كل ما فى جعبته عن رؤيته الجغرافية فى أوعية الفكر الجغرافى فى مدرسة الاسكندرية • وقد كفلت هذه الرؤية الجغرافية وضوح بعض جوانب المعرفة عن البحر الأسود وبعض مساحات الأرض فى الظهير المباشر وغير المباشر من حوله فى جنوب روسيا • ومن الجائز أن حفزت هذه الرؤية الجغرافية الفكر والتدبر لكى يناقش التصور الجغرافى مناقشة موضوعية • ولكن المؤكد أن هذا الفكر قد استثمر هذه الرؤية فى رسم تصور أوضح للجريان النهرى وشكل الانحدارات وخاصة فى القطاع الأوروبى الذى يحتوى حوض نهر الدانوب •

وما من شك فى أن حصيلة هذا الاجتهاد قد أضاف بعض الاضافات المفيدة عن المعرفة الجغرافية بالأرض الأوروبية فيما وراء جبال الألب شمالا • ويمكن أن نتصور كيف أتم هذا الاجتهاد صفحات ، كان الاجتهاد فى مرحلة الفكر الاغريقى قد خط الخطوط الأساسية فيها وأهمل بعض أهم التفاصيل عنها • ولقد هيأ أيضا للتقدم فى الأرض الأوروبية فى أحضان السهل الأوروبى العظيم فى مرحلة تالية ، ووضع علامات مفيدة وبارزة على بدايات الطرق والدروب اليها •

وعلى الصعيد الآسيوى ، أسقطت أو اخترقت بعض الرحلات البرية

---

(١) كانت مدرسة الاسكندرية — بكل ما شاع عن سمعة التقدم الفكرى فيها — الوعاء الذى انصب فيه وتجمع عنده حصاد الرحلات وثمرة الكشف الجغرافى ، الذى حققته هذه الرحلات بصفة عامة • وهذا معناه أن مدرسة الاسكندرية لم تكن ارادة الفكر الجغرافى فيها من وراء الرحلة أو الرحلات ، ولكنها كانت المكان الأنسب التى استقطب الرواية عن هذه الرحلات ، وأحسن استثمارها والانتفاع بحصادها الجغرافى بشكل أو بآخر •

التى مولها ملوك الدولة السلوقية حاجز المسافة وهى تميط اللثام عن بعض المساحات والأقطار التى حال موت الاسكندر دون التقدم اليها والتعرف على الواقع الجغرافى فى أنحائها(١) • وقد انطلقت هـذه الرحلات بالفعل لـكى تجمع أوصال الرؤية الجغرافية فى شبه القارة الهندية ، وفى الظهير المباشر من حول بحر قزوين • والمهم أن حصاد هـذه الرحلات قد أعطى — بـكل الصدق — ثمرة هذه الرؤية الجغرافية لكى تشبع نهم المفـكرين الجغرافيين فى مدرسة الاسكندرية ، ولكى تحفز التفكير الذى أحسن استخدام واستثمار هذه الرؤية فى تزويد رصيد المعرفة الجغرافية بهذه الأقطار •

ومن خلال العلاقات الطيبة والود أو الوفـاق الذى خـدم الانفتاح على الهند ، لعب ميجاستين دورا بارزا فى عملية أول مسح جغرافى كاشف عن بعض مساحات كبيرة ومتفرقة من شبه القـارة الهندية • ومن الجائز أن تدوين مذكرات تزخر بالمعـلومات والبيـانات عن الناس وأوجه نشـاطهم وأساليب حياتهم وعن الأرض التى تحتوى هؤلاء النـاس قد هيـأ الرصيد المكتوب الذى أشبع التطلع الى المعرفة بالهند ، وبصر المفـكرين الجغرافيين فى مدرسة الاسكندرية بها • ولكن المؤكد أن هؤلاء المفكرين قد أضافوا هذا الرصيد الى ما لديهم من رصيد جغرافى سـابق وبشكل أسفر عن توسيع دائرة المعرفة الجغرافية •

أما عن بحر قزوين والظهير من حوله ، فقد تولى الرحالة عمـلية المسح الجغرافى التى كشفت عنه النقاب بشكل جزئى • ومن الجائز أن هذا المسح الجغرافى كان على مسـتوى أقل من أن ينتشل الرؤية الجغرافية من خطـأ الاعتقاد عن امتـداد البحر شمالا لكى يتصل بالمحيط الذى يطوق الأرض الأوروبية الآسيوية • ومع ذلك يجب أن نسجل الانجاز الجغرافى الجيـد الذى أسفر عنه اجتهاد بتروكليس عن القطـاع الجنوبى من هـذا البحر والظهير من حوله • وما من شك فى أن المفـكرين من مدرسة الاسـكندرية قد تبنوا هذا الانجاز وأحسنوا استثماره واضافة الجديد الى رصيد المعـرفة الجغرافية عن قطاع آخر من الأرض الآسيوية •

ومن غير أدنى تحيز ، يجب أن نسـجل حصـافة الفـكر الجغـرافى فى مدرسة الاسكندرية ، وهو يتبنى مسألة تزويد المعرفة الجغرافية برصيد حققته الرؤية الجغرافية على الأرض الآسيوية • ويجب أن نتصور أن هـذا

---

(١) هذه دولة قامت على انقاض التمزق الذى أصاب ملك الاسكندر بعد وفاته ، واتفاق قواده على اقتسام الاسلاب فيما بينهم •

الانجاز كان مفيدا اقتصاديا وحضاريا لأنه فتح باب التعامل التجارى مع الهند من خلال دروب برية ورشد مسيرة الرحلات التجارية منها واليها ٠

وعلى الصعيد الافريقى ، تحملت مصر البطلمية مسئولية الرحلة البرية أو البحرية وفى صحبتها الاجتهاد الباحث عن المعرفة الجغرافية ٠ ومن الجائز أن أصحاب هذا الاجتهاد قد بصروا الأهداف التجارية أو الأهداف العسكرية(١) ٠ ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد قد تطلع الى الرؤية الجغرافية والتزود بالمعرفة من خلال الملاحظة والمعاينة ومعايشة الناس فى مساحات بعينها من الأرض الافريقية جنوب مصر ٠

هذا وقد انبرى هذا الاجتهاد الباحث عن المعرفة الجغرافية - بكل الهمة - لأداء واجبه على جبهتين ، هما جبهة البحر الأحمر(٢) ، وجبهة النيل الصاعد جنوبا فى اتجاه القلب الافريقى ٠ ومن خلال التغلغل على كل جبهة من هاتين الجبهتين ، أماط اللثام عن الواقع الجغرافى فى مساحات كبيرة ، وحقق الرؤية الجغرافية واستثمر المسح الجغرافى الأولى استثمارا جيدا فى تلك المساحات الافريقية ٠

وعلى جبهة البحر الأحمر ، أقامت رحلات البطالمة شبه المنظمة ، مراكز تجارية فى بعض مواقع منتخبة(٣) على شروم وخلجان ، يسهل الوصول

---

(١) ورث البطالمة الذين اقاموا دولتهم فى احضان مصر ، تراث مصر العريق ٠ كما تشبثوا بتجارة البحر الأحمر والحصول على سلع ومنتجات بلاد بنت ٠ كما ورثوا الاهتمام بتأمين حدود مصر الجنوبية ودرء عدوان البداوة شرق وغرب النيل فى حوض النيل الأوسط الذى احتوى دولة مروى القديمة ٠

(٢) تسلل الاجتهاد البطلمى اليونانى الى البحر الأحمر ، كان تسللا حريصا على جنى ثمرات الاشتراك فى تجارة البحار الجنوبية ، بما فى ذلك المحيط الهندى ٠ وقد أفلح هذا التسلل والاصرار الذى تشبث بالملاحة الساحلية وصولا الى شرق أفريقية الى تأكيد وجودهم وخلق شكل من أشكال التعامل والتعاون مع البحارة العرب ، أصحاب السيادة على ملاحة البحار الجنوبية ٠

(٣) رغم انتشار الشعاب المرجانية بحذاء السواحل ، أحسن التحرك البحرى البطلمى وأجاد اختيار بعض شروم وخلجان مناسبة ، لكى تقام عندها مراكز تجارتهم التى لعبت دور رأس الجسر والتعامل مع الظهير ٠ وربما وقع الاختيار على بعض مواقع شروم وخلجان طالما أمنت الملاحة فى فترات سابقة ٠ وهذا معناه أنه احياء وتطوير الدور الوظيفى العتيق للموقع المنتخب ٠ وربما وقع الاختيار أحيانا أخرى على مواقع فى شروم وخلجان لم يسبق استخدامها من قبل ٠ والمهم أن هذا الاختيار كان من وراء تأمين التحرك الملاحى البطلمى المستمر من والى عرض البحر ٠

اليها والاقلاع منهـا الى عرض البحر • وكانت هـذه المراكز نقطا للتعامل التجارى مع الناس فى الظهير(١) بكل تأكيد • ولكنها كانت فى الوقت نفسه نقطا أطلت منها العيون الخبيرة التى جمعت أوصـال الرؤية الجغرافيـة • ومن الجائز أن اتخذت هذه المراكز التجارية شكل القلاع الحصينة ، لـكى يتسنى الدفاع عنها ودرء أو احباط أى عدوان من الظهير عليها • ومن الجائز أيضا أن تعرضت هذه المراكز والوجود البطلمى فى أحضانها ، للعـدوان من حين الى حين آخر • ولكن المؤكد أنهـا كانت النوافذ والأبواب المفتوحة ، التى تسللت منها العيون الخبيرة وأطلت على مساحات وأقطـار فى الظهير المباشرة وغير المباشر ، على أوسع مدى •

وعلى جبهة النيل الصاعد جنوبا ، فى اتجاه القلب الافريقى ، تسللت بعض الرحـلات البرية فى دروب ومسـالك عبر الصحراء(٢) وكان من الطبيعى أن تلتصق هذه الدروب بالنيل ولا تبتعد عن ضفافه لكى تجد مورد الماء ولكيلا تضل فى جوف الصحراء الكبرى • ويبدو أن هذا التسلل قد فتح الباب على مصراعيه لكى يزداد معدل الاتصال والحركة والتعـامل مع دولة مروى والا فكيف نفسر اصطباغها بصبغة الحضارة الهلينستية السائدة فى مصر • وما من شك فى أن الرؤية الجغرافية قد ألمت بما حولها من أرض مروى فى حوض النيل الغربى • وما من شك فى أن العيون الخبيرة قد أطلت من أرض مروى جنوبا لكى تجمع بعض أوصال الصور الجغرافية عن بعض روافد النيل الحبشية(٣) •

---

(١) قام التعامل التجارى مع الناس فى الظهير المباشر لهذه المراكز فى بعض الأحيان بكامل الارادة بين الطرفين • بمعنى أن استشعر الطرفان مصلحته وجدوى التعامل التجارى • كما لجأ التجار فى بعض الأحيان الى فرض التعامل التجارى مع الظهير على غير ارادة الناس فيه • وهناك أكثر من دليل يحيمه التراث يصور كيف أن ميناء بطليموس ثيرون ، قد شهد توغل رجال البطالمة وكأنه الا غزورغم ارادة الناس فى انحاء الظهير • وكان الهدف الوصول الى مساحات يتسنى لهم فيها صيد الفيلة ونقلها حية الى مصر ، لحساب العمل فى الخدمة العسكرية البطلمية •

(٢) لم يكن الجمل قد أمن التحرك البرى فى الصحراء فى ذلك الوقت • وتحكى رحلة داليون قصة تصور التسلل البطلمى الى أرض دولة مروى وكيف سلكت دروبا لا تباعد بينها وبين النيل • وكان لا بد من مرور بعض الوقت لكى يشيع استخدام الجمل بعد استقدامه من وطنه الآسيوى ، ولكى يسهل على الرحلات اختراق حاجز المسافة الصحراوية بشكل أكثر سرعة وأمنا •

(٣) رحلات البطالمة الى دولة مروى التى اتخذت شكل التسلل الفردى حينا والتسلل الجماعى أحيانا أخرى ، لم تجد مقاومة أو رفضا من ناس هذه الدولة ، وما من شك فى أنها =

هذا ويبدو أن جبهة البحر الأحمر على طريق ارتياد البحار الجنوبية ، وجبهة النيل الصاعد جنوبا على طريق القلب الافريقى ، قد استقطبتا كل الاهتمام البطلمى النشيط • بل لقد أشبع هـذا الاجتهاد الحاجة الحضارية والاقتصادية ، بقدر ما أشبع نهم التطلع والمعاينة الجغرافية(١)• وقد انصبت هذه الرؤية الجغرافية فى معين الفكر الجغرافى فى مدرسة الاسـكندرية • وما من شك فى أنها قد عكفت على استيعابها واثراء الرصيد الجغرافى وعلى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية على الصعيد الافريقى •

وهكذا ضمت الرؤية الجغرافية من خلال الاجتهاد البطلمى الى رصيد المعرفة الجغرافية بعض مساحات كبـيرة فى أحضان حوض النيل • ومن الجائز أن تكون هذه الرؤية واضحة جلية وكاشفة حتى خط عرض التقـاء النيل الأبيض والنيل الأزرق • ولكن المؤكد أن مسـألة الكشف عن منـابع النيل قد شغلتهم وكانت الرواية عنهـا غامضة غير مشبعة أو غير كاشـفة بالفعل • وهـذا معناه أن التقـدم فى الظهير من وراء مركز التجـارة كان محدودا وهو يواجه التحدى والرفض الذى أعلنه الناس فى هذا الظهير ، وأن التقدم جنوبا كان صـعبا ، وهو يواجه مشـقة اختراق حاجز المسـافات الصحراوية الوعرة الحارة والتحدى الطبيعى الذى حال دون الملاحة النهرية فى النيل •

وعن رسم وتجهيز واعداد الخرائط ، تبنت مدرسة الفـكر الجغرافى الاسكندرانى الاهتمام الفنى بهـا لأنها أدركت قيمة الخريطة وهى تخـدم التعبير عن الرؤية الجغرافية • وينبغى أن نتصور مدى وحقيقة العلاقة التى أنبأت بأكبر قدر من التوافق بين توسيع دائرة المعـرفة الجغرافية بالأرض

= فتحت الباب على مصراعيه لكى يجمع طلاب المعرفة الجغرافية أوصال رؤيتهم الجغرافية بقدر كبير من الاطمئنان والتأنى • وربما استمع معظمهم الى روايات محلية وقصص ، صور لهم الارض وأحوال الناس فيها من حول مروى • وقد أسس طلاب المعـرفة الجغرافية على سياق هذه الروايات تصورا جغرافيا من مساحات جنوب خط عرض الخرطوم • ومن ثم أصبح هذا الحصاد بصيرة حققت نجاح ايراتوستين عندما عكف على رسم خريطته المشهورة • وقد صورت هـذه الخريطة بالفعل رؤية جغرافية لا بأس بها عن بعض منابع النيل الحبشية •

(١) الاستغراق فى الاهتمام بالتوغل على الصعيد الافريقى فى أحضان الاجتهاد البطلمى ، صرف الرحلات والبحث عن الرؤية الجغرافية عن الاتجاه غربا من مصر بحذاء الساحل الشمالى الافريقى ، وربما افتقد هذا الاتجاه أيضا وسيلة النقل التى تخترق حاجز المسافات الصحراوية الى برقة وما يليها غربا ="

على صعيد جزيرة العالم وتسجيل رصيدها من ناحية ، وتطوير وتحسين صناعة وفن اعداد ورسم الخريطة التى تسجل وتجسد الرؤية الجغرافية على هذا الصعيد من ناحية أخرى .

ومن الجائز أن تكون أكثر من محاولة وأكثر من اجتهاد قد تحقق لحساب تطوير وتحسين ورسم واعداد الخريطة . ولكن المؤكد أن ايراتوستين قد برهن على حسن استخدام الرياضيات وهى تبصره وتسعفه فى رسم خريطته المشهورة . وفى اعتقاد بعض المتخصصين فى فن رسم الخرائط ومدى تطورها فى أحضان المسيرة الفكرية الجغرافية ، أن ايراتوستين هو الجغرافى الرائد الذى سخر خبراته وقدراته وفكره فى تجهيز شبكة خطوط الطول والعرض ، لكى يرسم خريطة العالم . ويؤكد هذا الفريق أنه بحق مؤسس مدرسة الجغرافية العملية .

ومن خلال مقارنة بين خريطة هيكاتيوس وخريطة ايراتوستين ، يمكن أن نتبين - بكل الوضوح - كيف أسفرت خبرة وصنعة ايراتوستين الفنية المدعومة بالاجتهاد الرياضى عن ثورة حقيقية ونقطة تحول مثيرة فى رسم خريطة العالم . هذا بالاضافة الى ما تأتى من تصحيح واضافات مفيدة ، جعلت خريطة ايراتوستين عن العالم فتحا جديدا وسبقا مهما فى حقل رسم الخريطة . بل انها كانت النموذج الذى سار على دربه المجتهدين فى صناعة الخرائط من بعده فى المرحلة التالية .

- - - - - - - - - -

ومهما يكن من أمر ، فان الفكر الجغرافى اليونانى المصرى قد تحمل مسئوليته بأكبر قدر من الأمانة . وما من شك فى أنه دفع أو قاد مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح . بل يجب أن نسجل لهم الجهد الفكرى الذى حاول بقدر الامكان ، تخفيف حدة الخلط بين الواقع والخيال وتجنب التردى فى التصور الأسطورى المبهم . وهذا معناه مزيد من التفتح ومزيد من الانفتاح ومزيد من ومضات الفكر المضيئة وهى تبصر مسيرة الفكر الجغرافى .

- - - - - - - - - -

الفكر الجغرافى الرومانى المصـــرى

من بعد زوال حكم وسلطان البطالمة فى مصر ، ومن بعد افتقاد الدعم الذى ظاهر الفـكر الجغرافى فى مدرسة الاسـكندرية الفكرية ، ومن بعـد الاجتهاد الفكرى اليونانى المصرى الذى أرسى قواعد عالمية الفـكر الجغرافى ، ورثت روما(١) فيما ورثت مسئولية احتضـان الحضـارة ورعايتها وولاية أمرها . وهذا معناه أن روما فى مكانها المرموق سياسيا ، تبنت مسيرة الفكر بصفة عامة ، والفكر الجغرافى بصفة خاصة . ولم يكن من شأن هذا التبنى أن يضيع حق اليونانية ويهـدرها ، ولا أن يسقط عن الاجتهـاد المصرى مسئوليته واهتمامه وحرصه على مكانة المدرسة الفكرية العتيدة فى أحضان الاسكندرية(٢) .

ولا غرابة فى أن يحتفظ الفكر الجغرافى لنفسه بمكان ومكانة فى تراث الفكر المتفجر من أبناء وعلماء مدرسة الاسكندرية الفكرية ، جنبا الى جنب مع مكان ومكانة تراث الفكر الجغرافى الذى تبناه الاجتهاد الرومانى . وأن يصبح الفكر الجغرافى فى هذه المرحلة رومانيا مصريا دليل صدق على معنى عالمية هذا الفكر ، وعلامة على أن رؤيته وثمراته حق مشاع لكل من يتعشق الفكر ويهواه ويعمل لحسابه ويسهم فى اثراء رصيده .

ومعلوم ـ بالفعل ـ أن مسيرة الفكر الجغرافى فى هذه المرحلة لم تبدأ من فراغ ، بل هى استمرار لخطوات المسيرة التى بدأت فى أحضان الفـكر الفلسفى الاغريقى ، وتطورت وتقدمت فى كنف مدرسة الاسكندرية الفكرية. ولكن المؤكد أن تبنى الرومان مسيرة الفكر الجغرافى واسهامهم فى قيادتهم ودعم تقدمها لم يبدأ أيضـا من فراغ . وفى اعتقادى أن هـذا التبنى قد تأتى ـ بالفعل ـ تأسيسا على استشعار الرومان جدوى المعرفة الجغرافية وقيمة الفكر الجغرافى الذى نهلوا من معينه العذب فى أثينا . وفى اعتقادى أيضا أنهم تطلعوا لأن تكون ثمرات هذا الفكر الذى احتضنوه بصيرة ، تقـود انتصارهم وتوسعهم الامبراطورى على أوسع مدى فى جزيرة العالم .

---

(١) سجل عام ٧٥٣ قبل الميلاد قيام دولة روما من حول موقع مدينة روما . وافلحت هذه الدولة المدينة فى جمع أوصال ايطاليا فى سنة ٣٠٠ قبل الميلاد واتسع سلطانها الامبراطورى فى النصف الثانى من القرن الثانى قبل الميلاد . وقد ورثت حكمة وفلسفة الاغريق وحضارة وتراث مصر وخفة ونشاط الفينيقين مجتمعة .

(٢) فى الوقت الذى انتصرت فيه روما على اليونان ، استسلم الرومان للثقافة والعلم اليونانى . وهناك من يقول ان الرومان هزموا اليونان عسكريا ، وأن اليونان هزموا روما ثقافيا.

وهكذا وجدت روما فى الفكر الجغرافى دليلا يرشد توسعها ويبصر أهدافها السياسية التوسعية وهى تتبوأ مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول ، ووجدت فيها أيضا دليلا يرشد اجتهادها الاقتصادى والتجارى ، ويبصر أهدافها الاحتكارية ، وهى تسعى للامساك بزمام حركة التجارة الدولية على أوسع مدى فى جزيرة العالم • ومن ثم لم يكن بد من أن تتبنى الفكر الجغرافى وتسخره لحساب تطلعاتها وترسيخ مكانتها سياسيا واقتصاديا وحضاريا •

هذا ومن الطبيعى أن نستشعر مدى الانتفاع المتبادل بين الدور الرومانى الوظيفى العامل - بكل اجتهاد - فى خدمة التجارة برا وبحرا ، أو العامل فى خدمة التوسع الامبراطورى من ناحية ، والدور الرومانى النشيط العامل - بكل جدية - فى المسح الجغرافى وجمع أوصال الرؤية الجغرافية من ناحية أخرى • بمعنى أنه بقدر ما انتفع التحرك الرومانى بالرؤية الجغرافية ، وهو يضرب فى الأرض أو وهو يركب البحر ، انتفعت المعرفة الجغرافية بثمرات القصص والروايات أو بالرؤية المباشرة التى سجلها العاملون فى خدمة التحرك الرومانى النشيط فى البر أو البحر(١) •

والمنفعة المتبادلة على هذا النحو ، علامة تدل على أمرين هما :

(أ) أن الرومان قد نهجوا النهج الصحيح ، عندما تبنوا الفكر الجغرافى اليونانى المصرى ، وعندما انتفعوا به انتفاعا جادا ، لحساب نفوقهم فى عمليات التجارة الدولية على أوسع مدى ، أو لحساب انتصارهم فى الغزو العسكرى وفرض سلطانهم على أوسع مدى(٢) •

---

(١) نذكر فى هذا المجال كيف استفاد اجاثاركيد وهو يسجل دراسته فى الجغرافية البشرية فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد من متابعة ثمرات اجتهاد التجار والاغريق ومدى نشاطهم البحرى التجارى فى البحر الارتيرى ، راجع
Cary, M.Y. Warmington, E.H. : The Ancient Explorers. London, 1929, p. 225.

(٢) نذكر على سبيل المثال بوليبيسوى المفكر العامل فى خدمة الجيش الرومانى فى القرن الثانى قبل الميلاد • وقد صعد هذا المفكر الرومانى الاهتمام بالفكر الجغرافى الى درجة الريادة فى تأكيد جدوى المعرفة الجغرافية فى تصور وادراك مسيرة الأحداث التاريخية • كما نذكر أيضا يوليوس قيصر الذى زج بفكره فى الاجتهاد الجغرافى فى القرن الأول قبل الميلاد • ومن الجائز أن فكره الجغرافى كان هزيلا • ولكن المؤكد أنه استشعر قيمة الفكر الجغرافى فى دعم تحركاته العسكرية وتأكيد سيطرته على الارض •

(ب) أن الرومان قد نهجوا النهج الصحيح مرة أخرى ، عندما استثمروا الإنفتاح على العالم ، وعندما قدموا الرؤية الجغرافية بأمانة ، لحساب تحريك ودفع مسيرة الفكر الجغرافي في الاتجاه السوى ٠

وتداخل الرومان في مسيرة الفكر الجغرافي ، وتسجيل اهتمامهم بها ، لا يتعارض على الابقاء على مدرسة الاسكندرية الفكرية وهي تحافظ على مكانتها ومكانة المفكرين الذين أبقوا على زمام هذه المسيرة في أعناقهم مسئولية وأمانة ٠ وهذا معناه أن الانجاز الروماني قد انصب في معين الفكر الاسكندراني ، وأن الفكر الاسكندراني تولى مسئولية التدبر والتفكير الذي طور الفكر الجغرافي في هذه المرحلة ٠ وعندئذ ينبغي أن نتصور كيف ظلت الاسكندرية مقرا تنبعث منه ومضات الفكر الجغرافي المضيئة ، وكيف ظل العقل المصري من وراء هذه الومضات المضيئة التي أثرت رصيد المعرفة الجغرافية ، وطورت مسيرة الفكر الجغرافي القديم ٠

هذا ومن الطبيعي أن تستقطب مدرسة الاسكندرية صفوة المفكرين من المصريين والاغريق والرومان وغيرهم ، لكي تواصل أداء رسالتها الفكرية ٠ ومن الطبيعي أن ينكب هذا الفكر على أداء دوره ، وأن تتولى هذه الصفوة من المفكرين مسئولية وأمانة الاضافة والتجديد واثراء مسيرة الفكر الجغرافي ، في اطار نظرة تجردت من قيود الانتماءات الضيقة ، وانفتحت على عالمية التراث ومصلحة الحياة فيه ٠ وهذا معناه أن الفكر الجغرافي قد تخلص من كل نعرات الانتماء المحلية ، وقدم انتمائه الى الحقيقة التي تكشفت له من خلال كل معاني وحدة الأرض ووحدة الناس في الأرض أكثر من أي شيء آخر ٠ ومعناه أيضا أن تألق الفكر الجغرافي من مدرسة الاسكندرية الفكرية ونبغ صفوة المفكرين الذين كرسوا كل إهتمامهم وصعدوا عز انتمائهم الى ما أسفرت عنه مفاهيم العالمية في هذا الفكر ٠

ومن أبناء هذه المدرسة ، نذكر هيباركوس الاغريقي الذي عاش في أحضانها بفكره في القرن الثاني قبل الميلاد ٠ وقد سخر فكره واهتمامه بالفلك واستطلاع الكون والعمل على اثراء الجغرافية الفلكية ٠ وقام هذا الاجتهاد كله على أساس محاولات جادة ، تطلع من خلالها الى تطويع البحث الجغرافي الفلكي للأساس العلمي الرياضي ٠ وكان أفضل ما انتهى اليه هيباركوس شجب وابطال مفعول الخرافات والأساطير التي شاعت عن الخسوف والكسوف وأشاعت الرعب في نفوس الناس ٠ أما اجتهاده الذي

أسهم فى وضع أول لبنات فى أساس البحث الجغرافى البشرى فكان علامة على جهله ببعض أهم جوانب المعـــرفة الجغرافية عن الأرض التى تحتـوى الناس من ناحية ، وعلى انبهـاره واصغائه الى تخريف الروايات والحكايات التى تفتقد الصدق والجدية وتشوه الحقيقة المجردة من ناحية أخرى ٠

ومن أبناء هذه المدرسة أيضـــا ، نذكر سترابو الاغريقى الذى عاش فى أحضانها بفكرة القرن الأول قبل الميـــلاد(١) ٠ وقد تعشق الرحـــلة واستفاد بها وهو يسخر فكره لاستيعاب رؤيته الجغرافية ولتسجيل ابداعه الجغرافى الوصفى الجيد عن عالم ذلك الزمان ٠ ومن الجائز أن كتب سترابو خلاصة رؤيته بطريقة يصعب معها استيعاب وتذوق الحقائق الجغرافية التى يتناولها ٠ ومن الجائز أيضا أنه نقـد بعض كتابات هيرودوت وايراتوستين على أساس سليم ٠ ولكن المؤكد أنه كتب توصيفا جغرافيا مفيدا للقـارىء العام الباحث عن حقه فى المعرفة الجغرافية ٠

وعلى قمة التفوق المرموق ، تربع بطليموس الاسكندرانى ، الذى عاش فى أحضان مدرسة الاسكندرية الفكرية وعمل على اعلاء مكانتهـا فى القرن الثانى الميلادى ٠ وهو مصرى الهوية والنشأة وكتب باليونانية أعظم انجازه لحساب الفكر الجغرافى القديم ٠ وبصرف النظر عن عصارة فكره الذى ورد فى كتابيه المجسطى وجغرافيا ، نسجل ريادة وتفوق ومضات فكره المضيئة وكيف أثرت الفكر الجغرافى القديم ٠ وفى اعتقـاد كل الجغرافيين أن آداء بطليموس الاسكندرانى هو آداء فكر ممتاز فى عصره ، سواء كان هـــذا الآداء فلكيا يتابع الكون ومكان الأرض فيه أو كان الآداء وصـــفيا يسجل الرؤية الجغرافية لأقطار الأرض ، أو كان هذا الآداء فنيا يحسن اعداد ورسم الخريطة وتسجيل البيانات الجغرافية عليها ٠

والى جانب هذه الريادة الفكرية التى أمسكت مدرسة الاســـكندرية بزمامها عن رضا وقبول من الرومان أصحاب السلطة ، شـــاع الاهتمـام بالجغرافية على أوسع مدى فى روما فى أحضان الامبراطورية الرومانية ٠ وأسفر عن هذا الاهتمام الذى نال دعم السلطة ومظاهرتها صفوة من المفكرين والعاملين فى حقل الفكر الجغرافى ٠ ومن الجائز أن نشأت علاقة بينهم وبين

---

(١) سترابو رحالة وهو يشهر من أحسن استثمار رؤيته الجغرافية أثناء الرحلة ٠ وقد استمتع بالرحلة وتذوق الواقع الجغرافى وكتب عنه فى اطار تعليمى يبصر طالب المعرفة الجغرافية فى ذلك الوقت ويشبعه ٠

مدرسة الفكر الجغرافى فى الإسكندرية • ولكن المؤكد انهم أدلوا بدلوهم فى قضية الفكر الجغرافى وأسهموا برصيد فى تراث الفكر الجغرافى القديم •

ونذكر فى هذا المجال ، اسهام ماركوس اجرنيـــا الرومانى الجغرافى المجتهد الذى أشبع اجتهاده وتدبره وفكره الجغرافى المتنور نهم الامبراطور أغسطس • كما نشير الى اسهام قراطسى الذى انكب بكل التدبر اليقظ على الرؤية الجغرافية ، لكى يسجل دراسات فلكية وطبيعية وبشرية • أما بلينى فقد أفرد للجغرافيا والفكر الجغرافى مكانا خاصا مرموقا فى موسوعته التى هى أقرب ما تكون الى دائرة المعـــارف(١) • بل وفى أحضـان روما عاش سلوكوس الاغريقى الأصل البابلى النشأة وسجل نبض فكره وهـو يبحث عن مكان الشمس فى مركز الكون(٢) وعن علاقة القمر بالمد والجزر • وفى احضانها أيضا عاش مارينوس الصورى وهو يجمع حصاد الرؤية الجغرافية التى يدلى بها الرحالة والتجار لكى يصور أو يجسد هذه الرؤية فى خـدمة اتساع دائرة المعرفة الجغرافية بالأرض على صعيد جزيرة العالم •

ومن خلال هـــذا الاجتهاد المزدوج الذى شهدته أروقة مدرسـة الاسكندرية ، وأروقة المدرسة الرومانية ، ومن خـــلال وحدة الهدف بين المفكرين فى هاتين المدرستين ، تأتى ثراء الفـــكر الجغرافى وتقدمه تقـدما حقيقيا ، لحساب الناس • ومن المفيد ـ على كل حال ـ أن نتعرف على أبعاد هذا الثراء لكى نتصور أقصى ما أسفر عنه التدبر والتفكير من اضـــافات مجددة الى الفكر الجغرافى • ومن الطبيعى أن تكون الاضافات الى كل فرع من فروع الجغرافية التى ضمتهـــا المسيرة الفكرية الجغرافية فى المراحـــل السابقة • ولكن المؤكد أن هناك اضافة جديدة بالفعـل ، تمثلت فى بداية متواضعة لاجتهاد انكب على الجغرافية البشرية •

ومولد هذه البدايات المتواضعة التى عبرت عن التفات الفكر الجغرافى الى الواقع البشرى ، انجـــاز يستحق الاهتمـــام بالفعل ، لأنه علامة على استشعار مسئولية الفكر الجغرافى عن الاهتمام المتوازى بالواقع الجغرافى الطبيعى والواقع الجغرافى البشرى فى المكان • وربما كان فكر بوليبسوس

---

(١) تتألف هذه الموسوعة من ٣٧ كتابا • ويخص الجغرافية منها أربع كتب من الثالث الى السادس •

(٢) ذهب فى ذلك التصور ، الى الأخذ بالرأى الذى وضعه ارستاكوس ، واستحق عليه العقاب ، لأنه كان مرفوضا رفضا قاطعا •

الذى لفت النظر الى العلاقة بين الواقع الجغرافى وحركة الأحداث التاريخية من وراء الخطوة التى أبدعت هـــذه البدايات المتواضعة · اما اجتهـــاد هيباركوس فى أحضان المدرسة الفكرية فى الاسكندرية عن حياة الشعوب فى اطار الواقع الجغرافي على الأرض التى تحتويها ، فيمثل بالفعل ، شـكل هذه البداية · كما نذكر فى هذا المجال اسهام قراطس فى هذه البدايات المتواضعة التى وضعت الأساس للجغرافية البشرية ·

ومن الجائز أن كان غرس نبتة الجغرافية البشرية فى هذه المرحلة ، التى عاشتها المسيرة الفكرية الجغرافية ، فى أحضـــان الوجود الرومانى ، مفيدا وهو يمثل اضافة مهمة الى الفكر الجغرافى القديم · ولكن المؤكد أن المفكرين الجغرافيين الذين انكبوا عــلى تطوير فروع الجغرافيــة التى نالت الاهتمام فى المراحل السابقة قد حجب اهتمام هؤلاء المفكرون ولم يتفرغوا بالفعل للتدبر فى الواقع البشرى والاهتمام بالبدايات المتواضعة للجغرافية البشرية · وهذا معناه أن حصـاد الفكر الجغرافى الحقيقى ، قد تمثـل فى الاضافات التى طورت فروع الجغرافية الرئيسية التى عاشت فى المراحـل السابقة ·

وفى الجغـرافية الفلكية التى استحقت أن تعـرف بالجغـرافية الفلكية الرياضية بحكم الاعتماد على الرياضة فى ابداعها الفكرى المتجدد ، واصـل المفكرون اهتمامهم بالكون الفسيح ومكان الارض فيه · وقد تشبث المفكرون بفكرة خلود الكون وسرمدية وجوده من الأزل الى الأبد ، وبفكرة تأثير النجوم على حظوظ الناس ومصائرهم وأحوالهم الحياتية · كما أكد المفكرون عــلى مكانة الشمس فى الكـون ، وعلى دورهـــا الوظيفى الحيوى من وراء نبض واستمرار الحياة على الأرض · وعن القمر أدرك الفكر آنذاك علاقته بالأرض، وكيف يكون وضعه فى السـماء من وراء حركتى المد والجزر · بل وكشف هذا الفكر ـ بذكاء وفطنة ـ معنى الخسوف وكيف تحجب الأرض أو تعترض ضوء الشمس عن القمر كليا أو جزئيا ·

هذا وقد واصل الفكر الجغرافى اصراره عـلى وضع الأرض فى مركز الكون · وتلمس هذا الفكر الجغرافى الادلة على كروية الأرض · وربما أحسن الفكر الجغرافى استخدام الحسابات الرياضية وهو يتلمس قياس أبعـــاد الأرض · ومن الجائز أن هذا القياس قد جافى الحقيقة وحاد عنهـا بدرجات متفاوتة من مفكر الى مفكر آخر · ولكن المؤكد أن الحســاب الرياضى كان المنطلق الوحيد الذى اعتمد عليه التفكير فى ضبط وتحقيق هذا القياس ·

وهذا معناه أن الأخطاء ليست فى الأسلوب والنظرية الرياضية ولكن فى حسن تطبيقها وبناء الحقيقة عليها •

وقد ثار جدل شديد عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض الكروية • وقد تبنى الفكر الجغرافى تصورا غريبا دعا الى اعتقاد جازم يؤكد خلو نصف الكرة الأرضية الجنوبى من اليابس ونبض الحياة ، ويصور وضع اليابس فى نصف الكرة الأرضية الشمالى وتشبث الحياة به • وبلغ أمر الفكر الجغرافى فى هذا الشأن حد تصور الحد الذى يحدد أبعاد القطاع المعمور من الأرض ، ويفصله عن القطاع غير المعمور • ومن الطبيعى أن ينبىء كل ذلك الرصيد الذى أضافه المفكرون بمدى الاجتهاد وبجدية التدبر الذى أسعف التقدم فى التصورات الفكرية الجغرافية وهذبها •

وتربعت على قمة هذا التقدم الحقيقى فى الفكر الجغرافى ، عملية انشاء شبكة خطوط الطول والعرض لأول مرة • وكان هذا الانشاء وليد اجتهاد وحسن استخدام الحسابات الرياضية أكثر من أى شىء آخر • وما من شك فى أن هذا الانجاز الذى تحقق على يدى بطليموس الاسكندرانى قد رفع قدره ومكانته الى مستوى الرواد فى صناعة وتطوير الفكر الجغرافى(١) • وفى مجال الاستخدام الاصطلاحى لخطوط الطول والعرض ، قاد بطليموس التفكير الجغرافى قيادة رشيدة أسفرت عن تقسيم سطح الأرض تأسيسا على خطوط العرض الى أقاليم مناخية(٢) •

وهكذا شهدت هذه المرحلة من مراحل الفكر الجغرافى القديم تطورا حقيقيا فى مجال التدبر والتفكير فى الكون • وليس المقصود من التطور الحقيقى تلك الاضافات الجيدة أو تلك الأفكار المستنيرة التى أبدعت هذه اضافات فقط • ولكن المقصود بالفعل هو انصراف بعض المفكرين بكل

---

(١) فى كتاب الفلك لبطليموس ورد ذكر ٢٩ من خطوط العرض • وقد رتب هذه الخطوط ابتداء من خط الاستواء فى اتجاه الشمال بفارق زمنى فى أطول النهار مقداره ربع ساعة حتى وسط بريطانيا التى يتحقق فيها أطول نهار ومقداره ١٧٫٥ ساعة من ساعات اليوم الكامل ، ثم بفارق زمنى بعد ذلك مقداره نصف ساعة حتى جزيرة تولى • ويعدل بطليموس فى كتاب جغرافيا عن هذا الرأى وقد أورد فقط ٢١ خطا من خطوط العرض مع بعض تعديلات طفيفة فى الفارق الزمنى بين أطوال النهار عند كل خط من هذه الخطوط •

(٢) عاش هذا التقسيم وعمل به الفكر الجغرافى الى القرن العشرين • ثم توصل الجغرافيون الى أساليب أفضل فى تقسيم وبيان هذه الاقاليم المناخية •

الاهتمام ، الى التدبر والتفكير في الكون بشكل يبشر بالتخصص في هذا الفرع من فروع الفكر الجغرافي وقرب مولده(١) ٠

...

وفي الجغرافية الطبيعية ، أدلى التفكير الجغرافي بدلوه وأمعن النظر في رؤية بعض الظاهرات الطبيعية على الأرض ، وهو يتطلع بقسط كبير من التأمل والتدبر لكي يعبر عن هذه الظاهرات ويستوعب ماهيتها ٠ ومن الجائز أن ندرك كيف تجنب هذا التأمل والتدبر بعض العمق ، الذي يلقي الأضواء الكاشفة عن كنه وماهية الظاهرة الطبيعية ، التي أمعن النظر فيها ٠ ومن الجائز أيضا أن نتبين كيف أسفر هذا التأمل والتدبر عن التعبير الضحل غير المشبع عن هذه الظاهرة الطبيعية ٠ ولكن المؤكد أن هذا التعبير قد أظهر في ثناياه ميلا وانعطافا الى تقصي بعض الحقائق وكأن الفكر يتلمس قدرا من التفسير الكاشف عن هذه الظاهرة الطبيعية ٠ وقد يكشف ذلك عن قدر من الواقعية في التفكير ، وعن قدر آخر من الاستجابة للتساؤلات التي راودت المفكر وهو يتأمل ويتدبر الظاهرة الطبيعية ٠ ويبدو أن التخوف من الانزلاق في البحث الفلسفي العميق ، هو الذي منع انطلاق الفكر الجغرافي انطلاقا كليا الى كل أبعاد التفسير الكاشفة عن الظاهرة الطبيعية المعنية ٠

وعن الزلازل والبراكين ، نذكر اجتهادات المفكرين الجغرافيين وكيف تطلعت الى تفسيرها ٠ ومن الجائز أن نستشعر كيف تخبط الفكر وهو يورد التفسير الساذج أو التفسير المبتور أو التفسير الجاهل ٠ ولكن المؤكد أن البحث عن التفسير علامة على درجة من درجات النضج الفكري ، وأن التخبط في التفسير علامة على الافتقار الى الخبرة والكفاءة في الخلفية العقلية ورصيدها العلمي ٠ وكان سترابو واحدا من المفكرين الجغرافيين الذين ناقشوا حدوث الزلازل والبراكين وربط هذا الحدث بحركات رفع وحركات هبوط على المستوى الرأسي ٠ وهذا معناه انه سار في الاتجاه الصحيح ولكنه لم يفطن بالقطع الى ما يكمن وراء حركات الرفع وحركات الهبوط ، والكيفية التي تحدث بها ٠

وبصرف النظر عن الاعتقادات التي صورت الزلازل والبراكين في صور الجرائم البشعة التي تدمر وتعتدي على نبض ومسيرة الحياة ، كانت محاولات جادة وتفكير موضوعي يتأمل هذه الزلازل والبراكين ٠ وبوزنياس

---

(١) لو سارت مسيرة الفكر الجغرافي بنفس معدلات الاجتهاد والتقدم ، ولو لم تتعرض للمحنة التي واجهتها على أيدي رجال الكنيسة ، لتاتت الفرصة لكي يتحقق هذا التخصص في وقت يسبق الوقت الذي ظهر فيه بالفعل بحوالي عشرة قرون كاملة أو تزيد ٠

مثلا تلمس بفكره أساليب ود لو أرشدت التنبؤ بحدوثها لكى تتجنب الحياة المضرة والتدمير • كمـا حاول أن يصنفها تأسيسا عـلى حجم الدمار الذى يصيب الحياة من جراء حدوثها • ولكن المؤكد انه فسر حدوثها بمشيئة الآلهة عندما تغضب على الحياة وتصب عليها لعنة ودمارا • وحاول غيره مثل سنيكا أن يفسر حدوثها ، فتصور انها تحدث عندما ينطلق هواء محبوس من باطن الارض وكأنه زفير عنيف •

وعن الجريان النهرى ، استشعر الفكر الجغرافى فى هذه المرحلة مسألة الاطماء وتكوين البناء الرسوبى ، وانبرى للتأمل وهو يتدبر حقيقة هـذا التكوين • ومن الجائز أن انكب سترابو مثلا بكل الاهتمام على تفسير هـذا التراكم الرسوبى فى البحر ، وتأمل وتدبر نمو هذا البناء الرسوبى حتى يطفح الماء ويغير طفحه معالم خط الساحل الفاصل بين اليابس والماء • ولكن المؤكد أن هذا التفكير الذى سار فى الدرب الصحيح ، كان أعجز من أن يتفهم أو يدرك حقيقة العلاقة بين الجريان النهرى والنحت والارساب ، لكى يصل بالفعل الى تفسير يصور ويعلل ظاهرة البناء الرسوبى • ومع ذلك ينبغى أن نطرى هذا الاجتهاد الجاد الذى وضع التفكير فى مواجهة الجوانب الغامضة وحمله مسئولية التفسير • والفشل فى التفسير ليس علامة على التقصير ولكنه علامة على أن النضج العلمى ليس عـلى المستوى الذى يسعف الفكر وهو يتحمل مسئولية التفسير •

وعن البحر المحيط ، استشعر الفكر الجغرافى فى هذه المرحلة أيضا ، مسألة المد والجذر وحدوث هذه الظاهرة • ومن الجائز أن تدبر الفكر هـذه الظاهرة وهو يدرك الانتظام الذى تحدث فى اطاره • ومن الجائز أن أوحى هذا الانتظام الى الفكر لكى يتصور بسذاجة أن الجزر شهيق البحر ، وأن المد زفيره • ولكن الحاح بعض المفكرين مثل سترابو قد رشـده وقاده الى استشعار علاقة ما بين اكتمال القمر بدرا وحركـة الجزر • والمؤكـد أن استشعار هذه العلاقة قد وجهت الفكر الجغرافى الى الاتجاه الصحيح • وقد سلك طريق هـذا الاتجـاه الصحيح بعض المفكرين من أمثال مانيلوس وسلكيوس وغيرهم بكل التطلع والأمل لكشف النقـاب عن تفسير مشبع يعلل ظاهرة المد والجزر •

وعن المناخ ، خاض الفكر الجغرافى تجارب ومحاولات جيدة استهدفت تفهم التغير الذى يطرأ على المناخ من مكان الى مكان آخر • ومن خـلال هذه المحاولات الجادة ، ومن خلال التفكير والتدبر فى معنى التغير المناخى ، كانت

أول محاولة لتقسيم الأرض الى أقسام مناخية ، كمـــا كانت أقدم محاولة للربط بين حركة الرياح الجنـــوبية وسقوط المطر مدرارا وجـــريان أعظم الأنهار . ومن الجائز أن بعض محاولات الربط بين التغيير المنـاخي وخطوط الطول قد انتهت الى الفشل الذى منى به سترابو ولكن المؤكد أن محاولة الربط بين التغيير المناخي وخطوط العرض قد أفلحت وهيأت لبطليموس أن يقسم العالم بالفعل الى أقاليم مناخية .

ولم يقف الفكر الجغرافى وهو يتدبر المناخ عند هذا الحد . بل لقـــد خاض تجربة مفيدة عندما انبرى بكل التدبر الحـــكيم الى تلمس واستشعار العلاقة بين المناخ والحياة . ولدينا تصـــور ممتاز عن انطلاق فكر بليبوس الجغرافى انطلاقة واعية ، حيث أوصله التدبر الى تصور سجل فيه ، كيف يؤثر المناخ على صفات النـــاس وعلى طباعهم وأمزجتهم وأنماط حيـــاتهم وتعايشهم فى المكان . بل لقد تصور من خلال هـــذا التصور كيف يكون المناخ من وراء الاختلاف بين الشعوب فى الأقطار التى تحتويها . وهذا معناه - بكل الانصاف - اجتهاد ســـجل فيه الفكر خطوة وبداية متواضـــعة فى استشعار العـــلاقات وعوامل الربط ، بين الظاهرة الجغرافيـــة والظاهرة الجغرافية الأخرى . ومعناه - بكل الانصاف أيضا - اجتهاد سجل فيه الفكر الجغرافى بداية متواضعة فى الاحاطة بالظاهرة البشرية ووضعها موضـــع التأمل والتدبر .

وفى الجغرافية **الوصفية** التى أطلت على الأرض وحيـــاة النـاس فى أنحائها ، انبرى الفـــكر الجغرافى وتفرغ بعض المفكرين الجغرافيين - بكل الهمة - لأداء الدور الوظيفى المناسب فى توسيع دائرة المعرفـــة الجغرافية بالأرض . وينبغى أن نؤكد فى هذا المجال على جدوى الاجتهاد الحضارى أو الابداع الحضارى ، الذى طور وسائل النقل ، وحسن أساليب استخدامها ، لاختراق حواجز المسافات بين المـكان والمـكان الآخر . وما من شك فى أن هذا التطوير فى البر والبحر ، قد أسعف التحرك الذى كان مطية الكشف الجغرافى ، فى كل اتجاه كاشف عن الأرض ، فى أنحاء متفرقة من جزيرة العالم .

وفى معية الرحلات التى انطلقت فى البر والبحر لحســـاب التعـــامل التجارى ، أو فى معية حملات الغزو العسكرى الامبراطورى لحساب التوسع والأمن الرومانى ، تلمست الخبرة الجغرافيـــة الرؤية أو الرواية المنقولة عن الأرض التى وطئتها الرحلة التجارية أو الحملة العسكرية . وقد زودت هذه الخبرة الفكر الجغرافى الذى تطلع الى حصاد هـــذه الخبرة لكى ينمى رصيد

المعرفة الجغرافية ويوسع احاطته بالمعمور من الأرض حول الدولة الرومانية ، بل لقد أنكب الفكر الجغرافى على هذا الرصيد بنهم شديد ، وانتهى الى وضع نواة التصور الذى أخرج بدايات متواضعة للبحث الجغرافى الاقليمى ، وكيف يستوجب الاحاطة بالأرض وبالناس وهو يتأمل ويتدبر التفاعل الحياتى بين الناس والأرض . وفى كتابات سترابو أكثر من دليل على هذا التصور ووضوح أهدافه وهو يعطى التوصيف الطبيعى والبشرى عن بعض أقطار الأرض .

ومن غير استغراق كلى فى البحث الكاشف عن أبعاد الرؤية الجغرافية التى زودت المعرفة الجغرافية باضافات مفيدة أثرت رصيدها ، نظرى الاجتهاد الحضارى الرومانى الذى تصاعد تأسيسا على حسن استيعاب الميراث الذى ورثه عن المصريين والبابليين والفينيقيين والاغريق . ولا نشك أو نشكك فى جدوى الدعم الحضارى الرومانى الذى ظاهر اجتهاد الفكر الجغرافى الذى وسع دائرة المعرفة الجغرافية على امتداد جزيرة العالم . ومن الجائز أن تفاوت هذا الرصيد الذى أسفر عنه اجتهاد الفكر الجغرافى من قارة الى قارة أخرى . ولكن المؤكد أن الاضافات قد تحققت على كل الجبهات فى أنحاء جزيرة العالم ، وأن مدى الرؤية الجغرافية كانت أبعد مما وصلت اليه فى المرحلة السابقة .

وعلى الصعيد الأوروبى ، لعب الغزو الرومانى الذى استهدف التوسع الامبراطورى حينا أو تأمين التوسع الامبراطورى حينا آخر ، ودوره الايجابى فى حماية الوجود الحضارى من العدوان البربرى المخرب ، دورا بارزا فى خدمة الاجتهاد الفكرى الجغرافى لأنه أتاح الرؤية الجغرافية من قرب بشكل أثار واستنفر التأمل والتدبر فى أبعاد هذه الرؤية وما تنبىء به . ومن خلال بعض كتابات المفكرين التى حوت توصيفا جغرافيا جيدا ، نتبين كيف اتضحت الرؤية الجغرافية الكاشفة التى عاينت عن قرب شبه جزيرة ايبريا وبلاد الغال والجزر البريطانية(١) . بل قد نستشعر أيضا كيف مد الاجتهاد الفكرى أعناقه لكى يطل على أقطار أوروبية شمالية فى اتجاه المحيط المتجمد الشمالى ، أو لكى يعاين أقطارا فى سهول أوروبا الشرقية شمال البحر الأسود ، وكيف سجل هذه الرؤية الجغرافية(٢) .

---

(١) لفتت رحلات بثياس فى اتجاه شمال أوروبا الانتباه الى قطاع كبير من أرض أوروبا كان من وراء حجاب . وقد ظل مجهولا حتى كشف النقاب عنه الاجتهاد الجغرافى فى عصر الرومان .

(٢) أشار بطلميوس الى أكثر من مركز من مراكز التجارة على طول نهر دنيبر بما يوحى بمدى اتساع المعرفة الجغرافية اتساعا خدم عمليات التبادل التجارى على هذا الصعيد الاوروبى . بل لقد أفرد بعض الصفحات لتوصيف هذا الصعيد الاوروبى توصيفا جغرافيا عاما .

وعن نمط الكتابة التى جسدت الرؤية الجغرافية على الصعيد الأوروبى، نتبين كيف تضمنت توصيفا كاشفا عن بعض خصائص الأرض وعن بعض جوانب الحياة فى أحضان هذه الأرض • وربما تمادى هذا التوصيف الجغرافى لكى يشمل عرضا اقتصاديا سريعا يصور التفاعل الحياتى بين الناس والأرض وهم ينتزعون حق الحياة منها • ومن الجائز أن نفتقد فى هذا التوصيف الجغرافى السياق الرتيب أو الحبكة الفنية التى تخدم موضوعية التعبير والوضوح • ولكن المؤكد أن هذا التوصيف الجغرافى قد تجنب بعض سقطات الخيال وسرد العجائب وتوخى بعض الصدق فى التعبير الكاشف للرؤية الجغرافية ، سواء تأتت هذه الرؤية من خلال المعاينة أو من خلال الرواية •

وعلى الصعيد الآسيوى ، لعب الانطلاق الحر لحركة التجارة والتعامل التجارى المدعوم بقوة وسلطان الدولة الرومانية ، ودوره الوظيفى الناجح فى خدمة التطلب الحضارى الاستهلاكى ، دورا بارزا فى خدمة الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، لأنه أتاح الرؤية الجغرافية عن قرب بشكل أثار واستنفر التأمل والتدبر فى أبعاد هذه الرؤية وما تنبىء به • ومن الجائز أن نطرى الدعم الرومانى الرسمى الذى تولته من خلال وجودها فى مصر وهو يؤمن التحرك الذى حقق هذه الرؤية الجغرافية فى أنحاء من الأرض الآسيوية(١) • ولكن المؤكد أن المغامرة والجسارة هى التى أنجحت هذا التحرك بالفعل ووضعت الاجتهاد الفكرى الجغرافى فى مواجهة الرؤية الجغرافية وأعطته أطراف الخيوط لكى يتحمل مسئوليته ويشبع نهمه • وربما عادت هذه المغامرة لكى تنتفع بهذه الرؤية الجغرافية التى تكفلت بخدمة الانفتاح على دروب برية ومسالك بحرية ، لحساب التعامل التجارى فى أنحاء واسعة من الأرض الآسيوية •

وهكذا كان التسلل الرومانى من باب المندب الى عرض المحيط الهندى، وكسر احتكار الوجود العربى فيه(٢) ، وحسن استخدام الرياح الموسمية

---

(١) تم العثور على عملات رومانية ، فى جنوب الهند ، وفى أطراف من الصين الهندية الجنوبية • وتحكى قصة التجارة الدولية فصلا عن ورود السلع الهندية لكى تشبع النهم الاستهلاكى الحضارى فى الدولة الرومانية •

(٢) كانت بعض الجزر فى باب المندب الموقع الأقصى لتقدم الملاحين فى البحر الأحمر • وعندها كان التبادل بين هؤلاء الملاحين والملاحين العرب الذين يحتكرون تجارة المحيط الهندى • وربما خفى على الملاحين من غير العرب سر استخدام الرياح الموسمية وخافوا على أنفسهم الضياع فى المحيط الهندى • وربما روج العرب الاساطير التى تبث الرعب فيهم وتخيفهم من المحيط الهندى •

وتطويع الملاحة لاتجاهاتها فى الصيف والشتاء منذ حوالى منتصف القرن الأول الميلادى نقطة تحول حاسمة من كل الوجوه ، تجاريا وحضاريا وجغرافيا • ونقطة التحول فى اعتقاد أى جغرافى معاصر ، تصور كيف كانت البداية على طريق الانفتاح ، وصولا الى الهند(١) والى الصين الهندية والى الصين(٢) ، ومعاينة الواقع الجغرافى فى هذه الأنحاء عن كثب ، معاينة تجسد الرؤية الجغرافية وتتقصى أبعادها الحقيقية •

وبالاضافة الى جمع أوصال الرؤية الجغرافية من خلال الانفتاح على امتداد الجبهة البحرية الآسيوية على المحيط ، تجمعت أوصال رؤية جغرافية أخرى من خلال الانفتاح على امتداد جهة أرضية برية ، امتدت من جزيرة العرب الى بحر قزوين • وقد مولت الدولة الرومانية الرحلات على هذه الجبهة لكى تعاين الواقع الجغرافى فى الأرض من حول بحر قزوين وفى القوقاز ، كما مولت بعض الرحلات الأخرى على هذه الجبهة لكى تعاين الواقع الجغرافى فى جزيرة العرب(٣) • وقد تكفل الفكر الجغرافى باستيعاب هذه الرؤية الجغرافية واثراء رصيد المعرفة الجغرافية بالأرض الآسيوية • وبصرف النظر عن مدى التشويه الذى عبرت عنه خريطة بطليموس وهو يسجل عليها خلال المعرفة الجغرافية بآسيا ، يجب أن نستشعر كيف أثمر هذا الانفتاح وكيف أضافت الرؤية الجغرافية وكشفت النقاب عن قطاع كبير من الأرض الآسيوية •

وعلى **الصعيد الأفريقى** ، لعب الوجود الامبراطورى الرومانى ، الذى أدخل الأطراف الشمالية من القارة الشمالية ، بالاضافة الى مصر ، فى حوزته دورا بارزا ايجابيا فى خدمة المعرفة الجغرافية(٤) • وينبغى أن نتصور كيف

---

(١) أشرف يودكسس على رحلة الى الهند فى عام ١٢٠ قبل الميلاد • ثم قام اليها برحلة أخرى فى وقت لاحق • وقد تكشفت له بعد وقوع حادثة جرفت سفينته الى رأس جوردفوى امكانية الطواف حول افريقية • وقد حاول الطواف بالفعل من الغرب الى الشرق ويقال أنه أوشك على النجاح لولا أن غرقت سفينته وهلك ومن معه تجاه ساحل المغرب •

(٢) رحلة الذهاب الى الصين ، قيل عنها انها كانت فى عام ١٢٨ قبل الميلاد ، وقد استهدفت بالفعل طلب الحرير الذى انتهى الى سمع الرومان حديثا مشوقا عنه •

(٣) بعث الامبراطور أغسطس حملة قادها جالوس فى سنة ٢٥ قبل الميلاد لتاديب العرب ومواجهة احتكار الحميريين للتجارة وتاديبهم •

(٤) من مآثر الاهتمام الرومانى بافريقية ، اشتقاق هذا الاسم من قبيلة بربرية عرفت باسم افرى• وقد أطلقوا هذا الاسم أولا على تونس بالذات• وقد اتسع المدلول قليلا لكى =

هيأ هذا الوجود الرومانى الذى ورث التراث والأهداف البطلمية فى البحر الأحمر الفرص لكى يتسلل الاجتهاد الفكرى الجغرافى من أطـراف الجبهـة الشرقية ويطل على الأرض الأفريقية • ومن الجائز أن كان الرفض الذى أعلنه الافريقيين فى مواجهة الوجود الرومانى على الساحل الأفريقى الشرقى من البحر الأحمر شمالا الى زنجبار جنوبا ، والذى أوقف التوغل أو الانتشار فى أنحاء الظهير ومعاينة الواقع الجغرافى فيه(١) • ولكن المؤكد أن بعض الباحثين عن رصيد لحساب المعرفة الجغرافية ، قد استمعوا الى روايات التجار الذى ألفوا التواغل فى الظهير الأفريقى ، لحساب تجارة الرقيق وسن الفيل •

ومن سياق هذه الروايات التى صورت الواقع الجغرافى تصويرا مبهما فى بعض الأحيان ، وتصويرا مبالغا فيه فى بعض الأحيان الأخرى ، جمـع الاجتهاد الفكرى الجغرافى أوصال رؤية جغرافية عن هذا الظهير الأفريقى. وما من شك فى أن هذه الرؤية الجغرافية كانت غير صادقة موضوعيا الى حد كبير • بل ربما اتسمت بالخلط الشديد بين الواقع والخيال • وربما ضللت التفكير الجغرافى وهو يسجل الاضافة الى المعرفة الجغرافية بهذا القطاع من الأرض الافريقية ، والا فكيف نتصور التخبط الذى تردى فيه التصور الذى ارتآه الفكر الجغرافى الرومانى لمنابع النيل الاستوائية ؟

وهناك اعتقاد يؤكد أن انصراف الاجتهاد الرومانى التجارى الى الاهتمام برحلات التجارة الى الهند وجنوب شرق آسيا والصين قد صرف انتباههم واهتمامهم عن اقتحام الظهير المباشر وغير المباشر من وراء الساحل الافريقى الشرقى • ويؤكد هذا الاعتقاد بالتالى يأس الاجتهاد الفكرى وتخـوفه من اقتحام هذا الظهير لحساب الرؤية الجغرافية • وربما حدث هذا التخوف بالفعل تأسيسا على ما تحكيه الروايات التاريخية عن شراسة المقاومة التى واجهت الوجود الرومانى فى المراكز التى ورثوا معظمها عن أسلافهم البطالمة •

ومن الساحل الافريقى الشمالى ومن مصر ، كانت أكثر من محـاولة

= يستخدم للدلالة على قطاع كبير من القارة • واتسع هذا المدلول للمرة الثالثة لكى يستخدم للدلالة على القارة كلها •

(١) بلغ هذا الرفض والعصيان فى بعض أجزاء الظهير حد حمل السلاح والتصدى للوجود الرومانى بكل العنف • وفى تاريخ البليميز الذين عاشوا فى ظهر الساحل السودانى صفحات كثيرة ، تصور الحرب التى لم تهدأ ضد الوجود الرومانى • وما من شك فى أن ضراوة هذه الحرب قد حرمت الوجود الرومانى بالفعل من التوغل فى الظهير •

لاجتياز الصحراء الكبرى الى الأرض الافريقية فيما وراء الصحراء جنوبا. ومن الجائز أن كان الجمل قد عرف طريقه وانتشر استخدامه على الصعيد الصحراوى فى افريقية ، ولكن المؤكد أنهم لم يحسنوا استخدام الجمل ، ولم يتخذوا منه مطية لاختراق حاجز المسافة عن الصحراء • وهذا معناه أن فرصة العبور قد واتتهم بداية من أرض مصر ، حيث أسعفهم النيل وساروا بحذائه فى اتجاه الجنوب • ومعناه أيضا أن قدرة الاجتهاد الفكرى كانت محدودة ، وأن رؤيته الجغرافية كانت فى أضيق اطار من حول النيل •

ومن الجائز أن أسعف النيل التوغل الرومانى عبر الصحراء ، سواء كان الهدف عسكريا ، أو كان الهدف تجاريا(١) • ولكن المؤكد أن الدولة قد مولت هذا التوغل لتأمين مصالحها • وعندئذ يمكن أن نذكر كيف انتفع الاجتهاد الجغرافى بهذا التوغل وكيف تحققت له الرؤية الجغرافية وهو فى صحبة هذا التوغل الرومانى • وفى كتابات بعض المفكرين تصوير سجل هذه الرؤية الجغرافية تسجيلا يعبر عن اتساع المعرفة الجغرافية بمساحات من الأرض فى حوض النيل الأوسط • ومع ذلك يجب أن نفطن الى أن هذه المعرفة التى تضمنتها كتابات سترابو لا تحقق الاشباع لطلاب المعرفة الجغرافية •

هذا وكان بطليموس الجغرافى الذى كرس اجتهاده لاستثمار الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، صاحب أحسن صياغة وصفية عن الرؤية الجغرافية الرومانية فى حوض النيل • وما من شك فى أن بطليموس قد أفلح فى تنسيق واستيعاب المعلومات الجغرافية التى نقلها اليه مارنيوس على الأرض فى قلب أفريقية وهو يتحدث أو يصور منابع النيل الاستوائية(٢) • ولعل أهم ما انتهى اليه بطليموس ، هو التمييز بين روافد النيل الحبشية متمثلة

---

(١) كان العمل العسكرى ضد دولة مروى • وقد انتهى هذا العمل العسكرى الى تحديد واضح بين كيان دولة اكسوم الحبشية وكيان الوجود الرومانى فى مصر والنوبة السفلى • أما التحرك السلمى فقد تمثل على وجه الخصوص فى رحلة مولتها الدولة الرومانية على عهد الامبراطور نيرون لكشف النقاب عن النيل •

(٢) ثار جدل بين فريقين على مصدر المعرفة بهذه المنابع • ويتصور الفريق الأول أن ملاحا مغامرا قد توغل من ساحل زنجبار فى رحلة استغرقت ٢٥ يوما ثم عاد يقص رؤيته الجغرافية عن بحيرتين كبيرتين ينبع منهما الجريان النيل • ويستبعد الفريق الثانى أن يكون هذا الملاح قد توغل بالفعل ويؤكدون أنه استمع الى رواية بعض التجار العرب عن هاتين البحيرتين ونسب لنفسه الرؤية كذبا •

في النيل الأزرق والسوباط والعطبرة(١) ، والروافد والمنـابع الاستوائية من البحيرات في أرض القمر ٠

وعن اعداد ورسم الخرائط ، تذكر كيف كان التوسع الامبراطوري الروماني من ناحية ، والأخذ بزمام التجارة والتعامل التجارى برا وبحرا من ناحية أخرى ، فى حاجة الى استخدام الخرائط التى تبصر وترشد وتقود المسيرة الرومانية ٠ وهذا معناه أن التحرك الرومانى قد اعتمد على الخريطة لكيلا يضل وهو فى طريقه الى أهدافه فى البر والبحر ٠ ومعناه أن الرومان لم يهتموا بالاجتهاد الجغرافى أو برسم الخرائط عبثا ٠ بل كان هذا الاهتمام اهتمام العارف بقيمة الاجتهاد الجغرافى وبجدوى الخريطة ٠

وهناك اعتقاد صحيح ، يتصور أن مسألة رسم الخرائط ، التى كانت مسألة علمية بحتة فى مرحلة الفكر اليونانى المصرى ، قد أصبحت مسألة عملية بالفعل فى هذه المرحلة ، لحساب الانفتاح الرومانى على مساحات كبيرة من جزيرة العالم ٠ ولقد أسفر ذلك التحول ، عن رسم خرائط الطرق ، التى توجه هذا الانفتاح وتبصره ٠هذا بالاضافة الى رسم الخرائط التى تعبر عن المعرفة الجغرافية ، وتصور مدى اتساع هذه المعرفة ٠ وتبنى بعض المفكرين الجغرافيين مهمة رسم الخريطة وانجاز البيان الذى تعبر عنه فى وضوح ٠

ومن أهم الخرائط التى عكف بعض الجغرافيين على انجازها ، خريطـة العالم ٠ ومن الجائز أن نتصور كيف كان هذا الانجاز استمرارا لنفس الانجاز الذى أسفرت عنه اهتمامات المرحلة السابقة من مراحـل الفكر الجغرافى القديم ٠ ولكن المؤكد أن الانجاز فى هذه المرحلة سجل خطوات واضحة وهو يرسم خريطة العـالم ويعدها اعدادا أحسن ٠ وقد أسعف هـذا التطوير والتحسين ، زيادة الرصيد من المعرفة الجغرافية من ناحية ، وزيادة الخبرة الفنية والمهارة فى رسم الخريطة ودلالات التعبير من ناحية أخرى ٠

هذا وقد لعب هيباركوس دورا مرموقا فى مسـألة رسم الخريطة ٠ ذلك أنه وجه نقدا مرا ، جرح فيه وسفه أسلوب ايراتوستين الرياضى فى شأن قياس أبعـاد الأرض ، وفى شـأن رسم خريطة العـالم ٠ وتطلع هيباركوس الى استخدام أساس رياضى آخر لانشاء شبكة خطوط الطول

---

(١) ذكر بطلميوس هذه المنابع الحبشية وسمى النيل الازرق astasobas والسوباط astabos والعطبرة astaboras

والعرض ، تكون أساسا لرسم خريطة العالم • ومن الجائز أن نتبين نجاح هيباركوس فى مهمته وريادته عندما عمل بأسلوب أنسب لرسم هـــذه الخريطة • ولكن المؤكد انه واجـــه نقد سترابو ورفضه تسفيه طريقـــة ايراتوستين • وقد دعاه سترابو لكى يتبع طريقة ايراتوستين ويفضلها فى اعداد خريطة العالم •

وهكذا تعددت رسوم خرائط العالم • ونذكر منها قراطيس وجوبيـــا ومارينوس • وقد دعت النعرة الرومانية ، الى تأكيد تصور وضع روما ، فى مكان المركز القلب للقرص المستدير ، الذى احتوى رسم خريطة العالم • ثم كانت خريطة بطليموس الاسكندرانى التى أصبحت أهم خرائط العالم التى أسفر عنها الاجتهاد فى كل مراحل الفكر الجغرافى القديم • بل هى — بكل تأكيد — انجاز رائد حتى أصبح أساسا لكثير من المحاولات التى بذلت فى المرحلة التالية لرسم خريطة العالم •

— وهكذا ، أصبح بطليموس الجغرافى الاسكندرانى صاحب مدرسة ورائد فكر ، وعلم من أهم أعلام الفكر الجغرافى القديم • وفى كتاباته دراسة ممتازة عن مسألة رســم الخريطة • وقد ناقش أهم الأسس النظرية لشكل الأرض وأبعادها فى مقدمة كتاباته عن مسقطين معدلين من المساقط المخروطية • وفى كتابه بعنوان « جغرافية » خريطة للعـــالم وست وعشرين لوحة لأجزاء هذا العالم(١) • وقد أودع فى هذه اللوحات كل خبراته الفنية التى أضافت وطورت فن رسم الخرائط(٢) •

ويشكك بعض الباحثين فى عمل بطليموس ، اعتقادا منهم انه اعتمد على خريطة مارينوس الصورى وأدخل عليها بعض التعديلات الطفيفة(٣) •

---

(١) اختص بطلميوس أوروبا بعشر لوحات ، وأفريقيا باربع لوحات ، وآسيا باثنتى عشر لوحة •

(٢) هناك تشكيك أيضا فى قدرة بطلميوس الفنية ويستبعد هذا التشكيك أن يكون بطلميوس قد رسم بنفسه هذه الخرائط ، وينسبون اليه الاشراف على رسمها فقط • وينسب هذا التشكيك الى فنان سكندرى هو اجاثودمون صناعة وتنفيذ هذه الخرائط •

(٣) خريطة بطلميوس الأصلية مفقودة • وضياع الأصل سواء كان من خـــلال انكار واستنكار رجال الكنيسة للفكر الجغرافى القديم ، أو كان من خلال الاهمال فى عصر الظلام المسيحى قبل ظهور الاسلام ، أتاح فرص التهجم والقدح فى عمل بطليموس • بل ربما تعرضت الترجمة واعادة الرسم لبعض التحريف لدى اعداد هذا البديل •

وبصرف النظر عن هذا التشكيك الذى يفتقر الى الدليل البين ، تعتبر خريطة بطليموس ـ بمقياس عصره ـ عملا فذا ومفيدا(١) • وكيف لا تمثل عملا فذا وهى الخريطة التى أحسنت وأجادت عندما صورت الرؤية الجغرافية لجزيرة العالم وعبرت عن جدية هذه الرؤية واتساعها • وبصرف النظر عن بعض الأخطاء التى تردى فيها هذا الانجاز الجيد ، أصبحت خريطة بطليموس وعلى مدى قرون طويلة ، المصدر الأهم من أى مصدر آخر للمعرفة الجغرافية عن العالم(٢) •

* * *

وبعد ، هذا تصور سريع مركز ، يصور مسيرة الفكر الجغرافى منذ أن تبناه الفكر الفلسفى الافريقى ، فى الاتجاه الصحيح • وما من شك فى أن الابداع الحضارى فى مصر وفى بابل ، وفى بلاد الاغريق ، وفى روما ، قد أسعف الاجتهاد الذى حفز الفكر وأثراه واستنفر التدبر والتأمل لكى يجسد الرؤية الجغرافية وهى تتطلع الى السماء وتتحسس الكون ، أو وهى تشاهد الظاهرات الطبيعيـــة ، أو وهى تجوس فى الأرض • ومن ثم تحمل هـذا التفكير الذى استنفزته الرؤية الجغـــرافية مسئولية الاضـــافة والتجـديد والتسجيل الذى يشبع حاجة الانسان للتعرف على الكون مرة وعلى الأرض مرة أخرى وعلى الناس فى هذه الأرض من حولهم مرة ثالثة ، وينبغى أن ندرك كيف احتوى التراث الحضارى واعتز كثيرا بصفحات مثيرة ومضيئة ، تضم ثمرات الانفتاح المتفتح الذىاستنفر الفكر الجغرافى ونماه وحافظ عليه ورعاه لحساب الانسان •

- - - - - - - - - - -

---

(١) عمل بطليموس يمثل عملا فذا وهو يعد أساس رسم الخريطة وتجهيز شبكة خطوط الطول والعرض ، أو وهو يسجل المعرفة الجغرافية عليها •

(٢) من أهم الملاحظات على محتويات الخريطة تتمثل فى أ ـ المبالغة الواضحة فى امتداد آسيا شرقا وتضم مساحة جزيرة سيلان • (ب) تحديد أفريقية شرقا جنوب خط الاستواء لكى تطوق المحيط الهندى وتظهر بحرا مغلقا • جـ ـ زحزحة خط الاستواء جنوبا بعيدا عن موقعه الصحيح وبشكل يلفت النظر •

الفصل الثالث

الإسلام والفكر الجغرافى العربى

- المسيحية وضياع الفكر الجغرافى
- الاسلام يتبنى الفكر الجغرافى
- الاسلام واستنفار الحاسة الجغرافية
- الحاسة الجغرافية وتباشير التفكير الجغرافى عند المسلمين
- الاسلام يدعم الفكر الجغرافى
- احياء الفكر الجغرافى
- الفكر الجغرافى العربى الأنضج

الاسلام والفكر الجغرافى العربى

المسيحية وضياع الفكر الجغرافى :

لئن كان الفكر الجغرافى القديم ، وليدا شرعيا لاجتهاد الحس الجغرافى الذى أسفر عن كل شكل من أشكال الفكر الجغرافى الذى بصر الحياة قبل ابداع التسجيل وصيانة التراث ، فلقد تبنى الاجتهاد الحضارى والتفكير الفلسفى هذا الوليد وتحمل مسئولية تنشئته وتطويره والاضافة اليه ٠ ولئن كان حصاد هذا الفكر الجغرافى القديم قد أشبع تطلع الانسان الى توسيع دائرة المعرفة بكل مكان وبأى مكان من حوله ، فلقد تجلى ـ بكل الوضوح ـ مدى التزام أهل الفكر الذى تعشق التدبر فى صفات المكان من حولهم ، بقيادة وحسن توجيه مسيرته فى الاتجاه الصحيح ٠ بل لقد لقد تفرغ بعض أهل الفكر تفرغا حقيقيا وانكب على اثراء الفكر الجغرافى والاضافة الى رصيده ٠

وفى اعتقادى ، أن هذا الفكر الذى كان رفيق عمر الحياة على الأرض ، ثم انتظم فى مسيرة فكرية جادة بالفعل ، ما انتظم فى هذه المسيرة الا لكى تستمر وتتقدم ، وتجد الأيدى الأمينة التى تصونها وترعاها ، والعقول المتفتحة التى تمسك بزمامها وتؤمن حركتها وتقدمها ٠ وما من شك فى التزام هذا الفكر بمصلحة الانسان فى الأرض وبحرصه على اجابة الناس أصحاب الاجتهاد الحضارى المادى والمعنوى وهم يطوعون الأرض للحياة ويطوعون الحياة للأرض ، الى ما يصبون اليه من معرفة بالأرض أو ما يتطلعون اليه من تعميق هذه المعرفة انتصارا لارادة الحياة فى الأرض ٠

وليس أروع من أن تتابع الاجتهاد الفكرى الجغرافى المثمر ، وكيف انتقل زمام المسيرة الفكر الجغرافية من جيل الى جيل آخر من المفكرين أو من مرحلة الى مرحلة أخرى ٠ بل ومن المفيد أن نتبين كيف تبنت الحضارات والاجتهاد الحضارى هذه الاجتهادات الفكرية ، وقدمت لها الحوافز ، وهى عاكفة على التدبر والتأمل فى الرؤية الجغرافية ، أو وهى صانعة ومبدعة الاضافات التى أثرت رصيد المعرفة الجغرافية ، لحساب الحياة ٠ ومن المفيد أيضا أن نتحسس نقط التحول التى أطلقت العنان للتقدم بخطوات ثابتة الى الفكر

الجغرافى الأفضل ، ونقط التحول التى أوقعت الفكر الجغرافى فى المحنة وجمدت التقدم •

وفى الوقت الذى نستشعر فيه ، كيف أسعفت المعرفة الجغرافية حركة التعامل التجارى وهى فى أبسط صورة من صور التجارة الدولية ، وكيف وضعت هذه المعرفة العلامات على الطرق وهى تخدم الانفتاح والتكامل الاقتصادى بين المكان والمكان ، أو بين الناس فى المكان والناس فى المكان الآخر ، يجب أن نستشعر أيضا ، كيف بصرت حركة التعامل التجارى حركة المعرفة الجغرافية وكيف أمنت السلطة التى انتفعت بالتعامل التجارى مسيرة الاجتهاد الجغرافى الكاشف عن المكان وعن الناس فى أى مكان على لأرض •

ومن الجائز أن أكثر من نقطة تحول حضارية ، مادية أو معنوية قد صعدت ونشطت حركة التعامل التجارى لحساب الانسان ، وحفزت واستنفرت الاجتهاد الكاشف عن رصيد يثرى المعرفة الجغرافية لحساب الانسان أيضا • ولكن المؤكد أن هناك أكثر من نقطة تحول حضارية عادية ومعنوية قد لعبت دورا بارزا فى تحريك مسيرة الفكر الجغرافى قدما ، وفى الهام وتنشيط التدبر والتفكير الذى يضيف الى رصيد هذه المسيرة ، وفى تعديل مسار المفكرين القابضين على زمام تقدمها المثمر النشيط •

ومن أهم نقط التحول المادية ، نذكر الابداع الحضارى المادى الذى أسفر عن تحسين وسيلة النقل فى البر والبحر ، وكيف أسعفت تحرك الاجتهاد الجغرافى لدى اختراق أو اسقاط حاجز المسافة بين المكان والمكان • كما نذكر التسلط السياسى الذى أسفر عن تطويع الاجتهاد الجغرافى وامتثاله لدى آداء دوره الوظيفى فى أرجاء المكان ، أو الذى حفز ومول الاجتهاد الجغرافى وطلب ثمرات أدائه الوظيفى فى المكان • ولكن أهم نقطة تحول بالفعل كانت من صنع الابداع الحضارى المعنوى ، يوم أن امتثل الفكر الجغرافى وانصاع لضغوط وحوافز العامل الدينى •

وامتثال الفكر الجغرافى للعامل الدينى مسألة لا غبار عليها من وجهة النظر الموضوعية • بل ينبغى أن نتصور كيف بدأ هذا الامتثال للضغوط التى أملاها العامل الدينى منذ وقت بعيد وكان حافزا من وراء الاجتهاد الجغرافى المفيد • كما ينبغى أن نتصور أيضا أن هذا الامتثال لضغوط العقيدة الدينية الراسخة فى صميم الانسان لا يعنى بالضرورة كبتا للاجتهاد الجغرافى • وهناك أكثر من مثال يصور كيف كان الضاغط الدينى حافزا استنفر الاجتهاد الجغرافى وهو يترقب حصاد وثمرات هذا الاجتهاد •

ونذكر - بكل الصدق - أن العقيدة الدينية لا يمكن ولا ينبغى لها أن تكبت الفكر الحر أو ترفض الفكر المجتهد وهو يتأمل فى ملكوت الله فى الأرض وفى السماء • ومن ثم ينبغى أن نتصور الضاغط الدينى ضاغطا ايجابيا لا ينكر الفكر ولا يتنكر له طالما لم يتعارض هذا الفكر مع ايمان العقيدة الصحيح • وهذا معناه أن الضاغط الدينى لا يكون ضاغطا سلبيا يكبت الفكر الذى يتأمل فى ملكوت الله من غير تعارض مع العقيدة الا اذا استل هذا الضاغط - بجهل - من وراء ظهر العقيدة السوية عصا غليظة ، تطارد الفكر وتنكل بأهله •

هذا ومن بعد بطليموس الجغرافى الاسكندرانى ، نتبين هذا الموقف الغريب ، عندما تعرض الفكر الجغرافى للضاغط الدينى السلبى ، وأمسك له العصا وود لو طوعه وسيره فى الاتجاه غير الصحيح • ومن الجائز أن أن يضع انتشار المسيحية فى أقطار البحر المتوسط نقطة تحول حضارية معنوية لحساب عقيدة وايمان وحياة أفضل • ولكن المؤكد أن انتصار المسيحية قد أعطى رجال الكنيسة الأغبياء ، قوة الضغط الدينى على الفكر الانسانى كله • وما من شك أن واجه الفكر الجغرافى هذا الضاغط الدينى ، وكانت نقطة تحول خطيرة ومثيرة فى وقت واحد • ذلك أن هذا الفكر انشطر شطرين، شطر صحيح تخوف وانطوى وفر وتخفى لأنه لم يمتثل للضاغط الدينى ، وشطر مزيف دجال امتثل وأسلم زمامه لارادة الجهالة وغباء رجال الكنيسة •

وبكل الانصاف النزيه الذى يسقط عن عقيدة المسيحية ، التى نؤمن بصدق وواقعية وطهارة رسالتها النقية لحساب الحياة الأفضل ، هذا الاتهام الشنيع ، نعلق كل الاتهام - بكل الاطمئنان - فى أعناق رجال الكنيسة الذين أخذوا مكانة الراعى من الرعية ، واستغلوا هذه المكانة أسوأ استغلال• بمعنى أنه ينبغى أن نوجه كل أصابع الاتهام - من غير تردد أو خوف - الى التزمت الكنسى الجاهل ، لانه هو الذى جعل من الضاغط الدينى ضاغطا سلبيا مرعبا ، واحبط اجتهاد الفكر الحر ، وحرم على التفكير الجغرافى نعمة التحرر • وكانت دعوة رجال الكنيسة الضاغطة والمتسلطة ، تعلن - بكل الجهل - أن الفكر الجغرافى القديم مرفوض ومطعون فى صدقه • بل لقد تمادى الضغط حتى صوره فكرا كافرا يروج للكفر بين الناس ، وينبغى مطاردته واجتثاثه من جذوره •

وهذا ينبغى أن نتبين كيف كان رفض رجال الدين المسيحى للفكر الجغرافى القديم رفضا قاطعا ، فهجره الناس ، وكيف أعطى رجال الدين

المسيحي الناس الفكر الساذج البديل وباركوا التزامه ، فقبل به الناس . والفكر الساذج البديل كان وليد الخوف من رجال الدين والضاغط الديني فأشاع الجهل . وكان القبول به امتثالا لارادة رجال الدين علامة على الخوف كل الخوف من رجال الدين .

واعتبر فريق من رجال الدين المسيحي ومنهم القديس امبروز ، أن قضية البحث عن كنه الأرض من معـــالم الأرض قضية لا جدوى من ورائها اطلاقا ، وأن الاجتهاد الجغرافي اجتهاد مرفوض ليس له ما يبرره . ونظر فريق آخر من رجال الدين أكثر تزمتا وجهلا الى أن قضية البحث عن الأرض ومعالمها والى الاجتهاد الجغرافي الباحث من خلال الفكر والتدبر والتأمل ، نظرة انكار واستنكار شديدين ، لأن ذلك كله يعارض ارادة الله أصلا ، أو لأنه — على أقل تقدير — بحث ضال وفكر مضلل ، نابـع من معين الوثنية القديمة ، أو من منهل الكفر السائد قبل ظهور المسيحية .

وينبغي ، أن نفطن الى خطورة هذا الضـــاغط الديني الذى شجب التفكير والتدبر وكبله ، وهـذا التصدى العنيف الذى أوقف مسيرة الفكر الجغرافي وأهدر رصيدها . وما من شك في أن هذا الضـــاغط الـــديني والتصدى المتزمت العنيف ، كان كبتا واحباطا للفكر الجغرافي ، على غير ارادة الحياة ، ولغير مصلحة الحياة . بل انه — بكل تأكيد — على غير ارادة الله الذى أطرى التدبر والتفكير في الحقائق والسنن التى تجرى بها مسيرة الحياة في ملكوت الله . كما ينبغي أن نذكر كيف استل رجال الدين من التزمت الغبى الجاهل بما أراده الله ، عصا غليظة ، تضرب الفكر الجغرافي وكأنه الكفـــر بعينه ، وتطارد المفكرين صناع وحفظة الفكر الجغرافي الذى قدم رصيده بكل الرضا لحساب الحياة .

وفي ظل هذا الموقف الذى أعلن عن رفض واستنكار رجـــال الدين ، كانت النكبة أو الضياع . وقد أجهض هذا الضاغط الديني الفكر الجغرافي لأنه سعى الى تفريغه من مضمونه وتعديل مساره في غير الاتجاه الصحيح . بل لقد ولدت في أحضان هذا التزمت الكنسى الضاغط ، مدرسة الانكار العنيف الرافض للفكر الجغرافي القديم أو للاجتهاد الجغرافي الذى أسفر عن اضافات مفيـــدة على المدى الطويل . وتولت هـــذه المدرسة مطاردة الفكر الجغرافي واهدار اجتهاده في أى مكان . كما تولى بعض المنتسبين لهـــذه المدرسة والعاملين على هدى ارادة وهوى رجال الدين ، اخراج وصناعة فكر جغرافي غريب يروج للجهل أكثر من أى شيء آخر .

وأصبح من شأن هذا الفكر الجغرافي الغريب الذي عرف باسم الجغرافية المسيحية لانه يطاوع ارادة رجال الدين ، أن يسخر من الفكر الجغرافي القديم وينكره ، وأن يسخر في نفس الوقت من الناس وهو يزودهم بالزاد الفكر الجغرافي الغريب • ووجه الغرابة في هذا الفكر الجغرافي المسيحي المصطنع، انه طوع كل الأفكار تطويعا بشعا ، وكان المطلوب امتثال هذه الأفكار ، لارادة الجهل في رجال الدين أحيانا ، أو لمنطق التزمت في رجال الدين أحيـــانا أخرى • والمسيحية بعد ذلك كله بريئة كل البراءة من هذا الفكر المصطنع •

واذا كانت القرون الأولى من بعدميلاد المسيح وانتشار المسيحية ورسوخ تعاليمها قد أطلقت عنان الضاغط الديني الذي أعلنه رجال الكنيسة لكي يطارد الفكر الجغرافي القديم ، فان هذا الضاغط قد خلق فكر جغرافيا مسيحيا اعترض طريق الفكر الجغرافي القديم وأوقف مسيرته • وكان هذا الفكر الجغرافي المسيحي ساذجا الى أبعد الحدود وملتزما بمنطق ومفاهيم وتصورات رجال الدين • كما كان ـ بكل تأكيد ـ منقطع الصلة بكل ما احتواه التراث الانساني من ثمرات الفكر الجغرافي القديم • وجدير بنا عندئذ أن نتصور كيف ابتعد هذا الفكر الجغرافي المسيحي عن كنه الحقائق بشكل صارخ ، وكيف انغمس في عمق الجهالة بشكل فاضح • وكيف لا نتصور ذلك كله وهو فكر أبى واستكبر ورفض أن يبدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافي القديم وآثر أن يبتدع من عنده ـ على هوى رجال الدين ـ خرافات غبية ، وحاول أن يكسوها بكساء الحقيقة • ولكن هيهات أن ينجح •

وهكذا نستشعر التغيير الذي طوى صفحة الفكر الجغرافي القـــديم وأوقف مسيرته وأنكر عليه حرية التفكير ، والذي اصطنع وفتح صفحة الفكر الجغرافي المسيحي المزيف وسيره في طريق مسدود • ولكن الأهم من ذلك كله أن نستشعر نتيجتين هامتين هما ، من قبيل المصائب أو النوائب التي انهالت على الفكر الجغرافي القديم •

والمصيبة الأولى تحمل وزرها أحد رجلين اما مسيحي جاهل أعماه جهله أو مسيحي انتهازي سيرته أطماعه • وقد انبرى هذان الرجلان ـ بكل الغباء أو الخبث ـ الى لوى عنق الفكر الجغرافي القديم ، وكأنهمـــا يطلبـــان ازهاق روحه ، وكان هدف كل منهما ، تطويع الأفكار الجغرافية لكي تساير جهالة وتزمت رجال الدين أو ابتداع الأفكار الجغرافية التي تجاوب منطق وتصورات رجال الدين • وما من شك في أن كليهما قد دس في الفكر الجغرافي التخريب والأوهام وكأنهما ردة الى عهد بائد سيطرت فيـــه روح ومنطق التصورات

الأسطورية • وما من شك أيضا فى أن كليهما قد ابتعد تماما عن المسار الصحيح الذى خدم الابداع والاضافة الى الفكر الجغرافى القديم وهو يخدم مصلحة الحياة ، وانحرف الى مسار غير صحيح لا يخدم الابداع والاضافة الى الفكر الجغرافى المسيحى وهو لا يجاوب مصلحة الحياة •

والمصيبة الثانية تحمل وزرها رجال‌الدين بأنفسهم الذين أعماهم الغباء وسيطر على عقولهم المتغلقة الجهل ، وقد انبرى رجال الدين ــ بكل العنف ــ الى اهدار دم الفكر الجغرافى القديم وكأنهم يحرضون على سفك دماء المفكرين الذين لا يطاوعونهم • وكان الهدف الحقيقى كامنا فى توقيف مسيرة الفكر الجغرافى القديم على الطريق الصحيح • وقد اتخذ رجال الدين من التهديد والوعيد والحرمان مطية لارغام المفكرين والضغط عليهم وصولا الى التفريط فى الفكر الجغرافى القديم ونبذ تراثه والتنكر لها • بل هناك من طارد بعض المفكرين الذين رفضوا الامتثال ، وهناك من تكفل بطمس معالم الفكر الجغرافى القديم حتى يصبح فكرا كافرا مهجورا •

وتأسيسا على ما تعنيه هاتان المصيبتان اللتان اشتركتا فى تحـــديد أبعاد النكبة ، ينبغى أن نستشعر كيف توقفت وتجمدت مسيرة الفكر الجغرافى القديم وأصبح هذا الفكر فكر مهجورا مطلوب أن ينساه أو يتناساه الناس ، وكيف بدأت مسيرة فكر جغرافى مسيحى مصطنع وصنيعة رجال الدين • وأصبح هذا الفكر فكرا شائعا مطلوبا أن يأخذ به وأن يروج له الناس•ومن ثم كان الخوف كل الخوف على الفكر الجغرافى من أن يضيع ويبلى شديدا ،وكان الخوف كل الخوف على الفكر الجغرافى المسيحى المصطنع أن يشيع وهو منحرف منطقيا •

وفيما بين القرن الثالث والقرن الثامن الميلادى ، اتخذ الاجتهاد الجغرافى المزيف الذى طوعته وروضته ارادة رجال الدين وسيطرت على زمامه ، من الكتاب المقدس أساسا للكتابة وللتعبير عن الجغرافية والفكر الجغرافى المسيحى الملتزم• وما كان ينبغى أن يكون‌الكتاب المقدس وهو كتاب عقيدةودين‌مصدرا لمعرفة جغرافية ونظريات قابلة للنقد والتغيير • ولكن يبدو أن الاجتهـــاد الجغرافى قد كرس اهتمامه ، وهو لا يستهدف أكثر من تثبيت وبث المعتقدات المسيحية فى نفوس الناس • ومن غير أى تجنى ، نفتقد فى حصاد هذا الفكر الجغرافى المسيحى الملتزم بارادة رجال الدين ، أى شكل من أشكال الاجتهاد الباحث عن حقائق جديدة عن الأرض • وقد لا نجد سوى رفض قاطع وصريح، يهدر وينفى فكرة كروية الأرض ، وترويج لفكرة مضادة ، تؤكد فكرة الأرض المسطحة •

هذا ، ويصور كتاب الجغرافية المسيحية الذى نشره كوزموس الجغرافى المسيحى الملتزم فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى ، أبعاد الاجتهاد الجغرافى الملتزم الذى أنكر واستنكر الفكر الجغرافى القديم ووصمه بالكفر والهرطقة[١] • وتسجل بعض الكتب التى أوردت نشاط الرحلات وصورت رؤيتها الجغرافية ، مدى الانحدار فى التصور الجغرافى ، ومدى القصور فى الادراك الجغرافى الواقعى[٢] • وهناك أكثر من دليل صارخ يكشف عن سوء استخدام الحس الجغرافى الذى افتقد الحرية فى استشعار الرؤية الجغرافية وكبله الالتزام الصارم بارادة رجال الدين .

وهكذا نتبين الخطر الحقيقى الذى تعرض له الفكر الجغرافى القديم • ويكفى أن نتصور الكبت الشديد وكيف حرم هذا الفكر من حقه فى الأمن لكى يعطى وتتحرك مسيرته فى الاتجاه الصحيح • وهل ينكر البحث الموضوعى غير المتعصب ، أساليب رفض رجال الدين المسيحى وأساليب قمع الفكر الجغرافى القديم الذين أعلنوا تكفيره وأهدروا وجوده وحصاده ؟ وهل يخفى علينا أن رجال الدين المسيحى اعتبروا المجاهرة بفكرة كروية الأرض هرطقة صريحة ، وأن جزاء من يروج لهذه الفكرة الكافرة هو القتل ؟[٣] وهل ننسى أو نتناسى أن رجال الدين المسيحى قد افتروا – بكل التبجح – على الكتاب المقدس مرة ، وعلى القديس بولس مرة أخرى ، عندما حملوهما زورا وبهتانا ، مسئولية تجريم الفكر الجغرافى القديم ورفضه وانكاره ؟

والفكر الجغرافى القديم الذى واجه كل هذا التحدى ، يحفظ فى ضميره ويعرف جيدا أن لتكناشيوس المسيحى المتعصب كان واحد من ألد خصومه• ويعرف أيضا أن من بين رجال الدين المسيحى الذين غرقوا فى ظلام الجهالة ، فريق تلذذ بمطاردة الفكر الجغرافى القديم وتعقب الذين يحفظونه على مدى قرون طويلة من عمر الحياة • ومن ثم أفلح رجال الدين المسيحى ومن انصاع لارادتهم وامتثل لجهالتهم – بكل التعصب المقوت – فى توقيف مسيرة الفكر

---

(١) كتاب كوزموس كتاب فارغ من حيث المضمون وساذج من حيث التعبير • وقد اعتمد كوزموس على التوراه لكى يدلل على أن الارض منبسطة وأن القدس تقع فى وسط العالم •

(٢) نذكر من هذه الرحلات ، رحلة ايسيدورو فى القرن السابع الميلادى ، ورحلة اركوف فى القرن الثامن الميلادى ورحلة ويلبارد فى نفس هذا القرن • ويبدو انها كانت اعجز من أن تسجل اضافة مرضية تشبع النهم الى المعرفة الجغرافية •

(٣) جلال مظهر : حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى القاهرة ١٩٧٤ صفحة ٣٩٨ •

الجغرافى القديم ، وفى احباط اجتهاده وعطائه لحساب الحياة . وبلغ فلاحهم حده الأقصى ، عندما تحول هذا الفكر الجغرافى القديم وهو تراث عزيز من صنع أجيال كثيرة الى فكر جغرافى مهجور وملعون لأنه كافر .

وتأسيسا على كل الاجابات الصحيحة التى تجيب عن موقف رجـــال الدين الذى اتسم بالتعصب الشديد ضد الفكر الجغرافى القديم المهجور(١) ، يمكن أن نتبين - من غير حرج - كيف أشاعت عداوة ووعيد رجال الدين الرعب والفزع بين أهل الفكر الجغرافى . كما يمكن أن نتبين - من غير تجنى - كيف حرمت صرامة رجال الدين المسيحى التفـكير الجغرافى الحر أو المتحرر من مظلة الأمن ، عندما حكمه بالموت على كل من أبى الانصياع لارادة التعصب والتزمت والجهل وأهدرت دمه . وهل يمكن أن يتلمس الفكـــر الجغرافى المهجور غير البحث عن مأوى يلوذ به ؟

وهكذا يمكن أن نستشعر معنى ونتائج استسلام الفكر الجغرافى القديم لنقمة الكبت حتى أصبح مهجورا يتهدده الضياع ، ومعنى نتائج اطلاق عنان الفكر الجغرافى المسيحى الممتثل لارادة الجهل الكنسى ، حتى انطلق يعربد ويحق الحقائق الجغرافية ، ويقود المسيرة الفكرية الجغرافية فى طريق مسدود. وهذا معناه أن مسيرة الفكر الجغرافى التى تـــولى أمرها نفر من المسيحيين لا تمثل فى اعتقاد أى جغرافى معاصر منصف مرحلة من مراحل المســـيرة الفكرية الجغرافية السوية . ذلك أن تحول الفكر الجغرافى القديم الى فكر مهجور ومرفوض ومطارد ، ينفى وينكر أى صلة تربط بين الفكر الجغرافى القديم الصحيح والفكر الجغرافى المسيحى الضال أو المضلل .

ولـكى نورد الحقيقة وندرك معنــاها الصحيح ، ينبغى أن نتصور ان مسيرة الفكر الجغرافى القديم قد توقفت وتجمدت عندما حكم عليه بأن يصبح مهجورا . ومن الجائز أنه تخفى وتنكر وطواه النسيان وأوشك على الضياع فى صومعته التى اعتصم بها . ولكن المؤكد أن هذا الفكر المهجور لم يكون أبدا القاعدة أو الأرضية أو البناء الذى أضاف اليه الفكر الجغرافى المسيحى لبناته واضافاته . وهذا معناه أن الفكر الجغرافى المسيحى - اذا استحق أن يكون فكرا - قد احتوته مسيرة بدأت من رفض الفكر الجغرافى القديم المهجور ،

---

(١) نفيس أحمد : جهود المسلمين فى الجغرافية (ترجمة د/ فتحى عثمان) الألف كتاب القاهرة ص ٢٠٠ .

وان هذه المسيرة التى انغمست فى التخريف والتحريف ، قد أغرقت أوروبا فى ظلمات وجهالات بالفعل الى القرن السادس عشر الميلادى على الأقل •

ولولا أن تدارك الإسلام الفكر الجغرافي القديم المهجور ، ولــولا أن انتشله المفكرون المسلمون من رقدة العدم ، ولولا أن أحيا التفكير الاسلامى الحر جذوته وقاد مسيرته مرة أخرى اعتبارا من القرن الثامن الميلادى ، لكانت مرحلة النكبة التى تفشت فيها جهـــالة وتضليل الفــكر الجغرافى المسيحى أكثر من طويلة • بل ولكانت الصحوة والانتعاش لكى تبدأ مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، من حيث انتهت مسيرة الفكر الجغرافى القديم بعد بطليموس أكثر من صعبة أو مستحيلة •

وصحيح أن نقول ان اسهام بطليموس الاسكندرانى وكل الذين سبقوه، واشتركوا بنصيب فى صنع التراث المفيد والرصيد الجغرافى ، فى مسيرة الفكر الجغرافى القديم قد تجمد وبات مهجورا وأوشك أن يتبدد • وصحيح أن الفكر الجغرافى المهجور ، قد افتقد من يطوره أو يصححه أو يضيف اليه وهو فى مواقع اعتصامه ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون مظلمة من عمر الحياة • ولكن الصحيح أيضا ، أن نتبين ــ بكل اليقين ــ كيف أن كبت الفكر الجغرافى الصحيح والتصدى الجاهل الذى جعل منــه فكـــرا مهجورا ومرفوضا وأجبره على الفرار الى بعض مواقع الاعتصام ، لم يصرف التفـــكير المتحرر عن استشعار قيمة وفاعلية وجدوى هذا الفكر والتشبث به ، لأنه يجاوب ارادة الحياة ويبصر ويرشد التعايش مع الواقع الطبيعى فى المكان • والا فكيف يمكن أن نفسر عودة الروح الى هذا الفكـــر الجغرافى المهجور ، وانطلاق مسيرته فى المسار الصحيح مرة أخرى ، وتسجيل التصحيح والابداع والاضافة ، فور التحرر من الخوف واستشعار الأمن فى ظل الاسلام ؟

هذا ويتعين عندئذ أن نتصور كيف كانت مسيرتان للفكر الجغرافى فى وقت واحد • وتسجل المسيرة الأولى تحرك الفكر الجغرافى المسيحى اعتبارا من القرن الثانى الميلادى • وتصور خطوات هذه المسيرة مدى الانحدار الفكرى فى الجهالة ، ومدى الضلال الذى تردت فيه المعرفة الجغرافية(١) • ومن الجائز

---

(١) تولى بعض المتحمسين الذين أخذوا بمنطق رجال الدين المسيحى ، وانصاعوا لجالتهم وتنازلوا عن حريتهم وتحرر تفكيرهم ، افراز وتسجيل فكر جغرافى مزيف ، يفتقد الصــدق والموضوعية • وأصبح هذا الفكر الجغرافى الذى انتسب الى المسيحية ، وشاع فى أنحاء أوروبا =

أن خطت هذه المسيرة الضالة المضللة خطواتها من القرن الثانى الميلادى الى القرن السادس عشر الميلادية وهى تمسخ وتشوه وجه الحقائق الجغرافية • ولكن المؤكد أن حصاد هذه المسيرة لم يكن أبدا نقطة بداية الفكر الجغرافى الحديث الذى فجرته النهضة الأوروبية • أما المسيرة الثانية التى توقفت على مدى سبع أو ثمان قرون طويلة ولم تجد من يدفعها أو يدفع عدوان رجال الدين المسيحى عنها فقد انطلقت فى حوالى القرن التاسع الميلادى • ومن الجائز أن نتبين اجتهاد المسلمين فى احياء وانعاش الفكر الجغرافى القديم وهو يقود التحرك ويسجل الاضافات ويطور الأفكار الجغرافية • ولكن المؤكد أن حصاد هذه المسيرة كان — بكل تأكيد — من وراء نقطة بداية الفكر الجغرافى الحديث ومسيرته المنتظمة اعتبارا من القرن السادس عشر الميلادى •

وهكذا ينبغى أن نسقط من الحساب مسيرة الفكر الجغرافى المسيحى الضالة ، لانها لم تقدم الجديد ولم تسجل خطوة على الطريق السوى • بل انها — بكل تأكيد — مسيرة أفقدها التعصب والجهل حق الوصل بين المراحل التى شهدت صناعة الحصاد الذى تتيه به مسيرة الفكر الجغرافى القديم • والمراحل التى شهدت صناعة الحصاد الذى فجره الفكر الجغرافى الحديث وتزهو به مسيرة الفكر الجغرافى الحديث • وهذا معناه — بالضرورة — أن نولى الاهتمام بمسيرة الفكر الجغرافى العربى ، التى هى — بكل تأكيد — حلقة

= المظلمة ، فكرا ساذجا وسخيفا ، عندما يسخر من الفكر الجغرافى القديم المهجور ، ويتنصل منه ويرفضه • بل كان فكر جغرافيا مسيحيا جاهلا ومرفوضا ، عندما يروج لأوهام باطلة وتخريف يلوث المسيحية وتستخف بعقول الناس • ونذكر على سبيل المثال ، كيف تجلى جهل وتفاهة وتخريف ، القديس فيلاسطريوس ، عندما يصور — بكل السذاجة — أن الله سبحانه وتعالى ، يخرج النجوم من خزائنه فى كل ليلة ، ويعلقها فى قبة السماء • كما نذكر مدى تفاهة وسذاجة الراهب الرحالة الجغرافى كوزموس ، الذى روج فى كتابه المشهور بين كتب الفكر الجغرافى المسيحى ، لأفكار فجة غبية تثير السخرية ، عندما يتصور أن شكل الأرض يحتويه مستطيلا ويرفض فكرة الكروية • وامعانا فى الاستخفاف بعقول الناس فى أوروبا ، يتصور كوزموس أن فى شمال هذا المستطيل الذى يحتوى الارض جبلا شامخا ، تختبىء من ورائه الشمس عندما تغيب أثناء الليل وتخرج من ورائه الشمس عندما تشرق أثناء النهار • وهل هناك استخفاف بالعقول أكثر من هذا التصور الجغرافى الساذج الذى يتصور الشمس وكأنهـــا تلعب لعبة — الاستغماية — لكى يفسر مسألة تعاقب الليل والنهار ؟ ومن الجائز أن نقبل الأوهام والتخريف وأن نغفر السذاجة لو أن الأمر قد ترتب على جهل أو غباء • ولكن المؤكد أن نرفض ذلك كله على اعتبار أن الفكر الجغرافى المسيحى يستند فى ذلك اللغو الى الكتاب المقدس بشكل يلوث ويطعن فى أمانة رجال الدين على قدسية هذا الكتاب •

الوصل الحقيقية بين الفكر الجغرافى القديم المهجور والفكر الجغرافى الحديث المتطور •

ويستحق الفكر الجغرافى العربى - بكل تأكيد - مزيدا من الاهتمام والعناية ، لا لكى نتيه ونزهو بحصاده ، ونجتر حلاوة الذكريات ، ولكن لكى نكشف النقاب من غير تعصب ، أو من غير تجنى ، عن حقيقة الاجتهاد وهو يصنع هذا الفكر لحساب الحياة ، وعن حقيقة الفتور وهو يفلت زمام هذا الفكر من فرط التخلف • ويستحق المفكرون العرب المسلمون - بكل تأكيد - مزيدا من الاهتمام والعناية أيضا ، لا لكى نسجل ونطرى حصاد فكرهم ، ولكن لكى نكشف النقاب من غير تعصب أو من غير تجنى ، عن كفاءة الأداء والتدبر والتفكير سواء وهم يبعثون الفكر الجغرافى القديم المهجور من رقدة العدم ، أو وهم يضيفون ويبدعون ويطورون ويقودون مسيرة الفكر الجغرافى على مدى عدد من القرون من القرن التاسع الميلادى الى القرن السادس عشر الميلادى • بل يستحق الاسلام الدين والدولة - بكل تأكيد - مزيدا من الاهتمام والعناية أيضا ، لكى نتبين دوره وهو يحفز التفكير الجغرافى ويكفل له مظلة الأمن ، ويرشد مسيرته المتطورة على الطريق الصحيح •

الاسلام يتبنى الفكر الجغرافي :

ولأن الاسلام قد أطلق - بكل التفتح - سراح الفكر الانساني بصفة عامة ، وحرر الفكر الجغرافي السليم من عقدة الخوف بصفة خاصة ، ولأن الاسلام قد رفع - بكل الواقعية - الحظر المفروض على التفكير الحر البنـاء المهجور ، ولأن بعض الصفوة من أعلام الجغرافيين المسلمين أخذت بزمام الفكر الجغرافي ، وعملت على تطويره وتسجيل الاضافة اليه ، لحساب الانسان ، نقدم هذا التصور ، لكي نتبين كيف تبنى الاسلام الفكر الجغرافي ، وكيف حفز الجغرافيين المسلمين على تطويره • ومن ثم يكون المطلوب التركيز عـلى مسيرة الفكر الجغرافي ، وصولا الى :

أولا - أن نتبين دور الاسلام المتفتح البنـاء على المستوى الحضاري والثقافي ، وهو يسهم في احياء الفكر الجغرافي المهجور ، ويحفز الجغرافيين المسلمين لتحمل مسئولياتهم ، ويتبنى مسيرته الصحيحة المثمرة لحسـاب الانسان ، وصولا الى ما هو أفضل في مجال المعرفة الجغرافيـة بالأرض وواقعية الحياة في انحائها •

ثانيا - أن نرد ردا حاسما يسكت بعض الجغرافيين الأوروبيين الذين أخذوا بالتزييف والتضليل ، بوحي من صليبتهم ، وهو ينكرون اجتهـاد الصفوة المرموقة من الجغرافيين المسـلمين ، أو وهم يتنكرون للاضـافات المبدعة ، التي سجلتها هذه الصـفوة ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة ، أو وهم يستنكرون ريادة علماء المسلمين وتبني الاسلام لمسيرة الفكر الجغرافي ، في المرحلة التي عاشت فيها أوروبا العصور الوسطى في أحضان الجهالة والظلام الذي أشاعته الكنيسة •

ولكي نتبين حرص الاسلام على العمل البناء ، وصنع التقدم ومظاهرة الابداع ، لحساب الانسان ، ينبغي أن نستشعر كيف كان الاسلام فور ظهور دعوته الخيرة ، حريصا على احياء الفكر الانساني بصفة عامة ، وعلى بعث الفكر الجغرافي بصفة خاصة • بل وينبغي أيضا أن نستشعر كيف كان الاسلام ، وهو يقوم الفرد لحساب المجتمع ، ويقوم المجتمع لحساب الفرد ، أمينا - بكل الصدق - على الفرد والجماعة على السواء ، وحريصا على مصلحة الانسان في هذا الفكر البناء ، وصولا الى شكل أو نمط أو أسلوب الحيـاة الأفضل ، في كل مكان على الأرض •

ومن أجل هذا الهدف الانسانى النبيل ، كان الاسلام حريصا عـــلى التراث الحضارى الموروث ، وعاملا على تطهيره من المبتذل ، وترشيده فى الاتجاه السوى ، وحافزا على تنميته واثرائه ، وتبنى كل اضافة مثمرة اليه • ومن ثم هيأ الاسلام المدخل الموضوعى الى كل ما من شأنه ، أن ينفع الانسان، صاحب المصلحة الحقيقية فى هذا التراث المفيد ، وهو يطلب الحياة فى المكان، أو وهو ينتقل من المكان الى المكان الآخر • بل ومن أجل هذا الهدف أيضا ، تولى الاسلام ريادة التقدم الحضارى ، واشاعة الممارسة الحضارية ، وترشيد التذوق الحضارى ، وتبنى الابداع الحضارى ، زهاء ثمانية قرون من عمر الحياة ولحساب الانسان • وهذا معناه أن الاسلام قد تبنى الفكر الانسانى — والفكر الجغرافى شريحة من هذا الفكر — لكى يمتلك الوسيلة التى تخدم أهدافه الحضارية •

ولكى يتبنى الاسلام الفكر المتفتح البنـــاء ، الذى يضيف الى التراث الحضارى البشرى كل جديد ومبتكر ، ولكى يكفل الاسلام مصلحة النـــاس جميعا فى هذا التراث الحضارى البشرى ، الذى تتطلع له الحيـــاة ، ولكى يتولى الاسلام حث الصفوة على الابداع وانجاب الاعلام الذين يطورون هـــذا التراث ، الذى يلبى ارادة الحياة الى ما هو أفضل ، ينبغى أن يكون الاسلام — فى حد ذاته — دينا حضاريا متفتحا ، وأن تكون نشأته حضارية سوية ، وأن تسلك دعوته بين الناس جميعاً سلوكا حضاريا حقيقيا •

وفى القرآن الكريم آيات بينات كثيرة ، تدلل على أن الاســـلام دين حضارى يخاطب المتحضرين • ويمكن أن نتبين كيف يتخذ الاســـلام من الشريعة والأحكام والمثل العليا ، اطارا ســـويا يحتـــوى الواقع الحيـــاتى المتحضر ، بعد أن يطهره من الخبث • كما نتبين أيضا كيف يتخذ الاسلام من هذه المصادر ذاتها ، سبيلا لوضع الضوابط الحـــاكمة التى تضبط مسيرة الممارسة الحضارية ، لكى تتجنب التردى فى المعصية ، ولفرض الروادع التى تكبح جماح الابداع الحضارى ، لكى يثمر أثمارا طيبا حلالا • وهذا معناه انه دين قويم يتبنى الحضارة لكى يطهرها من ناحية ، ولكى يضيف اليها من ناحية أخرى •

وفى التاريخ ، نذكر كيف ظهر الاسلام ونشأ وليدا ، فى حضن بيئة حضارية متفتحة ، وكيف عاش فى مناخ حضارى متفتح للأخذ والعطاء ،

فى كل من المدينة ومكة(١) • بل يجب أن نتذكر كيف حمل رايتـــه رجال تذوقوا طعم الحضارة ، وصقلتهم الممارسة الحضارية ، وأشبعتهم التجـــربة الحضارية فى أحضان الاستقرار ، تشبثا بالحضارة • كمـــا نستشعر كيف توسع الاسلام من خلال دولته ، وانتقل من بيئة حضارية متفتحة الى بيئات حضارية أكثر تفتحا ، فى رحاب الاتساع العظيم ، حتى بلغت هذه الدولة مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول انذاك •

وعلى صعيد البيئة الحضارية المتفتحة ، التى ظهر فى أحضانها الاسلام ، نذكر كيف كانت مكة ـ أم القرى ـ موقعا من أهم مواقع الاستقرار ، فى رحاب جزيرة العرب • ومن شأن الاستقرار دائما وحيثما يكون ، أن يهيىء التربة الحضارية الطيبة ، والمناخ الحضارى الأنسب ، وأن يتولى ـ بكـــل التفتح ـ غرس نبته الحضارة فيها ، وأن يوفر الرعاية والحماية لهذا الغرس الحضارى ، طلبا وتطلعا الى ثمراته المفيدة • بل ومن شأن الاستقرار أيضا ، أن يتصدى ـ بكل العزم ـ لدرء الخطر وردع العدوان ، الذى يهدد مسيرة الحضارة فى أحضانه ، وأن يتحمس ـ بكل الانفتاح ـ للاضافة اليها ، وصولا الى حد الانتفاع الأمثل بابداعها وثمراتها • وهكذا كان الاستقرار فى رحاب مكة ، منذ وقت طويل قبل الاسلام ، من وراء نشأة حضارية سوية ، فى مناخ حضارى مناسب •

وفى هذه البيئة الحضارية المتفتحة ، وفى هذا المناخ الحضارى المناسب، ظهر الاسلام فى مكة المكرمة ، لكى يتمم الوجه الآخر من الحضارة المادية ، التى ترعرعت فى حضن هذا الاستقرار ، ولكى يطهرها وينقيها من الخطايا ، التى كانت قد تردت فيها • وصحيح أن الاستقرار فى مكة ، كان على المدى الزمنى الطويل ، من وراء مسيرة الحضارة المادية فيها ، ومن وراء نموها وتفتحها ، لحساب الحياة • وصحيح أن الانفتاح الذى أخذت به الحياة فى رحاب مكة ، وقبل به الاستقرار قبل الاسلام ، قد أثرى الحضارة المادية فيها ، وصقل الممارسة الحضارية بين أهلها • ولكن الصحيح أيضا ، أن الاسلام الذى تبنى الحضارة فيها ، وتولى تطهيرها وتطويعها وترشيدها ، قد حبذ منطق الانفتاح لحسابها أو لحساب دورها الوظيفى • بل لقد استثمر الاسلام منطق الانفتاح استثمارا حسنا ، لحساب نشر الدعوة على أوسع مدى من ناحية ، وتوسيع

---

(١) صلاح الدين الشامى : جغرافية العالم الاسلامى • الاسكندرية ، منشأة المعارف ، سنة ١٩٧٤ ، صفحة ١٩٣ •

مساحة الدولة الى أقصى حد ممكن من ناحية أخرى . وهذا معناه أن الاسلام، قد وضع الدعوة الى الله والممارسة الحضارية ، على قدم المساواة ، عندما ترك للعاملين المخلصين على نشر الدعوة ، وعلى توسيع الدولة ، حرية استثمار هذا الانفتاح على أوسع مدى ، والانتفاع بالاحتكاك الحضارى البناء ، روحيا واجتماعيا وحضاريا واقتصاديا .

والانفتاح الذى عاشت فيه مكة ، قبل الاسلام كان مهما ومفيدا بالفعل، لأنه خدم نسيج القاعدة الحضارية ، التى ظهر عليها الاسلام . وسواء كان الانفتاح المتفتح ، من وراء المناخ الحضارى المناسب ، والمكانة الحضارية المرموقة ، التى حققتها مكة ، فى رحاب جزيرة العرب ، أو كانت المكانة الحضارية المرموقة ، والمناخ الحضارى المناسب ، من وراء الانفتاح المتفتح ، الذى عاشت فيه مكة ، فى رحاب جزيرة العرب ، فينبغى أن نتبين كيف فرض هذا الاستقرار المطمئن فى أحضانها ، الضوابط الحاكمة لهذا الانفتاح وكان المطلوب من هذه الضوابط ، أن تكسب الاستقرار القدرة ، لكى يصون باليد القوية الصارمة الحضارة من عدوان البداوة التى تطوقها ، ولكى يقدم باليد المبدعة الأخرى الاسهام المثمر ، والاضافة المفيدة ، التى تطور وتنمى هذه الحضارة . وقد جنت الحضارة فى حضن مكة — على كل حال — ثمرات هذا الانفتاح المتفتح على العالم الخارجى ، وثمرات الانفتاح على جزيرة العرب، فى وقت واحد . ومن ثم نسجت — بكل السخاء — من هذه الثمرات ، الأرضية الحضارية الصلبة ، التى وقف عليها الاسلام .

والانفتاح على العالم الخارجى فيما وراء جزيرة العرب ، كان — بكل تأكيد — مطلبا حياتيا مباشرا للاستقرار ، فى رحاب مكة ، قبل الاسلام . ومن خلال العملية التجارية والوساطة فى هذه العملية ، على مستوى مجتمع الشعوب والاقوام والدول ، أطل الاستقرار فى حضن مكة على العالم من حولها ، وأطل العالم من حول جزيرة العرب على الاستقرار فى حضن مكة . وصحيح أن هذه العملية التجارية ، قد حققت الربح المادى لأهل مكة ، فى دنيا المال والاقتصاد ، وأرست قواعد أولية ، فى هذه الصورة التجارية الدولية ، وفى دور العامل الوسيط فيها . وصحيح أن حركة التجارة المنتظمة وغير المنتظمة ، قد أسقطت ستار العزلة بين مكة والعالم المتحضر ، الذى تعامل فى شكل ما مع حركة التجارة الدولية ، قبل الاسلام . ولكن الصحيح أيضا ، أن حركة التجارة الوافدة الى مكة من الجنوب ، وحركة التجارة الوافدة الى مكة من الشمال ، قد حققت صورا متنوعة من صور الانفتاح المباشر وغير المباشر ، على حضارات الهند وحوض المحيط الهندى

من ناحية ، وعلى حضارات حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى فى وقت واحـــد .

هذا وكانت مكة عندئذ وعاء ينصب فيه هـــذا النشاط ، الذى يشهد لها بالانفتاح . وكان من أهم ثمرات هذا الأنفتاح الواسع المدى ، الاحتكاك الحضارى البناء ، لحساب الاستقرار فى رحابها . وقد أفلحت البيئة البشرية المتحضرة فى رحاب مكة - بكل التفتح - فى أن تنتفع بهذا الانفتاح ، لكى تدعم ثمراته ، مكانة مكة الحضارية ، فى الجزيرة العربية على الصعيد المحلى ، وفى العالم الخارجى على الصعيد الاقليمى .

أما الانفتاح على جزيرة العرب من حول مكة ، فقد كان للاستقرار معه شأن آخر . ذلك أن مكانة مكة الروحية والاقتصادية والاجتماعية قبـــل الاسلام ، قد ألزمت الاستقرار فيها ، بأن ينفتح - بكامل ارادته - على كل أنحاء جزيرة العرب ، وبأن يفتح صدره لكل الناس فيها ، من بدو أو حضر . وصحيح أن مكة كانت أكبر سوق تجارية فى جزيرة العرب من أجل التبادل والتعامل التجارى ، لحساب كل العـــرب سكان الجزيرة . وصحيح أن مكة كانت تمتلك المكانة الروحية ، التى تستهوى أفئدة كل العرب فى أنحاء جزيرة العرب . وصحيح أن الاستقرار فى مكة قد تجاوب مع الناس فى جزيرة العرب ، ووضع الضوابط الحاكمة ، التى التزم بها الدخول اليها والخروج منها ، لكى يؤمن ذاته ، ويحمى المصالح الروحية والتجارية ، فى رحاب مكة . وصحيح أن أهل الجزيرة من البدو والحضر ، قد انصـــاعوا والتزموا بهذه الضوابط الحاكمة للانفتاح والتعامل مع الاستقرار المطمئن فى رحاب مكة . ولكن الصحيح أيضا ، أن انفتاح مكة وأهل مكة على هـــذا النحو ، قد قدم الى كل الوافدين اليها والراحلين عنها جرعات مفيدة من الزاد الحضارى .

هذا وكانت مكة عندئذ مركز اشعاع حضارى بناء ومثمر فى أنحاء جزيرة العرب . وكان من أهم ثمرات هذا الاشعاع الحضارى أن تذوق العرب طعم الحضارة ، واستشعروا جدوى الممارسة الحضارية . وقد أفلحت البيئة البشرية المتحضرة فى رحاب مكة - بكل التفتح - فى أن تنتفع وتنفع العرب فى أنحاء الجزيرة بهذا الانفتاح ، لكى تدعم ثمراته ، دورها القيادى البناء بين العرب ، روحيا واجتماعيا وحضاريا واقتصاديا .

ولأن من وراء الاســـلام ، وهو وليـــد فى رحاب مكة المكرمة والمدينة

المنورة ، هذا العمق الحضاري العريق ، ولأن في أعماق العقيدة قوة دفع حضارية أصيلة تنشط وتحفز الاجتهاد البناء ، ولأن في جوهر الاسلام تقويم موضوعى للابداع الحضارى ، وتطلع الى جدواه ، ولأن تحت أقدام الاسلام أرضية حضارية صلبة ومتفتحة للأخذ والعطاء ، تبنى الاسلام الحضارة . وأصبح من شأنه ، أن يتولى أمر الحضارة ، وأن يعمل على تطهيرها من الخبيث العالق بها ، وأن يحفز الابداع على تطويرها وتنميتها . كما أصبح من شأنه أيضا ، أن يحتضن الفكر الانسانى البناء ، الذى يصنع الابداع الحضارى ، ويضيف اليها ويرشد مسيرتها ، فى الاتجاه الصحيح الى ما هو أفضل ، لحساب الانسان .

وفى القرآن الكريم ، آيات بينات(١) ، فيها خطاب صريح لأولى الألباب ، ودعوة ملحة لاعمال العقل وشحذه ، وتحريض حافز على التدبر وحسن التفكير ، وتكريم واعلاء لشأن أهل الفكر والمفكرين ، وصولا الى الفكر والصواب ، لحساب الانسان . والخطاب والدعوة والتحريض والتكريم ، كلها علامات تدل على أن الاسلام ، قد أطلق سراح الفكر — بكل التفتح — ، وأعطاه الأمان ، لكى يتحرر من عقدة الخوف ، وحفظه وكرمه ، لكى ينطلق ويستجيب لارادة الحياة ، ولكى يبدع ويبتكر ويضيف كل جديد مثمر ، وكل مفيد متفتح الى التراث الحضارى ، لحساب الانسان فى الحياة الأفضل .

وعندما فتح الاسلام الأقطار والأمصار ، وكتب الغلبة والنصر والتفوق للدولة ، وعندما انتشر الاسلام على الصعيد العالمى فى آسيا وافريقيا وأوروبا ، وكتبت الريادة والقيادة للعقيدة ، قبل الاسلام بالانفتاح ، وأقبل — بكل التفتح — على التراث الحضارى المادى فى هذه الأقطار والامصار ، وأمن بالفكر الذكى البناء ، الذى تولى صنع وابتكار الاضافة والابداع المثمر ، الى هذا الرصيد من التراث . وصحيح أن الاسلام خلع عن هذا التراث الحضارى والمادى رداء الكفر ، وجرده من الرجس والخطيئة والضلال . وصحيح أن الاسلام ألبس الحضارة المادية عندئذ ، لباس الايمان والطهر والعفاف .

---

(١) جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات) وقوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقوله تعالى (قل ربى زدنى علما) .

وجاء فى الحديث الشريف ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج) و (من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع) .

ولكن الصحيح أن الاسلام الذى أبقى على هوية هذا التراث فى كل قطر من الأقطار ، وأقر له الاعتزاز والتشبث بذاته ، قد بلغ الذروة عندما تولى :

أولا - تربية وتأمين المفكرين المسلمين ، وصقل الصفوة الممتازة من رجال الفكر ، الذين أخذوا - من غير أن تلوى أعناقهم - باللغة العربية وعاء يحتوى فكرهم البناء وابداعهم المرموق ، لكى تكون الثقافة عربية اسلامية .

ثانيا - حفز ومظاهرة هذه الصفوة الممتازة ، عـلى مواصلة المسيرة الفكرية ، وتسجيل الاضافات ، لكى يتحقق التقدم لحساب النمو الحضارى والعلمى ، ومصلحه الانسان الحقيقية فيه .

وهكذا ، يجب أن نتبين كيف كان الاسلام - بكل التفتح - من وراء الحوافز ، التى لها قوة الدفع الديناميكية الفعالة ، وهى تنشط الفكر الانسانى كله . ومن بعد أن أعاد الاسلام الفكر الى صوابه ، ومن بعد أن أطلق الاسلام سراحه ، أمنه على ذاته ، وأجزل له العطاء ، لكى يثمر ويعطى لحساب الحياة. كما يجب أن نتبين كيف أقبل الاسلام على استثمار حصاد أو عطاء هذا الفكر الانسانى الثمين . بل انه من بعد أن تطهر الفكر الذى ينمى العلم ويطور الحضارة من الكفر وتملص من الرذيلة ، تبنى الاسلام هذاالفكر ورشده وبصر مسيرته الى ما هو أفضل .

وهكذا ، يجب أن نتبين مرة أخرى ، كيف أن موقف الاسلام الايجابى من الفكر والمفكرين ، والقبول الحسن لحصاد الفكر المفيد ، قد ألزم التفكير بمسيرة الخير والرشاد ، وألزم المفكرين بالطهر والنقاوة . ومن ثم يحق لنا أن نبحث عن اجابة عن السؤالين الآتيين :

« أولا - هل صحيح أن الاسلام قد اهتم بالفكر الجغرافى ، وأن الفكر الجغرافى قد استحق حصة من قوة دفع الاسلام ، وأنه نال بالفعل هذه الحصة من الوقت المناسب ، لكى يسجل الاضافة ؟

ثانيا - هل صحيح أن الاسلام قد تطلع من خلال احياء الفكر الجغرافى وتنشيطه وتوجيهه فى الاتجاه السليم ، الى أهداف بعينها ، لحساب الدين والدولة ؟

وبهذا المنطق ، ينبغى أن نتبين كيف ومتى استحق الفـكر الجغرافى - وهو قطاع من الفكر الانسانى العام - اهتمام الاسلام الدين والدولة ،

وكيف تجل هذا الاهتمام ، لكى يدفع المسيرة فتمضى قدما الى الأمام ، ولكى تسجل الاضافة والابداع الى الفكر الجغرافى المهجور ؟ كما ينبغى أن نستشعر ايضا ، ماهية وكنه الأهداف التى تطلع اليها الاسلام ، وكيف تشوق الى جنى ثمراتها الطيبة ، من خلال الابداع الذى يسجله الفكر الجغـــرافى العـــربى البناء ، لحساب الدين والدولة ، وهى تطلب انتشار الاســـلام على أوسع مدى ، وتأمين علاقتها ومكانتها وسلامتها فى مجتمع الدول ، ولحساب الحياة ومصلحة الانسان فيها ، وهو يطلب التعايش والحياة الأفضل فى كل مكان على الأرض ·

ومن أجل ذلك ــ على كل حال ــ يكون المطلوب أن نتبين كيف تولى الاسلام اثارة الحاسة الجغرافية عند المسلمين ، لكى تكون نقطة البداية ·ومن ثم نتبين بالتالى :

١ ــ كيف تولى الاسلام تكوين وتربية أجيـــال من صـــفوة المفكرين الجغرافيين المسلمين ؟

٢ ــ كيف بث الاسلام فيهم حب الفكر الجغرافى والاهتمام به ؟ ·

٣ ــ كيف حمل الاسلام هذه الأجيال من الصفوة المرموقة ، مسئولية ريادة الفكر الجغرافى ، وقيادة مسيرته الخيرة ، وصولا الى الأهداف المثلى التى تطلع اليها ، بشكل أو بآخر ؟ ·

ولكى نجيب على ذلك ، يجب أن نفطن الى أن الفكر الجغرافى كان محظورا زهاء ثمانية قرون من عمر الحياة ، وأن حصاد الفكر الجغرافى الصحيح كان مهجورا ، لأن الكنيسة كانت تطارده وترفضه · كما ينبغى أن نفطن أيضا الى أن الفكر الجغرافى المسيحى السائد كان ساذجا ترفضه العقلية الاسلامية المتنورة · وهذا معناه أن الاسلام الذى استشعر هذا الواقع واختار طريقه بكل الحصافة ، قد تبين كيف أن مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح متوقفة عند النقطة التى وصل اليها بطليموس الاسكندرانى بعد ميلاد المسيح ، وكيف أن جذوة انجاز الفكر الجغرافى اليونانى القديم ، قد خبت وضاع توهجها ، فى مواجهة الانكار والاستنكار المسيحى العنيد · وهذا معناه أيضا ، أن الاسلام استشعر ، كيف افتقد الانسان ثمرات الفكر الجغرافى وانجازاته المفيدة ، وكيف اقتنع ــ على غير ارادة الحياة ــ برصيد الحاسة الجغـرافية الكامنة فى ذاته ، لكى تبصر التعايش فى المكان ، أو لكى ترشد الخطوات والانسان يسعى

في الأرض ، وينتقل من المكان الى المكان الآخر .

هذا ، وحال ظهور الاسلام ، واطلاق سراح الفكر وتامينه ، لم يجد الاسلام الفكر الجغرافي الصحيح المهجور ، لكي يتبناه مباشرة ويعيد اليه صوابه ، ولم يجد أيضا الفكر الجغرافي غير المسلم أو المسلم جاهزا ، لكي يتلقفه ويؤمنه ويهيىء له المكان المناسب ، فيواصل مهمته ويستأنف دوره الفكرى وانجازه ، ويقود مسيرة الفكر الجغرافي . ومن ثم أصبح الاسلام مسئولا على مستويين ، قبل الفكر الجغرافي ومسيرته .

وعلى **المستوى الأول** ، كان الاسلام مسئولا عن اثارة الحاسة الجغرافية من جديد ، ومسئولا عن تنشيطها ، لكي يتفجر في الانسان الإستشعار الحيوى البناء بالعوامل الجغرافية في المكان . وهذا — في حد ذاته — سبيل أمثل لانعاش الفكر الجغرافي ، وبعثه من رقدة العدم .

وعلى **المستوى الثاني** ، كان الاسلام مسئولا عن تنشئة وتكوين وتربية الصفوة من المفكرين المسلمين ، الذين يتذوقون حلاوة المعرفة الجغرافية ، وينكبون على طلبها ، ويتولون احياء الفكر الجغرافي المهجور وتصحيح أخطائه ، لكي تمضي المسيرة الجغرافية قدما ؛ عربية اسلامية ، في الاتجاه الصحيح لحساب الانسان .

وفي اعتقادي أن الاسلام ، قد تولى بالضرورة — اثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية في المسلمين ، وهم يواجهون التحدى الكافر في داخل الجزيرة وخارجها ، أو وهم يجوبون الأرض في أنحاء الدولة الاسلامية ، أو وهم ينشرون الدعوة الى الله على الصعيد العالمي فيما وراء الأرض الاسلامية . وكان المطلوب من اثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية ، أن يجني المسلمون ثمرات نافعة من خلال الانفتاح على الأرض وعلى الناس في كل مكان . وكان المطلوب أيضا — بكل تأكيد — أن تظهر الصفوة الممتازة من بين صفوف المسلمين ، وأن تنكب هذه الصفوة على احياء الفكر الجغرافي الصحيح ، وأن تتولى الاضافة اليه واثرائه بكل جديد ومبتكر ، لحساب الانسان .

— — — — — — — — —

الاسلام واستنفار الحاسة الجغرافية :

فى القــرآن الـكريم آيات كونية كبيرة(١) ، تثير الحاسة الجغرافية ، وتستنفر الادراك الجغرافى ، عندما تتحدث عن خلــق السماوات والأرض ، وتصور ابداع الخالق من وراء التفاعل بين الانسان والأرض . ومن شأن هذه الاثارة والاستنفار أن تلهب التفكير الجغرافى ، وتحفز التدبر فى خلق الله وتفتح باب الاجتهاد فى ادراك جغرافية المكان . بل ومن شأنها أيضا ، أن تمثل دعوة ملحة فى الى اعمال العقل وشحذ الفكر ، وتفتح باب الاجتهاد فى ادراك وتدبر وضع ومكان الأرض فى اطار الكون الفسيح . وفى حــديث رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) ، تلميح كاشف لقيمة المعرفة الجغرافية ، التى تحققها اثارة الحاسة الجغرافية فى الانسان .

وهذا معناه أن اثارة واستنفار الحاسة الجغرافية ، كان من أجل طلب المعرفة الجغرافية ، وأن طلب المعرفة الجغرافية من وجهة نظر الاسلام هدف فى حد ذاته . ذلك أن طلب هذه المعرفة الجغرافية يفتح باب الاجتهاد فى توسيع دائرة المعرفة بالأرض والناس فى المعمور من كل الأرض ، ويفتح باب الأمل فى تبليغ دعوة الاسلام الى الناس فى هذه الأرض على أقل تقدير . ومعناه مرة أخرى أن الاسلام ، كان صاحب مصلحة مبــاشرة فى المعرفة الجغرافية ، لحساب الدين والدولة .

وهكذا نتبين كيف كانت اثارة واستنفار الحاسة الجغرافيــة ، التى تستشعر الأرض التى يقع عليها الاسلام ، وتحتوى دولته الصغيرة الوليدة

---

(١) نذكر من هذه الآيات قول الله تعالى (ان فى خلق السموات والأرض ، واختــلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المســخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) سورة البقرة الآية ١٦٤ .

(٢) جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال (اطلبوا العلم ولو فى الصين) . وجميل أن يحمل دعوة الى العلم . ولكن الأجمل أن يكشف عن حقيقة معرفة الرسول بالصين . ولو كان مقصد الرسول (صلعم) من ذكر الصين المسافة والمشقة التى يتكبدها المسافر الى الصين ، فقد صدق حسه الجغرافى بموقــع الصين الجغرافى . وان كان مقصد الرسول (صلعم) من ذكر الصين الناس والتقدم العلمى والحضارى فيها ، فقد صدق حسه الجغرافى أيضا بالواقع البشرى الحضارى فيها .

في حضن المدينة المنورة ، أو دولته الكبيرة في آسيا وافريقيا وأوروبا ، مطلوبة ــ بكل الضرورة ــ لكي تكون الثمرة التى تخدم الاسلام وهو يتعايش ويقبض على زمام الواقع الحياتى ، روحيا واجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ، في أى مكان • بل ان اثارة واستنفار الحاسة الجغرافية ، التى ترصد الأرض والناس ، وهى مسألة يتطلع اليها الاسلام ، كانت مطلوبة ــ بكل الحاح ــ لكى تقدم الثمرة التى تسعف انتشار الاسلام وابلاغ دعوته الخيرة الى الناس فى كل مكان • وهذه كلها علامات لا تخطىء ولا تضلل أبدا ، لأنها تنبىء ــ بكل الصدق ــ كيف تطلع الاسلام الى الفكر الجغرافى الكاشف عن الأقطار والأمصار ، والى حصاد هذا الفكر البناء ، والى انجازه المفيد عن الأرض والناس فى أنحائها •

وفى مجال استشعار أهمية الحاسة الجغرافية وجدوى استنفارها ، لكى تفجر الفكر الجغرافى ، وفى مجال استثمار ثمرات هذه الحاسة وانجازها المفيد الذى لا يضلل أو يخذل الواقع الحياتى ، نذكر ثلاث ثمرات ، من وراء ثلاثة مواقف حاسمة فى سيرة الاسلام ، لكى نتبين ، كيف رشدت هذه الحاسة كل موقف من هذه المواقف ، وكيف قدمت الانجاز الذى وجه التحرك الاسلامى فى الاتجاه الأفضل • وتتمثل هذه المواقف الحاسمة فى :

أولا ــ الموقف الأول ، كان يوم أن عقد الرسول صلى الله عليه وسلم النية على الهجرة ، لكى يتحرر الاسلام من بطش الكفر فى مكة ، ولكى يتخذ الاسلام فى المهجر وضع الاستعداد لمواجهة الكفر فى مواجهة حاسمة ورادعة • وصحيح أن الرسول (صلعم) ، فضل موقع الطائف ، لأنه الموقع الجغرافى الحاكم الأمثل ، فى مواجهة مكة والتحدى الكافر فيها • ولكن الصحيح أيضا ، أن الهجرة كانت الى المدينة ، وهى الموقع البديل الحاكم ، بعد أن تجلى رفض الطائف القاطع ، لتحمل المسئولية والاستجابة لنداء الاسلام • والمهم أن حسن استثمار الحاسة الجغرافية ، التى تنبىء بمكانة وجدوى كل المواقع الجغرافية الحاكمة للحركة من والى مكة ، كانت ــ فى الغالب ــ من وراء اختيار الموقع الأنسب ، والموقع البديل للهجرة(١) •

ثانيا ــ الموقف الثانى ، كان يوم أن عقد الرسول صلى الله عليه وسلم النية ، على ضرب التحدى الكافر فى مكة • وقد اختار الاسلام موقع بدر

---

(١) محمد سليم العوا : النظام السياسى للدولة الاسلامية ، صفحة ٢٢ •

الجغرافى ، من أجل هذه المواجهة ، التى انتصر فيها الاسلام بالفعل . ومن وراء هذا الاختيار ، ينبغى أن نستشعر صدق الحاسة الجغرافية ، وهى لا تضلل المسلمين ، لدى استشعار خصائص المكان عند بدر ، وكيف ظاهر الموقع الجغرافى جيش المسلمين ، وكيف حاربت معهم الأرض ، وكيف دعمت حملة الايمان على الكفر فى المكان المنتخب . وبالمقارنة ، نتبين كيف أن افتقاد صدق هذه الحاسة الجغرافية ، وعدم اختيار مكان المعركة ، يوم أن فرض التحدى الكافر على المسلمين ، وقتها ومكانها فى موقـــع أحد ، يتحمل بعض المسئولية فى خسارة الايمان ، لأن الأرض لم تدعمهم ولم تحارب معهم .

ثالثا ــ الموقف الثالث ، كان يوم أن فتح الله على المسلمين ودخلوا مصر ، وقد عقد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه النية ، على ضمها الى بنيان الدولة الاسلامية المظفرة . وصحيح أن صدق الحاسة الجغرافية ، كان من وراء اصرار عمر بن العاص وتوصيته ــ بكل الالحاح ــ بفتح مصر . ولكن الصحيح أيضا ، أن حسن استثمار صدق وجدوى ما أملته الحاسة الجغرافية ، كان من وراء انجاح الحمله عليها ، ومن وراء الحـكم الاسلامى الرشيد فيها . وخطاب عمر بن العاص الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، تصوير جغرافى موجز ، واعلام مركز صريح ، يكشف عن شخصية مصر . وقد تضمن هذا التصوير الجامع وصف الارض والنـــاس ، وطبيعة وجدوى التفاعل الحياتى بين الناس والارض . وهو ــ بكل تأكيد ــ تصوير ممتاز ، نابع من الاستشعار الذى أملته الحاسة الجغرافية . وهو بكل تأكيد ــ تصوير مفيد ، لأنه بصر الحكم الرشيد بشخصية مصر والواقع الجغرافى بشقيه الطبيعى والبشرى ، وهو يتولى صياغة أسلوب الحكم الأنسب ، لكى يؤدى دوره البناء ، لحساب الدين والدولة ، فى وقت واحد .

وبهذا المنطق ، تطلع الاسلام دائما الى ثمرات الحاسة الجغرافية ، وطلب الادراك الجغرافى للمكان ، الذى تنبىء به هـــذه الحاسة ، لحساب الدين والدولة ، فى وقت الحروب وردع العدوان ، وفى وقت السلم وصنع السلام . وفى اطار التلاحم العضوى بين الدين والدولة ، بصرت هذه الحاسة ــ بكل الصدق ــ الادراك الجغرافى وطلب المعرفة بالمكان وخصـــائصه الطبيعيـــة والبشرية ، وكشف النقاب عن الضوابط الحاكمة للواقع الحياتى فى المكان ، لحساب المصلحة المشتركة بينهما .

وصحيح أن انتصار الدين كان انتصارا لحساب الدولة ، وأن انتصار الدولة كان انتصار لحساب الدين . ولكن الصحيح أيضا ، أن حسن استثمار

المعرفة الجغرافية التى تنبيء بها الحاسة الجغرافية عن المكان ، وعن الضوابط الجغرافية الحاكمة لخط سير الحياة فى المكان ، كان ـ بكل تأكيد ـ من وراء كل العوامل الايجابية ، التى اشتركت فى صناعة الانتصار والتفوق ، فى الحرب والسلام . بل ان هذا الاستشعار الذكى كان ـ بالضرورة ـ من وراء التحرك الاسلامى الموفق الى ما وراء حـــدود الدولة الاســـلامية فى مســـيرة الخير ، أهم العوامل التى أنجحت انتشار الدعوة الاسلامية بين الناس ، على صعيد أوسع كثيرا من الصعيد الذى شغلته الدولة فى أوج قوتها . وهذا معناه أن الحاسة الجغرافية ، كانت بصيرة الاسلام ، وهو يتصدى للعدوان ويبطـــل مفعوله الخطر ، أو وهو يتصدى للحكم الرشيد ويفرض النظـــام فى دولته العظمى ، أو وهو يتصدى لنشر الدعوة على المدى الأوسع فى جزيرة العالم .

وفى الحرب الوقائية ، كانت المعرفة الجغرافية مفيدة ، وهى تضع الأرض فى وضع الاستعداد ، لكى تحارب مع المسلمين . وكان من شأن الحاسة الجغرافية ، أن تبصر وترشد القيادة ، وهى توجه المعارك ضد الكفر المعلن ، الذى يرفض الدين ، وضد الرفض السياسى ، الذى يعادى الدولة . ويمكن أن نجد المثل ، والاسلام يحارب أمجد معاركه ويتصدى للكفر فى جزيرة العرب على الصعيد المحلى . كما نجد المثل مرة أخرى ، وهو يخوض أعظم معاركه ويتصدى للرفض السياسى فى مجتمع الدول ، فيما وراء جزيرة العرب على الصعيد الاقليمى .

وفى جزيرة العرب ، تطلعت دولة الاسلام ، وهى وليـــدة تواجـــه التحدى ، الى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكى تحبط التحدى وتكسب المعركة . ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف تحول الاسلام وهو فى خضم المعارك الشرسة ضد التحدى الكافر المتشبث بشكل مفاجيء ، وقبل أن يفرغ ـ بعد أن فتح مكة ـ تماما من تنظيم أوضاعه الجديدة ، لكى يتحرك بكل الحسم الى تبوك . وهناك على أرض تبوك خاض معركة هامة ، وانتزع النصر فيها لحساب الدين والدولة .

وصحيح أن الانتصار فى تبوك قد وسع من قاعدة الدولة الوليدة ، فى حضن المدينة المنورة الحانى . وصحيح أن هذا الانتصار فى تبوك قد أضاف اضافة هامة ومطلوبة ، الى رصيد العزة للدين والدولة فى وقت واحد . ولكن الصحيح أيضا أن هذا التحرك ، وهذه الحرب ليست من أجل العدوان ، وأن هذا الانتصار كان مطلوبا فى هذا الوقت بالذات ، لكى يؤمن الاسلام ، الذى استشعر ريح التحدى تهدد من خارج الجزيرة ، مصير دولته ووجوده .

وهذا معناه انه عندما تخوف من أن ينقض على ظهره خطر مفاجىء ، وهو ينظم دولته بعد أن فتح مكة وضمها الى قبضته ، آثر أن يأخذ بزمام المبادرة وينتصر في يوم تبوك .

وفي اعتقادى على كل حال أن استشعار ما تنبىء به الحاسة الجغرافية عن موقع تبوك الجغرافى ، فى شمال غرب جزيرة العرب ، وكيف أنه موقع جغرافى حاكم للحركة ، قد حفز الرسول القائد صلى الله عليه وسلم ، لأن يخوض هذه المعركة فى هذا الموقع ، لكى ينتصر الاسلام ويضيف جدوى هذا الانتصار ، الى رصيد الاستعداد والتجهيز ، من أجل مواجهة مرتقبة ، على الصعيد الاقليمى خارج جزيرة العرب ، لحساب الدين والدولة . ذلك أن الانتصار فى تبوك ، وحيازة هذا الموقع الجغرافى الحاكم ، معناه ثمرة مفيدة عسكريا وسياسيا . ومن شأن هذه الثمرة المفيدة ، أن تحقق هدفين متكاملين هما :

أولا — أن يمسك الاسلام بزمام السيطرة والتحكم فى الطريق ، من والى جزيرة العرب ، سواء كان التحرك سلميا اقتصاديا ، أو حربيا عدوانيا .

ثانيا — أن يمتلك الاسلام نقطة الانذار المبكر ، التى ترقب التحرك الوارد والشارد ، ضد الدين والدولة ، وهو يضمر الشر والرغبة فى العدوان ، من خارج جزيرة العرب .

ومن صفحات التاريخ السياسى المضيئة لدولة الاسلام المظفرة ، التى تحكى صور التصدى للتحديات ، نعلم بالضبط جدوى هذا الانتصار الحاسم فى تبوك . بل وندرك معنى تواجد القوة الاسلامية فيها ، على الطريق الى الشام . وحيازة هذا الموقع الجغرافى الحاكم للحركة ، قد أمن مصالح الاسلام فى الوقت المناسب ، وغطى ظهره وهو يتأهب لخوض أخطر معاركه النفسية ، ضد فلول الكفر بعد فتح مكة ، وصولا الى تثبيت وجود دولته المظفرة فى كل أنحاء جزيرة العرب .

وخارج جزيرة العرب ، تطلعت دولة الاسلام ، وهى تخوض الحرب ضد الفرس والروم ، لكى تحبط التحدى المعلن صراحة ، الى ثمرات الحاسة الجغرافية التى ترشد المواجهة ، وتسعف المسلمين فى حسم المعارك والانتصار . ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف اقتحم الاسلام — بكل الجسارة — أرض فارس ، وأخذها عنوة ، وهو يعرف

بأن الأرض وعرة وشديدة التضرس ، لكى ينتزع النصر المبين · والمعـــرفة بالأرض معناه ، أن تحارب الأرض مع المسلمين ، وليس ضدهم · ونذكر فى نفس الوقت ، كيف أحجم الاسلام عن التوغل فى آســيا الصغرى وضرب الروم فى عقر دارهم بعد انتصاره فى الشام ، وكيف فضل أن ينازل الروم وأن يقهرهم فى موضع آخر ·

وصحيح أن الاسلام أحجم عن اقتحام آسيا الصغرى ومواجهة بيزنطة فى عقر دارها ، من غير أن يتخوف خوض المعركة فى الأرض الوعرة ، وهو صاحب التجربة فى أرض فارس الأكثر وعورة · وصحيح أن دولة الاسلام قد التزمت بمواجهة دولة بيزنطة التزاما قاطعا لا رجعة فيه ، لكى تقهرها وتبطل مفعولها السياسى · ولكن الصحيح أيضا أن القـــائد المظفر عمرو بن العاص رضى الله عنه ، أعطى دولة الاسلام حق اختيار أرض المعركة ، ضد بيزنطة · ولأن عمر بن العاص كان عارفا بمكان مصر ، فقد آثر أن يحارب هذه المعركة الأهم والأجدى ضد بيزنطة فى مصر ·

وفى اعتقادى ، أن الخبرة الجغرافية بمصر(١) ، قد ألهمت عمرو بن العاص رضى الله عنه ، بقيمة أن يحارب وتحارب فى صفة الأرض والناس فى هذه المعركة ، وبجدوى الانتصار فى مصر وما يمكن أن يتأتى تأسيسا على هذا الانتصار ، لحساب الدين والدولة · ذلك أن الانتصار على بيزنطة فى مصر ، يعنى خصما ونقصانا من حساب بيزنطة ومصلحتها الاقتصادية وعمق الدولة الاستراتيجى فى مصر ، ويعنى فى نفس الوقت اضافة وزيادة الى مصلحة الاسلام الاقتصادية وعمق الدولة الاستراتيجى فى مصر · هـــذا بالاضافة الى أن ضم مصر الى كيان الدولة الاسلامية ، يكفل فرصة الانطلاق غربا ، طلبا للتوسع على الساحل الافريقى ·

هذا ومن شأن الحاسة الجغرافية ، التى بصرت ورشدت هـــذا التحرك العسكرى الحصيف ، أن تبصر التوسع الاسلامى على الساحل الافريقى غرب مصر ، لكى يحقق المسلمون هدفين متكاملين هما :

أولا ــ مطاردة الوجود البيزنطى المهزوز فى شمال افريقية ، وانهاك واستنزاف قوة هذه الدولة الهرمة ، وحرمانها حرمانا كليا من قاعدتيـــا

---

(١) هناك من يقول ان عمرو بن العاص ، كان على اتصال ومعرفة بمصر قبل الاسلام · ويقول البعض الآخر انه كان صاحب وكالة تجارية مقرها فى مدينة الاسكندرية ·

الاقتصادية الافريقية ، ومن تفوقها البحرى فى البحر المتوسط ٠

ثانيا — امتلاك جبهة عريضة على البحر المتوسط ، وتوسيع قاعـــدة الدولة الاسلامية ، ودعم بنيانها الاقتصادى ، ودعم وجـــودها البحرى فى البحر المتوسط ٠

ومن صفحات التاريخ السياسى المضيئة لدولة الاسلام المظفرة ، التى تحكى صور التصدى للتحديات المعلنة من خارج جزيرة العرب ، نعلم بالضبط جدوى فتح مصر كنانة الله فى أرضه ، وجدوى حيازة جبهة عريضة على البحر المتوسط ، على المدى القصير والبعيد معا ٠ هذا وقد أمن هذا الوضع الاسلام — بكل تأكيد — وهيأ له أن ينطلق — بكل المرونة — لكى ينتشر جنوبا عبر الصحراء الكبرى الى القلب الافريقى ، ولكى يتحرك شمالا عبر البحر المتوسط الى أطراف من الجنوب الأوروبى ٠

وبهذا المنطق ، نقول هل من حقنا أن نتصور كيف كانت ارادة تأمين الاسلام فى الحرب على كل المستويات ، تستنفر الحاسة الجغرافيـــة ، لكى نجنى ثمرات المعرفة الجغرافية التى تبصر وترشد القيادة المتنورة ، وكيف كانت هذه القيادات المتنورة تضع العامل الجغرافى فى الحسبان ، لـــدى خوض المعارك والتطلع الى الانتصار فيها ؟

ولأن هذه القيادات المتنورة ، قد رافقت الاسلام ، منذ ن كانت دولته وليدة ، وهى تواجه التحدى الكافر فى مكة وتنازله ، الى أن حازت مكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول ، نتبين كيف كان استنفار الحاسة الجغرافية لكى ترشد المعارك وتبصر الحرب الوقائية ، دليلا لا يكذب ولا يضلل ٠ بل انه كان — بكل تأكيد — الاستنفار الموفق الذى أثمر ، عندما تولى ترشيد ارادة تأمين الاسلام فى الحرب لحساب الدولة ، وترشيد ارادة تأمين الدولة فى الحرب لحساب الاسلام ٠ كما كان هذا الاستنفار الحافز الأعظم الذى أطلق العنان للفكر وأنجب الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، ونشط الاهتمـــام بثمرات الفكر الجغرافى ، لحساب الانسان ٠

وفى السلم ، الذى يجنح اليه الاسلام ، كانت المعرفة الجغرافية أيضا ، دليلا لحساب الدولة ، وهى تباشر الحكم الرشيد وتخدم مصالح الأمة أو هى تؤمن الذات ، وتؤكد السيادة الاسلامية على الأرض فى أنحاء واسعة عـــلى الصعيدين الافريقى والآسيوى ٠ وكان من شأن الحاسة الجغرافية ، أن ترشد هذه المعرفة الجغرافية ، وأن تقدم الثمرات لحساب الحياة الأفضل فى الدولة ٠

ومن أجل البيان الكاشف لهذا المعنى وموضوعيته ، نذكر كيف أدخل الاسلام في حوزة الدولة والأقطار والامصار ، وكيف ضم الى بنية الدولة مساحات كبيرة من الأرض • وتطلعت الدولة عندئذ الى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكي تكفل تماسك نسيج الدولة المادى والاقتصادى • كما نذكر كيف انتشر الاسلام بين الناس في الدولة وخارج الدولة ، ومن غير عنف و قهر • وقد تطلعت الدولة مرة أخرى الى ثمرات الحاسة الجغرافية ، لكي تعمل على تلاحم مصالح الناس في الدولة ، ويشتد ويقوى بنيانها البشرى • وهذا معناه أن الاسلام تلمس القوة للدين من خلال المعرفة الجغرافية التى تكفل تماسك بنيان الدولة طبيعيا وبشريا ، وأن الاسلام تلمس القوة للدولة من خلال المعرفة الجغرافية ، التى تستكشف مصـــالح الناس المشتركة في وجود الدولة •

وصحيح أن الاسلام قد باشر في الدولة الحكم بالشرع ، وجعل من الفكرة الدينية السامية نواة مثلى ، تستقطب الولاء ، الذى يعلى ارادة الله في الأرض ، وتؤكد سيادة الدولة على الأرض ، وتؤمن مصالح الأمة المشتركة في الأرض • وصحيح أن الاسلام أخذ من الشريعة وبالشريعة ، طلبا للعدل والمساواة بين الناس ، لكي يدعم دور وأداء الحكم الرشيد ، ويقوى ساعد النظام الحاكم • في أنحاء الدولة • ولكن الصحيح أيضا ، أن استنفار الحاسة الجغرافية ، وحسن استثمار الانفتاح على المعرفة الجغرافية بالأرض وبالناس في أقطار الدولة ، وقبول الدين بهـــذا الاستثمار ، قد أيد وظـــاهر الحكم الرشيد ، وبصره وسدد خطاه ، وجعل منه الحاكم الموفق ، الذى يتشبث به الولاء ، والذى يجد فيه هـــذا الولاء مصالحه المشتركة العليا ، في الحيـــاة الأفضل •

وفي اعتقادى — على كل حال — أن المصلحة المشتركة في هذا الحكم الرشيد في الدولة الاسلامية الذى التزم بأقصى قـــدر من التوفيق بين مصالح الناس الخاصة في الأقطار ، ومصالح الناس العامة في الدولة ، قد عززت ولاء الناس للدين ودوره البناء في الدولة • وكان ذلك — من غـــير شك — من وراء دعم صرح الدولة وتأكيد وجودها السياسى السوى ، وترسيخ مكانتها الممتازة في مجتمع الدول •

هذا ، ومن خـــلال الاستشعار الجغرافى الذكى الكاشف ، لأوضـــاع وأحوال الناس في كل قطر من أقطار الدولة المتباينة ، ومن خلال الاستشعار الجغرافى الحصيف العارف ، بالضوابط الحاكمة لانمـــاط الحيـــاة المتنوعة

ومسيرتها في كل قطر من أقطار الدولة ، تخير الحكم الرشيد الواعي في الدولة — بكل الحنكة — الأسلوب الأنسب للحكم القطرى ، في كل قطر من أقطار الدولة . وكان المطلوب — بكل تأكيد — التزام العلاقة المثلى التي تنسق بين ، الحكم القطرى الذي يقوده الوالي ، والحكم المركزى العام الذي يقوده أمير المؤمنين . بل وكان المطلوب أيضا ، الحد الأمثل من التوفيق الحقيقي بين ، حرص كل قوم في كل قطر على ذاته الخاصة من ناحية ، وحرص الأمة التي تجمع أوصال هذه الاقوام من ناحية أخرى ، لكي يتماسك بناء الدولة ، وتتأكد ذاتها الكلية .

واستشعار شخصية كل قطر أو مصر ، في اطار شخصية الدولة ، واستشار مكانة كل قطر أو مصر في اطار مكانة الدولة ، واستشعار الضوابط الحاكمة لأوضاع ومصالح وآمال كل قوم من الأقوم في الاطار الجامع لكيان الدولة ، بقصد التوفيق وعدم التعارض بين الأقوام فيها ، لا يتأتى الا من خلال حسن استخدام ثمرات الحاسة الجغرافية التي لا تخطىء ، ولا تضلل . ومن شأن هذه الحاسة الجغرافية — على كل حال — ، أن تتحسس المكان في كل قطر ، ون تتلمس الشخصية في كل قطر ، وأن تقوم وجود ومصالح القوم في أحضان المكان في كل قطر ، لكي ترشد — بكل الفطنة — الحكم الاسلامي الرشيد في كل قطر ، لحساب الترابط والتكامل بين الأقطار المتباينة في الدولة .

وهكذا ، كان اختيار وتطبيق الأسلوب الأنسب للحكم القطرى في كل قطر ، تحت رعاية الدولة ، وكان تجاوب الأقوام — بكل الولاء — مع الحكم المركزى في قبضة الدولة ، حصاد حقيقي مفيد للتفكير الجغرافي السليم ، الذي يحسب حساب كل العوامل التي تؤكد أحقية كل قوم في قطره ونمط حياته ، وينسق بين اعتزاز كل قوم بذاتهم في حضن الوطن الصغير ، واعتزاز كل الأقوام بالتداخل والاشتراك في ذات الدولة ، في حضن الوطن الكبير(١) .

---

(١) لقد حافظت الدولة الاسلامية الكبرى على وجودها السوى المتماسك الى اليوم ، الذى صرفت فيه الحكومة النظر عن التوفيق بين ذات الأقوام التى تنخرط فى بنيانهـا البشرى ، وذات القوم التى تقبض على زمام السلطة فى الدولة . وهـذا معناه أن رفض الانصات الى ما أملاه الادراك الجغرافى ، هو الذى فجر الصراعات الداخلية بين الأقوام ، وتسبب فى اضعاف السلطة ، وأدى الى تمزيق أوصال الدولة فى نهاية المطاف .

وبهـــذا المنطق مرة أخرى ، هل من حقنا أن نتصور أن ارادة تأمين الاسلام فى السلم ، كانت تستنفر الحاسة الجغرافية ، طلبا لثمرات مفيدة ، ترشد الفكر القائد المتفتح وتبصره ، لكى يضع العامل أو العوامل الجغرافية فى الحسبان ، لدى بناء وترسيخ الحكم الرشيد ، ولدى تأمين مسيرة الحياة فى الدولة ؟

ولأن هذه الارادة الملهمة قد رافقت الاسلام ، منذ أن كان وليدا فى حضن دولته الصغيرة فى المدينة المنورة ، الى أن صنع الدولة الكبرى فى اتساعها الأعظم ، على الصعيد الآسيوى والافريقى والأوروبى ، نتبين كيف كان استنفار الحاسة الجغرافية ، لكى ترشد السلم البناء دليلا لا يكذب ولا يضلل • بل انه كان الاستنفار الموفق الذى أثمر ، عندما تولى ترشيد ارادة تأمين الاسلام فى السلم لحساب الدولة ، وترشيد ارادة تأمين الدولة فى السلم لحساب الدين • كما كان الاستنفار الحافز الملهم الذى أنجب الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، ونشط الاهتمام بثمرات الفكر الجغرافى ، لحساب الانسان •

الحاسة الجغرافية وتباشير التفكير الجغرافى عند المسلمين :

من الطبيعى ـ على كل حـــال ـ أن نتبين كيف أن استنفار الحاسة الجغرافية ، وطلب ثمراتها المفيدة ، وحسن استخدامها واستثمارها ، لم ينشأ من فراغ فى المجتمع الاسلامى • بل يجب أن نفطن الى أن العرب فى جزيرتهم قبل الاسلام ، قد امتلكوا الحس الجغرافى الذى بصرهم فى المرعى ، وبصرهم فى اشتغالهم بالوساطة التجارية • وهذا معناه أن الاستعداد موجود والرغبة كامنة ، وأن الحاسة الجغرافية مهيأة ، وكيف أن هذا الاستنفار كان مطلوبا بكل الالحاح ـ لكى يقدم ثمرات حيوية وبناءة ، استجابة لارادة تأمين الدولة فى الحرب والسلم على السواء •

ولئن دعا داعى استنفار هذه الحاسة الجغرافية ـ بكل تأكيد ـ الى جنى الثمرات وحسن استخدامها ، بالشكل الذى أمن الدولة وخـــدم انتشار الاسلام ، فهل نتصور كيف كان الاسلام ، وهو يستنفر هذه الحاسة الجغرافية ، ويستثمر ثمراتها ، مسئولا عن تكوين وتنشئة وتربية الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، الذين تولوا أمر الفكر الجغرافى ، وتحملوا مسئولية بعثة من رقدة العدم ، وصنعوا باجتهادهم ثمرات طيبة أضافت الى الرصيد الجغرافى العالمى المفيد شيئا جديدا ، لحساب الانسان ؟

وصحيح أن الصفوة المرموقة من المفكرين المسلمين قد تكونت ونشأت ، تحت مظلة الأمن التى نشرها الاسلام على كل طلاب العلم والمعرفة بصفة عامة • وصحيح أن الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، قد نضجت نضـــجا حقيقيا فى أحضان الممارسة والتجربة المطمئنة التى أتاحها لهم الاسلام ، لكى تخرج أعلاما شامخا تقود مسيرة الفكر الجغرافى - بكل التفتـــح - الى ما هو أفضل • ولكن الصحيح أيضا ، أن هذه الصفوة المرموقة من علمـــاء الجغرافية المسلمين قد تلمست - بكل الحنكة - أطراف الخيوط التى كانت قد انقطعت ، عندما تصدت الكنيسة لمسيرة الفكر الجغرافى ، وطاردت صناع هذا الفكر ووصمتهم بالكفر والهرطقة وصبت عليهم اللعنة والعذاب الأليم •

وهكذا ظهر العلماء المسلمون الذين تحملوا مسئولية البحث والاضافة إلى المعرفة الجغرافية ، فى أحضان الاسلام • وكان المطلوب من علماء الجغرافية المسلمين ، أن تصل اجتهادتهم بين جغرافية الماضى ، وجغرافية الحاضر ، استشعارا منهم بالتكامل المثمر ، لحساب المسيرة الفكرية الجغرافية المستمرة ، وتطلعا الى الترابط البناء بين خطوات هذا الفكر الجغرافى المثمر ، لحساب الحياة • ولقد كان الاسلام - بكل تأكيد - من وراء هذه الصفوة يدعمها ويشد أزرها ، ويكفى أن تتبين ثلاث مسلمات مهمة ، تصور موقف الاسلام من الفكر الجغرافى ومن دور الجغرافيين المسلمين العاملين على تطويره والاضافة اليه • وتتمثل هذه المسلمات فى :

أولا - أن الاسلام لم يستنكر الفكر الجغرافى العتيق المهجـــور ، ولم يرفضه ويتنكر له شكا فى معصيته أو كفره •

ثانيا - أن الاسلام لم ينكر على الصفوة من علماء الجغرافية المسلمين حقهم فى الأخذ بالانفتاح ، على كل الرصيد المهجور من الفكـــر الجغرافى العتيق ، وحقهم فى استيعابه والاضافة اليه •

ثالثا - أن الاسلام لم يسلب الجغرافيين المسلمين حق التفكير الحر ، بقصد التجديد والتطوير وتسجيل الاضافة ، وبقصد التصدى لقيادة مسيرة الفكر الجغرافى وتوجيهه فى الاتجاه الصحيح •

وهكذا نتبين - بكل الموضوعية - كيف أن الاسلام قبل بهذه المسلمات بداية ، لأنه يطلب ثمرات الفكر الجغرافى - بكل الالحاح - ، ولأنه يقـــدر جدواها - بكل الواقعية - ، لحساب الانسان ، وفى اعتقادى أن الاســـلام ،

قد استهدف — بكل التفتح — الخير ، من وراء اجتهاد علماء الجغرافية المسلمين. وأن هذا الخير يتمثل فى ثلاثة أهداف متكاملة ومتداخلة فى وقت واحد . وهذه الأهداف هى :

أولا — اخراج الفكر الجغرافي من الطريق المسدود ، التى ارتضتها له الكنيسة ، وانتشاله من الضياع فى الحضيض الذى تردى فيه بعد بطليموس الاسكندرانى ، على مدى حوالى ستة قرون من عمر الحياة .

ثانيا — تصحيح المسار الفكرى الجغرافى فى الاتجاه المثمر ، الــذى يخدم الواقع الحياتى ، فى أحضان المكان فى المعروف أو المعمور من الأرض .

ثالثا — تسجيل الاضافة المفيدة ، الى هذا الفكر الجغرافى البناء ، من حيث انتهى الجغرافيون القدامى ، أو من حيث توقف وتجمد التفكير الجغرافى فى ظل الارهاب الكنسى ، وتطويع المعرفة الجغرافية لمصلحة الانسان ، دينيا واجتماعيا وحضاريا واقتصاديا .

ومن وراء كل هذه الأهداف المتداخلة والمتكاملة ، التى تسخر الجغرافية وتنميها لحساب الانسان ، ينبغى أن نستشعر الانفتاح الاسلامى الحقيقى على المعرفة الجغرافية . ذلك أن الاسلام ، كان من شأنه أن يطلب من الصفوة الممتازة من الجغرافيين المسلمين حسن استخدام الحس الجغرافى ، وصولا الى : (١) توسيع دائرة ، المعرفة بالأنحــاء المعمورة من الأرض ، و (٢) تعميق المعرفة بالأنحاء المعروفة من الأرض ، فى وقت واحد . وهل يعنى انفتاح الاسلام على هذا النحو ، وقبوله بفكر جغــرافى مهجور جرحته الكنيسة وشككت فى صــدقه واستنكرت فحواه ، وطاردت من يروج له ، أقل من ذلك المعنى الذى يصور تجاوب الاسلام مع الفكر الجغرافى الحر ؟

وفى اعتقادى — على كل حال — أن قبول الاسلام الحسن بالفكر الجغرافى المهجور ، علامة من أهم العلامات التى تصور ، كيف رفض الاسلام التسليم بمنطق الكنيسة ، والتصديق على زعمها الباطل رفضا قاطعا من ناحيــة ، وكيف أمن الاسلام البحث الحر وتقصى الحقائق عن الرصيد الجغرافى المشكوك فيه من ناحية أخرى . وفى اعتقادى أيضا أنه قبول وانفتاح وتفتح فى وقت واحد ، يعنى تقويما سليما وادراكا واعيا عن مدى استشعار الاسلام حقيقة وجدوى الفكر الجغرافى بصفة عامة ، لحساب الانسان فى الحياة .

وبهذا المنطق الموضوعي ، نؤكد أن الاسلام ، وهو الدين الحضـــارى القيم ، قد عقد العزم على تنشيط الصفوة من علماء الجغرافيين المسلمين ، التى انكبت ـ بكل الصدق ـ على العمل البناء فى الحقل الجغرافى ، وعـــلى بذل الجهد والاجتهاد فى ميادين التفكير الجغرافى والكشف الجغرافى • وهذا معنـاه أن الاسلام قد تبنى الجغرافية بالفعل ، واحتضن الفكر الجغرافى البناء ، الذى يخدم المعرفة الجغرافية • ومعناه أيضا ، أن هذا التبنى كان من وراء الدعم ، الذى قدمه الاسلام الى مسيرة الفكر الجغرافى ، والابداع الجغرافى العربى •

الاسلام يدعم الفكر الجغرفى :

عندما نتبين أن الاسلام قد ظلل الفكر الجغرافى المتفتح ، بمظلة الأمن والأمان ، لكى يواصل مسيرته الخيرة ، لأنه يقدر وقع خطواته البناءة ـ بكل الرتابة ـ لحساب الحياة • وعندما نتبين أن الاسلام قد تبنى الفكر الجغرافى لأنه يستشعر جدوى وفاعلية النتائج والثمرات ، التى يقدمها لحساب الحضارة البشرية • يكون ذلك كله ، من أجل البحث الهادف ، الذى يتحسس شكل الدعم الذى قدمه الاسلام الى الفكر الجغرافى ، وهو يرنو الى جمع الرصيد القديم المهجور ومراجعته واستيعابه وتصحيحه ، أو وهو يتطلع الى تسجيل الاضافات عن المعرفة الجغرافية بالمكان وبالانسان ، وعن التفاعل بين الانسان والأرض فى المكان ، لحساب الواقع الحياتى وأنماطه المتنوعة ، من مكان الى مكان آخر ، فى أنحاء المعروف والمعمور من الأرض • ويستوى فى ذلك أن يجتهد الباحث عن هذا الدعم وعن كنهه وماهيته ، لكى يجده أحيـــانا دعما مباشرا أو دعما غير مباشر ، أو لكى يجده دعما ماديا أو دعما معنويا •

وأن يطلق الاســلام سراح الفــكر الجغرافى بــكل الوعى ، وأن يقبل الاسلام باستيعاب رصيد الفكر الجغرافى القديم المهجور بكل التفتح ، وأن يؤمن الاسلام اضافات كل المجتهدين من رجال الفكر الجغرافى العرب والمسلمين بـكل التفتح ، وأن يبـارك الاســلام تقـدم مسيرة الفـكر الجغرافى المتطورة بكل الصدق ، وأن يستثمر الاسلام حصاد هذا الفكـــر الجغرافى العربى الاسلامى بكل الواقعية ، فتلك كلها علامات مضيئة ينبغى أن تلفت النظر لدى استشعار الباحث ، جدوى الدعم الاســـلامى وفاعليته ، وهو يتبنى الفكر الجغرافى •

وصحيح أن استشعار جدوى الدعم أمر مطلوب ، لدى الحديث عن دور الاسلام ، وهو يظاهر الفكر الجغرافى المتطور • وصحيح أن هذا الاستشعار

ينبىء بصدق وجدية هذا الدعم ، الذى قدمه الاسلام باختياره الى الفكر الجغرافى ، والى الصفوة الممتازة العاملة فى هذا الحقل ٠ ولكن الصحيح أيضا ، أن ذلك كله ، لا يمكن أن يجسد هذا الدعم الاسلامى ، تجسيدا واقعيا منموسا ، وهو يحفز المفكرين والكتاب والرحالة ، لكى تنكب هذه الصفوة من المجتهدين على آداء دورها الوظيفى البناء ، فى خـــدمة الفكر الجغرافى الاسلامى ٠

وبكل أمانة ، ينبغى أن نؤكد على أن اطلاق سراح الفكر ، وتأمين المفكرين أمران مهمان مطلوبان — بكل الالحاح — لكى يتأتى التحرر الصريح من عقدة الخوف التى تكبت الفكر ٠ وصحيح أن التحرر من عقدة الخوف التى تطارد الفكر والمفكرين ، هو — فى حد ذاته — أمر جوهرى وحيوى ومفيد ، لكى يتحرر الفكر ، وينطلق التفكير الجغرافى ، وتبدأ مسيرته الخيرة فى الاتجاه الصحيح ٠ ولكن — والسؤال هنا فى غاية الأهمية — هل يكفى تحرير الفكر وحده من الخوف ، وتأمين المفكرين ، لكى يتفجر التفكير ويثمر الابداع ، ولكى يتوالى التجديد والاضافة الى رصيد الفكر الجغرافى الاسلامى ؟

وفى اعتقادى — على كل حال — أن التحرر من الخوف وحده ، لا يصنع شيئا سوى تهيئة المناخ الأنسب للفكر ، وللتفكير الحر البناء ٠ بمعنى انه تحرير يضع المفكر فى وضع الاستعداد فقط ، ودون أن يتولى تحريكه ومطالبته بأن يفكر ٠ وفى اعتقادى أن الممارسة وتقصى الحقائق التى تسفر عن افراز الفكر والتجديد والاضافة تكون فى حاجة ملحة الى :

أولا — استعداد المفكر ذاته وتشوقه لأن يفكر تفكيرا موضوعيا ، وصولا الى اخراج أو افراز الفكر والتجديد والاضافة ٠

ثانيا — الحافز أو الحوافز التى تنشط وتحث وتحفز الباحث أو المفكر أو الرحالة الى الاجتهاد بداية ، لكى تنبثق من بين صفوفهم الصفوة الممتازة ، التى تمتلك القدرة على الابداع ، وتتولى قيادة وريادة مسيرة الفكر الجغرافى ٠

واذا كان استعداد المفكر مسألة نابعة من ذاته أصلا ، فان التجربة والممارسة تكون مطلوبة ، لكى تصقل هذه الموهبة وترفع مستواها الى ما هو أفضل ٠ أما الحافز أو الحوافز فانها تكون ألزم ما تكون ، لكى تكتشف هذا الاستعداد وتفجره ، ولكى تصقل الموهبة ٠ بل ينبغى أن تصل هذه الحوافز الى حد اغراء الصفوة من المفكرين واشباعهم ، حتى يتفجر ما فى داخلهم من ابداع وتجديد وفكر متطور ٠

ولأن الاسلام الدين الحضارى القيم المتفتح ، قد تطلع ـ بكل الأمل ـ الى ثمرات الفكر الجغرافى البناء ، لحساب المعرفة الجغرافية والانفتاح الجغرافى على العالم ، الذى يخدم نشر العقيدة على أوسع مدى فى المعمور من الأرض ، ويؤمن مصلحة الدولة فى فرض السيادة وحيازة الحصة الأكبر من الأرض ، فقد قدم الاسلام هذا الدعم عن طيب خاطر الى الفكر الجغرافى ، فى كل شكل من أشكال الدعم الحافز • وقد يتجلى هذا الدعم الحافز ، من خلال الدولة وقوة ومكانة الحكم الرشيد فيها ، أو من خلال قادة الدولة وأولى الأمر فيها • ومن حسن حظ الفكر بصفة عامة ، والفكر الجغرافى بصفة خاصة ، أن الاسلام قد أحبط أى تسلط غاشم أو غشيم ، يعارض صوت الفكر وحرية الفكر الجغرافى وانطلاقته البناءة بيد قوية صارمة ، وانه فى نفس الوقت حفز الابداع والتجديد والاضافة الى هذا الفكر ، بيد سخية كريمة أخرى •

وهكذا أصبح هذا الدعم الاسلامى الحافز فى كل صوره ، وهو يؤمن بقوة ، ثم وهو يغدق بسخاء ، قوة الدفع الفعالة ، من وراء حصاد الفكر الجغرافى العربى ، فى كل مرحلة من مراحل مسيرته المثمرة ، على مدى أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة ، لحساب الانسان ومصالحه المباشرة أو غير المباشرة فى هذا الفكر •

ووصولا الى حقيقة هذا الدعم الحافز ، الذى قدمه الاسلام ، والتزمت به الدولة وبعض القيادات الرشيدة فيها قبل الصفوة المرموقة من اعلام الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، ينبغى أن نتبين أمرين هما :

أولا ـ صيغة أو صيغ هذا الدعم الحافز ، وكيف تحول الى قوة دفع فعالة ، وكيف تبنى تحريك مسير الفكر الجغرافى العربى الى ما هو أفضل من وجهة النظر الموضوعية •

ثانيا ـ جدوى هذا الدعم الحافز ، وكيف نشط افراز الفكر الجغرافى الاسلامى ، وهو يتولى تعميق المعرفة بالمعروف من الأرض ، أو وهو يتولى توسيع دائرة المعرفة بالمعمور فى الأرض •

هذا ، وفى اعتقادى ـ على كل حال ـ أن هناك مرحلتين متواليتين ومتكاملتين ـ على أقل تقدير ـ فى مسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، التى تولى أمرها الجغرافيون المسلمون • ومن شأن كل مرحلة من هاتين المرحلتين أن تشهد الخطوات الايجابية البناءة ، وهى تسجل الاضافات والابداع والتجديد ، الى رصيد الفكر الجغرافى فى أحضان الاسلام •

وفى اعتقادى مرة أخرى ، أن التكامل بين الخطوات الايجابية البناءة ، فى هاتين المرحلتين فى هذه المســيرة الناجحة ، منطقى وضرورى ، بل انه التكامل المثمر ، الذى ينفى وينكر الانفصال بينهما تماما ، والذى لا يعارض التداخل الحتمى المفيد فيما بينهما . وتتمثل هاتان المرحلتان فى :

أولا — مرحلة احياء الفكر الجغرافى واعادته الى صوابه ، وتحريكه فى الاتجاه الصحيح .

ثانيا — مرحلة نضج الفكر الجغرافى العربى الاســلامى ، وتسجيل الابداع والاضافة اليه ، وتولى أمر ريادته .

هذا ، من الطبيعى أن يكون التقدم فى المرحلة الأولى ، لكى يظاهر التقدم والريادة فى المرحلة الثانية . ومن الطبيعى أيضا ، أن نستشعر مدى التكامل بين التقدم فى هاتين المرحلتين ، لحساب الفكر الجغرافى العــربى الاسلامى ، وهو يقدم الحصاد والاضافات الى الإنسان فى كل مكان . ولكن من الطبيعى بعد ذلك كله ، أن نتبين دور الإسلام فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين المتكاملتين ، وهو يقدم الدعم الحافز الأنسب ، ويحفز التفكــير المتنور ، ويجزل العطاء السخى للمفكرين ، ويرعى مسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، ويجنى ثمراتها المفيدة لحساب الدين والدولة .

احياء الفكر الجغرافى :

فى هذه المرحلة الأولى ، لا ينبغى أن نسأل متى بدأت حركة احياء الفكر الجغرافى بكل الالحاح ، ولكن الذى يستحق السؤال بكل الالحاح ، هو كيف بدأت حركة احياء الفكر الجغرافى ، وكيف صححت هــذه الحــركة الاتجاهات ، التى تسير فيها مسيرة الفكر الجغرافى ؟

ومن أجل الاجابة على هذا السؤال ، ينبغى أن نشير صراحة الى مسألتين جوهرتين وهامتين ، تأسيسا على الرفض والانكار والتنكر ، الذى أعلنته الكنيسة — بكل التزمت — ضد الفكر الانسانى بصفة عامة ، وضد الفكر الجغرافى غير الملتزم بمنطق وروح الكنيسة بصفة خاصة . ومن شأن هاتين المسألتين ، الاسهام فى بلورة الموقف ، حتى تتهيأ الأوضاع المناسبة ، ويتأتى المناخ الأنسب ، لكى يتحمل الاسلام والمسلمون مسئولية الفكر كله ، فى الوقت المناسب . وصحيح أن هاتين المسألتين الجوهريتين قد حدثتا قبــل ظهور الاسلام . ولكن الصحيح انهما حملتا الاسلام مسئولية الفكر الانسانى

كله ، بعد أن رسخ وجوده فى أحضان دولته الأعظــم • وتتمثل هاتان المسألتان الجوهريتان(١) فى :

أولا - فى سنة ٤٨٩ ميـلادية ، فرارا من رفض الكنيسة ، ومطـاردة رجال الدين المسيحى المتزمتين ، لجأ بعض حملة العلم والمفكرين النصارى من الدولة الرومانية الى فارس • وقد عرف هذا الفريق الهارب من بطش الكنيسة ، وتعصبهم المذهبى ، باسم النساطرة أو السريان الشرقيين •وحمل هذا الفريق معهم الى المهجر ، بعض جساد الفكر الانسانى القديم الذى تطارده الكنيسة •

ثانيا - فى سنة ٥٢٩ ميلادية ، صدر أمـــر حاسم من الامبراطور جستنيان الرومانى ، يقضى باغلاق أكاديمية أفلاطون فى أثينا ، وانهاء الجدل العلمى والفلسفى فيها • وكان هذا الأمر استجابة لارادة رجال الدين ، الذين تحملوا مسئولية قفل باب الاجتهاد ، ومعارضة أى تفكير غير ملتزم بارادة الجهل التى تخيم على الكنيسة •

وصحيح أن فرار النساطرة الى فارس ، أنقذ بعض التراث الفكرى القديم ، من الضياع فى عالم مسيحى ، جاهل يرفضه ويتنكر لاصحابه • وصحيح أن استيطان النساطرة فى فارس هيأ الموقع الأمين ، الذى حافظ على جذوة مشتعلة من الفكر الجغرافى القـــديم • ولكن الصحيح أيضا ، أن اغلاق أكاديمية أفلاطون ، أدى الى تردى الناس فى حضيض من الجهـالة ، ورفض التفكير الحر غير الملتزم بجهل وتزمت الكنيسة • ومن ثم أصيب التفكير بالشلل ، وتجمد الفكر ، وتوقف مسيرة الفكر الجغرافى توقفا كليا •

هذا ، ومن شأن الجمع بين نتائج كثيرة ترتبت على هاتين المسألتين الجوهريتين ،أن يجسد نتيجة هامة ومفيدة على المدى البعيد ، لحساب الفكر الانسانى بصفة عامة ، ولحساب الفكر الجغرافى بصفة خاصة • ذلك انه لو لم يفر النساطرة من نقمة وجهالة وتزمت رجال الكنيسة ، ولو لم يلجأ فريق منهم الى فارس ، ولو لم يحمل هذا الفريق معه الى المهجر جــذوة مشتعلة من الفكر اليونانى القديم ، ولو لم يحافظ النساطرة على هذه الجذوة متوهجة ، لأصبح من شأن الاهتمام الاسلامى بالفكر الانسانى عامةوالفكر

---

(١) جلال مظهر : المرجع السابق صفحة ١٦٦ •

الجغرافى خاصة ، أن يبدأ قصته مع الفكر ، ويسجل اجتهاده فى متابعة الفكر من نقطة الصفر .

وصحيح أن السريان النساطرة تشبثوا فى المهجر بالعلم وطلبه ، وحافظوا على توهج جذوة الفكر اليونانى المرفوض من الكنيسة . وصحيح أن مدرسة جنديسابور فى فارس ، كانت أمينة على التراث الجغرافى اليونانى، لحساب طلاب المعرفة فى العالم . ولكن الصحيح أيضا أن المحافظة على التراث الجغرافى مئات السنين ، من خلال الفكر اليونانى شيء مهم ، حتى يجد من يطوره ، وهو الشيء الأهم . وهذا معناه — على كل حال — أن العلم فى أحضان النساطرة عاش فى المهجر ، واحتفظ بنبضه دون أن تسجل اليه اضافة . ومعناه أيضا ، أن الفكر الجغرافى فى مدرسة جنديسابور ، لم يسجل تطورا أو إبداعا ، يستحق الاهتمام ، لأنهم أعجز من تحمل هذه المسئولية . ومعناه مرة ثالثة ، أن الفكر الجغرافى المهجور ، كان فى انتظار العقول ، التى تتلقفه ، لكى تكشف عنه الغطاء ، وتبعثه من رقدة العدم ، وتتولى أمر تطويره والاضافة اليه .

وفى اعتقادى — على كل حال — أن هذا الوضع الذى أبقى على الفكر الجغرافى متجمدا ، لا ينبغى أن يدعو الى انكار دور النساطرة ، وهم يصونون التراث ، ويحافظون على المعين . بل ربما استحق النساطرة الشكر والتقدير ، مرتين . وهم مشكورون فى المرة الأولى ، لأنهم تولوا حراسة رأس الجسر ، التى ربطت الأوصال ، بين الفكر القديم والفكر الاسلامى . ثم هم مشكورون فى المرة الثانية ، لأنهم قدموا بكامل ارادتهم — فى الوقت المناسب — الى الصفوة من أهل الفكر عامة ، والفكر الجغرافى خاصة ، أطراف الخيوط ، التى أتاحت لهذه الصفوة من علماء المسلمين الفرص الثمينة ، لكى يتحملوا مسئولية الوصل والربط بين ، مسيرة الفكر الجغرافى المهجور ، ومسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتفتح . وبمعنى آخر ، ينبغى أن ندرك عندئذ ، كيف سلم هذا الفريق من النصارى ، الذى رفض كليا الانصياع للكنيسة وجهلها الصارخ باختياره ، أمانة الفكر الجغرافى المهجور ، الى الصفوة من الجغرافيين المسلمين باختياره أيضا . وقبول الجغرافيين المسلمين بهذه الأمانة ، معناه بداية حركة احياء الفكر الجغرافى ، ومعناه أيضا استئناف مسيرة هذا الفكر فى الاتجاه الصحيح .

وهكذا كانت نقطة البداية ، عندما تلقفت الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، أمانة الفكر الجغرافى ، من النساطرة ، حفظه هذه الأمانة . أو

عندما التزم بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، بحمل هذه الأمانة ، والعمل من أجل تطويرها • وقد كان من شأن هذه الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، أن تحرص كل الحرص ، على أن تسير المسيرة في الاتجاه الصحيح ، وعلى أن تبدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافي القديم المهجور ، كما سجله من الجغرافيين اليونانيين المصريين ، ومنهم استرابو وماريتوس وايراتوستين وبطليموس القلوذى الاسكندراني •

ومن وراء هذا الالتزام بالأمانة ، والحرص على احياء الفكر الجغرافي وتطويره ، تطلعت الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، الى معين الفكر الجغرافي اليوناني المهجور ، واستشعرت ضرورة الاطلاع على ما ورد فيه من أبواب المعرفة الجغرافية • ومن وراء هذا التطلع الشديد الى المعين ومحتواه ، تجلى الدعم الذى قدمه بعض من القادة المسلمين المتفتحين ، وصولا الى الهدف العاجل ، لحساب الفكر الجغرافي الاسلامي الأفضل • وقد تمثل هذا الهدف العاجل ، في الترجمة والنقل الى اللغة العربية ، من اللغات اليونانية والفهلوية وغيرها من اللغات ، التى استخدمت في عصر من العصور الغابرة ، لكتابة وتسجيل التراث الفكرى ، الذى كان متداولا قبل أن يفرض الحظر المسيحي •

هذا ، وقد كان النساطرة السريان ، من أهم الفئات ، التى قدمت العون كله الى العلماء المسلمين ، عندما تولت ــ بكل الأمانة ــ عمليات الترجمة ونقل الفكر الجغرافي القديم المهجور ، الى اللغة العربية • وصحيح أن النساطرة السريان ، كانت الفئة المسيحية التى بصرت الجغرافيين المسلمين لدى الاطلاع على الفكر الجغرافي اليوناني المهجور ، والتى تحملت المسئولية ، لدى كشف الغطاء عن الرصيد الضخم القديم ، والاحاطة بمحتواه • ولكن الصحيح أن خلفاء بعينهم من قادة الدولة العباسية ، قد فتحوا الباب وأقدموا على الاغداق السخي والعطاء المغرى ، الى العاملين في عملية الترجمة ، التى تخدم الجغرافيين المسلمين ، وتشبع تعطشهم ونهمهم الى استطلاع واستيعاب الفكر الجغرافي اليوناني المهجور • بل لعلهم أضافوا الى الاغداق السخى بالمال والذهب ، التكريم والاكبار والاحترام ، في مجالس العلم والخلفاء •

وهكذا نتبين بجلاء ، كيف كان الاغداق السخي والعطاء المغرى ، والتكريم والاكبار ، شكلا من أهم أشكال الدعم المادى الحافز ، للترجمة والنقل الى اللغة العربية • وما من شك في أن الترجمة ، قد فتحت الباب على مصراعيه ، لكى يتسنى للصفوة الممتازة ، من أهل الفكر العربى الاسلامى المتفتح ، الاطلاع على التراث اليوناني القديم • بل انها فتحت باب الأمل ،

لكي تتأهل هذه الصفوة الممتازة من أهل الفكر العربي الاسلامى ، للقيام بمهمة احياء هذا التراث العتيق المهجور ، بالشكل الذي ينميه ويطـوره ويضيف اليه كل جديد • وهذا معنـاه أن الترجمـة كانت خطوة هامة وضرورية • ومعناه أيضا أن الترجمة حملت الجغرافيين المسلمين أمانة انتشال التراث الفكرى الجغرافى من الضياع ، الذى كان قد تردى فيه ، على مدى أكثر من ثمانية أو تسعة قرون طويلة مظلمة ، من عمر الحياة • ومعناه مرة ثالثة ، أن الترجمة العربية أطلقت العنان للفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، وأعطت زمام المسيرة للجغرافيين المسلمين •

حركة الترجمة واحياء الفكر الجغرافى :

لئن كانت الترجمة الى العربية ، قد نشطت وجددت حيوية الاطلاع على التراث الجغرافى القديم ، وحفزت الجغرافيين المسلمين الى البحث الجغرافى الموضوعى ،من أجل الاضافة ، فلا ينبغى أن ننسى فى هذا المجال ، الاشادة بالرجل العربى المسلم الفطن الأول خالد بن يزيد(١) ، الذى نشأ فى أحضان الدولة الأموية ، واستشعر قيمة العلم ، ونبه الأذهان الى جدوى المعرفة القديمة ، التى حجبتها أو شوهتها جهالة الكنيسة ، ورجعية رجال الدين المسيحى • وما من شك أن خالد بن يزيد قد فجر الحاجة الى الترجمة ، ونبه الى حتيمة الاطلاع على الفكر القديم المهجور • بل لقد تصور أن كشف الغطاء عن هذا المعين الزاخر بالمعرفة مطلوب — بكل الالحاح — لكى تبـدأ مسيرة العلم والمعرفة ، فى أحضان العلماء المسلمين ، من حيث انتهى السابقون فى المسيرة الخيرة ، على الدرب الطويل ، لحساب الانسان •

وصحيح أن خالد بن يزيد ، الذى فجر الاهتمام بالترجمة العربية ، لم يهتم أصلا بالفكر الجغرافى فى أى يوم من الأيام ، وأن صيحته الكبرى كانت — بكل تأكيد — لحساب الفكر الانسانى بصفة عامة • ولكن الصحيح أيضا ، أن الفكر الجغرافى الاسلامى كان على استعداد كامل ، للافادة من الترجمة وحسن استثمارها ، من أجل توجيه الحركة الفكرية الجغرافية ، فى الاتجاه الصحيح • ذلك أن خالد بن يزيد كان مقنعا عندما أوضح قيمة دق أبواب المعرفة القديمة السابقة لظهور المسيحية ، وجدوى استطلاع صفحات الفكر المهجور ، وأهمية استكشاف حصاد هذا الفكر ومراجعـة التراث

---

(١) جلال مظهر : المرجع السابق صفحات ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ •

الانسانى فى الفترة السابقة لظهور الاسلام من عمر الحياة • وهذا معناه أن النصف الأول من القرن الثامن الميلادى ، قد سجل أول علامة بارزة علـى الطريق ، التى تكشف أبعاد التطلع وطلب الاحاطة بالتراث الفكرى الانسانى قبل الاسلام ، من أجل مسيرة فكرية اسلامية متنورة ، تضيف الى هذا التراث، لكى تصححه أو لكى تثريه •

ومن بعد هذه الصيحة ، التى نبهت الأذهان الى الترجمة ، ووضعت أول علامة مضيئة على الطريق ، تطلعاً الى الهدف الأمثل من عملية الترجمة ، غرس أبو جعفر المنصور ، الخليفة العباسى ، النواة الحقيقية ، على هذه الطريق • وعلى عهد الخليفة الأعظم ، هارون الرشيد ، فى أواخر القرن الثامن الميلادى ، بدأ العصر الذهبى لحركة الترجمة والنقل الى العربية ، فى بيت الحكمة فى بغداد • ومن بيت الحكمة فى بغداد ، كانت نقطة التحول • وقد شهد هذا العصر الذهبى ، كيف تحول الأمل الى حقيقة ، وكيف انتفع الفـكر الجغرافى الاسلامى ، بحصاد المعرفة الجغرافية ، التى احتـــواها الرصـــيد اليونانى المهجور •

وفى الوقت الذى أدار فيه صاحب بيت الحكمة والأمين على الاجتهاد فيه عملية الترجمة ادارة ممتازة ، وألحق به أمهر وأشهر المترجمين والنساخين فعل الاغداق السخى والعطاء المغرى ، الذى كلف بيت مال المسلمين الكثير من الهبات والعطايا ، فعل السحر للشىء المثير • وقد تمثل هذا الشىء المثير فى ترجمات جيدة ونقل ممتاز الى اللغـــة العربية كشف النقـــاب عن أبعاد وحقيقة التراث الفكرى الانسانى القديم ، بما فى ذلك الفكر الجغرافى المهجور • كما تمثل أيضا ، فى اشباع نهم العلماء المسلمين ، وتطلعهم الى استيعاب هذا التراث وتصحيحه والزيادة عليه •

وفى بداية القرن التاسع الميلادى ، أصبحت بغداد كعبة العلم والمعرفة، ومقصد كل عالم ودارس وباحث عن المعرفة • كما أصبحت المكتبة العـربية الاسلامية فيها ، عامرة بالكتب المترجمة الى العـــربية • بل قل انها احتوت آنذاك ، على أمهات الكتب الهامة المنقولة ، عن اليونانية والفارسية والهندية ، وغيرها من اللغات ، فى كل العلوم والفنون • وكانت الجغرافية — بكل تأكيد — من بين مجموعة العلوم ، التى نالت حصة مناسبة من الاهتمام • وقد ترجمت بعض أمهات الكتب الجغرافية اليونانية ، التى تسجل خلاصة جيدة للفكر الجغرافى القديم المهجور • وقد انتفـــع فريق من الجغرافيين المسلمين بهذه الترجمات ، وهو يطلب المعرفة والاستيعاب • كما انتفع هذا الفريق أيضا

بالاغداق السخى ، الذى أطلق لهم عنان الاجتهاد ، وهو يتطلع الى تسجيل الاضافة عن الواقع الحياتى ، فى المعروف من الأرض فى كل مكان ، أو الكشف عن الواقع الحياتى فى المعمور من الأرض فى أى مكان •

وصحيح أن التزام الدولة بالاغداق السخى على حركة الترجمة ونقل الكتب الى العربية ، وعلى العلماء والباحثين كان فى مقابل التزام الصفوة المرموقة من العلماء باستيعاب العلم والمعرفة ، والعمل على التطوير والابداع• وصحيح أن ترجمة بعض أمهات الكتب الجغرافية القديمة ، قد فتح شهية الباحثين عن المعرفة الجغرافية بالمكان ، والواقع الحياتى فى كل مكان • ولكن الصحيح أيضا ، أن هذا الرصيد الثمين من الكتب الجغرافية المترجمة ، قد شد انتباه أو استقطب اهتمام أو استهوى فريق كبير من الدارسين والباحثين، فتخصصوا فى الجغرافية • وهذا معناه ان هذا الرصيد من المعرفة الذى تفجر تأسيساً على حركة الترجمة ، قد أحيا فى النفوس شغفا عربيا قديمـا قبل الاسلام بالمعرفة الجغرافية ، التى كانت تمثل حاجة نابعة من صميم الواقع الحياتى ، فى أحضان الجزيرة العربية(١) •

وهذا معناه — على كل حال — أن حركة الترجمة كانت حركة مفيدة الى أبعد الحدود • ذلك أنها أكسبت الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، معرفة واضحة وصحيحة ، عن جغرافية الماضى ، واجتهادات الذين سجلوا تراثها • كما أنها أكسبت الجغرافية أنصارا من الباحثين المتحمسين للمعرفة الجغرافية، والذين اجتهدوا ، وعملوا على تطوير وابداع واضافة مفيدة أثرت الفكر الجغرافى العربى الاسلامى • وفى اعتقادى أن هذه المكاسب كانت جوهرية ، لأنها حولت بعض الجغرافيين من مجرد هواة متطلعين الى جغرافيين محترفين ومتخصصين •

واضافة هذا الفريق المحترف من الباحثين والمجتهدين ، الذى يستهويه الفكر الجغرافى ، ويشد انتباهه وتفكيره ، علامة أخرى مهمة على الطريق • ذلك أن هذه الاضافة تمثل زيادة فى كم ونوعيـة المكاسب ، التى حققتها

---

(١) قبة السماء التى طالما شدت انتباه العربى فى الجزيرة ، لكى يتابع النجوم والأجرام ، أو لكى يستشعر حالة الطقس وما يطرأ عليه من تغير من يوم الى يوم آخر ، كانت تفجر فيه الحاسة الجغرافية • بل ان المعرفة بالمراعى والبيئة الطبيعيـة ، كانت قد نمت فيهم الادراك والحس الجغرافى •

راجع نفيس أحمد : المرجع السابق صفحة ٢٥ : .

الجغرافية العربية الاسلامية ، اعتبارا من القرن التاسع الميلادى • ومن شأن هذا الرصيد المكتسب ، من الجغرافيين المسلمين المحترفين ، أن يمثل - فى تقديرى - شكلا من أشكال الدعم غير المباشر للفكر الجغرافى العربى الاسلامى• ولماذا لا يكون دعما حقيقيا غير مباشر ، وهم الـذين أسهموا فى تحريك المسيرة وتطوير الحصاد وتسجيل الاضافات الى الفكـر الجغرافى العـربى الاسلامى •

الفكر الجغرافى العربى الاسلامى :

من الطبيعى أن ننظر الى الفكر الجغرافى نظرة موضوعية ، على اعتبار أن هذا الفكر كل لا يتجزأ • ومن الطبيعى أن نستشعر كيف تنتظم مسـيرة الفكر الجغرافى ، لكى تتضمنها ثلاث حلقات متواليات ، الأولى يونانية مصرية، والثانية عربية اسلامية ، والثالثة أوروبية حديثة • وعنـدما نتابع ريادة الجغرافيين المسلمين لمسيرة الفكر الجغرافى ، على مدى أكثر من خمسة قرون من عمر الحياة ، تتبين انهم كانوا بنائين ، لأنهم أضافوا وأبدعوا وأسهموا فى تحريك المسيرة الى الامام ، وكانوا أمناء ، لأنهم أفلحوا فى الربط والمحافظة على الجسور التى تربط بين الفكر اليونانى القديم والفكر الأوروبى الحديث •

هذا ، وعندما نتابع ريادة الجغرفيين المسلمين ، لمسيرة الفكر الجغرافى، ينبغى أن نستشعر كيف تولى المسلمون أمر الفكر الجغرافى بعد بعث الفكر اليونانى من رقدة العدم • كما ينبغى أن نلتزم فى هذه المتابعة بالاحاطة بدور الجغرافيين المسلمين ، فى اطار مرحلتين متكاملتين ، همـا مرحلة الاحيـاء ومرحلة النضج والتطوير • ومن المفيد أن نتـابع الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى كل مرحلة من هاتين المرحلتين على انفـراد • ومن غير اخلال بالتكامل أو التـداخل بين هاتين المرحلتين ، يجب أن نتبين كنه وماهيـة الاجتهاد فى كل مرحلة ، وأن نتبين أيضا كنه وماهية الانتقال والتطور من مرحلة الاحياء الى مرحلة النضج •

مرحلة احياء الفكر الجغرافى :

تأسيسا على الدعم الحافز المادى والمعنوى ، الذى التزمت به الدولة الاسلامية ، وقدمته من خلال بعض القيادات الرشيدة ، الى الفكر الجغرافى الاسلامى ، بدأت مرحلة احياء الفكر الجغرافى ، فى أواخر القرن الثـامن الميلادى • واحياء الفكر الجغرافى - فى تصورى - معناه ، انعاش هذا الفـكر بعد أن طاردته الكنيسة ، ولم تسمح الا للنمط الساذج الـذى استسلم

لاوهامها الغريبة والجاهلة • ومعناه أيضا ، اعادة الفكر الجغرافى الى صوابه ، بعد أن انحرف عن الخط الصحيح • ومعناه مرة ثالثة ، الأخذ بزمام الفكر الجغرافى ، وقيادته فى الاتجاه الصحيح •

هذا وقد شهدت هذه المرحلة ، الجغرافيين المسلمين ، وهم يعكفون على ترجمات الكتب الجغرافية الجيدة ، ويتفرغون لاستيعاب الفكـــر اليونانى المهجور • ثم شهدتهم مرة أخرى ، وهم ينبرون للكتابة الجغرافية ، ويدلون بدلوهم فى الاضافة الى الفكر الجغرافى • بل ان هذا الجيل من الجغرافيين المسلمين ، أصبح رائدا بالفعل ، عنـــدما وضع أساس المدرسة الجغرافية الاسلامية • وصحيح أن هذه المرحلة كانت قصيرة • ولم تستغرق أكثر من حوالى قرن واحد من الزمان • ولكن الصحيح أيضا ، انها حددت معـــالم الطريق – بكل الوضوح – ، ومهدت تمهيدا حقيقيا للتطـــور ، فى مرحلة النضج •

ومن أجل التعرف على اجتهاد الصفوة من الجغرافيين المسلمين فى هذه المرحلة ، ومن أجل الاحاطة بحصاد الفكر الجغرافى ، وكيف مهد للانطلاقة الكبيرة ، التى سجلتها الجغرافية فى مرحلة النضج، ينبغى أن نناقش مسألتين جوهرتين • وهاتان المسألتان الجوهريتان فى صميم الفكر الجغرافى هما :

أولا – مسألة الكتابة الجغرافية ، والتسجيل الجغرافى فى كافة فروع الجغرافية •

ثانيا – مسألة خط سير مسيرة الفكر الجغرافى ، وقيـــادة الجغرافيين المسلمين لها •

وصحيح أن كل مسألة من هاتين المسألتين ، تمثل وجها من وجهى قضية واحدة • وصحيح أن هناك أكثر من علاقة عضوية بين هاتين المسألتين، لا يجب أن ننكرها ، ولا ينبغى أن نتنكر لهـا • ولـكن الصحيح أيضا ، أن كل مسألة من هاتين المسألتين ، تستحق الدراسة – بكل العمق – وصولا الى الموضوعية والتركيز ووضوح الرؤية ، التى تحدد أبعاد وماهية وجدوى هذه العلاقة ، فى مجال تسجيل الاضافات ، الى الفكر الجغرافى العـــربى الاسلامى ، بصفة عامة •

الكتابة الجغرافية :

مسألة الكتابة الجغرافية ، لا نقصد منها مجرد تصوير ، كيف أصبحت اللغة العربية وسيلة التعبير والتسجيل ، أو كيف أبدع الجغرافيون المسلمون بعض الاصطلاحات الفنية الجغرافية ، نحتا واشتقاقا من الألفاظ والكلمات والأفعال العربية • بل ولا نريد أيضا ، أن نصـــور كيف استعرب وكتب باللغة العربية ، فريق كبير من الجغرافيين المسلمين من غير العرب • ولكن الذى نرمى اليه بالفعل ، هو تصوير حصافة الجغرافى المسلم ، وهو يكتب الجغرافية • لكى يصور الظاهرة الجغرافية موضوع الدراسة والاهتمام • كما نرمى الى تصوير حصافة التحول فى الكتابة الجغرافية ، من دائرة ضيقة مغلقة ، تحتوى جزيرة العرب ، الى دائرة أوسع غير محدودة ، تحتوى على أقطار العالم الاسلامى ، وبعض الأرض فيما وراء العالم الاسلامى ، على الصعيد الآسيوى الافريقى والأوروبى • كما نرمى مرة ثالثة الى تصوير عمق التحول من الكتابة الضحلة السطحية ، الى الكتابة العميقة الهادفة •

ومن خلال المقارنة الموضوعية السريعة بين ، كتابات جغرافية سجلت فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، ومنها ما كتبه أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى ، وأبو حنيفة الدينورى ، وكتابات جغرافية أخرى سجلت فى بداية القرن الرابع الهجرى ، ومنها ما كتبه ابن خردذابة ، وقـــدامة بن جعفر ، ينبغى أن نتبين أو نستشعر ــ حقيقة ــ أبعاد ومغنى ونتـائج هذا التحول وهذا معناه ــ على كل حال ــ أن التحول يمثل انطلاقة حقيقية بناءة ومفيدة ، لأنها وسعت ــ على أقل تقدير ــ دائرة المعرفة الجغرافية ، وهى تعرف بالأرض • ومعروف أن كتابات القرن الثالث الهجرى فى الجغرافية ، قد انحصرت ــ فى الغالب ــ فى شبه جزيرة العرب ، ولم تخرج عنها كثيرا • أما كتابات القرن الرابع الهجرى ، فقد حلقت وتوسعت ، فى آفاق العالم الاسلامى •

وصحيح أن حركة الترجمة والنقل الى اللغة العربية ، التى وضعت خلاصة الفكر الجغرافى القديم المهجور ، بين يدى الجغرافيين المسلمين ، قد وسعت دائرة الرؤية الجغرافية ، وأسعفت هذا التحـــول المفيد ، وفتحت الباب للانطلاقة الحرة ، فى آفاق رحبة عـــلى مستوى المعروف من الأرض ، وحفزت التطلع الى الكشف عن المعمور من الأرض • ولكن الصحيح أيضا ، أن الرحلة أو السفرة فى أنحاء الأرض فى العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العالم الاسلامى ، قد ألهمت هذا التحول ، وزودته بالمعرفة الجغرافية ، الطـــازجة ووجهت الكشف الجغرافى فى الاتجاه السليم • وهذا معناه ــ على كل حال ــ أن الكتابة الجغرافية ، وجدت أكثر من معين ثرى ، تتزود منه بالمعلومات عن

الاقطار والامصار • ومعناه أيضا ، أن الجغرافيين المسلمين لم يعتمدوا على مجرد النقل والمحاكاة ، بل بدأ الاجتهاد الشخصى ، بعد أن حققت لهم الرحلة فرصة الدراسة الميدانية فى المكان ، ومعايشة واستشعار خصائصه الطبيعية والبشرية •

وفى هذه المرحلة الأولية ، التى سجلت الاجتهاد الاسلامى وهو يعيد الفكر الجغرافى الى صوابه ، نذكر كيف أسعفت الرحلة بعض الجغرافيين المسلمين وهم يكتبون بقصد أحيانا أو من غير قصد أحيانا أخرى • بل ينبغى أن نتبين كيف كانت الرحلة ، بشكل او بآخر ، فى خدمة الفكر الجغرافى المتفتح على العالم الاسلامى ، والانفتاح على معرفة الواقع الطبيعى والبشرى فى أنحائه الواسعة • وسواء كانت الرحلة(١) ، رحلة اقتصادية من أجل التجارة ، أو رحلة روحية من أجل الحجج ، أو رحلة علمية من أجل طلب العلم ، أو رحلة رسمية من أجل مصالح الدولة(٢) فانها قدمت المعرفة وفتحت العيون على كثير من الأقطار ، التى مرت بها • وكان من شأن المسافر أو الرحالة ، أن يجد نفسه وجه لوجه ، مع الواقع الجغرافى — بكل أبعاده — فى المكان ، وأن يعايش ويستشعر خصائص المكان وحياة الناس فيه •

وينبغى أن نذكر كيف كانت الرحلة على الطريق ، من بلد الى آخر ، تتحرك متأنية وترصد الطريق لحساب المعرفة الجغرافية • بل ربما كانت الرحلة أحيانا كثيرة أكثر من متأنية ، عندما يجد المسافر حاجة تدعو ، الى الاقامة لبعض الوقت فى البلدان التى يمر بها ، لكى يتكسب قوته من عمل يديه ، أو يروج بضاعته ، أو لكى يجالس العلماء • وهذا معناه أن الرحلة حققت أشكالا من التعامل والتعايش والاختلاط بالناس ، وجمعت التفاصيل الكثيرة عن الأرض والناس ، التى أثرت الكتابة الجغرافية الوصفية عن الأقطار

---

(١) من رحلات السفارة الرسمية ، نذكر رحلة ابن فضلان فى القرن الرابع الهجرى ، الذى أوفده الخليفة العباسى الى بلغاريا • وقد دون ابن فضلان مشاهداته ، لكى ينتفع بها بعد ذلك ياقوت والمسعودى والاصطخرى • راجع ، زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى سنة ١٩٤٥ صفحة ٢٦ وما بعدها ••

(٢) لم تكن هناك رحلة للرحلة ، أو هيئة تنظيم الرحلة وتمولها • بمعنى أن الرحلة كانت اجتهادا شخصيا • ومن ثم كانت بالضرورة هادفة • والى جانب الهدف الأصلى الذى تكون من أجله الرحلة ، تنشأ أهداف ثانوية أو أهداف جانبية • ومن هذه الأهداف الجانبية ، الرؤية الجغرافية للمكان ، أو الرؤية الجغرافية التاريخية المختلطة أو الاسهام فى نشر الاسلام وابلاغ دعوته الى الناس •

والامصار • كما انها عصمت الكتابة الجغرافية الوصفية ، من التردى فى خلط الواقع بالخيال ، ومزج الحقائق بالأكاذيب ، ومن الاستطراد فى ذكر الغرائب وتضخيم العجائب الى حد يطمس الواقع الجغرافى ويخفى ملامحه •

هذا ، وعندما نراجع رصيد هذه المرحلة من الكتابة الجغرافية بصفة عامة ، نتبين انه يجمع بين الكتابة الجغرافية الوصفية ، والكتابة الجغرافية الفلكية الرياضية • وصحيح أننا قد نجد الخلط الشديد بين الكتابة الوصفية، والكتابة الفلكية فى بعض الكتب الجغرافية • وصحيح أن هذا الخلط يعنى افتقاد التخصص والكتابة المتخصصة • ولكن الصحيح أيضا ، ان هـــذا الخلط علامة على الاجتهاد الذى يفتقد الضابط الحاكم لنتائجه وثمراته • ذلك أن الجغرافيين المسلمين ـ فى الغالب ـ قد دفعهم الفضول الشديد ، الى الجمع بين تطلع ونهم الى معرفة الأرض من حولهم فى اطار الاحساس الصادق بوحدة الأرض ووحدة الناس على الأرض ، وتطلع ونهم الى معـــرفة مكان الأرض ومكانتها فى اطار الكون ، فى وقت واحد • من الجائز أن هذا الجيل الأول من الجغرافيين المسلمين قد تأثروا بجغرافية الماضى • ولكن المؤكد أن التخصص لم يكن قد اتضحت معالمه ، وأن الضابط أو الضوابط التى تحكم هذا التخصص لم تكن قد تبلورت بعد •

ويحلو لبعض الكتاب بحسن نية أحيانا ، وبسوء نية أحيانا أخرى ، ذكر هذه الزمرة من الجغرافيين المسلمين فى هذه المرحلة الأولية(١) ـ على انهم أبناء غير شرعيين للمدرسة الجغرافية اليونانية ، وانهم حريصون على ترديد أفكار هذه المدرسة • وهذا القول مرفوض أولا ، ومردود عليه ثانيا• واسقاط هذا القول ورفضه ، يدعو الى الاشارة الى أن ترجمة كتابى بطليموس القلوذى الاسكندرانى ، وهما ، جغرافية بطليموس والمجسطى ، قد أطلع الجغرافيين المسلمين ـ بكل تأكيد ـ على حصاد الفكر الجغرافى اليونانى المهجور(٢) ، وأثر هذا الاطلاع ـ من غير شك ـ على فكرهم(٣) وكتاباتهم • ولكن الصحيح

---

(١) نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب • بيروت سنة ١٩٦٢ •

(٢) كتاب المجسطى كتاب جامع وممتاز ، لبطلميوس القلوذى الاسكندرانى • ويسجل بطليموس فى هذا الكتاب ذروة ما بلغه الفكر اليونانى عن كوكب الأرض • ويضم دروسات موضوعية عن شكل الأرض ، وعن كرويتها ، وعن اختلاف عروض البلدان • كما يضم فيضا غزيرا عن حركة الشمس ، وأوقات نزولهما فى نقطتى الاعتدال ، ونقطتى الانقلاب ، وغير ذلك من أبواب المعرفة عن الجغرافيا الفلكية والرياضية •

راجع د• شريف محمد شريف : المرجع السابق •

(٣) هناك روايتان بشأن ترجمة المسجطى فى القرن الثالث الهجرى • وتنسب الرواية =

أن الانتفاع بهذه الترجمات الجيدة ، لا يجب أن يحرم هذه الزمرة المجتهدة منهم ، من ثمرات اجتهادهم الخاص ، وهى تتصدى للكتابة الجغرافية عن وصف الأقاليم ، أو وهى تسجل الحقائق عن بعض الجوانب الفلكية عن الأرض. ولا يعيب الكتابة الجغرافية - في تصورى - ابدا ، الاعتماد على أفكار وحقائق مأخوذة من جغرافية الماضى بشرط توثيقها ، واضافة أفكار جديدة حققها الاجتهاد الشخصى ، من خلال الدراسة الميدانية أو التجربة الذاتية . بل أقول وهل نفعل الآن غير ذلك ؟

وفى الجغرافية الوصفية ، تسجل كتابات الجغرافيين المسلمين عن الأقطار والامصار ، فى هذه المرحلة ، بعض الاضافات الجيدة ، التى تشبع طالب المعرفة الجغرافية . وهذه الاضافات الجيدة ، حصاد الاجتهاد ، وثمرة الرحلة وتقصى الحقائق ، فى تلك الأقاليم . وفى بعض الأحيان تكون هذه الاضافات، من خلال المعاينة والمشاهدة فى أثناء الرحلة الشخصية ، انطباعا صادقا ومفيدا . وفى بعض الأحيان الأخرى ، تكون هذه الاضافات ، من خلال الاستماع الى رواية واحد أو أكثر من أولئك الذين زاروا فى رحلاتهم هذه الأقاليم ، تصويرا جيدا ومثمرا .

وصحيح أن هذه الاضافات ، قد جمعت فى الكتابة الجغرافية الوصفية بين الغث والثمين ، وخلطت بين المهم وغير المهم من وجهة نظرنا . وصحيح أن الكتابة الجغرافية الوصفية ، لم تحافظ على التوازن ، بين الحديث عن الأرض والناس ، وعن التفاعل الحيوى بين الناس والأرض فى الأقاليم . ولكن الصحيح أيضا ، ان هذه الرؤية الجغرافية ، التى حققت هذه الاضافات فى القرن التاسع الميلادى ، لا ينبغى أن نقومها أو أن نحكم عليها بمنطق ومقاييس القرن العشرين الميلادى . بمعنى انه يجب أن نتقبل هذه الرؤية لجغرافية على أساس أنها تصور شكلا من أشكال الاجتهاد المشكور ، وأنها تعطى أفضل صورة جغرافية بمقاييس ذلك الوقت . بل ويجب أن نتقبل الخلط بين الجغرافية والتاريخ ، أو الاستطراد الى تفاصيل كثيرة ، على أساس ان التخصص الدقيق لم تكن أصوله قد وضعت واتفق عليها بعد .

وفى الجغرافية الفلكية أو الرياضية ، تسجل الكتابة عن الأرض وشكل الأرض ووضع الأرض فى الكون . ولا يقف الأمر عند حد الأخذ أو النقل

= الأولى الى الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب . وتنسب الرواية الثانية الترجمة الى سهل بن ربان الطبرى ، والى الحجاج بن يوسف مراجعة هذه الترجمة . وقيل أن حنين بن اسحق ، قد راجع بنفسه الترجمة فى أول مرة ، ثم راجعها من بعده ثابت بن قرة مرة ثانية ، ثم محمد ابن جابر بن سنان مرة ثالثة .

راجع نفيس أحمد : المرجع السابق ، صفحة ٣٦ .

المباشر من فكر وكتابات بطليموس الاسكندراني • وقد نجد عند ابن رستة ، في كتابه الاعلاق النفسية ، أكثر من علامة على هـذا الاجتهـاد الشخصي بالاضافة(١) • وصحيح أن الأثر اليوناني يمكن أن نتعقبه — بكل الوضوح — في هذا الكتاب عن الجغرافية الفلكية • وصحيح أن الأثر اليوناني يعني الافادة بما ورد في الترجمات التي اطلع عليها • ولكن الصحيح أيضا ، أن تعقب الاثر اليوناني لا يخفي كيف اجتهـد ابن رستة ، وكيف أورد من صميم اجتهاده ، تفسيرا خاصا ، عن كروية الأرض • وهذا التفسير — بكل تأكيد — تفسير مستقل ومختلف تماما عن التفسير العتيق ، الذي أوردته الاجتهادات اليونانية في الفكر الجغرافي القديم(٢) •

وهذا معناه — من غير تحيز — أنه لا ينبغي أن تنكر جهـد زمرة من جغرافيين المسلمين ، أو أن نتنكر لاجتهادات المجتهدين منهم ، في هـذه المرحلة المعاصرة لحركة الترجمة • وصحيح إن الترجمة الجيدة الأمينة ، قد يسرت بعض الجغرافيين المسلمين في آداء دورهم ، وفي تجسيد اجتهاداتهم ، لحساب الفكر الجغرافي العربي الاسلامي • ولكن الصحيح أيضا ، ان الترجمة، لم تحرم أى جغرافي مسلم من حسن استخدام البيانات ، التي وفرتهـا الرحلات الى الأقطار والامصار ، في كتابه وتسجيل الجغرافية الوصفية ، أو من حسن استخدام الأساليب الرياضية المتطورة ، في كتـابة الجغرافية الرياضية والفلكية •

وهذا معناه مرة أخرى — من غير تجني — أنه ينبغي أن نستشعر جدوى الاجتهاد الشخصي ، الذي حققه الجغرافيون المسلمون ، من خلال الدراسة الجادة الموضوعية • ومن شأن هذا الاجتهاد ، أن يتمثل في :

أولا — أعادة الفكر الجغرافي الى صوابه ، وانتشاله من الضـياع ، وتحريكه في الاتجاه الصحيح •

---

(١) ابن رستة ، هو أبو على أحمد بن عمر ، صاحب كتاب الاعلاق النفيسة ، وهذا الكتاب كبير يضم تسعة مجلدات وقد حقق دى جويه هـذا الكتاب ونشره ضمن منشورات المكتبة الجغرافية •

(٢) يذكر الدكتور حسين مؤنس في بحث قيم عن الجغرافية والجغرافيين المسلمين في الأندلس ، أن ابن رستة ، كان مستقلا برأيه ، عندما صور باجتهاد شخصي ، تفسيرا عن كروية الأرض • ولم يلتزم ابن رستة اطلاقا بالرأى اليوناني القديم •

راجع د• حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون في الأندلس • صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلدان ٦ و ٨ سنة ١٩٥٩ — ١٩٦٠ •

ثانيا - اقامة الجسور القوية من أجل الترابط والتكامل الموضوعى بين الفكر الجغرافى القديم المهجور بدون وجه حق ، والفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتفتح على الحق ٠

ثالثا - التمهيد والاعداد للتطور والابداع الذى شهدته مرحلة النضج وتسجيل الاضافات الى الرصيد الجغرافى ٠

وفى اعتقادى - على كل حال - أن هناك فرق كبير - بكل تأكيد - بين، أن يتأثر الجغرافيون المسلمون فى هذه المرحلة ، بالفكر الجغرافى اليونانى القديم ، وأن ينقل الجغرافيون المسلمون ، عن هذا الفكر نقـــلا حرفيا أو مباشرا ٠ والنقل الحرفى والصريح ، عن الفكر الجغرافى اليونانى القديم أمر مرفوض ، لأنه ينفى الاجتهاد من أساسه ٠ بل انه يسقط الجغرافيون المسلمين من زمرة القادرين على الابداع والاضافة والتجديد والتطوير ، وصولا بالفكر الجغرافى العربى الاسلامى الى ما هو أفضل ٠ أما قبول الجغرافيين المسلمين بالتأثير اليونانى ، فهذا أمر مقبول بكل تأكيد ، لأنه علامة على الانفتـــاح والتفتح ٠ بل انه يمثل الدليل عـــلى أن الجغرافيين المسلمين قد أحســـنوا استطلاع جغرافية الماضى ، وأتقنوا استيعاب جوهر الفـكر الجغرافى اليونانى القديم ، لكى تكون من جانبهم الاجتهادات الذاتية ، التى تضيف الاضافات الأنسب الى البناء الفكرى الجغرافى ، لحساب المسيرة الفكرية المتكاملة(١) ٠

وحتى نكون منصفين وموضوعيين فى وقت واحد ، يجب أن نؤكـــد - بكل الثقة - على أن المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية المتأثرة بالفكر الجغرافى اليونانى ، قد وجهت مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، وقدمت الى المعرفة الجغرافية اجتهادا مفيدا ، يخدم التطور والتجديد ٠ بل لقد سجلت الصفوة الممتازة من رجال هذه المدرسة، فى القرن الثالث الهجرى أو نصفه الأخير بالذات ، مسئولية الاسلام الدولة ، عن تقديم الدعم الحافز المادى والمعنوى ، من أجل تحريك وقيادة وحسن توجيـــه المسيرة الفكرية الجغرافية المتطورة ٠ كما فتحت باب الاجتهاد على مصراعيه ، ومهدت لانطلاقة الفكر الجغرافى العربى المتطور ، فى المرحلة التالية ، وهى مرحلة النضج

---

(١) عبقرية الجغرافيين المسلمين ، والمنافسة الحامية فيما بينهم فى أقاليم الدولة الاسلامية التى ينتمون اليهـا ، تؤكد على انهم طلبوا النجاح والتوفيق ، فى تطوير الفـــكر الجغرافى الاسلامى ٠ بل انهم لم يتشبثوا أبدا بالدوران فى فلك الفكر الجغرافى اليونانى ٠

راجع نفيس أحمد : المرجع السابق صفحة ٢٦ و ٣٦ ٠

الفكرى والانتاج الجغرافى الناضج .

هذا ، وتصور كل الأبحاث والدراسات الموضـــوعية المنصفة ، عن الجغرافيين المسلمين ، جدوى الكتابات والتأليف الجغرافى الاسلامى فى هذه المرحلة ، وجديتها لحساب المعرفة الجغرافية . ونذكر عندئذ ، كيف تجاوبت هذه الكتابات والمؤلفات الجغرافية ، فى هذه المرحلة تجاوبا حقيقيا مع حاجة العصر ، فى اطار التطلع الباحث عن(١) المعرفة الجغرافية بالاقطار والامصار على أوسع مدى و (٢) المعرفة الجغرافية بوضع الأرض فى الكون الفسيح .

ومن ثم كان الحصاد مؤلفا من كتب جغرافية مفيدة فى الجغرافيـــة الوصفية ، وكتب جغرافية مفيدة فى الجغرافية الفلكية . هذا بالاضافة الى الاجتهاد الحقيقى فى تجهيز واعداد الخرائط ، وحسن استخدامها وبيـــان وتسجيل بعض المعلومات والبيانات المتنوعة عليها .

ومن خلال مراجعة بعض هذه الكتب الجغرافية المتنوعة ، قد نلمح فيها التأثير اليونانى ، وهو أمر غير مرفوض . ولكن الأهم من ذلك ، هو أن تتبين فى بعض هذه الكتب ، اتجاه ذكى باحث ، عن التفسير الكاشف والمقنع ، عن بعض الظاهرات الجوهرية ، موضع الدراسة والكتابة والتسجيل . ومن خلال مراجعة الخرائط الجغرافية العربية الاسلامية من نتاج هذه المرحلة ، قد نلمح أيضا التأثير اليونانى وهو أمر غير مرفوض . ولكن الأهم من ذلك هو أن نتبين التصحيح الواضح ، الذى يتجنب بعض الأخطاء الصارخة ، فى الخرائط اليونانية القديمة . ومثل هذه الملاحظات التى تصور معنى الاجتهاد الشخصى ، من أهم العلامات المفيدة ، التى تبشر بالتطور والتجديد والاضافة من ناحية ، وتنفى الانسياق الأعمى وراء الفكر الجغرافى اليونانى القديم نفيـــا قاطعا من ناحية أخرى .

وهكذا ، نستشعر كيف ظهرت فى الكتابة الجغرافية العربية الاسلامية النزعة التى تنبىء ، بالتحول من الـكتابة التسجيلية التى تلتقط الصـــور الجغرافية ، وتعبر عنها وتعرضها عرضا صامتا تفتقد فيه الحيوية ، الى الكتابة التحليلية التى تلتقط الصور وتبث فيها النبض الحيوى ، وهى تبحث عن العمق وتتلمس التفسير ، الذى يكمن فيما وراء هذه الصور ، لكى تصورها تصويرا مجسدا . وصحيح أن هذا التحول الذكى البارع ، لم يكتمل ويتخذ الشكل الواضح فى هذه المرحلة الأولية . ولكن الصحيح أيضا ، هو أن هذا الاجتهاد قد فتح الباب على مصراعيه على أمل ، أن تكتمل مظاهر التحول

الى الكتابة التحليلية فى كتابات المرحلة التالية ، التى شهدت النضج الفكرى الجغرافى ، فى وقت لاحق ٠

ومن الجائز أن نتبين فى كتابة الجغرافى المسلم ، كيف يجنح وهو يبحث عن التفسير الى ما شأنه أن يخلط بين الحقيقة والخيال ، على غير ارادته ٠ وقد يتشبث التفسير أحيانا بشىء غير معقول أو غير منطقى من وجهة النظـــر الموضوعية ٠ ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن البحث عن التفسير — فى حد ذاته — خطوة سليمة وادراك واقعى فى الاتجاه الصحيح ٠ بل ومن شأن هذا الاتجاه الذى يجاوب البحث عن كنه الحقائق ، ويرضى تطلع الانسان الى المعرفة وتعليلها ، أن يوجه مسيرة الفكر الجغرافى فى ظل الريادة العربية الاسلامية ، الى الوضع الذى ينبىء بالتطور البنـــاء ٠ بمعنى أن الكتابة الجغرافية ، تحاول التخلص من السرد المجرد وجموده ، وتجتهد من أجل تجسيد حيوية الظاهرات موضع الدراسة والبحث ٠

وفى اعتقادى — على كل حال — أن هذا الاتجاه الباحث عن التفسير ، يمثل اتجاها محمودا من وجهة النظر العلمية ٠ وهو فى — الأصل والجوهر — جزء من حصاد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، قبل أن يلتقط الأوروبيون أطراف الخيوط من الجغرافيين المسلمين ، ويتولون أمر مسيرة الفكر الجغرافى ، فى عصر النهضة الأوروبية بوقت طويل ٠ وهذا معناه أن بعض الصفوة من الجغرافيين المسلمين — على الأقل — قد فجروا مبدأ السببية ، ووضعوا قاعدة البحث عن التفسير المقنع الواضح والموضوعى ، لأى ظاهرة جغرافية موضع الدراسة ، قبل أن يتبنى الأوروبيون هذه القاعدة الجوهرية ، وينسبوها الى اجتهاداتهم الفلسفية ، بحوالى خمسة أو ستة قرون كاملة ٠

وهكذا ، حاول الاجتهاد العربى الاسلامى ، أن يضع الكتابة والتسجيل الجغرافى فى وضع أفضل ٠ وقد تجلت بعض المحاولات ، التى توخت الجمع بين التوسع الأفقى للمعرفة الجغرافية من خلال الرحلة أو التقويم العلمى ، وما تجنيه من ثمرات مفيدة ، لحساب الكشف والتفسير الجغرافى ، والتعميق الرأسى ، من خلال التدبر والتأمل وما يكفله البحث العميق من ثمرات مفيدة ، لحساب الفكر الجغرافى ٠

المسيرة الفكرية الجغرافية :

تمثل مسألة المسيرة الفكرية الجغرافية ، الوجه الآخر من قضية الفكر الجغرافى العربى ، فى المرحلة الأولية، التى شهدت الاجتهاد العربى الاسلامى،

لاحياء وتطوير هذا الفكر • ومسألة المسيرة الفكرية ، في أحضان الجغرافيين المسلمين ، قد تدعو أولا - وقبل أي شيء - الى اثارة موضوع الخلط بحسن نية والتدخل العفوى بين الفكر الجغرافي والفكر التاريخي • ومعلوم أن قطاع الجغرافية الوصفية ، يكشف أو يصور ، كيف يكون الخلط والتداخل أمرا عاديا ، والى الحد الذى يجعل من الكتاب ، جغرافيا ومؤرخا ، في وقت واحد • بل قد يتمادى الخلط ، ويضيف الى الوصف الجغرافي والوصف التاريخي معلومات متنوعة كثيرة ، لا ينبغي أن تكون في اطار أى منهما •

وصحيح أن الجغرافي يلتزم أصلا بدراسة المكان وخصائص المكان وحياة الانسان في المكان ، وأن المؤرخ يلتزم بدراسة مسيرة الأحداث التي تسجلها قصة الحياة في المكان • وصحيح أن هناك فرق جوهرى وموضوعى ، بين استطلاع الواقع في المكان ، وهى مهمة الجغرافى ، واستطلاع أحداث الزمان الذى يطوى صفحات الحياة في نفس المكان ، وهى مهمة المؤرخ • وصحيح أننا بمقاييس العصر الذى نعيش فيه الآن ، نميز تمييزا كليا ، بين مهمة الجغرافى وهو يستطلع الواقع في المكان في الزمن المعين ، ومهمة المؤرخ ، وهو يستطلع الماضى الذى يسجله مرورا في الزمان والمكان • ولكن الصحيح أن هذا التمييز(١) ، في ذلك الوقت الذى خلط فيه الصفوة من علماء المسلمين بين الجغرافيا والتاريخ ، كان بكل تأكيد أمرا صعبا •

وهكذا ، لا يمثل هذا الخلط أو التداخل بين مسيرة الفكر الجغرافى ومسيرة الفكر التاريخي شيئا خطيرا ، ينبىء بالخلل أو عدم الموضوعية ، لدى الكتابة والتسجيل • بل ان الخلط والتداخل في ذلك الوقت ، هو مسألة أسلوب أو نمط سائد ، يمليه منطق الاستطراد وتداعى الأفكار والمعانى وكان من شأن هذا الاستطراد ، أن يربط بين اهتمام الجغرافى بالمكان والتفاعل الحياتى فيه ، في الزمن المعين ، وهذا معناه أن مسألة الخلط لا تمثل بدعة ، في مسيرة الزمان • وهذا معناه أن مسألة الخلط لا تمثل بدعة ، ابتدعها المفكرون والكتاب المسلمون ، بل انها وليدة نمط فكرى جرى مجرى العرف السائد عليه ، لدى الكتابة عن جغرافية المكان أو تاريخ المكان •

---

(١) التمييز بين الجغرافية والتاريخ والفصل بينهما ، أمر مستحدث منذ حوالى ثلاثة قرون فقط • وقد تأتى هذا التمييز تأسيسا على اتفاق بنى على تخصص واضح صريح ورؤية سليمة ، تضع - بكل الحنكة - الفاصل بين استشعار عامل المكان ، واستشعار عامل الزمان •

هذا ، ولا ينبغي أن نتصور أن التأثر بالفكر اليوناني ، الذى خلط بين الجغرافية والتاريخ ، قد أصاب الصفوة من علماء المسلمين بعـــدوى النمط الفكرى ، فساروا على نفس الدرب . بل يجب أن نتذكر كيف أن ما جرى عليه العرف عند العرب ، من حيث متابعة الأنساب ، التى تصور شغفهم بملاحقة الحياة وحكاية الحياة ، على درب الزمان ، كان من شأنه أن يلح على الفكر العربى ، وهو يستطلع الواقع الحياتى فى المكان ، وينغمس فى الخلط بين الجغرافية والتاريخ . بمعنى أن الأصل فى الفكر والكتابة الجغرافية ، أن يصور الكاتب الواقع الحياتى فى المكان ، لكى نجد فى هذا التصوير وصفا جغرافيا للمكان . ولكن لا يلبث الاستطراد أن يدعو الكاتب الى ملاحقة الواقع الحياتى فى الزمان ، لكى تتسلل الى التصوير الجغرافى حكاية ووصفا لتاريخ الحياة فى المكان . وقد يحدث العكس تماما ويتحول الكاتب من التصوير التاريخى فى المكان ، الى الوصف الجغرافى ، فى نفس المكان .

ويكون الاستطراد مرة أخرى من وراء تسلل بعض المعلومات ، التى تلفت انتبــاه الكاتب ، ويستهويه ذكرها ، فى موضع يحس أنه الأنسب ، فى العرض الذى يخلط بين الجغرافية والتاريخ . ومن الجائز أن تكون هذه المعلومات والبيانات مفيدة فى حد ذاتها ، ولكن المؤكد انها تشوه الفكرة الجغرافية أو الفكرة التاريخية ، التى ينبغى التركيز عليها . وقد يبـــدو الاستطراد عند بعض الكتاب ملحا الى الحد الذى يضيع فيه معالم الموضوع ، أو الذى تفتقد فيه الكتابة سياق العرض الموضوعى الرتيب .

وصحيح أن الاستطراد من هذا النوع، يحول الخلط الى شكل من أشكال الخلل فى الكتابة ، ويفقدها جديتها وجدواها الموضوعية . ولكن هل صحيح أيضا أن الاستطراد الذى يتسبب فى الخلط بين الجغرافيا والتاريخ ، يمثل عيبــا فكريا ، أو عجزا فى استشعار الحد الفاصل بين ، عامل المكان الذى يصور الواقع الحياتى فى الوقت المعين ، وعامل الزمان الذى يصور سياق الواقع الحياتى ورتابة أحداثه مع مرور الوقت ؟

وعندما نتحسس الخلط الذى تحتويه الكتب والمؤلفات ، التى قدمها المفكرون المسلمون ، الى الكتابة العربية الاسلامية ، نجده واضحا ، فى الكتب الوصفية عن أقطار وأمصار العــالم الاسلامى ، ونفقده فى الكتابة الفلكية ، التى تعالج شكل الأرض وأوضاعها الفلكية . وهذا معناه أن الخلط والتداخل بين الجغرافية والتاريخ ، لا يتأتى الا فى حالة الكتابة الوصفية فقط ، حيث يحدث الاستطراد من جغرافية المكان الى تاريخ المكان أحيانا ، ومن تاريخ المكان الى جغرافية المكان أحيانا أخرى .

وفي اعتقادي - على كل حال - أنه في ذلك الوقت الذي زاد النهم فيه. على طلب المعرفة عن الاقطار والأمصار انكبت الكتابة على الوصف المجرد ، تجاوبا مع هذا النهم . وعندئذ يكون الخلط بين التسجيل والوصف الجغرافي والتسجيل والوصف التاريخي أمرا متوقعا . وهـــو خلط يعيب الكتابة ، ولكنه لا يمثل عيبا في الفكر نفسه ، ولا يعبر عن عجز في رؤية أو استشعار الحد الفاصل بين الجغرافية والتاريخ . وبمعنى أوضح لا يجب أن نعتبر هذا الخلط عيبا فكريا حقيقيا ، الا بعد انسلاخ الجغرافية عن التاريخ ، واستغراق كل منهما في تخصصه الصريح(١) .

ومن غير أن نأخذ بمنطق وروح وأهداف التخصص الصارم ، الـــذي تولد بعد أن انسلخت الجغرافية عن التاريخ ، وسار كل منهما في طريقه ، وصـــولا الى الأهـــداف التي حددها كل تخصص صريح ، ينبغي أن نصرف النظر - بكل اطمئنان - عن هذا الخلط بين ، التسجيل التاريخي والتسجيل الجغرافي ، عند المفكرين المسلمين . ذلك أن الخلط والتداخل - كما قلنا - لا يمثل عيبا فكريا أو تقصيرا في الادراك الفكري ، أو تجاهلا للفاصل بين هدف الفكر الجغرافي وهدف الفكر التاريخي . بل انه لا يصور عجزا في تصور الحد الفاصل بين المكان وهو يحتوي الحياة ، والزمان وهو يطوي صفحات الحياة في المكان . ومن شأن هذا الخلط - في تصوري - عدم الطعن في جـــدية وموضوعية الدراسة والبحث والتسجيل الذي يعبر عن حصاد التفكير البناء ، لأنه يمثل - بكل تأكيد - استطرادا مجردا ، يتجاوز فيه فكر الكاتب الفاصل بين الرؤية الجغرافية للمكان ، والرؤية التاريخية للمكان ، والعكس صحيح .

وبهــــذا المنطق الواقعي ، لا ينبغي أن نستشعر خطيئة الخلط بين الجغرافية والتاريخ ، وفوضوية التداخل بين مسيرة الفكر الجغرافي ومسيرة الفكر التاريخي ، حتى ولو تخبط هذا الخلط تخبطـــا شديدا ، وتشوهت الصور التي تحتويها الكتابة . ومن ثم لا يجب أن نستنكر هذا الخلط أو

---

(١) في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، يعلق الجغرافي الانجليزي بنكرتون ، على انسلاخ الجغرافية من التاريخ قائلا (الجغرافية مثل التاريخ لا تتطلع الا الى توضيح التاريخ ، ولكن بعد أن واجهت الجغرافية مهام جديدة . وازدادت مادتها العلمية يوما بعد يوم ، كسرت الرباط الذي كان يربطها بالتاريخ ، واحتلت الجغرافية مكانها اللائق بها كعلم مستقل . وقد تحولت من خادم للتاريخ الى معلم ، وهو معلم موهوب له نظر ثاقب وبصيرة نفاذة وقدرة على التنبؤ بالمستقبل) راجع مقالة جورج تاتهام في كتاب الجغرافية في القرن العشرين ترجمـــة د. غلاب ص ٥٠ و ٥١ .

هذا التداخل ، لأنه سواء كان بقصد أو من غير قصد ، لا ينطوى على اخلال بهدف التسجيل الجغرافى عن الواقع الحياتى فى المكان ، ولا ينطوى على اخلال أيضا بهدف التسجيل التاريخى عن سياق أحداث التحرك الحياتى فى الزمان .

وبهذا المنطق الواقعى أيضا ، يبدو الخلط مطلوبا – بكل الالحاح – فى بعض الأحيان ، لكى يبصر المصلحة المشتركة بين الهدف الذى تتبناه الجغرافية والهدف الذى يتبناه التاريخ . وحتى بعد الانسلاخ بين الجغرافية والتاريخ ، وبعد التخصص الصريح ، والفصل الموضوعى الذى التزم به الفكر الجغرافى والفكر التاريخى منذ حوالى القرن التاسع عشر الميلادى ، تظل الفكرة الجغرافية من غير حرج فى حاجة الى استشعار ذكى وحسن استخدام البعد التاريخى فى اطار الدراسة التحليلية ، وتظل الفكرة التاريخية من غير حرج أيضا فى حاجة الى استشعار ذكى وحسن استخدام البعد الجغرافى فى اطار الدراسة التحليلية .

وفى اعتقادى – على كل حال – أن هذا الخلط الذى فرضه الاستطراد فى المعالجة والانسياق فى تداعى المعانى ، يعنى – بكل تأكيد – أن الفكر الجغرافى والفكر التاريخى ، كانا يمثلان فى ذلك الوقت ، وجهين لعملة واحدة . ومن شأن هذه العملة التى كانت مقبولة ، أن تمثل قمة الاهتمام الذى ينصرف الى البحث الموضوعى ، لحساب التكامل والاستمرار للواقع الحياتى فى المكان ، وفى الزمان ، فى وقت واحد . وينبغى أن نفطن – بالضرورة – الى أن عملية الخلط بين التسجيل الجغرافى والتسجيل التاريخى شىء ، وأن الخلط بين فلسفة الفكر الجغرافى وفلسفة الفكر التاريخ شىء مختلف تماما . ولكن هل كانت هذه الفلسفة قد تبلورت ، فى ذلك الوقت ؟ وهل آن الأوان فى هذه المرحلة ، التى انكب فيها الكتاب على احياء الفكر الجغرافى وتطويره لكى نستشعر مدى الخلط بين فلسفتين متباينتين وغير متبلورتين ؟

وصحيح أن فلسفات العلوم فى ذلك الوقت ، لم تكن قد تبلورت بعد ، لكى نستشعر مدى التداخل فيما بينها . ولكن الصحيح أيضا ، اننا نفتقد العلامات ، التى تشير الى احتمال التداخل والخلط بين ارهاصات هذه الفلسفات غير الناضجة . وهذا معناه أنه ربما يسجل صاحب الفكر الجغرافى بعض الأحداث التاريخية ، فى سياق كتابته ودراسته الجغرافية الوضعية الهادفة ، من غير أن يتخلى – بالفعل – عن فلسفة الخط الجغرافى السليم ، فى العرض الذى يسجله ، لأنه جغرافى قبل أى شىء آخر . ومعناه أيضا ،

أنه ربما يسجل صاحب الفكر التاريخي الصور الجغرافية ، في سياق متابعة الأحداث التاريخية ، من غير أن يتخلى عن فلسفة الخط التاريخي المسلم ، في العرض الذي يسجله ، لأنه مؤرخ قبل أي شيء آخر • ومن شأن الباحث البارع في الوقت الحاضر ، الذي يطالع الكتابة والتسجيل ، في أي من الكتب العربية الاسلامية القديمة ، أن يميز بين الجغرافي الذي يتسلل التاريخ الى كتابته ، والمؤرخ الذي تتسلل الجغرافية الى كتابته •

وهكذا — نتبين — بكل الوضوح — أن مسيرة الفكر الجغرافي قد تأبطت مسيرة الفكر التاريخي ، أو أن مسيرة الفكر التاريخي قد تأبطت مسيرة الفكر الجغرافي على الطريق ، من غير حرج ، وكان الأخاء حاجة ملحة ، والترابط هدف أصيل ، والمصير أساس مشترك • وسواء كانت الجغرافية عاملة في خدمة التاريخ ، أو كانت الجغرافية مسئولة وهي تبصر التاريخ وتوجهه في أداء دوره ، فان الزمرة المرموقة من المفكرين المسلمين، من جغرافيين ومؤرخين قد أفاضوا واجتهدوا وأسهموا بكل الجـــدية ، في اثراء المكتبة العربيـــة الاسلامية • كما أسهموا اسهاما مشتركا في تنشيط وتطوير مسيرة الفكر الجغرافي ومسيرة الفكر التاريخي المشتركة • ولم يفرق بين هذه الزمرة سوى اتجاه الجغرافيين واتجاه المؤرخين ، كل على انفراد الى وضع حجر الأساس في المنطق الفلسفي من وراء كل من الجغرافية والتاريخ •

هذا ، ولكي نبلور الموقف ، ونقوم انتاج هذه المرحلة الأولية ، التي شهدت وسجلت نشاط المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية ، المتأثرة بالفكر اليوناني القديم ، يجب أن نذكر اجتهاد بعض الرواد المرموقين من أبنـــاء هذه المدرسة ، ومدى اقبالهم على تأليف الكتب الجغرافية • وفي اطار الاجتهاد، ينبغي أن نميز بين فريقين من هؤلاء الرواد ، في الكتابة الجغرافية • ذلك أن كل فريق من هذين الفريقين أصبح صاحب فضل في أكبر قدر من التوازن بين ، حصاد الجغرافية الوصفية العامة ، وحصاد الجغرافية الفلكية الرياضية المتخصصة •

والفريق الأول ، من رواد هذه المرحلة ، انكب عـــلى دراسة الأرض ، وصرف الاهتمام كله الى التعريف الجغرافي بالمكان في الاقطار والامصار على الأرض • ومن ثم كان اجتهاد هذا الفريق ، لحساب الكتابة الجغرافية الوصفية العامة • والتسجيل الجغرافي في هذه الكتابات الجغرافية الوصفية ، الذي يختلط بالتسجيل التاريخي عن الاقطار والامصار، موضع الدراسة والاهتمام، يصور مدى انتفاع الكتاب بالرحلة • وهذا معناه أن حصاد الرحلة ســواء

تأتي من خلال المعاينة المباشرة ، أو من خلال الاستماع الى الرواية عنها ، أعطى ثمرة الرؤية الجغرافية للمكان واستشعار خصائصه • ومن ثم اتسمت الكتابة بقدر معقول من الصدق ، لدى عرض الصور الجغرافية •

وصحيح أن بعض الكتاب اجتهد وركز كل اهتمامه على قطر بعينه ، كما فعل أحمد بن محمد الرازى(١) ، الذى سجل كتابا ، هو - بكل تأكيد - أول كتاب بالعربية ، عن جغرافية الاندلس • وصحيح أيضا ، أن بعض الكتاب الآخرين اجتهد وركز اهتمامه على قطاع كبير من الأرض ، يشمل مجموعة من الأقطار والامصار ، كما فعل ابن فقيه الهمدانى ، الذى أفاض فى كتابه عن جغرافية الأرض والبحار . بذكر الهند والصين والعراق وجزيرة العرب • ولكن الصحيح - بكل تأكيد - أن معظم الجغرافيين المسلمين من هذا الفريق المجتهد ، قد أفاض فى كتابته عن المسالك والممالك ، كما فعل ، ابن خرداذبة(١) ، وجعفر بن أحمد المروزى ، وأحمد بن محمد السرخسى . وأحمد بن واضح اليعقوبى(٢) ، وأبوالفرج قدامه بن جعفر • وهؤلاء جميعا من أصحاب الكتب والمؤلفات الجغرافية الوصفية ، التى تصور الواقع الجغرافى المخلوط بالتاريخ والقصص والحكايات والطرائف ، عن أقطار وأمصار كثيرة فى اطار العالم الاسلامى •

هذا ، وقد شهدت هذه الفترة أو المرحلة فى فجر القرن الرابع الهجرى،

---

(١) الرازى جغرافى أندلسى ، سجل كتابه عن جغرافية الأندلس بعنوان (أخبار الأندلس) • وفى هذا الكتاب عرض جغرافى وصفى عام ، وتصوير جيد جغرافيا وتاريخيا عن بلاد الأندلس •

راجع ، السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٦ ، صفحة ١٨٨ •

(١) ابن خرداذبة ، هو أبو القاسم عبيد الله • وهو جغرافى من أصل فارسى • وقد اشتغل عاملا على البريد . وقد أفاد من عمله فى البريد ، فى انجاز كتابه عن الشرق الأقصى والطرق البرية اليه •

(٢) اليعقوبى من أصل عربى • استهوته الرحلة واشتغل بالجغرافية • وقد أفاد من الرحلة وهو يجوب الأرض ، فى انجاز كتابه البلدان • ويعرض هذا الكتاب وصفا جغرافيا لأقطار من الشرق مثل ايران وطوران ، ولأقطار من الغرب مثل المغرب ، ولأقطار من قلب العالم الاسلامى مثل الشام ومصر والنوبة وجزيرة العرب • ويتضمن هذا العرض الجغرافى قصصا وحكايات ، فى سياق مناسب عن تاريخها ، وخط سير الأحداث التاريخية فيها • وقد يضيف الى ذلك كله بعض الطرائف والمسائل الاجتماعية •

اهتمام الجغرافيين المسلمين ، من أصحب المؤلفات فى الجغرافية الوصفية ، برسم واعداد الخريطة الجغرافية • وقد ألحق بعض الجغرافيين بكتابة الخريطة الجغرافية ، لكى تبصر وترشد متابعة التسجيل الجغرافى عن المكان ، فى الاقطار والامصار ، التى كانت موضع الاهتمام • وصحيح أن بعض الجغرافيين المسلمين قد اعتمـــد على خريطة بطليموس اعتمادا كليا ، لكى يجهز خريطة كتابه • ولكن الصحيح أيضا ، أن معظم الجغرافيين المسلمين ، قد أجرى التعديل والتصحيح لكى يتجنب فى خريطته ، بعض الأخطاء ، التى تكشفت له فى خريطة بطليموس •

وهكذا ينبغى أن نسجل لحساب هذا الفريق من الجغرافيين المســلمين ثلاثة نتائج هامة ، حققها الاجتهاد الحقيقى فى حقل الجغرافية الوصفية • وتمثل هذه النتائج - فى نفس الوقت - الدليل على أن هذا الفريق لم ينقل عن الفكر اليونانى نقلا مباشرا ، يحرمهم من حق تسجيل اجتهاداتهم الذاتية• وهذه النتائج هى :

أولا - أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقل الجغرافية الوصفية ، مهارة فى استخدام الكلمة واستخدام الصورة فى وقت واحد ، لكى يصبح التعبير عن الصور الجغرافية الوصفية ، تعبيرا موضوعيا •

ثانيا - أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقل الجغرافية الوصفية ، مهارة فى استخدام حصاد الرحلة ، لكى يصبح التعبير عن الصـــور الجغرافيـــة الوصفية ، نابعا من الحس الجغرافى ، وكأنها دراسة ميدانية •

ثالثا - أظهر الجغرافيون المسلمون فى حقـــل الجغرافية الوصفية ، مهارة فى دفع مسيرة الجغرافية والتمهيد الحقيقى للتطور الذى يسجله ويكشف عنه اعداد الكتاب الجغرافى الوصفى الأفضل ، وتجهيز الخريطة الأجود ، فى المرحلة التالية التى تمثل مرحلة النضج والتفوق •

والفريق الثانى ، من رواد الجغرافية فى هذه المرحلة الاولية ، تطلع الى السماء واجتهد ، وصرف الاهتمام كله الى معرفة وضع الأرض فى الكون• ومن ثم صب كل اجتهاده الجغرافى المثمر ، فى الكتابة الجغرافية الفلكية • وفى مثل هــذه الكتابة الجغرافية الموضوعية ، ينتفى الخلط ويفتقد التداخل بين التسجيل الجغرافى الذى يستطلع وضع الأرض فى الكون ، والتســجيل التاريخى الذى يتابع قصة الحياة ومسيرتها على الأرض• وقد انتفع هذا الفريق

بالمراصد التى أقيمت ، لكى يرقب العلماء منها اجرام السماء • ونذكر من هذه المراصد ، مرصد جنديسابور ، ومرصد المأمون فى سهل تدمر ، ومرصد جبل قيسون فى الشام • كما انتفع هذا الفريق أيضا ، بثمرات التقدم فى علوم الرياضيات والحساب • وقد هيأت هذه المراصد والعلوم الرياضية ، لهذا الفريق الفرص لكى يخوض التجربة الفلكية ، لاخراج تسجيله عن الأرض •

وصحيح أن بعض الجغرافيين المسلمين اجتهـــد ، واسترشد بكتابات بطليموس الجغرافى فى كتابه المجسطى ، واقتبس منه لكى يخرج كتابه ، كما فعل أبو يوسف يعقوب الكندى المعروف بعنوان رسم المعمور من الأرض • ولكن الصحيح أيضا ، أن بعض الجغرافيين المسلمين ، قد اجتهد وتحرر من الأخذ عن بطليموس ، وآثر أن يسجل اجتهاده الشخصى ، كما فعل أبو على أحمد بن رستة ، فى كتابه الاعلاق النفسية ، لكى يحقق نفسيرا ذاتيا عن كروية الأرض •

هذا وقد خاض بعض الجغرافيين المسلمين ــ بكل الثقة ــ التجربة الحية ، التى حدثت فى أواخر هذه المرحله ، حوالى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى ، على عهد الخليفة المأمون ، الذى أجزل لهم العطاء • وقد تمثلت هذه التجربه الممتازة ، فى محاولة فذة وجريئه ، لقياس الأرض • وكان المطلوب من هذه التجربة الفذة ، اجراء التصحيح على أى خطأ محتمل فى القياسات اليونانية الســابقة ، وهى قياســات ايراتوستين وبطليموس القلــوذى الاسكندرانى(١) •

وخوض التجربة الحية ، وممارسة الدراسة الميدانية واستطلاع السماء من المراصد ، واستخدام الأساليب الرياضية المتطورة ، وصولا الى النتائج الأصح وتداركا للأخطاء التى تردت فيها التجارب اليونانية من قبــل ، معناه :

---

(١) يصف كراتشكوفسكى هذه التجربة على انها ممتازة • وبالمقارنة مع تجربة بيسل الذى انتشر قياسه وأخذ العالم به فى القرن التاسع عشر الميلادى ، تتبين كيف كان القياس العربى على عهد المأمون سليما الى حد يلفت النظر • والفرق بين القياسين لا يتجاوز اكثر من كيلومتر واحد فقط • ويعتقد كراتشكوفسكى أن الجغرافيين المسلمين ، قد امتلكوا الوسيلة الجيدة والخبرة الرياضية الفنية ، التى أنجزت وأنجحت هذا القياس •

راجع الترجمة العربية لكتاب كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى • ترجمــة صلاح الدين عثمان هاشم ، صفحات من ٨٢ الى ٨٤ •

أولا - ان الجغرافيين المسلمين رجال بحث وعمل وانجاز واجتهاد شخصى، يستهدف الاضافة والابداع .

ثانيا - ان الجغرافيين المسلمين لم ينقلوا عن الفكر اليونانى نقلا حرفيا، ولم يلتزموا التزام الناسخ الآلى بما ورد فى هذا الفكر .

ثالثا - ان الجغرافيين المسلمين، قد شكوا فى التجربة اليونانية، وانهم أخذوا من التجربة الذاتية سبيلا لقطع دابر هذا الشك، والوصول الى الحقيقة .

وتأسيسا على هذه التجربة، كانت الاضافة التى تمثلت فى خريطة المأمون المشهورة . وصحيح أن هذه الخريطة مفقودة . ولكن الصحيح أيضا، أن المعلومات المتوفرة عنها، تصور كيف تضمنت بعض التصحيح الهام لبعض الأخطاء التى تردت فيها خريطة بطليموس الجغرافى . وقد اشترك أكثر من خمسين عالما متخصصا فى رسم وانجاز التصحيحات التى، أكسبت هذه الخريطة المرسومة فى القرن التاسع الميلادى الشهرة الحسنة .

* * *

وهكذا، نتبين الجغرافية وقد بعثت من رقدة العدم . وندرك كيف تتخذ لها مكانا ومكانة بين أبواب المعرفة . كما نستشعر كيف تخطو مسيرة الفكر الجغرافى خطوات منتظمة، بعد أن أعاد الجغرافيون المسلمون الى الجغرافية صوابها . بل ودب النشاط وسجلت الكتابات الجغرافية الوصفية والفلكية اضافات كثيرة، تنبىء بالتقدم على الطريق وصولا الى ما هو أفضل . وأصبح الجغرافيون المسلمون رواد هذا الفكر المتطور من غير منازع، وقادة هذه المسيرة الفكرية الموفقة .

وعندما تتكشف لنا هذه الحقيقة - بكل الوضوح - ينبغى أن نتبين أو أن نستشعر، كيف قدم الاسلام الدين، وكيف قدم الاسلام الدولة، الدعم الحافز للفكر الجغرافى فى هذه المرحلة الأولية . وانعم بالاسلام الدين الذى قدم الدعم الحافز للفكر الجغرافى، عندما أطلق سراحه، وآمن التفكير الحر المنطلق، بحثا عن الحقائق الجغرافية، لحساب المعرفة الجغرافية الأفضل . وأنعم بالاسلام الدولة، التى أغدقت ماديا ومعنويا بكل السخاء على حركة الترجمة، لكى تدعم الانفتاح على الفكر الجغرافى القديم المهجور، ولكى تحفز أهل الفكر العاملين لحساب المعرفة الجغرافية الأوسع والأفضل .

* * *

الفكر الجغرافى العربى الأنضج :

فى حوالى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، أو ما يعادل حوالى القرن العاشر الميلادى ، تبدأ مرحـــلة جديدة ، هى مرحلة الفكر الجغرافى الأنضج . ومن شأن هذه المرحلة ، أن تسجل التقدم الذى أحرزه الفكـــر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى أحضـــان الصفوة المرموقة من الجغرافيين المسلمين . بل انها تصور كيف سارت الجغرافية فى ركب الحضارة الاسلامية، التى سجلت صعودا وتعاظما ، وصولا الى قمة المجد والتفوق والابداع .

وصحيح أن هذه المرحلة ، التى سجلت الفكر الجغرافى الاســلامى الأنضج ، تمثل الوليد الشرعى ، للمرحله السابقة ، التى سجلت الاجتهاد الاسلامى فى الجغرافية . ولكن الصحيح أيضا ، أن النضج فى هذه المرحلة ، معناه تحرر الفكر الجغرافى العربى تحررا كليا ، من التاثر بالفكر الجغرافى القديم . وهذا معناه ــ بكل تأكيد ــ أن الاجتهاد على مدى قرن من الزمان فى المرحلة السابقة ، قد أثمر ثمرة عظيمة . وتتمثل هــذه الثمرة فى تكامل مقومات الشخصية العربية الاسلامية للفكر الجغرافى ، تكاملا حقيقيا . ومن ثم أصبحت رؤية المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية واضحة ، وهى تأخذ بزمام مسيرة الفكر الجغرافى المتطور ، على طريق التقدم .

وصحيح أن الاسلام الدين والاسلام الدولة ، كانا ــ بكل تأكيد ــ من وراء الدعم الحافز ، الذى أنعش الفكر الجغرافى وبعثه من رقدة العدم ، وأعاد مسيرته الى الخط السليم . وصحيح مرة أخرى ، أن هذا الدعم الحافز ، قد حث الصفوة من الجغرافيين المسلمين ، لكى تحترف التفكير الجغرافى وتتصدى للفكر الجغرافى ، وتصنع التطور فى المرحلة الأولية ، التى استغرقت حوالى قرن من الزمان . ولكن الصحيح أيضا ، أن الاسلام الدين والاسلام الدولة ، قد واصل آداء دوره البناء ، لكى يدعم النضج الفكرى ، ويكفل الفكـــر الجغـــرافى المتطور الأنضج ، وصـــولا الى القمة أو الذروة . ومن ثم يــكون المطلوب ، أن نتبين كيف واصل الاسلام الدين والدولة أداء هذا الدور بكل التفتح ، وكيف كان شكل الدعم الحافز لتطوير الفـكر الجغرافى الناضج ، ونتاج الدراسات والأبحاث والكتابات الجغرافية الأنضج .

ولئن كانت مواصلة الاسلام الدين والدولة ، آداء دوره البنـــاء ، لدعم الفكر الجغرافى ، ولحفز الجغرافيين المسلمين ، على تحمـــل مسئولياتهم فى خدمة الفكر الجغرافى الأنضج ، مسألة استمرار منطقى لا يقبل الجدل ، ولا

يبحث عن الدليل ، فينبغى أن نتبين كيف تأتى هذا الاستمرار ، من خلال التجاوب الحقيقى مع دورين وظيفين متداخلين ومتكاملين . وهذان الدوران الوظيفيان هما :

أولا ـ دور الدولة الوظيفى ، التى يشتد بنيانها الدين ، وهى تهيمن وتفرض النظام وتقيم العدل ، وتشيع الأمن ، فى أنحاء العالم الاسلامى ، على الصعيد الأفريقى الآسيوى، أو وهى تتمتع بهيبة وشمعة ومكانة الدولة الأعظم فى مجتمع الدول فيما وراء العالم الاسلامى .

ثانيا ـ دور المسلمين الوظيفى ، الذين انطلقوا بكل الايمان والنشاط الى تجزبة الرحلة ، التى تجوب الأرض ، لأكثر من هدف ، وتتعرف على الاقطار من ديار المسلمين ، أو فيما وراء ديارهم فى كل من آسيا وافريقيا وأوروبا .

هذا ، وكان من شأن هذين الدورين المتكاملين ، تقديم الدعم الحافز للفكر الجغرافى على مستويين ، هما (١) الرحلة وهى تجمع الحصاد وتقدم الاضافة الى قطاع المعرفة الجغرافية الوصفية و(٢) المراصد وهى ترقب قبة السماء وتطالع الأجرام وتقدم الاضافة الى قطاع المعرفة الجغرافية الفلكية . وهذا معناه أن الاسـلام الدين والدولة بكل الوزن السياسى والاقتصادى والحضارى ، كان من وراء تهيئة المناخ الأفضل للبحث الجغرافى ، الذى حقق الفكر الجغرافى المتطور الأفضل .

١ ـ الرحلة والفكر الجغرافى :

صحيح أن الرحلة ، تكون من أجل هدف ووصولا الى غاية بعينها . ولكن الصحيح أيضا أن تأمين الرحلة على الطريق ، هو دعم وحافز ، من وراء التحرك وصولا الى هذا الهدف أو تلك الغاية . وفى اعتقادى أن اشاعة الأمن والطمأنينة فى ديار المسلمين ، وفرض النظام فى ربوعها ، واشاعة هيبة الدولة فيما وراء هذه الديار ، فى أنحاء وسعة من جزيرة العالم ، كان ـ فى حد ذاته ـ أهم دعم تطلبه الرحلة، لكى تؤمن ذاتها، وتطمئن مسيرتها الهادفة، فى أى اتجاه .

وهكذا قدم الاسلام الدين والدولة ، من خلال اليد القوية الحاسمة ،التى تمثلت فى السـلطة والسلطان الحاكم فى الأرض ، الدعم ، لكى يكون أهم عين يقظة تحرس الرحلة ، وأهم حافز مغر يحفز الرحالة على الطريق ، وأهم

دعوة صريحة تدعو الى جنى ثمرات متنوعة ، في كل أرض وطئتها أقدام الرحالة المسلمين ، فى الدولة الاسلامية • ويجب أن نذكر أن الرحلة اعتبارا من القرن العاشر الميلادى انطلقت على أوسع مدى ، وتجاوزت ديار المسلمين ، على أمل أن تحقق أهدافا متنوعة ، **اقتصادية** وهى تعمل لحساب التجارة ، **ودينية** وهى تعمل لحساب فريضة الحج ، **وادارية** وهى تعمل لحساب العلاقات بين الدولة الاسلامية ومجتمع الدول الخارجى ، **وعلمية** وهى تعمل لحساب العلم وطلب العلم والمعرفة •

ولأن الرحلة تبنت الهدف العلمى وتطلعت الى المعرفة وطلب العلم ، ينبغى أن نتبين ما اذا كانت الرحلة قد أفادت وقدمت الثمرة الى المعرفة الجغرافية • وصحيح أن الرحلة هيأت الفرص فى كل اتجاه ، ولأى هدف ، لكى يتعرف الرحالة على الاقطار والامصار ، ولكى يحيطون علما بالمسالك والسبل والدروب منها واليها • وصحيح أن الرحلة عايشت الحياة فى هذه الأقطار وهى تجوب ربوعها ، وجنت ثمرة التجربة فى انحائها • ولكن الصحيح أيضا ، أن رحلة من هذه الرحلات لم تكن معنية أصلا بالهدف الجغرافى • وهذا معناه أن الرحلة من أجل أى هدف أصلى ، كانت أيضا من أجل هدف ثانوى تمثل فى خدمة المعرفة الجغرافية ، لحساب الجغرافية الوصفية •

ولأن الرحلات المنتظمة وغير المنتظمة ، أصبحت النافذة العريضة ، التى أطل الفكر الجغرافى من خلالها على العالم ، ولأن الفكر الجغرافى العربى الاسلامى قد انتفع بثمرات هذه الرحلات المتنوعة فى البر والبحر ، نذكر كيف أفادت هذه الرحلات ، التى تمثل جهدا ذاتيا خاصا ، من مظلة الأمن التى نشرتها الدولة الاسلامية فى ربوعها • ومن ثم قدمت هذه الرحلات المتنوعة غير الجغرافية ، الى الفكر الجغرافى الزاد المفيد ، الذى تزود به الكتاب والمفكرون ، وهم يعكفون على التسجيل الجغرافى الانضج ، فى هذه المرحلة من مراحل الفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتطور •

وعندما تكون الرحلة مهمة حيوية الى الحد الذى دعا الى تحمل المشقة ، لحساب هدف أصيل ، وعندما تكون ثمرات الرحلة من وراء التفكير والتسجيل الجغرافى الأنضج ، يتعين طرح ثلاثة أسئلة جوهرية بشأنها • كما يتعين الاجابة عنها ، لكى تتكشف لنا جدوى الرحلة أو الرحلات فى خدمة المعرفة الجغرافية ، وتوسيع دائرة المعرفة بالأرض المعمورة ، وتعميق المعرفة بالأرض المعروفة • وهذه الأسئلة هى :

١ ـ هل كانت الرحلة رحلة تتطلع تطلعا اضافيا الى المعرفة الجغرافية ، وهل تجشم الرحالة المشقة والعناء ، من أجل معرفة وحصاد يتزود به الفكر الجغرافي ، ويسعفه في أداء مهمته في التسجيل الجغرافي ؟

٢ ـ هل تولت هيئة رسمية أو غير رسمية تبنى أو تمويل ، أو تحديد خط سير الرحلة ، وهل ألزمت الرحلة بأهـــداف وترقبت الصفوة نتـائج الرحلة في البر والبحر ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟

٣ ـ هل اتخذت الرحلة المنتظمة شكلا من أشكال الدراسة الميدانية الهادفة ، لدى زيارة الأقطار والامصار ، وهل تبنى الرحالة هذه الدراسة وجمع الحصاد ، لحساب المعرفة الجغرافية ؟

ولكي تكون الاجابات موضوعية بالفعل ، ينبغي أن نؤكد أن الرحلة في أي شكل ، وعلى أي نحو ، ومن أجل أي هدف أصلي ، لم تتخذ صفة الرحلة التي تستهدف الكشف الجغرافي صراحة ٠ولكن عندما نستطلع كنه وماهية هذه الرحلات ، في البر أو في البحر ، تتبين كيف كان من شأنها ، أن تقدم الزاد والحصاد الى الفكر الجغرافي حتى ولو لم تكن قد استهدفت الكشف الجغرافي أصلا ، أو تطلعت الى جنى ثمرات هذا الكشف الجغرافي ، على الصعيد الافريقي والأسيوي والأوروبي ٠

وباستثناء رحلات معينة ، أولتها الدولة الاهتمام ، وتولت تمويلها ، وتحديد أهدافها الرسمية ، كانت الرحلة في البر أو البحر جهدا ذاتيا ، واجتهادا شخصيا بحتا ، لحساب هدف أصلي معين ٠ وهذا معناه بالضرورة أن الرحلة كانت تفتقد الهيئة الرسمية ، التي تمول الرحلة أو تحدد خط سيرها ، أو تتبنى أهدافها الأصلية والثانوية ٠ ومعناه أيضا ، أن الهدف الجغرافي ، لم يكن أبدا الهدف الوحيد ، أو الهدف الأصلي ، الذي تتحرك من أجله الرحلة في البر والبحر ٠

وهكذا ، يكون الهدف الجغرافي ، في معظم الأحيان ، هدفا ثانويا ، من بين أهداف الرحلة ٠ بمعنى اننا نفتقد الرحلة الجغرافية من أجل المعرفة الجغرافية في البر أو البحر ، باستثناء بعض الرحلات المحدودة ، مثل رحلات ابن بطوطة وابن جبير ٠ وفي اعتقادي أن تمويل الرحلة والصرف عليها من أجل المعرفة الجغرافية مسألة صعبة ٠ وربما كانت صعوبات التمويل ، من وراء التحرك البطيء ، لأن الرحالة كان يلتزم بحط الرحال من حين الى حين ،

لكى يعمل ويتكسب ويمول الرحلة . ومع ذلك ينبغى أن نستشعر قيمة هذا البطء والتأنى ، الذى يميز الرحلة ، وكيف كان من شأنه أن يهيىء الفرص للتعايش وجمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية بالمكان .

وهناك — على كل حال — أكثر من سبب وجيه يبرر الرحلة ، وأكثر من هدف يدعو الى النهوض بها ، وأكثر من ثمرة يجنيها التفرغ الكلى لها . وقد تكون الرحلة من أجل التجارة وطلب الربح من التجارة والعمل بالوساطة فى العملية التجارية . وقد تكون الرحلة على أمل الحج الى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة ، والزيارة الى المدينة المنورة . وقد تكون الرحلة فى طلب العلم والانتساب الى مجالس العلم والعلماء . ولكن قلما تكون الرحلة من أجل الدراسة الميدانية وجنى حصاد المعرفة ، التى تتزود بها الكتابة عن الاقطار والأمصار التى تزورها أو تمر بها الرحلة . وهذا معناه أن طلب المعرفة وجنى حصادها ، لم يكن السبب أو المبرر المنطقى الوجيه الذى يتحمل من أجله الرحالة مشقة الرحلة .

وصحيح أن الرحلة كانت ، لكى تحقق الهدف الأصلى قبل أى شىء آخر . ولكن الصحيح أيضا ، أن الرحلة كانت ، لكى تخدم بعض الأهداف الجانبية . وقد تمثلت هذه الأهداف الجانبية فى ، (١) نشر واشاعة الدعوة الى الاسلام ، و (٢) جمع بعض البيانات والمعلومات التى تتزود بها المعرفة الجغرافية والتاريخية والاجتماعية . وهناك أكثر من دليل على أن الرحالة قد أفلحوا فى نشر الاسلام ، وابلاغ دعوته الى الناس فى الاقطار ، التى وصلوا اليها وتعاملوا مع سكانها . وهناك أكثر من علامة على أن الرحالة قد أفلحوا فى تسجيل بعض مشاهداتهم عن الاقطار ، التى زاروها وتجولوا فى ربوعها :

وهذا — على كل حال — هو المعنى الذى نقصده بالفعل ، عندما نقول أن الهدف الجغرافى لم يكن أصلا من بين أهداف الرحلة فى البر والبحر . وهنا نؤكد أن المعرفة وطلب العلم قد استثمر الرحلة استثمارا جيدا ، عندما نتبين أن المعرفة الجغرافية بالذات قد وجدت وراء الرحلة معينا زاخرا تتزود منه ، لحساب الفكر الجغرافى الاسلامى . وفى اعتقادى أن هذا المعين الذى قدم الزاد المشبع ، بقصد أحيانا ومن غير قصد أحيانا أخرى ، الى المعرفة الجغرافية ، كان بكل تأكيد من وراء الاضافات والتطوير ، فى أحضان المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية ، التى تحررت — كما قلنا — من التأثير اليونانى ، اعتبارا من القرن العاشر الميلادى .

ولأن هذه الرحلات لم تنظم أصلا ، لحساب الكشف الجغراف والمعرفة الجغرافية ، فقد يستشعر البحث الموضوعى عن مسيرة الفكر الجغرافى الاسلامى الحرج الحقيقى ، لدى تصوير أبعاد دورها الحيوى الفعال ، وهى تسجل الاضافة ، وتقدم الزاد المشبع والمعرفة ، بقصد أو من غير قصد ، الى كل من يهمه أمر الفكر الجغراف ، ويتولى تطويره . ولأن هذه الرحلات لم تجد هيئة مسئولة عن تمويلها وتوجيهها لأداء دورها الحيوى ، لحساب الكشف الجغراف والمعرفة الجغرافية ، فقد يقع البحث الموضوعى عن مسيرة الفكر الجغرافى الاسلامى فى الحرج مرة أخرى ، لدى تقويم جدوى وفاعلية هذه الرحلات ، من وراء التسجيل والكتابة الجغرافية الوصفية الأفضل . وعندئذ، يجب أن نتبين بالفعل ، كيف نفتقد فى الجغرافية ، الدراسة أو البحث الموضوعى الجيد ، الذى يولى هذه الرحلات المتنوعة ما تستحقه من اهتمام وعمق وتحقيق ، لكى تتكشف كل الحقائق الجازمة، لدى تقويم دورها الوظيفى فى اثراء المعرفة الجغرافية ، وفى دعم الفكر الجغراف العربى الاسلامى الأنضج .

الرحلة البحرية والمعرفة الجغرافية :

فى البحر الأحمر ، وفى المحيط الهندى ، كانت الريادة فى الكشف الجغراف(١) ، وجمع أوصال المعرفة الجغرافية عن الأقطار والأمصار، التى تبلغها الرحلة البحرية ، للعرب من أهل جنوب الجزيرة ، منذ وقت قديم سابق للمسيحية . وقصة الملاحة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، تفرد فصولا كثيرة ومثيرة . لكى تحكى كيف أقدم الملاحون العرب ، بكل الجسارة على ركوب البحر . وتصور هذه القصة كيف صنعوا السفينة وطوروها وأبدعوا فى استخدامها . وكيف أنجزوا الرحلة الى الحبشة والقرن الأفريقى ، وكيف اقتحموا عرض البحر المحيط الى ساحل شرق افريقية ، وكيف طوروا التحرك فى المحيط وصولا الى شبه القارة الهندية . ثم تؤكد الرواية أو القصة على حسن استخدام حركة الرياح ، التى توجه الرحلة . وتؤكد أيضا على أن الملاحين العرب احتكروا الملاحة فى المحيط الهندى . فى الوقت الذى لم يجرؤ غيرهم على تجاوز باب المندب .

وتواصل القصة حكاية الرحلة العربية فى البحر بعد ظهور الاسلام ،

---

(١) اعتمد الكشف الجغرافى الأوروبى فى أرجاء المحيط الهندى ، على الخبرة العربية الاسلامية ، وقد استخدم البحارة الأوروبيون الخرائط التى درج البحارة العرب على استخدامها للتحرك المطمئن فى عرض البحر .

وتصور دورها البارز ، وتحركاتها المنضبطة فى خدمة التجارة الدولية ، وهذا معناه أن الهدف الأساسى أو الأصلى للرحلة فى البحر ، كان هدفا اقتصاديا ، لحساب التجار المسلمين • ومعناه أيضا أن التجار المسلمين كانوا أصحاب المصلحة المباشرة ، وهم يتحملون مشقة الرحلة ويمولونها ، أو وهم يجنون ثمرات وأرباح الرحلة المنتظمة أو شبه المنتظمة ، الى شرق افريقية ، والى الهند وجنوب شرق آسيا •

وصحيح أن هذه الرحلات البحرية ، كانت على المدى الطويل ، من وراء تطوير أساليب ركوب البحر ، وتطويع البحر ، وحسن استخدام السفينة ، لحساب الهدف الاقتصادى • وصحيح أن الجهد العربى الذاتى قبل الاسلام وبعده ، قد أحسن استخدام هذه الرحلات واستثمار الوساطة التجارية بين الشعوب والأمم ، وأرسى بعض قواعد عامة فى أصول التجارة الدولية • وصحيح أن الانفتاح على البحر فتح الباب على مصراعيه ، للاحتكاك الحضارى البناء ، بين حضارات حوض المحيط الهندى والشرق الأقصى من ناحية ، وحضارات حوض البحر المتوسط من ناحية أخرى ، لحساب الانسان ، ولكن هل صحيح أن هذه الرحلات البحرية ، بقصد أو من غير قصد ، قد خدمت أهدافا ثانوية أخرى غير التجارة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال، ينبغى أن نذكر كيف أن الرحلة البحرية انفتاح واتصال مع أقطار ، وأن الانفتاح رؤية ومعاينة ، وأن الاتصال معايشة وتعامل مع الناس فى تلك الأقطار • ومن ثم نستشعر كيف تكون الرؤية والمعاينة . وكيف يكن التعامل والمعايشة ، من وراء ، (١) نشر الاسلام وابلاغ دعوته الى الناس و (٢) جمع المعلومات والزاد الذى قدمته الرحلة البحرية الى المعرفة الجغرافية • وهذا معناه أن الرحلة البحرية ، قد تبنت أهدافا ثانوية ، اجتماعية ودينية وحضارية وثقافية فى وقت واحد • ومعناه أيضا أنها حققت الانجاز الانسب ، الذى يؤكد جدوى هذه الرحلات بصفة عامة ، لحساب الانسان •

هذا ، وقد قدمت الروايات عن هذه الرحلات البحرية ، بعض جوانب المعرفة الجغرافية عن الأقاليم ، التى وفدت اليها ، وتعاملت مع سكانها ، الى الفكر الجغرافى القديم ، قبل الاسلام • كما قدمت الرحلات البحرية هذا الزاد مرة أخرى ، الى المعرفة الجغرافية لحساب الجغرافيين المسلمين، والفكر الجغرافى العربى الاسلامى • ثم واصلت الرحلات العربية فى المحيط الهندى هذه المهمة الحيوية ، عندما قدمت المعونة الايجابية للكشف الجغرافى الأوروبى

المنظم ، الذى اتخذ من البحر مطية لهذا الغرض ، فى القـرن السادس عشر الميلادى .

ومن خلال المعاينة التى وضعت الرحالة فى اطـار الرؤية المباشرة والاستشعار الحقيقى للواقع الجغرافى فى بعض الأقطار ، ومن خلال الاستماع الى الرواية التى ألقت الأضواء على الواقع الجغرافى فى هذه الأقطار ، فنمت الرحلا تالبحرية المنتظمة وغير المنتظمة فى المحيط الهندى، الزاد الى الباحثين عن المعرفة الجغرافية . وقد كان هذا الزاد الجغرافى مفيدا للتسجيل الجغرافى الوصفى الى أقصى حد . ومن ثم ينبغى أن نستشعر جدوى هذا الزاد ، ومدى انتفاع الجغرافيين المسلمين به ، وهم يكتبون فى الجغرافية الوصفية ، عن بعض أقطار المحيط الهندى . وهذا معناه بالضرورة ، أن نستشعر ، كيف إتخذت هذ هالرحلات البحرية شكلا من أشكال الدراسة الميدانية، وكيف كان حصاد هذه الدراسة الميدانية مثمرا ، لحساب المدرسة الجغرافية العربيـة الاسلامية .

هذا ، ويجب أن نتوقع من هذا الحصاد معرفة، تجمع بين الغث والثمين، وتمزج بين الصواب والخطأ ، وتخلط بين الجغرافية والتاريخ . بل ويجب أن نتوقع أيضـا ، أن تكون المعـاينة على الطبيعة فى بعض الأحيـان ، من وراء الاهتمام ببعض التفاصيل ، وا لى الحد الذى يطغى فيه الجزء من غير قصد على الكل ، حتى نفتقد التوازن والتكامل والانسياب ، فى التصوير الجغرافى للمكان ، وتستشعر ضياع بعض الحقائق الهامة فى خضم زاخر بالسرد الممل . كما يجب أن نتوقع أيضـا ، أن تكون الرواية المنقولة فى بعض الأحيـان الأخرى ، من وراء التشويه الذى يمسخ الحقائق ويسىء الىعرض وتسجيل الوصف الجغرافى عن المكان .

ولأن المعاينة والرواية ، قد تولى أمرها — فى الغالب — فريق من الناس، الذين يشغلهم الهدف الاقتصادى الأصلى ، فقد يفوت صـاحب الرواية والمعاينة — بحسن نية — الادراك الموضوعى المطلوب للظاهرة الجغرافية ،التى تتناولها الرواية ، ويتداولها النقل والحديث . وصحيح أن عـدم الادراك الموضوعى للظاهرة الجغرافية يؤدى الى الخطـأ والتسجيل الجغرافى غـير الصحيح . ولكن الصحيح أيضا ، أنه لا ينبغى أن ننكر جدوى هذه الرحلات البحرية وحصادها الشيق ، ولا يجب أن نتنكر للجهد الايجابى الذى قدم هذا الزاد ، الى المعرفة الجغرافية الاسلامية .

وبهذا المنطق ، نتبين كيف أفلح أصحاب هذه الرحلات المنتظمة وغير المنتظمة ، فى فتح آفاق رحبة ، للكشف الجغرافى ، فى شرق افريقية ، وفى جنوب شرقى آسيا ، من غير قصد فى معظم الأحيان . هذا بالاضافة الى جنى ثمرات التجارة ، واستثمار الاحتكاك الحضارى ، ونشر الدعوة الاسلامية(١). وقد كان الانفتاح الذى حض عليه الاسلام ، من وراء النجاح الحقيقى ، الذى سجلته هذه الرحلات البحرية ، وهى تحقق الهدف الاقتصادى الأصلى ، وتضيف اليه ثمرات الأهداف الثانوية الأخرى .

.. وبهذا المنطق أيضا ، نتبين كيف أفلت من أصحاب هذه الرحـــلات المنتظمة وغير المنتظمة ، فى أثناء الرواية والنقل عن المعاينة والرؤيه ، بعض الأمور الهامة ، لحساب الكشف الجغرافى من غير قصد . هذا بالاضافه الى التشويه وخلط الواقع الجغرافى بالخيال . وقد كان الانهماك فى العمـــل التجارى من وراء الفشل الحقيقى الذى سجلته هذ هالرحلات ، وهى تحقق الهدف الأصلى ، وتفلت منها ثمرات الأهداف الثانوية الأخرى ..

ولكى نتبين ماهية وكنه هذا التناقض ، نذكر كيف أفلح البحـــارة والتجار فى الوصول الى الأرض الاسترالية وفى اقامة علاقات حقيقية مع هذه الأرض من جانب واحد ، وكيف أفلت منهم فى نفس الوقت استشعار ابعاد هذه العلاقات ، واعلان أو تأكيد حق الريادة المطلق فى الكشف الجغرافى عن هذه الأرض ، منذ وقت سابق بقرون كبيرة لوصول رحلات الكشوف الجغرافية الأوروبية اليها(٢) . وهذا دليل على أن الهدف الجغرافى كان غير واضح ،

(١) نشر الدعوة الاسلامية فى الدكن فى شبه القارة الهندية ، وفى جنوب شرق آسيا ، كان مسئولية هذه الرحلات البحريه . كما كان الاسلام الذى توطن فى الملايو مسئولا عن نشر الاسلام فى الفلبين والشرق الأقصى .

(٢) فى مذكرات ماركوبولو التى سجلها ، لدى زيارته جنوب شرق آسيا ، اشارة صريحه لا تخطىء ولا تضلل ، عن حقيقة العلاقة بين التجار العرب المسلمين ، والأرض الاسترالية . وصحيح أن هذه العلاقة اقتصادية ، ومن جانب واحد . ولكن الصحيح أيضـــا ، أنها فتحت الباب لعلاقات انسانية مع سكان أستراليا القدماء . ويذكر ماركوبولو انه علم من التجـــار العرب فى ملقا ، الذين يقبضون على زمام تجارة التوابل ، انهم يملكون المستودعات ، التى تختزن فيها البضائع تحت الطلب فى جزيرة كبيرة ، تقع جنوب جزيرة جاوة . وقد أطلقوا عليها جاوة الكبرى . وبالنظرة الى الخريطة الحالية ، تتكشف حقيقة العلاقة بين جزيرة جاوة الكبرى التى عرفت بهذا الاسم ، والجزيرة التى كشف كوك الانجليزى النقاب عنها فى أواخر القرن الثامن عشر ، وأطلق عليها استراليا (الأرض الجنوبية) . والطريف أن الوجود العربى الاسلامى فى حراسة المستودعات ، أو الوجود المؤقت لدى الشحن والتفريغ منها ، يمكن ان =

أو كان — على أقل تقدير — في ذيل قائمة الأهداف الحيوية التى تطلعت اليها الرحلات العربية فى البحر . وربما استنفدت هذه الأهداف الأصلية جل اهتمام الرحلة البحرية في معظم الأحيان ، حتى لم يعد للعاملين فيها أى اهتمام بالهدف الجغرافى(١) .

هذا ، وينبغى أن نذكر — بكل الصدق — أن الدولة الاسلامية ، قصرت فى حق الرحلة البحرية ، بشكل يلفت النظر . ذلك انها لم تقدم للرحلة البحرية الا الحد الأدنى من الدعم الحافز ، للتحرك المطمئن فى عرض البحر . وصحيح أن الدولة الاسلامية كانت لا تملك — فى معظم الوقت — القوة البحرية ، التى تفرض سلطانها على البحر ، أو التى تتولى تأمين حركة الملاحة البحرية العربيه الاسلامية فى المحيط الهندى . ولكن الصحيح أيضا ، أن هذه الملاحة ، قد أحسنت استثمار هيبة الدولة ومكانتها العظمى فى مجتمع الدول لكى تؤمن مصالحها فى البحر ورحلة البحر .

ومن ثم أصبحت الرحلة فى البحر ، وأهداف الرحلة البحرية، مسئولية العاملين فى البحر . وأصحاب المصلحة المباشرة فى ثمرات الرحلة البحرية اقتصاديا . هذا بالاضافة الى مسئولياتهم المباشرة أيضا ، عن كل الأهداف الجانبية الأخرى ، بما فيها جمع المعلومات ، لحساب المعرفة الجغرافية . بل ان هيبة الاسلام الدين وهيبة الاسلام الدولة ، فى البحر أصبحت موكولة الى هذا الفريق العامل فى الرحلة البحرية . وقد أثبت هذا الفريق — على كل حال — جدارة فى تحمل هذه المسئولية ، اقتصاديا ودينيا وحضاريا .

وهكذا ، نتبين أن الاسلام لم يحرص ، من خلال الدولة الاسلامية فى مرحلة معينة ، أو من خلال الدول الاسلامية فى مرحلة تالية ، على تقديم الدعم الحافز الأنسب الى الرحلة البحرية . وصحيح أنه استشعر جدوى

= يفسر المعضلة التى حول البحث الأوروبى أن يحلها حلا ساذجا . ويتصور البحث أن الأثر البلالى القوقازى الطفيف فى الاستراليين القدماء ، قد تأتى نتيجة لنجاة رجلين من بحارة سفينة استكشاف أوروبية ، غرقت تجاه ساحل أستراليا الغربى ، فى القرن السابع عشر . وفى اعتقادى أن التفسير الأصدق ، يكون لو تصورنا معنى الوجود العربى الاسلامى الدائم أو المؤقت على ساحل استراليا الشمالى ، واستشعرنا معنى الانفتاح على الناس ، وهو ما درج عليه المسلمون فى كل مكان .

(١) وربما اخفى التجار البحارة أمر هذه المعرفة بالأرض الاسترالية تخوفا على مخازنهم وتحسبا لخطر المنافسة فى مجالات التجارة مع جزر الهند الشرقية .

الرحلة البحرية ، عندما تطلع الى دورها الوظيفى البناء ، فى خدمة التجارة ، ونشر الاسلام ، وجمع حصاد المعرفة الجغرافية ، واستثمار الاحتكاك الحضارى . ولكن الصحيح أن الاسلام افتقد الوسيلة ، لكى يقدم هذا الدعم ، وترك مصير هذه الرحلة البحرية للجهد الذاتى أو الشخصى . وهذا معناه أن الدعم الحافز الحقيقى ، الذى انتفعت به الرحلة البحرية ، قدمه الاجتهاد والتطلع الفردى الى ثمرات هذه الرحلة . ومعناه أيضا ، أن الدعم الحافز الذى انتفع به الفكر الجغرافى ، عن البحر وعن الاقطار فى حوض المحيط الهندى ، قد تأتى من خلال التجار المسلمين ، واجتهادهم الشخصى فى رحلة البحر .

وفى اعتقادى أن هذا الدعم الذى تفضل به الرجال أصحاب الاجتهاد الشخصى فى رحلة البحر ، وأصحاب المصلحة فى تجارة البحر وحركة الملاحة المنتظمة وشبه المنتظمة فى البحر ، قد تأتى فى شكل من أشكال المنفعة المتبادلة بينهم وبين الفكر الجغرافى . بمعنى أن اجتهاد التجار والرجال العاملين فى خدمة الرحلة البحرية كان بمثابة العين التى أبصر من خلالها الجغرافيون المسلمون ، لكى يتعرفوا على الأقطار التى تتعامل معها رحلة البحر ، وأن التسجيل الجغرافى عن المعرفة بالاقصار فى حوض المحيط الهندى ، والخرائط التى رسمها بعض الجغرافيين المسلمين ، كانت البصيرة التى رشدت وبصرت ووجهت الرحلة البحرية والتعامل مع أقطار فى أحضان المحيط الهندى .

الرحلة البرية والمعرفة الجغرافية :

لئن كانت الرحلة فى البحر احترافا أكثر منها هواية ، لحساب التجارة والتجار ، فان الرحلة فى البر كانت هواية واحترافا فى وقت واحد ، لحساب فريق كبير ومتنوع ، من الناس الذين ينتفعون بالرحلة البرية . ومن الطبيعى أن نتبين كيف تنوعت هذه الرحلات البرية بشكل يلفت النظر ، وكيف تحركت وانطلقت فى أنحاء متفرقة من العالم الاسلامى ، وكيف اقتحمت بعض المجهول من الأرض فيما وراء العالم الاسلامى فى آسيا وافريقيا وأوروبا .

هذا وقد تكون الرحلة ، رحلة من أجل التجارة ، لحساب التجار والعمل المربح فى الوساطة التجارية . وقد تكون الرحلة ، رحلة من أجل الحج ، لحساب المؤمنين المتشوقين لأداء فريضة عزيزة من فرائض الاسلام . وقد تكون الرحلة رحلة من أجل الاستيطان ، لحساب الباحث أو الباحثين عن فرصة الحياة الأفضل فى مواطن جديدة . وقد تكون الرحلة ، رحلة من أجل العلم ، لحساب الباحثين عن مجالس العلماء والمتطلعين الى حصاد الفكر فى

كل مكان . وقد تكون الرحلة ، رحلة من أجـل الرحـلة ، لحساب الذين تستهويهم الرحلة ، ويطلبون معاينة ومشاهدة ومعايشة الحياة ، في أنحاء متفرقة من الأرض . ومن شأن كل رحلة برية من هذه الرحلات المتنوعة ، أن تضرب في الأرض ، وأن تجوب الأقاليم ، وأن تعايش الناس ، وهي تبتغي الهدف الذي خرجت الرحلة من أجله .

والهدف الذاتي الذي ابتغته الرحلة البرية ، في أي شكل من أشكاله، كان من شأنه أن يمثل نقطة البداية في التعـامل مع الناس ، والتعايش مع الأرض ، بعض أو كل الوقت ، وفي الاحتكاك الحضاري البنـاء بين الرحلة التي تضم الفرد أو الجماعة من ناحية ، والناس والاقوام في الأقطار التي استقطبت واستقبلت هذه الرحلة من ناحية أخرى . ومن شـأن التعـامل والتعايش والاحتكاك الحضاري ، أن يفتح الباب على مصراعيه ، لكي يتجمع الرصيد من المعرفة الجغرافية — بقصد أو من غير قصد — ، عن الاقطار التي وطئتها الرحلة البرية ، في أنحاء العالم الاسلامي ، أو فيما وراء العـالم الاسلامي ، على حد سواء .

وبهذا المنطق ، ينبغي أن نستشعر ، كيف كانت الرحلة البرية ، التي تصاعد نشاطها ، اعتبارا من القرن الرابع الهجري ، رحلة هادفة ومثمرة . بل ان هذه الرحلات المتنوعة ، في كل حالة على انفراد ، وفي كل شكل من الاشكال ، وفي كل وقت من الأوقات ، لم تبدأ في الأصل من فراغ ، لكي تنتهي الى فراغ . ولكنها كانت تصور دائما التحرك الهادف ، في اتجاه غاية أصلية وغايات ثانوية . كما كانت تتطلب بالضرورة جني ثمرات هـذه الأهداف كلها أو بعضها على أقل تقدير .

وتأسيسا على هذه الغايات ، ووصولا الى تلك الأهداف ، سواء كانت الرحلة البرية ، اقتصادية ، أو دينيـة ، أو استيطانية ، أو ادارية ، أو سياسية ، أو علمية ، أو ترفيهية ، لا يجب أن نتصور أن رحلة برية واحدة من هذه الرحلات ، قد بدأت ، وهي تتطلع في الأصل الى جمع حصاد المعرفة الجغرافية على الطريق ، أو على الأقطار التي وطئتها الرحلة البرية . وعايش الرحالة الواقع الجغرافي في ربوعها . ومع ذلك ، فان رحلة من هذه الرحلات البرية ، لم يحدث أن انتهت ، وحققت أهدافها كليا أو جزئيـا وهي تجوب الأرض ، من غير أن تضيف اضافة مشكورة ، بقصد أو من غير قصد ، إلى المعرفة الجغرافية .

وصحيح أن الانفتاح الذى حض عليه الاسلام ، والتزم به المسلمون فى الحياة ، على مستوى العلاقات مع الناس ، كا نمن وراء كل رحلة برية حافز يرشدها ، وفى ركاب كل رحلة برية دليلا يهديها . وصحيح أن هذه الرحلات البرية ، قد حققت الى جانب الأهداف الأصلية أهدافا ثانوية ، تمثلت فى (١) نشر دعوة الاسلام بين الناس والأقوام فى الاقطار التى وطئتها الرحلة ، و(٢) ممارسة الاحتكاك الحضارى وصقل التجربة الحضارية ، و(٣) جمع بيانات ومعلومات لحساب المعرفة الجغرافية والتاريخية . ولكن بعد ذلك كله هل صحيح ان الاسلام قدم الدعم الحافز لهذه الرحلات البرية ، وهى تتحرك على أوسع مدى ؟ وما هى الصورة أو الشكل الذى كان عليه هذا الدعم الحافز للرحلة البرية على الطريق ، وصولا الى الهدف أو الأهداف ؟

وفى مجال البحث عن هذا الدعم الحافز للرحلة البرية وكيف كان ، ينبغى أن نمتنع تماما عن تصور هذا الدعم فى شكل اغداق سخى وعطاء كريم يحث الرحالة ، أو فى شكل تمويل يلتزم بتكاليف الرحلة على الطريق ، أو فى شكل توجيه رشيد يرعى دور الرحلة الوظيفى الملتزم ، وصولا الى الهدف المباشر ، والأهداف الثانوية . وفى اعتقادى — على كل حال — أن الرحلة التى تستهدف غاية شخصية لا تطلب الدعم الحافز طلبا مباشرا ، لأن الغاية أو الهدف ، يمثل — فى حد ذاته — حافزا مباشرا ومهما . ومع ذلك ، فان هناك دعم حافز قدمه الاسلام الدين والاسلام الدولة للرحلة البرية ، فى شكل معنوى أكثر من أى شكل آخر .

هذا ، وقد تمثل هذا الشكل المعنوى من الدعم الحافز للرحلة البرية ، وصولا الى الهدف ، فى صورتين هما :

أولا — صورة تنشأ تأسيسا على سلطة الدولة المباشرة ، وضوابط الحكم السوية فى أنحائها . وتصور هذه الصورة ، كيف كان سلطان الدولة ، الذى يفرض الأمن ، ويكفل الأمان على الطريق ، فى خدمة الرحلة فى الحل والترحال . وقد انتفع الرحالة المسلمون بهذا الأمن ، فى أحضان الدولة ، أو الدول الاسلامية ، لأنه كان من وراء سلامة كل رحلة على الطريق ، وسلامة كل رحلة فى كل قطر تزوره ، وتعايش الواقع فيه . وقد تصور هذه الصورة أيضا ، كيف كان الاعمار والتعمير الذى كفلته الدولة أو الدول الاسلامية ، فى الأقطار والامصار ، من وراء تأمين حاجة الرحلة على الطريق ، وفى اتجاه الهدف .

ثانيا — صورة أخرى تنشأ تأسيسا على سمعة الدولة ، ومكانتها المرموقة في مجتمع الدول . وتصور هذه الصورة ، كيف كانت هيبة الدولة أو الدول الاسلامية ، من وراء الأمن والأمان في ركاب الرحلة . وقد انتفعت الرحلة بهذا الأمن والأمان ، وهي تتحرك أو تنطلق بحرية فيما وراء العالم الاسلامي، لأنه حقق لها السلامة في الذهاب وفي الاياب . وقد تصور هذه الصورة أيضا ، كيف كان استيطان المسلمين وانتشار الاسلام ، فيما وراء أرض الدولة أو الدول الاسلامية ، على الصعيد الافريقي والآسيوي ، من وراء روح الاخاء التي أمنت حاجات الرحلة ، وكفلت سلامة الرحالة لدى التحرك أو الاقامة في أوطان غير المسلمين .

وهكذا ، نتبين دور الاسلام الايجابي ، من خلال وجود الدولة الرسمي في مكانها على الصعيد الافريقي والآسيوي ، أو من خلال انتشار سمعتها وهيبتها فيما وراء حدودها ، أو من خلال انتشار ووجود المسلمين خارج حدودها في جزيرة العالم ، وهو يدعم الرحلة البرية ، ويؤمن الرحالة على أنفسهم وأموالهم ، وينشط التحرك الى الهدف ، في أي اتجاه . كما نتبين اقبال الرحالة ، كل بحسب الهدف والغاية على الرحلة البرية ، وهم يحصدون ثمرات هذه الرحلات البرية ، سوا كانت رحلات منتظمة أو غير منتظمة . وفي اعتقادي — على كل حال — أن مثل هذه الرحلات البرية الهادفة ، التي تبناها الجهد الذاتي ، لم تتطلع لأكثر مما قدم اليها من دعم معنوي ، وهي تجوب الاقطار ، لكي تحقق أهدافها .

ومن غير أن نكترث كثيرا بكل الثمرات التي جنتها الرحلات البرية ، وهي تجوب الاقطار في أحضان الدولة أو الدول الاسلامية ، أو وهي تتجول على المدى الواسع في ربوع العالم الاسلامي الكبير ، أو وهي تنطلق على المدى الأوسع في المعروف من الأرض في جزيرة العالم ، يجب أن نستشعر كيف أن الرحلة البرية لحساب أي هدف كانت تواجه الواقع الجغرافي الطبيعي والبشري ، وكانت تمارس الواقع الحياتي الاجتماعي ، في هذه الاقطار ، أو في تلك الارجاء . كما ينبغي أن نستشعر أيضا ، كيف تداخلت الرحلة البرية في كيان كل قطر تداخلا حقيقيا ، وهي آمنة لا تتخوف خطرا معينا يتهددها، أو يحرمها من حرية الحركة وتحقيق أهدافها العريضة .

ومن خلال مواجهة الواقع الجغرافي ، وممارسة الواقع الحياتي ، ومن خلال الانخراط في حركة الحياة ، انفتح باب الاحاطة بالأرض وبالناس ، وباب المعرفة بالتفاعل الحيوي بين الناس والأرض ، في كل قطر من الأقطار ،

التي وطئتها الرحلة البرية . وهذا معناه أن الرحلة البرية الى أى قطر من الأقطار أصبحت — بقصد أو من غير قصد — العين المبصرة ، التى أسعفت الرؤية الجغرافية والتسجيل الجغرافي الوصفي بشكل مباشر . كما أصبحت أحيانا ، اللسان الفصيح ، الذى يحكي ويقص ويروى عن المعرفة الجغرافية في خدمة التسجيل الجغراف الوصفى بشكل غير مباشر . ومعناه أيضا ، أن الرحلة البرية ، أخذت شكل الدراسة الميدانية ، التى تبصر الكتابة الجغرافية عن الاقطار التى تزورها .

هذا ، وقد كان من شأن الرحلة البرية فى ذلك الوقت ، أن نتحرك ببطء ، وأن تلتزم بالتأنى الشديد ، وهى تجوب الأرض من مكان الى مكان آخر . وكان من شأن البطء والتأنى ، أن يوسع دائرة التعامل والتعايش مع الناس . ومن ثم امتلكت الوقت والأسلوب الذى حقق التسجيل الجغرافى الواقعى غير المتعجل . وأصبح من شأن التسجيل الواقعى غير المتعجل ، سواء اعتمد على المعاينة المباشرة للواقع الجغرافى ، أو اعتمد على الرواية المسموعة عن الواقع الجغرافى ، فى المكان ، أن يخدم الكتابة الجغرافية الوصفية . وفى الوقت الذى يصر هذا التسجيل الواقعى غير المتعجل الجغرافيين بالصحيح ، جنب الكتابة الجغرافية الوصفية معظم الخطأ ؛ بل لن الرؤية المباشرة ، حالت فى كثير من الكتابات الجغرافية ، دون التردى فى التهويل والمبالغات ، التى تشوه العرض الجغرافى بقصد أو من غير قصد .

★ ★ ★

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن نتصور كيف أعطى الاسلام الحد الأدنى من الدعم للرحلة فى البر والبحر . ومع ذلك فقد تجلى نشاط الرحلة بشكل يلفت النظر . كما تجلى الانجاز الجيد الذى حققته الرحلة فى البر والبحر ، لحساب الاقتصاد الاسلامى ورواج التجارة ، ولحساب الدين وانتشار الدعوة ، ولحساب العلم والمعرفة وجنى ثمرات الاحتكاك الحضارى . وفى اعتقادى أن نشاط أو تنشيط الرحلة ، كان نقطة تحول جوهرية ، فى قطاع الفكر الجغراف الوصفى . بل ان هذا الاسهام قد أطلق العنان للتقدم الذى أحرزته مسيرة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى .

وصحيح أن هذا التحول ، قد تجلى — بكل الوضوح — من خلال توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، لكى تشمل مساحات كبيرة من جزيرة العالم ، فيما وراء العالم الاسلامى . وصحيح أن هذا التوسع الأفقى للمعرفة الجغرافية

في جزيرة العالم ، كان — بكل تأكيد — من وراء استشعار حقيقة ومدى التنوع الجغرافي بين الأقاليم ، واستشعار أثره المباشر على التباين بين الواقع الحياتي من اقليم الى اقليم آخر . ولكن الصحيح أيضا ، — وهو الأهم — أن التحول الى ما هو أفضل ، قد تجلى في ، الكتابة الجغرافية الوصفية وإعداد الخرائط ، التي غطت المعرفة الجغرافية ، بأكبر قدر من التوازن ، في اطــار الدائرة الواسعة ، التي باتت معروفة من الأرض ، في جزيرة العالم .

وفي اعتقاد معظم الباحثين المنصفين ، أن أهم نتائج هــذا التحول الحقيقية ، قد تمثلت في نتيجتين جوهريتين ، هما :

أولا — تملص الكتابة الجغرافية تملصا نهائيا من التأثير اليوناني ، واعتماد الجغرافيين المسلمين على النفس اعتمــادا كليــا ، وفي وضع الاطار ، وتصور الضوابط الحاكمة للتفكير الجغرافي العربي الاسلامي .

ثانيا — حسن استخدام المعرفة الجغرافية ، التي جمعتها الرحلات في البر والبحر ، في الكتابة الجغرافية الوصفية ، عن الاقطار والامصار ، في اطار المعروف من الأرض في جزيرة العالم .

* * *

تأسيس المرصد والفكر الجغرافي :

لئن كان الفكر الجغرافي اليوناني القديم ، قد ألهب الاهتمام الاسلامي بالجغرافية الفلكية ، فقد أسهم الرصد بالعين المجردة ، الذي تطلع الى قبة السماء ، لكي يرقب الكواكب والنجام والاجرام السماوية ، ولكي يتلمس العلاقة بين الأرض والأجرام في الكون ، ولكي يتحسس حقيقة شكل الأرض وقياسها ، في توجيه الفكر الجغرافي الى جدوى تأسيس واستخدام المراصد الفلكية . ومن ثم كان الاقبال على تأسيس المراصد ، وتجهيزها بالأجهزة المناسبة للرصد ، وإعدادها لاستطلاع قبة السماء ومراقبة الاجرام السماوية ، نقطة بداية في الاتجاه الصحيح .

وصحيح أن تأسيس واستخدام المراصد ، قد أدى الى تخصص بعض الصفوة من علماء المسلمين في علم الفلك . وصحيح أن التخصص في علم الفلك ، قد اقترن بنهضة علمية في الرياضيات ، التي خدمت البحث الفلكي

---

(١) راجع مدى التطور في رسم الخريطة من خلال مراجعة الخرائط في آخر الكتاب .

في مدا ءالواسع • ولكن الصحيح أيضـــا ، أن حسن استخدام المعلومات والبيانات ، التي توصل اليها الرصد فى المراصد الاسـلامية ، قد أطلق العنان ، للكتابة الجغرافية الجيدة ، فى الجغرافية الفلكية • وكان من شأن هذه الكتابة الجغرافية الفلكية ، أن تصور الادراك الجغرافى الأفضل لشكل الأرض ومكانها فى الكون ، وأن تعبر عن جدوى التسجيل الكاشف عن مكانها فى المجموعة الشمسية •

هذا ، وينبغى أن نفطن بداية ، الى أن عملية تأسيس المرصد تطلب البحث عن المكان الأنسب ، الذى يكفل الرؤية الكاشفة لقبة السماء ، كما ينبغى أن نفطن أيضا ، الى أن البناء والتجهيز بالأجهزة الأفضل للرصد ، تطلب تكاليف باهظة • وهذا معناه أن العلماء ، سواء كانوا من الهواة أو من المحترفين ، لم يكن فى مقدورهم تحمل أعباء التمويل بصفة عامة • ومعنـاه أيضا ، أن هذه التجربة العملية ، كانت فى حاجة حقيقية الى من يتبناها ، ويغدق بكل السخاء عليها •

وهكذا ، نتبين أن الاسلام الدولة ، قد تولى تقديم الدعم الحافز ، لعمليات تأسيس وتجهيز وتشغيل المراصد • واعتبارا من القرن التاسع الميـلادى (الثالث الهجرى) ، تأتى هذا الدعم الحافز المباشر ، فى صورتين متكاملتين على النحو التالى :

فى الصورة الأولى ، تأتى الدعم عندما قدم بعض الخلفاء والقـادة من رجال الدولة الاسلامية التمويل المطلوب ، لتأسيس المراصد وتجهيزها فى بعض المواقع المنتخبة • وكان الاغداق السخى علامة على تبنى الأبحاث الفلكية ، والحرص على استخدام المراصد ، وعلى تطوير الأجهزة المستخدمة فى الرصد •

فى الصورة الثانية ، تأتى الدعم عندما قدم بعض الاعيان الوجهـاء الأثرياء المسلمين ، التمويل المطلوب ، لتأسيس المراصد وتجهيزها فى بعض المواقع المنتخبة • وكان الاغداق السخى علامة على تبنى الأبحاث الفلكية ، والحرص على تهيئة المرصد المناسب ، لحساب أصدقائهم من العلماء المسلمين العاملين فى هذا التخصص •

هذا ، وكان استخدام مرصد جنديسابور ، فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، نقطة الانطلاق فى استثمار الرصد وما يكشف عنه من نتائج لحساب الجغرافية الفلكية • وقد اقترن ذلك الاتجاه بحركة عقلانية ، تتعقب الحقائق العلمية ، التى تستشعر جدواها ، لحساب التقدم العلمى

بصفة عامة : وقد نال الفكر الجغرافى من هذه الحركة حصة ، دعت الجغرافيين المسلمين الى ، استخدام أو استثمار النتائج والحقائق التى كشف عنها الرصد واجتهاد بعض علماء الفلك ٠

. . والمأمون الخليفة العباسى المتنور ، كان أول من تولى مسئولية تأسيس مرصد الشماسية ، فى سنة ٢١٦ هجـــرية . وقد اهتم المــأمون بتجهيز هذا المرصد بأحسن أدوات الرصد ، وعنى بتشغيله ، لحساب لفيف من كبار رجال الفلك والرياضة المرموقين المحترفين ٠ ثم أضيفت الى هذا الرصيد ، مراصد أخرى فى بعض المواقع المنتخبة فى الشام والعراق وفارس ٠ وقد تمثلت فى مرصد جبل قيسون قرب مدينة دمشق ، ومرصد باب الطاق فى بغداد ، ومرصد خاص أهلى هو مرصد الدينورى فى أصفهان ٠

ويسجل القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، الذى شهد بداية مرحلة الفكر الجغرافى العربى الاسلامى الأنضج ، مزيدا من اهتمام بتشغيل المراصد ، وتسجيل النتائج الفلكية المتطورة ٠ وقد اشترك فى هذه الانطلاقة البتانى وحبش الحاسب ، وثابت بن قرة وابن الأعنم والصوفى والرازى وكلهم من الأعلام المرموقة التى سجلت الاضافات والنتائج الفلكية الباهرة ، لحساب علم الفلك والجغرافية الفلكية ٠ كما أسهم بعضهم فى ادخال بعض التعديلات على أجهزة الرصد ، لحساب الرصد الأفضل ٠ بل لقد صنع أبو محمد الحجندى بنفسه بعض هذه الأجهزة الفلكية المتطورة ٠ وهذا معناه أن مدرسة بغداد ، التى نشأت وازدهرت على عهد المأمون ، الى نهاية القرن العاشر ، قد قادت التقدم فى تأسيس المراصد ، وفى حسن استخدامها واستخلاص النتائج وتسجيل الاضافات ، الى المعرفة الفلكية والجغرافية ٠

وفى القرن الحادى عشر الميلادى ، ينضم بعض الخلفاء المتنورين من الفاطميين فى مصر ، الى الفريق الذى يرعى المراصـــد ويمـــول تأسيسها وتشغيلها ٠ وقد أغدق الخلفاء الفاطميون على تأسيس هذا المرصد بأحسن الأجهزة ، واستخدموا فيه لفيفا لامعا من العلماء ٠ ويسجل هـــذا الفريق استخدام خبرته الرياضية والجغرافية والفلكية ، فى البحث الجغرافى الفلكى ، وكتاب القانون المسعودى الذى يضم خلاصة الأبحاث وحصاد الدراسات ، التى قام بها البيرونى ، فى الجغرافية الفلكية ، من الكتب الممتازة التى تشهد له بالتفوق والتوفيق ٠ كما تمثل اضافات ابن سينا اسهاما جيدا أيضا ، فى الجغرافية الفلكية ٠

وفي القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) ، ينضم الى الركب لفيف من علماء الأندلس . وقد سجل علماء الأندلس من أمثال جابر الاشبيلي وابن باجة ، وابن رشد والبطروجي ، اهتماما كبيرا بالأبحاث الفلكية . وبلغ التقدم في الرصد وحسن استخدام الأجهزة التي يتولى العلمـــاء تطويرها بأنفسهم حدا بعيدا . وتجلى أثر هذا التقـــدم في (١) تفجير حملة رفض حقيقية ضد أراء كثيرة كان بطليموس قد أوردها في كتـــابه المجسطي ، و(٢) تحسين أسلوب الكتابة والعرض لدى معالجة أو كتابة الأبحاث في الفلك والجغرافية الفلكية . وقد أفلح هذا التقدم الذى فجر الرفض لاراء بطليموس في تقديم الآراء البديلة ، التي تصحح الأخطاء التي تردى فيها بطليموس . وكانت النتيجة أو التجربة المبنية على الرصد ، هي الأساس الذى اعتمد عليه الرفض أولا ، وتقديم البدائل ثانيا .

وفي القرن الثالث عشر الميلادي ، وبعد أن تفـرغ المشرق الاسلامي من كثير من المتاعب السياسية التي فرضتها عليه التحديات والغزو والاجتياح ، يعود الاهتمام بالمراصد والرصد الى سابق عهده . وقد بنى هولاكو خان الذى اعتنق الاسلام ، وعمل لحسابه ، البحث الفلكي، وأنشأ مرصدا كبيرا من أفخم المراصد وأكثرها تفوقا في الأجهزة المستحدثة ، في المراغة قرب مدينة تبريز في فارس . وشهد هذا المرصد أكبر حشد من العلماء ، الذين تولوا مهمة الرصد واجراء البحوث الفلكية ، ومنهم القزويني الفلكي والعرضي الدمشقي ومحي الدين المغربي وفخر الدين الخلاطي . كما أضيفت اليه مكتبة كبيرة ، جمعت فيها أعدادا كبيرة من المراجع في الفلك والجغرافية الفلكية .

وفي القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) ، شهد العـــالم الاسلامي أضخم مرصد في سمرقند . وقد أقام هذا المرصد أولوغ بك ، لكى يسجل اهتمامه الشخصي بالفلك . واشترك فريق من العلماء في استخدام هذا المرصد . وقيل أن الأمير أولوج كان يستخدمه بنفسه ، وانه اشترك مع فريق الباحثين المؤلف من جمشيد الكاشي وقاضي الرومي ومعين الدين كاشاني في اصدار الزيج الجديد السلطاني . ويجب أن نذكر أن هذا المرصد شهد نهاية مرحلة طويلة تشهد بتفوق العلماء المسلمين . ذلك أن التقدم في هذا العلم وفي استخدام المراصد ، لم يحقق أى خطوات اضافية الا بعد أن اخترع التلسكوب في وقت لاحق .

هذا ، ويجب أن نلاحظ كيف تصاعد الاهتمام بالمراصد وتمويل البحث العلمي الفلكي ، في القطاع الشرقي من العالم الاسلامي . فقد كان نصيب

العالم الاسلامى على الصعيد الآسيوى أكثر من مرصد ، وكان نصيب العالم الاسلامى على الصعيد الافريقى مرصد واحد فقط ، وهو مرصد المقطم . وهذا معناه أن المغرب الاسلامى لم يجد من يتحمل تكاليف تأسيس المراصد ، أو يتكفل بتمويل تشغيل واستخدام المراصد . ومع ذلك فقد أسهم الاجتهاد الشخصى فى المغرب الاسلامى فى الرصد دون استخدام المراصد ، واشترك المسلمون المغاربة فى تسجيل بعض الاضافات الى البحث الفلكى .

ومهما يكن من أمر ، فان تأسيس المراصد استقطب العلماء وألهب اهتمامهم بالرصد واستطلاع قبة السماء . وقد تهيأت الفرص لكى يتجلى الاجتهاد الاسلامى فى البحث الفلكى الرياضى ، لحساب علم الفلك . كما تهيأت الفرص أيضا ، لكى يتجلى الاجتهاد الاسلامى فى البحث الكونى ، لحساب الجغرافية الفلكية(١) . ومن ثم أصبحت نتائج هذه الابحاث ، المعين الذى تزود منه الجغرافين المسلمون ، وهم يمارسون الكتابة فى الجغرافية الفلكية .



وهكذا ، اشتركت الرحلة فى البر والبحر ، مع الرصد الفلكى الذى أسست من أجله المراصد ، فى تطوير الفكر الجغرافى العربى الاسلامى . وأصبح التحول الذى تأتى فى القرن الرابع الهجرى ، لكى يكشف عن الاستقلال الفكرى عن المدرسة اليونانية ، علامة بارزة على مولد المدرسة الجغرافية العربية الاسلامية . ويمكن القول أن مولد هذه المدرسة الجغرافية ، التى أخرجت الأعلام المرموقة فى الجغرافية ، كان – بشكل تأكيد – من وراء ،

١ – ترسيخ بعض الاتجاهات المهمة ، التى كان نبتها الطيب ، قد غرس فى المرحلة السابقة .

٢ – تجديد وانفتاح على مفاهيم واتجاهات جديدة ومتجددة ، فى الفكر والكتابة الجغرافية .

---

(١) يعتبر اجتهاد الاخوة ، أبناء موسى شاكر ، وهم محمد وأحمد وحسن ، نقطة الانطلاق الاولية ، فى التحرر من الأفكار اليونانية القديمة ، التى أوردها بطلميوس الجغرافية فى كتابه المجسطى . بل لقد أفلح حسن استخدام المراصد فى اجراء تعديلات جوهرية على حسابات أو قياسات بطلميوس .

وفي الحالتين ، يصبح الترسيخ والتجديد ، من أهم العلامات البارزة ، التي تنبىء بالنضج الفكرى ، وتصور التحول فى الاتجاه الصحيح ، الى الابداع والاضافة والابتكار ، فى البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية .

* * *

اتجاهات جديدة وفكر جغرافى متطور :

من شأن الاستقلال الفكرى والنضج ، أن يكـــون من وراء ، الكشف الجغرافى والاجتهاد الذى انتهى الى توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، أو تعميق المعرفة الجغرافية ببعض مساحات الأرض . وقد كشفت رحـــلات المسلمين النقاب عن أرض أوروبا ، وعمق التعامل معها وانتشار الاسلام فيها المعرفة الجغرافية ببعض مساحات الأرض . كما كشفت رحلات المسلمين النقاب عن أرض الصين ، والتعامل معها وانتشار الاســـلام فيهـــا المعرفة الجغرافية عنها قبل أن يفد اليها من أوروبا ماركوبولو ، فى القرن الثالث عشر الميلادى . كما كشفت رحلات المسلمين الجماعية ، التى عبرت الصحراء الافريقيـــة ، واستطونت فى النطاق السودانى النقاب عن مساحات كبيرة ، وعمقت المعرفة الجغرافية بها . بل لقد أفلحت الرحلات الفردية التى أوغلت جنوب نطاق السودان ، فى كشف النقاب عن القلب الافريقى ، قبل أن يفد اليه الكشف الجغرافى الأوروبى فى القرن الثامن والتاسع عشر الميلادى .

ومن شأن الاستقلال الفكرى والنضج أيضا ، أن يكون من وراء مفاهيم جديدة واضافات وتجديد فى الجغرافيـــه . وقد تولى بعض الصـــفوة من الجغرافيين المسلمين ، ابداع وترسيخ هذه المفاهيم الجديدة ، فى كتـــاباتهم الجغرافية . وهذا معناه أن الجغرافيين المسلمين تحولوا من القبول الصامت لظاهرة الجغرافية ، الى اعمال العقل واثارة التساؤل ، الذى يبحث عن السبب أو التفسير المعقول . والتفسير حس واستيعاب وادراك وفهم للظاهرة الجغرافية أولا ، ثم هو اجتهاد وبحث واضافة مثمرة الى الخبرة الجغرافية ثانيا .

هذا ، وقد تلمس فكر واجتهاد وبحث بعض الجغرافيين المسلمين التفسير المعقول ، من خلال نتائج بعض العلوم المتخصصة ، حتى يتسنى للابداع أن يعمق المعرفة بالظاهرة الجغرافية . وهذا معناه أن التفسير انفتاح على علوم ومعارف غير جغرافية ، وأن الانفتاح تفتح وحسن التقاط واستخدام النتائج ، التى يعتمد عليها التفسير . وهذا معناه أيضا اتجاه واضح ، الى تعميق المعرفة الجغرافية ، من خلال التسلل الى ما وراء الصورة الجغرافية بحثا عن كـــل العوامل التى تشترك فى تجميع وتكوين أوصالها .

ولكى نضرب المثل ، فنتبين ماهية التفسير ، وكيف يتجه الى تعميق الفكرة الجغرافية ، نذكر ثلاثة نماذج معينة من صميم اجتهادات الجغرافيين المسلمين والكتابة الجغرافية التى يحتويها التراث العريق . وهذه النماذج هى :

١ – من كتابات البيرونى(١) ، نورد التفسير الذى ذكره ، وهو يكتب عن سهول الهند . وقد صور – بكل المهارة – كيف كان دور الارساب فى تكوين هذه السهول ، فى بعض المساحات التى كانت غاطسة تحت مستوى سطح البحر .

٢ – من رسائل اخوان الصفا فى بعض الدراسات الجغرافية ، نتبين كيف تتلمس الدراسة التفسيرية . وهناك أكثر من تفسير ممتاز ، نذكر منها الاجتهاد الذى يفسر المطر التضاريسى ، والاجتهاد الـــذى يفسر دور الارساب البحرى فى تكوين سلاسل الجبال ، والاجتهاد الذى يفسر كسوف الشمس وخسوف القمر .

٣ – من كتابات المسعودى ، التى تناولت البحر وظاهرة المد والجذر ، نجد تفسيرا جيدا . ويقود هذا التفسير الى ادراك حقيقة الاتصال بين البحار والمحيطات ، وكيف تنتشر فيها المياه على منسوب واحد . كما نجد التفسير مرة أخرى ، وهو يظهر اجتهاده لدى الربط وترسيخ العلاقة بين الرياح واختلاف سرعاتها من ناحية ، وحالة البحر وارتفاع الموج من ناحية أخرى .

ومن الاتجاهات والمفاهيم الجديدة ، التى تولى بعض الجغرافيين المسلمين ابداعها ، وتوجيه البحث اليها ، هو الاتجاه الهادف الى التصنيف الموضوعى، فى دراسة الظاهرة الجغرافية . وهناك أكثر من محاولة جادة ، استهدفت التمييز الموضوعى ، بين الكتابة الجغرافية عن الظاهرة الفلكية ، والكتابة الجغرافية عن الظاهرة الطبيعية ، والكتابة الجغرافية عن الظاهرة البشرية . وهذا معناه استشعار الحاجة الى قدر من التخصص فى دراسة الأرض ودراسة الانسان . ومعناه أيضا ، انفتاح حقيقى – بكل الوعى – على الإتجاه الذى أصبح فيما بعد ، من وراء التمييز الموضوعى بين ، الجغرافية الفلكية التى تدرس الأرض فى الكون، والجغرافية الطبيعية التى تدرس الأرض وطن الحياة، والجغرافية البشرية التى تدرس الانسان فى موطنه الأرض من ناحية ، ومن وراء التكامل الموضوعى بين دراسة الأرض وطن الحيـــاة ودراسة التفاعل الحياتى على الأرض من ناحية أخرى .

(١) نفيس أحمد : المرجع السابق صفحة ٢٤٧ .

ولكى نضرب المثل ، فنتبين ماهية التصنيف الموضوعى ، وكيف تبنى الفكر الجغرافى الاسلامى هذا التصنيف ، نذكر ثلاثة نماذج معينة ، من صميم اجتهادات الجغرافيين المسلمين ، والكتابة الجغرافية التى يحتويها التراث العريق • وهذه النماذج هى :

١ ـ من كتابات البيرونى وابن سينا وغيرهم ، نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة التى تعالج الظاهرة الفلكية ، والاتجاه الهادف الى دراسة الأرض فى اطار الكون • ومناقشة البيرونى لشكل الأرض وتحديد حركاتها ، وتقدير خطوط الطول والعرض ، يعطى الانطباع الذى يصور جدوى البحث وهو يعالج هذه الظاهرات الفلكية • وكتابة ابن سينا عن خط الاستواء ، وهو يصور خصائصه ، فيها تصوير عن جدية البحث والادراك الجغرافى لهذه الظاهرة التى نالت الاهتمام •

٢ ـ من كتابات اخوان الصفا والبيرونى والمسعودى وغيرهم من الجغرافيين المسلمين ، نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة الموضوعية ، التى تعالج الظاهرة الطبيعية ، والاتجاه الهادف الى دراسة الأرض موطن الحياة • ودراسة البيرونى لتضاريس آسيا ومتابعة امتداد السلاسل الجبلية ، ومناقشة سقوط المطر وطبيعته فى الهند ، تعطى الانطباع الذى يصور جدية البحث ، وهو يعالج هذه الظاهرات الطبيعية •

٣ ـ ومن كتابات ابن خلدون فى مقدمته ، ومن غيره من الجغرافيين المسلمين ، نتبين كيف كان الاهتمام بالكتابة الموضوعية ، التى تعالج الظاهرة البشرية ، والاتجاه الهادف الى دراسة الانسان فى أحضان الأرض • ودراسة ابن خلدون فى البيئة وحياة الانسان فى هذه البيئة ، ومدى خصائص هذه البيئة ، تعطى الانطباع ، الذى يصور جدية البحث ، وهو يعالج الظاهرة البشرية •

ومن الاتجاهات والمفاهيم الجديدة ، التى تولى بعض الجغرافيين المسلمين اثارتها ، وتوجيه البحث اليها ، هو الاتجاه الهادف الى دراسة البيئة الجغرافية ، وتقصى حقيقة العلاقة بين البيئة والانسان • وهناك محاولات جادة ، لاستشعار مكانة الانسان فى أحضان المكان فى البيئة • بل لقد صعد ابن خلدون هذه المحاولة ، وهو يستطلع حقيقة العلاقة بين البيئة والانسان ، الى حد الافراط فى تصوير مدى تأثير البيئة على حياة الانسان[١] • وقد

---

(١) راجع رأى دكتور حزين فى كتاباته عن ابن خلدون فى مقال منشور بعنوان :
Some Arab Contributions to Geography, Geography, 1932.

يصور هذا الافراط فى تأثير البيئة واذعان الانسان لهذا التأثير ، بداية مبكرة لانزلاق الفكر الجغرافى ، الى الحتمية ، وهى الفكرة التى لم تتضح معـــالم فلسفتها ، التى تكبل ارادة الانسان وتسلم زمام مصيره الى البيئة ، الا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى فكر الجغرافية الحديثة .

ومهما يكن من أمر ، فقد شهدت مســـيرة الفكر الجغرافى فى مرحلة النضج ، اعتبارا من القرن العاشر الميلادى الى حـــوالى القرن الرابع عشر الميلادى ، هذه الانطلاقات المجددة ، وهذا التحول الفكرى المبدع البناء • وقد برهن الجغرافيون المسلمون على التفوق ، فى آداء المهمة ، وأضافوا الاضافات الجيدة والمجددة الى الفكر الجغرافى • وتزخر المكتبة العربيـــة الاسلامية ، برصيد كبير جيد ، من انتاج الجغرافيين المسلمين فى هذه المرحلة • وهـــذا الرصيد الكبير من التراث الجغرافى العربى الاسلامى ، يحكى صور التقدم ومدى التطور فى الجغرافية • بل انه يمثل الاسهام الممتاز الذى يخدم المعرفة الجغرافية ، لحساب الانسان صاحب المصلحة الفعلية فى المعرفة الجغرافية •

* * *

التراث الجغرافى العربى الاسلامى :

الكتابة الجغرافية ، التى تمثل حصاد الفكر الجغرافى العربى الاسلامى ، فى مرحلة النضج والتطور ، ثروة حقيقية ، تزهو بها المكتبة العربية • وهى — من غير شك — ثمرة الاجتهاد والنشاط الذى أسهم به فريق مرموق من الجغرافيين المسلمين ، فى القاء الأضواء على الواقع الجغرافى بكل أبعاده • بل انها علامة من العلامات ، التى لا تضلل ، لدى تصوير مدى وجدوى التقدم الحضارى الذى أمسك بزمامه المسلمون فى العالم ، على امتداد أكثر من سبعة أو ثمانية قرون من عمر الحياة على الأرض •

وصحيح أن الكتابة الجغرافية ، فى الكتب والمعاجم والموسوعات ، تكون مخلوطة بالكتابة التاريخية ، وبمعلومات كثيرة ومتنوعة أخـــرى • ولكن الصحيح أيضا ، أن الاعتماد على حصاد الرحلات، من خلال المعاينة أو الرواية، كفل العمق والاصالة والتحقيق ، لدى دراسة وضع الأرض فى الكون • ومن ثم كانت الكتابة الجغرافية كتابة جيدة ، لا يضيرها الاختـــلاط بالكتابة

التاريخية ، ولا تتضرر بكل ما يمليه الاستطراد ، الذى يسجله الكاتب ..

هذا ، ويبدو أن الاهتمام بالمعرفة الجغرافية ، والتطلع الى تطوير الفكر الجغرافى ، كان متسلطا ــ بكل الالحاح ــ على الأذهان ، فى هذه المرحلة . والا فكيف نفسر تسلل المعرفة الجغرافية والأفكار الجغرافية ، الى الكتابات والكتب المهمة ، التى لم تكتب أصلا ، لحساب الفكر الجغرافى ؟ وهذا معناه أن المعرفة الجغرافية كانت تفرض نفسها على الكاتب أحيانا ، أو كانت تندس على غير ارادة الكاتب أحيانا أخرى ، وتحتل المكان المناسب فى كتب بعض المؤرخين أو غيرهم من الكتاب والباحثين . والغريب أن الكتاب كانوا يتعمدون هــذا الخلط ، ولا يتحرجون منه . كما انسحب اهتمام الجغرافيين المسلمين بالمعرفة الجغرافية ، على رسم الخرائط والحاقها بالكتب . بل لقد فجر بعض الجغرافيين المسلمين ، الاهتمام باعداد وتجهيز الأطالس ، التى تضم مجموعات متكاملة من الخرائط .

ولكى نتبين قيمة هذا التراث العلمى الضخم ، الذى أثرى المكتبــة العربية الاسلامية ، ولكى نتحسس جدوى هذا التراث الثرى ، الذى برهن على خصوبة الفكر الجغرافى ، ينبغى أن نقومه تقويما موضوعيا . وفى اعتقادى أن التقويم ، يدعو الى تصنيف هذا التراث تصنيفا فنيا موضوعيا . وفى اعتقادى أيضا ، أن عملية تصنيف هذه الكتب الكثيرة المتنوعة ، التى تحتوى المعرفة الجغرافية ، وتولى الجغرافيون المسلمون اعدادها ، تكون كفيلة بأن تميز بين :

أولا ــ كتب فى الجغرافية الفلكية .
ثانيا ــ كتب فى الجغرافية الوصفية العامة .
ثالثا ــ كتب فى الجغرافية الوصفية الخاصة .
رابعا ــ كتب فى شكل معاجم جغرافية .
خامسا ــ كتب فى شكل موسوعات عامة .
سادسا ــ كتب فى الرحلات الجغرافية .

كتب الجغرافية الفلكية :

هذا الصنف من الكتب التى تصــور البحث الجغرافى ، وهو يتلمس الحقائق عن الأرض فى اطار الكون ، يمثل انتاجا متخصصا . ومن شأنه أن

يصور كيف فجر الاطلاع على الفكر الجغرافي اليوناني القديم ، الرغبة في تقصي الحقائق الفلكية • ومن شأنه أيضا ، أن يبين كيف أحسن الجغرافيون المسلمون استخدام حصاد الرصد الذى تطلع الى قبة السماء ، فى معـالجة وتسجيل الاضافات الجيدة فى الجغرافية الفلكية • وهذا معناه أن بعض الجغرافيين المسلمين ، الذين تنجرت فيهم رغبة الكتابة فى الجغرافيـة الفلكية ، قد استشعروا قيمة أو جدوى هذه الكتابة ، مرتين ، مرة وهم يعملون فى خدمة المعرفة الجغرافية ، وأخرى وهم يجرون التعديلات ، التى تصحح بعض الأخطاء التى تردى فيها الفكر الجغرافى اليونانى •

وصحيح أن الكتابة الجغرافية الفلكية ، قد تسللت الى كثير من كتابات الجغرافيين المسلمين ، وهم يكتبون لحساب الجغرافية الوصفية • ولكن الصحيح أيضا ، أن هناك بعض الجغرافيين المسلمين الذين ، اهتموا كثيرا بتخصيص كتاب أو جزء من كتاب للكتابة فى الجغرافية الفلكية • وفى الحالتين يكون الاهتمام بشكل الأرض فى اطار الكون ، وبحجمها وحركاتها ، والاجتهاد فى تحديد خطوط الطول والعرض اهتماما موضوعيا خالصا • بل لقد حاول بعض الجغرافيين المسلمين اخراج كتابه فى الجغرافية الفلكية ، على نفس النمط الذى أخرج فيه بطليموس الاسكندرانى كتابه المجسطى •

ومن الكتب المتخصصة فى الجغرافية الفلكية ، كتاب القانون المسعودى للبيرونى ، الذى يصور اجتهاده فى الفلك والرياضيات • وقد اهتم بدراسة شكل الأرض واستدارتها ، وتحديد تحركاتها ، وعن خطوط الطول والعرض • ويقدم ابن سينا مجموعة رسائل ، تمثل أبحاثا جيدة فى الجغرافية الفلكية • ويسجل ابن رشد كتابا عن حركة السموات وكتيبا مختصرا لكتاب المجسطى • كما أسهم البطروجى بكتابات تناقض بطليموس وتعارض فكره عن الجغرافية الفلكية • ولعله أول من قال بالحركة الدائرية للكواكب ودورانها حـول الشمس •

كتب الجغرافية الوصفية العامة :

هذا الصنف من الكتب ، التى تسجل المعرفة الجغرافية عن الأقطـار والامصار ، يمثل انتاجا عاما • وتبدو هذه الكتب كثيرة ومتنوعة ، بشكل يلفت النظر • ومن شأن هذه الكتب الجغرافية العامة ، أن تصور كيف شاع الاهتمام بتسجيل المعرفة الجغرافية ، عن الاقطار والامصار ، سواء كانت فى اطار العالم الاسلامى ، أو كانت فيما وراء هذا العالم ، على صعيد جزيرة العالم • وقد تجمع بين الوصف الجغرافى ، والسرد التاريخى • كما يضيف

الاستطراد اليها بعض أبواب المعرفة الأخرى . ومع ذلك فلا تفتقد فيهـا الاجتهاد ، لدى محاولة التفسير أو الربط والتعليق الشيق .

وصحيح أن بعض هذه الكتب الجغرافية الوصفية مفقودة ، ولم نعثر عليه بين كتب التراث الجغرافى العربى الاسلامى . ولكن الصحيح أيضا ، أن معظم هذه الكتب الضائعة ، قد اعتمد عليه بعض الكتاب ، ونقلوا عنها أهم ما فيها من معرفة جغرافية . وهذا معناه أن بعض هذه الكتب يعيش بالفعل فى أحشاء بعض الكتب الجغرافية العربية الاسلامية ، التى نتداولها .

ومن الكتب المشهورة الضائعة ، كتاب المسالك والممالك ، لصاحبه أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى . وهناك اعتقاد بين الباحثين ، أن ابن فقيه ، قد اختصر كتاب الجيهانى فى كتابه المعروف باسم كتاب البلدان(١) . وكتاب الجيهانى الذى نفتقده ، أعد فى أحضان الأسرة السمانية ، فى القرن العاشر الميلادى . وهو كتاب جيد فى الجغرافية الوصفية . وقد انتفع به فى وقت لاحق الادريسى ، عندما أخذ عنه ، لدى كتابته فى الجغرافية الوصفية عن بعض أقاليم من آسيا .

ومن الكتب المشهورة الضائعة أيضا ، كتاب المسالك والممالك ، الذى كتبه وأخرجه أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فى القرن العاشر الميلادى ، وهناك اعتقاد جازم ، أن الأصطخرى الجغرافى ، قد أحسن استثمار هـذا الكتاب لدى اعداد واخراج كتابه عن المسالك والممالك . والبلخى ــ على كل حال ــ مشهور أيضا بأنه صاحب أطلس جيد ضائع(٢) . ولكن اعتماد الأصطخرى وابن حوقل على هذا الأطلس ، يحفظ هذا الانجاز من الضياع الكلى ، ويصور كيف يستحق بالفعل ، أن يعرف بين أهـل عصره بأطلس الاسلام ، وأن يحافظ على هذه التسمية فى الوقت اللاحق أيضا .

أما الكتب الوصفية المشهورة ، التى يضمهـا التراث العربى الاسلامى والمتداولة بين أيدينا ، فهى كثيرة ، ومتفاوتة من حيث الجودة والجدوى فى

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة أمين فارس ومنير البعلبكى . بيروت ، الطبعة السابعة ، دار العلم للملايين .

(٢) أطلس البلخى يضم خريطة للعالم ، وأخرى لجزيرة العرب والمحيط الهنـدى . وخرائط للمغرب والشام ومصر والبحر المتوسط ، ومجموعة من اثنتى عشرة خريطة أخرى عن وسط وشرق العالم الاسلامى .

وقت واحد . ونذكر من هذه الكتب ، كتاب عجائب البلدان لليتبعي وكتاب المسالك والممالك للأصطخري ، وكتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك لابن حوقل ، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي ، وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي ، وكتاب آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ، وكتاب تقويم البلدان لابي الفدا . وكل هذه الكتب في الجغرافية الوصفية ، تعكس مدى الاهتمام بتسجيل المعرفة الجغرافية ، والاضافة اليها ، كما تصور مدى الاعتماد على حصاد الرحلة في هذا التسجيل الجغرافي الوصفي .

هذا ، ويعتبر كتاب عجائب البلدان ، الذي سجله أبو دلف مسعر بن المهلهل الخزرجي الينبعي . في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، كتابا جغرافيا وصفيا جيدا . ويصور هذا الكتاب رؤية جغرافية واسعة وواعية ، في أثناء الرحلة في أنحاء الهند وقطاع كبير من شرق فارس . وقوة الملاحظة ، والحس الجغرافي الذكي عند الينبعي ، وهو يتجول في هذه الأرض ، كانت - بكل تأكيد - من وراء تسجيل التفاصيل الذقيقة بدقة تلفت النظر . والكتابة في هذا الكتاب جيدة ، والعرض واضح والرؤية الواقعية ، تضنور حسا جغرافيا حادا . وقد اعتمد على كتاب الينبعي ، في وقت لاحق ، بعض الجغرافيين المسلمين ، ومنهم ياقوت والقزويني .

وكتاب المسالك والممالك الذي كتبه أبو اسحق ابراهيم بن محمد الأصطخري الفارسي ، في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) كتاب من الكتب الجغرافية الجيدة . ويغطي هذا الكتاب الدراسة الجغرافية الوصفية في قطاع كبير من العالم الاسلامي . وهناك اعتقاد أن الأصطخري قد اعتمد اعتمادا كبيرا على كتابة البلخي التي سجلها في كتابه المفقود . بل يبدو أنه أفاد كثيرا من مراجعة كتاب البلخي وخرائطه ، لدى انتهاء البلخي من اعداده . كما أفاد الأصطخري أيضا ، من اتصاله بابن حوقل الذي عاصره . وكتابه الأصطخري - على كل حال - كتابة جيدة وواضحة ، وتصور مهارة في التسجيل وحسن استخدام المراجع واستيعاب المعرفة الجغرافية التي يسجلها .

ويستحق أبو القاسم محمد بن حوقل[1] وقفة متأنية ، لكي نتبين كيف

---

(١) اتهم ابن حوقل بالتجسس ، على الأمويين في الأندلس ، لحساب الفاطميين . وذلك أمر لا ينبغي أن نلتفت إليه ، ولا يجب أن يقلل من قيمة انتاجه الجغرافي الجيد .

ـ كان من فريق الجغرافيين المسلمين ، الذين اعتمدوا على الرحلة ، أكثر من اعتمادهم على استيعاب الانجاز الجغرافي المكتوب في الجغرافية الوصفية • وقد كانت رحلة أو رحلات ابن حوقل في طلب العلم والمعرفة • وقد استغرقت هذه الرحلات حوالى ثلاثين عاما ، وهو يجوب الارض • وصحيح أنه درس ما كتبه ابن خرداذبة والجيهاني ، واطلع على كتابات الأصطخرى • ولكن الصحيح أيضا ، أنه انتفع كثيرا برحلاته في أنحاء العالم الاسلامى ، وبزيارة بلغاريا • ومن ثم هيأت له هذه الرحلات اخـــراج كتابه المشهور ، بعنوان المسالك والممالك والمفارز والمهالك ، اخراجا جيدا • وينبىء العرض الوصفى في هذا الكتاب بقيمة الرحلة وجدوى المعرفة التى اكتسبها من الرحلة من ناحية ، وبحسن استثمار حصاد الرحلة في التسجيل الوصفى الجيد من ناحية أخرى •

وأبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسى ، صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، جغرافي عربى أصيل من القرن العاشر الميلادى • وقـد اعتمد المقدسى على الرحلة ، التى شحذت حسه الجغرافي ، وهو يطوف في أنحاء العالم الاسلامى ، من أجل المعاينة وجمع المادة العلمية ، التى سجلها في كتابه • وصحيح أنه رجع الى كتابات بعض الجغرافيين المسلمين ، ومنهم ابن خرداذبة والجيهاني والجاحظ والبلخى والهمدانى وابن رسته • ولكن الصحيح أيضا ، أنه وجه الى كل هؤلاء النقد المر ، ورفض مناهجهم رفضـــا قاطعا ، وسجل كتابه في اطار المنهج الأفضل الذى ابتكره • وفى كتـــاب المقدسى نتبين كيف فصل القول عن جوانب طبيعية ، وعن جوانب بشرية وكأنه الارهاص المبكر الذى ينبىء بالحاجة الى تقسيم الجغرافية الى ، جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية • كما نتبين كيف كانت كتابة المقدسى ، في أسلوب أدبى جيد • وقد ألحق بالكتاب خرائط جيدة ، واستخدام فيها الرموز المناسبة للتعبير عن الظاهرات التى تسجلها(١) •

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن الادريسى الشريف ، صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، واحد من أشهر الجغرافيين المسلمين • بل انه قمة مرموقة من بين أعلام القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) • وقد اكتسب الادريسى الخبرة في الرحلة الطويلة ، وهو يجوب الأرض في أنحاء العالم الاسلامى ، ويزور بعض مساحات من أوروبا • ويبدو أن مقامه

---

(١) استشعر المقدسى أهمية الكتابة الجغرافية للناس بصفة عامة • وكأنه يريد أن يقول ان الجغرافية معين للثقافة المفيدة لكل الناس • لأنها تبصرهم في الحل والترحال •

فى بلاط الملك روجر ملك صقلية المسيحى فى مدينة بالرمو ، والاغـــداق السخى الذى انهال عليه ، قد حفزه الى اخراج انتاجه الجيد فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر ، لكى يسجل التفوق فى العرض والتصوير الجغرافى الوصفى الممتاز ، اعتمادا على الحس الجغرافى الذكى الحاد فى أثناء اسفاره ورحلاته(١) • وقد أضاف الادريسى الى ذلك مهارة فى صناعة واعداد الخرائط حيث أعد كرته الفضية التى نقشت عليها الأقاليم السبعة ، وألحقها برسم عشر خرائط جيدة لكل قسم من هذه الاقسام •

وزكريا بن محمد بن محمود أبو يحيى القزوينى ، جغرافى عربى لامع آخر من مجموعة الجغرافيين المسلمين ، فى القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) • وصحيح أنه أصدر كتابا جغرافيا، عن عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، يتناول نظام الكون ووضع الأرض فيه • ولكن الصحيح أيضا ، انه أصدر الكتاب الجغرافى الأهم ، فى مجلدين كبيرين ، عن الجغرافيـــة الوصفية • وفى المجلد الأول ، يكتب عن عجائب البلدان ، وفى المجلد الثانى يكتب عن آثار البلاد وأخبار العباد • وفى هذا المجلد الأخير ، يعطى القزوينى كل اهتمامه ، لدراسة وصفية ، تخلط خلطا شـــديدا بين الجغرافيـــة والتاريخ • وقد اعتمد اعتمادا كبيرا ، على الاطلاع الواسع على كتابات أكثر من خمسين كتابا جغرافيا من كتب الجغرافيين المسلمين ، وأخذ منهم بمهارة• وتمثل كتابة القزوينى _ على كل حال _ دراسة دسمة وجيدة• ويحتوى كتابه الوصفى على مادة غزيرة ومشبعة ، عن العالم الاسلامى ، وعن أقطار أخرى ، فيما وراء العالم الاسلامى ، ومنها أقطار فى أوروبا ، والصـــين والشرق الأقصى •

وأبو الفدا ، صاحب كتاب تقويم البلدان ، هو السلطان الملك المؤيد عماد الدين بن اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة فى الشام • وانتساب أبو الفدا الى الدوحة الأيوبية ، لم يحرم الفكر الجغرافى العربى الاسلامى من اهتمامه الشديد بالجغرافية ، ومن اجتهاده فى الكتابة الجغرافية الوصفية العامة • وقد اطلع أبو الفدا _ بكل شغف _ على الكتب الجغرافية الكثيرة ، التى أصدرها عدد كبير من الجغرافيين المسلمين ، لكى تشحذ فيه

---

(١) الادريسى عربى أندلسى ، ولد فى سبتة ، وتعلم فى قرطبة • وبعد رحلات طويلة ، أغراه الملك روجر بالمال لكى يقيم فى بلاطه ، ويشبع نهمه وحبه للمعرفة الجغرافية • وقـــد عرف كتابه بالرجاوى • وفى اعتقاد البعض أنه أعظم جغرافى من العصور الوسطى • وقد أطلق عليه البعض استرابون العرب •

الخاصة الجغرافية . وعندما استشعر قيمة وجدوى الدراسة الجغرافية تطلع الى الاسهام فى الكتابة الجغرافية . وقد أخرج بالفعل كتابين مفيدين ومتكاملين . وكان الكتاب الاول ، بعنوان المختصر فى أخبار البشر ، وهو فى التاريخ بصفة خاصة ، والكتاب الثانى بعنوان تقويم البلدان ، وهو فى الجغرافية .

هذا وتصور كتابات أبى الفدا(١) ، نمط الكتابة الجغرافية الوصفية السائدة ، فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى). كما تصور مدى اهتمام الجغرافيين المسلمين بالتسجيل الجغرافى الوصفى ، فى هذه الفترة المتأخرة عند المسلمين ، والتى شهدت بداية مرحلة الاضمحلال السياسى والحضارى والعلمى(٢) . وقد نال أبو الفدا - على كل حال - اهتمام أوروبا اكثر من أى جغرافى مسلم آخر . بل لقد قامت بنشر كتابه ، لكى يطلع عليه العاملون فى حقل الدراسة الجغرافية . وفى اعتقادهم انه يمثل صورة جيدة من الصور المنتخبة التى تصور الفكر الجغرافى العربى الاسلامى المتطور ، الذى شد انتباه أوروبا . والمهم ان أبى الفدا كان حصيفا ، عندما أحسن اختيار المعلومات من المراجع والكتب التى اطلع عليها ، وكان خبيرا عندما أحسن استخدام هذه المعلومات وأجاد عرضها . بل ان الكتابة التى سجلها تبين كيف كان أبو الفدا صاحب حس جغرافى صادق . وقد أسعفه هذا الحس الجغرافى ، ولم يضلله ، وجنبه كل ما استشعر فيه الخطأ أو المبالغة او التشويه فى الكتب التى نهل منها .

---

(١) طبع كتاب أبى الفدا فى أوروبا . وقد قدم له المستشرق الفرنسى مقدمة جيدة ، صور فيها مفهوم الجغرافية عند الجغرافيين المسلمين . وقد أفاض فى التعليق الجيد على كتاباتهم الوصفية . ومن ثم أصبح كتاب أبى الفدا (تقويم البلدان) ، فى متناول الأوروبيين . وهم يتأهبون للأخذ بأسباب البحث الجغرافى ، وتطوير الفكر الجغرافى وريادته ، وتجديد وتطوير مسيرته .

(٢) لم يعاصر أبو الفدا سوى حمد الله المستوفى ، وأبو عبد الله الدمشقى . والمستوفى فارسى كتب كتابه (نزهة القلوب) ، لكى يكون بيانا جغرافيا طبيعيا وبشريا عن العالم الاسلامى . أما الدمشقى الأنصارى فهو جغرافى عربى ، كتب كتابه تحفة الدهر فى عجائب البر والبحر ، لكى يحتوى دراسات جغرافية وصفية متنوعة ، وفيها دراسات عن الهند واشارات الى اليابان .

كتب الجغرافية الوصفية الخاصة :

وهذه كتب جغرافية عربية أخرى ، من انتاج الجغرافيين المسلمين ، الذين استملحوا الكتابة الجغرافية الوصفية المتخصصة • وقد تخصص هؤلاء الجغرافيون المسلمون ، فى عرض وتسجيل الدراسة الجغرافية الوصفية عن قطر بعينه • ومن شأن هذا النوع الخاص من الكتب ، أن يصور مدى الاهتمام فى مرحلة النضج ، بالبحث الجغرافى المتخصص العميق ، الذى يعتمد على الخبرة والمعاينة والتجربة الشخصية ، فى الكتابة الجغرافية عن القطر المعين •

وهذا معناه أن الكاتب عاش فى أحضان القطر المعين ، وتجول فى أنحائه ، وخالط الناس فيه ، واستشعر الرغبة فى الكتابة • ومن ثم سجل الكتابة الجغرافية ، التى تصور بأكبر قدر من الصدق شخصية هذا القطر ، وتعتبر عن رؤيته الجغرافية والتاريخية فيه •

وصحيح أن بعض هذه الكتب الجغرافية الخاصة عن قطر معين مفقود ، ولم يصل الى أيدينا • ولكن الصحيح أيضا ، أن بعض الجغرافيين المسلمين ، قد اعتمد على هذه الكتب ورجع اليها ، وأفلح فى أن يحفظ ويصور أهم ما تضمنته هذه الكتب الضائعة فى كتبهم المتداولة بين أيدينا • وهذا معناه أن الحكم على قيمة هذه الكتب ، يكون من خلال كتابات الجغرافيين المسلمين ، الذين أدخلوها فى صلب كتاباتهم ، فى وقت متأخر نسبيا • وقيمة هذه الكتب — على كل حال — تكون مبينة على أسلوب اعدادها ، ومدى الاعتماد على الرحلة والمعاينة فى أنحاء القطر الذى يوليه الجغرافى الاهتمام ، واستشعار حسن استخدام حصاد الرحلة فى اطار المنهج الذى يتبعه الكاتب •

ونذكر من هذه الكتب ، التى يفتقدها التراث العربى الاسلامى ، كتاب جيد عن جغرافية السودان — بمعناه الجغرافى(١) — • وصاحب هذا الكتاب الضائع ، هو أبو الحسن بن أحمد المهلبى • وقد أعد هذا الكتاب الجيد فى أواخر القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) • وقد عرف هذا التقرير باسم الكتاب العزيزى ، نسبة الى شخص الخليفة الفاطمى ، الذى قدم اليه هذا التقرير العلمى • وطلب تقرير من جانب الخليفة معناه ، تمويل البحث من ناحية ، والاهتمام الموضوعى بالمعرفة الجغرافية على مستوى قمة الحكم فى الدولة الاسلامية من ناحية أخرى • وقد انتفع بهذا الكتاب الخاص المتخصص ،

---

(١) السودان جمع الجمع لكلمة أسود ، ويشمل الارض التى تلى الصحراء الافريقية الكبرى جنوبا ، فى اطار المطر الصيفى ، من السنغال غربا ، الى الحبشة شرقا •

في وقت لاحق ، بعض الجغرافيين المسلمين ، عندما نقلوا عنه معلومات قيمة عن السودان ، كما فعل ياقوت الحموى ٠

ومن الكتب الجغرافية الخاصة بين أيدينا ، والتى خصصها أصحابها للكتابة الجغرافية الوصفية عن أقطار معينة ، نذكر كتاب صفة جزيرة العرب للمهدانى ، وكتاب الهند للبيرونى ، وكتاب المسالك والممالك للبكرى ٠ وكلها كتب جيدة ومفيدة ، لأنها تصور كفاءة الكاتب الجغرافى ، فى عرض الصور الجغرافية عرضا منهجيا ، يحدد ملامح الشخصية الجغرافية ، ويبرز ماهيتها ، ويعبر عن موضوعيتها ٠ هذا بالاضافة الى الاتجاه الذى انكب على تجسيد المنهج الاقليمى ، فى وقت مبكر ، لدى اخـــراج واعداد الكتابة الجغرافية الوصفية ٠

وكتاب صفة جزيرة العرب ، الذى كتبه أبو محمد الحسن بن يعقوب الهمدانى(١) ، يمثل كتابا جغرافيا وصفيا جيدا ٠ وهو كتاب متخصص ، فى جغرافية جزيرة العرب ٠ ويتضمن الكتاب دراسة موضوعيه ، عن خصائص الأرض ومظاهر الطبيعة ، وعن الناس وفرص الحياة فى البادية وفى الحضر ومواقع الاستقرار ٠ كما يتضمن دراسة عن موارد الثروة الحيوانية والمعدنية فى جزيرة العرب ٠ وصحيح أن الهمدانى أفرط كثيرا ، فى الكتابة عن جنوب جزيرة العرب ، واليمن على وجه الخصوص ، والى الحد الذى نفتقد فيه التوازن بين حصص الأقاليم ٠ ولكن الصحيح أيضا ، أن مثل هذا الكتاب ، الذى يصدر فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، يصور تصويرا مفيدا ، كيف اعتمد الكاتب على الرحلة فى أنحاء الجزيرة ، وكيف أحسن استخدام البيانات التى صورت الواقع الجغرافى ، تصويرا مقبولا ، فى هذا الوقت المبكر ٠ ولا يقلل من شأن أو قيمة هذا الكتاب الجيد ، سوى الخلط الواضح بين الكتابة الجغرافية والكتابة التاريخية عن جزيرة العرب ٠

وكتاب الهند الذى كتبه أبو ريحان محمد بن أحمد البيرونى ، من أهم وأروع الكتب الجغرافية المتخصصة الممتازة فى حقل الدراسة الجغرافيـــة الوصفية ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) ٠ وفى هذا الكتاب الجيد أول دراسة اقليمية موضوعية ، تكشف عن مهـــارة البيرونى وابداعه المنهجى ، وتصور حسن استخدام ثمرات الرحلة وتوظيف الحاسة

---

(١) الهمدانى ، هو ابن الحائك ٠ وقد عرف بصفته أديبا ومؤرخا وجغرافيا فى وقت واحد ٠ والهمدانى عربى من أهل اليمن ٠ وله كتاب آخر هو كتاب الاكليل فى مفاخر قحطان وذكر اليمن ٠

الجغرافية ، فى عرض الظاهرات الجغرافية وتصويرها ، وفى وضوح الرؤية وانجاز التفسير المنطقى العلمى الجيد · وصحيح أن البيرونى كان موفقا ـ بكل تأكيد ـ فى دراسة الظاهرات الطبيعية وتفسيرها · ولكن الصحيح أيضا ، انه ألحق هذا الابداع ، بدراسة مكثفة ومفيدة ، للظاهرات البشرية والواقع الحياتى فى الهند · ومن ثم يجب أن نتصور كيف أن كتابة البيرونى ، وهو يتابع هذين المجالين الرئيسيين ، الطبيعي والبشرى ، تمثل علامة أو مؤشرا الى أسلوب ومنهج الدراسة الجغرافية الاقليمية(١) ·

وكتاب المسالك والممالك ، الذى كتبه أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكرى القرطبى ، يمثل اسهاما جيدا ، فى الكتابة الجغرافية الوصفية ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) · ويبدو أن البكرى قد عكف على استيعاب المادة العلمية الغزيرة ، التى وردت فى كتابات بعض الكتاب(٢)، من أمثال محمد التاريخى ، وأبو عبيد الله محمد بن يوسف الوراق ، وابراهيم بن يعقوب ، لكي يصنف كتابه تصنيفا جيدا · ويصور العرض العام فى هذا الكتاب مهارة البكرى فى الاقتباس ، وفى تنظيم المادة العلمية ، وفى حسن استثمار المراجع والمصادر ، التى أعفته من مشقة الرحلة ، من أجل المشاهدة والمعاينة · كما يصور الكتاب أيضا ، مهارة البكرى فى عرض الموضوع عرضا جيدا ومشوقا · وقد أصبح كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو الكتاب المستل من كتاب البكرى الكبير ، أعظم كتاب جغرافى خاص ، يتخصص فى جغرافية المغرب · بل لقد وضع هذا الانجاز الجيد ، البكرى فى المكانة المرموقة ، بين الجغرافيين المسلمين فى الأندلس ·

المعاجم الجغرافية :

المعاجم الجغرافية ، تمثل نمطا من أنماط الكتابة الجغرافية ، التى تورد

---

(١) البيرونى مؤرخ وجيولوجى وفلكى ورياضى ، قبل أن يكون جغرافيا مرموقا ، ويبدو أن الخبرة المتنوعة قد أفلحت فى تزويده بقدر من التطلع الى الابداع ، وبقدرة عـلى البحث التركيبى التحليلى فى الدراسة الجغرافية · كما أن الرحلة ومعايشة الناس وحسن استخدام المعرفة ، التى حصل عليها فى أحضان الهند ، قد أسعفته فى اخراج كتاباته الجيدة ودراساته الممتازة · وقد سجل أكثر من اضافة فى الجغرافية الفلكية ، وصنع نصف كرة أرضية ورسم عليها عروض وأطوال البلدان · وكل من ترجم للبيرونى ، يقول أنه أجاد فى أى موضوع أدخله فى أطار اهتمامه · بل لقد برهن دائما على سعة الأفق والتفوق ·

(٢) محمد التاريخى صاحب كتاب عن أفريقية الشمالية · وابن يعقوب تاجر نخاسة يهودى ورحالة فى ألمانيا وروسيا على عهد اتو الأكبر ·

المعرفة الجغرافية ، فى تصنيف رتيب . وفى اعتقادى أن انجاز المعجم الجغرافى ، يعتبر ابداعا أو ابتكارا عربيا اسلاميا ، فى التسجيل الجغرافى فى مرحلة النضج . وكتابة أو انجاز المعجم الجغرافى ، يتطلب مهارة وكفاءة وسعة أطلاع ، لكى يضم المادة العلمية الجغرافية ، ويحتويها حسب الترتيب الإبجدى . وهذا الفتح أو الابداع فى الكتابة الجغرافية ، الذى يمثل شكلا من أشكال الفهرسة والتبويب ، فجر الثورة الحقيقية ، فى الوقت المناسب ، لحساب لم شمل وجمع وتصنيف المادة الجغرافية الغزيرة ، التى هى حصاد البحوث والاجتهادات على مدى القرون، منذ أن بدأت خطوات المسيرة الجغرافية العربية الاسلامية .

هذا ، وقد توفرت فى أصحاب المعاجم الجغرافية ، القدرة على حصر المادة الجغرافية ، والقدرة على التمييز بين الغث والثمين ، من هذه المادة العلمية قبل تصنيفها . ومن ثم كانت سعة الاطلاع على الرصيد الهائل من التراث الجغرافى مطلوبة . كما كانت الخبرة فى عملية التصنيف والفهرسة أساسية ، لكى ينجح الاعداد والاخراج . ثم كانت الأمانة العلمية أهم ما تشبث به أصحاب المعاجم الجغرافية . ومن أصحاب المعاجم الجغرافية المشهورة، نذكر البكرى القرطبى من أبناء المدرسة الجغرافية الأندلسية ، ونذكر أيضا ياقوت الحموى من أبناء المدرسة الجغرافية العربية فى المشرق العربى .

ومعجم ما استعجم هو أول معجم عربى جغرافى على الاطلاق ، ان لم يكن أول معجم جغرافى فى التراث الجغرافى الانسانى بصفة عامة . وقد أصدر البكرى هذا المعجم الجغرافى ، فى القرن الحادى عشر الميلادى (القرن الخامس الهجرى) . وقد أورد البكرى فيه (جملة مما ورد فى الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والامصار ، والجبال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة) . ومعجم البكرى[١] — على كل حال — دليل جيد للباحث الجغرافى وغيره من الباحثين ، فى كثير من فروع المعرفة المختلفة ، بالاضافة الى المعرفة الجغرافية . ذلك أنه أحاط واطلع على كل الكتابات السابقة المفيدة ، واعتمد عليها ، لكى يصنف هذا المعجم الجيد .

---

(١) للاطلاع على مهارة البكرى فى انجاز معجمه ، راجع هذا المعجم الذى حققه الأستاذ مصطفى السقا فى القاهرة سنة ١٩٤٥ .

ومعجم البلدان ، هو معجم القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، الذى سجل اضافة التسجيل والتصنيف الجغرافى • وقد أعد هذا المعجم وأخرجه فى الصورة الجيدة ، شهاب الدين أبو عبـــد الله الحموى الرومى ، المشهور باسم ياقوت الحموى(١) • وينبغى أن نشير الى أن ياقوت، من خلال الرحلة من أجل التجارة ، اكتسب الخبرة والتجربة التى حببته فى المعرفة الجغرافية على وجه الخصوص • ومن ثم طلب العلم ، وتفرغ للبحث عن المعرفة الجغرافية ، لكى يتأهل للكتابة والانجاز الجيد ، فى الجغرافية التى استهوته كثيرا • ولكى يجهز ياقوت هذا المعجم المشهور ، رجع الى كثير من الكتب المتنوعة ، ونقل منها بكل الأمانة والثقة • وفى هذا المعجم وحسب الترتيب الأبجدى ، أورد ياقوت الحموى ، وصفا جيدا لكل ما استطاع أن يصل الى علمه ، عن المدن والمواضع(٢) • وأضاف الى ذلك كله ، كتابة وصف جيد عن ديار الاسلام ، من الأندلس غربا ، الى بلاد ما وراء النهر والهند شرقا، بالحال الذى كانت عليه هذه الديار ، فى القرن الثالث عشر الميلادى •

جغرافيات الموسوعات العامة :

الموسوعة العامة ، تمثل شكلا من أشكال الكتابة والتسجيل الموضوعى العلمى ، التى تجمع شمل كل أبواب المعرفة • وقد تكون الموسوعات العامة العربية الاسلامية ، أقرب شكلا الى ما بين أيدينا من الانسكلوبيديات ، فى الوقت الحاضر • ومن شأن أصحاب الموسوعات العامة الاسلامية ، الالتزام الموضوعى ، بجمع كل شاردة وواردة من العلم والمعرفة ، وافراد باب خاص لها فى اطار التسجيل الموضوعى فى الموسوعة •

وفى اطار هذه الموسوعات العامة ، التى تفرغ بعض العلماء على انجازها، أفرد الكتاب فصولا وأبوابا عن الجغرافية والمعرفة الجغرافية • وصحيح أن كاتبا من هؤلاء الكتاب ، أصـــحاب الموسوعات العـــامة ، لم يكن من بين

---

(١) كان ياقوت فى الأصل روميا • وقد وقع فى الأسر صغيرا ، فاستعرب ، وعمل لصاحبه فى التجارة ، حتى أعتقه • وقد عكف ياقوت عن اخراج معجمه ، فى مدينة الموصل التى لجأ اليها ، لدى سماعه بنبأ زحف جحافل التتار على ديار المسلمين • وياقوت له كتاب آخر بعنوان معجم الأدباء ، وفيه بعض المعلومات الجغرافية المفيدة •

(٢) اختصر هذا المعجم وأضاف اليه صفى الدين عبد المؤمن بن البغدادى ونشره باسم مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع • كما اختصره أيضا السيوطى فى كتابه مختصر معجم البلدان •

المتخصصين في الجغرافية بصفة عامة · ولكن الصحيح أيضا ، انهم اطلعوا على كل أو معظم كتابات الجغرافيين المسلمين ، وأخذوا عنهم بذكاء وحنكه ومهارة ، تصور صدق وجدوى الحاسة الجغرافية الذكية ، التى أسعفتهم ، وهم يؤدون هذه المهمة الصعبة ·

ومن الموسوعات العامة المشهورة · نذكر موسوعة النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وموسوعة العمرى مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، وموسوعة القلقشندى صبح الأعشى فى صناعة الانشا · وفى التصنيف والكتابة فى هذه الموسوعات ، نتبين كيف تناول الكتاب – بكل ذكاء – دراسة الأرض وظاهرات الأرض ، وكأنه يعالج الموضوع فى ضوء فهمنا العصرى للجغرافية الطبيعية ، وكيف يتناول – بكل ذكاء – دراسة الناس وظاهرات الحياة ، وكأنه يعالج الموضع فى ضوء فهمنا العصرى للجغرافية البشرية ·

وموسعة شهاب الدين أحمد النويرى ، نهاية الارب في فنون الأدب ، موسوعة جيدة من أهم الموسوعات العربية · وقد صدرت هذه الموسوعة في القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ، فى واحد وثلاثين مجلدا كبير(١) · وتضم موسوعة النويرى مواد متنوعة ، تجمعها خمسة اقسام ، فى الأدب واللغة ، وفى الادارة ، وفى الدين ، وفى التاريخ ، وفى الجغرافية· وحصة الجغرافية في القسم الذى خصصه النويرى لها فى الموسوعة تحتويها خمسة فصول · وقد عالج فى هذه الفصول – بكل العمق والاتساع – موضوعات فلكية ، وموضوعات طبيعية عن اليابس والماء ، كما عالج موضوعات بشرية ، عن الناس وحياتهم وطبائعهم ومساكنهم(٢) · هذا ، ولم يترك شيئا يستحق الذكر ، الا وفصل الحديث فيه ، حتى يشبع القارىء ويغطى الموضوع ·

---

(١) طبعت من مجلدات هذه الموسوعة ، ثمانية عشر مجلدا فقط · هذا ، وما زالت المجلدات الباقية مخطوطة ، تنتظر من يتولى تحقيقها ونشرها ، فى دار الكتب المصرية ·

(٢) فى حصة الجغرافية من موسوعة النويرى ، يتحدث الفصل الأول عن السماء والكواكب، والفصل الثانى عن السحاب وتكوينه والصواعق والنيازك والرعد والبرق والرياح وعن النيران ، والفصل الثالث عن الأيام والليالى والأعوام والأعياد والفصول · وأهم الفصول – بكل تأكيد – هما الفصل الرابع والخامس · ذلك أنه ، يتحدث فى الفصل الرابع عن توزيع اليابس والماء ، وعن الأرض والتضاريس والأنهار والعيون ، وعن أقاليم الأرض السبعة · وفى الفصل الخامس، يتحدث عن الناس وطبائعهم فى البلدان ، وعن السكن فى المدن ·

. ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار(١) ، من انتاج شهاب الدين بن فضل الله العمرى ، موسوعة أخرى على جانب كبير من الأهمية . وقد صدرت هذه الموسوعة الهامة ، فى القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) ، فى عشرين مجلدا كبيرا . وتضم هذه الموسوعة قسمين كبيرين ، نستشعر التكامل فيما بينهما موضوعيا ، من وجهة النظر الجغرافية . وينفرد القسم الأول من هذين القسمين ، بدراسة الأرض . ويهتم القسم الثانى بدراسة سكان الأرض فى الشرق والغرب . ودراسة الأرض تبدو متكاملة ، حيث يورد العمرى وصف الأقاليم والمسالك ، ويتحدث عن اتجاهات الرياح والمناخ، وعن مواقع المدن والبلدان . ودراسة الانسان تبدو متكاملة أيضا ، حيث يضمنها الحديث عن موارد الثروة الحيوانية والنباتية والمعدنية(٢) .

وصبح الأعشى فى صناعة الانشا ، من انتاج أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، موسوعة قيمة عامرة بأبواب المعرفة المتنوعة . وقد صدرت هذه الموسوعة ، فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، فى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . وفى زحمة العرض الغزير الموضوعى ، الذى تحتويه هذه الموسوعة القيمة ، يخصص القلقشندى للجغرافية حصة مناسبة فيه(٣) . وتتمثل هذه الحصة بصفة خاصة ، فى المقالة الثانية . وتورد هذه المقالة حديثا مستفيضا عن الأرض . ويظهر فى هذا الحديث ، التركيز الموضوعى على اليابس والماء ، وعن الأقاليم الطبيعية .

كتب الرحلات :

. لئن ذكرنا ـ من قبل ـ أن الرحلة كانت حركة مرنة فى البر والبحر من أجل أهداف متنوعة ، وأن سلطة الدولة أحيانا وهيبتها ومكانتها فى مجتمع الدول أحيانا أخرى ، قد أمدت هذه الرحلات على الطريق وصولا الى أهدافها، فيجب أن نؤكد على أن هذه الرحلات كانت كثيرة وأكثر من أن تعد أو تحصى.

---

(١) نشر أحمد زكى باشا الجزء الأول من موسوعة النويرى فى القاهرة سنة ١٩٢٤ ، ونشر الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب منها القسم الخاص بأفريقية والغرب والأندلس فى تونس . وهناك قسم كبير ما زال مخطوطا ، ينتظر من يحققه ويتم نشره .

(٢) اهتمام العمرى بمصادر الثروة ، لدى الحديث عن السكان ، يوحى بأن العمرى كان قد استشعر معنى التفاعل بين الناس والأرض ، طلبا لاستخدام الموارد المتاحة فيها . وهذ ـ بكل تأكيد ـ بحث وارد الآن فى الدراسة الجغرافية الحديثة .

(٣) نشرت هذه الموسوعة فى القاهرة سنة ١٩١٣ و ١٩١٥ .

ومع ذلك ، فيجب أن نعطن أيضا ، الى أن حصاد هذه الرحلات من المعرفة والكشف الجغرافى ، ينقسم قسمين ، قسم نال الاهتمام لكى يسجل وقسم آخر أهمل تسجيله كلية • وهذا معناه أن حصاد الرحلات الكثيرة فى البر والبحر ، لم يسجل بعضه على الأقل •

هذا ، وقد تأتى التسجيل الذى يصور مشاهد الرحالة وحصاد الرؤية وثمرات التعايش مع الناس ، وهم يجوبون الأرض ، أو وهم يستقرون فى الاقطار والامصار لبعض الوقت ، أو وهم يتعاملون مع الناس فى هذه الاقطار ، فى صورتين • •

— **فى الصورة الأولى** ، يكون التسجيل فى كتاب ، يهتم صراحة بالرحلة ، ويحتوى بالفعل حديثا يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله •

— **فى الصورة الثانية** ، يكون التسجيل فى كتاب جغرافى يهتم صراحة بالجغرافية الوصفيه ، وينتقى من حصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية •

وهكذا ينبغى أن نشير الى أن حصاد الرحلة الذى يسجل فى العادة ، هو تصوير للانطباعات التى يستشعرها الرحالة ، وتعبير عن ادراك الذى يجنيه بشكل أو بآخر ، تطلعا الى ، (١) الكتابة عن الرحلة ، أو (٢) خدمة المعرفة الجغرافية الوصفية • وصحيح أن هذه الرحلات كثيرة ، وأن أسبابها متنوعة فى أنحاء العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العالم الاسلامى فى جزيرة العالم • وصحيح أن هذه الرحلات ، وقد تأتت فى كل الأوقات ، لكى تحقق أهدافا أساسية ذاتية أولا ، ولكى تضيف الى المعرفة عن الواقع فى الاقطار التى وطئتها ثانيا ، ولكى تعبر عن منطق الانفتاح العربى الاسلامى البناء على العالم ثالثا • ولكن الصحيح أيضا ، أن ليس كل من سلك سبيل الرحلة ، قد أوتى الرغبة والفطنة معا ، لكى سجل المعلومات والبيانات . التى تهيأت له فرصة الاحاطة بها أثناء الرحلة • وهذا معناه أن الرحلة وايجابياتها شىء ، وان استثمار الرحلة لحساب المعرفة ، ولحساب المعرفة الجغرافية على وجه الخصوص شىء آخر •

وفى مجال تقويم الرحلة والرحالة ، واستشعار ما توفر لهم من حصاد أضيف الى المعرفة ، وجدوى هذه الاضافة ، يتعين أن نميز تمييزا موضوعيا بين ثلاثة أنماط من الرجال • •

. **والأول** : رجل فطن يكاد يرقى الى مرتبة الاحتراف ، وهو يسافر من بلد الى بلد آخر ، لكى يشاهد ويعاين ويعايش . ثم هو يهتم بما يصادفه فى أثناء الرحلة ، ويدون مشاهداته ، ويعرضها عرضا واقعيا ، فى شكل من الأشكال ، فى كتاب يحكى قصة الرحلة ويصور الانطباعات عن الرحلة .

والثانى رجل عالم يحترف المعرفة الجغرافية ، قبل أن تستهويه الرحلة، والتى يستشعر قيمتها الفعلية للمعرفة الجغرافية . وهو يسافر ويشاهد ويعايش ويدون مشاهداته الخاصة ، لكى يدسها فى كتاباته الجغرافية . ومن ثم هو يعبر أو يصور تصويرا يكشف عن مهارة وفطنة حسه الجغرافى الواعى ورؤيته الصادقة ، من خلال تقويمه الموضوعى لهذه الرؤية .

والثالث رجل تشغله أهدافه الذاتية من الرحلة أكثر من أى شىء آخر . وهو يسافر ويعاين ويعايش الواقع ، ولكن دون أن يبـــالى بالتسجيل أو استشعار قيمة رؤيته . ومع ذلك فقد يقص الكثير ، لو سأله سائل عن مشاهداته ، ولكن الخوف كل الخوف من أن يحكى حديثا مغلوطا أو مخلوطا ، لا يخدم المعرفة ، بقدر ما يضللها أو يسىء اليهـــا من غير قصد أو من غير تعمد .

وفى مرحلة النضج ، نضج الفكر الجغرافى الاسلامى ، وتقدم مسيرته الى ما أفضل ، يهمنا أن نتبين ، كيف أسهم كل واحد من هؤلاء الرجال الثلاثة ، الذين قاموا بالرحلة ، فى اثراء الفكر الجغرافى بالمعرفة عن الأقطار والأمصار ، ويهمنا أيضا ، أن نقوم فى نفس الوقت هذا الاسهام ، الذى اتخذ شكلا من أشكال الدراسة الميدانية ، لحساب المعرفة الجغرافية ، تقويما موضوعيا من وجهة النظر الجغرافية .

والرجل النشيط الذى مارس الرحلة بشغف ، واستشعر قيمة المعاينة والمشاهدة ، واعتمد عليها وزج بها فى كتاباته الجغرافية الوصفية ؛ رجـــل مجتهد وحصيف . ذلك أنه برهن عى ادراك حقيقى لماهية الدراسة الميدانية وعلى مهارة وكياسة فى حسن استخدام رؤيته الحقيقية للواقع الذى سجله فى أثناء الرحلة . وينبغى أن نؤكد على أن هذا الرحالة ، قد أفلح فى اتخاذ الرحلة وحصاد الرحلة مطية الى الهدف الذى يعنيه ، وهو تسجيل الاضافة الى الجغـرافية الوصفية بالفعل . ومن الجغـرافيين المسلمين المرموقين الذين حققوا هذا الانجاز ، عندما تحملوا مشقة الرحلة ، نذكر البيرونى والمسعودى والمقدسى . ما من شك فى أن كتاباتهم قد تبوأت المكانة المرموقة ، لأنهم

أحسنوا استخدام ثمرات رحلاتهم الشخصية ، فى بعض الأقطار ، لحساب المعرفة الجغرافية .

والرجل النشيط ، الذي مارس الرحلة واحترفها ، وشغلته أهدافه الذاتية كلية ، حتى لم يستشعر قيمة أو جدوى المشاهدة والمعاينة ، أثناء الرحلة ، رجل مجتهد لحساب مصلحته الخاصة ، وغير مفيد من وجهة النظر الجغرافية . ومن الجائز أن يصبح هذا الرجل ، مصدر رواية أو قصة ، يعتمد عليها طالب المعرفة الجغرافية ، بشرط أن تتهيأ الظروف التى تدعوه الى أن يقص أو يحكي . ولكن قد يعجز هذا الرجل عن أداء هذه المهمة أحيانا ، أو قد يشوه الحقائق ويقذف بالمعرفة الجغرافية الى الخطأ بحسن نية ، أو من غير قصد أحيانا أخرى . وهناك بالفعل آلاف الرحالة من هذا الصنف ، الذى كان أكثر من مضلل ، وهو يقدم اسهامه الى المعرفة الجغرافية ، ويوقعها فى الخطأ .

أما الرجل النشيط ، الذى مارس الرحلة حبا فى الرحلة ، وانكب بكل الاهتمام على جمع حصادها ، وتسجيله فى كتابات تحكى قصتها ، وتدون مشاهداتها ، فهو رجل مجتهد ومفيد . وهو مجتهد لانه قام بالرحلة وتحمل المشقة لكى يغطى مساحات هائلة ، ويزور أنحاء كثيرة . ثم هو مفيد لأنه سجل مشاهداته وما وصل الى علمه من المعرفة الجغرافية أو التاريخية وغيرها ، أثناء أو بعد انتهاء الرحلة . وينبغى أن نستشعر كيف كان اهتمام هذا الرحالة علامة صادقة ، على أن الهدف الأساسى للرحلة ، هو جمع الحصاد ، الذى تولى تسجيله ، فى كتاب . وهذا معناه أن هذا الرجل من الرحالة ، صاحب كتاب من كتب الرحلات . ومعناه أيضا ، أن كتاب الرحلة ، كتاب من نوع خاص ، يسجل اجتهاد الرحالة وهو يمارس هوايته فى الرحلة .

هذا ومن شأن الرصيد من المعرفة التى سجلها الرحالة فى هذا الصنف من الكتب ، أن يمثل شكلا من أشكال التسجيل المفيد ، لحساب المعرفة الجغرافية والمعرفة التاريخية وغير ذلك من أبواب المعرفة المتنوعة . وصحيح أن هذا الصنف من الكتب الذى عرف باسم أدب الرحلات قد أفاد الجغرافيين المسلمين ، وأسعفهم بالمعرفة الجغرافية ، التى تحتويها مؤلفاتهم الجغرافية الوصفية عن الاقطار . ولكن الصحيح أيضا ، أن تسجيل الرحلة قد أدى فى بعض الحالات الى اثارة الحس الجغرافى أو الحس التاريخى عند بعض الرحالة ، لكى يتحول من مجرد رحالة الى جغرافى أو مؤرخ . وهذا معناه أن الرحلات لم تقدم حصادها المفيد الى الجغرافية فحسب ، بل لقد قدمت أيضا فريقا من المجتهدين انضموا الى فريق الجغرافيين المسلمين .

هذا ، ومن الرحالة المجتهدين ، الذين خرجوا الى الرحلة وجابوا الأرض وتحملوا المشقة ، نذكر ناصر خسرو والهروى ، والبغدادى ، وابن جبير ، وابن سعيد ، والغرناطى ، وابن رشيد ، وابن بطوطة . وقد ترك كل واحد منهم كتابا جيدا ، يسجل رحلته ويحكى قصـــة هذه الرحلة ، ويصور مشاهداته . وينبغى أن نذكر أن الرحالة الذين خرجوا الى الرحلة ، من أجل جنى ثمراتها وتسجيلها فى كتاب ، لحساب المعرفة الجغرافية ، فريقين . وقد خرج الفريق الأول من المشرق الاسلامى ، وخرج الفريق الثانى من المغرب الاسلامى ، تطلعا الى زيارة الأقطار فى العالم الاسلامى ، أو فيما وراء العـــالم الاسلامى .

وصحيح أن الهدف كان واضحا من الرحلة ، قبل أن يغادر الرحالة دياره ، وبعد أن يغامر فى سبيل هذا الهدف . ولكن الصحيح أيضا ، أن عوامل كثيرة متداخلة ، قد اشتركت ، فى رسم خط سير الرحلة . وفى اعتقادى أن افتقاد الهيئة التى تمول أو توجه الرحلة ، قد ترك الأمر كله للظروف ، لكى تلعب هذه العوامل بالرحلة . ومع ذلك فلقد كانت الرحلة مفيدة ومثمرة ، لحساب المعرفة بصفة عامة . وقد تحققت هذه الفائدة ، من خلال اخراج الكتاب الذى يحكى قصة الرحلة ، ويسجل مشاهدات الرحلة وانطباعاتهم أثناء الرحلة .

رحلات المشارقة وكتبهم :

ومن الرحالة المشارقة المسلمين ، ناصر خسرو علوى الفارسى . وهو من رحالة القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) . ومنهم أيضا على ابن أبى بكر الهروى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . هذا بالاضافة الى عبد اللطيف البغدادى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى أيضا . وقد تعشق كل واحد من هؤلاء الرحلة ، وقام بالرحلة فعلا ، وسجل مشاهداته أثناء الرحلة ، فى الأقطار التى زارها ، بطريقته الخاصة . ومن خلال الاطلاع على كتب هذه الرحلات ، نتبين كيف تفاوتت المستويات ، وكيف يختلف ما يحتويه كل كتاب من حصاد الرحلة . ذلك أن الرحالة يسجل انطباعه ، ولا يخضع لنمط معين من حيث جمــع المعلومات ، أو من حيث تسجيلها .

هذا ، وقد أمضى ناصر خسرو علوى الرحالة الفارسى ، فترة طويلة من العمر ، وهو يجوب الأرض ويستمتع بالرحـــلة . وشملت زيارات ناصر خسرو ، ايران وتركستان والهند . كما واصل الرحلة ، مرورا بالشـــام

والقدس الشريف ، الى الحجاز ، لكي يؤدى فريضة الحج في مكة المكرمة . وبعد الحج استهوته مصر ، فعرج عليها ، ومكث فيها لبعض الوقت . وبعد حوالى خمسين عاما من الرحلة في هذه الاقطار في أنحاء المشرق الاسلامي ، وبعد معايشة الناس ومعاينة الواقع الجغرافي ، عاد ناصر خسروا الى موطنه في خراسان .

وفي موطنه ، تفرغ ناصر خسرو لتسجيل انطباعاته ومشاهداته في الرحلة تفرغا كاملا . وقد اتخذ التسجيل شكل اليوميات . ولقد أفلح ناصر - بكل الذكاء والحنكة - في تقويم مشاهداته تقويما جيدا . كما أفلح في التسلل الى أعماق الناس في البلاد التى زارها ، وكتب انطباعاته عنهم وعن تقاليدهم . بل لقد أعطى ناصر خسرو تصويرا جيدا ، عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، في تلك البلدان(١) .

وأبو الحسن على بن أبى بكر الهروى ، واحد من الرحالة المشارقة المسلمين ، الذين استهوتهم الرحلة والأسفار ، حبا في الرحلة أكثر من أى شيء آخر . وكان الهروى الذى عرف عنه حب الرحلة وكثرة الاسفار ، وحسن معاشرة الناس في الاقطار التى زارها ، معاصرا للرحالة ابن جبير من الرحالة المغاربة المسلمين . وفي اسفاره زار الهروى العراق والشام والحجاز . كما زار مصر والمغرب وطاف ببعض جزر البحر المتوسط ، وعاش في جزيرة صقلية(٢) لبعض الوقت . ثم عرج على بلاد الروم ، وأشبع حب استطلاعه الى مشاهدة أرض الروم وحياة الروم .

وصحيح أن الهروى سجل رحلته أو رحلاته في هذه الأقطار ، في كتاب من كتب الرحلات . وصحيح أن الهروى زج في وصفه وكتاباته القصص الخرافية ، وشرد الى ذكر الأساطير . ولكن الصحيح أيضا ، أن كتاب الهروى عن اسفاره بعنوان الاشارات الى معرفة الزيارات ، لا يهتم الا بذكر أهم المزارات والمساجد ودور العبادة التى شاهدها فقط . ومن ثم كانت العاطفة الدينية التى تأججت في نفس الهروى ، وحولت رحلته الى شكل من السياحة الدينية في الأقطار ، من وراء هذه النزعة ، التى حرمت قلمه من تقديم بعض الزاد المفيد ، لحساب المعرفة الجغرافية . ومن أجل ذلك يسقط بعض الجغرافيين

---

(١) ناصر خسرو فارسى كتب رحلته بالفارسية . وقد ترجمها د . يحيى الخشاب في القاهرة .
(٢) نفيس أحمد : المرجع السابق ص ٨٥ .

المسلمين كتابات الهروى من حسابهم ، وهو ما لا ينبغى أن يحدث ، لأن المهارة والحنكة ، تكون كفيلة باستخلاص بعض الحقائق من كتاباته ، لكى تنتفع بها الكتابة الجغرافية .

وعبداللطيف البغدادى ، واحد من الرحالة المشارقة المسلمين ، الذين عرف عنهم حب العلم وطلب المعرفة . ومن أجل المعرفة والعلم ، أحب البغدادى الرحلة والاسفار فى أنحاء الأرض . بمعنى انه أخذ بالانفتاح سبيلا ، لكى يطلب المعرفة ، وينهل من معنيها الثرى فى كثير من الأقطار والامصار . وقد جاب البغدادى فى أنحاء المشرق الاسلامى ، وزار الشام ومصر والعراق وأذربيجان وارضروم ، طلبا للمعرفة فى مجالس العلم فيها . وكان من شأنه أن يعايش الناس وأن يقف على أحوالهم وهو يطلب المعرفة ويتقصى الحقائق عن الأرض والحياة .

وقد سجل البغدادى تفاصيل رؤيته فى كتب مفيدة عن الرحلات التى قام بها . ومن أهم كتب البغدادى كتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وفى هذا الكتاب الجيد ، يمكن أن نتبين صدق وذكاء الحس الجغرافى والتاريخى ، وهو يذكر ويسجل صورا صادقة عن الحياة فى مصر . كما نتبين كيف يحرص على تسجيل التعليقات التى تظهر انه صاحب رأى ، وهو يعلق ويكتب انطباعاته الخاصة الذكية عن الأحوال الاجتماعية والعمرانية فى مصر .

رحلات المغاربة وكتبهم :

كان المغاربة — فى الواقع — أكثر اهتماما بالرحلة ، واخراج كتب الرحلات . وفى اعتقادى أن التشوق الى زيارة المشرق الاسلامى الذى كان يمثل مركز الثقل الاقتصادى والسياسى والدينى فى العالم الاسلامى ، كان من وراء الرحلات الكثيرة التى خرجت من المغرب فى اتجاه الشرق . ويذكر من الرحالة المغاربة المسلمين ، ابن جبير ، وابن سعيد المغربى ، والبلنسى العبدرى ، وابن رشيد الفهرى وأبو البقاء البلوى ، وأبو حامد الغرناطى ، وأبو عبد الله بن بطوطة ، وأبو محمد التيجانى .

هذا ، وقد كان كل هؤلاء الرحالة من هواة الرحلة والاسفار فى أنحاء العالم الاسلامى . بل لقد كان كل واحد منهم ، ناجحا وهو يحسن استثمار المشاهدة والمعاينة فى الأقطار والأقاليم التى شهدتهم وهم يجوبون الأرض ، ويخالطون الناس ، ويتحسسون الواقع الجغرافى . وقد سجل هؤلاء الرحالة

اهتمامهم بالمعرفة ، فى اطارها الواسع وحرصهم على طلبها فى أنحاء الأرض. ولكنهم برهنوا فى الوقت نفسه على ذكاء الحس الجغرافى والتاريخى والاجتماعى ، أكثر من أى شىء آخر ، وهم يخرجون كتبهم المشهورة عن الرحلات .

وقد تحمل الرحالة المغاربة مشقة الرحلة الطويلة ومتاعبها ، وهم ينتقلون من قطر الى قطر آخر ، فى المشرق أو فى المغرب الاسلامى . بل لقد تحمل الواحد منهم أعباء وتكاليف الرحلة ، فى أقطار تقع خارج العالم الاسلامى ، على الصعيدين الافريقى والآسيوى . وصحيح انهم انتفعوا بالأمن الذى حققته سلطة الدولة على الطريق . وصحيح انهم استثمروا هيبة الدولة وسمعتها فيما وراء العالم الاسلامى . ولكن الصحيح أيضا ، انهم اعتمدوا على الاجتهاد الشخصى ، وعلى الموارد الخاصة ، فى تحديد خط سير الرحلة ، وفى تمويل الرحلة . وهذا معناه أنهم افتقدوا الهيئة التى تمول الرحلة ، وافتقدوا الجزاء السخى والمثوبة المادية العاجلة ، التى ينبغى أن تكون فى مقابل الرحلة . ومع ذلك، فقد كانت كتب الرحلات ، التى سجل فيها الرحالة مشاهداتهم ، وهم ينتقلون من قطر الى قطر آخر ، معينا زاخرا بصور ممتازة ومفيدة ، لحساب المعرفة الجغرافية والمعرفة التاريخية والمعرفة الاجتماعية والمعرفة السياسية .

وأبو الحسن محمد بن أحمد البلنسى ، المشهور بابن جبير رحالة من المغاربة المسلمين المرموقين فى القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . ولقد قام ابن جبير بثلاث رحلات الى المشرق الاسلامى ، لكى يشبع شغفه بالرحلة ، ويجمع حصاد المعرفة من خلال الرحلة والتعامل والتعايش مع الناس ، وينتفع بزيارة بعض الاقطار والامصار . وكانت الرحلة الأولى حج الى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة . وكانت الرحلة الثانية رحلة شوق الى الرحلة والتزود بمزيد من المعرفة ، التى تشغله ويبحث عنها فى الاقطار والامصار . أما الرحلة الثالثة ، فلقد كانت رحلة فرار من الملل والحزن والأسى ، بعد أن افتقد زوجته التى ماتت ، وكره الحياة بدونها فى سبتة . وفى كل رحلة من هذه الرحلات ، كان من شأن ابن جبير أن يعاين ويشاهد ويستشعر الواقع الحياتى للناس الذين يختلط بهم ، وأن يتقصى الحقائق الحية التى تشبع تطلعه وحبه للمعرفة .

هذا ، وقد جاء تسجيل ابن جبير على شكل يوميات للرحلة ، وهو يجوب الارض ويستشعر المكان ويتعامل مع الناس ، فى كتاب بعنوان

(تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار) ، التى عرفت برحلة ابن جبير(١) . وفى هذا الكتاب من كتب الرحلات ، يسجل ابن جبير رؤيته وملاحظاته عن المكان ، وعن الأحوال الاقتصادية والحياة الاجتماعية ، ويصور أنماط العمران والمساجد والأضرحة والآثار التى زارها(٢) .. ومهما قيل بشأن كتابة ابن جبير فى كتابه عن الرحلات ، من حيث ركاكة التعبير أحيانا ، وعدم ترابط الجمل والأفكار أحيانا أخرى ، ومهما تكشف العجز فى بنية وتكوين وتركيب الصور والانطباعات التى يمكن أن يستخلصها القارىء من كتاب ابن جبير ، فان كتابة ابن جبير كانت — بكل تأكيد — المنهل أو المعين الذى أفاد منه لفيف من الكتاب الذين اطلعوا عليه ، من أمثال العبدرى والمقريزى وابن بطوطة .

وأبو الحسن على بن موسى ، المشهور بابن سعيد المغربى ، رحالة أندلسى من غرناطة . وهو واحد من أولئك الذين أحبوا الرحلة ، وانغمسوا فى متاعبها لحساب المعرفة . وهو أيضا واحد من أولئك الـــذين حببتهم الرحلة فى الجغرافية والكتابة الجغرافية . ولقد كان حظه وتوفيقه فى الرحلة وتسجيل حصاد الرحلة فى كتاب من كتب الرحلات ، أفضل بكثير من حظه فى الجغرافية والكتابة الجغرافية الوصفية . وهذا معناه انه لم يوفق فى تطـــويع المعرفة التى تجمعت له تطويعا يخدم الكتابة الجغرافية الوصفية . ومع ذلك ، فينبغى أن نتبين كيف أن حاسة ابن سعيد الجغرافية الذكية ، قد وجهت اهتمامه فى الرحلة صوب المعرفة الجغرافية .

هذا ، وابن سعيد المغربى من رحالة القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) ، الذين استهوتهم الرحلة الى المشرق الاسلامى . وقد خرج اليه بالفعل فى رحلتين . وفى الرحلة الأولى اتجه ابن سعيد الى مصر والشام والعراق وأرمينية ، وتجول فى أنحائها على مدى أكثر من عشر سنوات كاملة ، قبل أن يعرج على جزيرة العرب ، ويؤدى فريضة الحج ، قبـــل العودة الى تونس . وفى الرحلة الثانية ، خرج ابن سعيد الى مصر وارمينية وايران ، وتجول فيها على مدى ثلاث سنوات ، قبل أن يعـــاوده الحنين فيعود الى تونس مرة أخرى .

---

(١) تعرف رحلة ابن جبير بين الجغرافيين المسلمين ، برحلة الكنانى .

(٢) كانت نظرة ابن جبير تتبدل من قطر الى قطر آخر . فقد اهتم بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية عن مصر ، واهتم بالأحوال الدينية عن جزيرة العرب ، واهتم بالوعظ والوعاظ عن العراق ، واهتم بالأحوال السياسية والحربية عن الشام .

وقد ضمن ابن سعيد المغربي ، كتابه فلك الأدب المحيط بحلى لسان العرب ، خلاصة جيدة تجمع الحصاد الذى جمعه أثنـــاء هاتين الرحلتين . وينقسم الكتاب الى كتابين بالفعل . والكتاب الأول بعنوان (المغرب في حلى المغرب) وهو الذى تولى اتمامه واخراجه من بعد أبيه(١) . أما الكتاب الثانى فهو بعنوان (المشرق فى حلى الشرق) ، وهو من تأليفه . ويبدو أن ابن سعيد قد أوتى القدرة على حسن تصوير رؤيته عن الأقاليم وتجسيد صور الحياة فيها . ومع ذلك فليس له اضافة مهمة تلفت النظر ، سوى ما أفاد به من رحلات رحالة مغمور ، عرف باسم ابن فاطمة ، كان قد رحل وجمع بعض المعلومات عن افريقية جنوب الصحراء . أما قيمة كتابات بن سعيد المغربي للمعرفة الجغرافية فهى محدودة ، لانه كان يخلط بين الأقاليم ، ويخطىء الوصف فى مواضع كثيرة .

ومحمد بن محمد بن على البلنسى ، المشهور بالعبدرى ، رحالة أندلسى عربى ، من بين رحالة القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) . وقد ورث العبدرى عن أبيه حب الرحلة والاسفار ، طلبا للعلم والمعرفة . وكان من وراء العبدرى فى رحلته ، هدفا دينيا ، حيث تطلع الى السفر الى الحجاز وتأدية فريضة الحج . وسار العبدرى فى طريق الحجاج الشمالى ، الذى يمر من المغرب الى مصر عن طريق ليبيا . ومن مصر ، واصل العبدرى مسيرته فى الطريق البرية الى مكة المكرمة . ثم عاد أدراجه بعد الحج بنفس الطريق الى موطنه فى المغرب .

هذا ، وكانت رحلة العبدرى متأنية بشكل يلفت النظر ، لأنه تطلع الى اشباع هوايته من المعرفة ، وهو يمر بالاقطار التى مر بها فى رحلتى الذهاب والعودة . ومن خلال المعاينة والمشاهدة والاستماع الى العلماء ، استطاع العبدرى ، أن يتعلم وأن يسجل رحلته فى كتاب من كتب الرحلات ، هو المعروف بالرحلة المغربية . كما استطاع أن يبرهن على أن الهدف الأساسى للرحلة كان هدفا نابعا من التطلع الى المعرفة .

---

(١) اجتهاد ابن سعيد فى اخراج كتاب المغرب فى حلى المغرب ، هو اجتهاد يتمم اجتهاد اربعة رجال من أسرته . بمعنى أنه نشأ فى أسرة عرفت بطلب العلم وحب المعرفة . وقد بدأ فى إعداد هذا الكتاب عبد الملك بن سعيد ، ثم أضاف اليه ولده محمد بن عبد الملك ، وزاد عليه مرة أخرى موسى بن محمد بن الملك والد ابن سعيد . وأخيرا انبرى ابن سعيد على هذا الكتاب ، وأخرجه فى صورته النهائية .

وفي الرحلة المغربية ، صور العبدري كل الصور التي تصور رؤيته ومشاهداته ، على الطريق من المغرب الى مصر • وقد ذكر أهم الآثار والمعالم ، التي عاينها في الأقطار التي مر بها • ومع ذلك ينبغي أن نفطن الى أن العبدري كان أكثر اهتماما بالناس منه بالأرض ، وتصوير خصائص الأرض في هذه الأقطار • واهتمام العبدري بالناس وحياة الناس كان ـ بكل تأكيد ـ من وراء تصوير شامل وجيد ، لكثير من صور الحياة الاجتماعية التي تعبر عن سلوك الناس على مستوى الفرد والجماعة • كما أولى العبدري الحياة العلمية، ومجالس العلم اهتماما كبيرا ، لكي يعرض الصور الجيدة عن الأحوال العلمية، في الأقطار التي زارها(١) • ومن ثم كان تسجيل العبدري تسجيلا عن الجوانب البشرية ، يعبر عن انطباعاته الشخصية وهو يختلط بالناس ويتعرف ويحكم على سلوكهم(٢) •

وأبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد ، المشهور بابن رشيد السبتي الفهري ، رحالة من القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) • وهو مغربي من سبته • وقد اشتغل ابن رشيد بطلب العلم أصلا ، وتخصص في الحديث • ومن أجل العلم وطلب العلم والاتصال بمجالس العلماء ، ومن أجل آداء فريضة الحج ، كانت رحلة ابن رشيد الأولى الى المشرق الاسلامي • وقد حقق من هذه الرحلة هدفه ، قبل أن يعود الى المغرب • ثم استهوته الرحلة مرة ثانية ، فخرج في الرحلة الثانية الى الأندلس ، يطلب العلم والمعرفة • وفي الرحلتين تجلى حرص ابن رشيد السبتي ، على المشاهدة والمعاينة واشباع هوايته الى المعرفة • وفي كتاب جيد عن رحلته الى الأندلس بعنوان (رحلة المغرب والأندلس) ، سجل ابن رشيد مشاهداته وصور انطباعاته • ومع ذلك يبدو انه كان أكثر اهتماما بالأدب والتاريخ الطبيعي أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر • وتكاد لا تتحقق رحلة ابن رشيد اضافة ، يمكن أن تنتفع بها المعرفة الجغرافية بشكل مباشر •

وأبو البقاء خالد بن عيسى ، المشهور بالبلوي ، رحالة آخر من رحالة القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) • وهو أندلسي الأصل من غرناطة • وقد عرف عن البلوي حب العلم ومجالسة العلماء ، والتطلع الى

---

(١) نقولا زيادة : الرحالة العرب صفحة ١٠٥ •

(٢) كان العبدري شديد التحامل وهو يسب أهل مصر ، وشديد الافراط وهو يطري أهل تونس • وفي الحالتين يخرج العبدري عن حدود الموضوعية التي ينبغي أن يلتزم بها الكاتب •

المعرفة والبحث عن مصادرها . ومن أجل طلب العلم والاتصال بالعلماء ، ومن أجل أداء فريضة الحج ، كانت رحلة البلوى الى المشرق الاسلامى . وقد خاض تجربة الرحلة البرية ، لكى يمر فى المغرب ، وتجربة الرحلة البحرية من تونس ، لكى يصل الى الاسكندرية . وكانت رحلته من الاسكندرية الى مكة المكرمة بطريق البر أيضا . ولدى عودته تلكأ كثيرا فى الاسكندرية ، وعاش فيها فترة طويلة ، لكى ينهل منها ، قبل أن يغادرها بحرا الى تونس ، ثم الى موطنه مرة أخرى .

وفى كتاب بعنوان (تاج المفرق فى تحية أهل المشرق) سجل البلوى مشاهداته وانطباعاته عن الرحلة . وصحيح انه أخذ عن بعض الرحالة ونقل عنهم فى كتاباته . ولكن الصحيح أيضا ، ان البلوى أعطى صورة جيدة عن مشاهداته أثناء الرحلة ، وسجل انطباعاته عن البلاد التى مر بها ، بشكل يخدم طالب المعرفة . ومع ذلك كان جل اهتمام البلوى مركزا على مصر ومشاهداته فى القاهرة وأهل العلم فيها ، وعن مشاهداته فى الاسكندرية التى افتتن بها ، وسحره تاريخها العريق . ومن ثم يمكن أن تمثل كتابته عن مصر بالذات مصدرا جيدا للمعرفة فى الفترة التى عاشها البلوى بين أهل مصر فى القرن الرابع عشر الميلادى .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنى القيسى ، المشهور بأبى حامد الغرناطى ، رحالة مغربى من رحالة القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) . وهو أندلسى من غرناطة ، يحب العلم ، وقد استهوته الرحلة لكى يطل على العالم طلبا للعلم والمعرفة . وقد حفزت هذه الهواية الغرناطى للسفر الى المشرق الاسلامى ، فى رحلتين متواليتين . وفى كل مرة ، كانت مصر التى وصل اليها طلبا للعلم ومجالس العلم نقطة الانطلاق فى كل رحلة من هاتين الرحلتين .

وقد خاض الغرناطى تجربة الرحلة البرية والرحلة البحرية ، وصولا الى مقصده . ففى الرحلة الأولى طاف الغرناطى برا بالشام والعراق ، ثم ركب البحر الى صقلية ، لكى يعود منها بعد ذلك الى مصر . وفى الرحلة الثانية خرج الغرناطى مرة أخرى لكى يجتاز الأرض ، وصولا الى ما حـــول بحر قزوين . وقد طاف بضفاف نهر الفالوجا ، وبلاد البلغار وخوارزم ، قبل أن يعود أدراجه الى مصر .

وفى بغداد ، يبدأ الغرناطى فى اعداد أول كتبه بعنوان (المغرب عن

بعض عجائب المغرب) . ثم عكف اعداد كتاب آخر بعنوان (تحفة الألباب ونخبة الاعجاب) . وفي هذا الكتاب الأخير دراسة تضم مقدمة وأربعة أبواب ، الأول عن صفة الدنيا وسكانها ، والثاني عن عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث عن صفة البحار وعجائب حيواناتها والرابع عن الحفائر والقبور . أما الكتاب الذى سجل فيه رحلاته في الأندلس وافريقية والشام وبحر قزوين وما حونه فقد أخرجه الغرناطي بعنوان (نخبة الأذهان في عجائب البلدان) . وفي هذا الكتاب ، كتابين آخرين عن مشاهداته في الرحلات . ومن هذين الكتابين ، كتاب المغربان ، بعد عجائب البلدان ، وهو عن المغرب بصفة خاصة ، وكتاب تحفة الكبار في أشعار البحار ، وهو عن الرحلات البحرية(١) .

وأخيرا نذكر شيخ الرحالة أبي عبدالله محمد بن محمد اللواتي الطنجي ، المشهور بابن بطوطة . وابن بطوطة رحالة مغربي مسلم فذ ، من بين رحالة القرن الرابع عشر الميلادى (الثامن الهجرى) . وقد أغرت الرحلة ابن بطوطة بشكل يلفت النظر . ومن ثم عاش الرحلة أكثر من ثلاثين سنة ، وهو يجوب الأرض ويسافر من بلد الى بلد آخر في أنحاء العالم الاسلامي ، على الصعيدين الافريقي والآسيوى .

وقد خاض ابن بطوطة تجربة الرحلة شابا في البر والبحر . وكانت أكثر من رحلة ، بل رحلات متعددة ، لدرجة أنه حج الى مكة المكرمة ثلاث مرات . وفي هذه الرحلات ، قطع ابن بطوطة - بكل تأكيد - أكثر من مائة ألف من الكيلومترات ، في البر والبحر على السواء . وكانت رحلات ابن بطوطة لا تخضع - في الغالب - لخطة معينة . بل ربما كانت حركة ابن بطوطة ، واتجاهات الرحلة البر والبحر ، وليدة الظروف التى فرضتها الرحلة نفسها .

وفي الرحلة البرية ، وعلى الصعيدين الافريقي والآسيوى ، زار ابن بطوطة كل أقطار العالم الاسلامي تقريبا ، وعايش الناس فيها وجرب الاقامة في بعضها لبعض الوقت ، وتعامل مع الناس . كما زار ابن بطوطة أيضا ، بعض الأقطار خارج اطار العالم الاسلامي ، ومنها سيلان والصين في آسيا ،

---

(١) المادة التى سجلها الغرناطي بكل ما فيها من حقائق وخرافات ، كانت المصدر الذى أخذ عنه القزويني الجغرافي . راجع نفيس أحمد : نفس المصدر صفحة ٧٦ .

وبلاد القرم وأوكرانيا والبلقان في أوروبا ٠

وفي الرحلة البحرية خاض ابن بطوطة في رعاية بعض التجار المسلمين التجربة باطمئنان ، وركب البحر في المحيط الهندي وزار جزر ملديف وبعض الجزر في جنوب شرق آسيا ٠

وفي الحالتين ، في رحلات البر وفي رحلات البحر ، كان الرحالة المشهور ابن بطوطة حريصا على المشاهدة والمعاينة ، في كل الأقطار التى مر بها ٠ وقد أسعفته حاسته الجغرافية وحاسته التاريخية ، لكي يستشعر بعض الحقائق الهامة الصادقة ويسجلها ، لحساب المعرفة ، وهو يتجول في الأقطار ويتابع أحوال الناس اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا وتاريخيا ٠

وفي تسجيلات رحلات ابن بطوطة ، في كتاب بعنوان « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ، المشهور برحلة ابن بطوطة ، تصوير جغرافي جيد للبيئة الطبيعية والبشرية ، للبلدان التى زارها ٠ بل انه أفلح في تسجيل عرض مشوق لأحوال الناس في هذه الأقطار ، اقتصاديا واجتماعيا وتاريخيا وثقافيا ودينيا ٠ وصحيح أن التسجيل يصور كيف يكون الخلط الشديد بين المادة العلمية المفيدة من ناحية ، والقصص والحكايات والروايات ، التى لا تمثل استطراد بل شرودا غير مفيد من ناحية أخرى ٠ وصحيح أننا قد نكتشف كيف انزلق ابن بطوطة الى المغالطات أو الأخطاء[1] ، التى تضلل الباحث الجغرافي وهو يجرى بحثا موضوعيا ٠ وصحيح أننا قد نستشعر كيف أخذ ابن بطوطة عن الرواية بعض المعرفة ، لكي ينسبها الى نفسه ، ويتحمل وزر غيره ، ثم يتردى — بحسن نية — في الخطأ الشنيع ٠ ولكن الصحيح أيضا ، أن ابن بطوطة شيخ الرحالة العرب ، قد سجل حصادا مفيدا عن رحلاته الطويلة ، وجمع بيانات مفيدة ومطلوبة — بكل تأكيد — لحساب المعرفة الجغرافية والمعرفة التاريخية والمعرفة الاجتماعية ، في هذه الفترة المتأخرة من العصر ، الذى ما زال الجغرافيون المسلمون فيه ، حريصون كل الحرص على التشبث بزمام الفكر الجغرافي ، وقيادة مسيرته ٠

— — — — — — — — —

(١) أملى بن بطوطة بيانا برحلته على ابن جزى بعد أن أفرغ من هذه الرحلات ٠ وقد كان الكاتب أمينا في التسجيل ٠ والسقطات والأخطاء في التسجيل من صنع ابن بطوطة نفسه بقصد أحيانا ، ومن غير قصد أحيانا أخرى ٠ ومع ذلك فقد دافع عنه بعض المعاصرين وأسقطوا عنه تهمة التلفيق أو التزوير والغش ومنهم ابن خلدون وابن جزى ٠

هـذا ، ومن بعد ابن بطوطة واعتبارا من القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) ، حدث التحول الخطير من وجهة النظر الحضارية والعلمية والسياسية فى وقت واحد ٠ ولم يحتمل هذا التحول أكثر من معنى واحد فقط ٠ ذلك أن الرحالة المسلمين قد فتر عزمهم ، واضمحل اجتهادهم فى الرحلة ، وفى جنى ثمرات الرحلة ، لحساب المعرفة الجغرافية ٠ واعتبارا من القرن الخامس عشر ، يتواضع الاسهام العربى الاسلامى ، فى الرحلة ، كما يتواضع الاسهام العربى الاسلامى فى جمع الزاد والمعرفة وتقديمها الى الزمرة العاملة فى صياغة الفكر الجغرافى ٠

- - - - - - - - - - -

ومن رحالة يخرج عن القاعدة ، ويكتب رحلته بالفارسية بدلا من العربية ، الى رحالة يعالج التسجيل بأسلوب سقيم ، نفتقد فيه معنى التجديد والاضافة المفيدة ، نستشعر كيف يتواضع الاسهام وكيف يضمحل الاجتهاد وكيف يبدأ الانحدار لغير مصلحة المعرفة الجغرافية ٠

وعن هذا التحول ، نقول ان العوامل التى فرضت هـذا الاضمحلال والتردى ، قد نبعت من داخل البنية البشرية المتصارعة ، والبنية السياسية المتهالكة فى العالم الاسلامى بصفة أساسية ٠ هذا بالاضافة الى عوامل أخرى تسللت من خارج العالم الاسلامى ، فى ركاب التحديات الصعبة ، التى واجهت الاسلام فى أوطانهم ٠ وكان المسلمون أعجز من أن يحبطوا مفعولها الهدام ٠ وينبغى أن ندرك كيف أن هـذا الاضمحلال الذى أصاب الرحلة فى الصميم ، قد أدى بالضرورة الى اضمحلال الاجتهاد فى الجغرافية ٠

- - - - - - - - - - -

ومن بعد هذا الاجتهاد الاسلامى البناء ، والتقدم العلمى الموضوعى ، ومن بعد الدعم الحافز الذى قدمه الاسلام الدين والاسلام الدولة لحساب الريادة الممتازة التى أحيت وطورت وأثرت الفكر الجغرافى ، على مدى أكثر من ستة قرون من عمر الحياة ، ينبغى أن نستشعر كيف أفلت الزمام من أيدى المسلمين ، وكيف نفتقد اجتهاد الصفوة الممتازة من الجغرافيين المسلمين ٠

هذا ، واعتبارا من القرن السادس عشر الميلادى ، أمسك الأوروبيون بزمام الفكر الجغرافى ٠ وقد تحمل فريق منهم مسئولية تطوير النظرية ،

لحساب الفكر الجغرافى الأفضل ، وتحمل فريق آخر مسئولية الرحلة فى البر والبحر ، لحساب الكشف الجغرافى الذى يزود الجغرافيين بالمعرفة الجغرافية • أما المسلمون فقد استسلموا لأسباب الاضمحلال والتردى ، لكى يسجل الفكر الجغرافى العربى ، التحول من القمة الى الحضيض •• وصحيح أنه على مدى القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر هناك اجتهاد عربى اسلامى فى الرحلة وفى الكتابة الجغرافية • ولكن الصحيح أن هذا الاجتهاد لم يفلح فى أن يحافظ على مكانة الفكر الجغرافى العربى أو أن يساير التطور فى النظرية والتجديد والاضافة • • •

* * *

الفصل الرابع

الفكر الجغرافى الحديث

مراحل نموه وصياغة علم الجغرافية

- النهضة الأوروبية وتبنى الفكر الجغرافى الصحيح
- الاجتهاد الأوروبى وتطوير الفكر الجغرافى
- مرحلة استيعاب الفكر الجغرافى القديم
- مرحلة ترسيخ الفكر وصياغة علم الجغرافية
- مرحلة ترسيخ البنية العلمية للجغرافية الحديثة
- التقدم الجغرافى والمدارس الجغرافية الوطنية
- الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين
- الفكر الجغرافي الحديث ومنهج البحث الجغرافى الأصولى

الفكر الجغرافى الحديث
مراحل نموه وصياغة علم الجغرافية

النهضة الأوروبية وتبنى الفكر الجغرافى الصحيح

من الضرورى أن ندرك كيف دعا التردى الذى انساق فيه الفكر الجغرافى العربى ، الى وضع خطير هدد المسيرة الجغرافية وأهدر بعض أهم انجازاتها الجيدة . وما من شك فى أن هذه المسيرة الفكرية ، قد أصبحت منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، فى حاجة الى من ينتشلها من التردى والضياع ، أو الى من يتولى أمرها ويقود خطواتها ويرشد تطورها فى الاتجاه الصحيح .

ويمكن أن نتصور — ببساطة — كيف أقدم الاجتهاد الأوروبى على تبنى هذه المسيرة وولاية أمرها ، وكيف أفلح فى تحمل المسئولية . ولكن المؤكد أن انطلاقة هـذا الاجتهاد الأوروبى ، قد تأتت على غير ارادة رجال الدين المسيحى ، لكى تنهى الوضع الشاذ الذى أسفر عن فكر جغرافى مسيحى مضلل ، وهو يضرب على غير هدى فى الطريق المسدود ، على المدى الطويل الى القرن السادس عشر الميلادى ، ولكى يبدأ الوضع الجديد السوى الذى أنجز الفكر الجغرافى الحديث .

هـذا ، ولقد كانت انطلاقة عصر النهضة الوثابة فى أوروبا ، بداية التحرر والتحول الحقيقى البناء ، الذى أنهى منطق الفكر الجغرافى المسيحى الضال كما أرادت له الكنيسة فى العصور الوسطى أن يكون . بل ان هذه الانطلاقة المتحررة ، قد وضعت — بكل تأكيد — أول علامات بارزة ، وهى تعيد الفكر الجغرافى المتحرر الى الطريق السوى ، وتحرك مسيرته وتنشط خطواتها فى الاتجاه الصحيح الى ما هو أفضل .

وهكذا ، ينبغى أن نتبين كيف انهار الفكر الجغرافى المسيحى وانفرط عقده ، عندما رفضته وتنكرت له ارادة النهضة الأوروبية المتحررة . كما ينبغى أن نؤكد على أن الاجتهاد الأوروبى المتحرر فكريا ، قد تحول — بكل الفطنة والرشاد — الى تبنى الفكر الجغرافى العربى ، بعد أن افتقد

هذا الفكر قوة دفع الابداع العربى الاسلامى فى حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ٠

وصحيح أن هناك أكثر من مسألة أو قضية من وراء افتقاد قوة دفع الابداع العربى الاسلامى ، وتردى مسيرة الفكر الجغرافى فى وضع غير سوى٠ ولكن المؤكد أن هنـــاك مسألتين أو قضيتين موضوعيتين ، كانتا من وراء تصاعد قوة دفع الابداع الأوروبى ، وتحرر الفكر الأوروبى من تسلط رجال الدين المسيحى ٠ والا فكيف تأتى اسقاط كل حصاد الفكر الجغرافى المسيحى والتملص منه ورفض كنهه ومضمونه جمـلة وتفصيلا ، وكيف تأتت العودة الى صلب جوهر الفكر الجغرافى الصحيح واستيعابه والاضافة اليه ، لحساب الانسان ؟

هذا ، وتتمثل هاتان المسألتان أو القضيتان الموضوعيتان فى نتـائج جوهرية أسفر عنهـا التحول الذى اشـترك فى صنعه أو صياغته الفشل أو الاحباط الذى منيت به الروح الصليبية الأوروبية ، والنجاح الذى أنجزته الثورة الدينية ٠ وهذا معناه أن نتـائج الحروب الصليبية وهزيمة حملاتها الشرسة على الاســـلام والمسلمين ، ونتـائج حركة الاصلاح الدينى وعـدم الامتثـال للكنيسة الكاثوليكية قد فتحت أبواب التحــول على مصراعيه ٠ ومعناه أيضا أن هذا التحول قد حرر الفكر الأوروبى وأطلق له العنان لـكى يصبح قوة دفع فجرت الابداع الاوروبى العلمى والحضارى الاقتصـادى ٠ ومعناه مرة ثالثة أن النهضة الأوروبية قد وضعت الفكر الأوروبى فى وضع الاستعداد لكى يتبنى الفكر الجغرافى ويحدثه ويطوره ٠

وعن الحروب الصليبية وحملاتها العـدوانية الشرسة ، التى تحكيها قصة المواجهة العسكرية ، بين أوروبا المسيحية المتعصبة والعـالم الاسلامى على مدى عدد من القرون ، لا ينبغى أن نتصور ـ بصرف النظر عن حسابات الهزيمة والانتصار ـ أنها قد أسفرت فقط ، عن انفتـاح مثير وتفتح مثمر ، على ركب التفوق الحضـارى أو على حصـاد الاجتهاد الفـكرى الذى صنعه وأمسك بزمامه المسلمون : بل يجب أن نستشعر أيضـا ـ بـكل اليقين ـ أن من حصاد هــذه المواجهة العسكرية التى أحبطت أمل أوروبا المسيحية فى الانتصـــار ، وخيبت الرجاء فى التشبث بالأرض فى الشـــام ومصر ، قد تفجـرت دوافع وتولدت حوافز ، ألهبت الحمـــاس والتطلع الأوروبى ـ بكل الأمل ـ الى خوض معركة الكشوف الجغرافية على أوسع مدى ٠

ومن الطبيعي أن نستشعر كيف كانت الكنيسة الأوروبية وسلطانها المتسلط الحاكم بكل التعصب ضد الاسلام والمسلمين ، من وراء ضراوة الحروب الصليبية ، بشكل مباشر وغير مباشر • ومن الطبيعي أيضا أن نتبين كيف تطلعت الكنيسة بكل الحماس الى هزيمة الاسلام والمسلمين في عقر دارهم ، والى اجهاض التفوق الحضاري والسياسي والاقتصادي الذي أحرزه العالم الاسلامي على الصعيد العالمي • ولكن المؤكد أن سلطان الكنيسه الأوروبية التي طعنت الهزيمة هيبتها ، كان — بكل الغل والحقد — من وراء معركة الكشوف الجغرافية ، على المدى الواسع • ولعلها قد تطلعت من خلال حفز ودعم وتحريك الاجتهاد الجغرافي — بكل الأمل — الى حيازة الأرض الجديدة على الامتداد العظيم الذي يطوق العالم الاسلامي المتحكم في قلب جزيرة العالم على الصعيد الافريقي والآسيوي والأوروبي ، والى التبشير بالمسيحيه وتنصير الوثنيين في هذه الأرض الجديدة • ولعلها رنت الى استثمار هذه الارض الجديدة وانتصار الوجود المسيحي فيها في فرض الحصار الحاكم من حول العالم الاسلامي وصولا الى اجهاض النفوذ الاسلامي وتوقيف انتشار الاسلام •

ومن الجائز أن ندرك مدى النجاح الذي تحقق من وراء هذه الكشوف الجغرافية ، وهي تكشف النقاب بعد اجتهاد عظيم والحاح مستمر ، عن رأس الرجاء الصالح ، لكي تطوف السفن الأوروبية حول افريقية وصولا الى الهند وجنوب شرق آسيا ، أو وهي تميط اللثام عن الأرض الجديدة في الأمريكتين واستراليا ، لكي ينتشر الاستيطان الأوروبي وينتصر التمدد المسيحي • ولكن الاهم من ذلك كله ، أن ندرك كيف حققت معارك الكشوف الجغرافية الكبرى الحد الأقصى من الانفتاح الأوروبي على العالم من حولها • وما من شك في أن هذا الانفتاح قد استنفر الحس الجغرافي الأوروبي ، وأثار التفكير الجغرافي المتفتح على أوسع مدى • بل وكيف لا ندرك ذلك كله ونحسب حسابه ، والكشوف الجغرافية الكبرى قد وضعت العقل الأوروبي في مواجهة الرؤيه الجغرافيه المباشرة ، وهيأت له أن يتأمل ويتدبر ويفكر في كنه وماهية وموضوعية هذه الرؤية الواضحة ، وما تنبيء به •

ومن الجائز أن اندفاع الاجتهاد الأوروبي على طريق الكشوف الجغرافية كان اندفاعا محموما ومتصاعدا ، لحساب المصلحة الأوروبية • ومن الجائز أيضا أن هذا الاندفاع المحموم قد أسفر عن توسيع دائرة الرؤية الجغرافية ، على المدى الواسع ، في القرون التالية للتعرف على رأس الرجال الصالح • ولكن المؤكد أن هذه الرؤية الجغرافية قد بصرت الاستيطان

الأوروبى فى أحضــــان الأرض الجــديدة ، وقد انتصرت لارادة التعــايش والاقامة والانتفاع لهــذه الأرض • بل لقد أصبحت هــذه الرؤية الجغرافية على المــدى الواسع فى أنحـــاء الأرض ، رافدا من أهم الروافد التى زودت الاجتهــاد الجغراف الاوروبى ، وساندته ، وهو يتولى احياء الفــكر الجغرافى القديم ويتبنى أهدافه ، بعــد أن نضب معين الاجتهــاد العربى الاسلامى ، وافتقد القدرة على مواصلة الانجـــاز والابداع والاضافة ، لاثراء وتحريك وترشيد مسيرة الفكر الجغرافى وتطويرها ، لحساب الانسان •

وعن الثــورة الدينية وحركة الاصلاح الدينى المتنورة ، التى تحكيها قصة الرفض القاطع لجبروت الكنيسة الكاثوليكية ، وحسر سلطان رجال الدين المتسلط على الفــكر ، لا ينبغى أن نتصور ــ بصرف النظر عن كل حسابات الهزيمة والانتصار ــ آنها قد أسفرت فقط عن انهاء حالة الخوف ، التى طالما كبلت التفكير الحر ، وطاردت المفكرين وجمدت أنجازاتهم الفكرية المتحررة • ولكى ينبغى أن نستشعر أيضا ــ بكل اليقين ــ أن من أهم حصاد انتصــارات حركة الاصــلاح الدينى التى وضعت ورسخت دعامات الكنيسة البروتستنية ، قد تفجرت دوافع وتولدت حوافز ، ألهبت التطلع الأوروبى الى خوض معركة التفكير الحر والبحث المتحرر ، وصولا الى الحقيقة الصادقة والى ترسيخ المعرفة والعلم ، من غير أن تلوى عنقه وتطوعه ارادة رجال الدين الجامدة والمتزمتة •

ومن الطبيعى أن ندرك مدى مقاومة ورفض الكنيسة الكاثوليكية رفضا قاطعا ارادة تحرير الفــكر ، وتأمينه • ومن الطبيعى أيضــا أن ندرك مدى معارضة رجال هذه الكنيسة قبل أن يمتثلوا لمشيئة التغيير والقبول باطلاق العنــان للتفــكير الحر المتفتح • ولــكن المؤكد أن الــكنيسة البروتستنية ، قد فتحت صدرها وعقلها ، وتقبلت ــ بكل الرضا ــ حركة التفــكير الحر • بل والأهم من ذلك كله ، أن ندرك كيف منح هذا التغيير وحقق مناخ الأمن والأمان ، لحساب التفكير المتحرر ، وكيف دعم هذا التفكير المتحرر النهضة الأوروبية وكفل الحد الأقصى من الانفتاح على الحقائق ، وحفز صياغة التقدم الأوروبى الحضارى والاجتماعى والعلمى والاقتصادى ، لحساب الانسان •

ومن الجائز أن نتبين كيف اندفع الاجتهاد الأوروبى على طريق التفكير الحر المتحرر اندفاعا محموما ، يحقق توسيع دائرة الرؤية الفكرية على أعمق مدى ، فى القرون التالية لانتصار حركة الاصلاح الدينى • ومن الجـــائز أيضا أن نستشعر كيف بصرت هذه الرؤية الفكرية التراث الفكرى الأوروبى

المجدد ، وكيف انتصرت لارادة الانفتاح والتفتح على حصاد الفكر الانسانى العالمى وأساليب الانتفاع به • ولكن المؤكد أن أصبحت هذه الرؤية الفكرية المنفتحة والمتفتحة ، رافدا من أهم الروافد التى زودت الاجتهـاد الاوروبى ، وساندته وهو يتبنى الفكر الانسانى العالمى القديم ، بعـد أن نضب معين الاجتهـاد العربى الاسلامى فى القـرن الخامس عشر ، وافتقد القـدرة على مواصلة الانجاز والابداع والاضافة ، وعلى الاستمرار فى زيادة واثراء وتطوير هذا الفكر ، لحساب الانسان •

ولئن كان تحرير الفـكر وانطلاقته المتحررة من تسلط رجال الدين المسيحى عليه ، قد دعا الى رفض الفـكر الجغرافى المسيحى الملتزم وعـدم الالتفات اليه لأنه يروج للجهالة ويستخف بعقول الناس ، فان خوض معركة الكشوف الجغرافية والانتصار الحاسم فيها ، كان — بكل تأكيد — من وراء استنفار الحس الجغـرافى ، على أمل أن يثـرى معين الادراك الجغـرافى ، و ن يفجر الفكر الجغرافى الأوروبى ويصقله • وهـذا معناه أن استنفار الحس الجغرافى وحسن استخدام الادراك الجغرافى ، كان — بكل ثقله — من وراء التحول الحقيقى ، عن ضلالة الفـكر الجغرافى المسيحى وسذاجته ، الى صدق الفكر الجغرافى السوى وموضوعيته •

وهكذا تهيأت الظروف التى أسفرت عن تفجير ارادة التغيير على صعيد الفكر الأوروبى فى حوالى القرن السادس عشر الميلادى • ولقد أثمرت ارادة التغيير بالفعل ، عندما بدأ التفكير الجغرافى الأوروبى الحر المتحرر من عقدة الخوف بداية هادئة ، وعندما أعطى هذا التفـكير عطاء موضوعيا وصادقا • وهذا معناه أن أخذ الفكر الأوروبى المتطور النشيط ، بزمام مسـيرة الفـكر الجغرافى ، ورعى خطواتها ، بعـد أن فتر حماس ونشـاط وقدرات الفـكر العربى وافتقد الجغرافيون العرب قدرتهم على الابداع والاضافة والتطوير •

ولقد شغل الفكر الجغرافى الأوروبى المتجدد ، صفحات كثيرة من معين التراث الفكرى العالمى اعتبارا من القرن السابع عشر الميلادى • وقد عكف الاجتهاد الأوروبى على الابداع ، وتطلع الى اشاعة المعرفة الجغرافية وتنشيط الحركة الجغرافية العـلمية • وهـذا معناه أن الاجتهاد الفـكرى الأوروبى قد انتشل أوروبا من جهـالة وتضليل وتخريف الفـكر الجغرافى المسيحى الذى أسهم فى تكثيف ظلمة العصور الوسطى • ومعناه أيضا أنه قد تبنى الفكر الجغرافى القـديم ، ووضعه فى الموضع الصحيح وهو يواجه الرؤية الجغرافية ، ويعكف على تدبرها والتفكير فيها •

الاجتهاد الأوروبى وتطوير الفكر الجغرافى

لم يكن أخذ الاجتهاد الأوروبى الفكرى المتفتح ، بزمام مسيرة الفكر الجغرافى الصحيح أمرا سهلا ، أو مهمة هينة · كما لم يكن التحول من مفاهيم واهتمامات جغرافية العصور الوسطى ، الى مفاهيم واهتمامات الجغرافية مسألة متاحة ، يمكن أن يكفلها الفكر الحر أو أن يسفر عنها الاجتهاد الأوروبى فى وقت مبكر سريع ، فى أحضان صحوة وانبلاج عصر النهضة الأوروبية · بل لقد كان من الضرورى انجاز أعمال أولية وخطوات متزنة متأنية ، تستنفر الاجتهاد الأوروبى وتحفزه وتعده الاعداد السوى - بكل الوعى - قبل أن يتأتى هذا التحول والتغيير ، أو قبل أن يتفجر وينشأ الاتجاه الحديث فى التفكير الجغرافى ، أو قبل أن يتولى مهمة بناء وتطوير وتحديث الفكر الجغرافى وصياغة وترسيخ علم الجغرافية ، لحساب الانسان ·

ومن أجل أن ندرك - بكل الوعى - معنى وأبعاد وماهية الانصراف والتحول عن حصاد الفكر الجغرافى المسيحى ، واستنكاره ورفضه جملة وتفصيلا · ومن أجل أن نتفهم - بكل الوضوح - كيف كانت البداية وكيف تسلم الاجتهاد الأوروبى طرف الخيط ، وهو يتبنى الفكر الجغرافى السوى · ومن أجل أن نتصور - بكل الصدق - كيف ولد الفكر الجغرافى الحديث ولادة طبيعية ، وكيف انبلج فجر الصياغة الصحيحة وصناعة علم الجغرافية صناعة سوية · ومن أجل أن نتابع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى رعاية الاجتهاد الأوروبى ، وهى تتقدم خطوة بخطوة اعتبارا من القرن السابع عشر فى الاتجاه الصحيح ، وصولا الى أهداف علمية أفضل ، ومن أجل أن نتبين كيف تممت هذه المسيرة الفكرية الجغرافية الحديثة مراحل المسيرة الفكرية الجغرافية العربية الاسلامية ، دون اكتراث بمسيرة الفكر الجغرافى المسيحى الذى عاصرها فى العصور الوسطى · ومن أجل ذلك كله ، ينبغى أن نميز على أقل تقدير بين أداء وكفاءة وجدوى الاجتهاد الأوروبى المثمر ، الذى تبنى الفكر الجغرافى على ثلاثة مراحل متوالية ومتكاملة ·

ومن الجائز أن كانت مراحل الاجتهاد الأوروبى ، الذى انكب على مسئوليته قبل التفكير الجغرافى ، مراحل متوالية ، الى حد يصعب معه وضع الخيط الرفيع الفاصل بين كل مرحلة وأخرى من هذه المراحل · ومن الجائز أيضا أن تتداخل هذه المراحل تداخلا واضحا وصريحا ، لا يسفر عن خلل موضوعى ، يتضرر به التفكير الجغرافى ·· ولكن المؤكد أن التكامل الموضوعى

بين هذه المراحل الثلاثة ، قد أسفر عن نجـاح حقيقي في ميـــدان البحث الجغرافى • وكيف لا يتأتى هذا النجاح ، والاجتهاد الأوروبى المرحلى قد سار على الدرب الســوى وأعطى حصـــاده وأضاف ابداعاته وأرسى لبناته التى أنجزت بنية سوية لفكر جغرافى حديث ومتطور الى ما هو أفضل •

هذا وتتمثل هذه المراحل المتوالية المتكاملة ، فى انطلاقة الاجتهـــاد الأوروبى الحر انطلاقا متفتحا لتأصيل المعـــرفة الجغرافية ، وصنع الاطار الذى يجســد ويحــــدد أبعـاد وأهداف علم الجغرافية ، ويضعه فى مكانه الصحيح بين زمرة العلوم • ومن الطبيعى أن ندرك كيف تحمل هذا الاجتهاد الفكرى الأوروبى مسئولية تســديد وقع خطوات مسـيرة الفـكر الجغرافى الحديث المتطور ، على المدى الزمنى من القرن السابع عشر الى القرن العشرين الميلادى •

ولقد كان وقع هـــذه الخطوات المرحلية المتوالية ، فى مسيرة الفــكر الجغرافى الحديث على النحو التالى :

١ ـ خطوة مرحلية أولية ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى فيها ـ بكل الهمة والانفتاح ـ مسئولية استيعاب الفكر الجغرافى القديم اليونانى والفكر الجغرافى العربى ، لكى تبدأ المسيرة الفكرية من حيث انتهت المسيرة الفكرية الجغرافية وتأسيسا عليهـا • كمـا تولى أيضـا استيعاب ثمرات الكشوف الجغرافية الكبرى ، لكى ينتفع بها ويتخذ منها سبيلا من أهم السبل للاضافة والتطوير •

٢ ـ خطوة مرحلية جوهرية ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفـكرى فيهـا ـ بكل الوعى والتفتح ـ مسئولية تكوين وصياغة وتنشئة قواعد وأصول التحول العظيم لكى تنسلخ الجغرافية والفكر الجغرافى من التاريخ والفـكر التاريخى ، ولكى يتحدد شكل الاطار العلمى الموضوعى الذى يحتوى الفـكر الجغرافى ويجسد مغـزاه ومرماه ، ولـكى تتكشف أهداف البحث الجغرافى ودوره الوظيفى التخصصى فى خدمة الانسان ومصلحة الأرض •

٣ ـ خطوة مرحلية بناءة ، تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى فيها ـ بكل الادراك والتفتح ـ مسئولية تطوير بنية علم الجغرافية وتصنيف اهتماماته بالأرض والنـاس والتفـاعل الحيـاتى بين النـاس والأرض فى أى مكان • كما تولى الاجتهاد الأوروبى الفكرى الذى تفتح على صعيد الأقطـار الأوروبية

وغير الأوروبية مسئولية تعميق وتطوير البحث الجغرافى المتخصص وتطويع الخبرة الجغرافية على أمل حسن توظيف النظرية الجغرافية العلمية فى خدمة الاجتهاد الجغرافى التطبيقى ٠

- - - - - - - - - - -

مرحلة استيعاب الفكر الجغرافى القديم

هذه مرحلة مبكرة أولية ، تحكى البداية المنطقية ٠ ولقد أسفرت عنها ومضات وتباشير التفتح الأوروبى المبكر فى عصر النهضة ٠ وشهدت هذه المرحلة الأولية فجر الاجتهاد الاوروبى ، وهو يتنكر للفكر الجغرافى المسيحى وينكره ويرفض منطقه ويطعن فى فلسفته وتخريفه ٠ كما شهدت — بكل تأكيد — هذا الاجتهاد الأوروبى المتفتح ، وهو يتحفز ويتهيأ للأخذ بزمام التغيير والتحول البناء الى فكر جغرافى أفضل ومتجدد ٠

ولقد استغرقت هذه المرحلة الأولية ، التى انكب الاجتهاد الأوروبى فيها ، على استيعاب الفكر الجغرافى القديم ، والتمعن فى رؤيته الجغرافية وفى حصاده ، وقتا طويلا ، وربما كان هذا الاستيعاب فى حاجة بالفعل الى كل سنوات القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، لكى يتزود الاجتهاد الأوروبى ، بالقدرة على الانطلاق الى أهداف وغايات المرحلة التالية ٠

هذا ، وينبغى أن ندرك كيف تولى هذا الاجتهاد الأوروبى البناء — بكل الصبر والتفتح — المهمة على هذا المدى الطويل ٠ ومن غير عجلة ، تفرغ ثلاثة أنواع من الرجال المجتهدين تفرغا جادا لأداء هذه المهمة ٠ وكان من الضرورى أن يسفر هذا الأداء الجيد المتأنى عن تقدم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ٠ كما أسفر أيضا عن بعض ارهاصات بشرت بولادة علم الجغرافية فى أحضان القارة الأوروبية المتطورة ، ولادة طبيعية فى المرحلة التالية ٠

والنوع الأول من زمرة الرجال المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى فى هذه المرحلة ، تولى وهو جسور مغامر يتعشق الرحلة مهمة الكشوف الجغرافية ومعاينة الأرض والحياة فى الأنحاء التى كشف النقاب عنها ٠ كما تولى أيضا تجميع أوصال الرؤية الجغرافية التى تحدد أبعادها ، وتصور

مكانها على الأرض ، وتستشعر حاجز المسافة بينها وبين الأماكن الأخرى على الأرض •

ولقد خاضت هذه الزمرة المجتهدة التجربة الصعبة ، وتصدت للرحلة والمغامرة والمخاطرة ، فى البر والبحر على حد سواء • ومن الطبيعى أن نتصور كيف أسعفت وسائل النقل المتطورة اجتهاد هذه الزمرة المغامرة ، وكيف اخترقت وأسقطت حاجز المسافات وضربت فى المجهول من الأرض ، وواجهت المشقة على الطريق • ولكن المؤكد أن فتح نجاح هذه الزمرة المجتهدة من الرحالة الأوروبيين ، الباب على مصراعيه ، لكى تنفتح أوروبا على العالم ، ولكى يجنى الفكر الجغرافى ثمرات هذا الانفتاح ، لحساب التقدم الأوروبى •

ومن الجائز أن حفز الانفتاح الأوروبى على العالم ، العامل الاقتصادى ، لكى يدب النشاط ويعمل بكل الايجابية على توسيع وترويج وتنمية حركة التجارة الدولية ، لحساب أوروبا وتقدمها الاقتصادى ودعم مكانتها فى العملية التجارية • ومن الجائز أن حفز الانفتاح الأوروبى على العالم ، العامل الاستعمارى ، لكى يدب النشاط وتخرج الهجرات وتحوز الأرض ، لحساب أوروبا وتقدمها السياسى ودعم مكانتها السياسية • ولكن المؤكد أن هذا الانفتاح الأوروبى على العالم ، قد زود الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، برصيد مفيد ومهم عن العالم • بل لابد أنه حفز التفكير الجغرافى الأوروبى ، على تدبر الرؤية الجغرافية الموسعة ، التى وضعت صورة العالم بين يديه •

وهكذا أفلح هذا الفريق أو هذه الزمرة المجتهدة ، من خلال الرحلة ، فى كشف النقاب عن الأرض الجديدة ، وفى اماطة اللثام عن البحار والمحيطات ، وفى اسقاط حواجز الخوف أو التخوف من الابحار فيها • كما أفلحت هذه الزمرة المجتهدة ، فى جمع المعلومات وتجميع أوصال الرؤية الجغرافية ، وفى تنمية رصيد المعرفة الجغرافية الصحيحة عن أنحاء كانت مجهولة من الأرض • وهذا — بالفعل — زاد مفيد ومثمر فى حد ذاته ، جغرافيا • بل انه — بكل تأكيد — رصيد ثمين ، انكب الاجتهاد الفكرى الجغرافى الأوروبى على الانتفاع به ، فى هذه المرحلة الأولية • ثم بعد ذلك كله أضافه الى الرصيد الذى احتواه الفكر الجغرافى القديم •

ومن ثم ينبغى أن نطرى اجتهاد هذه الزمرة المغامرة ، وأن نتصور كيف أسفر نجاحها عن اسهام ولو بشكل غير مباشر ، فى تأكيد حقيقة شكل الأرض الكروى ، وفى اجهاض ورفض فكرة الشكل المستطيل التى روج

لها ، الفكر المسيحي الضال والمضلل • كما ينبغي أن نتصور أيضا ، كيف أسفر نجاح هذه الزمرة المجتهدة ، من بعد مغامرات مثيرة ورحلات طويلة في البر والبحر ، عن اسهام ولو بشكل غير مباشر ، في توسيع دائرة المعرفة الجغرافية ، وفي تنشيط حركة الاستيطان والعمران في الأرض الجديدة • وهذا معناه — في الحقيقة — اسهام هذه الزمرة اسهاما مفيدا ، لحساب الانفتاح الأوروبي وجني ثمراته ، جغرافيا واقتصاديا وسياسيا •

والنوع الثاني من زمرة الرجال المجتهدين في حقل العمل الجغرافي ، تولى وهو مفكر ، يتعشق التأمل والتدبر والتفكير ، مهمة اعمال العقل واستيعاب جصاد الفكر الجغرافي السابق ، الذي أسفر عنه الاجتهاد الاغريقي والمصري والروماني في مرحلة ، والاجتهاد العربي الاسلامي في مرحلة أخرى(١) • ولقد انكبت هذه الزمرة المفكرة على تذوق اهتمامات هذا الرصيد القديم من الفكر الجغرافي ، وعلى تفهم أهدافه وحساب جدواه ومدى التزامه بالرأي السديد أو بالطريق الصحيح ، وصولا الى اشباع حاجة الانسان الى المعرفة الجغرافية السوية •

ومن الطبيعي أن نتصور مدى صعوبة التجربة ووعورة المهمة التي خاضها هذا الفريق • ومن الطبيعي أيضا أن نتبين كيف تلمس الاجتهاد الأوروبي أطراف الخيوط ، لكي تبدأ مسيرة الفكر الجغرافي الحديث ، بداية منطقية من حيث انتهت هذه المسيرة في أحضان الاجتهاد العربي الاسلامي ، في حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي • ولكن المؤكد أن فحص واستيعاب وتذوق رصيد البشرية من التراث الجغرافي ، والتصدي لحصر

---

(١) ليس صحيحا أن يتصور بعض الجغرافيين الأوروبيين — بقصد أو من غير قصد — أن الفكر الجغرافي الحديث قد بدأ من حيث انتهى الفكر الجغرافي القديم ، الذي سجل بطلميوس الاسكندراني آخر وأهم سطر في تراثه • والصحيح أن الاجتهاد الاوروبي قد انكب على الاجتهاد الجغرافي العربي الاسلامي ، وادرك كنهه ، وانتفع بالاضافات التي أسفر عنها على مدى أكثر من سبعة قرون • وهل ينكر هذا التصور الأوروبي التعصب كتب الادريسي واضافات البيروني وغيرهم وكيف انتفعوا بها ؟ وهل يتنكر هذا التصور الجاهل مدى اطراء الخرائط البحرية التي رسمها العرب على المسقط الاسطواني ، والذي جاهر به وأعلنه واعترف بفضله فاسكودي جاما ؟ أما القول الذي يتجنى على الكتابة الجغرافية عند العرب ، ويحمل على الخلط الشديد بين الجغرافية والتاريخ ، أو الذي يطعن في القصص الجغرافي التاريخي وما حفل به من غرائب وعجائب فهذا قول مردود عليه • وما من شك في أن هذا الخلط قد تأتي بشكل أقل كثيرا من الاستغراق في السرد الاسطوري الذي انزلق فيه الفكر الجغرافي القديم السابق للاسلام •

وادراك وتفهج الحقـــائق الجغرافية ، قد أسفر ـ بكل تأكيد ـ عن وضع الاجتهاد الأوروبى في وضع الاستعداد الصحيح لانطلاق الفـــكر الجغرافى الحديث ، في الاتجاه الصحيح •

ومن الجائز أن نتصور كيف كان التحرر من عقـدة الخوف ، وانطلاق موجات التدبر والتفكير انطلاقا متحررا ومتوثبا ، من وراء انجاز أهداف هذه الزمرة ، التى تحملت مسئولية الاجتهاد الفكرى المتفتح ، وهو ينفتح من غير تعصب أو حرج على حصـــاد الفـكر الجغرافى الســابق كله • ولـكن المؤكد أن الابداع الفلسفى الفكرى الأوروبى ، الذى أثار التساؤل فى الناس واستنفر العقول والتفكير الباحث عن التفســيرات المقنعة ، قد ألهب التفـــكير الجغرافى وحفزه ونشطه ، لكيلا يقتنع بمجرد حصر الحقائق الجغرافية فقط • بل لقد دعا ـ بكل تأكيد ـ الى التطلع للتفسير المقنع الكاشف عن ماهية وكنه هـــذه الحقائق الجغرافية ، الذى يجاوب تساؤل الناس عنها •

ومن خـــلال التمعن والتـــدبر والتفـــكير العميق ، فى مجـــالات تقصى الأســـباب التى تكمن من وراء الحقيقة الجغـــرافية أو الظـــاهرة الجغـــرافية ، أو التى تتجلى من وراء أوصـــال الرؤية الجغرافية العامة ، أفلح اجتهاد هـــذه الزمرة التى إستهواها التفكير الجغرافى ، وتفرغت له تفرغا حقيقيا مفيدا • بل لقد أنجز اجتهاد هـــذه الزمرة انجازا مفيـــدا بالفعل • ولعله استهدف ـ بالضرورة ـ تأصيل أو تعميق المعرفة الجغرافية من ناحية ، وتوسيع المعرفة الجغرافية من ناحية أخرى • وما من شك أن اجتهاد هـــذه الزمرة ، قد بلغ ـ بكل الوعى ـ حد تجسيد أو استشعار كنه وماهية العمل الجغرافى ، الذى يسفر عنه ويدعمه ويظاهره التفكير الجغرافى السوى •

وهكذا ، ينبغى أن نطرى الاجتهاد الأوروبى الذى طرق أبواب الفـــكر الجغرافى من خـــلال التـــأمل الفلسفى الواقعى ، وهو يطالع الفـــكر الجغرافى السابق • وما من شك فى أنه قد تحسس قواعد البنـــاء فى الفكر الجغرافى ، قبل أن يرفع ويضيف اليه لبنـــات مهمة ، رسخت منطق التفـــكير الجغرافى الصحيح • وما من شك أيضا فى أنه قد استحق عن جدارة واستحقاق ريادة مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، فى كنف التقدم الحضارى المادى الأوروبى •

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف كان اهتمام التفكير الجغرافى الأوروبى ، وهو يضطلع بدراسة الظاهرة الجغرافية ، أو وهو يستطلع الرؤية الجغرافية ، بالبحث عن التفسير المقنع والتعليل المقبـــول عقلا ، والكاشف فيما يكمن

من وراء هذه الظاهرة أو تلك الرؤية ، علامة على منتهى الانفتاح أو التفتح الموضوعى • ومعنى ذلك أن كانت بداية مبكرة وراسخة فى صياغة المنهج التركيبى الذى بنى على أساسه تأصيل الفكر الجغرافى الحديث ، وما أسفر عنه من انجاز مفيد •

ويصور هذا الانجاز المفيد ، من بعد ذلك كله ، أبعاد وجدوى وفاعلية اسهام هذه الزمرة من المفكرين الاوروبيين • ويستوى فى ذلك أن يكون الانجاز اسهاما مباشرا فى تحمل مسئوليه تحريك مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه الصحيح ، الذى يشبع ويجاوب حاجة الناس الى المعرفة الجغرافية ، أو أن يكون الانجاز اسهاما مباشرا فى الاعداد لتحديث هذا الفكر الجغرافى والأخذ بز مامه وتطويعه ، وصولا الى ما هو أفضل ، لحساب حاجة العصر ومصلحة الناس فيه •

هذا ، ويمكن أن نتبين جانبا من حصاد ذلك الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، عندما نستطلع بعض المحاولات المبكرة التى بذلت فى حوالى القرن السابع عشر الميلادى • ومن الجائز أن كانت معظم هذه المحاولات فجة الى حد كبير • ولكن المؤكد أنها قد أفلحت فى كشف الغطاء عن مدى الاستعداد لانجاز العمل الجغرافى فى صورة أفضل • ولعلها أسفرت عن تصوير مدى تشبث الاجتهاد الأوروبى بتسجيل الاضافة المفيدة التى جسدت مدى استيعاب الفكر الجغرافى القديم قبل الزيادة عليه •

ولقد استهدف نفر من المفكرين انجاز هذه المحاولات الجغرافية انجازا جيدا ومجددا فى وقت واحد • وانبرى هذا النفر أصلا وانكب على اعادة كتابة الجغرافية القديمة من خلال تذوق واستيعاب وادراك • وما من شك فى أن هذا النفر قد أفلح تماما فى احياء بعض أهم أبواب التراث الجغرافى القديم • ولكن الاهم من ذلك كله ، أن برهن هذا النفر على مهارة فى الصياغة وعلى مهارة فى تحديث الكتابة وابراز الموضوعية الجغرافية المفيدة •

ومن الجائز أن نتبين كيف سيطر التوصيف بصفة عامة على هذه الكتابة الجغرافية(١) ، وكيف كانت هذه الكتابة وهى تستعرض الصورة

---

(١) من هذه الكتابة الجغرافية المجددة ، نذكر ما ورد فى كتابين هامين من كتب القرن السابع عشر الميلادى • ولقد صدر الكتاب الأول الذى أنجزه كلوفيروس فى سنة ١٦٢٦ ، تحت عنوان « مقدمة الجغرافية العالمية » • وصدر الكتاب الثانى الذى انجزه فارينوس فى سنة ١٦٥ تحت عنوان « الجغرافية العامة » وفى الكتاب الأول ، انكب الاجتهاد الجغرافى على =

الجغرافية أو وكأنها تسجل الرؤية الجغرافية تسجيلا جامدا • ولكن المؤكد أن هذا التوصيف كان مشوقا وجيدا ، وهو يفتح باب الاجتهاد الجغرافي على شكل فج من الجغرافية الوصفية الاقليمية ، وكان صادقا ومعبرا وهو يتجنب العجائب والغرائب والسرد الأسطورى الخيالى ، وكان دقيقا وحساسا ، وهو يسعف الباحث فى دراسة التاريخ أو فى دراسة الجغرافية فى أحضان المكان •

ومن الجائز أن نلمح مدى اختلاط الكتابة الجغرافية ببعض السرد التاريخى • ومع ذلك فهناك أكثر من علامة أو مؤشر تعبر بوضوح عن مدى الرغبة فى تخفيض معدلات هذا الخلط • وهذا معناه أن نتبين كيف كانت بدايات التحول عن كتابة الجغرافية فى العصور القديمة والوسطى ، الى كتابة الجغرافية الحديثة المتطلعة الى التجديد والتطوير • ومعناه أيضا أن ندرك كيف بدأ التملص من السياق القصصى والانسياق فى سبيل المبالغات أو الأوهام الكاذبة التى تضلل الفكرة الجغرافية أو تطمسها •

وهكذا ، ينبغى أن ندرك — بكل الثقة — كيف قاد اجتهاد الجغرافى فارينوس حركة الانفتاح والتجديد الجغرافية المبكرة ، وكيف تولى غرس أقدم نبتة فكرية جغرافية مفيدة ، وكيف عمل لحساب التحول أو الانصراف عن منطق الفكر الجغرافى القديم ، وكيف تولى ريادة التقدم الفكرى الجغرافى الحديث ، اعتبارا من القرن السابع عشر الميلادى • بل لقد أكد فارينوس — من غير شك — أحقية الاجتهاد الفكرى الأوروبى فى ريادة المعرفة الجغرافية وفى أداء دورها البناء الذى كشف عن جانب من جوانب النهضة الأوروبية المتفتحة والمنفتحة على العالم من حول أوروبا •

وما من شك فى أن حصاد الاجتهاد الأوروبى فى حقل الفكر الجغرافى

= التوصيف الاقليمى لأقطار العالم بشىء كبير من التوفيق وحسن العرض • بل يمكن أن نتبين كيف أجاد الكاتب وحقق المستوى الجيد ، وهو يورد التصوير الجغرافى الذى عبر وجسد الرؤية الجغرافية آنذاك • أما الكتاب الثانى فلقد سجل فيه فارنيوس خطوة من خطوات التقدم المهمة التى برهنت على تجديد وتجويد ، فى شكل وماهية الفكر الجغرافى الحديث • بل لقد برهن فارينوس أيضا على كفاءة حقيقية ، فى تجسيد الصيغة التركيبية التى دللت على حسن استخدام نتائج البحوث الرياضية . لدى عرض التوليفة الجيدة عن رؤيته الجغرافية الفلكية •

الحديث ، والذى عكف عـلى تسجيله فى كتـابه « الجغرافية العـامة »(١) قد أصبح دليلا على التجديد فى الصياغة ، وعلى الوضوح فى بيـان وتصوير الرؤية الجغرافية(٢) . بل لقد أصبح هذا الكتاب ، على مدى أكثر من مائـة سنة ، المرجع الجغرافى الأهم والأصدق والأوفى ، لكل طلاب المعرفة الجغرافية. وربما زهت بهذا الإنجاز الجيد وتاهت جموع المجتهدين العـاملين فى حقل الفكر الجغرافى الحديث ، وهى تعتز وتفتخر بريادة الاجتهاد الأوروبى لهذا الفكر المتطور .

والنوع الثالث ، من زمرة الرجال المجتهدين فى حقل العمل الجغرافى ، تولى وهو فنان مبدع ، يتعشق الابداع والابتكار ، مهمة ترجمة حصاد المعرفة الجغرافية ، وحصر رصيدها ورسم أو توقيع هـذا الرصيد على خرائط . ولقد خاض هذا الاجتهاد الأوروبى البناء أكثر من تجربة صعبة ، وهو يتصدى لنشر أو اخراج هذه الخرائط وتجسيد هذا الشكل من أشكال التعبير .

وكان من شأن هذه الخرائط ، أن تسجل مدى النمو وحسن البيان ، وأن تصور مدى الوضـوح وحسن التعبير ، الذى جاوب التوسع فى دائرة المعرفة الجغرافية ، على امتداد الأرض . بل لقـد كشفت هـذه الخرائط - فى نفس الوقت - عن مدى التقـدم والابداع والتجـديد والتجويد ، فى أساليب العمل الفنى والرسم ، وصولا الى حد تجسيد الرؤية الجغرافية تجسيدا سويا وواضحا .

---

(١) فى كتاب « الجغرافية العامة » ، تناول الاجتهاد الجغرافى ثلاثة موضوعات ، فى ثلاثة أجزاء متكاملة . وفى الجزء الأول ، عرض فارينوس دراسة عن الأرض عرضا فلكيا . وقد صور رؤيته لها من حيث الشكل والحجم والقياس الرياضى لأبعادها . وفى الجزء الثانى عرض عرضا شوقا وكاشفا عن العلاقة بين الأرض والاجرام السماوية . وقد حدد مكان الأرض فى اطار الكون الفسيح من حولها . وفى الجزء الثالث ، عرض فارينوس دراسة وصفية للاقاليم فى انحاء الأرض . وقد سجل فيها أبعاد المعرفة الجغرافية الكاشفة عن خصائصها .

(٢) لولا أن قضى هذا الجغرافى المجتهد نحبه فى سن مبكرة ، لأتم اجتهاده الذى تطلع الى تسجيله فى كتاب بعنوان « الجغرافية الخاصة » . ولقد تمنى فارينوس أن يسجل هذا العمل فى ثلاثة موضوعات تحتويها ثلاثة أجزاء الأخرى . ولعله تطلع الى آن يحتوى الجزء الأول دراسة عن خواص السماء بما فى ذلك المناخ ، وان يحتوى الجزء الثانى دراسة عن خواص السطح والتضاريس وصور الحياة النباتية والحيوانية فى احضان هذا السطح ، وأن يحتوى الجزء الثالث دراسة عن خواص البشر الذى يعمرون الأرض وصور حياتهم ونظم حكمهم وأساليب معيشتهم وتجارتهم . وربما كان هذا التصنيف أول شكل من أشكال الاجتهاد الاوروبى التى كشفت عن رؤية الفكر الجغرافى الحديث بشأن تقسيم مجالات البحث والعمل والاهتمام فى حقل العمل الجغرافى .

ومن الجائز أن أغرى الاغداق السخي والعطاء المجزى هـذه الزمرة من الرجال المجتهدين ، وألهب حماسهم وحفز روح الابداع فيهم ، لانجاز بعض الخرائط الجيدة • ومن الجائز أيضا أن صورت هذه الخرائط الجيدة حقيقة الرؤية الجغرافية الكاشفة لتوزيع اليابس والماء تصويرا كاشفا وجيدا • ولكن المؤكد أن تطور الرياضيات ونمو الخبرات الرياضية وحسن استخدامها ، هي التي بصرت وأسعفت وساندت انجازات هذه الزمرة المجتهدة من رسامي الخرائط ، وهم يعدونها ويبدعون في انشائها ، وتجسيد ما تحتويه من بيان جغرافي جيد ، وتعبير جغرافي صحيح •

ومن خلال هذا الرسم الفني الجيد ، الذي ضبطته ضوابط رياضية سوية حاكمة ، أفلح هذا الفريق أو تلك الزمرة المجتهدة ، في مواكبة الاجتهاد الفكرى الاوروبى ، الذى انكب على تطوير وتجديد الفكر الجغرافى الحديث • وهذا معناه أن تأتى التوازى والتوازن بين التعبير عن مفاهيم ورؤية الفكر الجغرافى من خلال الكتابة الجغرافية ومن خلال الرسم الجغرافى ، على حد سواء • بل ومعناه أيضا أن تشترك الكلمة المكتوبة مع الرسم الفنى فى تصوير وتجسيد الرؤية الجغرافية تجسيدا واضحا مرئيا •

ولقد تمثل ذلك التجسيد المرئى بالفعل ، عندما صورت الخرائط الجيدة امتداد الأرض ، وحددت شكل القارات ، وبينت توزيع البحار والمحيطات من حولها ، توزيعا صادقا وواقعيا • كما تمثل ذلك مرة أخرى عندما سجلت الخرائط الرؤية الجغرافية الكلية ـ فى ضوء ما أسفرت عنه الكشوف الجغرافية الكبرى ـ لليابس والماء على سطح الكرة الأرض ، تسجيلا واضحا وصحيحا • وليس أصدق من هذا الاجتهاد الفنى ، وهو يحترم الواقع فلا يسجل الا الصحيح • بل انه لم يخجل أو يستحى من ترك بعض المساحات المجهولة بيضاء ، من غير أن يستوحى خياله أو أوهامه لكى يملأ هذا الفراغ •

وهكذا ، شد الاجتهاد الفنى أزر الاجتهاد الفكرى الجغرافى ، وكان أمينا وصادقا ومعبرا لدى تصوير حقيقة الرؤية الجغرافية على أى مستوى من مستويات الأرض • ولقد أشاع هذا التصوير الجيد والصادق الذى عبرت عنه الخرائط ، الاهتمام الجغرافى بين عامة الناس ، لانه يسر عليهم الاطلاع والادراك لدى متابعة مدى اتساع المعرفة باليابس والماء على الأرض ، من خلال معاينة الخرائط الجيدة ، التى سجلت وبينت الرؤية الجغرافية التى تكشفت عنها رحلات المغامرين فى عرض البحر •

هذا وما من شك فى أن اشاعة هذا الاهتمام بين عامة الناس ، قد فجر حسهم الجغرافى . بل لقد غرس فيهم جدوى استشعار الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وهو يواصل مهمته ويسجل انجازاته لحساب الانسان . وهذا معناه فى الحقيقة أن اسهام هذه الزمرة من المجتهدين قد استنفر الناس وكسب دعم ومظاهرة حسهم الجغرافى ، لحساب الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وتمويله فى المراحل التالية .

- - - - - - - - - - -

ومن بعد اجتهاد كل هذه الزمرة من المجتهدين ، كل فيما يخصه فى حقل العمل الجغرافى ، ومن بعد نشر واشاعة واستيعاب وتقبل حصاد التجديد أو التجويد فى الفكر الجغرافى الذى اعتصره فارينوس وعرضه عرضا موضوعيا مشوقا ، من بعد هذا وذاك لم تتقدم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، تقدما حقيقيا الى ما هو أفضل الا بعد وقفة متأنية طويلة . وصحيح أن الأمر قد تجاوز حد احياء واستيعاب التراث الجغرافى السابق ، ولكن المؤكد أن هذا التأنى فى التفكير الجغرافى الأوروبى الحديث كان مطلوبا . ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد طلب التأنى ولم ينطلق انطلاقة متوثبة سريعة تخونه أو تفسد فحواه أو تهوى به فى سقطات وزلات تلوثه وتضيع أهدافه .

وفى اعتقادى أن التأنى والتمهل فى التفكير الجغرافى الحديث الباحث عن أسباب التجديد والتجويد ، كان فى انتظار نضج وتقدم بعض العلوم الأساسية . ويبدو أن التفكير الجغرافى كان فى حاجة الى بعض نتائج هذه العلوم الواقعية لكى يتخذ منها سبيلا يشد أزره ، ومنطلقا علميا واقعيا يرشد اضافاته ويبصر تجديده وتجويده .

وهذا التريث الذى استمر الى حوالى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى ، معناه - بكل الوضوح - أن بدأت الانطلاقة الفكرية الجريئة التى أضافت وجددت وأبدعت صلب النظرية فى الفكر الجغرافى الحديث ، بعد ذلك التاريخ . ومعناه أيضا أن قرنين كاملين من حساب الزمان قد ولت وانقضت والاجتهاد الجغرافى الأوروبى عاكف - بكل الأناة - على صياغة وتجهيز قاعدة أو أساس التجول الحقيقى ، الذى أكسب الفكر الجغرافى قدرات صياغة الاطار العام والمحتوى والأهداف التى حددت شكل علم الجغرافية ومكانه الصحيح بين زمرة العلوم الأخرى .

وهكذا ، ينبغى أن نستشعر كيف أدرك الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، وهو يتحمل مسئولية الاحياء والتجديد والاضافة مسألتين هامتين • ومن الجائز أن اشتركت هاتان المسألتان فى تعميق الفكر الجغرافى الحديث • ولكن المؤكد أنهما معا كانا من وراء ولادة علم الجغرافية ولادة سوية فى المرحلة التالية • وتتمثل هاتان المسألتان الجوهريتان فى :

١ ـ قيمة أو جدوى التريث والتأنى ، لكى يتسنى للاجتهاد الجغرافى الأوروبى استيعاب الفكر الجغرافى القديم كنه استيعابا كاملا ، قبل أن يدفع أو يحرك مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى الاتجاه الصحيح ، وقبل أن يطور ويصوغ النظرية الجغرافية تطويرا قائما أو مبنيا على أسس وقواعد واقعية صحيحة •

٢ ـ قيمة أو جدوى التفتح والانفتاح ، لكى يتسنى للاجتهاد الجغرافى الأوروبى اجادة وتحسين منطق الأساس التركيبى ، الذى يقوم عليه الفكر الجغرافى الحديث ، تأسيسا على حسن استخدام أو حسن استثمار نتائج العلوم الأخرى ، وعلى مهارة الأخذ من معين عطائها الثرى المثمر •

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن ندرك كيف كانت البداية الحاذقة فى ترسيخ البناء الجغرافى الحديث على أساس تركيبى سوى ، مبنية على نهاية ما قد أسفر عنه البناء الجغرافى القديم السابق • بل وينبغى أن نطرى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى الذى تولى البناء والتجديد على قواعد وأصول التراث الجغرافى العريق •

ومن غير افتعال فجوة ، تفصل بين الفكر الجغرافى السابق والفكر الجغرافى الحديث ، نجح الاجتهاد الأوروبى ، فى صياغة الصلات واختيار اللبنات التى جعلت مسيرة الفكر الجغرافى مسيرة مستمرة موصولة الحلقات والمراحل • ولقد كان أفضل ما توصل اليه الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فى هذه المرحلة الأولية ، هو اضافة ذكية برعنت على حسن ومهارة تلمس العلاقات المنطقية ، بين نتائج بعض العلوم الأساسية ، لحساب الصياغة الجغرافية الأجود ، أو لحساب التوليفة الجغرافية الأفضل •

وهذا معناه ـ بشكل تأكيد ـ أن اتجاه الفكر الجغرافى الحديث على الطريق كان اتجاها سويا وفى المسار الصحيح • ولقد كان من شأن هذا الاتجاه السوى أن يسعف الاجتهاد الجغرافى الأوروبى ، وهو يتحسس الواقع

الجغرافى أو وهو يدرس الظاهرة الجغرافية المعنية • بل لقد بصر هذا الاتجاه السوى الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وهو يبحث عن تفسير ماهية الظاهرة الجغرافية والضوابط الحاكمة لها ، أو وهو يسفر عن التوليفة الجغرافية الصادقة التى تستخلص النتيجة الجغرافية المفيدة ، من صلب النتائج العلمية الأصولية الصحيحة •

وفى اعتقادى - على كل حال - أن القرن الذى انقضى من بعد نشر عمل فارينوس الجغرافى الرائد فى هذه المرحلة الأولية ، لم يضيع هدرا ولم تفلت قيمته من بين أصابع الاجتهاد الجغرافى الأوروبى • ومن الجائز أن شهد هذا القرن تطور بعض العلوم الأساسية ، ولكن المؤكد أنه قد شهد أيضاً نشاط الاجتهاد الجغرافى الأوروبى وهو يسفر عن بداية المنطق الحاكم لحركة التفكير الجغرافى الحديث عندما يتدبر أمر الظاهرة الجغرافية المعنية أو عندما يسجل رؤيته المتخصصة لها فى أحضان المكان •

هذا ولقد تمثل هذا المنطق الحاكم لحركة انسياق التفكير الجغرافى الحديث فى استشعار وتقصى حقيقة وواقعية ثلاثة أمور هى :

(أ) توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية فى الاطار الضيق المحدود أو فى الاطار الواسع الفضفاض فى العالم ، ورصد مدى انتشارها على أى من هذين الصعيدين •

(ب) تفسير وتعليل منطقى كاشف عن معنى هذا التوزيع أو الانتشار ، وعن ماهيته وكنهه وما ينبىء به وما يمكن أن تترتب عليه من نتائج معينة •

(ج) تجسيد العلاقة أو العلاقات التى تكون أو التى تربط بشكل أو بآخر بين الظاهرة الجغرافية المعنية والظاهرات الأخرى فى المكان •

وفى اعتقادى مرة أخرى ، أن هذا القرن الذى انكب الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فيه على صياغة وابداع المنطق الحاكم لحركة التفكير الجغرافى الحديث ، قد حقق بذلك الاهارص المبكر الذى مهد وبشر وهيأ كل أسباب المخاض لكى يلد التفكير الجغرافى علم الجغرافية • وربما كانت بعض البدايات المفيدة التى وضعت الاطار وجمعت أوصال القواعد والأسس التى

جهزت المهد استعدادا لولادة علم الجغرافية . وربما تطلع الاجتهاد الجغرافى الأوروبى - بكل الأمل - الى ميلاد هذا العلم لكى يطل من خلاله على الواقع الجغرافى من حوله . ولكن المؤكد أن هـــذه الولادة قد تأخرت بعض الوقت ريثما ، يتم الانسلاخ بين الفكر الجغرافى والفكر التاريخى .

وعن هـــذا الانسلاخ ، نذكر كيف كانت بدايات مبكرة وارهاصات مفيـــدة ، بنيت على استشعار مـــدى التناقض بين عالمية الفـــكر الجغرافى فى معالجة الرؤية الجغرافية فى أى مكان واقليمية أو محلية الفكر التاريخى فى معالجة الحدث التاريخى فى المكان المعين . بل لقد جسد هذا التناقض درجة من التعارض بين رؤية جغرافية تتسلل من الكل الى الجزء وعن الجزء الى الكل ، ورؤية تاريخية تفتقد هذه المرونة .

وهذا معناه - بكل تأكيد - أن الاجتهاد الجغرافى الأوروبى قد استشعر فى نهاية هذه المرحلة الأولية ضرورة الانسلاخ بين مسيرة الفـــكر الجغرافى ومسيرة الفـــكر التاريخى . وأصبح المطلوب أن تنطلق كل مسيرة منهمـــا فى حال سبيلها انطلاقا حرا ومتحررا يخـــدم الهدف الموضوعى فى المكان أو الهـــدف الموضوعى فى الزمان لحساب الانســـان ، ودون افتقاد العـــلاقة الأصولية بين المكان والزمان فى المكان .

وهذا معناه أيضا أن هذه المرحلة الأولية التى انتهت مع نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر ، قد أضافت كل هـــذه الارهاصات والبدايات المبكرة الى ما جددت به الفكر الجغرافى السابق . ولكن المؤكد أنها تركت أمر التحول والتغيير للاجتهاد الجغرافى فى المرحلة التـــالية . وما كانت هـــذه النهاية بالفعل ، الا لكى تبدأ المرحلة الجديدة التى شهدت انطلاقات التحول الحقيقى ، والتى تمثلت فى صياغة الفكر الجغرافى الحديث ، وفى ترسيخ مهمته وفى ولادة علم الجغرافية وتحـــديد أهدافه وتجميع أوصـــال الاطار العلمى الحاكم لدوره الوظيفى التخصصى .

مرحلة ترسيخ الفـكر وصياغة علم الجغرافية

هذه مرحلة هامة وحيوية ، لأنها - بحق - مرحلة الانجـــاز العظيم . والمقصود بالانجاز العظيم ، هو انطلاق الاجتهاد الجغرافى الأوروبى - بـــكل الرشاد - انطلاقات متوثبة وناجحة . ولقد استهدفت هذه الانطلاقات الابداع والاضافة الى رصيد الفكر الجغرافى الحديث ، مثلا استهدفت أيضا صياغة العلم الذى يحتوى ويجسد هذا الفكر ويحقق أهدافه . ويبدو أن حاجة الفكر

الى العلم كانت ملحة • بل لعلها كانت كمثل حاجة الروح الى الجسد • ومن الطبيعي أن يؤدى الفكر الى ولادة علم يحتوى ويحقق أهدافه • ولكن المؤكد أن هذا العلم يظل فى حاجة الى هذا الفكر لكى ينميه ويدعم التجديد والتجويد فى أدائه •

هذا ويمكن أن نؤكد على أن الفترة من النصف الثانى من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القــرن التاسع عشر ، قد شهدت أكثر من نقطة تحول مثيرة • وصحيح أن نقط التحول قد ضاعفت من خطوات التقدم التى سارت بها مسيرة الفكر الجغرافى ، ولكن المؤكد أنها لم تغير من الاتجاه العام السوى الذى تسير فيه • ولقد كان من شــأن كل نقطة من نقط التحـــول المثيرة ، التجهيز الحقيقى والاعداد السوى لتلك الانطلاقات المتوثبة الجوهرية التى انتهت الى صياغة الانجاز ، بل الانجازات الموضوعية العظيمة •

ونقطة التحول الأولى ، قد تمثلت فى تسخير الفكر الجغرافى الأوروبى تسخيرا موضوعيا بنــــاء • وتولى بالضرورة أمر صـــياغة وتنشئة القواعد والأصول التى ارتكزت عليها بعض أهم مفاهيم الجغرافية الاصولية • ولقد انجلى الموقف وتحقق الانجاز الحقيقى ، عنـــدما أسفر الاجتهـاد الجغرافى الأوروبى آنذاك ، عن تهيئة أو تجسيد الشكل العلمى الموضوعى الذى احتوى مضامين التفكير الجغرافى ، احتواء كفل موضوعيته وحـــدد أدائه الوظيفى التخصصى وجسد أهدافه •

وهذا معناه ولادة علم موضوعى له أصـــوله وقواعده ، وله منـاهجه وأهدافه ولادة طبيعية استجابة وتحقيقا للتحول الــذى أراده وسعى اليه الفكر الجغرافى الحديث(١) • ومعناه أيضا أن عرف الفكر الجغرافى من خلال مكان علم الجغرافية بين العلوم الأخرى مكانته فى اطار المحتوى العام الذى يحتوى الفكر الانسانى كله • أما علم الجغرافية الذى جسد الفكر الجغرافى الحديث كما انتهى اليه الاجتهاد الجغرافى الأوروبى فقد حدد مكانته من خلال أهدافه الحيوية ومدى تجاوبها مع مصلحة الانسان فى الحياة على الأرض •

ونقطة التحول الثانية ، لا تقل أهمية عن الأولى ان لم تكن هى الأهم

---

(١) لعب الاجتهاد الجغرافى الألمانى الدور الرائد فى صياغة علم الجغرافية وفى تجهيز شكله العلمى وأصوله وقواعده •

بالفعل ، من وجهة النظر الموضوعية • وقد تمثلت فى مجاوبة التناقض بين الفكر الجغرافى ودوره الوظيفى التخصصى فى المكان ، والفكر التاريخى ودوره الوظيفى التخصصى فى الزمان • ولقد انجلى الموقف ، وتحقق الانجاز الحقيقى ، عندما انبرى الاجتهاد الفكرى الأوروبى الى الفصل والتمييز بين عالمية الفكر الجغرافى واقليمية الفكر التاريخى ، وأدى الى تهيئة عملية الانسلاخ العلمى بين الجغرافية والتاريخ(١) •

- - - - - - - - - - -

وهذا معناه تحقيق التحول والتغيير الموضوعى من فكر جغرافى طالما اختلط بالفكر التاريخى ، الى وضع جديد بان فيه الخيط الرفيع الفاصل بين علم الجغرافية الذى احتوى مضامين الفكر الجغرافى وعلم التاريخ الذى احتوى مضامين الفكر التاريخى • ومعناه أيضا أن الجغرافية فى شكلها العلمى ، قد تحولت من خادم مطيع للتاريخ الى معلم له يبصره ويرشده فى تفسير ومتابعة الأحداث التاريخية •

وهناك اتفاق عام على أن سنة ١٧٥٤ ميلادية ، قد شهدت بعض هذه التحولات وما أسفرت عنه من انجازات مثيرة ، فاتحة عهد الانطلاق الفكرى الجغرافى الحديث • وينبغى أن نذكر كيف تولى فريق العلماء الألمان بالذات مهمة هذا الانطلاق ، وكيف كان الاجتهاد الجغرافى الألمانى هو الفارس فى الميدان • بل انهم - بكل تأكيد - هم الذين أمسكوا بزمام المسيرة الفكرية الجغرافية • ولقد تولوا - بكل الاهتمام - مسئولية ترسيخ الفكر الجغرافى الحديث ، ودم صياغة علم الجغرافية ، وتجسيد مغزاه ومرماه •

هذا ، وكان من شأن الاجتهاد الجغرافى الألمانى فى حقل البحث الجغرافى العلمى ، أن يسفر عن ولادة مدرستين متميزتين من مدارس الفكر الجغرافى الحديث • ومن الجائز أن هاتين المدرستين كانتا فى وقت لم يكتمل فيه بعد نضج الشكل العلمى للجغرافية نضجا سويا وكاملا • ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى فى أحضان كل مدرسة من هاتين المدرستين ، قد تبنى التطور والتحديث والتجديد فى المعالجة الجغرافية وتجسيد الرؤية العلمية

---

(١) الجغرافية مثل التاريخ تتطلع لتوضيح التاريخ ، ولكن مهام الجغرافية المتعددة وزيادة مادتها العلمية يوما بعد يوم كسر الرباط الذى ربطها بالتاريخ دائما • واحتلت الجغرافية مكانها اللائق بها كعلم مستقل • وتحولت الجغرافية عندئذ من خادم للتاريخ الى معلم له ، وهو معلم موهوب له نظر ثاقب وبصيرة نفاذة وقدرة على التنبؤ بالمستقبل •

راجع هذا القول فى كتاب (الجغرافية فى القرن العشرين) الترجمة العربية للدكتور محمد السيد غلاب والاستاذ محمد مرسى أبو الليل - الجزء الأول صفحة ٥٠ •

الجغرافية • بمعنى أن الهدف الموضوعى قد أوضح مدى تطلع الاجتهاد الجغرافى ، الى ترسيخ موضوعية البحث الجغرافى فى الاطار السوى •

والمدرسة الأولى من هاتين المدرستين العلميتين الجغرافيتين ، قد عرفت تحت اسم المدرسة الاحصائية السياسية(١) • وقد جمع تصور هذه المدرسة العلمية زمرة من الجغرافيين المحترفين المجتهدين ، الذين انكبوا — بكل الاهتمام — على البحث الجغرافى الموضوعى ، فى اطار الوحدة السياسية • بمعنى أن الوحدة السياسية ، كانت الوعاء الذى احتوى اهتمامهم الجغرافى أكثر من أى شىء آخر • ولقد اعتمدت هذه الزمرة على الاحصاء الجيد ، والحصر الصحيح ، وتقصى الحقائق ، لانجاز البحث الجغرافى ، الذى يجسد الرؤية الجغرافية فى الوحدة السياسية المعنية •

ومن الجائز أن الوصف الشامل أو التوصيف الجغرافى العام ، قد أتخم هذه البحوث الجغرافية بشكل يلفت النظر ، دون أن يكسبها الأبعاد الموضوعية العلمية • ولكن المؤكد أنها قد نهضت بمهمتها الجغرافية ، من غير أن تتردى فى المبالغة أو التضخيم أو من غير أن تنزلق فى خضم الخيال • وكان من أبناء هذه المدرسة بوشنج ومنتل • وربما نأخذ عليهم جميعا الاستغراق فى الوصف الممل ، والتجرد من متابعة التفسير والتحليل المقنع الذى يعمق البحث الجغرافى ويجسد موضوعيته علميا •

هذا ولقد اعترض بعض الجغرافيين بالفعل على اجتهاد زمرة الجغرافيين من المدرسة الاحصائية السياسية ، اعتراضا موضوعيا • وقاد ليزر هذا الاعتراض أو الرفض الموضوعى ، على أساس أن الدولة أو الوحدة السياسية اقليم مصنوع وأن حدوده قابلة للتغيير • وهذا معناه أن البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية الموضوعية ، يجب أن يحتويه حدود ثابتة وغير قابلة للتغيير • ولقد وجد هذا الاعتراض فى الحدود الطبيعية بديلا جيدا لأنها الحدود التى لا تقبل التغيير بالفعل •

والمدرسة الثانية من هاتين المدرستين العلميتين الجغرافيتين ، قد نشأت تحت اسم المدرسة الجغرافية البحتة • ولقد سنجل الربع الأخير

---

(١) كان بوشنج صاحب الكتاب الجغرافى الذى نشر سنة ١٧٥٤ رائد هذه المدرسة • ولقد أصر على أن اجتهاده ينبغى أن ينصب على الوصف الجغرافى • أما منتل فهو الذى حدد أبعاد هذا الوصف فى اطار الوحدة السياسية •

من القـــرن الثامن عشر ظهور هـــذه المدرسة التى وجهت البحث الجغرافى والدراسة الجغرافية الموضوعية • وحصرت اجتهـاده فى اطار الاقليم الذى تصنعه الحدود الطبيعية • وكان هوماير الألمانى أمهر أبناء هـذه المدرسة ، عندى تصدى الى تقسيم العالم الى أقاليم طبيعية ، متخذا من أحواض الأنهار أساسا لهذا التقسيم •

وفى أحضان رؤية هذه المدرسة الجغرافية البحتة(١) ، سلك الاجتهاد الجغرافى سبيلا مجددا لانجاز البحث الجغرافى الموضوعى ، فى اطار الاقليم ولقد انغمس البحث فى الوصف الشامل الذى يجســد الرؤية الجغرافية • وتضمن هذا الوصف الجغرافى الذى تحرى الصدق والتصوير الجيد ، بيانا شاملا يعالج سطح الأرض وما تحتويه من نمو نباتى وحيـــاة حيوانية • والتزمت هذه الكتابة بالفصل الحقيقى بين الوصف الجغرافى والسرد التاريخى وتجنبت التداخل الذى يخل بجدية وموضوعية المعالجة الجغرافية ، التى تجسد الرؤية الوصفية فى الاقليم •

ومن الجائز أن هذا الوصف قد تجرد من البيـان التاريخى والخلط الذى يشوه التصوير الجغرافى الوصفى • ولكن المؤكد أن البيان التاريخى لم يستبعد تماما بل كان له مكانه وحصة تحتويه وتورده فى مقـــدمة البحث الجغرافى • والأهم من ذلـك كله ، أن المعـــالجة الجغرافية قد أضافت الى الوصف الجغرافى شيئا مهما • ذلك أنها تصدت للتفسير والتحليل بقـدر ما تصدت الى تصور العلاقات التى تربط بين النبات والحيوان والانســان فى الاقليم • وهذا معناه اتجاه الاجتهاد الجغرافى والتزامه التزاما موضوعيا بالمنطق الحاكم لحركة انسياق التفكير الجغرافى الحديث • ومعناه أيضـــا تأكيد القدرة الجغرافية على حسن اســتخدام التركيب والتحليل من أجل تجسيد الرؤية الجغرافية فى الاقليم •

ومن الجائز أن حقق الاجتهاد الجغرافى الألمانى - على وجه الخصوص - فى اطار أى من هاتين المدرستين الفكريتين ، اللتين توالى ظهورهما فى هذه المرحلة ، بعض التجديد فى الكتابة الجغرافية لكى تجسد الرؤية الجغرافية • ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجغرافى الألمانى ، قد قاد مسيرة الفكر الجغرافى

---

(١) جرت هذه التسمية بعض الجغرافيين لدى تفسير أهداف هذه المدرسة • ويبدو أن المقصود بالجغرافية البحتة ، التأكيد على حرص المعالجة الجغرافية على عدم الخلط بين الوصف الجغرافى والسرد التاريخى •

الحديث ، وأنه نشط وحفز واستنفر روح المنافسة العلمية والتجـديد بين المفكرين الجغرافيين بشكل واضح • وهذا معنـــاه أن جدوى هذا الاجتهاد يتجلى من خلال تقييم صادق ، يحدد حقيقة وكفاءة الوثبات البناءة فى الكتابة الجغرافية ، فى أثناء الفترة التالية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميلادى •

هذا ، ومن أرباب الفــكر الجغرافى الذين انبروا - بكل الواقعية - للبحث الجغرافى الموضوعى ، من خلال الرحلة والمسح الجغرافى ، فورستر الأب ، وفورستر الابن • ولقـــد سجل كل واحد منهما قدرته على الملاحظة أو المعاينة ، وحسن تجميع أوصال الرؤية الجغرافية • بل لقـــد توخى كل منهما اتباع الأسلوب العلمى فى عرض هـــذه الرؤية الجغرافية عرضـــا موضوعيا ، وفى استخلاص بعض النتائج الجيدة التى جسدها البحث •

ومن الطبيعى أن نتبين كيف صور بحث أى من هذين الرجلين ، تركيزا جسد العلاقة بين البيئة والانسان ، الى حد افتعال التفسير الحتمى لنتائج هذه العـــلاقة • ولكن الأهم من ذلك كله ، أن تصوير الرؤية الجغرافية ، وتجسيد العلاقة بين البيئة والانسان فى اطار هذه الرؤية ، قد أسفر عن عمل فكرى جغـــرافى علمى فى بحث أصولى منهجى مفيـــد • وهذا ارهاص - بالفعل - أعلن عن تبنى الفكرة ، التى أســفرت - فى وقت لاحق - عن البحث الجغرافى الاقليمى ، أو ما عرف بعد ذلك بالجغرافية الاقليمية •

هذا ، ولقد انتفع الفـــكر الجغرافى الحديث وهو يبنى ويجسد علم الجغرافية غاية الانتفاع ، بفكر واجتهاد وعمق الفيلسوف الالمانى ايمانويل كانت ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر الميـــلادى • ومن حسن الطالع أن تبنى كانت الفكر الجغرافى الحديث ، وأطل عليه موضوعيا ، من خلال تأمل فلسفى عميق ومجتهد • وفيما بين سنة ١٧٥٦ ، وسنة ١٧٩٦ ، وكانت يحاضر فى الجغرافية الطبيعية فى جامعة كوجنز الألمانية ، تهيـــأت له الفرصة - على أوسع مدى - لكى يطلق العنان لفكره وتأمله الفلسفى ، لكى يودع علم الجغرافية أمانة ومسئولية فى أحضان العمل الأكاديمى •

وأهم انجاز من الانجازات التى حققها كانت ، قد تمثل فى اجتهـــاد حصيف وهو يحاول تحديد أهداف علم الجغرافية ، ومجالات البحث الجغرافى الموضوعى • وتأسيسا على ذلك التحديد ، استشعر كانت العلاقة الموضوعية الحقيقية بين علم الجغرافية والعلوم الطبيعية الأخرى • بل لقد اهتم كانت

بترديد ذلك التصور الذى جسدته فلسفته الواقعية التجريبية على الطلاب ، الذين استمعوا الى محاضراته ونهلوا من معينه العلمى فى الجغرافية الطبيعية ، وهى تتكرر من سنة الى سنة أخرى على مدى أربعين عاما ·

وتركيز كانت على انتماء الجغرافية الى طائفة العلوم التجريبية ، مسألة ينبغى أن تلفت النظر بالفعل · ولقد تصور أن علم الجغرافية الذى يرصد الظاهرات ، وهى تحدث بعضها وراء بعض فى المكان ، علامة على صدق واقعية وموضوعية هذا الانتماء(١) · كما أكد على قيمة علم الجغرافية كمصدر من مصادر الخبرة التى ترشد حياة الناس فى اى مكان · بل لقد أكد أيضا على أن الفكر الجغرافى قديم قدم حاجة الحياة اليه · ولعله أقدم من الفكر التاريخى فى نظر كانت ، لأنه يتصور أن مجرد أحداث التاريخ القديم وهى تتوالى على مسرح معين ، علامة على وجود هذه الجغرافية القديمة التى توضح بعض ضوابط أحداث هذا التاريخ ·

وصحيح أن فلسفة كانت وعمق تفكيره الفلسفى قد فتح بصيرته الجغرافية ، وهو يؤكد على أن الجغرافية الطبيعية التى تعالج الواقع على الأرض ، تمثل الأساس والأصل الذى يتعين انطلاق كل مفاهيم الفكر الجغرافى منها · وصحيح أيضا أن فلسفة كانت وعمق تفكيره الفلسفى ، قد ألهم اجتهاده الجغرافى الاكاديمى ، وهو يجسد جدوى المفاهيم الجغرافية من وراء حركة التاريخ وسياق أحداثه فى المكان · ولكن المؤكد أن ذلك كله ، قد حفزه علميا ، لكى يحدد أبعاد العلاقة بين الجغرافية والتاريخ ، من غير عارض أو اعتراض على الانفصال الموضوعى بينهما(٢) ·

والى جانب ذلك الاهتمام الفلسفى والاكاديمى الذى أولاه كانت للجغرافية الطبيعية ، فلقد اهتم كانت أيضا بالتفاعل الحياتى بين الانسان

---

(١) الجغرافية فى تصور كانت ، تهتم بالوصف ، شأنها فى ذلك شأن التاريخ · ولكن فى الوقت الذى تتصدى الجغرافية فيه لوصف الظاهرات فى المكان ، فان التاريخ يصف حركة الأحداث فى الزمان فى هذا المكان · وفى اعتقاده أن الجمع – وليس الخلط – بين الوصف الجغرافى فى المكان والوصف التاريخى فى هذا المكان يصنع الصورة المتكاملة عن ادراك المكان ·

(٢) العلاقة بين التاريخ والجغرافية ، تنظم الصلة بينهما وتحول دون الخلط المخل · وهى علاقة مبنية على أساس انهما معا من العلوم التجريبية ·

والبيئة التي تحتويه(١) • وهذا معناه أنه لم يهمـل الجانب البشرى الذى يتدارس أمر وجود الانسان على الأرض • ومعناه أيضا أنه سجل خطوة على الطريق الصحيح ، الذى وجه الفكر الجغرافى الحديث ، وجهة تقسيم علم الجغرافية الى قسميه الكبيرين ، الطبيعى والبشرى(٢) •

ولقد أسفر اجتهاد كانت الجغرافى فى نهاية المطاف ، عن تصور مجموعة من الفروع التى تندرج تحت مظلة علم الجغرافية • وتمثلت هـذه الفروع فى ، الجغرافية الرياضـية والجغرافية الاجتمـاعية والجغرافية السـياسية والجغرافية التجارية والجغرافية الدينية • وبصرف النظر عن مدى تمسكنا أو اقتناعنا ، من بعد كانت بهذه الفـروع ، نذكر أن هذا التصنيف علامة على استشعاره ، مدى اتساع مجالات البحث التى يتصدى لها علم الجغرافية استجابة لارادة الفكر الجغرافى الحديث •

ومهما يكن من أمر هـذه المرحلة التى شهدت ولادة علم الجغـرافية استجابة لارادة الفكر الجغرافى الحديث ، فان الاجتهـاد الجغرافى قد أولاه الرعاية فى المهد وعمل على نموه نموا مطردا • ومن خلال زمرة من المفكرين ، أنجز الاجتهاد الجغرافى انجازات مفيدة • ولقد برهنت هذه الانجازات على أن الفكر الجغرافى الحديث قد استنفر فى علم الجغرافية اهتماماته بالبحث الجغرافى الموضوعى •

هـذا وينبغى التـأكيد على أن هـذا الاجتهاد الجغرافى الذى التزم بموضوعية علم الجغرافية ودوره الوظيفى فى الدراسة الميدانية أو فى الدراسة المكتبية ، قد مهد تمهيدا حقيقيـا ، لنمو مطرد وتقـدم حثيث على المسـار الصحيح وصولا بأهداف الجغرافية وتطلعاتها الى ما هو أفضل • وما من شك فى أن أعمـال فورستر الأب وفورستر الابن وكانت الجغرافية ، قد ألهبت

---

(١) استشعر كانت من خلال عمله الجغرافى ، مدى التباين بين البيئات ، وأدرك أن هذا التباين مبنى على اختلاف حقيقى ، فى خواص ومواصفات المواقع الطبيعى • ومن ثم أدرك جدية هذا التباين وانه من غير شك السبب الحقيقى فى الاختلافات الجوهرية فى انماط الحياة من بيئة الى بيئة أخرى •

(٢) لم يورد كانت فى دراساته الجغرافية أو فى رؤيته للواقع الجغرافى أى تعبير واضح ، يصور مدى اهتمامه بالدراسة الجغرافية الاقليمية • وحتى ما قال عنه انه دراسة فى الجغرافية الاقليمية لا يكاد يضيف شيئا مهما أو مفيدا ، ولا يكاد ينبىء بادراكه حقيقة وأهداف وقيمة مثل هذه الدراسة الجغرافية الاقليمية •

الاجتهاد الجغرافى • بل لعلها أفلحت فى ريادة التحرر من نمطية الفكر الجغرافى التقليدى الجامد • وهذا معناه أن هذه الصفوة قد أطلقت العنان ، لكى يتولى بعض رجال الفكر الجغرافى الحديث مهمة ترسيخ التركيب الهيكلى لبنية الجغرافية العلمية فى القرن التاسع عشر الميلادى •

- - - - - - - - - -

مرحلة ترسيخ البنية العلمية للجغرافية الحديثة

وهذه المرحلة مرحلة غاية فى الأهمية ، لأنها شهدت وحققت النضج الحقيقى من خلال ترسيخ بنية الجغرافية العلمية ، التى عرفت طريقها الى أهدافها السوية • وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى قد انكب فى هذه المرحلة على استنفار علمية وموضوعية العمل الجغرافى ، وعلى انجاز المنهجية التى تخدم هذا الترسيخ • ومعناه أيضا أنه من بعد أن فرغ الاجتهاد الجغرافى فى المرحلة الماضية من وضع قواعد الشكل العام لعلم الجغرافية ، كان من الضرورى أن يتحمل الاجتهاد الجغرافى فى هذه المرحلة مسئولية رفع هذه القواعد وتأكيد الترسيخ ، وانجاز التركيب الهيكلى لبنية علم الجغرافية السوية • ولقد استغرقت هذه المرحلة المهمة ، التى حفلت بهذا الاهتمام والاجتهاد الموضوعى ، القرن التاسع عشر كله وفجر القرن العشرين •

وفى هذه المرحلة ، تولى الاجتهاد الجغرافى الألمانى مسئوليته البناءة منفردا لبعض الوقت • وأنجبت المدرسة الجغرافية الألمانية التى نشأت فى أحضان العمل الأكاديمى الجامعى نفرا من أعلام الفكر الجغرافى والجغرافيين الذين تعتز بهم مسيرة الفكر الجغرافى الحديث • ثم توالى مولد بعض المدارس الجغرافية فى وقت متأخر من هذه المرحلة لكى تشترك بدورها فى المسئولية • ولقد تولى هذا النفر المرموق من المفكرين العلميين الجغرافيين مهمة اثارة الجدل واستنفار النقاش الموضوعى ، لكى يجنى الفكر الجغرافى الحديث ثمرات هذه الموضوعية العلمية من ناحية ، ولكى يتأتى النضج الحقيقى الذى رسخ قواعد علم الجغرافية ، وبلور أو جسد أهدافه من ناحية أخرى ، لحساب الانسان •

هذا ولم يكن غريبا – بالفعل – أن يتأتى هذا الاجتهاد الجغرافى ، وأن يثمر اثمارا جيدا ، فى أحضان دول أوروبية وغير أوروبية فى القرن التاسع عشر • وسواء عاش ونما وأثمر هذا الاجتهاد ، فى كنف الرجال المحترفين الذين انكبوا على العمل الأكاديمى فى الجامعات ، أو فى كنف

الرجال الهواة الذين استهوتهم الجغرافية ورؤيتها الموضوعية فانه قد أعطى قوة الدفع لترسيخ التركيب الهيكلي لبنية الجغرافية العلمية • ومن الجائز أن هيأت الجامعات المناخ الأنسب للاجتهاد الجغرافي لكى يؤدى مهمته • ولكن المؤكد أن الجمعيات الجغرافية التى جمعت وحفزت الهواة قد هيأت بدورها لهذا الفريق الفرص لكى يقدم اسهامه فى هذه المهمة •

وفى نفس هذا الوقت الذى انكب فيه الاجتهاد الجغرافى المحترف والهادف على أداء المهمة ، وإنجاز الترسيخ ، انبرى الاستعمار الأوروبى الذى غزا مساحات كبيرة من العالم وفرض وجوده فى أشكال مختلفة ، والى استقطاب الفكر الجغرافى الحديث المتفتح والخبرة الجغرافية العلمية الى صفه • ومن الجائز أن الفكر الجغرافى وعلم الجغرافية كانا ضحية الاغراء المادى لبعض الوقت • ومن الجائز أن مطاوعة الاستعمار وأهدافه فى المستعمرات قد أهدر الاجتهاد الجغرافى وصرفه عن مهمة ترسيخ بنية الجغرافية العلمية لبعض الوقت • ولكن المؤكد أن مهمة الاستعمار التى حققت أقصى درجات الانفتاح على العالم ، قد أغرب الاجتهاد الجغرافى وأفادته ، وهو يتنطع من خلال هذا الانفتاح على الرؤية الجغرافية المركزة على أوسع مدى ، لحساب الرصيد الجغرافى(١) •

وصحيح أن الاستعمار الأوروبى ، قد قدم دعمه للاجتهاد الجغرافى ولم يبخل عليه اطلاقا ، وهو يؤدى دوره الوظيفى ، فى صياغة الرؤية الجغرافية ، التى بصرت ورشدت خطوات هذا الاستعمار ، ومكنت له فى السيطرة على الأرض والناس فى المستعمرات(٢) • ولكن الصحيح أيضا أن الاستعمار

---

(١) تمثل الوجود الاستعمارى فى القرن التاسع عشر فى ثلاثة أشكال ، هى الاستعمار الاستيطانى ، والاستعمار الاستراتيجى والاستعمار الاستغلالى • وبصرف النظر عن الاختلاف الجوهرى فى هدف كل شكل من هذه الأشكال ، فلقد اتفقت جميعها على حيازة الأرض ، وتطلعت الى كل ما من شأنه أن يؤكد هذه الحيازة ويدعم السيطرة والتسلط • وكانت اللهفة على معرفة الواقع الجغرافى الكاشف عن الأرض وعن الناس على هذه الأرض ، متوقعة لتأكيد الوجود الاستعمارى فى هذه المستعمرات •

(٢) قدم الاجتهاد الجغرافى هذه الرؤية اسهاما منه فى دعم الاستعمار فى معالجة جغرافية نطلق عليها الجغرافية الاستعمارية • وهذه المعالجة شكل من أشكال الكتابة الجغرافية التى لا ينبغى أن ندخلها فى بنية الجغرافية السياسية • بل انها لا يمكن أن تمثل مرحلة أولية من مراحل نشأة وتكوين هذا التخصص الجغرافى الدقيق • وفى اعتقادى انها صورة من صور الجغرافية الوصفية العامة فى طار اقليمى ، وانها هادفة وهى تجاوب حاجة المرحلة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر الميلادى •

قد أحسن استثمار حصاد الاجتهاد الجغرافى الى أبعد الحدود ، وبنى وجوده وأداء دوره السياسى والاقتصادى على أكتاف العلم الجغرافى ، والعمل الجغرافى النشيط الكاشف عن الواقع الطبيعى والواقع البشرى فى هذه المستعمرات. وهذا معناه انتفاع متبادل ، ومصلحة مشتركة ، قد جمعت بين الاستعمار والامبريالية العالمية والفكر الجغرافى وعلم الجغرافية ، فى مواجهة هدف واحد ، يخدم الأغراض السياسية والاقتصادية والعلمية فى وقت واحد .

ولقد تجلى هذا الدعم المتبادل ، بين الاستعمار والجغرافية ، لحساب المصلحة المشتركة ، من خلال انشاء وتمويل وتنشيط العمل الجغرافى فى أحضان الجمعيات الجغرافية التى انضم اليها بعض غلاة الاستعماريين . وما من شك فى أن معظم الجمعيات الجغرافية ، التى تبنت الاجتهاد الجغرافى ، قد ازدهرت فى كنف الدول الأوروبية التى انغمست فى حلبة المنافسات والصراعات على حيازة المستعمرات فى افريقية على وجه الخصوص. وقد تولت هذه الجمعيات الجغرافية - بكل الاهتمام والجدية - مهمة تنشيط البحوث الجغرافية العلمية على صعيد المستعمرات . وتكفلت دائما بتمويل هذه البحوث وتوجيهها بقدر ما تحملت مسئولية نشرها والعمل بموجب نتائجها فى المستعمرات .

وهكذا حظى الاجتهاد الجغرافى بكل الاهتمام والرعاية ، فى كنف الأكاديمية العلمية الملتزمة بمنهجية البحث وتأصله ، وفى كنف الجمعيات الجغرافية الملتزمة بالانتفاع العملى بهذا البحث المنهجى . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى قد سار فى خطين متوازيين فى وقت واحد ، وانتفع برعاية مركزة ، وهو يسجل ثمراته لحساب علم الجغرافية ودوره الوظيفى . وربما نشأ شكل من أشكال التعاون وقنوات الاتصال ، بين العمل الجغرافى النظرى فى الحقل الأكاديمى ، والعمل الجغرافى التجريبى فى الحقل الاستعمارى . ولقد أسفر هذا التعاون عن تعاظم الاهتمام بالفكر الجغرافى الحديث وعلم الجغرافية بصفة عامة .

وقبل أن نتبين كيف تعاظم الاهتمام بالجغرافية ، وكيف أفلح هذا الاهتمام عمليا ، فى استنفار النقاش الموضوعى ، الذى أسفر عن ترسيخ البنية العلمية للجغرافية وتصنيف فروعها وتحديد الابعاد الأساسية التى كفلت وبلورت هذا التصنيف ، ينبغى أن نستعرض اجتهاد بعض المفكرين الجغرافيين الذين واضعوا علامات بارزة ، رشدت الاتجاهات الحديثة فى الجغرافية . بل قد نتبين كيف أسهمت هذه الزمرة المرموقة ، فى وضع

أساس بعض فروع علم الجغرافية • ومن ثم ندرك مدى النجاح أو التوفيق الذى حققته هذه الريادة فى قيادة مسيرة الفكر الجغرافى الحديث فى الاتجاه الصحيح ، وفى ترسيخ التركيب الهيكلى للبنية العلمية الجغرافية •

وصحيح أن كل هؤلاء المفكرين الأعلام من أمثال كارل ريتر واسكندر همبولت وفريدريك راتزل ، من أبناء المدرسة الجغرافية الألمانية التى عاشت فى أحضان العمل الأكاديمى ، وتبنت الفكر الجغرافى الحديث على مدى عدد من القرون ، وفجرت الاهتمام بعلم الجغرافية وتطويره • ولكن الصحيح أيضا أن دور هذه المدرسة العلمية كان دورا رائدا وبناء ، عندما نتصور جدوى هذا الدور البناء ، فى انسلاخ الفكر الجغرافى عن الفكر التاريخى ، وفى وضع اهتمامات الفكر الجغرافى فى القوالب العلمية والمضامين الموضوعية الهادفة • بل هى — بكل تأكيد — المدرسة العلمية المسئولة عن اثارة أهم القضايا الفكرية الجغرافية ، وتوجيه واستنفار الجدل العلمى الرشيد ، وصولا الى حد ارساء وترسيخ قواعد علم الجغرافية الحديثة وتطويرها لحساب الانسان ، وسيادته وسيطرته على زمام مصيره فى الأرض • ولعل من حق هذه المدرسة الجغرافية الألمانية التى تولت هذه المسئولية على مدى طويل وسبق وجودها المدارس الجغرافية الأخرى أن تزهو باجتهاد تلك الصفوة المرموقة من أبنائها الجغرافيين •

— — — — — — — — — —

وكارل ريتر(١) ، علم من أعلام المدرسة الجغرافية الألمانية ، وواحد من ألمع المفكرين الجغرافيين المرموقين فى القرن التاسع عشر الميلادى • ولقد أحدث اجتهاد ريتر الجغرافى العلمى وفكره الرشيد ، ضجة علمية كبرى بين أوساط الجغرافيين فى عصره ، عندما اعتصر فكره ونشر بعض كتبه الجغرافية ، التى كشفت عن ثمرات هذا الفكر المتفتح •

وصحيح أن اسهام كارل ريتر كان اسهاما مباشرا ، فى صقل وتحسين أداء الاجتهاد الجغرافى ، الذى أمسك بزمام الفكر الجغرافى الحديث ، وتولى

---

(١) تعشق كارل رتير الجغرافية فى عز صباه المبكر • ولقد عكف على دراسة واستيعاب الفكر الجغرافى دراسة عميقة • وأسفر اجتهاده الموفق علميا عن العمل فى الحقل الاكاديمى ، حيث شغل وظيفة أستاذ الجغرافية فى جامعة برلين •

ريادة مسيرته الجادة المتوثبة • ولكن المؤكد أن هـذا الاسهام قد أسفر عن اضـافة لبنات سوية فى البنـاء الجغرافى العلمى • وربمـا كان أهم وجه من وجوه الابداع فى هذه الاضافة السوية ، أنها كانت مؤثرة وفعـالة ، من حيث الشكل ومن حيث الهدف فى وقت واحد •

ومن الجائز أن نتبين كيف انساق اجتهاد كارل ريتر الجغرافى ، بكامل ارادته ، فى اتجاهات غلفت فكره أو كسته ببعض الغموض وعدم وضـوح الرؤية من وجهة النظر العلمية ، ولكن المؤكد أن هذا الغموض لم يكن وليـد الجهل أو التخبط فى ماهية الفكرة المعنية • وفى اعتقاد أى جغرافى منصف لدى تقويم أعمال كارل ريتر أن هـذا الغموض وليد ارادة التطور وعـدم الجمود ، ورفض التشبث برأى واحد لا يعدل عنه أو لا يفرط فيه •

وهكذا ، ينبغى أن نتصور كيف اتخـذ كارل ريتر من المرونة سبيلا من أهم سبل التجـديد أو التجويد فى أدائه • بل لعله لم يصل الى شـكل نهائى معين يجسد رؤيته الجغرافية ويجمد فكره المتفتح ، ويحوله الى مدافع شرس يدافع بعناد الجمود عن مغزاه ومرماه • وهذا الاجتهاد الجغرافى المرن ، ليس علامة على التردد أو القلق الفكرى أو العلمى ، بقدر ما هو دليل لا يضل ولا يضلل على نزعة الانطلاق الحر عنـد ريتر ، وصولا من خـلال التفتح والانفتاح والمرونة ، الى الاتجاه الأفضل المجدد •

وأول ما ينبغى أن نستشعره من خـلال متـابعة أعمـال كارل ريتر الجغرافية وقرآة فكره الخاص ، وتصور ما يكمن وراء هذا الفكر الذى تفرغ للعمل الجغرافى العلمى البناء ، هو رفضه الحقيقى واستنكاره فكرة الجغرافية البحتة شكلا وموضوعا • ولقد أكد على التملص من أفق هذه الفكرة الضيق ومن التزامها المتزمت • كما اعترض ريتر اعتراضـا جريئـا على الاستغراق فى التوصيف الجغرافى ، وهو يصـور الرؤية الجغرافية الشاملة ورفضه • وربمـا اعتبر ذلـك التوصيف أعجز من أن يسعف الغـاية التى تنشدها الدراسة الجغرافية العلمية •

ولقد اتجه كارل ريتر - بكل الاهتمام - الى ترسيخ فكرة جديدة ، قوامها العرض الجغرافى الشامل ، الذى يحمل بين جوانبه الاهتمام المتوازن موضوعيا بالمظاهر الطبيعية والمظاهر البشرية فى وقت واحد • وفى هـذا العرض لا يجب أن يكون التوصيف الجغرافى أكثر من سبيل يشفعه التفسير والتعـليل ويبصر بالعـلاقات التى ينبغى أن يتلمسهـا ويتداركها البحث الجغرافى الموضوعى •

وكان ذلك الاتجاه الذى أسفر عنه فكر كارل ريتر الثاقب(١) ، - بكل تأكيد - من وراء اجتهاده الجغرافى الممتاز ، الذى ركز على عمق وأصولية العلاقة الحقيقية والواقعية بين الانسان والأرض ، وعلى جدوى التأثير المتبادل بينهما ، فى أى مكان يحتوى الحياة على الأرض . ولعله قد أفلح الى حد بعيد ، عندما صور كيف ينبغى أن يكون البحث الجغرافى الموضوعى بحثا هادفا ، لحساب الانسان . بل ومن خلال استشعار ذكى ، ينبغى أن يدرك الجغرافى وضع الانسان وأن يوفق فى تصور مكانته وقدراته على الأرض .

وهذا معناه أن جعل كارل ريتر من الانسان ومصلحته فى الأرض أو من الظاهرة التى تعبر عن وجود الانسان وتسيده على الأرض ، نقطة بداية ، تبدأ من عندها دراسة الأرض دراسة موضوعية . وقد تكون فى بعض الأحيان محور تحرك يفضى الى أبعاد وموضوعية وعمق البحث الجغرافى . وفى كل حالة ، يجب أن تتجاوز الدراسة الوصف والتصوير الكاشف للرؤية الجغرافية ، تجاوزا كليا الى التفسير والتعليل المعبر عن مدى ديناميكية التفاعل الحياتى فى أحضان الأرض(٢) .

كما ينبغى أن ندرك أيضا ، من خلال متابعة انجازات كارل ريتر وأعماله الجغرافية ، وهو يؤدى مهمته الاكاديمية ، كيف أعترض اعتراضا موضوعيا على حتمية الفصل بين الجغرافية التى تنكب على دراسة المكان ، والتاريخ الذى يتابع حركة أحداث الحياة فى الزمان بين أحضان المكان فصلا حادا(٣) . وما من شك فى أنه لم يعترض عبثا على هذا الفصل القاطع

---

(١) كرس كارل ريتر حياته فى العمل الجغرافى . وكان معلما ومفكرا وكاتبا مؤلفا من طراز مثابر ممتاز . ولقد تولى ريتر قيادة وادارة معهد الجغرافية طول حياته العلمية والعملية . ومن خلال اجتهاده الجغرافى المكتبى ، أصدر ريتر أول كتاب جغرافى له عن أوروبا صوره جغرافية وتاريخية واحصائية فى سنة ١٨٠٤ . ثم أصدر كتاب علم الارض الذى كشف عن تفجر ريادته الفكرية فى ترسيخ علم الجغرافية فى سنة ١٨١٧ . أما كتابه عن آسيا فلقد أصدره فى السنة التالية مباشرة فى سنة ١٨١٨ .

(٢) فى كتاب علم الأرض ، حاول كارل ريتر أن يصل من خلال فكر جغرافى متفتح الى تصور حقيقى ومقنع ، يحدد مكان ومكانة علم الجغرافية . كما حاول أيضا ان يحدد بواقعية وموضوعية ، طبيعة علم الجغرافية وأهدافه .

(٣) تشبث كارل ريتر - وهذا حق - بواقعية العلاقة بين الانسان والبيئة الطبيعية التى تحتويه وتشهد تاريخه . وفى اعتقاده أن دراسة الأرض مقدمة تستهدف معرفة القوانين والسنن الحاكمة لحركة الحياة . ولذلك طالما ردد ريتر ، ينبغى أن نسأل الأرض عن قوانينها .

للعلاقة بينهما · بل لقد أسس هذا الاعتراض على ادراك موضوعي للحقيقة الواقعية التي تؤكد على كيف تؤثر الأرض في حياة الانسان ونبض وجوده ، وكيف يؤثر الانسان في الأرض لحساب حياته ونبض وجوده · وهذا معناه أن التأثير المتبادل بين الانســان والأرض ، يصنع الصلة بين المكان وحركة الأحداث في المكان ، ويشجب الفصل الحاد بينها ·

ومن الجائز أن تمادى كارل ريتر في معارضته لهذا الفصل الحاد بين الجغرافية والتــاريخ ، من خلال تفنيد آراء بعض المعاصرين من الجغرافيين الذين تشبثوا بحتمية هذا الفصل · ومن الجائز أيضا أنه قد بث في ثنايا هذا التفنيد منطقه ودليله وهدفه من الاعتراض على الفصل ، وكيف أن غاية الجغرافية التي تتولى معــالجة وتصوير المسرح الذي يشهد حــركة الأحداث ومسيرة التاريخ ، لا تبرر حتمية الفصل ولا تنتفع به · ولكن المؤكد أنه لم يكن من بين أهداف هذا الاعتراض تصعيد الحملة الى حد يعيد التلاحم بين الجغرافية والتاريخ ·

ولعل كارل ريتر قد اكتفى بأن جسد اعتراضه ، واستخلص من ورائه غاية من أهم غايات البحث الجغرافي · ولقــد تمثلت هذه الغاية ، في دعوة مفتوحة الى دراسة المكان دراسة موضوعية تحدد أبعــاد الواقع الجغرافي ، وكيف يحتوى هذا الواقع حــركة الحيــاة ويؤثر على نبضها ، وكيف يتبنى تفاعل هذه الحركة ويؤمن مسيرتها في الزمان بين أحضــانه · ولا يمكن أن تسفر هذه الغاية ، عن أقل من صلة وعلاقة بين الجغرافية والتاريخ من غير تجاوز الفاصل الذي بنى على انسلاخهما في وقت سابق ·

وهكذا ينبغي أن ندرك كيف أطلق كارل ريتر عنــان غاية من غايات البحث الجغرافي الموضوعي ، وكيف طوعها من كونها غاية مجردة الى كونها غاية هادفة موجهة · وهذا معناه أن كارل ريتر قد حمل الجغرافية من خلال هذه الغاية الهــادفة الموجهة مسئولية صياغة الأرضية الموضوعية للبحث التاريخي الذي يتابع ويتدارس وقع خطوات الحيــاة في المكان من ناحية ، ومسئولية تجســيد دور العــامل الجغرافي الــذي يكمن مع غيره من العوامل - غير الجغرافية - من وراء وقع هذه الخطوات ونتائجها من ناحية أخرى ·

وتلك - في حد ذاتها - اضافة ابداع من حصــاد فكر واجتهاد كارل ريتر · وما من شك في أن هــــذه الاضافة قد فسرت ما يقال بشــأن دور الجغرافية الوظيفي ، وكيف أنه دور فعال ومفيد لأنه يرشد ويبصر التاريخ-

وهذا معنـــاه أن كارل ريتر قد طور اعتراضه على الفصـل بين الجغـرافية والتـاريخ بحصـافة شـديدة وأعطى البديل الممتـاز الذى أغنى عن اعادة الالتحام فيما بينهما ٠

ولقد تجلى هذا البديل الممتـاز فى قنوات اتصـال وعلاقات على نحو يصـور كيف ينبغى أن تكون الجغرافية من وراء التـاريخ تدعم موضوعيته وتفسر حركته ٠ وتطوير الاعتراض على هذا النحو ، علامة لا تضل ولا تضلل عندما نذكر أن كارل ريتر قد برهن على عدم التشبث برأى واحد لأنه لم يرض لأفكاره بالتجمد ٠ وهو ـ بكل تأكيد ـ قد برهن على تفوق شديد فى تطوير الفـكرة أو تطويعها ـ بذكاء ـ لكى يتجنب اعادة التـلاحم بين الجغرافية والتاريخ لأنه مرفوض ، ولكى يجنب الجغرافية والتاريخ سوءات القطيعة والانفصال لأنه مطلوب ، فى وقت واحد ٠ بل لقد أسفر ذلك الانجاز الجيد عن هـدف جديد تحملت مسئوليته الجغرافية العـلمية ودورها الوظيفى ، لحساب الانسان ٠

أما عن الطريقة التى أخذ بها كارل ريتر ، واحتوت وجسدت اجتهاده الجغرافى الجيد ، فقد تمثلت فى اتبـاع خطوات وأساليب ومنطق وواقعية المنهج التجريبى ٠ وهو لم يعتمد أبدا ، على جمع وتبويب وسرد الحقـائق الجغرافية ٠ كمـا أنه لم يلجأ الى التوصيف وحـده لكى يعبر عن الرؤية الجغرافية ٠ بل لقد تطلع كارل ريتر بفـكره وتأمله واجتهاده دائمـا ، الى استخلاص القواعد واستنباط السنن الحاكمة للظاهرات المعنية على الأرض ، استنباطا رشده ، وهو يجسد ويعمق هذه الرؤية الجغرافية ٠

ومثل هذا الاتجاه الذى اعتمد فيه ريتر على المنهجية الموضوعية ، علامة على أنه سخر التفكير الجغرافى تسخيرا مفيدا ، لحساب التفسير الذى يعلل ويتلمس العوامل من وراء الظاهرة الجغرافية المعنية ٠ كما أنه علامة أيضا ، على تقصى العلاقات السببية بكل الالحاح[١] ، وعلى رفض واستنكار استغراق البحث الجغرافى فى التوصيف المجرد بكل التأكيد ٠

---

(١) اعتنق كارل ريتر وتشبث بالنظرية الغائية ، التى قالت أن الكون قد خلق لغاية ، وانه لم يكن فى الصورة التى هو عليها عبثا ٠ وكانت هذه الغائية التى اقتنع بها ريتر ـ بكل تأكيد ـ من وراء استشعار جدوى البحث عن السبب أو الأسباب الكاشفة لهذه الغاية المطلقة ٠ والتى أراد بها الخالق للكون ، وما يحتويه أن يكون ٠ وهذا ـ فى حد ذاته ـ علامة على أن تقصى العلاقات السببية فى مجال دراسة الظاهرة الجغرافية كانت غاية بحث وتأمل وتفكير كارل ريتر الجغرافى ٠

وقمة ما توصل اليه اجتهاد كارل ريتر ، وفكر الجغرافى المتألق فى أدائه الأكاديمى ، هو البحث الجغرافى الأصولى الذى جسد فيه الشخصية الجغرافية الاقليمية • وما من شك فى أنه قد كد واجتهد ، لكى يتقصى العوامل الجغرافية التى تسهم أو تشترك فى تحديد ملامح ومميزات هذه الشخصية الجغرافية المتفردة • وهذا - بكل المقاييس - انجاز جديد وابداع مجدد فى العمل الجغرافى الموضوعى • بل انه قد أضاف - بالفعل - اضافة جديدة الى أهداف وغايات العمل الجغرافى ، ينبغى أن تلفت النظر • بل وكيف لا تلفت النظر وهو قد استشعر معنى وماهية الشخصية الجغرافية الاقليمية ، وكيف تتباين الرؤية الجغرافية فيها عن الرؤية الجغرافية فى غيرها •

وهكذا فطن كارل ريتر - بثاقب فكره - الى أن التقسيم الاقليمى الواقعى ، انما هو وليد استشعار كنه وماهية وفاعلية وجدوى تأثير كل العوامل التى تشترك مجتمعة ، فى صياغة وتشكيل شخصية الاقليم وتفرده جغرافيا • وفى اعتقاد كارل ريتر أن العوامل الطبيعية التى تضفى على الاقليم صفاته وتكسبه تفرده الجغرافى ، هى بعينها العوامل التى تشترك فى تجسيد الشخصية الجغرافية الاقليمية المتميزة من اقليم الى اقليم آخر • وهو بذلك قد أغفل دور الانسان ، ولم يعتد به أصلا - وهذا ما نأخذه عليه ونعترض على الانسياق فيه - فى صياغة أو تجسيد هذه الشخصية الجغرافية الاقليمية •

وهكذا كان اجتهاد كارل ريتر على المستوى الأكاديمى ، اجتهادا جيدا ومجددا • بل وكان معين فكره الجغرافى معينا غنيا بالاثارة والتألق • ولقد برهن - بكل الثقة - عن رغبة ملحة فى الابداع والاضافة الى الرصيد الجغرافى • ومن الطبيعى أن ندرك كيف أسعفه هذا الاجتهاد وهو يعكف على تجديد وترسيخ حيوية الجغرافية ، وعلى دعم سبيلها وأهدافها العلمية• ومن الطبيعى أيضا أن نطرى ريادته ، وأخذه بزمام مسيرة الفكر الجغرافى فى عصره ولكن المؤكد أن عقليته الجغرافية المتفتحة ، قد رفضت وتنكرت واستنكرت بعض ثمرات الاجتهاد الجغرافى السابق فى القرن الثامن عشر الميلادى • ومن ثم اعتصر خبرته ومهارته الجغرافية وأعطى البديل الأجود ، وعدل بعض أوضاع ما لم يقبله فى العمل الجغرافى العلمى من حيث الشكل ، ومن حيث المضمون •

وفى اعتقاد الجغرافيين المنصفين من أبناء القرن العشرين ، أن كارل

ريتر قد شرف قدره العلمى الأكاديمى بأبوة مسـئولة ، تحملت بكفاءة واخلاص أمانة الفكر الجغرافى الحديث ، وتبنت بصدق واقتدار مسئولية ارساء قواعد الجغرافية الحديثة فى طابعها التقليدى • ولقد بنى وأسس هذه الأبوة ، على منطق يدين للبحث التجريبى والأسلوب المقارن ، فى صياغة اجتهاده وتجسيد فكره الجغرافى تجسيدا علميـا • ومن ثم فتح كارل ريتر الأبواب ، لكى تلج منها الاجتهادات الجغرافية الحديثة ، ولكى تؤدى دورها الوظيفى التخصصى الصحيح •

وهكذا ركز كارل ريتر كل اجتهاده فى حقل البحث الجغرافى تركيزا موضوعيا هادفا ، من خلال حسن استخدام المنطق الحاكم لأبعـاد الرؤية الجغرافية ، وتدارك ما ينبغى أن تنبىء به • بمعنى أنه لم يوقف اجتهـاده الجغرافى عند حد توزيع الظاهرة المعنية ومدى انتشارها ، وتصوير رؤيته لها بالوصف • بل لقد انكب على تلمس التعليل الذى يفسر هـذا التوزيع والانتشـار ويبرره فى اطار جملة العوامل الحاكمة • هـذا بالاضافة الى استخلاص العلاقة أو العلاقات التى تربط بين هذه الظاهرة المعنية والظاهرات الأخرى • وهـذا معناه أن ريتر قد قبل بما توصل اليه الاجتهاد الجغرافى من قبل ، سبيلا لدرسة تحليلية وتركيبية فى وقت واحد ، تعرض الرؤية الجغرافية وتجسدها فى أحسن تصور جغرافى علمى معبر عنها •

وبصرف النظر عن تألق دور كارل ريتر النباء ، وهو يكد فكره الجغرافى ويعتصره ، فى ترسيخ بنية علم الجغرافية ، فى تأصيل نتـائج أبحـاثه المثمرة ، من خلال التوزيع والتعقل والربط الذى يجسد الرؤية الجغرافية ، ينبغى أن نذكر كيف أفلح حقيقة ، فى اضافة لبنة جديدة الى أساس أو الى قاعـدة الدراسة الجغرافية الاقليمية • ولقد حددت هـذه الاضافة أقصى ما يمكن أن تصبو اليه الجغرافية فى المجال الاقليمى • كما ينبغى أن نثنى على اجتهاد ريتر الجغرافى الذى وضع الجغرافية فى تركيبها الهيكلى العلمى ، ورشد بحثها وغاياتها الى الأسلوب المنهجى السليم •

وقد نضيف الى ذلك كله الاشادة بفضل كارل ريتر ، وهو يبث فى العمل وفى التفـكير وفى الانجـاز الجغرافى روح ومنطق التجـديد والتطويـر ، أو وهو يضع القاعدة التى حددت مكان ومكانة الجغرافية بين زمرة العـلوم الطبيعية وزمرة العلوم الانسانية • كما نطرى اهتمامه بتنمية قدرات العمل الجغرافى من خلال الأسلوب التركيبى التحليلى الكاشف عن أبعـاد الرؤية الجغرافية وتجسيدها •

- - - - - - - - - -

واسكندر فون همبولت ، علم آخر من ألمع أعلام المدرسة الجغرافية الألمانية في القرن التاسع عشر الميلادي • وهو — من غير شك — واحد من أصحاب الاجتهاد الفكري الجغرافي ، الذين انكبوا على ترسيخ التركيب الهيكلي للبنية العلمية الجغرافية • ولقد عكف همبولت على أداء هذا الدور الحيوي البناء ، بعد أن أشبعته الرحلة وحفزت واستنفرت حسه الجغرافي ، لكي يتفوق حلاوة الرؤية الجغرافية ، والتدبر في كنهها وماهيتها •

ويبدو أن اهتمام همبولت المبكر بدراسات متنوعة من بينها النبات والطبيعة والكيمياء والتشريح والجيولوجيا والتاريخ ، قد أكسبه خبرات متعددة وأثرى جعبته العلمية ، قبل أن يتحول الى الفكر الجغرافي الحديث ، ويحترف العمل الجغرافي العلمي(١) • وفي اعتقادي أن حصاد ونتائج هذه الدراسات المتنوعة قد أثرت خلفيته العلمية والثقافية اثراء أسعف ودعم اجتهاده الجغرافي ، عندما سجل اضافاته المجددة المفيدة في مجالات الفكر الجغرافي المتنوعة ، أو عندما انبرى لترسيخ علم الجغرافية ترسيخا كاشفا لمغزاه ومرماه •

ومن الجائز أن ندرك مدى المام همبولت بفلسفة وفكر كانت ، وكيف التزم ببعض آرائه العلمية الجغرافية الرائدة • ومن الجائز أن نتصور أيضا مدى انتفاع همبولت بثمرات فكر كانت الجغرافي ، وكيف سخر اجتهاده الفكري لحساب عمله الجغرافي • ولكن الذي لا نشك فيه أن اجتهاد همبولت الجغرافي ، كانت اجتهادا بناء ، وهو يطور ويطوع ويضيف الى الفكر الجغرافي اضافات مجددة • وهذا معناه أنه استوعب حصاد كانت ليس لأنه كان مبهورا به ، بل لكي يتحسس مواضع الاضافة اليه والزيادة عليه(٢) •

وربما اعتمد همبولت في أداء هذه المهمة الموضوعية ، التي أسفرت عن التجديد ، على الرؤية الجغرافية الكلية • ويبدو أن هذه الرؤية الجغرافية

---

(١) في اعتقاد الجغرافيين الذين نهلوا من معين فكر واجتهاد همبولت الجغرافي ، أن مشاهداته ورؤيته الجغرافية الفضفاضة ، التي جمع أوصالها في أثناء رحلات كثيرة ، قد رشدت واستنفرت حسه الجغرافي الذي بصر فكره الجغرافي الخاص ، وهو يحترف العمل الجغرافي العلمي •

(٢) هناك من يتصور أن تمحيص الظاهرات التي تضمنتها الرؤية الجغرافية قد استقطبت اهتمام همبولت وشكلت فكرة الجغرافي • وما من شك في أن هذا الاهتمام قد وجه اجتهاده الجغرافي العلمي في الوجهة التي جعلت منه جغرافيا مجددا •

التى استقطبت اهتمام همبولت ، قد فجرت حسه الجغرافى وشحذت ادراكه المتفتح • ولقد تعالت صيحات هذا الحس الجغرافى ، فى ضمير وفكر همبولت ، وكأنها تدعوه – بكل الالحاح – لاعتصار خبراته المكتسبة العلمية ورصيده العلمى ، ولاستثمار حصاد رحلاته ورؤيته الجغرافية ، فى صياغة وتشكيل فكره الجغرافى ، وفى اقتحام مجالات الاحتراف العلمى الجغرافى(١) •

ومن الجائز أن أسفر اجتهاد همبولت الجغرافى عن تنمية ودفع المسيرة الفكر الجغرافية دفعا فى سبيلها التقليدى • ولكن المؤكد أنه استطاع أن يضع بعض علامات بارزة ، ترشد الاجتهاد الجغرافى السائد ، وهو ينصب فى القوالب الفكرية • بل لقد أسفر اجتهاده علميا عن ارساء بعض القواعد والأسس التى جسدت اسهامه فى ترسيخ علم الجغرافية وبلورة أهدافه ، لحساب الانسان ومصلحة حياته فى الأرض • ورغم استيعاب فكر كانت واطلاعه على فكر ريتر تتبين أن همبولت لم يفقد ذاته ومقومات فكره الخاص ، ولم ينساق الى حد يطمس ذاتية الاجتهاد الذى فجر فكره الجغرافى ، أو الذى بنى عليه احترافه العلمى الجغرافى •

هذا ، ومن خلال ادراك جغرافى مستنير كاشف لمفهوم وحدة الطبيعة ، أكد همبولت تأكيدا حاسما على أهمية الجغرافية الطبيعية ، على وجه الخصوص • ولقد تبين له كيف أنها تتولى مهمة تجسيد معنى وماهيه هذه الوحدة ، والقاء الأضواء على أبعادها الحقيقية • ومن ثم كرس اهتمامه ودراساته واجتهاده فى المعالجة الجغرافية الطبيعية ، وفى تحليل رؤيته الجغرافية للمكان •

ولكى يقيم همبولت رؤيته الكاشفة جغرافيا لمفهوم وحدة الطبيعة ، وكيف أنها تكمن وراء التجانس البديع فى الكون وفى الخلق الذى يحتويه ، انبرى – بذكاء – لتحرى الروابط التى تفرض أبعاد العلاقة أو العلاقات بين الأرض من ناحية ، والحياة على الأرض من ناحية أخرى • وكان همبولت عندئذ مقتنعا – بكل تأكيد – اقتناعا من غير حدود بأهمية الاجتهاد الجغرافى ، وهو ينكب على تجسيد هذه الروابط أو على تصور هذه العلاقات ،

---

(١) وضع همبولت كل خبراته العلمية فى المجالات المتنوعة فى ظهير اجتهاده الجغرافى ، على أمل أن تشد أزره وتسعف انجازه الجغرافى المجدد •

تأسيسا على استشعار جملة العناصر ، التى تدخل أو تتداخل فى تركيب الأرض ، وفى تكوين الوجود الحيوى على الأرض ٠

وعندما سلك همبولت مسلك كارل ريتر ، وسار فى درب الاتجاه الفكرى ، الذى ركز على جدية وجدوى الطريقة التجريبية فى ميدان العمل الجغرافى العلمى ، كان حريصا - بكل تأكيد - على أن يجلو من خلال التجربة والمنطق التجريبى ، السبب أو الأسباب التى تفسر الظاهرة الجغرافية المعنية موضع الدراسة والبحث ٠ كما تشبث همبولت تشبثا موضوعيا بالمقارنة والبحث المقارن ، فى مجال البحث الجغرافى العلمى ٠ ولقد استهدف من خلال ذلك السبيل السوى من أجل تعميق البحث الجغرافى تعميقا علميا ، وهو يستخلص أو يتبين ملامح وسمات الشخصية الجغرافية الذاتية للمكان ٠

ومن خلال دراسة الظاهرة المناخية ، أضاف همبولت - بكل تأكيد - اضافة ابداع وتجديد مفيد الى الجغرافية ٠ ولقد تمثلت فى رسم خطوط الحرارة المتساوية لأول مرة ٠ وهذا - من غير شك - ابتكار حقيقى ومدخل أنسب لدراسة المناخ ٠ بل انه فى اعتقاد الجغرافيين ، اجتهاد ممتاز لأنه أسفر عن نقطة تحول هامة ومثيرة فى موضوعية الدراسة الجغرافية المناخية ٠ وكانت نقطة التحول من وراء ثورة حقيقية فجرت التغيير على صعيد البحث الجغرافى ٠ ولقد نفض الجغرافيون من بعدها أيديهم من الاعتماد على الفكرة اليونانية العتيقة ، فى تقسيم العالم الى أقاليم مناخية ٠ وهذا معناه أن خطوط الحرارة المتساوية ، كانت سبيلا أفضل لتقسيم العالم الى أقاليم حرارية أولا ، والى أقاليم مناخية ثانيا ٠

وفى الأطلس الجغرافى المنشور فى الفترة من سنة ١٨١٤ الى سنة ١٨١٩ ، وضع همبولت قاعدة ابداع واضافة مفيدة أخرى ٠ ولقد تمثلت هذه المرة فى مجموعة من الخرائط الجيدة ، التى احتوت على أسس تقسيم المناطق التى ارتادها ، الى أقاليم نباتية طبيعية ٠ وبصرف النظر عن أبعاد وقيمة هذه الاضافة جغرافيا ، ينبغى أن ندرك كيف اهتم همبولت بصناعة الخرائط ٠ وما من شك فى أنه قد تحمل مسئولية تصعيد الاجتهاد الذى انكب على تجهيز الخرائط ، لحساب الوضوح والتعبير الكاشف للرؤية الجغرافية عن الظاهرة المعنية ٠ كما أضاف الى ذلك كله الاهتمام برسم القطاعات التضاريسية والجيولوجية ، على أمل أن تتيسر أبعاد الاجتهاد العلمى فى الدراسة الجغرافية المقارنة ٠

هـــذا ، وينبغى أن ندرك كيف كان الاتفـــاق بين همبـولت وريتر فى النظرة الجغرافية الكلية ، التى بلورت مسألة أو قضية وحدة الطبيعة ، اتفاقا مظهريا ، من حيث الشكل فقط • ومعنى ذلك - بالتأكيد - أن كان الاختلاف وعدم التوافق بين نظرة همبولت الكلية لوحـدة الطبيعة ونظـرة ريتر لها ، اختلافا جوهريا وموضوعيا ، من حيث المضمون • وهذا معنـــاه أن همبولت قد ســار فى خط فكرى مستقل وهو مؤمن بموضوعية وجدية رأيه الذى يؤسس عليه اجتهاده الجغرافى •

ويكفى أن نتبين ذلك الاستقلال الفكرى ، لكى ندرك كيف حرر همبولت فكره الجغرافى تحريرا حقيقيا ، ولم يساير تصور كارل ريتر تحرى مركزية الانسان فى الكون • وفى اعتقاد معظم الجغرافيين المنصفين أن تحرر فـكر همبولت واستقلال اجتهاده الجغرافى كان مطلوبا ومفيدا • ذلك أنه التحرر الذى هيـأ له فرص الابداع من ناحية ، وجنبه ترديد ما لم يقبله من الافكار الجغرافية من ناحية أخرى • ومن غير هذا التحرر ، ربما لم يكن فى مقدوره أن ينجح فى مهمة ترسيخ علم الجغرافية ، النجـــاح المرموق الذى تتيه به المدرسة الجغرافية الألمانية •

واجتهـــاد همبولت وأدائه الجغـــرافى العلمى كان جادا ومثمرا ، بقدر ما كان منطلقـــا ومتحررا ، ولـكن من غير أن ينحرف عن الاتجـاه الصحيح فى عصره ، أو من غير أن يشذ ويتردى فى الخطأ • ولعله لم يساير كارل ريتر ويجاريه دائما ، لأنه - على سبيل المثال - لم يكن فى مقدوره أن يقبل أو يوافق على نظرية ريتر الغائية ، فى مجال تصوير أو تجسيد نظرته للكون من قريب أو من بعيـــد • بل وربما لم يكن فى مقدور همبولت أيضـا أن يستوعب هذا المنطق الفلسفى المثالى الســائد آنذاك ، والذى بنور مفاهيم هذه الغائية •

ولقـد دعا ذلك البعض الى تصور أن اجتهاد همبولت وفكره الجغرافى بشــأن وحدة الطبيعة ، لا يرتـكز فى جذوره العميقة ، الى أى أرضية دينية ايمانية • وبصرف النظر عن الطعن فى عقيدة همبولت وايمانه بالله ، يمكن ان نتصور أن همبولت ربما كان أعجز من أن يدرك ، كيف أن وحدة الطبيعة تدبير الهى أراده الله وأبدعه ، لحساب الانسان ومصلحته فى الحيـــاة على الأرض • والا فكيف نفسر ما أكده همبولت أكثر من مرة ، وهو يصف الكون بأنه مملكة الله العليا • ومن الجائز أن رفض همبولت هـــذا الطعن الذى انطوى على كثير من التجنى • ولـكن المؤكد أن الاجتهاد العقلى الذى تلمس

الروابط بين الأرض والوجود الحيوى فيها ، وتصور مفهوم وحـدة الطبيعة المبنى على هذه الروابط ، لا ينبغى أن يؤخذ قرينة على أن همبولت قد أنكر ذات الله وكفر به ٠

والاختلاف بين همبولت وريتر فى بعض القضايا الفكرية ، لا يتعارض مع الاتفاق بينهما فى المنهجية العلمية ٠ ولقد تابع همبولت الدراسة الى حد تصور الرؤية الجغرافية وفقـا لأسلوب العصر ٠ ومع ذلك ينبغى أن ندرك أن الأخـذ بمنطق وأسلوب الدراسة المقـارنة أو البحث من خـلال التوزيع والتعليل والربط ، علامة على أن هبمولت قد رسـخ قواعد البحث المنهجى ولم يتمرد عليها ٠ بل ولا ينبغى أن نأخـــذ ذلك الالتزام على أنه من قبيل المحاكاة أو نرسم خطى ريتر ٠ بل لقـــد برهن همبولت واجتهاده الجغرافى المجدد على أنه كان متحررا تحررا حقيقيا ، وآن الالتزام بقـــاعدة لا يمكن أن يطعن فى تحرره أو فى الابداع والاضافة والتجديد الذى يسفر عنه هذا التحرر ٠

هذا ولا ينبغى أن نشك فى أن تحرر فكر همبولت الجغرافى ، هو الذى وجه اجتهـاده الجغرافى وتفـكيره المحـدد الى الدراسات والبحوث الأصولية بصفة خاصة ٠ وهذا معناه أن تفكيره فى هذا الاتجاه ، كان أبعد ما يكون عن اتجاه اجتهاد ريتر الى البحث والدراسة الجغرافية الاقليمية ٠ وما من شك فى أن تنوع واختلاف اتجـاه كل من ريتر وهمبولت كان مفيـــدا ومطلوبا لحســـاب العمل الجغرافى الموضوعى ٠ بل انه لا ينفى مســئولية أى منهما فى ارساء وترسيخ دعامات وقواعد الجغرافية الحديثة ٠ بل ربما كان التنوع مطلوبا ، لكى يتأتى الترسيخ على أوسع مدى ، وفى كل مجـالات البحوث الجغرافية ٠

والاختلاف والتناقض بين همبولت وريتر فى قضـــايا وأمور فكرية جوهرية ، والاتفاق والتوافق بينهما فى مبـــادىء وقواعد جغرافية ، كان من الممكن أن يمثل شيئا عاديا ٠ ولـكن المؤكد أنه أثار عاصفة من الجـدل الجغرافى العلمى ٠ ومن شأن هـــذا الجدل بين زمرة المجتهدين والعـاملين والمتخصصين فى حقل العمل الجغرافى دائما ، أن يكون منهجيـــا ، لحساب العلم وموضوعيته ٠ ومن شأنه أيضـــا أن يبلور بعض الأفكار ويجـــلوها ويرسخها ، أو أن يعصف ببعض الأفكار الأخرى ويطمسها ويصرف الاهتمام عنها ٠ بمعنى أنه جدل مفيد شريطة أن يكون موضوعيا وهادفا ، وأن يترفع عن التعصب كلية ٠ وبمعنى أنه جدل هادف لأنه يسفر فى نهاية المطاف عن

ترسيخ بعض القواعد والأسس الجغرافية الهامة · ولكن هل أدى الجدل الى هذه النتائج هذا هو السؤال ؟

ولقد اشترك فى معرفة هذا الجدل الفكرى الجغرافى نفر من المجتهدين الألمان المتحمسين لآراء همبولت نذكر منهم فروبل الذى فجر اشتراكه موجة الرفض العارم والاستنكار العاصف ببعض أفكار ريتر مثل فكرة الغائية · بل لقد استهجن فروبل فكرة البحث الشامل الكلى الذى يتخذ من التركيب والتحليل وسيلة للدراسة الاقليمية الجغرافية · وفى اعتقاد فروبل الذى انغمس فى التعصب أن اهتمام الدراسة الجغرافية ، ينبغى أن يقتصر أو أن ينكب على دراسة الجغرافية الطبيعية دراسة منهجية موضوعية · ولا بأس عنده فى أن تكون دراسة الأرض كوطن للانسان دراسة فلسفية فقط · أما أن تجتمع الدراسة المنهجية مع الدراسة الفلسفية فى أحضان علم واحد ، فهذا اجتماع صعب وغريب ، ويعترض عليه فروبل اعتراضا شديدا وصارما ·

واشترك فى معمعة هذا الجدل الفكرى الجغرافى نفر آخر من المجتهدين الألمان المتحمسين لآراء ريتر · ولقد تحمس هذا النفر لكارل ريتر وتعصب لآرائه وحاول تطويرها والترويج لها · وربما استهجن لود أسلوب ريتر ومفهومه عن الجغرافية المقارنة وأدخل تعديلات كثيرة عليها لكى يقومها · وربما سار وابوس فى نفس المسار الذى انتهجه لود تحمسا وتعصبا لأفكار كارل ريتر · ولكن المؤكد أنهما استغرقا فى التعصب استغراقا مخيفا · وتأثر آخرون بذلك التعصب وامتدحوا نظرة ريتر الى مركزية الانسان فى الكون · ولقد تمادى هؤلاء جميعا الى حد دعا الى جعل علم الأرض المقارن ، علما يقتصر على دراسة الانسان فى اطار علاقته بالبيئة الطبيعية ·

هذا ولا نشك فى أن الجدل الفكرى الجغرافى بين المتحمسين لآراء همبولت والمتحمسين لآراء ريتر ، قد أثرت الفكر الجغرافى الحديث · كما لا نشك فى أنه قد طور المعالجة الجغرافية · ولكن المؤكد أنه قد تصاعد تصاعدا أثار البلبلة والتشكك الى حد أشاع التخوف من أن يعصف هذا الجدل أو يهدر كل أو بعض التقدم الذى حققته مسيرة الفكر الجغرافى الجغرافية العلمية · ولولا أن تدارك بشل هذا الجدل المتعصب ، لتضررت الجغرافية تضررا كثيرا فى ذلك الوقت ·

وبشل المفكر الجغرافى الألمانى ، اقتحم ساحة هذه المعمعة الجدلية فى الوقت المناسب بالفعل · ولقد سخر اجتهاده الجغرافى لانتشال الجغرافية

من مغمعة الجدل الفكرى المحتدمة • ويعتقد أنه قد أفلح فى حسم الموقف وتدارك الجغرافية قبل أن تضل أو يضللها هـذا التعصب • وفى حوالى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى ، أصدر فارس هـذا الميدان كتابين هامين عن علم الجغرافية المقارن(١) • وهما ـ بكل تأكيد ـ اضافة مفيدة الى رصيد علم الجغرافية التى صورها بشل تصويرا واقعيا ، وبين كيف يمثل العلم التجريبى المنظم ، لأنه يعتمد على الملاحظة والمعاينة ، بقدر ما يعتمد على الاستنباط الذى تتبناه المعاينة وتفجره الملاحظة(٢) •

ويعتقد بعض الجغرافيين المنصفين أن بشل قد أنقذ الاجتهاد الجغرافى من التشتت والضياع ، وانتشل الجغرافية من سوء الفهم الذى تردى فيه الجدل المتعصب ، وهو يكرس النقد والسخرية من فكر ومنهج وآراء كارل ريتر • وهذا معناه أنه انتصر للجغرافية أكثر من أى شىء آخر وأنه لم يحاول أن ينتصر لريتر أو يتعصب له • وما من شك فى أن بشل قد أنصف عندما اتخذ هذا الموقف لأنه صحح أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى فى اتجاهها الصحيح ، قبل أن يسهم باجتهاده الحصيف فى ترسيخ علم الجغرافية على نحو يرتضيه الفكر الجغرافى الحديث الذى عرف أهدافه(٣) •

وبصرف النظر عن مدى النجاح الذى حققه بشل ، فى تخفيف حدة الجدل المتعصب ، وفى حسم القضية الجدلية لصالح علم الجغرافية ، وفى تعديل أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى فى الاتجاه السوى ، ينبغى أن نذكر كيف أنه أدى ـ من غير قصد ـ الى انحراف من نوع جديد • وكان من شأن هذا الانحراف أن هز الفكر الجغرافى هزة عنيفة وزلزل بنية علم الجغرافية • ولقد بنى ذلك الانحراف على الاهتمام والتركيز كلية على دراسة الجغرافية الطبيعية وحدها • بمعنى أنه وجه الاجتهاد الجغرافى الى دراسة الأرض ، وأعفاه من دراسة الانسان وحياة الانسان فى أحضان هذه الأرض •

---

(١) نشر بشل كتابا يعالج ماهية علم الجغرافية المقارن فى سنة ١٨٦٧ • ونشر كتابه الثانى الذى يعالج فيه مسائل حديثة فى علم الجغرافية المقارن سنة ١٨٧٠ •

(٢) وجه بشل الاهتمام الى الدراسة الميدانية على اعتبار انها تجمع أوصال الرؤية الجغرافية وانها تنشط استخدام الحس الجغرافى فى آداء مهمة البحث فى الميدان •

(٣) لم يتردى بشل فى الغائية التى انغمس فيها فكر كارل ريتر • ولقد اعتبرها شكلا من أشكال التهرب من تقصى الأسباب ، لحساب التفسير الجغرافى •

وهكذا فتح بشل - عن غير اقتناع شديد - الباب على مصراعيه من جديد ، لكي يعصف هذا التركيز باهتمام الاجتهاد الجغرافي بدراسة الظاهرات البشرية • والمؤكد أن بشل لم يكن مقتنعا اقتناعا فكريا حقيقيا بدراسة الانسان • بل لقد حض بالفعل على دراسة الأرض دراسة علمية جغرافية طبيعية فقط • وهذا معناه أنه قد اعترض بشكل غير مباشر على قاعدة جغرافية كانت قد أكدت على تقسيم الجغرافية الى شقين متكاملين ، شق طبيعي يهتم بدراسة الواقع الجغرافي الطبيعي ، وشق بشري يهتم بدراسة الواقع الجغرافي البشري •

وصحيح أن الاتجاه الذى ركز اهتمام الاجتهاد الجغرافي على الجغرافية الطبيعية قد تصاعد كثيرا • وصحيح أن هذا التصاعد لم يسفر في نهاية الأمر عن مساس يعصف - فعلا - بالتقسيم الموضوعي الذى ميز بين قسمين كبيرين هما الجغرافية الطبيعية التى تدرس الأرض ، والجغرافية البشرية التى تدرس الانسان في هذه الأرض • ولكن المؤكد أن دراسات بشل المنهجية الطبيعية قد هيأت للاجتهاد الجغرافي الذى قام به جغرافي آخر هو جيرلند أن يضل ويضلل العمل الجغرافي(١) •

ولقد تبنى جيرلند هذا التطرف وأغرق اجتهاده الجغرافي في الانحراف الذى فتح بشل الطريق اليه • وأعلن جيرلند صراحة عن استبعاد دراسة الانسان • وأصبح وكأنه يشن عدوانا حقيقيا على التركيب الهيكلي للبنية

---

(١) لقد برر جيرلند رأيه الهدام - في نظرنا - تبريرا غير مقبول • وجاء في هذا التبرير أن الجغرافية علم طبيعي من العلوم التى تستشعر كيف تمتثل الأرض ووجودها لقوانين ثابتة غير قابلة للتغيير ، على حين أن دراسة الانسان ونمط حياته على الأرض الذى لا يخضع لقوانين ثابتة أو منضبطة ، لا يمكن أن تكون ممكنة في اطار مهمة الاجتهاد الجغرافي • بمعنى أنه استنكر أن يجمع الاجتهاد الجغرافي في وقت واحد ، بين دراسة منضبطة تنظمها قوانين ثابتة ، ودراسة غير منضبطة وقابلة للتغيير • وفي رأيه أنه لو تولت علوم أخرى مهمة دراسة الانسان مثل الانثروبولوجيا والانثولوجيا لكان ذلك أوقع • ولا بأس أن تسعف الدراسة الجغرافية المنهجية المنضبطة تلك العلوم ، بكل الحقائق الجغرافية عن الارض ، التى تخدم اغراضها وتدعمها وتعينها في دراستها المنهجية • وفي اعتقاد أى جغرافي منصف ، أن جيرلند يغالط الناس ويغالط نفسه لأن الثبات وعدم التغيير الذى تلتزم به الجغرافية لدراسة الأرض ، لا يمكن أن تعترض أو تتعارض مع التغيير الذى تلتزم به الجغرافية لدراسة الناس في الأرض • بل أن التفاعل الحياتي بين الناس والارض طلبا واستجابة لمصلحة الحياة ، يفهمه ويدركه ويتدبر أمره التفكير الجغرافي في ضوء هذا البعد الثابت والبعد المتغير ، بل وتكون مظاهر التغيير في محصلة هذا التفاعل الحياتي التى تقوى مكانه ونمى تسيد الانسان على الأرض نتيجة حتمية لذلك •

الجغرافية العلمية • وهذا – من غير شك – تهديد ينبيء بخلل وعدم توازن ، كان من الممكن أن يصدع أو يهدم البناء الجغرافي من أساسه ، وأن يخرب ويهدر ويضيع مسيرة الفكر الجغرافي الحديث •

وهكذا حسم بشل شكلا متعصبا من الجدل الذى تخوف منه الفكر الجغرافى الحديث ، وأثار فى نفس الوقت انحرافا وزلزلة تدعو الى اهدار شق هام متداخل فى بنية الجغرافية وتركيبها الهيكلى العام • وكان المطلوب – عندئذ – والجغرافية فى مفترق الطرق وتكاد تضل ، أن تجد من يحسم هذا الموقف مرة أخرى ، وأن يقضى فى أمر هذا الانحراف الذى يتهدد كيان علم الجغرافية وبنائها الشامخ • ولقد ظهر بالفعل – فى ذلك الوقت – واحد من أبناء المدرسة الألمانية لكى يتولى هذه المهمة • وتحمل فريدريك راتزل المسئولية وسخر اجتهاده الجغرافى لآرائها • وما من شك فى أنه واجه هذا الانحراف وعمل على ابطال مفعوله ، لحساب الجغرافية وصيانة تركيبها العلمى الراسخ •

وفريدريك راتزل ، علم مرموق من أهم أعلام المدرسة الجغرافية الألمانية • بل هو – بكل تأكيد – جغرافى محترف من خيرة المفكرين المتازين ، الذين كرسوا اجتهادهم الجغرافى العلمى ، لترسيخ علم الجغرافية الحديثة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى • ومن الجائز أنه قد تأثر فى معظم الأحيان بنظرية النشوء والارتقاء التى فجرها دارون • ولكن المؤكد أنه أجزل العطاء للعمل الجغرافى العلمى ، وهو يكشف عن العلاقة بين الانسان والبيئة مسرح حياته ونشاطه •

هذا ويكفى فريدريك اتزل أنه قد تبنى مسئولية صياغة البناء العلمى الجغرافى ، عندما تولى مواجهة الانحراف الذى تسبب فيه بشل وروج له جيرلند وأثار بلبلة خطيرة هزت الجغرافية هزا عنيفا تهدد صرحها الشامخ • ولقد تمثل هذا الحسم فى موقف صريح وقفه راتزل ودعا فيه الى التأكيد على ضرورة الجمع بين فكر وعمل واجتهاد جغرافى يستغرق بحثا فى الرؤية الجغرافية الطبيعية على الأرض وهى تحتوى الانسان ، وفكر وعمل واجتهاد جغرافى يستغرق بحثا فى الرؤية الجغرافية البشرية التى تتأمل فى حياة الانسان ونشاطه على الأرض •

هذا ، ولقد أضاف راتزل الى الاجتهاد الذى أحبط انحراف بشل وجيرلند وغيرهم ، اجتهادا فكريا مستنيرا ثبت دعامات الجغرافية البشرية بشكل

قاطع · بل انه عندما وضع اجتهاده الجغرافى وأحسن استخدام فكره المتفتح فى خدمة الاهتمام بالانسان ودراسة نشاطه وأنماط حياته فى أى مكان على الأرض ، أحدث التوازى والتوازن فى وقت واحد ، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية · ولقد قطع هذا التوازى والتوازن دابر أى خلل · بل أصبح التوازى والتوازن سمة هامة وقاعدة راسخة من أهم القواعد التى رسخت وقوت التركيب الهيكلى العام لعلم الجغرافية الحديثة ·

ولقد تكشف اجتهاد فريدريك راتزل الجغرافى بالفعل(١) ، فى كتابين مشهورين · وفى هذين الكتابين جسد راتزل أفكاره الجغرافية ، التى صححت أوضاع مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، وأمنت الجغرافية على تركيب كيانها الهيكلى وعلى أهدافها المتنوعة · وقد نشر راتزل كتابه الأول عن الجغرافية البشرية فى جزئين كبيرين · وصدر الجزء الأول منهما فى سنة ١٨٨٢(٢) ، وصدر الجزء الثانى فى سنة ١٨٩١(٣) · أما كتابه الثانى الهام والمنشور فى سنة ١٩٠١(٤) ، فقد كان تحت عنوان الأرض والحياة علم الأرض المقارن ·

---

(١) اهتم اتزل بالجغرافية الطبيعية قد اهتمامه بالجغرافية البشرية · ويفسر هذا الاهتمام كيف أن اتزل ، عندما اتجه بكل فكره وجتهاده الجغرافى المجود الى الظاهرات الجغرافية البشرية ، لم يفقد الاهتمام وتخصيص حصة مناسبة من اجتهاده لعوامل الطبيعة فى البيئة · ويقول برين Brunches كان لراتزل احساس قوى جدا · وقد نظر الى الحقائق الانسانية على الارض ، لا باعتباره فيلسوفا أو مؤرخا أو اقتصاديا أو مجرد اثنولوجى ، بل باعتباره جغرافيا · وقد استطاع أن يميز العلاقات العديدة المتغيرة والمعقدة ، بين الحقائق البشرية والحقائق الطبيعية ، من موقع وتضاريس ومناخ ونبات · وقد سجل ملاحظاته عن السكان الذين يعمرون الكرة الارضية ، ويعملون على سطحها باحثين عن الرزق ، وصانعين للتاريخ · وقد لاحظ ذلك كله بعين العالم الطبيعى الاصيل » ·

راجع الجغرافية فى القرن العشرين (الترجمة العربية) جـ١ صفحة ٨٦ ، ٨٧ ·

(٢) فى هذا الجزء الأول من كتاب « الجغرافية البشرية » ، اهتم راتزل بتصوير العلاقة بين توزيع الناس فى انحاء الأرض من ناحية ، والعوامل الطبيعية التى تفسر هذا التوزيع · ويبدو أن رؤيته الجغرافية قد كشفت له عن كيف تضبط هذه العوامل توزيع الناس وتحكمه الى حد بعيد ·

(٣) فى هذا الجزء الثانى من كتابه « الجغرافية البشرية » طور راتزل اجتهاده الجغرافى حول نفس موضوع توزيع لناس فى الأرض · ولقد صور هذا التوزيع تصويرا جيدا مبنيا على الطريقة العلمية · بمعنى أنه جسد رؤيته لمسالة الضوابط الحاكمة للتوزيع تجسيدا واضحا على الأساس العلمى الكمى الصحيح ·

(٤) فى هذا الكتاب الثانى « الأرض والحياة — علم الأرض المقارنه » ناقش راتزل بكل =

وفى أى من هـــذه الكتب الجيـدة التى أثرت رصيد الفـكر الجغرافى وجسدت الاجتهاد الرزين ، سجل راتزل – بكل مهارة – العلاقة بين الانسان والعوامل الطبيعية فى الأرض التى تحتـــويه . وكان وكأنه يود أن يؤكد على الحـــاجة الملحة الى التوازن والتوازى فى دراسة الجغـرافية الطبيعية والجغرافية البشرية . ولقد أفلح راتزل فى تجسيد فكرة التفاعل بين الانسان والأرض وما يمكن أن تعنيه أو تفصح عنـــه ، وفى تصعيد الاهتمام بدراسة مظاهر الأرض وعلاقتها بالانسان على أسس منظمة .

ومن الجائز أن نتبين كيف سار فكر راتزل على الدرب الذى سلكه فكر كارل ريتر فى الاتجـاه الصحيح . ولـــكن المؤكد أن راتزل لم يلتزم أبدا الالتزام الكامل برأى ريتر . بل لعله لم ينساق أبدا فى تيار فكر كارل ريتر الجغرافى المتميز . وهذا معناه أن المحافظة على السير فى الاتجاه الصحيح لا ينبنى بالضرورة على المحاكاة والالتزام الفكرى الجامد . ومعناه أن راتزل كان متحررا فى عطاء فكره وفى تجسيد رؤيته الجغرافية من غير تمرد على قواعد الجغرافية ، ومن غير خروج عن الموضوعية التى أسفرت عنهـا بنيتها المركبة .

وعدم التزام راتزل وعدم انسياقه فى تيار فكر كارل ريتر الجغرافى ، قد أدى – بكل تأكيد – الى اختلاف واضح بين رأى راتزل وريتر فى قضيتين جوهريتين . ولقد تمثل هذا الاختلاف فى تناقض ، وهو شكل يفجر الجدل ولكن من غير أن يدعو الى تفجر الخوف من مضرة هذا الجدل وانعكاساته على الفكر الجغرافى أو على علم الجغرافية .

وفى القضية الأولى ، كان الاختلاف واضحا جليا ، عنـدما عالج راتزل دراسة الانســان فى المكان ، وكتب فى الجغـرافية البشرية كتابة منهجية أصولية بحتة . ولقد كف وامتنع راتزل تماما عن مسـايرة أسلوب ومنطق ورؤية كارل ريتر الذى عالج دراسة الانسان فى اطار دراسته الاقليمية . وهذا معناه أن اهتمام راتزل بالانســان التى تتفرع لهـا الجغرافية البشرية

= الموضوعية العلاقة بين الانسان والعوامل الطبيعية التى تتمثل فى الأرض وهى تحتويه . وربما انساق من غير أن يقصد تماما ، الى تصور نقطة البداية فى استشعار منطق الحتم الذى وجد لقيفا من الجغرافيين الذين انتصروا له فى وقت لاحق . وما من شك فى أن نضج فكر راتزل كان أول من أكد حتمية قوى الطبيعة على نشاط الانسان ، وهو يتفاعل مع الأرض ويطلب أو يتطلع الى الانتفاع بها .

اهتمام منهجي موضوعي أصولي ، على حين أن اهتمـــام كارل ريتر به كان جانبيا وبشكل يفتقد الأصولية ·

وفي القضية الثانية ، كان الاختلاف واضحا جليا ، عندما عالج راتزل الجغرافية البشرية الذى كرس لها معظم اجتهـــاده ، معالجة تساير روح العصر والذى شـــاع فيه أمر التطور الذى وضع دارون أساسه العلمى · وعندما لم يقبل كارل ريتر على معـــالجة الجغرافية البشرية بنفس منطق واهتمام راتزل ، لان معالجته كانت فى وقت لم يتـأثر فيه بمسألة التطور الحيوى على الأرض · وهذا معناه أن هناك تباين واقعي وحقيقى بين تصور العلاقة بين الانسان والطبيعة عند كل من راتزل وريتر ، لدى معـالجة كل منهما الظاهرات البشرية وتكريس الاهتمام بها(١) ·

وتأسيسا على هـــذا الاختـــلاف بين كارل ريتر وفرديدريك راتـزل فى الاجتهاد الجغرافى ، بدأ انحياز فريق من الجغرافيين الى صف كل منهما· وكان من شـــأن كل فريق منهما أن يســـاير منطق وأسلوب كارل ريتر أو أن يساير منطق وأسلوب راتزل فى المعالجة الجغرافية البشرية · وربما بدأ بعض الجدل الخافت الذى عبر عن مدى الاختلاف والتناقض بين هذين الفريقين ، لدى استشعار وادراك وتذوق كنه وماهية ونتائج العـــلاقة بين الانسان والطبيعة فى اطار الممارسة الحياتية من حوله فى أى مكان(٢) ·

هذا ولم يقف اجتهاد راتزل الجغرافى المتحمس الرشيد ، عنـــد حد صنع واحلال التوازى والتوازن الفـكرى والعلمى ، بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، من أجـــل تكامل موضوعى يدعم الجغرافية ودورها

---

(١) فى الوقت الذى صور فيه كارل ريتر العلاقة بين الانسان والطبيعة باعتبارها جزء من وحد منسجمة تخضع لمشيئة الخالق ، صور فيه راتزل هذه العلاقة التى تكشف عن دور الطبيعة فى شكل آخر ، وهى تطوع الانسان وتفرض عليه أن يتلاءم معها ·

(٢) لقد تحول هذا الجدل بعد ذلك الى تناقض فكرى شديد بين هذين الفريقين · وربما اعتبرنا راتزل مسئولا عن موقف فريق الحتم منها ولكن يبدو أن مسئولية ريتر عن الفريق الآخر منعدمة · وواجه فريق الحتم الذى أخذ يروج للحتم الجغرافى ويجسد تأثير الطبيعة على الانسان ومدى انصياعه لها ، فريق الامكانية الذى اعترض على هذا الحتم ونادى بتفوق الانسان وقدرته على مواجهة اعباء الحياة وتطويع الطبيعة · وما من شك فى أن هذا التناقض الفكرى ، قد أثرى الفكر الجغرافى الحديث ، وفجر مزيدا من طاقات الاجتهاد الجغرافى المتحمس والباحث فى أمر التفاعل بين الانسان والأرض فى معركة الحياة ·

الوظيفي العلمي فقط ، أو عنـــد حد اثارة الجـدل الفـكرى بين الباحثين الجغرافيين عن مدى وجوهر العلاقة وأبعاد التفاعل بين الانسان والأرض ، من أجل تناقض موضوعى يتكشف بين الحتمية المتزمتة والامكانية المتحررة فقط ، بل لقد أدلى راتزل بدلوه أيضا فى مجال مهم ، لكى يعـــدل أوضاع الاجتهاد الجغرافى ، ولكى يرشد البحث الجغرافى ويبصره ، وهو يعـــالج الحقيقة السياسية للدول معالجة جغرافية ·

هذا وكان اجتهاد راتزل فى هذا المجال اجتهادا سويا بنى على اعتبار أن الدولة تحتويها أرض وأن الأرض تحتوى الناس الذين يفرضون سيادتهم وحق وجودهم على هـذه الأرض · ومن الجـــائز أن استشعر راتزل أحقية الجغرافية بدراسة الأرض ودراسة النـــاس التى يتألف منهـا كيان الدولة ووجودها · ولكن المؤكد أنه اهتم بالظاهرة السياسية التى استرعت انتباهه على اعتبار أنهـا ظاهرة بشرية بالدرجة الأولى وتستحق أن تدخل فى اطار الاجتهـــاد الجغرافى · وما من شـك فى أن موقف راتـزل واجتهاده أصبح اجتهـــادا رائدا ، وهو يتصـــور أن الدولة لها شـكل الاقليم السـيـاسى ، أو وهو ينشىء هذا النوع من فروع الجغرافية البشرية ·

وفى كتاب الجغرافية السياسية ، برهن راتزل على أنه أهل لريادة هذا الفرع من فروع الجغرافية البشرية ، بل لقد تصدى راتزل ــ بـكل اجتهاده الجغرافى ــ لصياغة وابداع هذا التجديد الذى حقق اضـــافة مفيدة الى علم الجغرافية ، ووسع دائرة أهـــدافه ، بمعنى أنه أطل على الدولة جغرافيا ، وتطلع الى تقصى بعض الحقائق الجغرافية من وراء وجودها السياسى ·

ومن خلال هـــذا الابداع ، أتاح راتزل للجغرافية أن تتقصى مقومات الدولة ، وأن تتولى مهمة إستطلاع وتصور الواقع الجغرافى الطبيعى المتمثل فى الارض والواقع الجغرافى البشرى المتمثل فى الناس ، كما اتاح للجغرافية أيضا أن تستلهم كيف تكون هذه المقومات من وراء كنه وما هيه ودور الدولة الوظيفى ومكانتها فى اطار مجتمع الدول ، ولقد اطلق ذلك العنان للجغرافية ، لكى تتدارس المشكلات التى تتضرر منها الدولة ، أو لـــكى تتبين احتمالات الخلل فى بنيتها ·

وهكذا ، ينبغى أن ندرك كيف عـــامل راتزل الدولة أو الوحـــدة السياسية ، معاملة الكائن العضوى ، ولقد بنى ذلـــك على اعتبار أن كيان الدولة لا يتألف من أرض فقط يحتوى وجودها . بل انها تتألف أيضا من

ناس (شعب أو أمة) يفرضون سيادتهم ، ويشكلون مصالحهم الحيوية ويمارسون تفاعلهم الايجابي مع الارض ، من خلال النظام الحاكم الذى يؤكد آدائهم ويحفظ حقهم في الأرض التي تحتوى الدولة ، وربما حاول راتزل بالاضافة الى ذلك كله ، تقصى بين القوانين والسنن التي تتحكم في قيام ونشأة الدولة أو تؤثر في نموها ورسوخ مكانتها في مجتمع الدول من حولها من ناحية ، أو التي تتحكم في تجسيد شخصيتها ووزنها السياسى في العالم من ناحية أخرى ٠

ويجب أن نثق في أن فريدريك راتزل ، كان - بكل تأكيد - ثالث ثلاثة أعلام جغرافية مرموقة في القرن التاسع عشر الميلادى ٠ وهم جميعا من أبناء المدرسة الجغرافية الالمانية التي قادت المسيرة الجغرافية بصفة عامة ، ولقد أسهم اجتهاد هؤلاء الأعلام ، العمل الجغرافي الفكرى المتوثب ، في مجالين هما ، حفز مسيرة الفكر الجغرافي الحديث في الاتجاه الصحيح ، وترسيخ قاعدة الجغرافية الحديثة ، ولابد أن نثق في أن الجغرافية الحديثة في ثوبها العلمى ، كانت في حاجة الى الفكر الجغرافي الحديث يدعمها ويظاهرها ويرعى تطورها وآداء دورها الوظيفى التخصصى لحساب الحياة ٠

وما من شك في أن راتزل قد انتشل الشق البشرى من الجغرافية وأخرجه من وراء الكواليس ، وبث فيه كل القدرات ، لكى يتولى دوره الوظيفى في حركة العمل والانجاء الجغرافي على قدم المساواة مع الشق الطبيعى ٠ بل انه - من غير شك - صاحب الفضل في ريادة التوازى والتوازن الموضوعى العلمى بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ٠

وما من شك مرة أخرى في أن راتزل قد أشاع وأعلى شأن الدراسة المنهجة الأصولية بين زمرة المفكرين الجغرافيين الى حد يلفت النظر ، سواء كانت الدراسة دراسة هادفة لحساب الشق الطبيعى ، أو كانت الدراسة هادفة لحساب الشق البشرى ، بل وربما كان هذا التركيز على المنهجية الأصولية - من غير قصد - سببا من أسباب احباط الاهتمام بالدراسة الاقليمية احباطا مؤقتا ، ومعنى ذلك أن راتزل عندما شد الاجتهاد الجغرافي كله أو معظمه الى الدراسة المنهجية الاصولية ، صرف هذا الاجتهاد كله أو معظمه عن تطوير الدراسة الاقليمية ٠

- - - - - - - - - - -

ولكي تكتمل قضية ترسيخ الفكر الجغرافي الحديث ، ودعم بنيان علم الجغرافية ، كان المطلوب أن يتأتى الاجتهاد الجغرافي الذى ينكب على تطوير مفاهيم الدراسة الاقليمية التي وضع أساسها كارل ريتر ، وتحديد أهدافها وغاياتها . وما من شك في أن المدرسة الجغرافية الالمانية كانت تستشعر هذه المسئولية وتدرك قيمة العمل المطلوب لانجازها . ولقــد عكف فريق من أبنائها تذكر منهم مارت ورشتهرفن ، على آداء هذه المهمة .

ومثلما أدرك الاجتهاد الجغرافي معنى النظرة الكلية والدراسة الجغرافية على مستوى العالم ، اهتم الاجتهاد الجغرافي بالدراسة الجغرافية على المستوى المحلي المحدود . ولم يكن من سبيل سوى البحث عن ابعاد الاقليم الذى يحدد معنى النظرة الجزئية في الاطار المحلي الضيق ، ولقد حاول الاجتهاد الجغرافي الذى بذله مارت ورشتهوفن في صياغة هذا التحديد ، بل لقد حاول كـل منهما ايجاد أفضل أشكال التوافق وعـدم التناقض بين الدراسة الجغرافية المنهجية الأصولية كما أراد لها الفكر الجغرافي الحديث أن تكون ، والدراسة الجغرافية الاقليمية . وهذا معناه أن اضاف هذا الاجتهـــاد لبنات مهمة في تطوير الدراسة الاقليمية وترسيخ آدائها الوظيفي التخصصي بصفة عامة .

وما من شك في أن هذه اللبنات قد حظت بالدراسة حظوة الى الامام . وما من شك في أن هذه الحظوة قد فتحت باب الاجتهاد الجغرافي الحقيقي على مصراعيه لكي يتمم مهمته ، وكان المطلوب أن يتحقق التوازن وعدم التعارض الموضوعى ، بين الدراسة المنهجية الاصولية والدراسة الاقليمية . ولقــد كرس الفريد هنتر اجتهاده واهتمامه الجغرافي لهذا الغرض ، ونجح الفريد هنتر بالفعل في صياغة هذا النقاش والتوازن ، لكي تتوازى أهمية الدراسة المنهجية الأصولية كما أراد لهـا همبولت وبشل وراتزل أن تكون مرتعـا للفكر الجغرافي ووعاء يحتوى أهدافه ، مع الدراسة الاقليمية كما تشبث بها مارث وريتر ورشتهوفن وجعلوا منها وحدة اجتهاد وانجاز جغرافي بناء ومفيد .

- - - - - - - - - -

التقدم الجغرافي في المدارس الجغرافية الوطنية :

وقبل أن نفرغ من سياق هذا العرض السريع ، الذى يصور كيف تبنى الاجتهاد الألماني الفكر الجغرافي ، وكيف ابدع واجتهد وجدد في صياغة علم الجغرافية ، على مدى أكثر من ثلاثة قرون كاملة ، وقبل أن نفرغ من سياق هذا الاجتهاد الجغرافي الألماني ، الذى أمسك بزمام المسيرة الفكرية الجغرافية

وريادتها فى الاتجاه العلمى الصحيح ، يجب أن نذكر مدى انتشار الاهتمام بالجغرافية على مستوى العالم • ومن الجائز أن اشترك بعض الرحالة من دول أوروبية فى الكشوف الجغرافية • وكان اشتراكهم علامة على هذا الانتشار • ومن الجائز أن اشترك بعض الرسامين من دول وروبية فى صناعة الخرائط الجغرافية ، وكان انتاجهم علامة على هذا الاسهام • ولكن المؤكد أن الاجتهاد الألمانى هو وحده الذى انكب على الفكر الجغرافى وصــلب ما يبتغيه ، وعلى صياغة علم الجغرافية •

وهذا معناه — على كل حال — أن الاهتمام بالجغرافيـــة والاسهام فى تنمية رصيد المعرفة الجغرافية من خلال الكشوف أو من خلال رسم الخرائط شىء ، وأن الاهتمام بالفكر الجغرافى وصياغة قواعد علم الجغرافية شىء آخر • ومعناه أن الاهتمام بالفكر الجغرافى وصياغة قواعد علم الجغرافية ، لا يتأتى الا فى احضان مدرسة علمية ، سواء احترف فيها العلماء العمل الجغرافى أو أخذوا به كهواية • وما من شك فى أن مولد هذه المدارس الجغرافيـــة قد تأخر لبعض الوقت فى كل الدول الاوربية ، وكانت المدرسة الجغرافية الألمانية الفارس الوحيد فى الميدان ، وكان علماء هذه المدرسة هم أصحاب الريادة الحقيقية فى ميدان العمل الجغرافى ، فكريا وعلميا •

ولقد شهدت سنوات النصف الثانى من القرن التاســع عشر الميلاد فقط مولد المدارس الجغرافية الوطنية فى معظم الدول الأوروبية وفى بعض دول غير أوروبية فى انحاء متفرقة من العالم • كما شهدت هــذه السنوات أيضا مولد معظم الجمعيات الجغرافية التى ضمت المحترفين والهواة من العاملين فى ميادين العمل الجغرافى • ولقد برهنت هذه النشأة على أن العاملين فى ميادين العمل الجغرافى والمهتمين بالجغرافيين قد استشعروا الحاجة الى ممارسة الاجتهاد الجغرافى ، وان الوقت قد حان لاسهام هذا الاجتهـــاد الجغرافى فى الفكر الجغرافى وفلسفة أهدافه ، فى الدراسات الجغرافية العلمية •

ومن الطبيعى أن نتصور كيف انهى مولد هــذه المدارس الجغرافية العلمية ، فى احضان الاحتراف الاكاديمى أو فى أحضان الهواية الميدانية ، احتكار المدرسة الجغرافية الألمانية ، الفكر الجغرافى وصياغة علم الجغرافية منذ سنة ١٧٥٠ ميلادية على أقل تقدير • ومن الطبيعى أن ندرك كيف ارتوى الاجتهاد الجغرافى المتفجر فى هذه المدارس الجغرافية العلمية الوطنية ، من معين المدرسة الجغرافية الألمانية ، التى سجلت الابداع والاضافة الى رصيد الفكر الجغرافى والى موضوعية علم الجغرافية • ولــكن المؤكد أن هذا المولد ،

قد أطلق العنان أو فتح الباب على مصراعيه ، لكى يتحقق الاسهام الأوروبى وغير الأوروبى فيتألق الفكر الجغرافى الحديث ، ويزداد علم الجغرافية رسوخا وثراء وتطورا الى الأفضل ٠

هذا ولقد احتلت هذه المدارس الجغرافية على الصعيد الاوروبى وغير الأوروبى مكانها المناسب فى احضان الجغرافيين المحترفين أحيانـــا ، وفى أحضان الجغرافيين الهواة أحيانا آخرى ٠ واكتسبت كل مدرسة من هــذه المدارس الجغرافية حق الانتماء للدولة واعتزت بهذا الانتماء ، فى ذلك الوقت الذى تسيدت فيه وقامت معظم الدول على الأســاس الوطنى القومى ٠ كما انتفعت الجغرافية بقوة الدفع التى تولى أمرهـــا الجغرافيون المحترفون فى الجامعات والكليات الجامعية ومعاهد الدراسات العلمية الاكاديمية ، أو التى تبناها الهواة من الجغرافيين فى الجمعيات الجغرافية الوطنية ٠

ومن غير افراط فى التعصب الوطنى ، ومن غير تفريط فى عالمية الفــكر الجغرافى ، أدت هذه المدارس الجغرافية دورها الوظيفى العلمى التخصصى على كل المستويات الاكاديمية وغير الاكاديمية بكفاءة واجتهاد ٠ بل لقد حقق ذلك الانطلاق الجماعى المتفتح الذى قامت به الخبرات الجغرافية فى هذه المدارس نجاحا حقيقيا فى حقل العمل الجغرافى وانجاز البحوث الجغرافية العلميــة وتطوير الفكر الجغرافى ٠ وأصبح ذلك الاجتهاد المشترك كلــه ، من وراء تعاظم مكانة الجغرافية وهى تقدم الانجازات المفيدة والانتاج الجيد ، الذى خدم التفاعل الحياتى المتطور بين الناس والأرض ٠

ولقد أشرنا — من قبل — الى حرص الامبريالية العــالمية على حسن استخدام حصاد العمل الجغرافى فى خدمة الاستعمار والتمكين له فى حيازة الأرض والسيطرة على الناس فى المستعمرات ٠ وما من شك فى أن الاجتهاد الجغرافى قد لبى هذا النداء وأعطى خبراته التى بصرت ورشدت الاستعمار ، فى مقابل الدعم المادى والمعنوى الذى نشط العمل الجغرافى وقوى ساعده وشد أزره ، علميا وعمليا ، وهذا معناه أن علم الجغرافية قد انتفع بالواقــع السياسى والحضارى والاقتصادى فى هذه المرحلة ، وأنه جاوب حاجة العصر وخاض تجربة التقدم وهو مطلوب بالحاح لحساب الحياة ٠

وقبل أن ننتقل الى معالجة بعض القضايا التى أثارها وفجر النقاش فيها الاجتهاد الجغرافى المتوثب على المستوى الواسع فى القرن العشرين ، يجب أن نتابع بدايات الاهتمام بالجغرافية على المستوى العالمى فى أواخر القرن التاسع

عشر الميلادى . وكيف لا نفعل ذلك ، ونحن نعلم - بالفعل - أن هذا الاهتمام هو الذى صعد ودعم مكانة الجغرافية ، بين زمرة العلوم الطبيعية والانسانية .

وفى تقرير نشر سنة ١٩٥٨(١) ، جاء فيه أن الاهتمام بالدراسات الجغرافية التى انكبت عليه الاجتهادات الجغرافية الوطنية فى بعض الدول الأوروبية وغير الأوروبية قد شاع وتأتى فى حوالى ٩٢ معهدا علميا عاليا . ولقد ضمت هذه المعاهد العليا ١٢١ مدرسا باحثا فى حقل العمل الجغرافى الاكاديمى . وما من شك فى أن هذه الاهتمامات على المستويات العلمية الاكاديمية ، قد انجبت الصفوة الممتازة من الجغرافيين فى القرن العشرين . وما من شك فى أن تأهيل وتنشئة هذه الصفوة من الجغرافيين ، قد أسفر عن توسيع وتعميق الاجتهاد الجغرافى بصفة عامة .

وعن الجمعيات الجغرافية التى ضمت الهواة ، نذكر انها ظهرت لأول مرة فى باريس . ثم توالت فى الفترة التالية حتى وصلت الجمعيات الجغرافية الى حوالى ١٣٠ جمعية فى سنة ١٩٣٠(١) . وربما سجلت الفترة من سنة ١٨٧٠ ، سنة ١٨٩٠ أكبر زيادة فى الوعى الذى أسفر عن انشاء عدد كبير

---

(١) جاء توزيع المعاهد الجغرافية العليا على النحو التالى :
أ - ألمانيا وتضم ٢٢ معهدا وبها ٣٢ مدرسا.
ب - فرنسا وتضم ١٦ معهدا وبها ٢٢ مدرسا
جـ - روسيا وتضم ١١ معهدا وبها ١٦ مدرسا
د - النمسا وتضم ١٠ معاهد وبها ١٤ مدرسا
هـ - ايطاليا وتضم ٧ معاهد وبها ٩ مدرسين
و - بريطانيا وتضم ٦ معاهد وبها ٦ مدرسين
ز - سويسرا وتضم ٤ معاهد وبها ٦ مدرسين
ح - الولايات المتحدة وتضم ٣ معاهد وبها ٣ مدرسين .
ط - دول أخرى وتضم ١٣ معهدا وبها ١٣ مدرسا .

(٢) عن نشأة الجمعيات الجغرافية فى القرن التاسع عشر نذكر أنه فى الفترة من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٧٠ قامت فى أوروبا حوالى ١٥ جمعية . وأنه فى الفترة من ١٨٧٠ الى ١٨٩٠ تأسست ٥٨ جمعية وفى الفترة من ١٨٩٠ الى ١٩٠٠ تأسست ١٠ جمعيات جغرافية . أما نصيب الثلاثين سنة الأولى من القرن العشرين فلقد بلغ ٥٢ جمعية جغرافية . وفى سنة ١٩٣٠ كانت هناك ١٣٧ فى العالم منها ٩٢ فى أوروبا ، ٢٥ فى الامريكتين ، ١٣ فى آسيا ، ٥ فى أفريقية ، ٢ فى أستراليا . (راجع مقالة جون راتب مجال الجمعية الجغرافية « الجغرافية فى القرن العشرين » صفحة ٢٧٣) .

من الجمعيات الجغرافية التي تبنى الـ واة فيها الاجتهاد الجغرافي(١) . ومن الجائز أن الهواية قد افلحت في التعبير عن بعض انجازات هـــذه الجمعيات الجغرافية في أثناء القرن التاسع عشر الميلادى(٢) . ولكن المؤكـــد أن هذه الجمعيات قد تحول معظمها الى أيدى المحترفين في أثنـــاء القرن العشرين(٣) وأنها تحملت مسئولية الاجتهاد الجغرافي العلمي بالتعـاون مـــع الاجتهاد الجغرافي الاكاديمي .

هذا وينبغي أن نتصور كيف أن هذا الاهتمام بالدراسات الجغرافية على مستوى العمل الاكاديمي أو على مستوى الجمعيات الجغرافية لغير المحترفين قد سجل بداية مرحلة الانجاز في احضان علم الجغرافية الراسخ . ولقد اشترك فريق كبير من الجغرافيين في البحث والنقاش والجدل ، الذى تأتى في كـل شكل من أشكال المعالجة والتفكير الموضوعي ، في أهم القضايا التي فجرهـا وتبناها الاجتهاد الألماني في القرن التاسع عشر ولم يحسمها حسما فكريـا وعلميا كاملا .

والمهم أن الجغرافية قد وجدت كل هذا الاهتمام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولقد تجلى هذا الاهتمام في نشر البحوث وتمويـــل الاجتهاد الذى يتفرغ لانجازها ، وفي النهوض بالخبرة الجغرافيـــة وحسن تدريبها لتحسين مستوى التعليم الجغرافي . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافي على هذا المستوى الموسع قد جهز بالفعل لوضع جديد ومـــكانة أهم وأعظم للجغرافية في القرن العشرين .

ومن المفيد – على كل حال – أن نتبين هذا الاهتمام بشيء من الايجاز في بعض الدول التي تفجر فيها الاجتهـــاد الجغرافي . ومن المفيد أيضا أن نختار هذه الدول لكي نتبين بعض نماذج تفجر الاجتهاد الجغرافي فيهـا في احضان العمل الاكاديمي البحث المتخصص ، وبعض نمـــاذج أخرى تفجر الاجتهاد الجغرافي فيها في أحضان الجمعيات الجغرافية التي كفلها الهواة . وفي الحالتين ، يمكن أن نتبين أن هذا الاجتهـــاد الجغرافي كان متوثبا ومفيدا .

---

(١) تأسست الجمعية الجغرافية المصرية في سنة ١٩٧٥ .

(٢) كان أهم مجال لعمل هذه الجمعيـ ات هو تمويل الرحلات التي أدت دورا في الكشوف الجغرافية في أثناء القرن التاسع عشر . كما تولت أيضا تمويل العمل في انجاز وتجهيز الخرئط .

(٣) هناك بعض الجمعيات التي احتفظت بمكان للهواة وغير المحترفين فيها حتى الآن .

وما من شك فى أن تقدم الجغرافية كان انجازا مشتركا تعاون فى تحقيقه الجغرافيون المحترفون والهواة .

وفى فرنسا ، تفتح أول برعم من براعم الاهتمام بالجغرافية فى حوالى سنة ١٨٢١ . ولقد تمثل هذا البرعم فى الجمعية الجغرافية الفرنسية التى هى أول جمعية جغرافية قاطبة(١) . وما من شك فى انها قد تبنت الاجتهاد الفرنسى الذى كرس الاهتمام كله لدراسة فرنسا دراسة جغرافية متكاملة . وهذا معناه انها ولدت وهى تحمل النعرة الوطنية والاعتزاز بفرنسا وصبت هذا كله فى شكل من أشكال الدراسة الجغرافية الاقليمية . ومعناه انها فتحت الباب على مصراعيه لكى يتوالى مولد الجمعيات الجغرافية الوطنية فى كثير من دول أوروبية ودول غير أوروبية .

أما الاهتمام الاكاديمى العلمى بالجغرافية فى فرنسا ، فقد تفجر بعد أن نهل بعض المفكرين الفرنسيين من علم وفكر كارل ريتر على وجه الخصوص . وكانت الجغرافية الطبيعية قد وجدت الاهتمام فى احضان كلية العلوم مع زمرة العلوم الطبيعية . أما الجغرافية البشرية فقد وجدت الاهتمام فى احضان كلية الآداب مع زمرة العلوم الانسانية . ومعنى ذلك فصل غريب ما كان ينبغى أن يكون بين شقين يتألف منهما علم واحد ، ويتعين التكامل فيما بينهما . ولقد استمر هذا الفصل الغريب بين هذين الشقين الطبيعى والبشرى لبعض الوقت حتى اجتمع شملهما والتأم الكيان الواحد للتركيب الهيكلى فى البناء العلمى الجغرافى .

والفصل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية كان مظهرا من مظاهر الشذوذ . ويكفى أن نتصور كيف تعذر حفظ التوازن والتوازى بين الاجتهاد الجغرافى فى كل منهما . ولقد الحق الاجتهاد الجغرافى الجغرافية الطبيعية آنذاك بالدراسة الجيولوجية البحتة واغراقها فى خضم تخصصها العلمى الدقيق . كما الحق الاجتهاد الجغرافى الجغرافية البشرية على الجانب الآخر بالتاريخ الذى جنح بها الى الوصف والتصوير الجامد للرؤية الجغرافية .

---

(١) ظهرت بعض الجمعيات فى القرن الثامن عشر ومنها جمعية المانية فى نورنبوج وجمعية جغرافية فى هولنده ولكنها لم تعمر وانفرط عقدها . ويبدو أن الاجتهاد الجغرافى العلمى كان لا يجد فيها شيئا مفيدا يمكن المحافظة عليه .

ومن الجائز أن ندرك كيف مضى الاجتهاد الجغرافى الفرنسى فى سبيله ، وهو قابل بهذا الفصل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية لبعض الوقت فى القرن التاسع عشر . ومن الجائز أيضا أن نتبين كيف نشأت المصلحة المتبادلة بين هذا الاجتهاد الجغرافى الفرنسى من ناحية ، والمنطق والتطلع الاستعمارى الفرنسى النشيط على الصعيد الافريقى من ناحية أخرى. ولكن المؤكد أن انصراف الاجتهاد الفرنسى لآداء مهمته الوظيفية لحساب الاستعمار الفرنسى قد صرفته عن التفكير فى أمر هذا الفصل والرجوع عنه والجمع بين الجغرافية الطبيعية والجغرفية لبشرية .

هذا ، وينبغى أن نتصور كيف حفز هذا المنطق الاستعمارى الاجتهاد الجغرافى واعتمد عليه ، لكى يكشف النقاب عن بعض المجهول من الأرض الأفريقية ، ولكى يرشد التحرك أو التوسع الاستعمارى وحيازة المستعمرات فى أثناء النصف الأخير من القرن التاسع عشر . وما من شك فى أن الخبرات الفرنسية قد جالت فى الميدان الافريقى واكتسبت قدرات جديدة ، وأنجزت انجازات مفيدة من خلال الرؤية الجغرافية والانفتاح الجغرافى على هذه الرؤية فى انحاء الأرض الأفريقية .

ولقد كانت الجغرافية الاستعمارية التى تطوعت بها الخبرات الجغرافية الفرنسية بعد الحرب السبعينية ، من أهم حصاد الاجتهاد الجغرافى الفرنسى بصفة عامة . وما من شك فى أن هذه الدراسات الجغرافية فى المستعمرات الفرنسية ، قد اسهمت فى اشباع نهم فرنسا على الصعيد الأفريقى ، وفى دعم وجودها الاستعمارى واستثماراتها . وكانت وكأنها تسعف الدولة الفرنسية ورأس المال الفرنسى وتعوض خسارته التى أسفرت عنها الهزيمة الساحقة فى الحرب السبعينية مع ألمانيا على الصعيد الأوروبى .

وهناك اتفاق عام على أن روادا من المدرسة الجغرافية الفرنسية - ومنهم ركلوس ولبيلية ودى بريفيل وديمولان - قد سجلوا اجتهادا جغرافيا جيدا فى أواخر القرن التاسع عشر . ولقد أنجز كل واحد من هؤلاء الجغرافيين الفرنسيين كتابا جغرافيا ، يمثل ثمرة اجتهاده ويعبر عن رؤيته الجغرافية . والأهم من ذلك أنه يجسد المنهج أو الأسلوب الذى انتهجه البحث الجغرافى الفرنسى فى ذلك الوقت .

وانجاز دى بريفيل تمثل فى كتاب عن المجتمعات الأفريقية صدر فى سنة ١٨٩٤ . ومن الجائز أن نتبين كيف انتفع الكاتب بالوجود الاستعمارى فى المستعمرات الأفريقية ، وكيف أحسن استخدام رؤيته الجغرافية . ولكن

المؤكد أنه بحث انتهج سبيل الوصف الجغرافى أكثـــر من أى شيء آخر . أما ديمولان صاحب كتاب كيف يخلق الطريق النمط الاجتماعى الصادر فى سنة ١٩٠١ ، فقد سجل بداية الفكر الجغرافى الحتمى وجسد الصرخـات القوية التى صورت مدى التزام الانسان وامتثاله لما يمليه الواقع الجغرافى الطبيعى فى المكان .

كما أسفر الاجتهاد الجغرافى الفرنسى الذى سار فى موكب الاستعمار وعمل فى اطار المصلحة المتبادلة بينهما ، عن موسوعـــة ضخمة جغرافية . ولقد أصدر هذه الموسوعة الجغرافية اليزيه وكلوس فى ١٩ مجـــلدا على مدى الفترة من سنة ١٨٧٥ الى سنة ١٨٩٤ . وتضم هذه الموسوعة مسحا جغرافيا عن العالم . ولقد وضع الاجتهاد الفرنسى هذا المسح فى اطار دراسة اقليمية وصفية .

ومن غير تجنى على الاجتهاد الجغرافى الفرنسى بصفة عامة ، ينبغى أن نذكر أن حصاد العمل الجغرافى وانجاز هـذا الفريق من الجغرافيين ، كان هزيلا من وجهة النظر العلمية ، ولا يحقق المستوى الجيد . وهذا معناه أن الجغرافية فى احضان المدرسة الجغرافية الفرنسية فى القرن التاسع عشر كانت فى حاجة الى من ينشطها ويقوم مناهجها ويرسخ مكانتها ويحسن آدائها . ومن غير ذلك كان من الصعب أن تضارع الجغرافية الفرنسية الجغرافية الألمانية بصفة خاصة ، وحركة التقدم الجغرافى النشيطة فى احضان مدارس جغرافية أوروبية أخرى .

ومن حسن الطالع أن وجدت الجغرافية الفرنسية فى اجتهاد فيدال دى لابلاش ضالتها المنشودة . وما من شك فى أن لابلاش قد تحمل المسئولية بالفعل . ولقد انجز بعض الانجازات المغيرة ، لحساب المستوى الأفضل أو لحساب الجغرافية الفرنسية الأحسن . وبدأ لابلاش بأهم خطـــوة ناجحـة ومفيدة ، عندما انتشل الجغرافية الفرنسية من التمزق فى احضان الاهتمام العلمى الاكاديمى .

وهكذا جمع لابلاش شمل الجغرافية الطبيعيـة والجغرافيـة البشرية . واعاد الالتحام والالتئام بين شقين متكـــاملين فى البناء الجغرافى ولا ينبغى الفصل بينهما . كما حمل لواء المعارضة والتصدى لكل أولئك الذين انحدروا الى حضيض الحتم الجغرافى ، وسخر من تجاهل قدرات الانسان أو امتهانها . وهذا معناه أن لابلاش هو الجغرافى الفرنسى المرموق الذى تولى ترشيد مسيرة

الفكر الجغرافي في احضان المدرسة الجغرافية الفرنسية · ومعناه أيضا أنه هو الذى سخر اهتمامه واجتهاده لترسيخ وشحذ كفاءة الاجتهاد الجغرافى فى احضان المدرسة الجغرافية الفرنسية · ومعناه أيضـا أنه هو الذى سخر اهتمامه واجتهاده لترسيخ وشحذ كفاءة الاجتهاد الجغرافى الفرنسى فى خدمة علم الجغرافية الحديثة في فجر القرن العشرين ·

وفيدال دى لابلاش الذى كان له شرف التصدى لفكر الحتمية لأول مرة ، قد عز عليه انتهاك قدرة الانسان وامكانياته واهدار سعيه وفكره وحيلته التى ينتصر بها لارادة الحياة في المكان · وربما قاد فكر لابلاش بعد ذلك ، الامكانين الذين عالجوا العلاقة بين الانسان والبيئة من غير تحيز لأثر العوامل الطبيعية وامتثال الانسان لضوابطها الحاكمة · وبلور ذلك كله اضافة للمدرسة الفرنسية ، حيث انها استنكرت البحث عن القوانين الجغرافية وتعميمها فى الأقاليم المتشابهة · وفى نظرهم أن شخصية الإقليم الذاتية ، لا ينبغى ن يغفلها الفكر الجغرافى ، وهو يتصور أن هذه القوانين الجغرافية يمكن تطبيقها تطبيقا مطلقا فى مجال دراسة مقومات الوحدة الجغرافية أى اقليم ·

وفى بريطانيا ، التى احتلت مكانة الدولة العظمى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، سياسيا واقتصاديا ، تحملت الجمعية الجغرافية التى تألفت من فريق استهواه الفكر الجغرافى فى سنة ١٨٣١ · وقد استشعر هذا الفريق قيمة الجغرافية وما يمكن أن تسفر عنه من نتائج تخدم الاغراض الامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار · وما من شك أن هذه الجمعية الجغرافية قد تولت تمويل حركة الكشوف الجغرافية · وقدمت ثمراتها اسهاما مهما ونافعاء لحركة الاستعمار البريطانى بكل أشكاله على الصعيد الأفريقى · كما تولت أيضا تمويل البحوث الجغرافية من المستعمرات التى رشدت الهدف أو الأهداف التى تبناها الوجود الاستعمارى البريطانى فى هذه المستعمرات ·

ومن الجائز أن يصور ذلك كيف انساق الفكر الجغرافى البريطانى فى اتجاه عملى ، وضع الاجتهاد الجغرافى بشكل مباشر فى خدمة الاستعمار · ولكن المؤكد أن نجاح الاجتهاد الجغرافى فى هذه المهمة ، قد حفز الجمعية الجغرافية البريطانية لكى تتولى مسئولية تفجير وتوجيه الاهتمام الاكاديمى الى الجغرافية · وما من شك فى أن هذه الجمعية كانت ـ بكل وزنها ـ من وراء انشاء أقسام للدراسة الجغرافية الأكاديمية فى جامعتى كمبردج واكسفورد فى سنة ١٨٧٧ · وعندئذ كانت بداية فعلية أو حقيقية فى الحقل الجغرافى الاكاديمى ، وفى بلورة فكر جغرافى بريطانى ·

ويمكن أن نؤكد أن خبرات الاجتهاد الجغرافي العمليـة التى رافقت وبصرت الاستعمار البريطاني ، وخبرات الاجتهـاد الجغرافي النظرية التى أسفر عنها العمل الاكاديمي قد تجمعت لكى تعلن ميلاد المدرسة الجغرافيـة البريطانية فى فجر القرن العشرين • وما من شك فى أن اجتهاد بعض الرواد من أمثال ماكندر وأولدهام وهربرتسون وما أسفر عنه من فكر جغرافي ، قد وضع دعامات المدرسة الانجليزية الجغرافية • بل انهم — بكل تأكيد — قادوا مسيرة الفكر الجغرافي الانجليزى ورسخوا العمل الجغرافي ترسيخـا وضع هذه الدرسة فى مكانة ممتازة بين سائر المدارس الجغرافية الوطنيـة الأخرى •

وفى الولايات المتحدة الامريكية ، التى عاشت العزلـة فى أثناء القرن التاسع عشر عن أوروبا ، لكن تتجنب الانغماس فى مشاكلها السياسيـة المعقدة ، لم تنغلق ثقافيا وعلميا ، بمعنى انها انفتحت وتفتحت وتطلعت الى مسايرة التقدم الأوروبى • وقد فتحت صدرها واستقطبت بعض المهاجرين اليها من أوروبا وامتلكت رافدا من أهم الروافد التى بصرت الفكر والعلم فيها • وكان من بين من استهوتهم الحياة فى الولايات المتحدة أرنولد جويوت السويسرى الاصل الذى نهل من المعين الجغرافي الألمانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى •

وكان من الطبيعى أن يحمل معه خبرته الجغرافية واجتهاده الذى صقلته استيعاب فكر ريتر وهمبولت الجغرافي الى المهجر • والمؤكد أن جويوت قد غرس بنته وليدة ، اشاعت الاهتمام بالفكر الجغرافي فى الولايات المتحدة • وقد تبنت الدراسة الاكاديمية هذا الاهتمام واستجابت له بشـكل يلفت النظر • بل لقد دخلت أو انخرطت مناهج الدراسة الجغرافيـة فى برامج الدراسة الجامعية فى بعض الجامعات الامريكية • وكانت بداية فعلية ، عكفت على تربية جيل وتولت غرس الاهتمام بالفكر الجغرافي فيه •

هذا ولم يمض وقت طويل حتى كبر هذا الجيل وقد تعشق الفـكر الجغرافي ونهل من المعين الأوروبى الذى شاع وانتشر عطاوه على أوسـع مدى • وقد اثار الاجتهاد الجغرافي الامريكى حملة الاهتمام بالدراسة الحقلية ، وطور ورسخ أساليب التمعن فى الرؤية الجغرافية • وما من شك فى أن هذا الاجتهاد الجغرافي الذى نما وترعرع فى أحضان الاهتمام الاكاديمي قد أنجب جغرافيا أمريكيا ممتازا هو وليم ديفز وقد تولى هذا الجغرافي الممتاز مسئولية انشاء وريادة المدرسة الجغرافية الامريكية فى فجر القرن العشرين • بل لقد

اشرك الاجتهاد الجغرافى الامريكى الشاب فى هذا الوقت فى ملحمة ترسيخ علم الجغرافية ·

وفى مصر ، التى صحت من غفلتها فى احضان الوجـــود العثمانى فى القرن التاسع عشر ، تطلعت بعض براعم النهضة الفكرية والعلمية فيهـــا باعجاب شديد الى مصادر الفكر الجغرافى ، وتشوقت الى اشباع تطلعها من المعين الجغرافى الأوروبى · وقد سار الاهتمام بالفكر الجغرافى على نفس الدرب التى سار فيه فى بريطانيا · ولم يكن ذلك من قبيل التقليد والمحاكاة ابدا · بل كان استجابة لأوضاع مصر التى لم تكن قد امتلكت بعد ناصية العـــلم الاكاديمى ·

هذا وقد عبر انشاء الجمعية الجغرافيـــة المصريـــة عن الاهتمام بالفكر الجغرافى فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى · وكان من الطبيعى أن تضم اليها بعض ذوى الخبرة الجغرافية من الاوروبيين ، وأن تنتفع باجتهادهم فى مجالين هما ، تحمل مسئولية مصر فى المشاركة الفعلية فى كشف النقـــاب عن الأرض فى اطار حوض النيل على الصعيد الأفريقى ، وتربية جيل يتعشق الجغرافية ويتبنى الفكر الجغرافى الحديث ويستوعب مفاهيمه وأهدافه · وقد نجحت الجمعية الجغرافية المصرية ـ بالفعل ـ فى آداء دورها وحفزت الاجتهاد الجغرافى ، وهيأت لانشاء وولادة المدرسة الجغرافية المصرية فى القرن العشرين فى احضان العمل الاكاديمى عندما قامت الجامعة المصرية(١) ·

- - - - - - - - - - -

ومهما يكن من أمر نشأة هذه المدارس الجغرافية الفكرية فى احضـــان القوالب الوطنية القومية ، وكسر احتكار الاجتهـــاد الجغرافى الألمانى لعلم الجغرافية اعتبارا من النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فلا يجب أن يعبر ذلك عن اتجاه فكرى غير سوى ، نحو انغـــلاق واستغراق فى انانية الذات

---

(١) اخذت مصر على عاتقها بعد أن غرست وأنشأت مدرستها الفكرية الجغرافية مسئولية اشاعة الاجتهاد الجغرافى على مستوى الوطن العربى كله · بل لقد صنعت رافدا من روافد هذا الفكر الجغرافى وحملته مسئولية تكوين المدارس الفكرية الجغرافية فى أحضان الاجتهاد الأكاديمى الوليد فى كل دولة من الدول العربية · وهذا معناه أنها انفتحت على أمتها العـــربية وتولت قيادة مسيرة فكرية جغرافية عربية متطورة ، تعيد الى الأذهان الاجتهاد العربى الجغرافى المزدهر فى أحضان الاسلام ·

الشخصية الضيقة لكل دولة من الدول وتطلعاتها الوطنية الخاصة . والأفضل أن ندرك جدوى تعدد المدارس الفكرية الجغرافية ، وكيف أطلقت العنـــان للاجتهاد الجغرافى الذى تألق وتولى التجديد والتطـــوير ودفع حركة المسيرة الفكرية الجغرافية دفعا الى انتاج جغرافى علمى أفضل ، لحساب الانسان .

وهكذا ينبغى أن نؤكد على تشبث الفـــكر الجغرافى على هذا الصعيد المتسع بالانفتاح ، وعلى حرصه الشديد على النظرة الكلية وتوسيع سياق البحث الجغرافى على المستوى العالمى الذى التزمته وتلتزم به الجغرافية دائما . ومن الجائز أن تحرص المدرسة الفكرية الجغرافية الوطنية على تكثيف البحث الجغرافى وتعميقه فى الدائرة الضيقة التى تضم الدولة ، لكى يكون علامـــة على الانتماء لذاتها الشخصية وعلى الاعتزاز بوجودها . ولكن المؤكد أن كل مدرســـة من هـــذه المدارس الفكريـــة الجغرافيـــة فى أى دولـــة من الدول - بلا استثناء - قد اخذت على عاتقها مسئولية الجغرافية ومفهومها العالمى . وقد كانت البحوث الجغرافية التى تغطى جغرافية القارة التى تقع فيها الدولة، أو التى تغطى العالم بأسره .

ومن غير أدنى تحيز ، نتبين عندئذ علامات التفتح والانفتاح ، بقـــدر ما نتبين مرونة الحس الجغرافى وكفـــاءة الاستشعار على كـــل مستوى من المستويات بداية من البحث الجغرافى فى أضيق اطار الى البحث الجغرافى فى أوسع اطار . وهو بحث - فى كل اطار - موضوعى ، يعبر عن أو يصور قدرة الجغرافى على تركيز اجتهاده فى أضيق مساحة تحتوى الأرض فيهـــا بعض الناس ، وفى أوسع مساحة تحتوى الأرض فيها كل الناس . وهذا معناه أن الجغرافية فى احضان المدارس الجغرافية الوطنية لم تتعصب ولم تغفل عن امتداد اجتهادها امتدادا بلا حدود على الصعيد العالمى .

وتأسيسا على الانفتـــاح الجغرافى على كـــل المستويات الذى تجنب التعصب ، يمكن أن ندرك كيف لم يتعارض التفكير الجغرافى فى احضـــان المدارس الجغرافية الوطنية تعارضا حقيقيا تتضرر منه الجغرافية العلمية . بل سارت قافلة الفكر الجغرافى الحديث سيرا حثيثا ، على درب واحد واضح المعالم نحو هدف واحد مشترك ، لحساب الانسان . وقد تمثل هذا الهدف بالفعل عندما تولى الفكر الجغرافى وضع وتطويع الخبرة الجغرافية وصقلها وتقـديم تجربتها الحيوية لحساب الحياة فى الدولة أو فى القارة أو فى العالمى كله .

وتأسيسا على الانفتاح الجغرافى على كل المستويات الذى تجنب التعصب، يجب أن ندرك كيف تفاعل التفكير الجغرافى فى احضان المدارس الجغرافيـــة

الوطنية تفاعلا حيويا ومفيدا ، من خلال الاحتكاك الفكرى الرشيد • بل لقد أسفر هذا الاحتكاك الفكرى عن جدل ونقاش موضـــوعى بناء فتح قنوات الاتصال للأخذ والعطاء من غير حدود • وقد أسفر ذلك كله عن فـكر جغرافى أفضل ، وهو يستجيب لارادة الحيـــاة فى الدولة أو فى القـــارة أو فى العالم كله •

الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين :

دخلت مسيرة الفكر الجغرافى الحديث القرن العشرين ، وهى فى كنف اجتهادات كل المدارس الجغرافية الوطنية التى نشأت ــ بالفعـل ــ ورسخت وجودها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر • وهذا معناه أنها ظفرت بأكثر من فريق مجتهد يوليها اهتمامه ويرعى خطواتها ، ويسجل الاضافة اليها وتنمية رصيدها وتحسين آدائها • ومعناه أيضا أنها ظفرت بروح التعاون بين المدارس الجغرافية الوطنية ولم تتضرر ببعض الاختلافات الفكرية فيما بينها •

ومن الجائز أن نلمس بعض الاختلاف بين اهتمامات المدارس الجغرافية الوطنية ، التى تولت مسئولية الفكر الجغرافى ، وخدمت آداء الجغرافيـــة العلمية فى القرن العشرين ، ومن الجائز أيضا أن تستشعر بعض التفاوت فى جدوى الاجتهادات الجغرافية التى اخلصت لها هذه المدارس الجغرافية الوطنية اخلاصا حقيقيا لحساب أداء جغرافى علمى أفضل فى القرن العشرين • ولكن الذى لا نشك فيه ولا نتشكك فيه ، هو التزام كل هذه المدارس الجغرافيــة الوطنية التزاما صريحا وكاملا بتطوير مسيرة الفكر الجغرافى الحديث • ومن وراء هذا الالتزام كان القبول بالاضافة والابداع والتجديد ، دون خروج أو تمرد أو بعد عن الخط الصحيح وصولا الى الهدف ، أو دون المساس بالتركيب الهيكلى لبنية الجغرافية الأساسية ومجالاتها الوظيفية الموضوعية •

وفى المرحلة التى تمثلت فيها وسيطرت هذه الروح فى النصف الأول من القرن العشرين ، صعد الفكر الجغرافى صعودا حقيقيا الى مكانة مرموقة ، وهو يحمل على عاتقه الآداء الجغرافى الممتاز ، ويضع علم الجغرافية فى مكان مناسب بين زمرة العلوم الطبيعية والانسانية المتخصصة • وقد بنى ذلـــك الفكر الجغرافى الحديث ــ بكل تأكيد ــ على كل أسباب ونتائج وأصالـــة الاجتهاد الجغرافى السابق فى كل مرحلة من مراحل نمو ونضج وتطـــور مفاهيمه من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر • ومن ثم كرس اهتمامه

ووظف علم الجغرافية فى توسيع وتعميق وتنمية المعرفة الجغرافية طلبا للرؤية الجغرافية الافضل طبيعيا وبشريا ٠

وهكذا برهن الفكر الجغرافى الحديث على أنه فكر طيع ، لأنه اعتمد - بكل ذكاء - على حسن استثمار نتائج التطور العلمى الذى أسفر عنه الفكر البشرى بصفة عامة من ناحية ، ولأنه تشبث - بكل اقتناع - بأهم المفاهيم المنطقية الجغرافية الراسخة عن الأرض والناس من ناحية أخرى ، لحساب آداء جغرافى عملى أفضل ، ومن ثم خلق علم الجغرافية فى القرن العشرين خلقا جديدا وسويا ٠ واكتسبت الجغرافية وجها متميزا ، لكى تعبر عن مدى كفاءة الاجتهاد الجغرافى العلمى ، وهو يطور استخدام حسة الجغرافى الذكى بصدق ومرونة فى استطلاع أبعاد الرؤية الجغرافية الافضل طبيعيا وبشريا ٠

واشراقة قسمات هذا الوجه الجديد للفكر الجغرافى الحديث فى مطلع القرن العشرين ، كانت - بكل الصدق - غير متوافقة مع توتر قسمات الوجه القديم الذى عاش به هذا الفكر نفسه وهو يبلور ذاته ويجسد أهدافه على المدى الطويل السابق للقرن العشرين ٠ وثمة عوامل متعددة واجتهادات مستمرة قد اسفرت عن تحديد ملامح هذا الفكر الجغرافى الحديث ، وقادت أو وجهت مسيرته المتأنية ورشدت خطواته فى الوجهة الصحيحة ، بقدر ما بثت فيه روح ومنطق القبول بالتحول وتعديل المسار ، والتطلع الى التغيير والتطور الى الأفضل ٠

هذا ولم يكن غريبا - على كل حال - والاجتهاد الجغرافى نشيطا ، يلهث وراء الرؤية الجغرافية الأوسع والأعمق ، أن يصنع هذا الفكر الجغرافى الحديث من انتاج أو حصاد المدارس الجغرافية الوطنية فى القرن العشرين ، علما مفيدا ، من حيث الصورة والشكل ، ومن حيث المنطق والأسلوب ، ومن حيث الجوهر والموضوع ٠ بل ولم يكن غريبا أيضا ، أن تتخذ الجغرافية وهى الوعاء الجامع والمصور لهذا الفكر الحديث ، سمة العلم المتخصص ، بكل ما يعنيه التخصص من حيث المظهر ، ومن حيث المضمون ومن حيث الهدف ٠

وما من شك فى أن التحول البناء ، الذى أدخل الفكر الجغرافى الحديث أو زج به فى أطوار التغيير ومراحل التطور ، قد بنى أساسا على ثمرات الاجتهاد الفكرى التجريبى والاجتهاد الفكرى الفلسفى على مدى أكثر من ثلاثة قرون سابقة للقرن العشرين ٠ كما بنى أيضا على تصاعد مبدأ التساؤل والالحاح فى طلب التفسير العقلى المقنع الكاشف لكنه وما هية الحقيقة الجغرافية، التى تدرك أبعادها الرؤية الجغرافية البصيرة ، فى انحاء الأرض ٠

وقد فرض الاجتهاد الفلسفي على وجه الخصوص هذا المبدأ فرضا حاكما على الفكر البشرى ، وهو يستوعب ثمرات النهضة المادية والفنية والروحية بصفة عامة ، وكان هذا المبدأ خطيرا لأنه قد فجر بالفعل كل التحولات الايجابية المثيرة ، التى اسفر عنها التفكير وأعمال العقل وشحذه ، وحسن استخدامه وصولا الى نفسير كاشف مقنع • وهذا معناه ان فرض التحول من مجرد ادراك الحقيقة الى قبول العقل لجوهرها وتفهم النتائج التى تترتب عليها•

وفى الفكر الجغرافى ، بدلا من أن كان الاجتهاد الجغرافى مكتفيا بسرد الحقائق وقبولها استسلاما لوجودها الفعلى ، وبدلا من ان ينكب هذا الاجتهاد الجغرافي على عرض صورة أو رؤية هذه الحقائق الجغرافية عرضا مشوقا تعبيرا عن وجودها الفعلى ، أصغى هذا الاجتهاد بكل الاهتمام - الى هدير التساؤلات الجادة التى مست صميم وجوهر هذه الحقائق الجغرافية • ومن قبيل الاستجابة لهذه التساؤلات الجاده بحث الاجتهاد الجغرافى بحثا مستفيضا واستنفر الفكر لكى يتدبر ويفكر ويدلى بما يراه الانسب عن جوهر هذه الحقائق الجغرافية • والفرق كبير - بكل تأكيد - بين فكر جغرافى سطحى ، يعرض الصور ويدرك الحقائق التى تحتويها الرؤية الجغرافية ، وفكر جغرافى عميق ، يتسلل الى الجوهر ويتلمس العوامل ، التى أسهمت فى صياغة جوهر الحقائق التى تنطق بها الرؤية الجغرافية •

ولئن أشاع هذا التساؤل الملح فى الاجتهاد الجغرافى فى القرن الثامن عشر ، الرغبة والتطلع الى تقصى الحقائق الجغرافية ، ودراسة الواقع الجغرافى دراسة تصل الى التفسير ، فنقد وجه العمل الجغرافى فى القرن التاسع عشر هذا الاجتهاد فى الاتجاه الباحث عن العلاقه الواقعية بين العوامل التى تكون الظاهرة الجغرافية المعنية • ومن الجائز أن الرغبة فى التفسير ، قد احدثت انقلابا وتحولا جغرافيا علميا مفيدا ، وادت الى شحذ الفكر الجغرافى وتنشيطه • ولكن المؤكد أن البحث الجغرافى عن العلاقة أو العلاقات ، قد وجه الفكر الجغرافى وجهة الربط • وربما كان ذلك من وراء ادراك تكشفت له معامل الارتباط بين الظاهرة الطبيعية والظاهرة البشرية • ومن ثم استغرق هذا الادراك بعد ذلك فى تقصى حقيقة التأثير المتبادل فيما بين هاتين الظاهرتين •

وهكذا ، أفلح الاجتهاد الجغرافى من خلال التفسير حينا ، ومن خلال ادراك العلاقة حينا آخر فى اضافة الجديد الكاشف عن الرؤية الجغرافية • بل لقد أضافت هذه الرؤية الجغرافية التى أسقط الفكر الجغرافى الحجب عن بعض

أبعادها شيئا مفيدا الى رصيد البشرية من المعرفة الجغرافية • ومن ثم قدم هذا الاجتهاد الجغرافى الى القرن العشرين مسيرة الفكر الجغرافى المدعومة بالقواعد والأصول التى صنعت من هذا الفكر علما متخصصا مفيدا •

وهذا معناه أن الاضافات التى أسفر عنها الاجتهاد الجغرافى على مدى أكثر من ثلاثة قرون ، أصبحت ميراثا ثريا للفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين • وكان أهم ما احتواه هذا الميراث الشكل العلمى للجغرافية ، وقبول هذا الشكل للتطور والتجديد • وهذا معناه أيضا أن الدراسة الجغرافية المتخصصة فى احضان المدارس الجغرافية الوطنية ، التى ورثت هذا الميراث الثرى ، أصبحت ـ بكل الموضوعية ـ علما هادفا ، فى الاطار العلمى الأصولى الصحيح •

وكان من شأن علم الجغرافية المتخصص ، أن يتقصى الحقائق الطبيعية فى أحضان الواقع الطبيعى على أى مستوى من المستويات فى المكان ، وأن يمحصها ويجلوا الغموض عن ما هيتها من خلال التوزيع والتعليل والربط ، وأن يتبين الضوابط الحاكمة للتوزيع ، والعوامل الكاشفة للتعليل ، والعلاقات المبنية على الربط • كما كان من شأنه أيضا ، أن يتقصى الحقائق البشرية فى احضان الواقع البشرى على أى مستوى من المستويات فى المكان ، وأن يمحصها ويجلوا الغموض عن ماهيتها واحتمالات التغير التى تتعرض لها ، من خلال التوزيع والتعليل والربط ، وأن يتبين الضوابط الحاكمة للتغيير والعوامل الكاشفة لنتائجه ، والعلاقات المترتبة عليه •

بل تتجاوز الجغرافية ذلك كله ، وصولا الى حد دراسة وتمحيص العلاقة الموضوعية ، المبنية على التفاعل الحياتى بين الواقع الطبيعى بكل أبعاده وضوابطه الحاكمة ، والواقع البشرى بكل اجتهاداته وانجازاته المتطورة والمتغيرة • وهذا معناه أن الجغرافية قد وسعت أهدافها وتطلعاتها فى القرن العشرين • ومعناه أيضا أنها لم تعد تقنع بدراسة الظاهرة الجغرافية الطبيعية أو البشرية دراسة منهجية أصولية لذاتها ، بل كانت توجه البحث وأداءه الوظيفى فى اتجاه أهداف موضوعية متعددة ، لحساب الحياة والانتصار لارادتها فى أحضان أى مكان على الأرض •

ولكى تكون دراسة الظاهرة المعنية موضوعيه وهادفة من وجهة النظر الجغرافية ، التى حدد أبعادها الاجتهاد الجغرافى فى القرن العشرين ، تتعرف الجغرافية على هذه الظاهرة المعنية أولا ، وتجلو الغموض عن كل

ما يتأتى عمقا واتساعا من ورائها ثانيا • وعنـدئذ تطلب الجغرافية وتحقق الهـدف المثمر المبنى على كنه وماهية هـذه الظاهرة ، لحساب الحيـاة • وقد يتمثل هذا الهدف ، فى ادراك واستشعار أثر هـذه الظاهرة المعنية ، المباشر وغير المبـاشر ، على مصلحة الانسـان ومسيرة حيـاته فى المكان • وقد يتمثل هـذا الهدف مرة أخرى ، فى ادراك واستشعار ، كيف كانت هذه الظاهرة وليدة تفاعل حيوى وبناء • وعندئذ تتدارس الجغرافية هـذا التفاعل وتحدد دور العوامل التى تصنع هـذا التفاعل وهو يترك بصماته على الظاهرة المعنية •

وهكذا تتجلى ـ بـكل الوضوح ـ ميزة الدراسة الجغرافية الموضوعية فى القـرن العشرين ، وهى ـ من غير شـك ـ دراسة تنجح فى استخلاص نتائج مفيدة مبنية على نتـائج علمية طبيعية أو علمية انسـانية ، لكى تبصر وترشد مسيرة الحياة فى الأرض • وهذا معناه أن الفكر الجغرافى الحـديث فى القرن العشرين قد اكتسب مرونة وعمقـا فى وقت واحـد ، وهو يحسن استخدام الاجتهاد الجغرافى ، فى تقصى الـكل من خلال الجزء أو فى تقصى الجزء من خلال الـكل • بل لقد هيأ الفـكر الجغرافى الحديث الفرص ، لكى يتفوق الاجتهـاد فى صياغة البحث الجغرافى ، وتجسيد النتائج الكاشفة لحقيقة وكنه وجوهر أى ظاهرة معنية •

ومن خلال القدرة على التحليل الكاشف عن الجوهر ، ومن خلال القدرة على التركيب المؤلف بين النتائج ، تؤكد جغرافية القـرن العشرين جدوى وفاعلية ونجـاح اجتهادها الجغرافى • ذلك أنهـا تسـجل ـ من غير شك ـ الاضافات وتبدع النتائج المفيدة من بعد أن تصل العلوم المتخصصة الطبيعية أو البشرية الى النقطة التى تتوقف عنـدها وتنهى مهمتها وأداء دورها العلمى البـاحث • بمعنى أن تتخذ من نتائج هـذه العلوم نقط انطلاق وتوثب الى نتائج حيوية مفيدة ، لحساب الحياة •

هذا وليس أصدق من المثل فى التعبير عن حقيقة تفوق الأداء الوظيفى العلمى ، والجغرافية تحقق ذاتيـا وتمارس من خلال القـدرة على التحليل والتركيب البحث الذى يسفر عن نتيجة أو نتائج مفيدة ، تنتفع بها مصالح الحياة فى الأرض • وفى هذا المثل ، نتبين كيف تبدأ اهتمامات الاجتهـاد الجغرافى ـ بالفعل ـ عنـدما تنتهى مهمة علم متخصص ، ويعطى خلاصة النتيجة التى توصل اليها الأداء الوظيفى المتخصص فى هـذا العالم وكيف يطوع الجغرافى يطور ويضيف الى هذه النتيجة ، فتكون نتيجة جديدة •

ودراسة الحرارة وتسجيلها ورصدها اليومى ، وغير ذلك مما يهم الاجتهاد الجغرافى فى دراسة المنـاخ ، يدخل — بشكل تأكيد — فى صميم اهتمام الاجتهاد المتخصص الباحث فى علم الميترولوجى . وقد يجد هذا الباحث المتخصص فى علم الميترولوجيا ، فى انخفاض الحرارة لكى تسجل الدرجة الدنيا ، أو فى ارتفاع الحرارة ، لكى تسجل الدرجة العظمى فى اليـوم ، وفى كل يوم ظاهرة جوية ، تستوجب الرصد والتسجيل والمتابعة ، بقدر ما تستوجب البحث الميترولوجى المجرد . وقد يسعى هذا الباحث — بكل الخبرة المتخصصة — الى تفسير هذا الارتفاع فى درجه الحرارة تارة ، وهذا الانخفاض تارة أخرى . وقد يسعى هـذا الباحث أيضـا — بكل الخبرة المتخصصة — الى الربط وتبين العلاقة بين هذه الظاهرة الجوية ، وظاهرات جوية أخرى ، مثل حالة الضغط الجوى وتحركات الهواء أفقيـا ورأسيا . والباحث الميترولوجى المتخصص ، عندما يهتم بذلك كله ، ويخضع هـذه الظاهرة لقواعد وأصـول علم الميترولوجى ، لا يكاد يخرج من اطار دائرة محددة ، تطوق فكره ، ويفرضها التخصص الدقيق من حوله . ومن ثم يفرغ من مهمته وأداء دوره الوظيفى المتخصص ، ويسـجل النتيجة أو النتـائج الجيـدة ، وهو مقتنع اقتناعا كاملا أنه قد أخلص فى أدائه ، وأنه قد أنجز ما ينبغى عليه انجازه .

وعندئذ يتقدم الجغرافى الذى لا تقنعه قيمة هـذه النتائج ، ويستنفر اجتهاده — بكل الخبرة المتخصصة — لكى يبنى على هذه النتائج نتائج مثمرة وموضـوعية وقيمة ، لحساب الحيـاة . ولـكى يحقق الاجتهـاد الجغرافى ما يصبو اليه ، ويسجل الاضـافة التى يرتضيها الفـكر الجغرافى الحديث ، يجتاز هـذا الاجتهاد حدود الدائرة الضيقة التى طوقت فـكر الميترولوجى ولا يتقيـد بقيودها . وعنـدئذ ، ينطلق الاجتهـاد الجغرافى — بـكل الخبرة المتخصصة — انطلاقا بناء الى تسجيل ثمرة أداء وظيفى يسـفر عن اضـافة مفيدة . وقد تكون الاضـافة لـكى تعبر عن رؤية الجغرافى عن العـلاقة بين ارتفـاع درجات الحرارة الى النهـايات العظمى أو انخفاضها الى النهـايات الصغرى من ناحية ، وحيـاة ومصالح الناس فى الحياة من ناحية أخرى . أو قد تكون الاضافة لكى تعبر عن رؤية الجغرافى أثر هـذه الظاهرة المعنية على الظاهرات الأخرى ، سواء كانت طبيعية أو بشرية . وهذا معناه أن يتعقب الاجتهاد الجغرافى أثر هذه الظاهرة الجوية المعنية ، وأن يسفر هـذا التعقب عن نتائج حقيقية تنتفع بها مسيرة الحياة وتشد وجودها فى المكان .

وبهذا المنطق الموضوعى ، ينبغى أن ندرك كيف أصبحت النظرة التى

يطنيها الفكر الجغرافى من الاجتهاد الجغرافى وهو يحسن استخدام قدراته التحليلية والتركيبية فى دراسة ظاهرة معينة ، نظرة موضوعية وعلمية من حيث الجوهر ، ومطلقة بغير حدود من حيث الهدف • وانخفاض درجة الحرارة مثلا الى ما دون الصفر المئوى مسألة لا تفوت الاجتهاد الجغرافى ، وهو يستشعر الأثر المباشر على حالة النمو النباتى وشكل الصورة النباتية ، أو وهو يدرك الخطر الذى يتهدد الزراعة ، أو وهو يحسب حساب معنى توقف الملاحة البحرية وتضرر التجارة الدولية • ومن شأن هذا الاجتهاد الجغرافى أن يتدارس مدى القدرة على ترشيد الحياة ، وهى تواجه كل النتائج التى يتسبب فيها الانخفاض فى درجة الحرارة الى ما دون الصفر المئوى •

ودراسة تركيب طبقات الارض وتركيبها الصخرى وعمرها الجيولوجى ، وغير ذلك مما يهم الاجتهاد الجغرافى فى دراسة التضاريس ، يدخل - بكل تأكيد - فى صميم الاجتهاد المتخصص الباحث فى علم الجيولوجيا • وقد يجد هذا الباحث فى علم الجيولوجيا ، فى دراسة الجبال والسهول والهضاب وغيرها من أشكال التضاريس الموجبة على سطح الأرض ، أمرا يهمه ويستحق بحثه بكل العمق والموضوعية • ويكون ذلك الاهتمام - بكل تأكيد - من قبيل الاستجابة لأهداف البحث الجيولوجى العلمى المتخصص • ومن شأن الجيولوجى أن يسخر اجتهاده فى دراسة تكوين هذه الظاهرات التضارسية وتصور العوامل التى أدت الى تكوينها • ومن شأنه أيضا أن يسخر اجتهاده الجيولوجى فى دراسة متخصصة تتبين وتقدر العمر الجيولوجى الذى ينبىء به التركيب الصخرى للظاهرة التضاريسية المعنية • وقد يؤسس الجيولوجى على ذلك كله ، تصورا مفيدا يحكى قصة وسياق التطور الجيولوجى التى انتهت الى خلق وتكوين الظاهرة التضاريسية المعنية ، أو يبصر البحث عن الثروة المعدنية ومعينها الثرى فى التراكيب الصخرية •

وعند هذا الحد ، يتوقف الاجتهاد الجيولوجى ، وهو مقتنع اقتناعا علميا كاملا أنه قد حقق كل النتائج التى يستهدفها دوره الوظيفى العلمى المتخصص - وما من شك فى أنه قد حقق بالفعل - أهداف التخصص الجيولوجى وأجرى بحثه حسبما تفرضه قواعد وأصول علم الجيولوجيا • ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجيولوجى المتخصص قد أدى دوره الوظيفى فى اطار دائرة محددة يفرض أبعادها التخصص الجيولوجى العلمى الدقيق • ومفهوم أن هذا الاجتهاد الجيولوجى قد كف بعد أن حقق أهدافه الأصولية ، لأنه لا يجد سببا وجيها يدعوه أو يلزمه بالخروج من اطار دائرة التخصص ، أو يحفزه لأن يفعل ويضيف أكثر مما أضاف •

وعندئذ يتقدم الجغرافى الذى لا تقنعه هذه النتائج • ويستشعر الاجتهاد الجغرافى المسئولية ، وهو يبنى على نتائج العمل الجيولوجى العلمى ، نتائجا جديدة ومثمرة بقدر ما هى موضوعية وهادفة ، لحساب الحياة • ولكى يحقق الاجتهاد الجغرافى ما يصبو اليه ، ويسجل اضافة وابداع الفكر الجغرافى العلمى الهادف ، يتجاوز حد الدائرة الضيقة التى ضيقت الخناق على الجيولوجى فى اطاره التخصصى العلمى ، ولا يلتزم أو يتقيد بقيودها الصارمة • ورغم اهتمام الاجتهاد الجغرافى بكل النتائج الممتازة التى أسفر عنها الاجتهاد الجيولوجى ، ورغم استيعاب ما تعنيه وما تعبر عنه كل هذه النتائج الجيولوجية العلمية الأصولية واستشعار مدى الانتفاع الحيوى والجاد بها ، ينطلق هذا الاجتهاد الجغرافى لأداء دوره الوظيفى التخصصى العلمى ، طلبا وتطلعا الى الاضافة المفيدة •

وقد يجد الاجتهاد الجغرافى أن يحقق هذه الاضافة ، من خلال دراسة العلاقة بين الظاهرة التضاريسية المعنية والنمو النباتى الطبيعى أو الزراعة فى أحضان التربة المشتقة من تركيبها الصخرى • وقد يجد هذا الاجتهاد الجغرافى أيضا أن يحقق هذه الاضافة ، من خلال تصور العلاقة الايجابية أو السلبية بين شكل وتكوين الظاهرة التضاريسية المعنية ، وحركة النقل التى تخترق حاجز المسافة ودرجة وعورته فى أحضان هذه الظاهرة ، أو من خلال ادراك أثر هذا التضرس ومقدار وعورته ، فى الفصل بين السلالات أو المجموعات اللغوية أو فى دعم الحد السياسى وتأمين مهمته لدى الفصل بين سيادة الدول •

وانطلاقة الفكر الجغرافى الحديث فى القرن العشرين الى مثل هذه الدراسات الموضوعية الهادفة ، لكى يتجاوز الاجتهاد الجغرافى الأثر الى المؤثر ، أو النتيجة الى السبب ، يؤكد عمق وتخصص علم الجغرافية • كما أن انطلاقة الفكر الجغرافى الحديث الى مثل هذه الدراسات الموضوعية الهادفة التى تطور وتضيف الى نتائج العلوم الطبيعية أو العلوم الانسانية ، يؤكد كفاءة الدور الوظيفى ومرونة علم الجغرافية ، هذا بالاضافة الى أن اتساع رؤية الاجتهاد الجغرافى لكى يغطى أى مساحة وصولا الى مساحة العالم كله فانه يؤكد مرونة علم الجغرافية مرونة كاملة •

وهكذا أصبح علم الجغرافية فى النصف الأول من القرن العشرين

الأنسب[1] ، وهو يستوعب الفكر الجغرافى الحديث استيعابا متخصصا ، أو وهو يسعف حركته المتطورة ومسيرته المتجددة ، استجابة لارادة الحياة . وما من شك فى أن الفكر الجغرافى الحديث قد قبل بالتطور والتجديد والاضافة ، لكى يساير التخصص العلمى الجغرافى ويخدم النمو الحيوى المتطلع الى الأفضل . وقد تبارت المدارس الفكرية الجغرافية الوطنية فى اثراء هذا الفكر وفى حسن صياغة التخصص العلمى الجغرافى . وتولى بعض الصفوة الممتازة من رجال هذه المدارس مهمة هذا التطوير والاثراء من خلال تفكير جغرافى منفتح ومتفتح ، فى شكل بحث مكتبى أو فى شكل بحث ميدانى . والمؤكد أن هذين الشكلين من أشكال البحث كانا يتكملان وصولا الى الرؤية الجغرافية التى تصور كفاءة الأداء الجغرافى العلمى المتخصص .

وتأسيسا على ذلك ، أصبح اهتمام التخصص الجغرافى بالبحث المكتبى أو بالبحث الميدانى ، وصولا الى التعميق على المستوى الرأسى أو وصولا الى التوسيع على المستوى الأفقى ، مطلوبا . ومن ثم نحمل الاجتهاد الجغرافى هذه المهمة بكفاءة ، فى اطار عدد من الدوائر فى وقت واحد . وقد يواجه هذا الاجتهاد الجغرافى المشقة ، عندما تتداخل هذه الدوائر ، وتؤدى الى درجة من درجات التعقيد. وقد تتجلى كفاءة الأداء الذى لا يعبأ بهذا التداخل ، ويتولى مسئوليته من غير اخلال أو خروج أو تمرد على قواعد وأصول التخصص العلمى الجغرافى الهادف .

ومن خلال الالتزام بالموضوعية العلمية الجغرافية المتخصصة ، تتكامل ثمرات البحث الجغرافى فى هذه الدوائر تكاملا سليما وسويا ، لكى يفى الاجتهاد الجغرافى بتطلعات الفكر الجغرافى الطموحة ، ولكى يحقق هذا الاجتهاد ما يصبو اليه الفكر الجغرافى من اضافات ايجابية مفيدة . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافى الذى استجاب لارادة الفكر الجغرافى الحديث ، قد أكسب الأداء الوظيفى العلمى الجغرافى مرونة وموضوعية .

ومن شأن المرونة فى الأداء الوظيفى التخصصى أن تكون مطلوبة ـ بكل الموضوعية ـ لكى تسعف الاجتهاد الجغرافى وهو يدرس الكل من خلال الجزء أو وهو يدرس الجزء من خلال الكل ، انجازا للبحث بشقيه المكتبى

---

(١) من أجل تحديد جوهر العلاقة الحقيقية بين الفكر الجغرافى والجغرافية ، نذكر أن الفكر الجغرافى هو جغرافية بالقوة ، وأن الجغرافية هى فكر جغرافى بالفعل . بمعنى أن علم الجغرافية تمثل الاجتهاد العلمى الذى يتولى مهمة التعبير عن الفكر الجغرافى وتحقيق أهدافه.

والميدانى • ومن شأن الموضوعية فى الأداء الوظيفى التخصصى أن تكون مطلوبة ـ بكل المرونة ـ لكى تحيط الاجتهاد الجغرافى علما بالرؤية الجغرافية وهو يعالج الظاهرة الجغرافية المعنية من خلال التوزيع والتعليل والربط ، انجازا للبحث بشقيه المكتبى والميدانى •

وبقدر الاهتمام الجغرافى بالظاهرات الطبيعية الكاشفة عن واقع وخصائص الأرض ، والاهتمام بالظاهرات البشرية الكاشفة عن واقع وامكانيات الناس ، ينبغى أن يكون التصدى الباحث عن الحقائق الجغرافيه موضوعيا ومرنا فى وقت واحد • والموضوعية والمرونة معا . تكفلان ترشيد الاجتهاد الجغرافى ، وهو يجسد أبعاد الشخصية الذاتية المتميزة للمكان • كما تكفلان أيضا ترشيد هذا الاجتهاد ، وهو يتلمس ويتقصى التأثير المتبادل بين الواقع الطبيعى بكل ضوابطه الحاكمة ، والواقع البشرى بكل امكانياته الفعالة •

وهكذا أصبح الفكر الجغرافى الحديث فى النصف الأول من القرن العشرين ، حريصا على توجيه الاجتهاد الجغرافى ـ بكل المرونة والموضوعية ـ الى دراسة متكافئة ومتوازية ومتكاملة عن الارض ، والى دراسة متكافئة ومتوازية ومتكاملة عن الناس • كما كان هذا الفكر الجغرافى ، أشد حرصا على انطلاق الاجتهاد الجغرافى انطلاقا علميا متخصصا ـ بكل الموضوعية والمرونة ـ الى كنه وجوهر التفاعل الديناميكى بين الناس والارض ، انتزاعا لحق الحياة وتأمين وجودها فى المكان •

ومن خلال هذا الحرص ، بارك الفكر الجغرافى الحديث ، انقسام الجغرافية علميا الى قسمين رئيسيين متكاملين • ومن الجائز أن غلبت بعض المدارس الفكرية الجغرافية الوطنية ، الاجتهاد الجغرافى ، فى قسم من هذين القسمين على القسم الآخر • ولكن المؤكد أن مدرسة من هذه المدارس الكثيرة على مستوى العالم ، لم تنكر أو لم تتنكر ابدا التقسيم العلمى المتوازن الذى تمثل فى الجغرافية الطبيعية ، والجغرافية البشرية •

وفى الجغرافية الطبيعية ، يوجه الاجتهاد الجغرافى كل العناية والاهتمام الى دراسة الواقع الطبيعى دراسة موضوعية علمية كاشفة لخصائصه ، فى اطار أى مساحة من الاقليم الى القارة الى العالم كله • **وفى الجغرافية البشرية** ، يوجه الاجتهاد الجغرافى كل العناية والاهتمام الى دراسة الواقع البشرى دراسة علمية كاشفة لوجوده فى أحضان الواقع الطبيعى ، فى اطار

أى تشكيل من الشعب الى الأمة الى الانسانية كلها • ومع ذلك فينبغى أن نفطن الى أن التخصص فى أى من هذين القسمين ، لا يتعارض مع الترابط بين هـذين التخصصين ، لانه كان وسيظل ترابطا أصوليا • وكأن هذين القسمين الكبيرين وجهين للعملة الواحدة • وبدون أى من هذين القسمين تكون الجغرافية غير واقعيـة وغير متكاملة • وهـل من المعقول أن يدرس الاجتهـاد الجغرافى الارض من غير أن يستشعر مكان الناس ومكانة الناس وحياة الناس فيها ؟ وهل من المعقول أن يدرس الاجتهاد الجغرافى النـاس من غير أن يستشعر مدى ارتباطهم الحيوى بالأرض ؟

ومن ثم لم ولا ولن يطلب الفكر الجغرافى فى القرن العشرين من الاجتهاد الجغرافى ، اجتهادا متخصصا ، ينغمس انغماسا كليا فى التخصص الدقيق الصـارخ ، أو اجتهـادا منغلقا يكرس كل اهتمـامه بقسم معين من هذين القسمين ، الى الحـد الذى ينسيه أو يصرفه أو يغنيه عن الاحاطة واستيعاب القسم الآخر • ولو فعل الاجتهـاد الجغرافى ذلك لافتقد ذاته الجغـرافية ، وهو ينزلق ــ على ارادة منـه ــ الى زمرة تخصص علمي آخـر • والمطلوب من الجغرافى ــ عنـدئذ ــ من غير أى تفريط فى عمق وأصـالة وموضوعية تخصصه الدقيـق ــ أن يحيط بهـذين القسمين معـا ــ من غير افراط فى السطحية ــ احاطة عامة كلية • ومطلوب منه أيضا ، أن يستشعر ويقدر مدى الترابط والتكامل الموضوعى والتداخل غير المخل فيما بينهما •

وهكذا لا يحرر الفكر الجغرافى الحديث الاجتهاد الجغرافى فى أى دراسة جغرافية على مسـتوى المكان (اقليمية) أو أى دراسة جغرافية على مستوى المكان فى الزمان (تاريخية) من الترابط والتكامل الموضـوعى بين الواقع الطبيعى والواقع البشرى • بل يتعين أن ينطلق الاجتهـاد الجغرافى انطلاقا ملتزما بالعلاقة التكاملية بين الأرض والناس • وهـذا معناه أن التخصص العلمى الدقيق فى فرع من فروع الجغرافية الطبيعية ، أو فى فرع من فروع الجغرافية البشرية ، لا ينبغى أن يعفى اجتهاد الجغرافى المتخصص من الاحاطة الـكلية بالقواعد والأسس التى تنظم هـذه العـلاقة التكاملية بين الأرض والناس • ولو فعل الجغرافى المتخصص ذلك ، وأعفى نفسه من هذه الاحاطة الكلية ، يكون قد تنكر بالفعل للفكر الجغرافى ، أو قد أنكر على هذا الفـكر موضوعيته الشاملة •

وعلى الرغم من الترابط والتكامل والتداخل الأصـولى غير المخل ، بين الجغـرافية الطبيعية والجغـرافية البشرية ، فان ثمة فروقات أصـولية

واختلافات جوهرية تميز بينهما تميزا موضوعيا • وقد نتبين هـذا التمييز الموضوعى واضحا عنـدما نستعرض ما يدخل من ظاهرات فى دائرة اهتمام كل منهما • ولـكن الأهم من ذلك كله هو أن نتبين مدى التباين فى تركيب وصياغة الخلفية العريضه التى تحدم موضوعية واهداف ورؤية كل منهما • بمعنى أنه تمييز موضوعى بالفعل ، لانه يمس الجوهر فى صميم التخصص العلمى لكل منهما ، ويحدد طبيعة ونوعية الأهداف المطلوبه من كل منهما •

ومن المفيد — على كل حال — أن يفطن الاجتهاد الجغرافى الى أبعاد وماهية هذا التمييز الموضوعى ، وأن يلتزم به التزاما علميا سويا • ولكن لا ينبغى أن يتعارض هذا الالتزام الموضوعى أو يخل بقواعد وأصول وأسس التكامل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ، أو أن يـكون التكامل بينهما مخلا ومتعارضا مع حد الالتزام الموضوعى بينهما • وقد حدد الفكر الجغرافى الحديث — بكل الموضوعية — الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية ووضع الحد الفاصل بين مجالات الاجتهاد الجغرافى فى كل منهما •

والجغرافية الطبيعية تخصص جغرافى علمى ، من شأنه أن يدرس كل الظاهرات التى تعتلى ظهر الأرض ، والتى لا يكون للانسان شأن فى تكوينها أو توزيعها • ومن وراء الاجتهاد الجغرافى الذى يعكف على البحث المتخصص فى الجغـرافية الطبيعية ، ينبغى أن تكون خلفية عريضة ثرية ثراء يسعفه بنتائج ومفاهيم وحقائق من صنع وانتـاج العـلوم الطبيعية المتخصصة • ومن شأن هذه الخلفية أن تظاهر الاجتهـاد الجغرافى وهو يدرس الظـاهرة الجغـرافية الطبيعية دراسة قوامهـا التركيب والتحليل فى وقت واحـد ، وصولا الى النتائج •

ودراسة ظاهرة طبيعية معينة ، تدعو الاجتهاد الجغرافى الى معـالجة تخصصية موضوعية ، مبنية على ما يحسن استخدامه من نتائج بعض العلوم الطبيعية ، وصولا الى كنه أو ماهية أو جدوى مجموعة العوامل ، التى تشترك بشكل أو بآخر ، فى تكوين هذه الظاهرة المعنية وتوزيعها ، أو فى اكسابها كل الخصائص المميزة لها • كما ينبغى أن يتعقب الاجتهـاد الجغرافى وضع هذه الظاهرة المعنية فى اطار الواقع الطبيعى ، وكيف تؤثر فيه أو تتأثر به • ومن قبيل الاستجابة العـلمية لارادة الفـكر الجغرافى الحـديث فى القـرن العشرين ، يـكون المطلوب من هـذا الاجتهـاد الجغرافى ، أن يعمق ويؤصل دراسة هذه الظاهرة الطبيعية المعنية تأصيلا علميا ، لحساب البحث الكاشف عن رؤية الجغرافى للواقع الطبيعى فى نهاية الأمر •

ومن شأن هذا التعميق العلمى الدراسى الهادف ، أن يتأتى من خلال البحث الجغرافى المتخصص ، الذى يسلك السلوك المنهجى العلمى الكاشف للظاهرة الجغرافية المعنية ، على الأرض • ومن الطبيعى أن يسفر هذا الاجتهاد الجغرافى المنهجى عن ولادة وترسيخ فروع جغرافية طبيعية متعددة • ومن ثم أسفرت هذه الفروع الدراسية المتخصصة عن صياغة القواعد والأصول والأسس ، التى خدمت هذا التخصص الجغرافى الموضوعى ، وحددت مسار الاجتهاد الجغرافى المنهجى الصحيح فى كل تخصص ، وصولا الى العمق العلمى المستهدف •

ومن شأن كل فرع من فروع الجغرافية الطبيعية ، أن يتناول جانبا من الجوانب أو ظاهرة من مجموعة الظواهر ، التى تؤلف فى جملتها الصورة الجغرافية الطبيعية على سطح الأرض • وعندئذ يتقصى هذا الفرع - بكل العمق والموضوعية - الحقائق التى تكشف عنها الرؤية الجغرافية لهذه الظاهرة المعنية • ومع ذلك ، يجب أن يقترن هذا الاجتهاد الجغرافى التخصصى بالمهارة والحنكة لدى تجميع أوصال وتنسيق قطاعات الرؤية الجغرافية لكل الظاهرات الطبيعية ، لكى يسفر عن البحث المتكامل تكاملا أصوليا وموضوعيا عن رؤية جغرافية كلية للواقع الطبيعى فى أى مساحة من الأرض أو على مستوى من مستويات اتساع هذه الأرض •

وجغرافية التضاريس ، فرع من فروع الجغرافية الطبيعية • ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى الرؤية التضاريسية فى المكان • وفى اطار هذه الرؤية ، يعالج الاجتهاد الجغرافى مسألة تكوين وشكل السطح ، وما يعتلى ظهر اليابس من درجات التضرس المتنوعة • ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى على بعض النظريات التى ابتدعها بعض الباحثين ، وهو يفسر النشأة والتكوين التضاريسى • كما يصور أو يتصور العوامل التى كانت من وراء صياغة الشكل التضاريسى الذى تفصح أو تعبر عنه الصور التضاريسية المتنوعة على أى المستويات • ويتمادى الاجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى هذا التضرس على المدى الجيولوجى • وقد يضيف الى ذلك كله صياغة السياق الرتيب الذى يحكى ويصور التغيير فى الصور التضاريسية من عصر جيولوجى الى عصر جيولوجى آخر •

والجيومورفولوجيا ، فرع آخر من فروع الجغرافية الطبيعية • ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى التشكيل

التضاريسي . وفى اطار هذا البحث ، يعالج الاجتهاد الجغرافى الأشكال التضاريسية ، ويصور التفاصيل الدقيقة التى تشكل تضاريس السطح . ومن الطبيعى أن يعتمد الاجتهاد الجغرافى على نتائج بعض العلوم الطبيعية ، التى تحدد قدرات العوامل المتنوعة ، وكيف تشكل التضاريس من خلال النحت والنقل والارساب . ويتمادى هذا الاجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى التشكيل التضاريسى ، من وقت الى وقت آخر . وقد يتابع هذا التغيير أيضا على المدى الجيولوجى . ثم يضيف الى ذلك كله صياغة السياق الرتيب ، الذى يحكى ويصور مراحل هذا التغيير ، فى التشكيل التضاريسى المتغير ، من عصر جيولوجى الى عصر جيولوجى آخر .

وجغرافية البحار فرع ثالث من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث التخصصى ، مسئولية البحث فى تكوين البحار وما يخفى من درجات وأنواع التضرس السالب تحت سطح البحر . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والافتراضات التى ابتدعها بعض الباحثين وهو يفسر نشأة وتكوين الأحواض التى تحتوى البحار والمحيطات . كما يصور هذا الاجتهاد أو يتصور فاعلية العوامل التى كانت من وراء صياغة التنوع في الأعماق الذى يسفر عن التضرس فى قاع البحر . وقد يتمادى الاجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التغير فى توزيع اليابس والماء على المدى الجيولوجى . وقد يضيف الى ذلك كله البحث عن الماء الذى يزخر به البحر ، ويصور خصائصه وتحركاته ونبض الحياة فى أحشائه .

وجغرافية المناخ فرع رابع من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى عناصر المناخ فى المكان . وفى اطار هذا البحث ، يعالج الاجتهاد الجغرافى ما ينبىء به الرصد المستمر أو الرتيب للحرارة والضغط الجوى وحركة الهواء والرطوبة والتكاثف والتساقط . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد على رصيد الباحثين فى علم المترولوجى فى تقصى أحوال المناخ ، ولكن المؤكد أنه يحصل على المتوسطات ، ويبنى عليها استطلاع خصائص المناخ ، وأنه يستطلع مدى التنوع فى خصائص المناخ من اقليم الى اقليم آخر . وقد يتادى هذا الاجتهاد الجغرافى ، فى صياغة تقسيم اقليمى يعبر عن هذا التنوع فى المناخ على أى مستوى من المستويات . كما يتمادى أيضا فى متابعة مدى التغير فى حالة المناخ على المدى الجيولوجى . ويضيف الى ذلك كله صياغة

السياق الرتيب الذى يحكى أو يصور هذا التغيير المناخى وفاعليته فى الاقاليم من عصر جيولوجى الى عصر جيولوجى آخر .

وجغرافية الحياة ، فرع خامس من فروع الجغرافية الطبيعية . ويحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الفرع التخصصى ، مسئولية البحث فى الرؤية الحيوية فى أنحاء الأرض . وفى اطار هذه الرؤية ، يعالج الاجتهاد الجغرافى نبض الحيـاة المتنوع سـواء تمثل فى النمو النباتى أو فى الوجود الحيوى الحيوانى بكل مراتبها . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والأفكار التى ابتدعها بعض الباحثين ، وهو يصور النشـأة وتطور هذه الحياة . كما يصور هذا الاجتهاد أو يتصور العوامل التى كانت من وراء انتشار وتنوع أنماط الحياة فى أنحاء الأرض . وقد يتمادى هـذا الاجتهاد الجغرافى فى متابعة الوجود الحيوى ، وما يطرأ عليه من تغيير وتطور على المدى الجيولوجى . ويضيف الى ذلك كله صياغة السياق الرتيب ، الذى يحكى أو يصور مراحل تغيير وتطور الوجود الحيـوى ، من عصر جيولوجى الى عصر جيولوجى آخر .

هذا ، ويكون هـذا التخصص العلمى الدقيق ، فى اطار كل فـرع من هذه الفروع ، التى تندرج تحت مظلة الجغرافية الطبيعية ، موضوعيـا وهادفا . ومن شأنه أن يصور مدى الحرص الذى يبـديه الفكر الجغرافى الحديث ، وصولا الى أكبر قدر من التعمق . كما يكون أيضا من قبيل التطلع الذى يرنو اليه الفكر الجغرافى الحديث ، وصـولا الى الاحاطة الموضوعية ، بكل ما من شـأنه أن يشترك أو يسهم فى صياغة وتجسـيد رؤية الواقع الطبيعى وادراك خصـائصه ومميزاته . ومن ثم أصبحت الجغرافية الطبيعية من خلال هذه الفروع هادفة ، وهى تعمق المعـرفة بالأرض كوطن للانسـان أو كمسرح يحتوى الحياة ويشهد التفاعل الحياتى بين الانسان والأرض .

ولئن دعا هـذا التخصص العلمى الموضوعى الاجتهاد الجغرافى الى قدر من الافراط فى التأصيل والعمق الهادف ، فلا ينبغى أن يفرط هذا الاجتهاد - فى نهاية الأمر - فى صـدق التزامه ووفائه ، الذى يدعوه الى وضع كل النتائج التى يتوصل اليها فى خدمة الانسان . بمعنى أن الجغرافية الطبيعية عندما تنكب من خلال كل فروعها المتعددة ، لدراسة وتجسيد الرؤية الجغرافية الواضحة للواقع الطبيعى للأرض على أى من المستويات ، لا يجب أن تكون هذه الدراسة دراسة مجردة لذاتهـا . بل يتعين أن تكون - بـكل الموضوعية - لحساب مصلحة الحيـاة فى الأرض . ولكى تكون هـذه الدراسة لحساب

مصلحة الحياة بالفعل ، يضع الاجتهاد الجغرافى العرض الموضوعى الكاشف للمسرح الذى يحتوى الحياة فى الشكل الذى يبصر ويرشد حركة ووجود وتفاعل الحياة مع الارض فى أى مكان ٠

والجغرافية البشرية تخصص علمي جغرافي ، من شأنه أن يتجه - بكل الاهتمام - الى دراسة الظاهرات البشرية العـامة فى أحضان الأرض ، وأن يعالج الرؤية الجغرافية التى تجسد نشـاط وفاعلية الانسـان ، وهو يؤكد وينتزع حق وجوده وسيادته على الأرض ٠ ومن وراء الاجتهاد الجغرافى الذى يتفرغ للبحث العلمى المتخصص فى الجغرافية البشرية ، ينبغى أن تكون خلفية عريضة وثرية ، قوامها ، معرفة بالواقع الطبيعى الذى يجسد المسرح ويشهد نشاط الانسـان ويحتوى وجوده ويجاوب ارادة حياته من ناحية ، ومعرفة بنتائج بعض العلوم الانسـانية الكاشفة عن حقيقة قدرات الانسـان وامكانياته من ناحية أخرى ٠ ومن شأن هـذه الخلفية الثرية أن تمثل المعين الذى يسعف الاجتهاد الجغرافى ويرشده ويبصر خبرانه ، وهو يعالج الظاهرة البشرية المعنية ، دراسة تركيبية تحليلية فى وقت واحـد ٠ وهى الدراسة التى تجمع وتؤلف بين أوصال الرؤية الجغرافية ، ثم تحلل هـذا التجميع أو التركيب تحليلا علميا ٠

ومن شـأن الرؤية الجغرافية للظاهرة البشرية ، أن تدعو الاجتهـاد الجغرافى دعوة صريحة ، الى معـالجة موضوعية كاشفة تستوعب ما تنبىء به هذه الرؤية ٠ وهـذا معناه أن تبنى هـذه المعالجة الموضوعية ، على حسن استخدام النتائج فى تحديد أبعاد هـذه الظاهرة البشرية المعنية ٠ ومعناه أيضا أن تتوصل هذه المعالجة الموضوعية الى كنه وماهية العوامل التى تشترك بشـكل أو بآخر فى بلورة هـذا النشـاط البشرى ومـدى تأثيرها السلبى أو الايجابى عليه ٠

هذا وينبغى أن يتعقب الاجتهاد الجغرافى من خـلال الرؤية الجغرافية للظاهرة البشرية المعنية مسألتين هامتين هما ، مدى تأثر الانسان واستجابة نشاطه الحيوى بالعوامل الطبيعية من ناحية ، ومدى تأثير الانسـان وفاعلية نشاطه الحيوى على الواقع الطبيعى من حوله من ناحية أخـرى ٠ وقد يتعمد الاجتهاد الجغرافى أكبر قدر من المهارة فى بيان التصور الذى يكشف ، كيف يصارع الانسان الأرض ، وكيف ينبرى لفرض ارادته عليهـا ، وكيف يصمد ويكبح أو يطوع الضوابط الطبيعية الحاكمة لارادة الحياة على الأرض ٠

ومن قبيل الاستجابة لارادة الفكر الجغرافى الحديث ، يكون المطلوب من الاجتهاد الجغرافى وتأصيل البحث والمعالجة الموضوعية للظاهرة البشرية المعنية - وربما كان للهدف فى بعض الأحيان ، نتائجا تبصر الحياة وترشد انتصار الفكر الجغرافى لارادة الحياة فى المكان • ولكن المؤكد أن هناك هدف نهائى هام وهو تأكيد قدرة الاجتهاد الجغرافى على تحويل الرؤية الجغرافية لمجموعة الظاهرات البشرية ، الى بيان أو بحث كاشف - بكل الوضوح - عن الواقع البشرى فى أحضان المكان •

وقد ترتب على الاطار الذى احتوى مسار التخصص الجغرافى فى الجغرافية البشرية وأهدافه ، ولادة أو نشأة فروع جغرافية متخصصة تخصصا دقيقا تحت مظلة الجغرافية البشرية • ثم أسفرت الدراسة الجغرافية المتخصصة فى كل فرع من هذه الفروع البشرية ، عن صياغة القواعد والأصول والأسس التى تخدم موضوعية البحث فى هذا التخصص الدقيق • كما أسفرت أيضا عن تحديد ووضوح رؤية الاجتهاد الجغرافى لأهداف هذا التخصص الدقيق ، وصولا الى النتائج والثمرات العلمية المستهدفة •

ومن شأن كل فرع متخصص من فروع الجغرافية البشرية ، أن ينكب الاجتهاد الجغرافى فيه ، على جانب من الجوانب أو على قطاع من القطاعات التى تؤلف فى مجموعها الصور الحياتية على الأرض فى أى مكان • ومن شأنه أيضا أن يتفرغ الاجتهاد الجغرافى فيه ، لتقصى الحقائق والعوامل التى تضع التفاصيل الحيوية فى هذه الصور • ومع ذلك ، فيجب أن يقترن هذا التخصص الدقيق فى كل فرع بالمهارة والحنكة ، لدى جمع وربط الأوصال التى تجسد الرؤية البشرية ، لكى يسفر الاجتهاد الجغرافى عن البحث المتكامل تكاملا أصوليا وموضوعيا ، عن الواقع البشرى للناس فى أحضان الأرض ، فى أى مساحة من المساحات وعلى أى مستوى من المستويات •

وجغرافية السلالات ، فرع متخصص من فروع الجغرافية البشرية • ويحمل الفكر الجغرافى الحديث مسئولية البحث فى قضية الانسان الأول وموطنه وانتشاره فى أنحاء الأرض • وعندئذ يكون استشعار مفهوم وحدة الأصل فى الزمان وفى المكان هدفا مرحليا تبنى عليه مسألة التنوع فى السمات والصفات فى مواقع الانتشار • ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى اعتمادا موضوعيا على بعض النظريات والأفكار التى ابتدعها بعض الصفوة من الباحثين ، لكى يعطى التصور عن النشأة . وعن الوطن الأول فى المكان الأنسب لبداية قصة الانسان على الأرض • كما يناقش الاجتهاد الجغرافى

العوامل البيئية التى كانت من وراء اكتساب الصفات التى ميزت بين السلالات الرئيسية . ويتمادى الاجتهاد الجغرافى فى متابعة التوزيع العام للسلالات وطرق الهجرات والضوابط الحاكمة لهذا الانتشار على الصعيد العالمى . كما يتطلع هذا الاجتهاد الجغرافى الى استشعار مدى الاختلاط بين السلالات وكيف أسقط عنها مفهوم النقاوة السلالية . وقد يتخذ من هذا كله سبيلا لمواجهة بعض أنماط التعصب الذى يستعلى بالجنس ويخبط دعوته .

وجغرافية السكان ، فرع متخصص أيضا من فروع الجغرافية البشرية . ويجعل الفكر الجغرافى الحديث الاجتهاد الجغرافى مضية للبحث فى قضية انتشار الناس وتوزيعهم فى انحاء الارض ، ومدى تنوع الكثافات السكانية من المكان الى المكان الاخر . وعندئذ يكون الاجتهاد الجغرافى حريصا على دراسة الضوابط الحاكمة لهذا التوزيع والتنوع فى الكثافات ، قدر حرصه على دراسة الضوابط الحاكمة لمعدلات النمو والزيادة الطبيعية فى السكان . ومن الطبيعى أن تهمس الاحصاءات والتسجيلات الدورية فى أذن الاجتهاد الجغرافى همسا يجسد رؤيته للتنوع فى الكثافات ومعدلات النمو والهجرة والتحركات السكانية . ولكن المؤكد أن نتائج بعض العلوم الانسانية تسعف الاجتهاد الجغرافى وهو يصور العوامل التى تكمن من وراء هذا كله وتتسبب فيه . ويتمادى الاجتهاد الجغرافى فى متابعة التوزيع الجغرافى للكثافات السكانية وتقصى حقيقة الضوابط الحاكمة لهذا النوع . كما يضيف هذا الاجتهاد الجغرافى الاقليم وهو يميز بين معدلات النمو فى أنحائها ويجسد رؤيته لمدى التوازن بين ضغط السكان على الموارد واستجابة الموارد لهذا الضغط . وقد يتسلل الاجتهاد الجغرافى الى استشعار العلاقة بين حجم الكثافة وحجم قوة العمل وحجم الاستخدام للموارد المتاحة وصولا الى هدف يقوم على الربط وهو يبصر الحياة بالوضع السكانى فى المكان .

وجغرافية السكن ، فرع متخصص آخر من فروع الجغرافية البشرية . ويوكل الفكر الجغرافى الحديث الى الاجتهاد الجغرافى أمانة البحث فى قضية السكن الذى يأوى اليه الناس فى أنحاء الأرض . وعندئذ يتولى الاجتهاد الجغرافى التمييز بين السكن فى أحضان البداوة ، والسكن فى أحضان الاستقرار . كما يتدارس مدى التباين والتنوع بين السكن فى المدينة فى أحضان الحضر ، وفى القرية فى أحضان الريف . ومن الطبيعى أن يعتمد الاجتهاد الجغرافى اعتمادا ذكيا على بعض النظريات والأفكار التى ابتدعها لفيف من الباحثين لكى يعطى التصور الكاشف لرؤية الجغرافية لنوع

السكن وأنماط المساكن . والمؤكد أن يتلمس هذا الاجتهاد الجغرافى العوامل الطبيعية والبشرية التى تسبب هذا النوع : وقد يتمادى الاجتهاد الجغرافى فى متابعة الضوابط الحاكمة لانتشار المدن والقرى فى أنحاء الاقليم ، وتصوير العلاقة الحتمية بين المدن والقرى وحركة الحياة فى الظهير المباشر من حولها • وقد يتسلل الاجتهاد الجغرافى الى نمو المدن والقرى واستشعار العلاقة بين هذا النمو من ناحية ، ومعدلات الزيادة الطبيعية من ناحية ثانية ، والتحركات السكانية بين الريف والحضر من ناحية ثالثة ، وصولا الى هدف يقوم على الربط ، وهو يبصر الحياة بمأواها فى المكان •

والجغرافية الاقتصـــادية فرع ضـــخم وعريق من فروع الجغرافية البشرية • ويعتمد الفكر الجغرافى الحديث على الاجتهاد الجغرافى ، فى معالجة انماط التفاعل بين الناس والارض وأساليبه ومستوياته المتفاوتة والمتنوعة، طلبا لاستخدام موارد الارض • كما يعالج هذا الاجتهـاد عمليات الانتاج بدرجاته الأولية أو الثنائيـــة ، وعلاقتها التوازنيـــة بعمليات الاستهلاك ومعدلاته المتفاوتة • ومن الطبيعى أن يأخذ هذا الاجتهـاد الجغرافى ببعض النظريات والأفكار التى ابتدعها بعض الباحثين ، لكى يعطى التصور الذى يعبر عن الرؤية الجغرافية للعوامل التى تكمن من وراء انماط التفاعـــل الحياتى بين الناس والارض • وقد يعتمد أيضا على بعض نتائج العـلوم الطبيعية والانسانية ، لكى يصور دور التجارة الدولية فى الربط المتوازن بين الانتاج والاستهلاك • ويتمادى هذا الاجتهاد الجغرافى فى متابعـــة النشاط الاقتصادى على أى مستوى من مستويات بقصد استشـعار مدى التنوع فى محصلة التفاعل بين الناس والارض • وقد يتسلل هذا الاجتهاد الجغرافى الى مصر وتقصى حقيقة الضوابط الحـــاكمة للانتاج الاقتصادى وللاستهلاك البشرى ومدى التنوع فى معدلاته من حيث الكم والكيف عـلى حد سواء •

وجغرافية النقل فرع حيوى من فروع الجغرافيـــة البشرية • ويعهد الفكر الجغرافى الحديث للاجتهاد الجغرافى مهمة هامة ، تعالج تطور الجهـد البشرى وهو يبدع الأساليب والوسائل لاسقاط أو لاختراق حاجز المسافة بين المكان والمكان الآخر • كما يعالج هذا الاجتهاد الجغرافى الرؤية الجغرافية الكاشفة عن كنة أو جوهر العلاقة الموضوعية بين عمليات النقل وتشغيل وسائله وحركة التجارة الدولية من ناحية ، وتهيئة أكبر قدر من التوازن بين العرض والطلب لحساب الانسان من ناحية أخرى • ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والأفكار التى ابتدعهـا

البحث العلمى المتخصص ، وهو يصور دور العوامل أو الضوابط الحاكمة لعملية تشغيل وسائل النقل واستخداماتها الاقتصادية ، لحساب الحركة والنقل التجارى ، لحساب مجتمع الدول . وقد يتمادى هذا الاجتهاد الجغرافى فى متابعة مدى التطور فى وسائل النقل وحسن استخدامها . واستشعار المدى الذى تحقق عمليات النقل من خلاله أكبر من قدر من التوازن بين الانتاج والاستهلاك فى اطار شكل من أشكال التكامل الاقتصادى بين الاقاليم على مستوى الدولة أو مجموعة دول أو على مستوى العالم كله .

والجغرافية السياسية ، فرع بناء من فروع الجغرافية البشرية ، ويتطلع الفكر الجغرافى الحديث الى الاجتهاد الجغرافى لكى يخدم النقاء الموضوعى بين الجغرافية والسياسية على طريق كاشف لأبعاد المشكلات السياسية . ومن شأن الاجتهاد الجغرافى أن يعالج بناء وتكوين الدولة واستشعار مقومات وجودها المؤلف من أرض وناس ونظام يفرض سيادة الناس على الارض فى الدولة ، وأن يصور كيف تلعب هذه المقومات دورها الحيوى فى تحديد مكانة الدولة فى مجتمع الدول من ناحية وفى خلق أو تعقيد أو تفجير المشكلات من ناحية أخرى . ومن الطبيعى أن يعتمد هذا الاجتهاد الجغرافى على بعض النظريات والأفكار التى يتوصل اليها البحث العلمى المتخصص ، وعلى بعض نتائج بعض العلوم الانسانية ، لكى تتأتى الرؤية الجغرافية الكاشفة عن العوامل التى تكمن من وراء علاقة ووضع الدولة مع جيرانها ومكانتها الحقيقية فى المجتمع الدولى . ويتمادى هذا الاجتهاد فى متابعة تطور الدولة الحيوى ومدى تأثير المشكلات التى تعيشها الدولة على هذا التطور طلبا وتطلعا الى مجالها الحيوى . وقد يتسلل هذا الاجتهاد الجغرافى الى دراسة عوامل تفجير المشكلات من الداخل أو من الخارج أو الى متابعة مدى التأثير أو التأثير الذى يفرضه منطق التوازن بين القوى الأعظم فى العالم على وضع وسياسة ومكانة الدولة .

هذا ويكون هذا التخصص الدقيق ، فى اطار كل فرع من فروع كثيرة تندرج تحت مظلة الجغرافية البشرية ، علامة من أهم علامات حرص الفكر الجغرافى الحديث على دراسة وتقصى الظاهرات البشرية ، وصولا الى أكبر قدر من العمق الموضوعى على كل المستويات . ومن الجائز أن يستهدف الفكر الجغرافى الحديث ، الاحاطة الموضوعية بما تعنيه الظاهرة البشرية وتعبر عنه وصولا الى استشعار مسيرة الحياة ودفع خطواتها فى المكان . ولكن المؤكد أن الفكر الجغرافى الحديث قد تطلع دائما الى اتخاذ الجغرافية البشرية

مطية لتجسيد الرؤية الجغرافية للواقع البشرى وخصائصه فى احضان المكان .

ومن ثم تكون الجغرافية البشرية ، من خلال فروعها المتخصصة الكثيرة هادفة بالفعل ، عندما تتولى هذه الفروع تعميق المعرفة بالناس والوجود البشرى السيد على الارض ، وعندما تتولى من خلال البحث التركيبى والتحليلى فى وقت واحد ، تصوير أبعاد ونتائج التفاعل الحياتى بين الناس والأرض تفاعلا مثمرا . ولئن دعا هذا التخصص العلمى الدقيق الاجتهاد الجغرافى الى الافراط فى التأصيل والتحليل والتعميق وصولا الى البحث الجغرافى البشرى الموضوعى الجيد ، فلا ينبغى أن يفرط الجغرافى ابدا فى صدق التزامه وغاياته الفعلى ، بوضع كل النتائج التى يتوصل اليها هذا البحث فى خدمة الانسان ، الفرد والمجتمع على حد سواء .

وهذا معناه أن الجغرافية البشرية ، عندما تتفرع من خلال فروعها لدراسة الظاهرة البشرية المعنية ، أو عندما تنكب على جمع أوصال الرؤية الجغرافية للواقع البشرى على أن مستوى من مستويات الارض ، لا يجب أن تكون أهدافها مجردة لذاتها . بل يتعين أن تكون الدراسة الجغرافية البشرية هادفة ــ بكل الموضوعية ــ لحساب الانسان وحياته فى الارض . ولكى تكون هذه الدراسة الجغرافية البشرية لحساب الانسان بالفعل ، يجب أن ينجح الاجتهاد الجغرافى فى تطويع نتائج البحث الجغرافى البشرى تطويعا مفيدا لنشاط الانسان ولنبض حياته على الارض . ولا تكون هذه الفائدة حقيقية الا اذا افلحت هذه النتائج فى ترشيد تفاعل الانسان الحياتى مع الارض ، وانتصرت لارادة وجوده على أن مستوى من مستويات الارض .

وهكذا ، يلزم الفكر الجغرافى الحديث ، الاجتهاد الجغرافى ، فى مجال الدراسة الجغرافية الموضوعية لظاهرة من الظاهرات ، بضرورة استشعار الحد الفاصل ــ بكل الموضوعية ــ بين مفهوم الجغرافية الطبيعية واهتمامات فروعها المتخصصة ، ومفهوم الجغرافية البشرية واهتمامات البشرية واهتمامات فروعها المتخصصة ، لكى يتجنب الخلط أو التردى فى الخطأ الموضوعى . ومن قبل أن يضع الاجتهاد الجغرافى الظاهرة المعنية فى اطار البحث المتخصص ، ينبغى أن يتحسس وضع أو مكان الانسان فيها وصولا الى حكم سوى عن جوهر التخصص فيها . واذا تكشفت له أن للانسان فيها مكانا ، كانت الظاهرة المعنية بشرية ومن النمط الذى يدخل فى صميم اهتمام الجغرافية البشرية أو فرع من فروعها المتخصصة . أما اذا افتقد

الإجتهاد الجغرافى مكان الانسان فيها ، كانت الظاهرة المعنية طبيعية ومن النمط الذى يدخل فى صميم اهتمام الجغرافية الطبيعية أو فرع من فروعها المتخصصة •

ومن خلال الحرص على الحد الفاصل بين الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية والالتزام به يؤكد الفكر الجغرافى الحديث على موضوعية علم الجغرافية بالفعل • وهذا دليل صادق لا يضل ولا يضلل ، عندما نصور الجغرافية على أن شأنها شأن العملة لها وجهين متكاملين • الأول طبيعى مجاله الأرض مسرح الحياة ، والثانى بشرى مجاله الانسان صاحب الحق فى الوجود على هذا المسرح • وبهذين الوجهين المتكاملين ــ معا ــ تكون الجغرافية كما أراد الفكر الجغرافى الحديث لها أن تكون • وما من شك فى أن إفتقاد وجــه من هذين الوجهين ، يعطل مفعولها ويخل بواقعيتها ويفسد موضوعيتهــا ويضيع أهدافها • والا فما هى القيمة الفعلية لدراسة الارض وخصائصها ، من غير أن تكون وطنا للانسان ومرتعا لنشاطه ومسرحــا لحياته وموردا لعطائه ؟ وما هى القيمة الفعلية لدراسة الانسان ومتابعة قصـــة حياته وتفاعله ، من غير أن يكون ملتصقا بوطنه ومتفاعلا مـــع الارض وطالبا لعطائها ؟

وموضوعية الدراسة أو البحث الجغرافى المتخصص ــ كما يريدهــا الفكر الجغرافى الحديث ــ فى كل فرع من الفروع التخصصية فى الجغرافية الطبيعية أو فى الجغرافية البشرية على السواء ، تكون ــ من خلال أى منهج من مناهج البحث ــ مبنية بالضرورة على التأصيل والواقعية ، لدى معالجة رؤية الواقع الجغرافى الطبيعى أو رؤية الواقع الجغرافى البشرى ، ولدى صياغة وتجسيد أى منهما ، ومن ثم يملى الفــكر الجغرافى الحديث ارادة الالتزام ، بمفهوم التخصص الجغرافى الدقيق ، فى اطار التخصص العام ، لدى صياغة وتأصيل القواعد والأسس كنتائج ايجابية يتوصل اليها البحث الجغرافى الموضوعى •

ومن شأن ارادة الالتزام ، أن تصغى جيدا ، وأن تطاوع وتستجيب ، الى حاجـــة البحث الجغرافى المتخصص ، لكيلا يضـــل فلا يحقق الهدف الموضوعى • والا فكيف يمكن التمييز بين القواعـــد والأسس التى يبنى الاجتهاد الجغرافى النتائج التى يسفر عنها البحث الجغرافى لحساب رؤيـة الواقع الجغرافى الطبيعى ، والقواعد والأسس التى يبنى الاجتهاد الجغرافى النتائج التى يسفر عنها البحث الجغرافى لحساب رؤية الواقـــع الجغرافى

البشرى ؟ ومن غير هذا التمييز لا يحقق البحث الجغرافى الموضوعية الحقيقية ولا ما يبتغيه التخصص الجغرافى ٠

وتأسيسا على ذلك التقسيم الذى ارتضاه الجغرافيون ، وتأسيسا على ذلك التمييز بين القسمين الذين حققا هدف الفكر الجغرافى الحديث ، لا ينبغى أن تمثل الدراسة الجغرافية الاقليمية ، ولا الدراسة الجغرافية التاريخية فروعا من خلال هذا التقسيم الموضوعى للجغرافية ٠ وليس من الصدق فى شىء ، أن يزج الاجتهاد الجغرافى بالبحث الهادف فى أى منهما ، فى اطار الجغرافية الطبيعية ، أو فى اطار الجغرافية البشرية ٠ وفى تصورى أن الدراسة الجغرافية الاقليمية ، والدراسة الجغرافية منهجين أو أسلوبين من أساليب البحث الموضوعى الجغرافى أكثر من أى شىء آخر ٠ بمعنى أن يصب الاجتهاد رؤيته الجغرافية فى قالب اقليمى ، أو أن يصب هذه الرؤية فى قالب تاريخى ٠

والجغرافية الاقليمية التى اختلف بشأنها الاجتهاد الجغرافى فى القرن التاسع عشر ، سبيل من سبل الدراسة الجغرافية الموضوعية ٠ وفى اعتقادى انها تمثل أسلوب عمل ، يعتمد عليه الاجتهاد الجغرافى بذكاء ومهارة وخبرة ممتازة ، لتغطية البحث الجغرافى المتكامل الهادف طبيعيا وبشريا على مستوى المكان ٠ ومن الطبيعى أن يعتمد الاجتهاد الجغرافى على خلفية ثرية وعامرة بحصاد التخصص الجغرافى الطبيعى والبشرى على حد سواء ، لانجاز مهمته وآداء دوره الوظيفى فى البحث الجغرافى الاقليمى ٠

وانطلاقا من قواعد الجغرافية ، يهتم الاجتهاد الجغرافى بالارض فى المكان أو الاقليم اهتماما مزدوجا أو ثنائيا بأكبر قدر من التوازى والتوازن على محورين ٠ ويستهدف الاجتهاد الجغرافى على المحور الأول تغطية الدراسة أو البحث الموضوعى الكاشف عن رؤية الواقع الجغرافى الطبيعى ٠ ويستهدف على المحور الثانى تغطية الدراسة أو البحث الموضوعى الكاشف عن رؤية الواقع الجغرافى البشرى ٠ وعندئذ تتكامل الرؤية الجغرافية فى اطار الاقليم تكاملا موضوعيا من حيث الشكل ومن حيث الجوهر ٠ وقد يحمل الفكر الجغرافى الحديث هذا الاجتهاد الجغرافى من بعد ذلك كله مسئولية حسن استخدام هذه الرؤية الجغرافية المتكاملة فى الاقليم ، لابداع الأسلوب العلمى الذى يمكن أن تتخذه الجغرافية سبيلا من أفضل سبل تقسيم العالم الى

اقاليم أو وحدات جغرافية متميزة(١) ٠

وهذا معناه أن الفكر الجغرافي الحديث قد أنجز من خلال المنهج الجغرافي الاقليمي أكثر من هدف ٠ ومن الجائز ان نتبين الهدف الأول وكيف يتحقق من خلال دراسة جغرافية مكثفة تصور الرؤية الجغرافية المتكاملة بشقيها الطبيعي والبشري في اطار الاقليم ٠ ولكن المؤكد أن هذا الانجاز يفتح الباب لكي ينجز الاجتهاد الجغرافي الهدف الاهم الذي يحقق التقسيم الاقليمي الافضل على الارض ٠

والجغرافية التاريخية ، تمثل بدورها أسلوبا آخرا من أساليب العمل الجغرافي الموضوعي ، ومن شأن الاجتهاد الجغرافي أن يعتمد على هذا الأسلوب بذكاء وخبرة ممتازة ، لتغطية البحث الجغرافي المتطور على المدى الزماني ٠ وقد يكون هذا المدى الزماني قصيرا لا يتجاوز بضع سنوات معدودات أو طويلا على امتداد القرون الطويلة ، أو بلا حدود على المدى الجيولوجي ٠ ولكن المؤكد أن التطور الذي يبتغيه البحث الجغرافي ، يعالج الظاهرة الجغرافية في المكان وفي الزمان في وقت واحد ، وقد يحتاج الاجتهاد الجغرافي الى حسن استثمار خلفية ثرية بحصاد التخصص الجغرافي ٠ لكي يتابع التطور وما ينشأ عنه من تغيير في الرؤية الجغرافية للظاهرة المعنية ٠

هذا وعندما يهتم الاجتهاد الجغرافي بظاهرة طبيعية في المكان(٢)، انطلاقا

---

(١) قد يركز الاجتهاد الجغرافي على ظاهرة بشرية معينة ، من أجل تصنيف أقاليم اقتصادية أو أقاليم سكانية أو أقاليم سلالية أو أقاليم سياسية أو أقاليم لغوية أو أقاليم انتاجية ٠ وقد يجمع بين عدد من الظاهرات البشرية من أجل تصنيف أقاليم بشرية ٠ وهذا من غير شك انجاز طيب ومشكور ٠ وقد يركز الاجتهاد الجغرافي على ظاهرة طبيعية معينة ، من أجل تصنيف ، أقاليم تضاريسية أو أقاليم مناخية، أو أقاليم نباتية أو أقاليم حيوانية، أو أقاليم قارية وأقاليم بحرية. وقد يجمع بين عدد من الظاهرات البشرية من أجل تصنيف أقاليم طبيعية ٠ وهذا من غير شك انجاز طيب ومشكور أيضا ٠ ومن الجائز أن ينتفع البحث الجغرافي بالأقاليم البشرية أو بالأقاليم الطبيعية ٠ ولكن أن يجمع الاجتهاد الجغرافي بين الظاهرات البشرية والظاهرات الطبيعية معا وأن يحسن استخدام دلالتها ، من أجل تصنيف أقاليم جغرافية فهذا هو الابداع بالفعل ٠ وكيف لا يكون ذلك ابداعا والاقليم الجغرافي وليد البحث الجغرافي المتكامل بشقيه الطبيعي والبشري والمتميز طبيعيا وبشريا عن الأقاليم الأخرى ٠

(٢) من شأن الظاهرة الطبيعية أن تكون تضاريسية أو مناخية أو نباتية أو حيوانية ٠ بمعنى أن تكون ظاهرة من مجموعة الظاهرات التي تجمع أوصالها ، الرؤية الجغرافية الطبيعية في المكان ٠

من قواعد الجغرافية الطبيعية ، يغطيها البحث تغطية تطورية على المدى الزمنى المعلوم . وتعبر هذه التغطية التطورية عن معنى ومدى وماهية التغيير الذى يلحق بهذه الظاهرة المعنية ، من عصر الى عصر آخر أو من وقت الى وقت آخر ، ويكون البحث الموضوعى بحثا فى الجغرافية الطبيعية التاريخية ، لأنه يدرس الظاهرة المعنية فى المكان وفى الزمان فى وقت واحد .

وعندما يهتم الاجتهاد الجغرافى بظاهرة بشرية فى المكان(١) ، انطلاقا من قواعد الجغرافية البشرية ، يغطيها البحث تغطية تطورية على المدى الزمنى المعلوم . وتعبر هذه التغطية التطورية ، عن معنى ومدى وماهية التغيير الذى يلحق بهذه الظاهرة المعنية ، من عصر الى عصر آخر ، أو من وقت الى وقت آخر . ويكون البحث الموضوعى بحثا فى الجغرافية البشرية التاريخية ، لأنه يدرس الظاهرة المعنية فى المكان وفى الزمان فى وقت واحد .

ومن شأن الالتزام بالتطور على المدى الزمنى المعلوم الذى يسفر عن شكل من أشكال الجغرافية التاريخية ، سـواء كانت طبيعية أو بشرية ، الا يحل الجغرافى ولا يسقط عنه الالتزام الكامل بقواعد الجغرافية الطبيعية أو بقواعد الجغرافية البشرية . وهذا معناه التزام بمنهج والتزام بقواعد فى وقت واحد من غير تعارض بين هذين الالتزامين . وقد يفلح الاجتهاد الجغرافى الملتزم ، فى معظم الأحوال ، فى تسجيل اضافة مفيدة ، من خلال رصـد ومتابعة الرؤية الجغرافية المتغيرة طبيعيا أو بشريا ، وتقصى العوامل التى أدت الى هذا التغيير .

وفى بعض الأحيان ، يخلط الاجتهاد الجغرافى بذكاء وخبرة بين هذين المنهجين الاقليمى والتاريخى خلطا جيدا ، لتغطية البحث الجغرافى الاقليمى التاريخى(٢) ، ويعتمد الاجتهاد الجغرافى على خلفية ثرية بقواعد الجغرافية الطبيعية والبشرية ، وهو يدرس جغرافية الاقليم دراسة تطورية على مدى

---

(١) من شأن الظاهرة البشرية أن تكون اقتصـادية أو سكانية أو سكنية أو سـلالية أو سياسية . بمعنى أن تكون ظاهرة من مجمـوعة الظاهرات التى تجمع أوصـالها الرؤية الجغرافية البشرية فى المكان .

(٢) تفضل الجغرافية هذا البحث المركب عندما تغطى دراسة جغـرافية فى اطار دولة على وجه الخصوص . بمعنى أن يكون الدولة اقليما سياسيا وأن يـكون التطور سبيلا ومنهجا لتغطية البحث الجغرافى المتطور فى هذا الاقليم .

زمنى معلوم ، ومن شأن الاجتهاد الجغرافى أن يلتزم بمنهج الدراسة الاقليمية على مستوى المكان ، وأن يلتزم بسياق الدراسة التاريخية على مستوى الزمان وصولا الى الهدف • وهذا الالتزام المزدوج هو السبيل الأمثل للخلط المتوازن بين المنهجين الاقليمى والتاريخى ، ومن غير أن يتحرر من قواعد الجغرافية بشقيها الطبيعى والبشرى ومن غير أن تتضرر عناصر وسياق البحث • ومن غير هذا التوازن بين عامل المكان وعامل الزمان ، قد يفتقد هذا البحث الجغرافى المركب موضوعيته •

الفكر الجغرافى الحديث ومنهج الجغرافى الأصولى :

لقد أفلح الفكر الجغرافى الحديث ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، فى وضع الجغرافية فى المكان الصحيح بين زمرة العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، فلقد انكب الاجتهاد الجغرافى على تأكيد موضوعية علم الجغرافية ، على صياغة وضعه التجريبى • ومن خلال البحث الموضوعى الجغرافى المتخصص ، ومن خلال حسن التقاط واستخدام نتائج العلوم الطبيعية والانسانية ، باتت الجغرافية علما تركيبيا تحليليا فى وقت واحد • وقد استهدفت من التركيب والتحليل صياغة وبناء النتائج التى تمثلت فى تجسيد الرؤية الجغرافية وتشريحها ، لحساب الانسان ومسيرة حياته على الارض وتفاعله معها طلبا لعطائها •

وكان من الطبيعى عندئذ أن يخضع علم الجغرافى وهو يعبر عن الفكر الجغرافى الحديث ، لكل ما يمليه المنطق العلمى الصحيح شكلا وموضوعيا • بل وكان من المؤكد أن تتوافق أو تساير نتائج البحث الجغرافى الموضوعى كل المفاهيم الموضوعية المتطورة • ومن ثم لم تتعارض أو لم تتناقض نتائج الابحاث الجغرافية الموضوعية مع نتائج كل العلوم التى ينهل الاجتهاد الجغرافى من معينها المثمر • وكيف نتوقع التعارض أو التناقض والجغرافية تعتمد على هذه النتائج وتطوعها تطويعا علميا وموضوعيا لحساب البحث الجغرافى وهو يسجل اضافاته المفيدة •

وفى اطار أى منهج من مناهج البحث العلمى ، كان من شأن الاجتهاد الجغرافى أن يخطو خطوات أساسية لتجسيد الرؤية الجغرافية • وتتمثل هذه الخطوات فى التوزيع والتعليل والربط • بمعنى أن يتولى الاجتهاد الجغرافى مهمة أو مسئولية تطويع الظاهرة المعنية تطويعا موضوعيا لحساب البحث الذى يجسد رؤيتها جغرافيا ، من خلال التوزيع والتعليل والربط • ومن غير ذلك التطويع ، لا تكون الدراسة التركيبية التحليلة للظاهرة الجغرافية

المعنية . متكاملة أو موضوعية . وهكذا أصبح الالتزام بالتوزيع والتعليل والربط التزاما مؤكدا وضروريا ، لكى يحقق الاجتهاد الجغرافى أهداف البحث الموضوعى شكلا وموضوعا .

والتوزيع ، قضية ملحة تمليها طبيعة البحث على الاجتهاد الجغرافى وهو ينكب على دراسة أى ظاهرة جغرافية . ويمثل هذا التوزيع فى اطار المكان على أى مستوى من المستويات نقطة البداية الصحيحة لرصد ومتابعة مدى انتشار الظاهرة الجغرافية المعنية . ومن خلال التوزيع الذى تسفر عنه عمليات الملاحظة أو المعاينة أو الحصر على مستوى الدراســـة الميدانية أو الدراســـة المعملية أو الدراســـة المكتبية ، يستشعر الاجتهاد الجغرافى - بالضرورة - مسألتين هامتين موضوعيا . وتصور المسألة الأولى ، مدى انتشار هذه الظاهرة الجغرافية المعنية ، سواء كانت طبيعية أو بشريـــة ، على مستوى المكان أما المسألة الثانية ، فتصور احتمالات التكرار والتجانس فى التوزيع ، أو الاختلاف والتنوع فى الانتشار على مستوى المساحة المعنية فى المكان .

ومن شأن المساحة التى يتعين توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية فيهـا الا تخضع لضابط سوى ما يمليه البحث فقط . بمعنى أن ليس ثمة التزام بمساحة معينة ، فقد يستغرق التوزيع لحساب البحث الجغرافى اقليما بذاته أو قطرا بعينه أو قارة برمتها أو العالم كله . والمهم أن يتأتى التوزيع لكى يسجل أو يعبر - بكل الصدق والواقعية - عن مدى انتشار الظاهرة المعنية فى انحاء المساحة المنتخبة تعبيرا كاشفا للرؤية الجغرافية . بل ينبغى أن يضع هذا الاجتهاد الجغرافى التوزيع بالشكل الأفضـــل الذى يكاد ينبىء بما يعنيه أو يفضى بما تتصوره الرؤية الجغرافية للظاهرة المعنية .

ولا يفلح الاجتهاد الجغرافى فى انجاز هذه المهمة التى تجسد الرؤيـــة الجغرافية ، الا اذا بنى هذا التوزيع على معرفة راسخة ومعاينة مستمرة ، تستوعب انتشار الظاهرة الجغرافية المعنية على مستوى المكان فى المساحة المنتخبة . ومن الجائز أن تلهم المعاينة الاجتهاد الجغرافى التشابه الكاشف لمدى انتشار الظاهرة الجغرافية المعنية . ولكن المؤكد أن استخدام الخريطة لبيان هذا التوزيع يبصر الاجتهاد الجغرافى بهذا الانتشار على مستوى المكان فى المساحة المعنية .

ومن الضرورى أن يتناول الاجتهاد الجغرافى معنى وكنة هذا التوزيع ومدى الانتشار بشىء كبير من المرونة ، ايمانا منه بحقيقة أن سنة الطبيعة

لا تعرف التكرار من خلال التماثل ، ولكنها تكرر من خلال التشابه فقط • بمعنى الا يلتزم التوزيع بالتكرار المتماثل ما دامت سنة الخلق والتكوين لا تعرف ولا تجيد ولا تحرص على هـــذا التماثل • ومعناه أيضا القبول بالتشابه كحد أدنى في متابعة انتشار الظاهرة الجغرافية المعنية وتوزيعها على مستوى المكان في المساحة المعنية ، سواء كانت طبيعية أو بشرية •

هذا ويكون التوزيع الذى يزداد وضوحـــا وتعبيرا عن رؤية الظاهرة الجغرافية المعنية ، من خلال استخدام الخريطة الجيدة الصحيحة ، مدخـــلا مناسبا ومفيدا • ذلك أنه يسعف الاجتهاد الجغرافي ويبصره في آداء دوره وانجاز خطوة هامة وموضوعية ، لحساب البحث الجغرافي • ولدى دراســة الظاهرة الجغرافية المعنية على مستوى المكان في المساحة المعنية أو المنتخبة ، لا يكاد ينطق التوزيع بالصدق تصـــويرا وتعبيرا أو أن يثير الانتباه ذكرا ووصفا فقط ، بل أنه يمثل — بكل تأكيد — المقدمة المنطقية واليقينية المطلوبة بالحاح ، لكى يتولى الاجتهاد الجغرافي مهمة تعميق البحث الموضوعى ، عن الظاهرة الجغرافية المعنية • بمعنى أن الفراغ من آداء أو انجاز هذه المقدمة ، يفرض على الاجتهاد الجغرافي آن يخطو الخطوة الثانية التى تنشأ تأسيسا على ما تنبىء به هذه المقدمة التى أسفر عنها التوزيـــع الجغرافي للظاهرة المعنية •

والتعليل قضية أخرى يفجرها عرض التوزيع الكاشف لمدى انتشار الظاهرة الجغرافية المعنية تفجيرا مباشرا • ويكون هذا التفجير وكأنه نداء للعقل لكى يبصر الاجتهاد الجغرافي ويرشده في مواجهـــة هذه القضية • ويستهدف الاجتهاد الجغرافي — عندئذ — التسلل الى ما وراء الرؤية الجغرافية المعنية ، لكن يتلمس التفسير المعقول المقنع بشأن هذا التوزيع والانتشار على مستوى المكان • وكأن المطلوب أن يتفرغ الاجتهاد الجغرافي أو آن ينكب الاجتهاد الجغرافي على معين خبراته للبحث عن العوامل التى تشترك بشكل أو بآخر ، في صياغة وتكوين الظاهرة المعنية ، أو التى تتحمل بشكل أو بآخر مسئولية انتشارها الذى ينبيء به التوزيع الجغرافي على مستوى المكان •

ومن شأن الاجتهاد الجغرافي — على كل حال — آن يعمل — بكـــل المهارة — وأن يطوع خبراته المكتسبة ، وهو يتلمس السبب أو الاسباب التى تبدو بمثابة ضوابط حاكمة commanding factors ، للتوزيـــع الجغرافي للظاهرة الجغرافية المعنية ومدى انتشارها على مستوى المكان • بل ينبغي أن يلتزم الاجتهاد الجغرافي التزاما علميا موضوعيا ، بتحـــديد واستخلاص

القواعد والأسس التى تفرض هذه الضوابط الحاكمة ، وكيف تخضع توزيع وانتشار الظاهرة الجغرافية المعنية لنظام معين • كما ينبغى أن يلتزم أيضا بتفسير كيف يحدث الشذوذ فى بعض الأحيان وكيف لا ينصاع التوزيع لهذه الضوابط الحاكمة •

ولكى يكون التعليل منطقيا وموضوعيا ، ولكى يكون مقبولا شكلا وموضوعيا ، يتعين أن تكون خبرة وامكانيات الاجتهاد الجغرافى واسعة وفضفاضة • كما يتعين ان تكون خلفية هذا الاجتهاد ثرية ومدعومة بنتائج العلوم الطبيعية والبشرية التى تسعف آداءه الموضوعى • وقد يستشعر الاجتهاد الجغرافى حاجة الى المرونة التى تظاهر صدق حسه الجغرافى ، فى اطار الأسلوب التحليلى التركيبى الذى ينبغى ان يلتزم به ، التزاما موضوعيا ، وهو يستخلص ويصوغ أو يجسد التعليل •

ونجاح أو توفيق هذا الاجتهاد الجغرافى فى استخلاص وتجسيد التعليل وحسن صياغته من خلال الاسلوب التحليلى التركيبى فى وقت واحد ، لا يمثل غاية مجردة أو مطلقة مطلوبة لذاتها • بل ينبغى أن يتخذ الاجتهاد الجغرافى من هذا التوفيق مطية أو وسيلة ، لكى يخطو خطوات مهمة ، من خلال البحث العلمى ، وصولا الى تصور موضوعى ، يجسد العلاقة بين السبب والنتيجة • ومن ثم تصبح هذه العلاقة نتيجة موضوعية تضيف الى الجغرافية اضافة معنية • وهى — من غير شك — عدة الاجتهاد الجغرافى وعدته ، وهو يرسى قواعد وأسس أصلية وأصيلة ، تكسب الجغرافية صفاتها العلمية • هذا بالاضافة الى انها تحدد مكان الجغرافية ومكانتها الحقيقية بين زمرة العلوم الطبيعية والانسانية •

والربط قضية ثالثة ينتهى اليها الاجتهاد الجغرافى بعد أن يشبعه التعليل ويرضيه علميا • ويعبر هذا الربط عن هدف موضوعى ، يلتزم به الاجتهاد الجغرافى التزاما جادا ، من أجل استكمال موضوعية البحث وعمقه عن الظاهرة الجغرافية المعنية • ومن شأن هذا الالتزام الجاد ، أن يحفز الاجتهاد الجغرافى ويدعو الى أقصى درجات المرونة والانفتاح ، لكى يتلمس العلاقة أو العلاقات بين الظاهرة الجغرافية المعنية وبعض الظاهرات الجغرافية الأخرى على مستوى المكان • وبنفس القدر من الحوافز ، يتطلع الاجتهاد الجغرافى الى ادراك العلاقة أو العلاقات الموضوعية ، بين الظاهرة الجغرافية المعنية وبعض الظاهرات غير الجغرافية •

ومن خلال الاجتهاد الجغرافى المرن ، ومن خلال حسن استخدام الخبرة الجغرافية فى تقصى العلاقات التى تسفر عنها دراسة الظاهرة الجغرافية المعنية ، قد يتأتى ادراك فاعلية العلاقة أو العلاقات بين الظاهرة الجغرافية المعنية وغيرها من الظاهرات الأخرى ، سواء كانت هذه العلاقات سلبية أو ايجابية • وعندما يفلح هذا الاجتهاد الجغرافى فى استشعار العلاقة أو العلاقات من خلال أسلوب كاشف لماهيتها الايجابية أو السلبية ، تتكشف له رؤية الأبعاد الجغرافية التى تعمل عمل العامل المؤثر أو الضابط الحاكم للظاهرة الجغرافية المعنية •

ومن خلال تأكيد قدرة الاجتهاد الجغرافى على رصد وادراك معامل الارتباط ،وتحديد العلاقة بين الظاهرة الجغرافية المعنية وغيرها من الظاهرات، يحقق تفوقا بالفعل ، فى صميم العمق الموضوعى العلمى الباحث بمرونة وكفاءة عن أصول الظاهرة الجغرافية المعنية ومدى تأثيرها أو تأثرها بالظاهرات الأخرى • ومن ثم يتخذ الاجتهاد الجغرافى من هذا التفوق فى الربط مطية ، لكى يسجل بالفعل الاضافة أو الهامة ، لحساب الجغرافية ودورها البناء فى خدمة الانسان بصفة عامة •

ولئن كان التوزيع والتعليل والربط ، يقود الاجتهاد الجغرافى فى مراحل تسفر عن صياغة البحث الجغرافى العلمى عن الظاهرة الجغرافية المعنية على مستوى المكان ، فان تنفيذ العمل البناء لحساب هذه الصياغة يبنى على ثلاثة أمور ، هى ١ - الدراسة الميدانية ٢ - حسن استخدام الخريطة ٣ - الاطلاع الواسع فى الدراسة المكتبية • وهذا معناه أن يعتمد الاجتهاد الجغرافى على هذه الامور ، فى التجهيز والاعداد لعملية صياغة أو انجاز البحث الجغرافى عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، ومعناه أيضا أن يبدأ الاجتهاد الجغرافى فى آداء مهمته ، من بعد اثارة واستنفار الحس الجغرافى وتنشيط استشعاره للظاهرة الجغرافية المعنية •

انجاز البحث الجغرافى :

عندما يعكف الاجتهاد الجغرافى على انجاز بحث جغرافى ، يتعين استطلاع المكان وتحديد أبعاده ووضع الاطار العام التى يتفرغ له هذا البحث • كما يتعين رصد الظاهرة الجغرافية المعنية فى حدود هذا الاطار العام • ومن ثم تبدأ الخطوات الرتيبة التى تسعف الاجتهاد الجغرافى وهو يتقصى كل الحقائق التى تكفل تنفيذ واخراج هذا البحث الجغرافى العلمى أو انجازه انجازا موضوعيا علميا •

والدراسة الميدانية ، خطوة مبدئية وهامة لحساب هذا الانجاز • وقد تستوجب الدراسة الميدانية أكثر من زيارة للمكان • وتكون الزيارة الأولى زيارة عامة تستهدف الرؤية الجغرافية والمسح الجغرافي العام(١) • ومن الجائز أن يضع الاجتهاد الجغرافي خطة ترشد الزيارات التالية ، سواء كانت زيارات عابرة سريعة للميدان ، أو كانت زيارات مقيمة لبعض الوقت في الميدان • ولكن المؤكد أن تكفل هذه الزيارات المتوالية على فترات ، والزيارات المقيمة لبعض الوقت معايشة الظاهرة الجغرافية المعينة ، واطلاق العنان للحس الجغرافي لكي يستشعرها ، وللاجتهاد الجغرافي ، لكي يستثمر رؤيتها وتأملها عن كثب ، أو لكي يجسد الانطباع عن وجودها في الميدان ، في أحضان الصورة الجغرافية الكلية •

ومن الجائز أن تكون المعاينة أو المشاهدة المباشرة في الميدان ، من وراء الملاحظة واستطلاع الظاهرة الجغرافية العنية في اطار الرؤية الجغرافية المباشرة(٢) • ولكن المؤكد أن الاقامة(٣) التي تكفل معايشة الظاهرة الجغرافية المعنية لبعض الوقت ، تكون كفيلة بالاجابة على كثير من التساؤلات التي تتدافع في عقل الباحث الجغرافي ، وهو يرقبها ويتأمل في وجودها في اطار الرؤية الجغرافية الكلية المباشرة في الميدان • وما من شك في أن تكرار الزيارات يكون ــ بالضرورة ــ وليد الحاجة التي يمليها الحس الجغرافي، ويستجيب لها الاجتهاد الجغرافي ، وهو يطلب كشف النقاب أو اجلاء

---

(١) قادت المدرسة الجغرافية الفرنسية حملة ترسيخ مكان ومكانة الدراسة الجغرافية ، لحساب البحث الجغرافي • وفي تقدير هذه المدرسة ، أن الدراسة الميدانية رؤية مباشرة ومعاينة ومعايشة ، تعطي الانطباع المفيد عن الواقع الجغرافي في الميدان • ولو حقق الاجتهاد الجغرافي حسن استخدام هذه الدراسة الميدانية لأفلح في نهاية الأمر في انجاز البحث الجغرافي الممتاز • ومن أقوال فيدال دى لابلاش عن الدراسة الميدانية :

« لا تستطيع الكتب وحدها ــ يقصد الدراسة المكتبية التي تعتصر اجتهاد الجغرافيين السابقين ــ أن تؤلف أكثر من جغرافية متواضعة • واذا ما أضيفت الخرائط الى هذه الجغرافية المتواضعة كانت أفضل • ولكن الجغرافية الجيدة أو الأفضل ، هي التي تؤخذ من معاينة الطبيعة ــ يعني الرؤية الجغرافية ــ واستطلاعها » •

(٢) كان الفريد هتنر من رجال المدرسة الجغرافية الألمانية ، الذين اعتبروا الدراسة الميدانية والمعاينة نقطة الانطلاق الحقيقية التي يبدأ من عندها البحث الجغرافي الجيد •

(٣) تكون الاقامة **camping** في بعض الأحيان في موقع منتخب في معسكر عمل جغرافي . سواء اشترك في البحث جماعته أو انفرد به واحدا من هذه الجماعة •

الغموض عن بعض الضوابط الحاكمة ، من وراء الظاهرة الجغرافية المعنية[١] .

وفي كثير من الأحوال ، يجهز الباحث الجغرافي قائمة تضم كل الاسئلة ، التي يتنسس الحصول عن أصدق اجابة صحيحة وواقعية عنها من الميدان . بمعنى أن الباحث الجغرافي يطل على الظاهرة الجغرافية وكأنه يقرأ كتابا مفتوحا يبصر رؤيته لها ويجيب على التساؤل الحائر عنها . وقد يضيف الباحث الجغرافي الى ذلك كله ، بعض الملاحظات الجوهرية التي تسترعي انتباهه ويفطن اليها حسه الجغرافي ، وهو يستشعر وضع الظاهرة الجغرافية المعنية ، في اطار الرؤية الجغرافية الكلية في الميدان . وعندئذ يمسك الاجتهاد الجغرافي بأطراف خيوط بعض العلاقات الايجابية والسلبية، بين الظاهرة الجغرافية والظاهرات الأخرى .

ومن خلال الرؤية الجغرافية المتكررة وتسجيل الملاحظات وتقصي العلاقات ومعايشة الظاهرة الجغرافية المعنية ، واجلاء الغموض عن بعض أو كل الضوابط الحاكمة لها في اطار الرؤية الجغرافية الكليه في الميدان ، ينجح الاجتهاد الجغرافي في خلق وانشاء قنوات اتصال بين التجربة الحية من خلال المعاينة على الطبيعة في الميدان ، والتجربة العلمية من خلال العمل في المختبر ، وهذا معناه أن الدراسة الميدانية لا تسعف الاجتهاد الجغرافي ، في توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية في المكان ، ولا ترشد البحث عن التعليل المقبول لهذا التوزيع الجغرافي فقط ، بل انها تبصر الاجتهاد الجغرافي وهو يمسك بزمام الربط بينها وبين بعض الظاهرات الأخرى ، أو هو يستشعر ماهية هذا الربط وما ينبني تأسيسا عليه في اطار الرؤية الجغرافية الكلية في المكان .

وهكذا نتبين كيف يطرق الاجتهاد الجغرافي باب الدراسة الميدانية ، وكيف يجني ثمرة الانفتاح على الرؤية الجغرافية الكلية في المكان . وعندئذ يتسلل من خلال الكل إلى الجزء وهو يعاين ويعايش الظاهرة الجغرافية المعنية فيه . وهذا - من غير شك - سبيل من أفضل سبل تجهيز الاستبيان وتلقي الردود على الاستفسارات من الميدان . بل انه سبيل من سبل استيعاب الظاهرة الجغرافية المعنية ، الذي يشحذ الحس الجغرافي ويستنفر التأمل فيه وصولا الى تجسيد الرؤية الجغرافية للظاهرة الجغرافية المعنية .

---

(١) وضع ديمارتون الجغرافي الفرنسي ، مبدأ الرحلات الجغرافية الجماعية لطلاب البحث الجغرافي في الجامعة . وفي اعتقاده أن رؤية الفريق تعمق الخبرة بالمعاينة وتسجيل الملاحظات وتنمي استخدام وتوظيف الحس الجغرافي في جني ثمرات الدراسة الميدانية .

والظاهرة الجغرافية المعنية ، سواء كانت طبيعية أو بشرية ، لا تتكشف أبعادها امام الباحث الجغرافي ، ولا تفشى أسرارها له ، الا من خلال هذه الدراسة الميدانية . ومن الجائز أن تتنوع أساليب وخطط البحث والعمل في الميدان ، من موضوع الى موضوع آخر ، أو من باحث الى باحث آخر . ولكن المؤكد أن هناك اتفاق على جدوى هذه الدراسة الميدانية ، وهي تفتح للاجتهاد بابا وتبصره وتلهمه وصولا الى ما ينبغي أن يكون عليه البحث من حيث الشكل ومن حيث الموضوع . بل قد تسعف الاجتهاد الجغرافي وهو يسجل الاضافة المفيدة عن الظاهرة الجغرافية المعنية .

واستخدام الخريطة ، ضرورة حيوية لانجاز البحث الجغرافي . وقد يكون هذا الاستخدام مسألة مفيدة الى أبعد الحدود ، لحساب الاجتهاد الجغرافي في الدراسة الميدانية أو في الدراسة المكتبية على حد سواء . بل انها تتم مهمة الاجتهاد الجغرافي لدى انجاز البحث واعداده في الصورة النهائية . ذلك انها تشترك اشتراكا مفيدا مع الكلمة المكتوبة في وضوح الرؤية الجغرافية والتعبير عنها . وهذا معناه أن استخدام الخريطة يسعف الاجتهاد الجغرافي في آداء دوره الوظيفي آداء ترتضيه موضوعية البحث الجغرافي .

وهناك نوعان من الخرائط التي يهتم بها الاجتهاد الجغرافي ، ويتعين عليه استخدامها لانجاز البحث الجغرافي عن الظاهرة الجغرافية المعنية . والنوع الأول من هذه الخرائط ، يكون قد أعد سلفا ، ومن شأن هذا النوع أن يعين الاجتهاد الجغرافي ويرشد خطاه في أثناء الدراسة الميدانية أحيانا ، أو أن يعين الاجتهاد الجغرافي ويطلعه على ثمرات الاجتهاد الجغرافي الذي سبقه ، في أثناء الدراسة المكتبية أحيانا أخرى . أما النوع الثاني من الخرائط ، فهو الذي ينكب الاجتهاد الجغرافي على اعداده بنفسه في أثناء الدراسة الميدانية والدراسة المكتبية . ومن شأن هذا النوع أن يودع الاجتهاد الجغرافي فيه رؤيته الجغرافية وحصاد بحثه عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، بمعنى أن استخدام هذا النوع الأخير من الخرائط التي ينجزها الاجتهاد الجغرافي ، يحقق اضافة تدعم دوره البناء في انجاز البحث الجغرافي عن هذه الظاهرة .

وبقدر ما يسفر الاجتهاد الجغرافي عن بعض اضافات مفيدة ، تزخر بها الخرائط ، أو الرسوم البيانية ، وتسجل ثمرات المسح الجغرافي ، لحساب التطور والتجديد ودفع مسيرة الفكر الجغرافي الحديث الى ما هو أفضل ، يتطلع الاجتهاد الجغرافي الى استخدام الخرائط المجهزة بالفعل ، فيطل من

خلالها على الظاهرة الجغرافية المعنية فى البحث • ومجموعة الخرائط الجاهزة أو التى يتولى الاجتهاد الجغرافى تجهيزها ، تمثل – بكل تأكيد – سجلا دقيق يصور الرؤية الجغرافية للظاهرة الجغرافية المعنية • بل ويكون لهذه الخرائط من النوعين دائما ، تفوق الايجاز فى العرض والتعبير ، عن غير خلل فى البيان أو من غير عجز فى التجسيد •

وينبغى أن نشيد أو نطوى الاجتهاد الصادق الذى تعاون فى انجازه زمرة كبيرة من الجغرافيين والمساحيين والرسامين فى القرن العشرين وصولا الى اعداد الخرائط الممتازة • وقد وضعت هذه الخرائط بمقاييس رسم متنوعة، لكى تصور أو تعبر عن الرؤية الجغرافية على مستوى العالم أو مستوى القارة أو مستوى القطر • هذا بالاضافة الى اعداد اللوحات التى تبين التوزيع الطبوغرافى والجغرافى فى اطار المساحات الصغيرة ، سواء صار تجهيزها باليد الماهرة الخبيرة أو تأتى تصويرها من الجو • وما زال الاجتهاد الفنى والجغرافى يعكفان على تحسين أساليب اعداد الخرائط وتجهيزها ، لحساب المعرفة الجغرافية الأفضل •

ومن أجل ترشيد الاجتهاد الجغرافى فى حقل الدراسة الميدانية ، يكون اهتمام الجغرافى بالخرائط وحسن استخدامها اهتماما مطلقا من غير حدود • ويحفز اهتمام الجغرافى الخبراء والفنيون لكى يتوالى ابداع أو ابتكار القواعد الأصولية الافضل وأساليب التنفيذ الاحسن ، لبيان التوزيعات وحسن دلالتها وجودة التعبير على الخرائط • ويتفق الباحثون فى حقول الدراسات الميدانية ، على أن حسن وصدق التوزيع الجيد على الخرائط السابقة التجهيز لحساب الظاهرة الجغرافية المعنية ، أو حسن انشاء واعداد وبيان التوزيع على الخرائط التى يجهزها الباحث ، يخدم البحث الجغرافى الموضوعى ، ويبصر الاجتهاد الجغرافى الذى يتصدى له •

ولا ينبغى أن ننكر أو نتنكر للخرائط الجيدة التعبير والدلالة ، وهى تقود الباحث الجغرافى وترشد اجتهاده البناء ، عندما تتكشف له من خلال الرؤية الجغرافية العلاقات الايجابية أو السلبية بين الظاهرة الجغرافية المعنية والظاهرات الأخرى التى يعبر عنها التوزيع على الخرائط • ومن الجائز أن يصبح هذا البيان الموجز الكاشف للعلاقات هدفا مطلوبا فى حد ذاته • ولكن المؤكد أن هذا البيان يخدم الربط الموضوعى وهو غاية من الغايات التى تتكامل بموجبها البنية أو الصياغة الموضوعية لبحث الجغرافى عن الظاهرة المعنية •

والمطلوب من الاجتهاد الجغرافى فى حقل البحث أو الدراسة الميدانية(١) ، أو فى حقل البحث أو الدراسة المكتبة(٢) ، أن يسعى - بكل الفطنة - الى حسن التعبير وجودة الدلالة لدى توزيع الظاهرة الجغرافية المعنية ، على الخريطة التى يعدها أو يجهزها ، لحساب البحث والاضافة العلمية ، والمطلوب منه أيضا أن يحسن استخدام الخرائط سابقة التجهيز ، وهى التى تسعفه وهو يستخلص النتائج المنطقية . لحساب التعليل أو لحساب الربط اللذين يوطدان اركان البحث الجغرافى . واذا كانت قوة الملاحظة وذكاء الحس الجغرافى وتفوق الادراك والاستشعار فى استخلاص الكل من الجزء أو استخلاص الجزء من الكل ، مسائل حيوية وضرورية ينبغى أن يتزود بها الاجتهاد الجغرافى لحساب التعليل والربط ، فان الجغرافى مهما أوتى من هذا الزاد فلن يغنيه فتيلا عن حسن استخدام الخريطة سابقة التجهيز وعن حسن تجهيز الخريطة ، وهو يجمع أطراف النتائج ويصوغ منها بحثه الجغرافى عن الظاهرة المعنية .

وبهذا المنطق ، أصبحت الخبرة الجغرافية المتفتحة والمنفتحة من وراء حسن تجهيز وصناعة الخرائط ووضوح دلالتها ، كما أصبحت الخرائط الجيدة ودلالة تعبيرها الواضح من وراء الخبرة الجغرافية المجددة والمتطورة . والخرائط الجيدة - من غير شك - تيسر للاجتهاد الجغرافى مهمته وترشد آداءه وهى توجز التعبير الجلى الناطق بعمق واصالة الرؤية التى أعدت وجهزت هذه الخرائط . وكيف لا تكون كذلك ، وهى تفتح الباب على مصراعيه ، لكى يتقصى الاجتهاد الجغرافى من خلال الرؤية المركزة الفكرة المفيدة ، ولكى يسجل الاضافة المجددة ، لحساب الرصيد المتطور للفكر الجغرافى الحديث .

ومهما يكن من أمر ، فلا ينبغى أن يقف تعبير الاجتهاد الجغرافى وبيانه عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، عند حد استخدام الكلمة المكتوبة وحدها . بل يتعين عليه أن يستخدم الخريطة والرسم البيانى لكى يدعم هذا التعبير أو لكى يجسد هذه الدلالة ، لدى معالجة وعرض الحقائق الجغرافية عن الظاهرة الجغرافية المعنية . ومن خلال الكلام المكتوب والخرائط المعبرة يكون البحث الجغرافى - بالضرورة - أفضل .

---

(١) الدراسة الميدانية **Field Work** دراسة عملية تجريبية تطالع الصورة الجغرافية المعنية فى المكان .

(٢) الدراسة المكتبية **Arm-chair Work** دراسة نظرية تأملية تطالع ماتحتويه الكتب والمراجع .

والاطلاع الواسع هو حصاد الدراسة المكتبية في الظاهرة الجغرافية المعنية . وسواء كان القصد أن يبدأ البحث من حيث انتهى كل الاجتهاد الجغرافي السابق ، أو كان الهدف أثراء الخلفية والتزود برصيد عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، فان الدراسة المكتبية تكون هادفة ومفيدة لأنها تشد آزر الاجتهاد الجغرافي وتسعفه وتظاهره في آداء مهمته . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافي الذى ينكب على اعداد بحث عن الظاهرة الجغرافية المعنية ، لا يبدأ ولا ينبغي أن يبدأ من فراغ . بل ينبغي أن يلتزم هذا الاجتهاد بما سبقه اليه بعض الباحثين ، ويحرص على أن يكون حصاد بحثه اضافة مجددة اليه .

ومن خلال الدراسة المكتبة التى تكفل الاطـلاع على المدى الواسع ، يجد الاجتهاد الجغرافي في جعبته رصيدا من المعرفه والمعلومات والبيانات التى يتزود بها وتنفعه في آداء دوره الوظيفي البناء ، لدى اعداد وتجهيز البحث عن الظاهرة الجغرافية المعنية . ولئن كان توسيع دائرة الاطلاع على الانجاز الجيد الذى يثرى به التراث الفكرى الجغرافي بحكم التخصص مسألة مفروغ منها لحساب الصنعة والآداء ، فان توسيع دائرة الاطـلاع على نتائج بعض العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية مسألة ينبغي أن يلتزم بها الاجتهاد الجغرافي لحساب التفوق في الصنعة والجودة في الآداء .

ومن شأن الدراسة المكتبية التى تزود الخبرة الجغرافية بهذا الرصيد من النتائج ، أن تخدم ديناميكية التحليل والتركيب وهو يبدع في انجاز البحث الجغرافي بل ومن شأن هذه الدراسة المكتبية التى تعمق الخبرة الجغرافية ، أن تصعد كفاءة التعليل والربط وتجسيد العلاقات ، وهو يدعم انجاز البحث الجغرافي . وهذا معناه أن الدراسة المكتبية ، تفتح الباب على مصراعيه ، لكي يستخلص الاجتهاد الجغرافي أسباب الابداع والدعم للبحث الجغرافي ، ولكي يسفر عن النتائج الموضوعية التى تضيف الجديد في البحث الجغرافي عن الظاهرة الجغرافية المعنية .

ومن غير الاطلاع الواسع وحسن استيعاب ما يسفر عنه هذا الاطلاع ، يفتقد الاجتهاد الجغرافي واحدة من أهم وسائله ، وهو يمارس البحث الجغرافي الموضوعي عن الظاهرة الجغرافية المعنية . كما يفتقد الاضافة الى الانجازات السابقة ، وتجنب الزلات التى انحدرت اليها هذه الانجازات . وكيف لا يفتقد الاجتهاد الجغرافي ذلك كله اذا هو انغلق وامتنع بقصد أو من غير قصد عن استيعاب رؤية غيره أو عن تطويع النتائج العلمية التى تلهمه أو تسعفه وتظاهره لدى التعليل والربط وصياغة حبكة الموضوع

شكلا وموضوعا : وهذا معناه أنه يتعين أن يتدرب الاجتهاد الجغرافى من خلال الدراسة المكتبية على أن يجعل من الاطلاع الواسع منهلا يزوده ويشبعه وهو يؤدى دوره الوظيفى • ومعناه أيضا أنه يجب أن يتدرب الاجتهاد الجغرافى على تجميع أوصال بحثه من هذا المعين ، قبل أن يبدع ويضيف ، وهو ينجز البحث الموضوعى •

وحاجة الجغرافى للاحاطة بنتائج العلوم الطبيعية واستيعابها وحسن الانتفاع بها تكون ملحة ومتوازية مع حاجته أيضا للاحاطة بنتائج العلوم الانسانية واستيعابها وحسن الانتفاع بها • ومن شأن البحث فى الشق الطبيعى أو فى الشق البشرى من الجغرافية ، أن يدعو - بكل الالحاح - الى استشعار هذه الحاجة والتزود بها • ومن ثم يلتزم الاجتهاد الجغرافى بتنمية خلفية واثرائها وتزويدها بهذه النتائج العلمية الطبيعية والانسانية • والمقصود أن يمتلك الجغرافى معينا لا ينضب زاخر بالخبرات العلمية • والمتوقع دائما أن يسعفه هذا المعين الاجتهاد الجغرافى ويشد آزره فى دراسة الواقع الطبيعى أحيانا ، وفى دراسة الواقع البشرى أحيانا أخرى • وقد يحتاج الاجتهاد الجغرافى الى تدريب يكسبه القدرة على استخدام حصاد هذا المعين التى يسفر عنه الاطلاع الواسع والدراسة المكتبية •

الفكر الجغرافى الحديث وبنية علم الجغرافية :

عندما بلور الفكر الجغرافى الحديث أهدافه ، وحمل علم الجغرافية مسئولية هذه الأهداف ، انتهى ذلك الى صياغة بنية علم الجغرافى صياغة تصور أكبر قدر من الاستجابة لأهداف الفكر الجغرافى وتطلعاته • ومن المفيد أن نتبين كيف كانت صياغة هذه البنية التى ربما دعت الى وضع الجغرافية فى مكان مستقل بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية • وصحيح أن بعض المدارس الجغرافية قد وضعت الجغرافية فى كليات الآداب مع زمرة العلوم الانسانية وأن بعض المدارس الجغرافية الأخرى قد وضعتها فى كليات العلوم مع زمرة العلوم الطبيعية ، وأن فريق ثالث فضل لها مدرسة مستقلة بين الوجود الاكاديمى للعلوم الانسانية والعلوم الطبيعية • ولكن المؤكد أن كل هؤلاء قد ادركوا بنيتها متميزة وأن لها مكان ومكانة منفردة بين سائر العلوم •

وسعة اطلاع الجغرافى وغزارة مادته وتنوع ثقافته ورصيده الثقافى ، وحسن استخدامه نتائج العلوم الطبيعيه والانسانية فى وقت واحد يحقق هدفه ، ربما دعت بعض المجتهدين فى مجال تصنيف بنية العلوم الى تصور علم الجغرافية على اعتبار أنه علم تركيبى بحت • بمعنى أنه علم ليس من

ورائه أكثر من اجتهاد وخبرة فى صياغة التوليفة البارعة والتركيب الجيد الذى ينسق نتائج العلوم الأخرى • وصحيح أن صياغة هذه التوليفة البارعة أو التركيب الجيد ، تشهد بمهارة وحنكة وكفاءة الجغرافى ، وتعترف بقدرته على أن يحسن الانتفاع بنتائج العلوم الأخرى انتفاعا موضوعيا • ولكن المؤكد أن هذا التصور يجسد جانبا من بنية علم الجغرافى ، وينكر أو يخفى - بقصد أو من غير قصد - الجانب الآخر •

ومع ذلك فكون الجغرافية علما تركيبيا لا يمكن ولا ينبغى أن يقلل من شأنها أو من شأن الآداء الجغرافى • ذلك أن حسن صياغة التوليفة البارعة المنسقة تعنى مهارة لأنها تستهدف غاية مفيدة ، تتمثل من خلال النتائج التى تسفر عنها هذه الصياغة • وفى كل علم نتوقع ونطلبها ، ولكن احدا لا ينبغى أن ينكر حقيقة اجتهاد الجغرافى وهو يؤلف من هذه النتائج ويبنى عليها نتائجا مفيدة • وهذا معناه أن الجغرافى يضيف من حيث انتهى غيره من الباحثين • ومن الطبيعى أن يعتز بهذه الاضافات التى يسفر عنها دوره فى صياغة التركيب الجيد(١) • بل انه يجد فى التركيب قدرة على دعم مكانته فى المكان الذى تقف فيه الجغرافية بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية •

ولكن نتبين الجانب الذى أنكره أو اخفاه التصور غير الكامل لبنية علم الجغرافية ، ينبغى أن نطل من زاوية أخرى ونجد كيف يحرص الاجتهاد الجغرافى على التعليل والربط الموضوعى وعلى تلمس العلاقات • وهذا علامة على أن الجغرافية علم تحليلى أيضا • وكيف لا يكون التحليل واردا ، والاجتهاد لا يكف عن البحث طلبا وتطلعا الى تعميق المعرفة بالظاهرة الجغرافية المعنية رأسيا وأفقيا ، والى تقصى حقيقة الضوابط الحاكمة لها • بل انه اجتهاد لا يكف ولا يفتر وهو يتلمس التعليل أو الربط الذى يعمق التحليل الكاشف عن علاقة الظاهرة الجغرافية بما حولها فى المكان •

وفى هذا المجال التحليلى ، ينبغى أن نشيد بمهارة الاجتهاد الجغرافى وهو يحلل الظاهرة الجغرافية المعنية تأسيسا على خبرة يظاهرها الرصيد التى يتزود به الجغرافى من خلال استيعاب نتائج العلوم الطبيعية والعلوم

---

(١) كل وردة على عودها السوى ، تكون جميلة فى حد ذاتها • ومن وراء كل الورود الجميلة اجتهاد البستانى الذى غرسها ورعى نموها وتفتحها لكى تنطق بالجمال • ولكن هل يمكن أن ننكر أو نتنكر لاجتهاد الانسان الذى يجمع هذه الورود الجميلة ، ويصفها صفا بديعا لكى يصنع منها الباقة أكثر جمالا وفتنة ؟

الانسانية • وبنفس القدر من الكفاءة فى التركيب الجيد وصياغة التوليفة التى تبرهن على حسن استخدام نتائج العلوم الأخرى ، تكون كفاءة الجغرافى وهو يحلل الرؤية الجغرافية تحليلا واقعيا علميا • وهـذا معناه أن علم الجغرافية علم تركيبى وتحليلى فى وقت واحد • وهو كما قلنا يبدأ من حيث انتهى الباحثين لكى يتم المهمة ويسجل النتائج المتخصصة •

واجتهاد الباحث الجغرافى ، وهو يحلل الظاهرة الجغرافية المعنيـة ويجرى تشريحا كاشفا للرؤية الجغرافيه ، أو وهو يركب الأوصال ويؤلف الصياغة المركبة التى تجسد الرؤية الجغرافيه ، لحساب البحث وتسجيل النتائج الجغرافية المتخصصة ، يضع الجغرافية والجغرافى فى مكان مرموق بين زمرة الباحثين العلميين • ومن شأن الجغرافية كعلم تركيبى ، ومن شأن الجغرافية كعلم تحليلى ، أن تقيم الجسر ، لحساب العلاقة أو الصلة الموضوعية البناءة ، بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية • وبناء على ذلك التصـور الكاشف لدور الجغرافية وآداء الجغرافى الوظيفى ، ينبغى أن نتبين — بكل الصدق — مكان الجغرافية بين العلوم ، ومـكانة الجغرافى بين الباحثين • وكيف ولماذا لا يكون المكان مناسبا ؟ وكيف ولماذا لا تكون المكانة مرموقة ؟

هذا ويمكن التأكيد على أن الفكر الجغرافى الحديث الذى تبلورت أهدافه واستوى عوده منذ أواخر القرن التاسع عشر ، قد افلح تماما عندما وجـه الجغرافية ، لكى تتخذ شكل وسمة وموضوعية العلم التركيبى التحليلى فى وقت واحد • وعندئذ افلح علم الجغرافية فى تحمل مسئوليته وهو يؤدى دوره الوظيفى المتخصص ، لكى يبصر ويرشد مسيرة الحياة فى المكان على الارض • وقد نجد السبيل أو الميدان الرحب لكى نفهم وندرك وتقدر جدوى هذا الوظيفى المتخصص • ويستوى فى ذلك أن يكون هذا الدور ايجابيا وهو يقيم الصلة بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ، أو وهو يحسن صياغة واستخلاص النتائج الموضوعية المفيدة ، تأسيسا على هذه الصلة •

وهكذا التزم الفكر الجغرافى الحديث فى مسيرته التى بدأت بدايـة متأنية فى القرن السابع عشر ثم شددت وسددت خطاها فى القرن العشرين بولاء شديد للمهمة التى تكفل بها لحسـاب الحياة • وقد تكشفت لهـذا الفكر الجغرافى الحديث اغوار المعين الذى نهل منه • وتعلم الاجتهاد الجغرافى كيف يثرى خلفيته ثراء عريضا وهو ينطـلق فى ميدان البحث الجغرافى الفسيح •

والجغرافى الصحيح فى القرن العشرين هو الذى تعلم كيف ينتفع بالمعين ويتزود منه بالخبرة ، وكيف يثرى خلفيته وينميها لحساب البحث الجغرافى ٠ بل انه قد عكف على اتقان مهمته وأداء دوره الوظيفى آداء أصوليا ومفيدا من خلال التركيب والتحليل فى صياغة وتجهيز البحث الجغرافى ٠ ولقد تعلم بعد ذلك كله ، كيف ينبغى عليه أن يضيف بداية من حيث انتهى غيره من الباحثين ، وتعلم كيف يطوع اضافته بمهارة لحساب الحياة ٠ هذا بالاضافة الى أنه تعلم كيف لا يكف عن طلب الأفضل حتى أنه استطاع أن يطور الفكر الجغرافى الحديث فى الصورة التى يطالعنا بها الفكر الجغرافى المعاصر اعتبارا من حوالى منتصف القرن العشرين ٠

خاتمة

الفكر الجغرافى المعاصر والجغرافيـة المعاصـرة

- مقدمات ودواعى التغيير
- التقييم الجغرافى وانطلاقة التغيير
- انجازات الجغرافية المعاصرة

أ ـ التجديد فى العطاء

ب ـ التجديد فى الآداء

الفكر الجغرافى المعاصر
والجغرافية المعاصرة

مقدمات ودواعى التغيير :

من بعد أن أفلح الاجتهاد الجغرافى ، الذى دفع أو حرك مسيرة الفكر الجغرافى الحديث ، وأخذ بزمامها فى الاتجاه الصحيح وبلور أهدافها ، ومن بعد أن أفلح الفكر الجغرافى الحديث ، الذى سخر الاجتهـــاد الجغرافى فى ترسيخ مهمة علم الجغرافية اعتبارا من النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، كان على علم الجغرافية الحديثة ، أن يحفز العمل أو الانجاز الجغرافى لكى يؤدى دوره الوظيفى التخصصى فى النصف الأول من القرن العشرين ٠

هذا وما من شك فى أن هذا الاجتهاد الجغرافى المتوثب ، كان قـــد استوعب ــ بكل الفطنة ــ على المدى القصير ، كل التحولات والتغيرات التى جعلت من الجغرافية علما متخصصا ومتفردا ، يحتل مكانا خاصا بين سائر العلوم فى الاطار العام الجامع لها ، والمؤكد أن علم الجغرافية الحديثة قد اضاف وأثرى الفكر الجغرافى الحديث ، بقدر ما تحمس لتعديل مسيرة هــذا الفكر فى الاتجاه الصحيح وصولا الى ما هو أفضل ٠

ومن الجائز أن نتصور كيف تولى الاجتهاد الجغرافى المتوثب ، تحريك هذه المسيرة الفكرية بأكبر قدر محسوب من التوازى والتوازن بين الوجهين الجغرافيين المتخصصين ، الطبيعى الــكاشف عن الارض وما هية الواقع الطبيعى فى المكان ، والبشرى الكاشف عن الناس وماهية الواقع البشرى فيه ، تحريكا رشيدا متأنيا ، سجل الاضافات وابدع الانجازات واستوعب فحواها ، ولكن المؤكد أن هذا الاجتهاد الجغرافى المتوثب ، قد امتلك ناصية الحوافز التى أحسن استخدامها ، من أجل تصعيد واستمرار تحرك المسيرة الفكرية الرتيب ، لكى يطاوعه علم الجغرافية ويستجيب لحاجــة العصر ، وما ينطوى عليه من تطور وتغيير ٠

وهكذا كان المطلوب ــ بكل تأكيد ــ مزيدا من التطور والتجديــد فى الفكر الجغرافى وفلسفته الواقعية ، بالشكل الذى يجدد ويحدد الأهداف الأفضل للاجتهاد الجغرافى ، وهو يعمل لحساب الحياة ٠ ومن ثم تعين على

هذا الاجتهاد الجغرافى أن يطوع علم الجغرافية تطويعا بالشكل الذى يحسن ويكثف الآداء الوظيفى التخصصى الجغرافى ، وهو يجاوب ارادة التطلع الى الأفضل فى خدمة مسيرة الحياة التى تتشبث على الارض ، وتنتصر لمصيرها الأفضل فى الارض •

ومن أجل دفع عجلة التطور وعمليات التجديد والتجويد فى الفكر الجغرافى ، ومن أجل تكثيف وتطويع الخبرة الجغرافية الأحسن لحساب الحياة ، ومن أجل تصعيد كفاءة الجغرافية وتحسين جدوى البحث الجغرافى فى احضان المكان ، من أجل ذلك كله ، كان من الضرورى أن ينعطف الفكر الجغرافى المعاصر ، انعطافا باحثا عن نقطة التحول ، التى يمتلك عندها أو يتخذ بموجبها القدرة على صياغة الجغرافية العلمية الأنسب لروح العصر وارادة الحياة الافضل فيه •

وهذا معناه — من غير شك — أن قد تولدت فى اعطاف الفكر الجغرافى الحديث ، فى أثناء سنوات النصف الأول من القرن العشرين ، قوة الدفع التى نشطت وأثارت واستنفرت وفجرت فى فلسفته الواقعية ارادة التغيير ، لحساب التجديد والتجويد والأخذ بمنطق وروح العصر • ومعناه أيضا أن هذا الفكر الجغرافى الحديث ، الذى لا ولم ولن يكف عن حسن ترشيد الاجتهاد الجغرافى وتوظيفه فى اتجاهات أكثر واقعية وأكثر فاعلية ، وأكثر استجابة لارادة الحياة المتطورة ، قد حمل فى أحشائه بنته التغيير وروح التجديد وارادة التجويد ، وتطلع الى مخاض يسفر عن شكل جغرافى معاصر •

وفى اعتقادى — على كل حال — أن الحصاد المفيد والانجاز الذى انجزته الجغرافية الحديثة ، فى النصف الأول من القرن العشرين ، قد جاوب الفكر الجغرافى الحديث وطاوعه وأثراه وأرضاه • ولكن الأهم من ذلك كله أنه قد نمى فى هذا الفكر نبته التغيير الكامنة فى أحشائه ، واستنفر فيه روح التجديد ، وفجر فيه ارادة التجويد • ولأن الجغرافية تتزود من هذا الفكر وتنهل من معين فلسفته وتجاربه فلقد اكتسبت قوة الدفع وقدرات التغيير، على طريق التجديد والتجويد •

هذا وما من شك فى أن علم الجغرافية قد سخر هذه المكتسبات ووجه الاجتهاد الجغرافى وحفز آدائه الوظيفى التخصصى ونشطه ، لحساب هذا التجديد والتجويد فى وقت واحد • وبكل المهارة والكفاءة ، استجاب الاجتهاد الجغرافى لقوة الدفع المكتسبة وأسفر عن تجديد فى العطاء والانجاز ، وعن

تجويد في الآداء والعمل ، وفي الحالتين اتسم التجديد والتجويد الجغرافي ، بمزيد من المرونة والموضوعية والعمق والواقعية في خدمة الحياة • •

• •• وفي اعتقادي أيضا أن المرونة والموضوعية والعمق والواقعية ، قد أوصلت العمل الجغرافي والانجاز المجدد الى نقطة التحول الحقيقية • وعندئذ قفزت الجغرافية قفزتها الحقيقية ، وأطلقت عنان الاجتهاد الجغرافي المتوثب من جمود النظرية البحتة وقيودها ، الى مرونة التطبيق الهادف وتحرره •

وهذا معناه أن التحول الذى ساق الفكر الجغرافي في طريق التغيير ، وفجر فلسفته الواقعية التى واكبت روح العصر ، لا يكاد ينبىء بطفرة • بل انه وليد نبته التغيير في احشاء هذا الفكر • ولقد تبنى الاجتهاد الجغرافي هذا الوليد وأولاه الرعاية وهو يستشعر الحاجة العصرية اليه • ولقد تمثلت هذه الحاجة العصرية ، في آداء وظيفي تخصصى تطبيقى رشيد ، لكى يربى الخبرة الجغرافية ويبصرها وينمى قدراتها ، وهى تخدم مسيرة الحياة ، وتبصر عمليات التفاعل الحياتى لحساب الحياة الأفضل على الارض •

ومن الجائز أن زمرة من الجغرافيين من أبناء الجيلين الماضى والحاضر قد أسهموا في انجاح هذا التحول على طريق التجديد والتجويد • ولكن المؤكد أن معظم هذه الزمرة لم تستمع الى صوت يشعرهم بألم المخاض لدى ولادة الفكر الجغرافي المعاصر من الفكر الجغرافي الحديث • ذلك أن الولادة لم تكن عسرة • ولقد تمت من غير توجع شديد يلفت الانتباه ، أو من غير ضجيج وصياح يبشر بهذا الميلاد السعيد • وربما وجد بعض أبناء الجيل المعاصر نفسه وعمله واجتهاده الجغرافي ، وقد انساق في تيار هذا الفكر الجغرافي المعاصر واستجاب لفلسفته ، وأسهم عندئذ في ترسيخ علم الجغرافية المعاصرة ، على نحو يخدم التجديد في الانجاز ، والتجويد في الآداء الجغرافي التخصصي لحساب الحياة •

هذا ، وكان من الطبيعي أن يتحرر هذا الفكر المعاصر ، الذى أسفرت عنه ارادة التغيير ، من كثير من القيود والالتزامات التى فرضتها الأهداف العتيقة التى كان قد تبناها وتطلع اليها الفكر الجغرافي الحديث • بل وكان من الطبيعي أن يجسد الفكر الجغرافي المعاصر أهدافه وغاياته وأن يلتزم الاجتهاد الجغرافي بها التزاما موضوعيا ومنهجيا ، في اطار الأداء الجغرافي التخصصى العامل لحساب الحياة •

ومن الجائز أن علم الجغرافية الذى التزم بهذه الالتزامات الجديدة ، قد

وضع الاجتهاد الجغرافي الأفضل في الموضع الذي يرضي الناس ويخدمهم ويشبع تطلعهم الى المعرفة العميقة بالارض وبالناس • ومن الجائز أيضا أن نجد هذا الاجتهاد الجغرافي الأفضل ، وقد حقق النجاح الأكيد عندما يؤدي دوزه الوظيفي وهو يستطلع ويميز ويجسد رؤية جغرافية كاشفة عن العوامل والضوابط من وراء الصورة الجغرافية التي تجسد الواقع الجغرافي الطبيعي في المكان أحيانا ، أو التي تجسد الواقع الجغرافي البشري في المكان أحيانا أخرى • ولكن المؤكد أن علم الجغرافية المعاصرة ، الذي تحرر وتطور استجابة للفكر الجغرافي المعاصر وفلسفته الواقعية ، قد أطلق العنان لكل اضافة تجدد ولكل ابداع يجود • وكان سبيله الآداء الجغرافي التخصصي الأفضل الذي يزج بالخبرة الجغرافية ويوظفها في مجالات العمل التطبيقي لكي ترشد التفاعل الحياتي الأفضل بين الناس والارض •

والجغرافية كوعاء احتوى الفكر الجغرافي والتزم بفلسفته وأهدافه ، وهو حديث في مراحل متوالية ، أو وهو معاصر في الوقت الحاضر ، قد برهن دائما على كفاءة وقدرة في مطاوعة هذا الفكر واحتوائه والاستجابة له • بل لقد سخر علم الجغرافية الحديثة الاجتهاد الجغرافي المتخصص والزمه بمشيئة أو ارادة الفكر الجغرافي الحديث وفلسفته ، سواء وهو يحقق أهداف هذا الفكر ، أو وهو يثريه أو وهو يصعد جدواه أو وهو يجدد انجازه ويجود آدائه اعتبارا من القرن التاسع عشر • ومن ثم سار علم الجغرافية المعاصرة على نفس الدرب والتزم بتطويع الاجتهاد الجغرافي لارادة الفكر الجغرافي المعاصر وفلسفته ، سواء وهو ينمي ويحسن الآداء الوظيفي التخصصي أو وهو يضيف الانجازات المجددة المفيدة • وهذا معناه أن علم الجغرافية يعرف كيف يطوع نفسه وكيف يطاوع الفكر الذي يعمل لحسابه • ومعناه أيضا أن علم الجغرافية المعاصرة قد جاوب ارادة التغيير والتحول ، الذي انتهى اليها الفكر الجغرافي المعاصر • ومعناه مرة ثالثة أن الاجتهاد الجغرافي الذي يضع أهداف الجغرافية موضع التنفيذ قد طور آدائه تطويرا حقيقيا ، لكي يحقق أهداف التجديد والتجويد •

وصحيح أن الجغرافية الحديثة في النصف الأول من القرن العشرين ، قد استجابت وأحسنت آدائها الوظيفي المتخصص ، عندما تولى الاجتهاد الجغرافي اشباع نهم الناس وتطلعهم بكل الشغف الى المعرفة بالارض ، وكيف تحتوى الحياة ونبضها المتطور • وصحيح أيضا أن الجغرافية ، قد جاوبت بمهارة على كل التساؤلات التي املتها الملاحظة والمعاينة ، سواء كانت الملاحظة عن الارض أو كانت عن الناس في احضان الارض ، أو كانت عن التفاعل

الحياتى بين الناس والارض · وصحيح مرة ثالثة أن الجغرافية قد انجزت من خلال حسن استخدام الأسلوب التركيبى التحليلى ، حسن تصوير أبعاد الظاهرات الجغرافية ومدى توزيعها وانتشارها ، وحسن تعليل هذا التصوير وبيان ضوابطه ، وحسن صياغة العلاقات والربط بين الظاهرات الجغرافية واستخلاص النتائج الموضوعية المفيدة لحساب الحياة والتفاعل الحياتى على الارض ، ولكن الصحيح ـ بكل تأكيد ـ أن مهمة الآداء الوظيفى من خلال الاجتهاد الجغرافى قد زج بالفكر الجغرافى الحـديث فى النصف الاول من القرن العشرين ، فى خضم زاخر بالجدل والنقاش الموضوعى لكى يسفر عن تفجير ارادة الغيير ، وما انتهت اليه من تحولات صنعت قاعدة ومفاهيم وأهداف الفكر الجغرافى المعاصر ·

ومن المفيد ـ على كل حال ـ أن نتبين كيف انساق الاجتهاد الجغرافى فى النصف الأول من القرن العشرين ، انسياقا متأنيا وهادئا فى الاتجاه الصحيح ، وصولا الى نقطة التحول التى أسفرت عن فلسفة وأهداف الفكر الجغرافى المعاصر · كما ينبغى أن نتبين كيف كان التجديد والتجويد ، الذى أكسب هذا الفكر الجغرافى المعاصر مكانة مرموقة فى خدمة البحث الجغرافى التطبيقى · بل ينبغى أن نتابع الاجتهاد الجغرافى ، ومدى نجاحه الذى بنى ـ بالضرورة ـ على انغماس الفـكر الجغرافى المعـاصر فى فلسفة واقعية متطورة ، دعت وتدعو الى أكثر من التأمل الشديد فى جدوى التفاعل الحياتى بين الانسان والارض وضوابطه · وما من شك فى أن الجغرافية المعاصرة ، قد طوعت مغزاها وطورت مرماها وانكبت على البحث التطبيقى ، الذى تود أن تنتصر الجغرافية فيه لارادة الحياة الأفضل فى كل مكان على الارض ··

وهذا معناه أن الجغرافية الحديثة التى طاوعت فلسفة الفكر الجغرافى الحديث وخدمت أهدافه ، قد وضعت الخبرة الجغرافية والبحث الموضوعى فى خدمة الحياة ، أما الجغرافية المعاصرة التى طاوعت فلسفة الفكر الجغرافى المعاصر وخدمت التجويد والتطوير فى أهدافه قد وضعت الخبرة الجغرافية والبحث الجغرافى التطبيقى فى خدمة تحسين أحوال الحياة · ويمكن القول ان هذا ـ بكل الايجاز ـ جوهر التحول من أهداف سعت اليها الجغرافيـة الحديثة الى أهداف تحققها وتسفر عنها الجغرافية المعاصرة فى الوقت الحاضر ·

ولقد تأتى هذا التحول تأسيسا على حصاد معركتين كبيرتين ، الأولى فكرية جدلية بحتة ، والثانية عسكرية حربية ، وتسبب حصاد هـاتين المعركتين فى تفجير التغيير الجذرى الذى بنى عليه التجـديد والتجويد فى

مفاهيم الفكر الجغرافى الذى استحق أن يصبح عصريا ، وفى آداء الجغرافية المعاصرة التى تستوعب مفاهيم هذا الفكر وتحقق أهدافه ومتطلباته • ومن الجائز أن كل أولئك الذين اشتركوا فى هاتين المعركتين لم يفطنوا الى انهم يضعون الأساس فى هذا التحول الفكرى المثير ، ولكن المؤكد أن الأساس الذى يرتكز عليه هذا التحول الفكرى المفيد كان أساسا قويا وسليما •

وعن المعركة الأولى ، ينبغى أن نتصور مسألة الصراع الفكرى الجغرافى، التى تأتت على المدى الطويل منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى • ولقد احتدم هذا الصراع الفكرى الجغرافى ، بين فريقين من المفكرين الجغرافيين ، الذين أسهموا بفكرهم فى صياغة فلسفة الفكر الجغرافى الحديث ، وباجتهادهم الموضوعى فى صياغة وترسيخ الجغرافية الحديثة ترسيخا علميا لحساب الحياة • وربما كانت البداية هادئة ، عندما تطلع فريق الى التركيز على دراسة الارض وتوجيه أقل اهتمام الى وجود الانسان على هذه الارض ، وخالفهم فريق آخر وتطلع الى أكبر قدر من التوازن الموضوعى بين الاهتمام الجغرافى بالأرض وهى تحتوى الناس ، وبالناس وهم يتسيدون على الأرض فى وقت واحد(١) •

هذا وسرعان ما تحول هذا الجدل الموضوعى وتصاعد واتخذ شكل الصراع الفكرى بين فلسفتين متناقضتين ومتضادتين • ولقد تبنى فريق متشائم فلسفة فكر متزمت كبل ارادة الانسان ، وسلم زمام مصيره واستسلم ، لكى تتقدم مسيرة الحياة ، على هوى وارادة ما يمليه الواقع الجغرافى الطبيعى من حوله فى الأرض • وتبنى الفريق الآخر فلسفة فكر متسيب حرر ارادة الانسان وسلمه زمام مصيره ، لكن تتقدم مسيرة الحياة على هوى وارادة انتصاره على تحديات الواقع الطبيعى من حوله فى الأرض •

ومن خلال الجدل الفكرى والنقاش الموضوعى المكثف ، الذى أسهم فيه الفريقان المتضادان من المفكرين الجغرافيين ، بشأن تجسيد محصلة المواجهة

---

(١) تمثل هذا التوازن الموضوعى من خلال تصاعد الاهتمام بالجغرافية البشرية الذى تبناه فيدال دى لابلاش • ولقد فتح هذا الاهتمام باب الجدل مع فريق الحتم • بمعنى أنه لو لم ينتصر الفريق الذى وضع دراسة الانسان فى مكانها الصحيح فى الاطار العام للجغرافية ، لما نشأ الفريق الذى اعترض ورفض واستنكر فكرة الحتم الجغرافى •• وهناك من يؤكد على أن عدم الاكتراث بالجغرافية البشرية لبعض الوقت قد أساء للجغرافية كعلم موضوعى متخصص •

التي طالما وضعت الانسان في مواجهة التحديات ، وهو يتفاعل ويكد وينتصر لارادة الحياة وتقدمها ، كانت النتائج التى توالت وأوصلت الفكر الجغرافى الحديث الى نقطة التحول • ونقطة التحول معناها الظاهر أن يختار الفكر طريق الفلسفة المتزمته ويتمادى فى تصور انصياع ارادة الحياة للارض ، أو أن يختار طريق الفلسفة المتسيبة ويتمادى فى تصور انصياع الارض لارادة الحياة • ولكن معنى نقطة التحول الحقيقى أن يجد الفكر الجغرافى من يخرجه من مأزق الاختيار وأن يرشـــده الى فلســـفة أكثر واقعيـــة لا تستغرق فى التزمت ولا تتمادى فى التسيب •

وقبل أن نتصور كيف احتدم هـذا الصراع الفكرى الجغرافى ، وكيف تصـاعد وتشعب وحمى وطيسة ، بين هذين الفريقين المتضادين ــ بصرف النظـر عن انتماءاتهم للمدارس الفـكرية الجغرافية الوطنية ــ وكيف وصل التفكير الجغرافى الى نقطة التحول ووجد من انتشله ينبغى أن نؤكد على أن الاجتهاد الجغرافى النشيط والمتوثب من وراء هذا الصراع الفكرى ، قد أثرى الجغرافية الحديثة ثراء حقيقيا(١) • ولكن المؤكد أنه قد أوقع الفكر الجغرافى فى حيرة شـــديدة ، دعت الى التخوف عليـــه من أن يضل أو أن يضلل • ومن المفيد ــ على كل حال ــ أن نتابع هـــذا الصراع الفكرى ، لا لكى تتبين أبعاده بين فريق الحتم وفريق الامكانية فقط ، ولكن لكى نصور كيف ساق هذا الصراع الفكر الجغرافى الحديث الى موقف الحيرة ، وكيف وجد السبيل الذى انتشله من هذه الحيرة وتبدأ نقطة التحول •

وفريق الحتم من الجغـــرافيين كان فريقـــا صـــارما ، وعلى رأسهم ديمولان وسمبل • ولقد جذب انتباه هـــذا الفريق تصور غريب كبل ارادة الحياة • ولقد انغمس هذا الفريق فى الحتم والتأكيد على مدى انصياع الحياة أو مدى امتثال الانسان واستسلامه لارادة الواقع الطبيعى وضوابطه من حوله فى أى مكان • ومن خلال نظرة متزمتة ، وضع هذا الفريق الانسان ونشاطه وتاريخه وحياته وأنماط معيشته فى أى مكان ، فى اطار الحتم • ومن شأن هذا الحتم أن ينتصر للتصور الذى يفترض انسياق الانسـان وراء ما تمليه الضوابط الطبيعية ، والتزامه بما تهمس به الطبيعية فى أذنه ، لكى يواجه

---

(١) لقد زج هذا الصراع الفكرى بالجغرافية لكى يعمل الاجتهـــاد الجغرافى على هامش العمل التطبيقى • ومع ذلـك كان ذلك فى اطار أكبر قدر من الحـــذر لأن الخبرة الجغرافية لم تكن قد تهيأت بعد لهذا التحول من جمود النظرية الى مرونة التطبيق •

هذه التحديات ويحل عقدتها المستعصية ، لحساب تقـدم مسيرة وحـركة الحياة ٠

هذا وما من شك فى أن الفلسفة المادية قد صعدت أهمية الاستعانة بالاحصاء فى القرن التاسع عشر الى حد أخضع السلوك الانسانى لبعض القوانين ٠ وربما ظهر عنـدئذ وكأنه ليس حرا ، بل أسير ظروف وعوامل وقوى قهر تخضع ارادته وتشكل حياته وتملى عليه أن يمتثل ٠ والسؤال الذى ينبغى أن نبحث له عن اجابة ، هو أن نتبين مدى تأثر التفكير الجغرافى آنذاك بهذا الخط الذى أسفرت عنه الفلسفة المادية ٠

ومن الجائز أن هناك بعض مقدمات فلسفية يونانية قديمة كمنت من وراء هذا الحتم الذى كبل حرية الانسان ، واستهان بارادته وقدراته ، على مواجهة تحديات الطبيعة من حوله فى المكان ٠ ولكن الذى لا شك فيه أن فكرة الحتم الجغـرافى لم تولد - بالفعل - الا فى مهد الفـكر الجغرافى الحديث والفلسفة التى نهل من معينها وفجرت اجتهاده ، وهو يرسخ علم الجغرافية ويحمله مسئولية النظـرية الفـكرية الجغرافية وما تبتغيه أو ترنو اليه من أهداف ، لحساب الحياة ٠

وربما جمح كارل ريتر فى اتجاه الحتم قليلا ، عنـدما استشعر أثر البيئة فى الانسان ٠ ولقد تصـور ريتر أن خصائص البيئة تكون من وراء أهم الخطوط العامة التى شكلت السلوك الاجتماعى ونمط التفاعل الحياتى بين الانسان والأرض فى أحضان المكان ٠ ولـكن المؤكد أن ريتر لم يتورط فى خطيئة الحتم الجغـرافى تورطا حقيقيـا ٠ وهنـاك من يعتقد أنه أعطى للانسان وزنا فى مواجهة أعباء الحياة ٠ وهناك من يتهمه بأنه وضع البذرة ثم تبرأ منها ٠

وربما ناقش همبولت هذه المسألة أيضا فى كتابه عن الكون ، عنـدما استشعر المواجهة بين الانسان والبيئة ٠ ولقـد تصور همبولت أن الانسان قد يفر من هذه المواجهة ، ويتحلل من الانتصار لارادته وحياته ٠ ولكن المؤكد أن همبولت أيضا لم يتورط فى خطيئة الحتم الجغرافى تورطا يدينه ٠ وهناك من يعتقد أنه أطرى مقدرة الانسان وجسد امكان انتصاره فى مواجهة أعباء الحياة ٠ وليس هناك بالفعل من يتهمه بأنه شارك ريتر فى بذر بذرة الحتم حتى نتبين كيف تبرأ منها ٠

أما راتزل فلقد تمادى فى تبنى مسألة الحتم بشكل واضح وهو يصور أثر البيئة ومدى تأثر الانسان بهـا واستجابته لما تمليه • وفى كتبه أكثر من دليل على تأكيد حتمية قوى الطبيعة على الانسان وعلى أنماط حيـاته •

ومع ذلـك فينبغى أن نؤكد على أن قضية الحتم الجغرافى لم تأخذ شكلها الصارم المتزمت ، ولم تجسد انصياع الحيـاة للبيئة والعوامل الطبيعية ، الا بعد راتزل • ويبدو أن أبوة راتزل كانت غير ناضجة • والاعتقاد السائد أن راتزل بلور الفكرة ولكن الذى نماها هو تأثر بعض الجغرافيين بكتابات بكل فى مطلع النصف الثانى من القـرن التاسع عشر ، وكتابات فريدريك لبليه والتى عدل عنها فيما بعد •

ومع مطلع القرن العشرين وفى أحضان علم الجغرافية ، الذى انكب على أداء دوره الوظيفى ودراسة الانسـان ، تولى ديمولان الفرنسى تفجير صرامة البيئة ومدى تأثيرها على الحيـاة • ولقد تبنى هـذا الجغرافى مهمة تجسيد الفلسفة التى تصـور الحتم الجغرافى • ومن الجـائز أن ديمولان قد تأثر بمنطق وفكر بعض الاجتماعيين من أمثال لبليه وتورفيل ، عنـدما صور كيف يتـولى الواقع الجغرافى الطبيعى فى البيئة ، صياغة وتشكيل شخصية الجمـاعة وفرض نظامها الاجتماعى ولكن المؤكد أن آراء ديمولان قد عكست صدى رأى راتزل وضخمته كثيرا •

ولقد أصر ديمولان على تصـور مدى انصياع حركة الحياة للضوابط الحاكمة فى البيئة وهى تقبض على زمام المصير وتفرض عليها الاستسلام • كما جسد مدى امتثال الانسـان واذعانه لـما يمليه عليه الواقع الجغرافى الطبيعى فى المكان من حوله • بل لقد ذهب التعصب للفكرة الحتمية الى أبعد من ذلك الحد ، عنـدما تصور ديمولان كيف أنه لو بدأ البشر حياتهم مرة أخـرى من جديد فى أحضـان الأرض والواقع الجغـرافى الطبيعى لم يتغير ، لأعاد التاريخ سيرته الأولى ، ولتكررت حركة الحياة وسارت أشواطها المتوالية على نفس الدرب من غير أدنى تغيير •

وهذا معناه حتمية جريئة بالفعل ، ومن غير تحفظ • ومن الجـائز أنها ضلت ، بل وضللت وهى تسلب الانسـان جدوى اجتهـاده وقدراته فى مواجهة التحـديات التى تعلنها البيئة • ولـكن المؤكد أن هـذه الجرأة قد امتهنت قدرات الانسـان وملكاته وابداعاته وأساءت الى مدى اصراره ونجاحه فى ابطال مفعول هذه التحديات أو تطويعها لارادته الصلبة •

وهكذا تفنن ديمولان وتمـادى فى التدليل على مدى الانصيـاع الذى

وصل في إعتقاده ، الى قاعدة أعلنت أن البيئة تشكل واقع المجتمع ونظامه الاجتماعي • بل لقد هلل حتى أفلح في جمع فريق من الجغرافيين الى صفه ، وفي صياغة فلسفة تدعم هذا التمادى في الحتم • وانبرى هذا الفريق الذى الذى استهوته فكرة الحتم الجغرافى وآمن بها الى التبشير أو الترويج لمنطقها الصارم الذى يطعن في حرية حركة الحياة على الأرض •

ولقد انساقت مس سمبل بدورها في اشاعة اقتناعها بالحتم الجغرافى • ومن الجائز أن حتمية مس سمبل كانت من طراز خاص لأنها أخذت منطق وأساس هذا الحتم كله من راتزل ولم تتأثر ببعض الاجتماعيين • ومن الجائز أنها بنت الفكرة على نتائج بعض التعميمات واستخلصت منها قوانين تصور مدى تأثير البيئة على الانسان ومدى امتثال الانسان لها • ولكن المؤكد أن مس سمبل قد انزلقت الى حضيض هذه الفكرة الحتمية الجريئة في امتهان قدرات الانسان ، عندما تصورت مدى عجز الانسان الى الحد الذى يفرض عليه الاستجابة الكاملة لما تهمس به الطبيعة في أذنه لكى يواجه التحدى ويمضى في حركة مفروضة على الحياة •

وبصرف النظر عن جدوى الاجتهاد الذى قامت به لكى تجمع الأمثلة وتجند الرؤية التى تصور مدى امتثال الانسان لارادة البيئة ، فلقد جاءت كتابة مس سمبل في شكل من أشكال التعصب والاصرار على منطق الحتمية وفلسفتها وعلى أهدافها ونتائجها • وتعمدت لدى تجسيد بعض الأمثلة - في بعض الأحيان - أن تلوى عنق الحقائق الجغرافية بشدة ، لكى تستخلص النتيجة أو التفسير الحتمى الذى تلمسته دائما • ولعلها قد جردت الانسان تماما من حرية الاختيار ، ومن أى قدرة على تحديد مصيره •

وما من شك في أن هذا الفريق الذى روج للحتم الجغرافى ، قد أثار قضية فكرية جوهرية ، وخاض تجربة بحثية طويلة وصعبة في سبيل الترويج لها أو الدفاع عنها • وكان من شأن هذا الفريق الذى افتتن بتأثير البيئة ، أن يتصور ويجسد قوة الضواغط البيئية التى تضغط على الحياة • بل لقد تصور أن حركة الحياة تتأتى من خلال العجز وعدم القدرة على معاندة أو توقيف أو تخفيض معدلات هذه الضواغط البيئية • ومعنى ذلك - بكل تأكيد - فرض ارادة وقوة هذه الضواغط البيئية على الانسان ، والاستهانة أو الاستخفاف بقدراته على احباط أو ابطال أو تطويع مفعول التحديات التى تضغط وتفرض قوة الضواغط البيئية ضد ارادة الانسان على الحياة • ومعنى ذلك أيضا ، أنه بمقدار ما تكون الضواغط البيئية وبمقدار ما تهمس به

البيئة في أذن الانســـان ، يكون التأقلم أو التعايش في أحضـــان المكان والانسان صاغر ومرغم لا يملك حيلة غير الامتثال .

هذا ، وكان من شأن هذا الفريق الذى انزلق إلى هاوية الحتم الجغرافى ، وتصور كيف تقود الطبيعة والقوانين الطبيعية في البيئة حركة الحيـــاة ، وكيف ينصاع الانسان وهو صاغر لحركة الحياة الموجهة على طريق التقدم الذى حددت معالمه الخواص والضواغط البيئية من حوله ، أن يواجه الرفض الذى اشترك فيه فريق من المفكرين المجغرافيين وغير الجغرافيين(١) . ومن الجائز أن توخى الرفض الانتصار لقدرات الانســـان التى امتهنت ولحريته التى انتهكت . ولكن المؤكد أنه رفض صارم ، لأنه طعن فى سذاجة وضيق أفق الحتميين .

ومن الطبيعى أن يتصـــدى بعض الاجتهاد الجغرافى وغير الجغرافى ، ويعلن الرفض لهـذا الانزلاق فى قبضة الحتم الجغرافى ، وهو يستشعر أن البيئة لا يمكن أن تكون العصا السحرية ، التى تفرض قوة الضواغط وتحكم بها قسرا حركة وارادة الحيـاة . ومن الجـــائز أن انقد هذا الرفض الفـكر الجغرافى الجديث من مغبة القبـول بفلسفة ومنطق الحتم الجغرافى والتردى فى خطيئة تضننه . ولكن المؤكد أن اجتهاد هذا الفـريق قد انتشل كرامة وقدرات وكفاءات الانسان من مهانة الاستسلام لقـــوة الضواغط البيئية . ولقد تصور هذا الفريق أبعاد التأثير المتبـــادل بين الانسان والبيئة ، لأنه قد استشعر قدرات الانسان على مواجهة التحديات واحباطها وعلى مقـاومة الضواغط البيئية وتطويعها من ناحية واستشعر مدى انتصارات الإنسان فى هذه المواجهات لحساب الحياة من ناحية أخرى .

ومعنى ذلك أن صيحات الرفض التى استنكرت فلسفة ومنطق فـكرة الحتم الجغرافى ، قد تنكرت لاجتهاد الحتميين تنكرا شديدا . ومن الجـائز أن فريق الرفض قد فند رأى الحتميين وقوض تصوراتهم من أساسها ، ولكن المؤكد أن هذا الفريق قد برهن على قدرات الانسان وكفاءته وحقه فى الاختيار وتحريك المواقف لصالحة فى مواجهة كل الضواغط البيئية وما تعلنه ضد

---

(١) كان دوركايم وهو غير جغرافى أشد المفكرين امتعاضا من فكرة الحتم وما تنطوى عليه من املاء ارادة البيئة والضواغط البيئية على حركة الحياة . ولقد تولى الرد على هذه الفكرة وفندها وبرهن على بطلان نتائجها المبنية على تعميمات لا تنتبه الى الاختلافات العقلية والنفسية بين الناس .

الانسان من تحديات • ومعنى ذلك أيضا ـ وهو الأهم ـ أن صيحات هـذا الرفض المعلن الذى تصدى لفلسفة ومنطق الحتم الجغرافى ، كانت النذير الذى حذر الفكر الجغرافى حتى لا ينساق أو ينزلق فى تيار تعصب جغرافى ممقوت ، يلوى عنق الحقائق الجغرافية على هواه ، وهو يكبل ارادة الانسان وينكر عليه قدراته وابداعاته •

وتأسيسا على هـذه الصيحات المعارضة والرافضة والمستنكرة فكرة الحتم الجغـرافى ، وتأسيسا على منطق وفلسفة الاجتهاد الجغرافى المعارض والرافض فكرة الحتم الجغرافى ، كان التيـار الفكرى الجغرافى المعاكس • ولقد أسفر هـذا التيار الفكرى الجغرافى المعاكس عن فكرة جديدة • وهى فكرة جسدت الرد الموضوعى والتفنيد المنطقى على الحتميين • بل انها كانت ـ بكل تأكيد ـ وسيلتهم لتحرير ارادة الانسان ولتقدير ملكاته ومواهبه وقدراته فى مواجهة الضواغط البيئية عليه •

ومن الجـائز أن نتبين كيف استلهم هـذا الفريق معارضته ثم صنع فلسفة فكرته الجديدة من خلال اجتهاده المضـاد للحتميين ، ومن الجـائز أيضا أن ندرك كيف اعتصر هذا الفريق خبرته ثم جسـد رؤيته الجغرافية الكاشفة عن مدى انتصار الانسـان على الضواغط البيئية • ولـكن المؤكد أن هذا الفريق الذى تبنى فكرة الامكانية ، قد تلمس أوصال فلسفته ومنطقه من خلال استشعار كيف يطوع الانسان الأرض للحياة ، بشـكل ينبىء أنه لا يمتثل ولا ينصـاع ولا يتـرك زمام مصـيره لكى تلعب بهـا الضواغط البيئية •

وفريق الامكانية الذى قاده لوسيان فيفر ولابلاش كان فريقا متفائلا بالانسان ومؤمنا بقدراته • ولقد حرك هذا الفريق التيار الفـكرى المعارض للحتم الجغرافى فى مطلع القـرن العشرين • ولم يقف اجتهاد هذا الفـكر المعارض عند حد الرفض فقط ، بل تمادى فى نداء يعلن احترام وتقدير كفاءة الانسان وقدراته • بل ولم يقبل هـذا الفـريق منطق الالتزام والانصياع والاستكانة لمـا يمليه الواقع الطبيعى فى البيئة ، أو لمـا يمكن أن تهمس به البيئة فى أذن الانسان ، لكى يطوع ذاته وأسلوب ذاته للبيئة ويطاوعها •

وهكذا رفض فريق الامكانية الذى انتصر لارادة الحياة ، وقدر كفاءات الانسـان مسألة القوانين الطبيعية التى بناها الفـكر الجغرافى الحتمى على تعميمات ، وحاول أن يطبقها من غـير وعى أو ادراك لمواهب الانسان • بل

لقد استشعر أن هـذه التعميمات قد تنطوى على مغالطات تنطلى على ذوى الغفلة فقط • ومن ثم انطلق تفكير هذا الفريق الذى حرر ارادة الانسان الى الاجتهاد الجغرافى المكثف لكى يتلمس ويستشعر ويجسد مدى كفاءة وقدرات ومواهب الانسان وهو ينتصر لارادته وحياته على الضواغط البيئة •

وعندئذ أصبح الانسان فى بؤرة اجتهاد هذا الفريق الجغرافى ، لا يمثل وجودا سلبيا أو وجودا قابلا للاستسلام • بل وتلمس هذا الاجتهاد الجغرافى مواهب الانسان وقدراته وكفاءته ، وكيف كانت تسعفه وتبصره وتنتصر له فى مواجهة قوة الضواغط البيئية ، وكيف أسفر انتصار الانسان عن تفوق حقيقى جعله سيد مصيره فى أى مكان • ولقد تكشف لهـذا الفريق المتفائل والمعجب بالانسان ، أن الصمود فى مواجهة التحديات وقوة الضواغط البيئية تفجر أو تكشف عن قدر معلوم من الضبط البشرى الحاكم المضاد ، وأن هذا الضبط البشرى يطلق يد الانسان لكى يطوع أو يحبط أو يبطل مفعول هذه التحـديات • بل انه يملى على البيئة ـ بالفعل ـ أسـباب وحقيقة وروائع انتصاره للحياة ودعم مسيرتها فى الاتجاه الأفضل •

هذا ، ونود أن نؤكد على كفاءة فريق الامكانية ، فى تلمس منطق الرفض الحاسم لفلسفة ومنطق فكرة الحتم الجغرافى ، وفى شجب وصـاية الطبيعة وهيمنتها وفرض ارادتها على مسيرة الحيـاة • بمعنى أن هذا الرفض كان موضوعيا ، ومن خلال اجتهاد جغرافى متحمس للانسان وكفاءة الانسـان • بل لقد تبنى هذا الفريق فلسـفة واقعية ومنطق سوى يدرك فاعلية قدرات الانسان ومدى تحررها فى التسيد على مصير الحياة فى الأرض •

ومن الجائز أن نظر هذا الفريق الى الطبيعة نظـرة موضوعية • ومن الجائز أيضا أنها استخفت بها وهى ترشـد وتبصر حركة الحياة ، وهو ما اعتبره الفريق الآخر الزام واملاء وفرض ارادة ولوى ذراع الحياة • ولكن المؤكد ـ على كل حال ـ أن رؤية هذا الفريق للطبيعة فى البيئة ، بصرف النظر عن مدى حنوها على الحيـاة ، أو عن مدى قسوة ضواغطها وتحدياتهـا على الحياة ، كانت رؤية عادية ومتفـائلة • وفى اعتقادهم أن الطبيعة لم تسلب الانسان حريته فى الاختيار ، ولم تفقده قدرته على الانتصار فى أى مواجهة بينهمـا بشـكل أو بآخر ، ولم تحبط حرصه على التشبث بزمام مصـيره ، فى أحضان الواقع الطبيعى فى البيئة •

وبهذا المنطق الموضوعى ، تولى الاجتهـاد الجغرافى الذى أكد من خلاله فريق الامكانية رؤيته وفلسـفته وفكره دراسة موقف الانسان وقدراته

فى مواجهة التحديات البيئية دراسة مكثفة على أوسع مدى فى اطار التنوع البيئى . ولقد استشعر هذا الاجتهاد الجغرافى - بكل تأكيد - مدى قبول الانسان بالتحدى قبولا ايجابيا فهو لا يفر ولا يستدبر . كما أنه لا ينصاع أو يمتثل لها . واستشعر هذا الاجتهاد الجغرافى أيضا قدرات الانسان ، وهو يضع صيغة أو صيغ الضبط المتفاوت ، التى اعتمد عليها دائما ، فى احباط أو ابطال أو تطويع مفعول هذه التحديات ، انتصارا لارادة الحياة ، فى أى بيئة .

وينبغى أن نؤكد على أن اجتهاد هذا الفريق ، قد احترم قدرات الانسان ، ووضع هذه القدرات فى مكانة ، أعطته السيادة على الأرض ، وعلى مصيره على الأرض ، بجدارة واستحقاق . وفى اعتقادهم - وهذا صحيح - أن هذا الضبط البشرى ، الذى أكد سيادة الانسان على الأرض هو الذى قاد وكفل تحرك الحياة فى الانجاه الأفضل . وفى اعتقادهم أيضا ، أن الطبيعة وضواغط البيئة ، هى التى فجرت هذا الضبط البشرى ، وأنها لم تكن أبدا لها فضل قيادة تحرك الحياة ومسيرتها ، فى الاتجاه الأفضل .

واقتناع هذا الفريق الرافض للحتم الجغرافى وادعاءه بأن الطبيعة لا تهمس فى أذن الانسان فيطاوعها ، وبأن الطبيعة لم يكن لها فضل ريادة التحرك فى اتجاه الحياة الأفضل ، ادعاء لم يبدأ بالتطلع من فراغ . بل ان الاقتناع بالرأى المضاد لم يكن عبثا . وما من شك فى أن هذا الاقتناع قد تولد بعد مراجعة تراث الوجود الانسانى ورصيده على المدى الطويل ، ومن بعد تأمل وتدبر فى كفاءة الضبط البشرى الرادع للتحدى فى أحضان البيئة .

هذا ، وينبغى أن نؤكد على أن هذا الاقتناع قد نماه وأكده الاجتهاد الجغرافى ، الذى عكف على حساب مدى زيادة معدلات فاعلية وجدوى انتصارات الضبط البشرى الرادع للتحدى البيئى ، مع كل خطوة تخطوها مسيرة الحياة حضاريا . وفى تراث الانسان - بالفعل - بينات كثيرة تعلن عن صدق هذه الرؤية الجغرافية الصادقة وتسجل مدى تصاعد الابداع والتفنن فى احباط أو ابطال أو تطويع مفعول التحديات من عصر الى عصر آخر ، وتصور وتجسد الانتصار الحقيقى لحساب الحياة . ومن ثم ينبغى أن ندرك كيف أن تولد ونمو وترسيخ الاقتناع بانتصارات الانسان ، قد أطلق العنان لكى يشطح الاجتهاد الجغرافى ويتمادى فى تصور مدى تعاظم قدرات الانسان وتصاعد امكانياته من غير حدود ، الى حد قهر واملاء ارادة الحياة انتصارا وتفوقا مطلقا لحساب حركة الحياة .

ومن الجائز أن يكون هذا الاقتناع الذى اسفر عن فكرة مضادة للحتم الجغرافى قد شط وشطح وتمادى فى اطلاق العنان لقدرات الانسان • ولكن المؤكد أن الفكرة المضادة للحتم قد بينت على أسس فلسفة ومنطق وتفكير سوى الى حد كبير • والا فكيف يمكن أن ننكر أو نستنكر العلاقة الايجابية بين اجتهاد الانسان وكده وجدوى قدراته المبدعة من ناحية ، وما أسفر عنه هذا الاجتهاد من نجاح وتفوق ، وهو يضع التقدم الحضارى والاجتماعى والاقتصادى من ناحية أخرى ؟

- - - - - - - - - - -

ومهما يكن من أمر هذا الصراع الفكرى الذى بدأ منذ سنة ١٨٩٣ - بصرف النظر عن مقدماته فى مراحل سابقة - ثم احتدم وحمى وطيسه فى العشرينات من القرن العشرين بين فريقين متضادين ، فانه كان - قبل كل شىء - صراعا فكريا جغرافيا مفيدا وحيويا بالدرجة الأولى لحساب الفكر الجغرافى الحديث وفلسفته • وفى الوقت الذى انكب فيه فريق الحتم الجغرافى الذى كبل ارادة الانسان وحدد أبعاد قدراته وصور مدى استجابته وانصياعه للضواغط البيئية ، انبرى الفريق الآخر وأطلق العنان لقدرات الانسان وامكانياته من غير حدود ، وهو يطوع الواقع الطبيعى لارادة الحياة ولا يكاد يطاوعه •

ولقد دعا هذا الصراع الفكرى المتضاد ، أول ما دعا الى عمق البحوث الجغرافية عن الانسان ، الأمر الذى وضع وثبت دعامات الاجتهاد الجغرافى لحساب الجغرافية البشرية • بل لقد أطلق العنان للدراسة الميدانية والمسح الجغرافى ، على أمل أن يجمع كل صاحب رأى النماذج التى تدعم رؤيته وأن يتدبر فى الرؤية الجغرافية التى تضع قدرات الانسان فى مكانها ومكانتها الحقيقية • ومن ثم كانت التجربة العريضة - بكل ما احتملته من صواب وخطأ - تجربة مفيدة لأنها أسفرت عن شكل من أشكال الانفتاح والتفتح الفكرى الجغرافى فى النصف الأول من القرن العشرين •

وعن الانفتاح نقول أنه مفيد ، لأنه تسبب فى ثراء حقيقى ، وانجاز عظيم ، ورصيد ضخم ، اعتز به الفكر الجغرافى الحديث • كما نذكر كيف أنه بصر الاجتهاد الجغرافى ، وأكسب الخبرة الجغرافية مزيدا من المرونة من غير تجنى أو تجاوز الموضوعية ، لحساب البحوث الجغرافية • وعن التفتح نقول أنه أكثر فائدة ، لأنه تسبب فى شحذ بصيرة الاجتهاد الجغرافى ،

وتنمية قدرات التأمل والتـــدبر والتفـكير التى انكبت على تمحيص الرؤية الجغرافية واستخلاص النماذج والنتائج التى تدعم فكرة الحتم أو تدحضها. كما نذكر كيف أن هذا التفتح قد وضع بذرة أو نواة التجـــديد والتجويد فى أحشاء الفكر الجغرافى الحديث ورعاها وهو يتطلع الى ما يمكن أن تسفر عنه أحيانا والى ما ينبغى أن تعطيه أحيانا أخرى .

وتفكير جغرافى جاد ونشيط ، بكل هذا التفتح والانفتــاح ، قد أدى بالضرورة الى ابداع جديد ومفيد . ولقد تمثل هذا الابداع ، عنـدما انكب الاجتهـاد الجغرافى بذكاء وحنكة ، على تقييم دور الانســان ودور الضواغط الطبيعية ، فى اطـــار ملحمة المواجهة بينهمــا بين أحضــان البيئة ، تقويما جغرافيا . وأصبح هـــذا التقييم الجغرافى مصدر رؤية ومنبع حكم رشيد ، عندما يتخذ منه الاجتهاد الجغرافى ، بعدا من أبعاد العمل فى خـــدمة عمق وموضوعية البحث الجغرافى .

ولقد أضيف هذا **التقييم الجغرافى** الى التوزيع والتعليل والربط من أجل صياغة وتكامل البحث الجغرافى وصولا الى أهدافه . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافى الذى حدد مسيرة البحث الجغرافى من خلال التوزيع والتعليل والربط استجابة لصياغة البحث كما أراد له الفـكر الجغرافى الحـديث أن يكون ، قد أضاف التقييم الجغرافى لكى يتكامل ويتعمق البحث فى أحضان الفـكر الجغرافى المعاصر . بمعنى أن قضية التقييم الجغرافى التى أسفرت عنها ملحمة الابداع الفـكرى بين الحتميين والامكانيين ، أصبحت العـــلامة التى بشرت بالتجديد والتجويد ونقلت الفكر الجغرافى الى أحضان فلسفة جديدة ، لكى يطوع العمل الجغرافى العملى ، فيساير ويجاوب حاجة العصر .

ومن الجائز أن يكون التقييم الجغرافى نقطة تحول ، حيث أنهى فلسفة ومنطق ومهمة الفكر الجغرافى الحديث ، وحيث حمل الفكر الجغرافى المعاصر مسئولية فلسفة ومنطق ومهمة متجددة . ومن الجـــائز أن أصبح التقييم الجغرافى نقطة تحول ، يبدأ من عنـــدها الأمل لكى يتحول العمل الجغرافى من جمود النظرية الى مرونة التطبيق . ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى لم يوسع قاعدة استخدام التقييم الجغرافى ، ولم تقتحم مجالات التطبيق فى اطار فلسفة ومنطق الفكر الجغرافى المعــاصر ، الا من بعــد صيحات وضيحات تصاعدت وألحت وطلبت من الجغرافية أن تقتحم مجالات التطبيق .

وما من شك فى أن الجغرافية قد جاوبت هذه الصيحات وأقدمت على الاقتحام الكبير ، الذى يعنى التغيير الحقيقى فى الأداء الوظيفى التخصصى ،

ويغنى أيضا بداية المرحلة التى يعيشها الفكر الجغرافى المعاصر بكل مقومات ونزعات التجديد والتجويد فى العمل الجغرافى ، لحساب التطبيق فى خدمة الحياة • ومن المفيد — على كل حال — أن نتبين متى وكيف ولماذا تعالت هذه الصيحات التى نادت على الجغرافية واستجارت بها ؟ ، ومتى وكيف ولماذا استجاب الفكر الجغرافى وسخر الاجتهاد وطور العمل وحمله مسئولية التقييم الجغرافى لحساب التطبيق فى خدمة الحياة ؟

* * *

وهنا يبدأ الحديث عن **المعركة الثانية** ، وهى ملحمة صراع وحرب وقتال شهدتها الاربعينات من القرن العشرين بين فريقين متصارمين هما فريق الحلفاء وفريق المحور • وغريب أمر معركة حربية ، تكون ضراوتها من وراء عملية تحول الفكر الجغرافى من فلسفته ومنطقه التى سخرت العمل الجغرافى قبل الحرب ، الى فلسفة ومنطقه المجدد الذى سخر العمل الجغرافى بعد الحرب • ومع ذلك فلا وجه للغرابة والجغرافية علم يؤدى دوره فى خدمة الحياة وكان عليه أن يجاوب أى صيحة تدعوه لكى ينصر الحياة ويبصرها •

ومن الجائز أن الحرب العالمية الثانية كانت هديرا وهجيرا تلظت بها الدنيا وتضررت من جرائها الحياة • ومن الجائز أن كانت هذه الحرب معارك كر وفر على الأرض الأوروبية وفيما وراء البحار • ولكن المؤكد أن استسلام فرنسا قد زج بالحلفاء فى المحنة ، وتحملت بريطانيا — البقية من الحلفاء — وطأة ومرارة هذه المحنة وهى تواجه الحرب الضارية — على مدى أعوام — وتحت وطأة الضرب الجوى المباشر ، ووطأة الحصار البحرى الألمانى الذى أغرق معظم امدادات التموين والعتاد والغذاء اليها ، كانت صيحة التوجع العالية ، التى نادت على أبنائها من الجغرافيين ، وتطلعت الى اجتهادهم فى دعم صمودها وهى تواجه الخطر والموقف العصيب •

هذا ولم يكن غريبا أن تصدر الصيحة الى الجغرافيين الذين كانوا قد نزلوا الى الميدان البريطانى بالفعل اعتبارا من سنة ١٩٣٠ • ومن الطبيعى أن تدرك كيف أن العمل الجغرافى قد انكب من خلال الدراسة فى الميدان على اجراء مسح لاستخدام الأراضى • ومن الطبيعى أن نجد قصة تحتوى على مدى اجتهاد الجغرافيين فى أداء هذا الجرد القومى • ولكن الأهم من ذلك كله أن نتبين كيف جاوب الجغرافيون هذه الصيحة وكيف تحول عملهم تحولا مثيرا ومثمرا الى انجاز جغرافى علمى مفيد •

هذا ولم يكن الجواب مطلوبا من أجل بذل دماء أو تضحية فى سبيل الأرض • بل لقد كان الجواب مطلوبا من أجل هدف آخر ، قوامه تسخير

العمل الجغرافى فى الميـــدان الرحب على الصعيد البريطانى لدعم الصمود وترشيده فى الحرب وفيما بعد الحرب • وهـذا الجواب علامة بالفعل على أن الجغـرافية قد طوعت خبرتهـا وتحمست وتحملت مسئوليتها فى الأداء الوظيفى التطبيقى •

وما من شـــك فى أن دادلى ستامب الذى كان يتـــولى الاشراف على الجغرافيين العـــاملين فى حقل المسح والدراسة لحساب استخدام الأرض فى مصلحة مسح الأراضى البريطانية للاستغلال Land Utilisation Survey ، قد حقق هذه الاستجابة بالفعل • ولقـــد وضع ستامب مع الفريق من زملائه وتلاميذه علمه فى خدمة هذه الاستجابة • وهذه الاستجابة - فى تصور أى جغرافى منصف - قد أطلقت العنان لكى يبدأ التطبيق العملى للاضافة الجديدة التى توخت حسن استخدام التقييم الجغرافى فى العمـــل أو البحث الجغرافى • وهـــذا معناه اتجـاه حقيقى يبدأ به الفـكر الجغرافى المعاصر ، بكل ما يتطلع اليه من تجديد وتجويد •

هكذا طور ستامب الاجتهاد الجغرافى مع الفريق فى الميـدان وتولى على المدى الواسع أداء دور وظيفى متخصص تطبيقى • ومن الجائز أن هـــذا الاجتهاد الجغرافى الذى دعت اليه وطأة الحرب والموقف الصعب قد استنفر همة الجغرافية لكى تنغمس فى العمـــل التطبيقى • ولـكن المؤكد أن هـــذا الاجتهاد الجغرافى قد اتخـــذ من التقييم الجغرافى وهو يتحسس أنمـــاط استخدامات الأرض سبيلا لحساب الجدوى من هـــذا الاستخدام لحساب الحياة • والمؤكد أيضا أنه قد تبين من خـــلال التقييم الجغرافى ، مدى عمق الفجوة التى تفصل بين استخدام سائد بالفعل وهو جائر أو غير اقتصـــادى واستخدام اقتصادى أمثل ينبغى أن يكون فى هذه الأرض • ولابد أن التقييم الجغرافى ، قد حمل الانسان مسئولية عمق واتساع هذه الفجوة ، وما تعنية بالنسبة للبناء الاقتصـــادى البريطانى الذى ثبت عجزه لدى تصعيد كفاءة الإستخدام إلى الحد الاقتصادى الأمثل •

وبصرف النظر عن مدى نجاح هذا الاجتهاد الجغرافى فى المجال التطبيقى بعد الحرب العالمية الثـــانية ، وما أسفر عنه من اضافات لحساب الفـكر الجغرافى المعاصر ، ينبغى أن نتصور عندئذ ، كيف كانت البداية الحقيقية التى أشاعت التقييم الجغرافى وأكدت التحول • كما ينبغى أن ندرك كيف انطلق الفكر الجغرافى المعاصر بعد نضج النبتة التى احتوتها أحشاء الفـكر الجغرافى الحديث ، على مدى أكثر من خمسين عاما فى القرن العشرين :

هذا ولقد تولت المدرسة الجغرافية البريطانية مسئولية هذا التحول وريادة العمل التطبيقى الجغرافى من خلال كفاءة وجدوى التقييم الجغرافى . وما من شك فى أن كل المدارس الفكرية الجغرافية ، كانت فى وضع الاستعداد لقبول منطق وفلسفة هذا التحول ، ولم تعارضه أو تعترض عليه . ومن ثم سارت عمليات الاجتهاد الجغرافى فى الاتجـاه الصحيح المجدد ، وأخذت فى ممارسة التقييم الجغرافى الذى وسع اطار التحرك العلمى النشيط لحساب البحث الجغرافى ، الذى يجاوب روح ومنطق وفلسفة الفكر الجغرافى المعاصر فى خدمة الحياة .

* * *

التقييم الجغرافى وانطلاقة التغيير

والتقييم الجغرافى عنـدما أضيف الى التوزيع والتعليل والربط ، قاد الاجتهاد الجغرافى فى أسلوب بحث موضوعى أكثر عمقا . بل لقد فتح هذا التقييم الجغرافى بابا ، لكى يجد الاجتهاد الجغرافى سبيلا واضحا لقياس وحساب الجدوى ، بشأن الظاهرة الجغرافية التى يعالجها البحث الجغرافى . وما من شك فى أن مسـألة حساب الجدوى ، هى نقطة الانطلاق الجغرافى انطلاقا متحررا من جمود النظرية البحتة الى مرونة التطبيق . ومعنى مرونة التطبيق أن تشترك الخبرة الجغرافية اشـتراكا مبـاشرا وفعـالا مع زمرة العاملين الباحثين فى المجال التطبيقى ، الذى ينفع الحيـاة ويبصر حركة الحياة فى الاتجاه الأفضل .

ومن شأن تقييم الظاهرة الجغرافية المعنية وحسـاب الجـدوى ، أن يكون ـ بكل تأكيد ـ لحساب الانسان . بمعنى أنه عمل موضوعى ، يتولى تأكيد حق الانسان ومصلحته فى كل ما تحتويه الأرض . والا فلمن يكون هذا الذى تحتويه ، اذا لم يكن ـ بالفعل ـ حقا للانسان ، الذى له مكان السيادة ومكانة التفوق على الأرض ؟

هذا ولقـد فرض حساب الجدوى لأى ظاهرة جغـرافية معنية ، على الاجتهاد الجغرافى مسـئولية البحث المكثف الذى يسبر الغور ويعجم العود ويحدد الأبعاد التى تتداخل جميعها فى عمليات التقييم الجغرافى . بل انه أصبح حريصـا على تنشيط الحس الجغرافى واستنفار التفكير الجغرافى السوى لكى يظاهر ويلهم الاجتهاد الجغرافى ويبصره لدى أداء دوره فى التقييم الجغرافى وحساب الجدوى . والمؤكد أنه حساب الجدوى مطلوب ـ بكل الالحاح ـ ليس لحساب الحياة فقط وانتصار ارادتها ، بل لكى يصبح هـذا التقييم سبيلا لادراك مثمر يتحرى ماهية وكنه ومدى فاعلية التـأثير المتبادل بين

الأرض والانسان ، لحساب حيـــاة أفضل وتفاعل حياتى أكثـــر كفاءة مع الأرض ٠

ولقد اتخـــذ الاجتهـــاد الجغـــرافى من التقييم مطية وأسلوب عمل فى الدراسة الميدانية وفى الدراسة المكتبية على السواء ، وهو يحسب جدوى الواقع الطبيعى وضواغطه فى الأرض ٠ ومن الطبيعى أن تتكشف له مـدى ثبات هذا الواقع ، لأنه لا يتغير الا على المدى الجيولوجى ٠ ولـكن المؤكد أن يتحقق التقييم من ماهيته ومدى استجابته أو عصيانه لارادة الحيـاة ، وأن يعجم التقييم عود التحديات التى تواجه حركة الحياة ٠

كما اتخذ الاجتهاد الجغرافى من التقييم مطية وأسلوب عمل فى الدراسة الميـدانية وفى الدراسة المكتبية على الســواء ، وهو يحسب جـدوى الواقع البشرى فى نفس الأرض ٠ ومن الطبيعى أن تتكشف له مدى تغييره وقبوله وتطلعه وقدراته على صنع التغيير ٠ ولكن المؤكد أن يتحقق التقييم من ماهية ومدى استجابته أو عجزه عن صنع التغيير الذى تبتغيه ارادة الحيـاة ، وأن يعجم التقييم عود الضبط البشرى الذى يحبط أو يطوع مفعول التحـديات التى تعاند ارادة الحياة وهى تصنع التغيير الى ما هو أفضل ٠

وعندما يفسح التقييم الجغرافى المجال وتتفتح أبواب البحث لكى يفطن الاجتهاد الجغرافى الى معنى ومغزى ديناميكية البعد البشرى المؤثر وهو يواجه مصيره على الأرض ، تنكشف للفـكر الجغرافى المعـاصر جدوى هذا البعد البشرى وما يفتعله من ضبط فعال يحل عقدة التحديات والضواغط البيئية التى يفرضها البعد الطبيعى فى مواجهة مسيرة الحيـــاة فى الأرض ٠ كما تتكشف له أيضا ، مدى العلاقة بين ثراء الخلفية الحضارية وهو يشـد أزر الجدوى المتغيرة لهـــذا الضبط البشرى وهو يجتهد فى مواجهة التحديات ، والابداع البشرى وهو يضع هـــذا الضبط البشرى موضع التنفيـذ وينجح فى احباط هذه التحديات ٠ ومن خلال هذه العلاقة ، تصدى الاجتهاد الجغرافى الى اعادة النظر فى دراسة الجغرافية البشرية وفروعها المتعددة ٠ ولقد اتخذ من التقييم الجغرافى سبيلا أو منطلقا الى تجديد أو تجويد هذه الفروع الكاشفة عن حياة الانســـان واجتهاده وانتصاره لحساب مصيره وحيـــاته الأفضل فى أحضان المكان ٠

- - - - - - - - - -

انجازات الجغرافية المعاصرة

وبعد أن كانت الاجابة عن لماذا ومتى وكيف حدث التحول من الفكر الجغرافى الحديث الى الفكر الجغرافى المعاصر ، ينبغى أن نؤكد على أن هذا التحول كان ضروريا ، لكى يجاوب الأداء الوظيفى لعلم الجغرافية حاجة العصر • ومن الجائز أن نذكر كيف استشعر الاجتهاد الجغرافى الحاجة الى التغيير والتحول فى مواجهة حاجة العصر • ومن الجائز أن نتصور كيف انطوت الجغرافية على ارادة التغيير والتطور ، فى اطار المضمون الذى تحتويه ، وفى اطار الأهداف التى تتطلع اليها • ولكن المؤكد أن الفكر الجغرافى الذى كان يزخر بالتأمل والتفكير والجدل لا ولم ولن يقتنع بأنه قد أنهى مهمته •

ومن المفيد حقا أن يقتنع الفكر الجغرافى وهو النبض الذى تحيا به الجغرافية ويوجهها ، بانه لم ولن ينهى مهمته التى يرضى بها أو يرضى عنها • ذلك أن الاقتناع معناه التجمد وافتقاد أسباب ودوافع التطور • وما من شك فى أن التجمد لا يمكن أن يعنى اكتمال الجغرافية بحيث تصبح صالحة لكى تجاوب حاجة العصر وكل عصر ، ولكنه يعنى قصورا وعجزا ، لان ما يصلح من العلم فى عصر لا ينبغى أن يصلح ويجاوب حاجة كل عصر • ولسنا فى حاجة لأن نؤكد أن الفكر الجغرافى النابض بالحيوية ، قد برهن دائما على أنه لا يتجمد وأن التغيير سمة من أهم سمات مسيرته على المدى الطويل •

وهكذا كان ينبغى أن يحدث التحول الذى بنى عليه التجديد والتجويد فى علم الجغرافية • وكان ينبغى أيضا أن يحدث بعض التغيير فى بنية التركيب الهيكلى للجغرافية • وما من شك فى أن هذا التحول والتغيير يعبر عن مدى استجابة الجغرافية فى شكلها العلمى لتحمل انجازات الفكر الجغرافى المعاصر التى تصور رؤية معاصرة للتجديد والتجويد فى وقت واحد • وهذا ـ بكل تأكيد ـ سبيل حميد من أجل جغرافية معاصرة أفضل ، واجتهاد جغرافى أنفع وأجدى لحساب الحياة •

وقبل أن نصور انجازات الفكر الجغرافى المعاصر ، ومقدار وسرعة استجابة الجغرافية المعاصرة ، وهى تتحمل مسئولية هذه الانجازات ، ينبغى أن نذكر أن قضايا الفكر الذى يصنع التجديد والتجويد ـ لا تجد قبولا سهلا أو قبولا كليا من بعض المفكرين الجغرافيين ـ وقد يتخوف فريق من أن تضل الجغرافية وهى تنغمس فى التغيير وصولا الى التجديد

والتجويد(١) • وقد يتخوف فـريق آخر من أن تقع فى قبضبة من يغـالى فى طلب التجديد والتجويد من المفكرين الجغرافيين ، فتتفسخ وتتفقد وضوح رؤية الهدف أو الأهداف التى تنشدها(٢) •

هذا ولا ينبغى أن يكون هذا التخوف علامة على محاولات التخريب أو على الرغبـة فى التجمد اطلاقا • ولـكنه التخوف الذى يـكون مبعثه التـأنى فى الاستجابة لمنطق التغيـير • بمعنى أنه ليس ثمة معـارضة أو تشكيك بل هى مراجعة جادة . يتطلع بعض المفكرين من خلالها رؤية أوضح لدواعى التغيير أحيـانا ، ولكيفية التغيير أحيـانا أخرى • وقد تنشـأ تأسيسا على اجتهاد جغرافى حقيقى ، يتخذ من التشكيك عملا مظهريا ، يبنى عليه استطلاع معنى ومغزى ومرمى هذا التغيير من مفاهيم الفكر الجغرافى الحديث الى مفاهيم الفكر الجغرافى المعاصر •

وبصرف النظر عن هذا التخوف وما يمكن أن يعبر عنه أو يؤدى اليه ، نقول أن معظم الاجتهاد الجغرافى ـ هو من غير شك ـ من أنصـار التجديد والتطـوير • ولعلهم قد استجابوا بالفعل ، وقـدم الجغرافيون البحوث والدراسات الموضوعية ، التى ألبست الجغرافية ثوبها الجديد المعـاصر • ومن الجائز أن هذا الفريق قد أبدى شجاعة أكثر مما ينبغى لتبنى مسئوليات

---

(١) يمكن أن نتصور هذا التخوف من خلال مناقشة وجـدل تعريف الجغرافية ، طلب فيه دجل اهمال كل تراث الجغرافية والبحث بعد ذلك عن هذا التعريف • ويبدو أن هـذا الاتجاه علامة على التخوف من التغيير الذى يمكن أن يضلل الجغرافية • وقد وصـل التفكير الى فرط عقد الجغرافيين واقتراح أن يتحول الجغرافيون كل فى تخصص قائم بذاته ، مثـل المناخ والديموجرافيا والجيومرفولوجيا والاقتصاد •

(٢) هناك من هز الجغرافية هزا عنيفـا وهو يستنكر ، أن تـكون قد عرفت المضمون أو أفلحت فى صياغة رؤية واضحة لأهدافها • ويتهم الجغرافية أنها تنهل من علوم يتشبكك فى وجودها • كما يتصور أنها تزج باجتهادها فى ميادين كثيرة ثم تعجز عن متابعة أدائها • كما ينظر الى أن محتـوى الجغرافية البشرية يدب فى ظلام حالك ويتخبط اجتهادها تخبطا عشوائيا فى أدائها ، لأنها تخلط بين جملة موضوعات تفتقد الترابط • ويذهب هـذا الرأى الحائر الى أن الجغرافيين فى حاجة الى تأهيل أنفسهم واثراء فكرهم تأهيلا عميقا فى علوم كثيرة مثل الاقتصاد والاجتماع وغيرها قبل أن يتفرغوا للاجتهاد الجغرافى • بل قد يذهب هذا الى أن الجغرافى لا يمكن أن يكون جغرافيا قبل أن يعرف ما هو المطلوب منه ؟ وما هى حدود اجتهاده ؟ وما هو الدور أو الأداء الوظيفى لمهنته الجغرافية •

راجع الفصول الثلاثة من كتاب تطور الجغرافية الحديثة تاليف روجر منشـل وترجمة د• محمد السيد غلاب ود• دولت صادق •

التجديد والتجويد فى عطاء الجغرافية المعاصرة • ومن الجــائز أنه اعتقد فى أن الشجاعة فى الاجتهاد والأداء الموضوعى الوظيفى تكفل - فى حد ذاتها - وضوح رؤية الأهداف التى تبصر مضامين هذا التغيير الذى ينبض بالتجديد والتجويد • ولكن المؤكد أن الاسراف فى التخوف ، لم يفلح فى وقف تيــار التغيير أو فى فتور همة واجتهاد المتعجلين فى طلب أهداف التجديد والتجويد من أجل جغرافية معاصرة أفضل •

وهناك الحاح حقيقى - بكل تأكيد - وتعجل شديد ، يصبو الى زيادة معدلات التغيير والانتقال من حيز الفكر الجغرافى الحديث المحبوك ، الى حيز الفكر الجغرافى المعاصر الفضفاض ، والى تجسيد أهداف هذا التغيير فى تجديد وتجويد جغرافى تطبيقى ينفع الناس ويخدم بالفعل والعمل حركـة الحياة ويبصرها ويقودها الى ما هو أفضل فى أحضــان البيئات والاقاليم • وممــا لا شك فيه أن الاتجــاه المتعجل فى دفع عجلة التغيير ، هو الذى ينبغى أن يتخوف منه بعض الجغرافيين لكيلا تضــل الجغرافية المعاصرة أو يغرر بهــا وتفتقد سبيلها السوى الى أهدافها الحقيقية •

ومن غير أن نلوى عنق الحقائق الموضوعية ، ندرك أن علم الجغرافية كان فى النصف الثانى من القــرن العشرين فى حاجة الى مراجعة رصيده وسبيله وأهدافه قدر حاجته لأن يتخذ من التغيير مطية الى أهداف تكفل له التجديد فى العطاء والتجويد فى الأداء ، الذى يســاير روح العصر • وكيف لا تفعل الجغرافية ذلك ، وهى التى اتضحت من خــلال التقويم على ادراك مســئولية الريادة فى تقصى حقيقة وجدوى الضبط البشرى وهو يقبض على زمام مصيره وتسييده على الأرض ، أو وهو يحبط ويبطل مفعول التحديــات البيئية ومعاندتها لارادة تقدم الحياة الى ما هو أفضل • وهل غير التجـديد فى العطاء والتجويد فى الأداء سبيلا الى تحمل هــذه المسئولية ؟ وهل غير هذه المسئولية سبيلا الى انجــاز الجغرافية المعاصرة ، شكلها ومضمونهــا وهدفها ؟

ومن الجائز أن نتصور العلاقة موضوعية بين التجديد فى العطاء والتجويد فى الأداء ، الذى يبتغيه الفكر الجغرافى وهو يجاوب حاجة العصر • ومن الجائز أن يضع علم الجغرافية المعاصرة فى اعتباره هذه العلاقة ويلتزم بها ، لحساب موضوعيته وأهدافه • ولكن المؤكد أن الاجتهاد الجغرافى قد وضع التجديد فى العطـاء فى خــدمة التجويد فى الأداء دائما ، ووضع التجويد فى الأداء فى خدمة التجديد فى العطاء أحيانا • بمعنى أن التجديد فى العطــاء يمثل

تجويدا حقيقيا فى الأداء الوظيفى للعمل الجغرافى الذى أخذ به الاتجاه التطبيقى، وأن التجويد فى هـــذا الأداء الوظيفى التطبيقى قد بصر التجديد فى العطاء ورشده الى بعض الاضافات المفيدة ، أو الى بعض الأهداف السوية •

ومن غير انكار هذه العلاقة ، وما ينبغى أن تكون عليه وما يمكن أن تؤدى اليه ، يجب أن نميز تمييزا ظاهريا — على الأقل — بين سبيل التجديد فى عطاء الجغرافية المعـــاصرة ، والتجويد فى أداء دورها الوظيفى الهـادف لحساب الحياة • ويدعونا هذا التمييز الظاهرى الى أن نفصل فى البيـــان بالوضوح والمتابعة بين ، ماهية التجديد فى العطـــاء وما انطوى عليه من اضافة الى الجغرافية المعاصرة ، وماهية التجويد فى الأداء الوظيفى وما انطوى عليه من تحسين فى انجاز الجغرافية المعاصرة التطبيقى •

* * *

التجويد فى الجغرافية المعاصرة

ليس المقصود من التجـــويد فى الأداء الجغرافى ، المهارة فى العرض الموضوعى وصياغة الحبكة الجغرافية فقط • وليس المقصـــود من التجـــويد فى الأداء الجغـــرافى المتخصص ، حسن وكفاءة التصـــوير الجغرافى وجودة التعبير فقط • وليس من المقصود من التجويد مرة ثالثـــة ، مجرد تصعيد وشحذ الاجتهـــاد الجغرافى المتطور ، وهو يؤدى دوره الوظيفى التخصصى المطلوب فى مجالات البحوث والدراسات الموضوعية أو الاقليمية أو المنهجية فى الميـــدان النظرى أو التطبيقى فحسب • ولكن المقصود من التجديد شئ آخر تماما يســـاير روح العصر والالحاح على حصـــاد الخبرة الجغـــرافية التطبيقية •

ولكى يتحقق المقصود أو الغاية من التجويد بالفعل ، كان على الجغرافى أن يدرك مضامين العمل والاجتهاد الجغرافى بداية وأن يتجنب بعد ذلك التجديد النمطى الملتزم الضيق ، الذى قد تفتقد من خلاله الجغرافية المعاصرة الاطار العام الذى يحدد شكلها السوى وسبيلها القويم ، ويجســـد مرماها وأهدافها • وهذا معناه أن تتجنب الجغرافية المعـــاصرة الانسلاخ من ذاتهـــا وموضوعيتها التخصصية الهادفة والمستهدفة • ومعناه أيضا أن يجد الفكر الجغرافى السبيل لكى يبصر الجغرافية المعـــاصرة فتعرف طريقها السوى ، ولكى تحسن التحـــرك والأداء فتحقق أهدافها الموضوعية ، لحســـاب العمل التطبيقى وهو ينفع الحياة •

ومن الجائز أن يكون التجديد فى الأداء الجغرافى قد بدأ قبل أن يكون

التحول الحقيقي من الجغرافية في أحضان الفكر الجغرافي في النصف الأول من القرن العشرين الى الجغرافية المعاصرة ، في أحضان الفكر الجغرافي المتجدد في النصف الثاني من هذا القرن • ومن الجائز أن يكون هذا التجويد في الأداء قد بصر ورشد هذا التحول لكي يسلك السبيل القويم بأقل قدر من الاهتزاز أو التردي في الضلال • ولكن المؤكد أن هذا التجويد في الأداء يمثل ظاهرة صحية تشبثت بها الجغرافية المعاصرة ، لكي يمتد التجويد في الأداء الى انجاز العمل الجغرافي التطبيقي وحسن توظيفه في خدمة الحياة •

وهكذا نتبين أن التجويد في الأداء ، في الجغرافية المعاصرة ، ظاهرة صحية ومفيدة بكل تأكيد • وهي علامة لا تخطيء ولا تضلل عندما تصور كيف تراجع الجغرافية ذاتها وتتحسس أبعاد موضوعيتها ، وتتلمس مدى نجاحها ، بعد رحلة طويلة وشاقة في أحضان فكر بناء لا يكف عن التطور• وهل نشك في أن هذه المراجعة ووقفة التأمل في التراث الجغرافي العريق والضخم سبيل من سبل انطلاقة التجديد في الأداء لكي تسيطر الجغرافية المعاصرة على دورها الوظيفي في ظل التغيير والتطور استجابة للحياة ؟ وهل نشك في أن هذه الانطلاقة المبنية على احداث التجديد في الأداء سبيل أوحد لضمان توظيف هذا الأداء فيما ينبغي أن يعمله ويتفرغ له ويجيده في خدمة الحياة ؟

ومن الجائز أن الجغرافية المعاصرة قد أدركت وهي في موقف التأمل ، الواقع الصعب الذي يمكن أن تتضرر منه بشكل أو بآخر ، وهي تكد وتعيش الحيرة التي صنعتها الاختلافات والتناقضات بين المفكرين الجغرافيين ، ومن خلال جدل حول تعريفات كثيرة ومتنوعة لعلم الجغرافية ومجالات توظيف أدائه واهتماماته ، وحصاد أهدافه وتطلعاته • ولكن المؤكد أن الجغرافية المعاصرة التي استشعرت قمة النضج والرسوخ بعد مشوار فكري مضني على مدى أكثر من ثلاثة قرون كاملة ، كانت تحرص على معرفة أين تقف وماذا تريد وكيف ينبغي أن تؤدي دورها الوظيفي المتخصص في خدمة حركة الحياة ؟

وصحيح أن الجغرافية المعاصرة تقف وتتأمل وتتدبر في رصيد راسخ أحيانا وفي أشلاء رصيد عتيق أحيانا أخرى ، وكيف أسفر عنه اجتهاد عريض وصراع فكري جاد على المدى الطويل • وقد تعتز الجغرافية المعاصرة بهذا الرصيد والتراث العريق وهي تدرك - بكل اليقين - أنه قاعدة التركيب

الهيكلى للبناء الجغرافى العلمى الراسخ ، وأنه انطوى على قوة دفع التطور وصولا الى هذا الموقف وهذه المكانة فى الشكل المعاصر - وصحيح مرة أخرى أن الجغرافية المعاصرة تتطلع بزهو الى المستقبل ، وتحلم برصيد جديد ومتجدد ، يسفر عنه اجتهاد مجدد ونشيط ، هى على استعداد أن تقدمه وتعطيه ــ بكل الخبرة المكتسبة ــ وفاء وامتثالا لدورها الوظيفى المتخصص المطلوب لحساب الحياة • ولكن المؤكد أنها بعد أن تتلفت الى الماضى العريق والى المستقبل الغامض تشفق على ذاتها وكيانها وقدراتها فى وقفتها المعاصرة • ويحق لها أن تحس بهذا الاشفاق على الذات والكيان والقدرة وعلى الأداء وصولا الى الهدف ، وأن تحرص على صلابة العود وعزم الخطوات وحيوية النضج وتدفق العطاء ، فى اطار فكرى سوى لكيلا تشيخ أو تضيع وتفقد السيطرة على أهدافها •

وهكذا يتكشف لنا كيف أن التجويد فى الأداء الذى تبتغيه الجغرافية المعاصرة هدف عزيز يقف من ورائه قلق شديد يعيش فى جوف الجغرافيين المعاصرة ولا يخجلون من الافصاح عنه بشكل أو بآخر - ولكن هل يصلح هذا القلق أن يصبح قوة الدفع التى تحفز التجويد فى الأداء ؟ وفى الواقع أنه ليس القلق هو الذى يدفع ويحفز التجديد فى الأداء ، ولكنه الاجتهاد الذى يتصدى لهذا القلق والعزيمة التى تدعم صمود الجغرافيين المعاصرين وهم يتخذون من التجديد طوق نجاة وتملص من هذا القلق •

ومن علامات القلق العلمى ، اشفاق معظم الجغرافيين المعاصرين على الجغرافية من تعاظم أهدافها أحيانا واتساع مجالاتها وزيادة الطلب على خبراتها وعطائها ومكتسباتها التطبيقية أحيانا أخرى • كما يتأتى هذا القلق عندما يكون التأمل الذى يكشف عن افتقاد التوازن الى حد الخلل بين الاجتهاد الجغرافى فى الشقين الطبيعى والبشرى • ومن الجائز أن يكون هذا الخلل منطقيا على اعتبار أن التحول من الجغرافية الحديثة الى الجغرافية المعاصرة هو من حصاد الاجتهاد فى الشق البشرى من الجغرافية أكثر من أى شىء آخر • ولكن هذا الخلل فى حد ذاته قد أخل برؤية القيمة الحقيقية للفصل بين الشق البشرى والشق الطبيعى والحرص عليه •

ومن علامات القلق العلمى أيضا ، ذلك الجدل والنقاش الشديد الذى احتدم وتصاعد حتى بين أبناء المدرسة الجغرافية الوطنية الواحدة ، حول تعريف جامع مانع عن الجغرافية المعاصرة ، يحدد سبيلها ويوضح مغزاها ، ويجلو رؤية مرماها • ومن الجائز أن هذا الجدل والنقاش قد أثار واستنفر

الاجتهــاد على المستوى الأنسب الذى عمل على تجـويد الأداء فى البحث الموضوعى عن هــذا التعريف ، وحقق كسبا حقيقيـا للجغرافية المعـاصرة وبصرها • ولكن المؤكد أن هذا الجدل قد وضع بعض الجغرافيين فى أحضان التشاؤم الى حد بعيد ، وبات هذا البعض يتصــور سوء المصير ويتخوف على علم الجغرافيه الراسخ من أن يتفسخ أو يضيع أو يضل فى أحضــان التحول الذى يساير روح العصر •

وليس أصدق من الجدل الذى بدأ وهو يحير الفكر الجغرافى لكى يشق الصف الواحد أن يختلف الشركاء حـول تقسيم الجغرافية(١) • وجدوى الفروع التى تندرج تحت مظلة هذا التقسيم الذى أسفر عنه الفكر الجغرافى الحديث بعد قرابة ثلاثة قرون طويلة ورحلة شاقة ضيعت العمر والأجيـال فى التدبر والتأمل • ومن فريق استنكر هــذا التقسيم وحمل عليــه لأنه لا يستند - فى رأيه - الى أساس منطقى مقبول ومقنع ، الى فريق آخر آثر أو فضــل تقسيما جديدا على أسس ورؤية جديدة ، الى فـريق ثالث فضل الاقلاع عن التقسيم وتفرغ الجغرافية الى دراسة الموضوعات الجغرافية(٢) من غير تقيــد أو التزام بفواصل وحواجز بين أقســام هى غير ذات معنى أو مغزى ، كانت الحيرة الحقيقية التى تردى فيها الفـكر الجغرافى المعـاصر وهو بصدد ترسيخ الجغرافية المعاصرة •

وربما تفاقمت هذه الحيرة بشدة ، عندما رأى فريق آخر أن التفاعل الحياتى بين الانســان والأرض مســألة جوهرية ينبغى أن تـكون الأصل والأساس فى المضمون الجغرافى • وفى رأيهم أن الانســان يجب أن يتناوله الاجتهــاد الجغرافى على أنه عامل جغرافى وليس أكثر وأن البيئة الطبيعية هى عامل جغرافى آخر لا أقل ولا أكثــر • ومن ثم يكون الاجتهاد الجغرافى المعاصر ملتزما بمتابعة وادراك ودراسة موضوعية التفاعل بين هذين العاملين الجغرافيين ، وبترسيخ أهدافه حول هذا الفعل المشترك بين هذين العاملين وصولا الى ترشيده •

وهكذا يصور الجدل أحيانا جانبا من التفاؤل الذى ينبىء عن كيف يحاور

---

(١) موسى هو أشد الجغرافيين تحمسا لرفض واستنكار تقسيم الجغرافية الى جغــرافية طبيعية وجغرافية بشرية • ويجاريه اير Eyre فى هذه الحملة •

(٢) يتحمس هودر Hodder لدراسة الموضوعات دونما حاجة لمســألة التقسيم الذى يمزق كيان الجغرافية •

الجغرافيون أنفسهم ، وهم يستشعرون حاجه الى خلق أو ابداع شكل جديد وثوب جديد للجغرافية المعاصرة • وهذا معناه أن فكر الجغرافية المعاصرة فكر يتشوق الى هـذا الشكل الجـديد الذى يحـدد الاطار ويتبين الأهداف وينشط الاجتهاد الباحث عن التجديد فى الأداء الوظيفى العلمى المتخصص • ومعناه أيضا أن الجغرافية المعاصرة تبحث عن تجويد الأداء فى اطار الشكل الجديد • ومن شأنها أن ترنو الى قدرة اقتحام المستقبل الغامض ولا يقوى هذه القدرة سوى التجديد فى الأداء وصولا الى الأهـداف المثلى التى كانت وما زالت وينبغى أن تظل متمثلة فى ترشـيد وخـدمة مصـلحة الانسـان فى حركة الحياة الى ما هو أفضل •

وفى اعتقادى أن كل الاضافات المجددة التى تحملت مسئوليتها الجغرافية المعاصرة ، قد وضعتها فى ميـادين رحبة ، وأدخلتها فى مشاكل المشـاركة الفعلية فى حقول البحث والعمل التطبيقى • ومن ثم ولدت هـذه المشاكل التفـكير والتدبر فى أمر وضع الضوابط التى تحدد شـكل العمل الجغرافى وتوضح مسار الاجتهاد الجغرافى فى الاتجاه الصحيح • والخوف من أن تضل الجغرافية المعاصرة الطريق السوى لو أن تـرك التفـكير الجغرافى المعاصر ، للاجتهاد الجغرافى الحبل على الغارب • والتفكير الجغرافى المعاصر الذى ينكب على التجـويد فى الأداء لم يفلت من بين يديه الزمام بعد لكى ينطلق الاجتهاد الجغرافى انطلاقا حرا من غير ضوابط •

وفى اعتقادى أيضـــا أنه لا ينبغى أن نتخوف من الجـــدل الذى يطعن فى تقسيم الجغـــرافية الموروث من الفـــكر الجغرافى الحديث ، أو يتشكك فى قيمة وجدوى الفروع الجغرافية التى تندرج تحت مظلة هذا التقسيم ، لأنه ليس جدلا هداما • وهو بكل تأكيد جدل بناء ومفيد لأنه يطلب بنية جغرافية أصلب عودا فى مرحلة الفـكر الجغرافى المعـاصر • بل انه يستنفر التفكير الجاد الباحث عن ضوابط تضبط الاجتهاد الجغرافى على المسار الصحيح الذى يسـاير روح التطور ويقـــدم الخبرة الأفضل فى الأسلوب الأنسب ، لحساب الانسان ومصلحته فى حركة الحياة الى ما هو أفضل •

والتجويد فى الأداء الجغرافى المعـاصر حاصل بالفعل ، ويسـفر عنه الاجتهاد الجغرافى • ومن الجـائز أن الفـكر الجغرافى المعاصر لم يفرغ بعـد من صياغة الضوابط التى تحكم هذا الاجتهاد الجغرافى وتمسك بزمامه لكيلا يضل أو يضلل علم الجغرافية المعاصرة • ولكن المؤكد أن المدخول فى تجربة تجويد الأداء الجغرافى المعـــاصر الذى يتأتى على مستوى الاسهـام فى العمل

التطبيقي وانجاز المهام وصياغة النتائج كلها أمور يمكن أن ترشد التفكير في أمر صياغة هذه الضوابط ٠

ومن قبيل التجديد في الأداء الجغرافي المعاصر ، نذكر كيف يعتصر الخبرة وينجز الترشيد ويقدم التوصية ، من خلال مهارة في التقويم الموضوعي ، لجدوى العامل البشري وفاعليته ومدى انتصاره وهو يطوع العامل الطبيعي ٠ ومن شأن هذا التجديد أن يوضح كيف استلهم الاجتهاد الجغرافي حسه الجغرافي ، وكيف أحسن استخدام خبرته وأدائه ، وكيف تطلع الى ما يكمن وراء الرؤية الجغرافية المباشرة ، لكى يتحسس التحدى الطبيعي ويقوم مدى معاندته ويتحسس الضبط البشرى ويقوم مدى وجدوى ابداعه في تطويع هذا التحدى ٠ وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافي الذي طالما انكب على وصف وتفسير وتعليل وربط يقنعه في مجال دراسته في الجغرافية الاقتصادية واستغلال الموارد وعمليات الإنتاج المتنوعة لم يعد يجد في هذا الانحسار شيئا يبهره ، وانما تحول الى ما وراء هذا كله من مضامين ونتائج قيمة ، تعلن عن شكل من أشكال التجويد في الأداء ٠

وواضح أن الجغرافي لم يتغير سبيله في الاهتمام بالعملية الانتاجية ورؤية التفاعل بين الانسان والارض ، وواضح أنه حقق نتائج كانت مرضية عندما حلل الرؤية الجغرافية على مستوى هذه الصورة المعبرة عن التفاعل الانتاجي بين الانسان والأرض ٠ ولكن الواضح أيضا أن التقويم قد فتح للاجتهاد الجغرافي باب التجويد في الأداء الذي أسفر عن رؤية وتصور أفضل لما ينبغي أن يوجه هذا الاجتهاد ولما ينبغي أن يسفر عنه من نتائج مفيدة في المجال التطبيقي ٠

ومن قبيل التجويد في الأداء الجغرافي المعاصر أيضا ، نذكر كيف يعتصر الخبرة وينجز الترشيد ويقدم التوصية ، من خلال مهارة في التقويم الموضوعي لجدوى التخطيط الذي وضع لحساب التنمية على مستوى القطاعات الاقتصادية أو الاجتماعية أو الخدمية ٠ ومن شأن هذا التجديد أن يوضح كيف استلهم الاجتهاد الجغرافي حسه الجغرافي ، وكيف أحسن استخدام خبرته وقدراته في العمل التطبيقي ، لكي يبشر بالتخطيط الاقليمي ٠ ولقد اقتنع بجدوى وضع الاطار الذي يحدد الاقليم التخطيطي ويجعل منه وعاء مناسبا للخطة التي توظف برامجها في التنمية كما أقنع بضرورة الخطة الشاملة التي تصنع النمو المتوازي والمتوازن والمتزامن اقتصاديا واجتماعيا وخدميا على مستوى الاقليم التخطيطي ٠ أو ليس هذا حسن استخدام وتجديد في الأداء ؟ لأنه بدلا من أن

يستجيب ويقدم الترشيد للتخطيط كما أراد بعض المخططين أن يكون آقحم امكانياته وخبراته وتسبب في تعـديل جوهرى فى التخطيط لحساب التنمية وحمل عاتقه مسـئولية تجويد الأداء الذى يكفل انجـاح هذا التعـديل الجوهرى ٠

ومن قبيل التجويد فى الأداء الجغرافي المعاصر ، نذكر الدور الذى أسفر عن أساليب أفضل فى اعداد ورسم الخرائط والرسـوم البيانية التى ترقى الى مسايرة الجغرافية المعاصرة ٠ وما من شك فى أن الاعداد الأفضل قد أعطى الخرائط والرسوم قدرة على التعبير الأفضل ٠ بل لقـد أصبحت الخريطة تضارع الكلمة فى تجسيد الرؤية الجغرافية ٠ وربما كانت فى بعض الأحيان من الجودة الى حد أن أصبحت أصدق تعبيرا من الكتابة الجغرافية ٠

وعمليات التجويد فى الأداء الجغرافى لم تفرغ بعـد من كل ما تصبو اليه ٠ ولا خوف من التجديد على التجويد لأن التجويد فى الأداء هو من الأمور التى تخدم ـ كما قلنا ـ التجديد فى العطـاء ٠ والجغرافية المعاصرة القـادرة على التجويد فى الأداء ، ما زالت طوع الفكر الجغرافى المعاصر وما يسـفر عنه من أفكار تشكلها وتحدد أو تجدد أهدافها وتعلى مكانتها المرموقة بين العـلوم فى مجال العمل التطبيقى ٠

* * *

التجديد فى الجغرافية المعـاصرة

التجديد فى عطاء الجغرافية المعاصرة ، هو ـ من غير شك ـ أعظم انجاز من انجازات الفكر الجغرافى على الاطلاق ٠ وما من جدل فى أن الفكر الجغرافى قد اعتصر تراثه على مدى القـرون التى شهدت مراحل نموه وتطوره وصناعة علم الجغرافية وترسيخ دوره الوظيفى المتخصص ، لكى يهيىء وينمى التطور الذى أسفر عن هذا التجـديد الحقيقى فى عطـاء الجغرافية المعـاصرة ٠ وقد طاوعت الجغرافية المعاصرة هذا الفكر الجغرافى المتطور ، وأقبلت بتفتح وانفتاح على صياغة هذا التجديد فى عطائها ٠

ويمكن أن نتبين هذا التجديد فى اضافات مفيدة من وجهة النظر العلمية الموضوعية ٠ وقد سجلت هذه الاضافات معنى التغيير والتطور فى الجغرافية المعاصرة ٠ ومن الجائز أن هذه الجغرافية المعاصرة لم تفرغ من تجسيد أهدافها النهائية التى تبتغى الوصول اليها ٠ ولكن المؤكد أن أهداف الجغرافية المعاصرة شأنها فى ذلك شأن الجغرافية الحديثة تبدو مرنة ولا تجد ما يدعو الى وضع حدود تحدد أو تحول دون مرونتها وتطورها ٠ وهـذا معناه أن الجغرافية

المعاصرة قد حررت أهدافها أو هي على الأقل حريصة على ترك الباب مفتوحا لكي تتطور التطور الموضوعي الذي يجسدها ويحدد أبعادها وتطلعاتها ٠

وقد تمثلت اضافات التجديد ، في فروع جديدة ومجددة في الجغرافية وفي الاجتهاد الجغرافي ، وفي اعداد وتجهيز استخدام الخرائط ٠ وتصور هذه الفروع الجغرافية الجديدة ، التي تظللها مظلة الجغرافية الاقتصادية ، مدى ما أسفر عنه حسن استخدام التقويم في حساب الجدوى ، من ريادة منطق التجديد ، في الجغرافية ، واضطلاع الاجتهاد الجغرافي بهذا العمل الرائد ٠ كما يصور اعداد وتجهيز استخدام الخرائط ، ثورة حقيقية في تعاظم مكانة الخرائط في خدمة التعبير الواضح الموجز عن حصاد الاجتهاد الجغرافي ٠

وهذا معناه أن عمليات التجديد قد امتدت بشكل سافر ومباشر وبناء الى الشق البشري من الجغرافية ٠ ومعناه أنها ما زالت تتهيب الاضافة المجددة في بناء ووظيفة الاجتهاد الجغرافي الذي يعالج الشق الطبيعي من الجغرافية ٠ وما من شك أن اقبال التجديد على الجغرافية البشرية قد عبر عن تطلع الجغرافية المعاصرة الى توظيف الاجتهاد الجغرافي في عمل بناء ، من خلال حسابات الجدوى ، في اطار التفاعل الحياتي بين الانسان والأرض ، لحساب أو لمصلحة الحياة الأفضل ٠

والفرع الجديد الأول ، قد تمثل في موضوع **استخدام الأرض** ٠ ومن شأنه أن ينكب على استطلاع التعامل البشري مع ما تنطوي عليه من موارد مستخدمة في الأرض ، أو مع ما تهيئه من فرص الاستيطان والتوطن والسكن ٠ وما من شك في أن ستامب الجغرافي البريطاني ، قد تولى تنشية ووضع أسس وقواعد هذا الفرع الجديد وريادته ريادة مجددة ، عندما انكب مع تلاميذه على عمليات المسح الجغرافي البريطاني لأول مرة بشكل منظم ، طلبا لحصر أنواع وأنماط استخدام الأرض ٠ كما فطن ستامب الى قيمة وأهمية التقويم وحساب الجدوى الاقتصادية لهذه الأنماط الاستخدامية من ناحية ، التقويم وحساب الجدوى البشرية التي تتصدى للعمل في هذه الأنماط من ناحية أخرى ٠

وهكذا أعطى ستامب المثل منذ البداية على أهمية الدراسة الميدانية وأسلوب العمل والاجتهاد الجغرافي فيه ، من أجل اجراء المسح الجغرافي ، وعمليات تسجيل وحصر الأنماط الاستخدامية المتنوعة ٠ كما أعطى ستامب المثل منذ البداية مرة أخرى على أهمية التقويم ، وكيف أطلق العنان لكي

يجد الاجتهاد الجغرافى نفسه ، فى موقف يلتزم فيه باضافة مجددة فى العمل والبحث الجغرافى التطبيقى • وهذا معناه أن هـذا التجديد قد ولد فى مهد بريطانى فى أواخر الخمسينات من القـرن العشرين ، لـكى يعلن عن بداية التحول ونشأة الجغرافية المعاصرة •

ومن الجائز أن البـداية كانت متأنية ولـكن الدراسة كانت مفيدة وموضوعية لأنها تطلعت الى آداء أكبر قدر من الترشـيد لعمليات استخدام الأرض بأساليب أفضل • ومن الجائز أن تطور التصـوير الجوى بواسطة الطيران العادى أو بواسطة الاقمار الصناعة ، قد اسعف الاجتهاد الجغرافى فى موضوع استخدام الأرض ، وقدمت له مجموعات الصور الجوية الجديدة ، والتى يجيد الجغرافى قراءتها والتعرف على أنماط استخدامات الأرض المتنوعة التى تنبىء به هـذه الصور الجوية • ولـكن المؤكد أن عمليـات الدراسات الميدانية والرؤية الجغرافية المباشرة فى الأرض ، هى السبيل الأنسب لأداء المهمة المنوطة بالاجتهاد الجغرافى فى موضوع استخدام الأرض •

وربما استشعر الاجتهـاد الجغرافى فى هـذا الفـرع الجديد والمجدد لحيوية الجغرافية المعـاصرة ، حاجة الى الدراسة المكتبية أيضا ، من أجل استكمال حلقـات البحث الموضـوعى ، الذى يتمم مهمة العمـل التطبيقى فى موضوع استخدام الأرض • ومع ذلك فان مسئولية الاجتهـاد الجغرافى تكون كبيرة عندما ينكب على تقويم وحسابات الجدوى المعقدة من زوايا متعددة لعمليات وأنماط استخدامات الأرض • ولكى يكون التقويم موضوعيا وسويا ومفيدا ، لحساب الترشيد المطلوب للاستخدام الأفضل ، ينبغى أن يتقصى الاجتهاد الجغرافى الواقع الجغرافى الطبيعى فى الأرض المستخدمه ، وأن يدرك مدى استجابة هذه الأرض للأنماط الاستخدامية السائدة فيها • كما ينبغى أن يتقصى الاجتهاد الجغرافى الواقع البشرى فى الأرض المستخدمه ، وأن يدرك مدى كفاءة وجدوى العمل فى أنماط الاستخدامات السائدة فيها •

ومن شـأن هذا التقويم الموضوعى السوى ، أن يتحسس التحديات وجدوى تأثيرها الحاكم الذى يواجه أو يتسلط أو يعاند أنماط الاستخدامات المتنوعة • ومن شأنه أيضـا ، أن يتحسس حجم ونوعية وفاعلية الضبط البشرى الذى يتصدى لهذه التحديات ، وكيف طوعها أو أحبطها أو أبطل مفعولها ، وكيف أطلق قدراته لانجـاح أنمـاط الاستخدامات السـائدة فى الأرض • وكأن الاجتهـاد الجغرافى مسئول ، عن تصـور الصراع بين الانسان والأرض ، وتصور أسباب وأبعاد هذا الصراع فى مجالات التفاعل

بين الانسان والأرض ، قبل عرض الرؤية الجغرافية لنتيجة هذا التفاعل وما يسفر عنه لاستخدام الأرض من عطاء من حيث الكم والكيف في وقت واحد ٠

ومن الجائز أن يرشد هذا التقويم الجغرافي الموضوعي الاجتهاد الجغرافي الى ادراك جدوى هذا الضبط البشرى ، ومقدار كفاءته ونجاحه في دعم آداء الانسان الذى يستخدم الأرض ٠ ولكن المؤكد أن يضع هذا التقويم الجغرافي الموضوعي يد الاجتهاد على أطراف الخيوط ، التي يمكن أن تقود وتوجه وترشد عمليات تحسين آداء الانسان ، في استخدام الأرض السائدة بالفعل أحيانا ، أو التي يمكن أن تقود وتوجه وترشد عمليات تغيير أنماط استخدامات الأرض واحلال أنماط استخدامية أفضل أحيانا أخرى ٠ بمعنى أن هذا التقويم الجغرافي الموضوعي يفتح بابا مهما لحساب الخبرة الجغرافية التي ترشد أساليب استخدامات الأرض ، سواء من خلال ترشيد تحسين الآداء ورفع كفاءة وجدوى العمل البشرى في الاستخدام ، أو من خلال ترشيد تغيير أنماط الاستخدام طلبا لاستخدامات الأنسب في الأرض ٠

والفرع الجديد الثاني ، قد تمثل في موضوع **التخطيط الاقليمي** ٠ وقد تولى الاجتهاد الجغرافي وضع قواعد وأسس هذاالموضوع الذى يعالج مسائل وقضايا تطبيقية بصفة خاصة ٠ كما حدد هذا الاجتهاد الجغرافي في التخطيط الاقليمي دورا رائدا للخبرة الجغرافية ، في عمليات التنمية وتحسين الاستخدام في كافة أشكاله ، لحساب الانسان ومصلحته في حركة الحياة ، اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا ٠ بل لقد أصبح التخطيط الاقليمي الأسلوب التخطيطي الأمثل ، لحساب الانسان ومن خلال اجتهاد الانسان ٠

ومن الجائز أن البداية كانت يوم أن طلب الاجتهاد الجغرافي - وهو صاحب سبق وريادة في استخدام الأرض - الاسهام برأى مباشر في أي قرار يمس مستقبل استخدام الأرض على أى وجه من الوجوه ٠ ومن الجائز أن استجاب الاجتهاد الجغرافي لهذا النداء ، وأدلى برأيه فعلا في مرحلة أو المراحل المبكرة التي شهدت الأخذ بالتخطيط سبيلا لاستيعاب وتنفيذ أهداف عمليات التنمية ٠ ولكن المؤكد أنه اشترك اشتراكا مباشرا في التخطيط الاقتصادى والتخطيط الاجتماعي وغير ذلك من أنماط التخطيط القطاعي ٠ وقد برهن هذا الاشتراك على أنه اجتهاد مفيد يبصر ويرشد ، ولا ينبغي الاستغناء عن عطائه من خبرات جغرافية ٠

ومن خـــلال التقويم ، اكتشف الاجتهاد الجغـرافى جدوى التخطيط الاقليمي بالقياس الى جدوى أشكال التخطيط القطـاعي التى تفتقد الشمول والتوازن بين كافة القطاعات المتنـوعة • بل ولقـد تبين للاجتهاد الجغـرافى أن التخطيط الاقليمى ، يتجنب كل سوءات الأشكال الأخرى والتى تنحصر فى مشـــاكل التعايش بين النمو والتجديد فى قطـــاع أو بعض القطاعات والجمود والتقليد فى قطاعات أخرى • بمعنى أنه تنبه الى مشاكل التعايش بين التقدم والتأخرفى وعاء واحد ، والى أن التخطيط الاقليمي يكفل النمو المتوازى والمتوازن والمتزامن لعملية التنمية الشاملة فى كل قطاعات الحياة •

وانكب الاجتهاد الجغرافى على صياغة اطار التخطيط الاقليمي وصياغة القاعدة التى يرتكز اليها • ولقـد وجد فى الخبرة الجغرافية أهم المؤهلات والكفاءة ، لكى تتولى هذه الخبرة قيـــادة فريق المخططين • وهو مسـئول — فى اطار الفريق الجامع للمتخصصين — عن اعداد وتجهيز الخطة فى اطار اقليم تخطيطى • وهو مسئول أيضا عن برمجة مشاريع التنمية فى الاطار الشامل لكل القطاعات التى تمس واقع الحياة فى هذا الاقليم • وهو مسئول مرة ثالثة عن الاشراف المباشر مع شركائه فى الفريق وعن حسن تنفيـــذ البرامج الانمائية على المـــدى الزمنى المقترح من غير اخلال بالنمو المتـــوازى والمتوازن والمتزامن •

ويدرك الاجتهاد الجغرافى الحـاجة الملحة الى حسن الانتفاع بالدراسة الميدانية ، فى هذا الفرع الجديد الذى يخدم التخطيط الاقليمى للتنمية • وتتخذ هذه الدراسة الميـدانية ، لحســاب العمل التطبيقى البحت شـكلا خاصا ، يتجاوز ما تبتغيه الرؤية الجغرافية العامة والخاصة • وهناك أولا مرحلة الاجتهاد الجغرافى لتحـــديد الاقليم التخطيطى ، الذى يمثل الوعاء الأنسب من حيث وضع وتنفيذ واستيعاب أهداف الخطة الشاملة • ويلى ذلك مرحلة المسح الجغرافى الشامل المكثف ، الذى تتكشف له الرؤية والمعـاينة لأنماط الاستخدامات وكل القطاعات التى ينبغى ادراج حصة لهـا فى خطة التنمية فى الاقليم التخطيطى •

وفى هذه الدراسة الميدانية المكثفة ، يكون الاجتهاد الجغرافى مسئولا عن تقويم الاستخدامات فى كل القطاعات الحياتية فى الاقليم التخطيطى ، تقويما كاشفا لسلبيات هذه الاستخدامات القائمـة بالفعل • كما يكـون مسئولا عن تقويم وتقصى قدرات النـاس على استيعاب التغيير المرتقب ، وتحســين الآداء وتجنب سوء الاستخدام • هذا بالاضافة الى مسئولية الاجتهاد الجغرافى

عن تقصى امكانيات التوازن بين تنفيذ برامج عمليات التنمية الشاملة ، التى ينبغى أن تتفرغ وتتخصص فى تحسين الاستخدامات فى قطاع الانتاج وفى قطاع السكن وفى قطاع الخدمات ، تحسينا متوازيا ومتزامنا ٠

وايمانا من الاجتهاد الجغرافى بأن التنمية تكون بالضرورة لحساب الانسان ، وأنها لا تتأتى الا من خلال قدرات وكفاءة آداء الانســان ، فانه يتولى تقويم هذه القدرات وحساب جدواها ٠ ومن ثم يبصر امكانيات شحذ وتصعيد أو تربية وتنمية هذه القدرات ، ويحدد درجات الاستجابة التى يمكن أن تسفر عنها هذه القدرات فى تنفيذ عمليات وبرامج التنمية ٠ ويضيف الاجتهاد الجغرافى الى ذلك كله ، استطلاع واسع مكثف ، يجمع ما ينبغى جمعه من بيانات ومعلومات واحصاءات وتقصى درجة الصدق فيها ، لحساب بناء التركيب الهيكلى للخطة فى الاقليم ٠

وهكذا يتخذ الاجتهاد الجغرافى من الدراسة الميدانية المكثفة والمسح الجغرافى فى الاقليم التخطيطى ، مجالا لرؤية كاشفة وعميقة ٠ ومن شأن هذه الرؤية أن تصور الواقع الجغرافى الطبيعى بكل جوانبه عن الأرض التى تحتوى برامج خطة التنمية الاقليمية ٠ ومن شأن هذه الرؤية أيضا أن تصور الواقع الجغرافى البشرى بكل جوانبه عن الناس ، الذين يتحملون مسئولية الأداء أعمالا وتنفيذا لخطة التنمية الاقليمية ، ويتنعمون بثمراتها ، اقتصاديا وحضاريا واجتماعيا ٠

ومن الطبيعى أن يحقق الاجتهاد الجغرافى أهداف هذه الدراسة الميدانية المكثفة فى الاقليم التخطيطى ، من خلال كفاءة وعمل الفريق ، الذى يضم مجموعة من المتخصصين والفنيين فى تخصصات علمية تجريبية وتطبيقية متعددة ٠ وعلى الاجتهاد الجغرافى تقع مسئولية قيادة عمل الفريق فى الدراسة الميدانية ٠ ومن شأنه أن يوجه المسح الجغرافى والحصر الاحصائى والاستطلاع البيانى ، وأن ينسق مراحل الجهد والعمل الذى ينكب على جمع أوصال وتجسيد الرؤية الكاشفة التى تجلو الواقع كله فى الاقليم التخطيطى ٠

وتجسيد هذه الرؤية الكاشفة لكل جوانب وأبعاد وأعماق الواقع فى اطار التفاعل الحياتى بين الناس والأرض ، وصدقها الموضوعى ، مسألة حيوية وضرورية ٠ ومنها وعليها وبها تكون كل الحسابات من أجل وضع الخطة ــ بكل الحبكة ــ فى اطار الاقليم ، ومن أجل تضمين البرامج الانمائية

المتنوعة والمتكاملة في اطارها الشامل ، ومن أجل تنفيذ هـذه البرامج على المدى الزمنى المعين • وهـذا معناه أن تحريك عمـلية التنمية فى الاقليم التخطيطى وتحقيق أهـداف عمـلية التنمية التى توضع الخطة من أجلها ، لا يمكن ولا ينبغى أن تبدأ من فراغ أو أن تفتقد القاعدة •

وهكذا تصبح الرؤية الكاشفة للواقع قاعدة انطلاق يبدأ منها أو يتولد عليها التغيير الذى يعدل مسارات الاستخدامات ، أو التغيير الذى يجدد ويضيف بعض الاستخدامات ، وصولا الى أهداف عملية التنمية • وقد تكون حاجة فريق المخططين الى تجسيد هذه الرؤية الكاشفة أهم من ذلك كثيرا • ذلك أنها تبصر وترشـد فريق المخططين ، بمقدار حاجة الاقليم الى عمـلية التنمية ، أو بمقـدار استجابة الأرض والناس فى الاقليم لعملية التنمية ، من خلال خطة اقليمية شاملة ، أو من خلال مجموعة خطط اقليمية متكاملة ، يتوالى تنفيذها مرحليا من فترة زمنية الى فترة زمنية أخرى • كما أنها تبصر وترشد فريق المخططين ، بالمدى الزمنى الأنسب للتنفيـذ الفعلى والممارسة العملية لعمليات وبرامج التنمية فى اطار أى اختيار أنسب للاقليم من ناحية ، وبأساليب الربط وصياغة الجسور والعلاقات السوية بين برامج وأهداف عمليات التنمية ، التى تحتويها مجمـوعة الاقليم التخطيطية من ناحيـة أخرى ، وصولا الى ثمرة التكامل التخطيطى فى اطار الدولة •

وفى مرحلة وضع الخطة الاقليمية ، وصياغة وبرمجة وتنسيق البرامج الانمائية فى الاطار الشـامل الجامع لبنية هـذه الخطة ، يتولى الاجتهـاد الجغرافى بمهارة ، قيادة الفريق المشترك من زمرة متخصصة فى علوم طبيعية وعلوم انسانية(١) • ومهارة هذه القيادة الجغرافية ، تعتمد — بكل تأكيد — على خبرتها وقدرتها فى التركيب والتحليل الذى يخدم التنسيق ، وعلى حسن توليف وصياغة البرامج الانمائية وتضمينها فى الخطة العـامة الاقليمية ،

---

(١) قيادة فريق المخططين لا تمثل قيادة املاء وتسلط ولكنها قيـادة ابداع وتنسيق • ذلك أن الخبرة الجغرافية التى تبدع من خلال التركيب فى جميع أوصال الرؤية وتجسيدها تبدع من خلال التحليل فى تشريح هذه الرؤية وتتكشف لها تفاصيلها ، تقوم بدور التنسيق البديع بين حصص أعضاء الفريق المتخصص فى صـياغة التصور الذى تصاغ فيه الخطة • وقيـادة المايسترو لفريق العازفين تعطيه فضل الخلط والمزج والتنسيق بين النغمات من أجل المعزوفة الجميلة ولكن ذلك كله لا يسقط أو يضيع أو يخفى مهارة وتخصص وحسن آداء كل عازف من أعضاء الفريق • وهل هناك أفضل من خبرة الجغـرافى فى حسن استخدام الحس والادراك الكاشف للواقع الذى يبنى عليه ومن أجله الخطة فى الاقليم ؟ •

وصولا الى الحد الأنسب من حسن التنسيق بين هذه البرامج الانمائية زمانيا ومكانيا ، في وقت واحد ٠٠ بل وتكون هذه المهارة مطلوبة للانتقال لذى التنفيذ بالعمل من خلال التقويم وحساب الجدوى في هـــذا التنفيذ من الاستخدام السيء أو الاستخدام الجائر أو الاستخدام التقليدى الجامد ، الى الاستخدام الاقتصادى ، ومن غير هزات أو اضطرابات يتضرر منها التركيب الهيكلي للبناء الاقتصادى والبناء الاجتماعي والبناء الحضارى في الاقليم ٠

وبالاضافة الى هذين الفرعين الجديدين ، استخدام الأرض والتخطيط الاقليمي وما أسفر عنهما من تجديد في الجغرافية المعاصرة ، تبنى الاجتهاد الجغرافي بعض ظاهرات بشرية أخرى ، وخصص لهـــا فروعا تظللها مظلة الجغرافية البشرية ٠ وقد أولاها ــ بكل تأكيد ــ ما تستحقه من اهتمـام وبحث موضوعى ، من خـــلال دراسات موضـوعية ، ميـدانية ومكتبية ٠ وقد اتبع أسلوب التوزيع والتعليل والتحليل ثم أضاف اليه التقويم لـكي يحقق أو يستخلص نتائجا موضـــوعية تنتفع بهـا مصلحة الانسان في الحياة ٠

ومن هذه الظاهرات البشرية ، نذكر المرض الذى يهاجم صحة الانسان ويضعف بنيانه ويؤثر على قدراته ٠ وقد خصص جغرافية المرض أو الجغرافية الطبية لمعالجة هذه الظاهرة البشرية على مستوى الاقليم أو على مســتوى مجموعة الاقاليم أو على مستوى العالم كله ٠ وكان من شأن هذا الفـرع المتخصص أن يجلو العلاقة بين المرض ومدى انتشاره في المكان ، وأن يقوم العوامل التي تضبط أو تحكم انتشار المرض في المكان ٠ وقد يعكف أيضـا على ترشيد حركة مواجهة انتشار المرض وانجاح الاجتهاد الطبي أو الصحي الوقائي الذى يطارد المرض ويحبط انتشاره ٠

ومن الظاهرات البشرية أيضـا ، نذكر العقيـــدة الدينية التي تكمن في أعماق الانسان وترشـــد ايمانه بالله وقدرة الخـــالق وعظمة الخلق ٠ وقد خصصت الجغرافية المعاصرة جغرافية الأديان لمعـالجة هـــذه الظاهرة وتعقب انتشار وتوطن الأديان على مستوى الاقاليم أو على مســتوى العالم كله ٠ وكان من شأن هذا الفرع المتخصص أن يجلو العـلاقة بين العقيـدة والدين وهي زاد روحي يطلبـــه الانســان وواقع المكان وعوامل وضوابط انتشاره في كل مكان ، وأن يقوم العامل الديني ومدى فاعليته في انضباط أفضل في حركة الحياة ٠ وقد يعكف الاجتهاد الجغرافي أيضـا على ترشيد التعايش بين الديانات والعقائد وتخفيض معدلات الصراع والمواجهات وتقويم

العلاقة بين العقيـــدة وبعض جوانب التفرقة العنصرية أو التعصب الديني ومشكلاته الانسانية في السياسة وحركة الحياة •

وبشأن هـــذا التجديد في الجغرافية المعاصرة ، ينبغي أن نســجل ملاحظتين هامتين وموضوعيتين ، عن معنى التجديد وامكانياته ونتـائجه • وتصور **الملاحظة الأولى** معنى التجديد من خلال الاضافة المجددة وكيف تسفر عن عطاء يضاف الى تراث الجغرافية • وتصور **الملاحظة الثانية** معنى التجديد من خلال التغيير المجدد ، وكيف يسفر عن تغيير في أبعاد ومفاهيم ورصـيد وتراث الجغرافية •

والاضافة المجددة والتغيير المجدد معا ، يمثلان أعظم شكل من أشكال الاستجابة لعملية التقويم الموضوعي للظاهرة المعنية التي أولاها الاجتهـاد الجغرافي في هذه المرحلة اهتمامه • بمعنى أن نثق في التقويم الموضـوعي للظاهرة المعنية ، لانه هو الذي يفتح الباب على مصراعيه ، لكي ينكب الاجتهاد الجغرافي على صنع الاضافة المجددة أو صياغة التغيير المجدد في بنية الجغرافية المعاصرة وفي رصيدها وتراثها العلمي • والاضافة المجددة والتغيير المجـدد معا ، يمثلان في نفس الوقت أروع شكل من أشـكال الاستجابة الجغرافية المعاصرة ، لتوظيف الاجتهاد الجغرافي في آداء كل ما من شـــأنه أن يلبي مصلحة الحياة ويبصرها ويرشدها الى ما هو أفضل •

وعن **التصور الأول** الذي يبين كيف يتأتى فيه التجديد من خـــلال الاضافة المجددة ، وكيف تبنى الاجتهـــاد الجغرافي ظاهرات بشرية معينة من أجل ترشيد حـركة الحيـــاة ووجودها ومصالحها في الأرض ، تخصص الجغرافية المعاصرة فروعا جغرافية متخصصة لدراستها • وينبغي أن ندرك ـ بكل الفطنة ـ كيف بني أو نشأ هذا الاهتمام الذي أسفر عن اضافة فروع مجددة لحيوية الجغرافية البشرية ، في اطار تحـديد اقليمي واضح • ومن الجائز أن يعبر ذلك الاتجاه ، عن تطور فعلي في الدراسة الاقليمية ـ وهذا صحيح ـ في اطار الجغرافية المعاصرة • ومن الجائز أيضا أن يعبر ذلـك الاتجاه ، عن هدف أو أهداف يبتغيها ويرسم الاجتهاد الجغرافي مساره اليها ـ وهذا صحيح أيضا ـ في اطار الجغرافية المعاصرة • ولكن المؤكد أن هـذا الاجتهاد الجغرافي قد أدرك قيمة الوحـدة الجغرافية الاقليمية ، وكيف أنها الوعاء الأمثل الذي ينبغي أن يركز فيه بحثه الموضوعي أو التطبيقي ، أو أن

بحسب خبرته واهتمامه وهو يدرس الظاهرة البشرية المعنية . وهذا في حد ذاته هدف وغـــاية صحيحة تستهدفها الجغرافية المعـــاصرة وتشد أزرها في مواجهة المتشككين في سلامة وصدق اتجاهاتها والخائفين عليها من أن تضل .

وهكذا يتخفف الاجتهاد الجغرافي في أحضـــان الجغرافية المعـاصرة من التركيز على دراسة العموميات واصدار التعميمات ، على مستوى أوسع من الاقليم المتميز جغرافيا . ولـكن ذلك لا ينبغي أن يصـــور الجغرافية المعاصرة وقد أقلعت عن النظرة الكلية أو تنكرت للنظرة الشاملة التي تطل على العالم ، وهي تستشعر وحدة الأرض ووحـدة الناس ، ووحدة المصـير والهدف الحياتي في هذا العـــالم . ولا تعارض بين دراسة جغرافية أكثر عمقا في الاقـــليم ونظرة كلية على مستوى العـالم الفسيح ، الا اذا كانت النظرة الكلية تعمم ولا تعمق البحث الجغرافي الموضوعي العلمي التطبيقي .

وفي اعتقـــادي ـ على كل حال ـ أنه اذا كانت الجغرافية المعـاصرة قد أقلعت عن شيء مما عاشت فيه الجغرافية الحديثة قبـــل الخمسينات من هذا القرن ، فهو أنها تتجنب الآن دراسة الجزء من خلال الـكل ، وتحولت الى دراسة الكل من خلال الجـــزء . بمعنى أن الدراسة الجغـرافية المكثفة في اطار الاقليم ، ينبغي أن تؤدي الى تجميع أوصال كل دراسة تغطي كافة الاقاليم ، وصولا الى الدراسة الكلية على مستوى العالم . ومن ثم كان اهتمام الجغرافية المعاصرة واضحا وهي تتعقب القواعد والأسس التي تسـفر عن تقسيم أو تقسيمات اقليمية ، لكي تحتوي الاجتهاد الجغرافي المكثف ويدور في اطارها آداؤه الجغرافي المتخصص في البحث أو البحوث ، التي يبتغيها التجديد والفروع المجددة لحيوية ونشاط وأهداف الجغرافية المعاصرة .

من خلال هذا التجديد ، نرقب ونسجل مدى نجاح الجغرافية المعاصرة في حسم ثلاثة مسائل هامة في العمل الجغرافي بصفة عامة . وتتمثل هذه الأمور في :

١ ـ انتقال الجغرافية المعاصرة بفكر متفتح واجتهاد منفتح ، انتقـالا سويا ومنطقيا الى مرونة العمل والبحث التطبيقي في الاطـــار الاقليمي . ومن الجائز أن الجغرافية المعاصرة قد شاركت غيرها من العـلوم الطبيعية والعلوم الانسانية على حد سواء ، في العمل التطبيقي ، الذي يبتغي مصلحة الانسان ويخدم حركة الحيـاة وتطويرها الى ما هو أفضل . ولـكن المؤكد

أن هذه الجغرافية المعاصرة ، قد تخلصت من جمود النظرية بالفعل وانساقت في المرونة الموضوعية لكى تشترك في ترشيد الابداع البشرى وحرصه على حق السيادة والتسيد على الأرض • وقد احتلت الجغرافية المعاصرة بذلك التحول مكانة مرموقة في الأداء وهى تتولى قيادة الفريق المشترك ، من أجل العمل الجماعى التطبيقي وتنسيق ايقاعه الرتيب ، لحساب تسيد الانسان على الأرض وما زالت الآفاق الرحبة تتفتح وتنفتح من يوم الى يوم آخـــر ، لكى يوالى هذا التحول وما أسفر عنه من تجديد دوره ابنـــاء في ترسيخ خبرات الجغرافية المعاصرة ، وتوظيفها في غزو تطبيقي مفيد ، يملأ هــذه الآفاق اجتهادا وبحثا وتجديدا واضافة ، لحساب الحياة الأفضل •

٢ ـ أنهت الجغرافية المعاصرة الصراع الفكرى والجـــدل الموضوعى الذى احتدم بين الحتم الجغرافى وفكره التزمت الصـــارم والامكان الجغرافى وفكره التضفاض المتسيب انهاء واقعيا • ومن الطبيعى أن أدركت الجغرافية المعاصرة معنى التحـــدى البيئى ، وكيف يواجه ويعـــاند حركة الحياة • وما من شك في أنها قومت أبعاده وتلمست مدى معـــاندته وضموده لارادة الحياة • ومن الطبيعى أيضا أن أدركت الجغرافية المعـاصرة معنى الضبط البشرى ، وكيف يتصدى للتحدى البيئى ويحبط معـاندة حركة الحياة • وما من شك في أنها قومت قدرات هذا الضبط ، وتلمست مـدى انتصاره لارادة الحياة • ولكن المؤكد أن الجغرافية المعاصرة قد رفضت بكل الحسم ، فكرة الحتم الذى يبشر بعجز الانسان وامتثاله وتسيير ارادة الحيـــاة طوع بنان هذا التحدى البيئى ، لأنه يمتهن قدرة وكفاءة وصمود الانسان ولأنه يستنكره أو يتكره ويتنكر له وهو يشق طريق الحياة • كما أنهـا رفضت بنفس الحسم فكرة الامكان الذى حرر الانسان وبشر بقدرة وتسلط وتفوق من غير حدود ، وتسيير ارادة الحياة رغم أنف التحدى البيئى ، لانها تستهين بمعنى التحدى البيئى وتنكر أو تتنكر لصموده ومعـاندته وهو يسد طريق الحياة • وقد تبنت الجغرافية المعاصرة فكرة جديدة(١) وتصور جديد يتسم بالواقعية والموضوعية • ذلك أن هذه الفكرة لا تنكر ولا تتنكر لمعنى التحدى البيئى ومدى صموده وتحسب حســـابه جيدا ، ولا تنكر ولا تتنكر لمعنى

---

(١) نشأ هذا التصور الجديد في أحضان فكرة التطويع الواقعى • بمعنى أن الانســان يطوع الأرض أكثر مما يطاوعها ويمتثل لها ، وأن الأرض تطاوع الانســـان أكثر مما تطوعه وتلزمه • ومع ذلك فكلاهما يطوع وكلاهما يطاوع وفى هـــذا انتصار واقعى وصحيح لارادة الحياة ، من غير تنكر أو انكار لارادة التحدى لمصير الحياة •

الضبط البشرى ومدى تفوقه وتحسب حسابه جيدا .. ومن ثم تخرج الفكرة الأنسب التى بنيت على قبول بأن يكون التحـدى البيئى علامة حمراء توقف مسيرة الحياة ، وعلى قبول أيضا بأن هذا التوقف الوقتى يكون من أجل ابداع الضبط البشرى الذى يحبط أو يبطل مفعول التحـدى علامة خضراء تنير طريق مسيرة الحياة .. وكأن الجغـرافية المعاصرة قد جنحت الى استشعار الصراع بين سلاح التحدى البيئى وسلاح الضبط البشرى ، والى استشعار نجاح الانسان بعد وقفة ابداع فى المضى وتسجيل انتصار ارادة الحياة .

٣ـ حملت الجغرافية المعاصرة علم الخرائط مسئولية الاستجابة لمنطق وأهداف التجديد فى الجغرافية . وقد بصرت العمل الفنى الذى يتفرغ لرسم وانشاء الخرائط لكى يخرج الانتاج من الرسوم البيانية والخرائط التى تجسد رؤية الجغرافية المعاصرة . بل لقـد أولت الجغرافية المعـاصرة الخرائط الاهتمام حتى تقف على قدم المساواة مع الكلمة فى التعبير عن مضامين البحث الجغرافى سواء كان تطبيقيا أو نظريا . واستجابة علم الجغـرافية لم تقف عند حد تطوير الأساليب واستحداث الأجهزة الأفضل وزيادة كفاءة تشغيلها فقط ، بل لقد لجأت الى تطويع الطيران وحركة الأقمار الصناعية فى خدمة التصوير الجوى وأحسنت استخدام هذا التصوير لانتاج الخرائط الأفضل. وتنعم الجغرافية المعاصرة فى الوقت الحاضر بانتاج هذه الخرائط والرسوم البيانية ، لأنها تجد فيها وسيلة تعبر بايجاز ووضوح شديدين عن مضامين البحث الجغرافى النظرى أو البحث الجغـرافى التطبيقى ، على حد سواء . وهذا معناه أن تجديد الجغرافية المعاصرة قد أصبح قوة دفع وحافز حقيقى من وراء التجديد فى رسم الخرائط وتحسين دلالات التعبير فيها ، وفى رسم الرسوم البيانية .

وعن التصور الثانى ، الذى يتأتى فيه التجـديد من خلال التغيير ، فقد صدعت لمشيئته الجغرافية المعاصرة ، وقبلت بكامل اختيارها هـذا التغيير وما يبتغيه . وينبغى أن نتبين هذا التغيير وكيف يبدو طفيفا من حيث الشكل العام . ولكنه فى حقيقة الأمر يكون هذا التغيير تغييرا واقعيا ومؤثرا ، من حيث الجوهر والمضامين التى ينطوى عليها الفكر الجغرافى المعاصر.

ومن الجائز أن يعبر عن هذا التغيير قدر معقول من التطور فى مفاهيم واهتمامات وأهداف الدراسة فى بعض فروع الجغرافية البشرية ، وهـذا صحيح تماما فى اطار الجغرافية المعاصرة . ولكن المؤكـد أن الاجتهـاد الجغرافى قد أدرك وتدارك أبعاد التجديد الذى يبتغيه التغيير فى هذه المفاهيم

والاهتمامات والأهداف واستجاب له ، وهو يشحذ كل خبراته في دراسة الظاهرة البشرية المعنية بالأسلوب الأنسب والمجدد . وهذا في حد ذاته هدف وغاية صحيحة قد استهدفتها الجغرافية المعاصرة . بمعنى أن تبين الاجتهاد الجغرافي الغاية أو الهدف من دراسة هذه الظاهرة البشرية المعنية ، وانكب على الأسلوب الأنسب ، وصولا الى هذه الغاية ، من غير أن يتخبط أو من غير أن يتردد .

وربما دعا هذا التغيير الذي يجدد الى رسم طريق الاجتهاد الجغرافي سبيل الوصول للغاية المستهدفة ، والى تخفيض معدلات الاهتمام ببعض جوانب موضوعية تخفيضا واضحا ولكن لا يتضرر به البحث . وربما دعا نفس هذا التغيير الى تكثيف الاهتمام ببعض جوانب موضوعية تكثيفا واضحا لكي ينتفع به البحث . ويكون التغيير في الحالتين من قبيل التجديد بالفعل دون الخروج أو التملص من موضوعية وجوهر البحث . بمعنى أن الاجتهاد الجغرافي قد تخفف من بعض الاعباء التي لم يعد الفكر الجغرافي المعاصر يتطلع اليها بنفس حرص الفكر الجغرافي الحديث عليها من قبل ، وتحمل بعض الاعباء التي جدد بها الفكر الجغرافي المعاصر رؤيته لها . بل ربما اسقط الاجتهاد الجغرافي كل الاهتمام بهذه الاعباء التي اتصرف الفكر الجغرافي المعاصر عنها ، لأنه استشعر عدم جدواها ، أو لأن اسقاطها لا يخل بدور الجغرافية المعاصرة وآدائها الوظيفي في البحث النظري أو في البحث التطبيقي(١) .

وقد نجد في التغيير الذي أسفر عن شكل من التجديد علامات تنبىء بتحول الجغرافية والاجتهاد الجغرافي تحولا حقيقيا عن الاهتمام المتوازن بكل عنصر من العناصر التي تتداخل في الرؤية أو في تجميع أوصال هذه الرؤية الجغرافية البشرية أو الطبيعية . وهذا معناه أن الاجتهاد الجغرافي أخذ في تنويع الاهتمام وأعطى لكل عنصر من هذه العناصر ما يستحقه ، من غير مساس بسياق الموضوعية المتكاملة أو بسياق الوضوح لهذه الرؤية

---

(١) أسقطت الجغرافية المعاصرة بعض الفروع تماما وتخففت من أعبائها ونذكر منها الجغرافية الاجتماعية . كما خففت معدلات اهتمامها بجغرافية السلالات لأنها لم تعد تهمها في غير البحث عن منطق تتفهم به أبعاد التفرقة العنصرية . وهناك تفاصيل وعموميات في كثير من فروع الجغرافية البشرية خففت معدلات الاهتمام بها لأن سياق الموضوعية في بحوث الجغرافية المعاصرة لا يتضرر من غيابها .

الجغرافية . وربما بين تأثير هذا التغيير المتجدد فى دراسات الجغرافية العامة على وجه الخصوص . بل لقد اعتبرت دراسة بعض العناصر التى تتداخل فى الرؤية الجغرافية العامة مضيعة للوقت من غير أن ينتفع منها البحث .

ومن مظاهر هذا التغيير أيضـــا تكثيف البحث عن بعض العناصر الجغرافية التى تسفر عن عنصر أو عامل جغرافى يلعب دورا حـــاكما فى صياغة وتركيب الرؤية الجغرافية . ونضرب لذلك مثلا بالعامل الذى يؤثر على البعد البشرى وجدوى هذا البعد وقدراته وهو يواجه التحدى ويضع علامات انتصاره وتسيده على الارض . ومن هذا القبيل أيضا تكثيف الاهتمام بالموقـــع الجغرافى الذى أصبح حجر الزاوية فى كثير من أمور الجـدوى الاقتصادية . وكفاءة الخبرة الجغرافية ، وهى تؤدى دورهـــا الوظيفى فى البحث لحساب العمل التطبيقى المباشر ، أو وهى تؤدى دورها الوظيفى فى البحث لحساب ترشيد التفاعل الحياتى أو تقديم الخبرة التى تشد أزر الحياة ، تطلب هذا التغيير وما يعنيه تكثيف البحث عن عناصر جغرافية معينة . والمؤكد أن هذا التغيير المتجدد فى حيوية ومفاهيم الجغرافية المعاصرة ، قد التزم دائما بكل ما من شأنه أن يضع ثمرات الخبرة الجغرافية فى خدمـــة الحياة . بل لقد أصبح اهتمام الجغرافية المعاصرة بدراسة الارض والواقع الطبيعى فى اقاليم الارض ، اهتماما مسخرا فى الشكل وفى الموضوع وفى العمق وفى التأصيل بما تنتفع به الحياة . وربما أثار ذلك بعض التخوف من نتائج هذا الاتجاه لأنه قد يؤدى الى عدم التوازن بين دراســـة الجغرافية الطبيعية ودراسة الجغرافية البشرية . بل ربما تمادى وتصاعد هذا التخوف لان عدم التوازن والخلل وتضييق الخناق يبرر دعوة بعض المفكرين الى تغيير كلى يطمس تقسيم الجغرافية الى قسميها الطبيعى والبشرى .

وهكذا يعبر هذا التغيير الذى أسفر عن تجديد فى اطار الجغرافيـــة المعاصرة وفى اهتماماتها وفى أهدافها وفى حيويتها ، عن وسيلة من أهم وسائل تطويع البحث الجغرافى ، فى الجغرافية الطبيعية أو الجغرافية البشرية تطويعا ، يطاوع ويجاوب ويخدم مصلحة الحياة . بل لقد أصبحت الحياة هى المقياس الدقيق الذى تعتمد عليه موضوعية وأهداف الجغرافية المعاصرة ، وهى تؤدى دورها فى البحث التطبيقى الموضوعى الذى يجاوب وينجـــز مصلحة الحياة ، أو وهى تقلع عن الدراسة الموضـــوعية التى لا تجاوب ولا تنجز مصلحة للحياة . بمعنى أن مصلحة الحياة باتت تلعب دور الضابط الحاكم لاجتهادات وانجازات الجغرافية المعاصرة أكثر من أى ضابط آخر .

... بل لقد احتفظت الجغرافية المعاصرة بروح ومنطق التغيير ، لكي تسعفها في التعديل والتطوير بأكبر قدر من المرونة ومن غير أن تتمرد أو أن تخرج عن مسارها الصحيح • ونضرب لذلك مثلا كيف اتخذت الجغرافية المعاصرة من المنهج الرياضي الكمي سبيلا لانجاز البحث الجغرافي لبعض الوقت • ومن الجائز أن نعتبر ذلك – في حد ذاته – تغييرا استوجب التجديد في الجغرافية المعاصرة • ولكن المؤكد انها ادركت – بكل الوعي – كيف ساقها هذا المنهج الى معادلات رياضية وانزلقت الى قوانين وقوالب جامدة حتى أوشكت أن تتحكم فيما ينبغي أن يكون ادراكه ادراكا جغرافيا مرنـا وطيعا • ومن ثم لجأت الى روح التغيير وعدلت عن هذا المسلك وتحللت من جمود هذا المنهج الذي يفرغ الجغرافية من معناها المرن ويبعث على التخوف من التجرد من مغزاها أو التملص من مرماها • وهذا معناه أن الجغرافيـة المعاصرة قد ثابت الى رشدها واقلعت عن منهج يكلفها اصدار قوانين تحدد سلوك الحياة وتقنن حركتها • وهذا أمر ليس من أهداف الجغرافية في شيء ، ولأنه غير صحيح أن تخضع حركة الحياة وسلوكها لبعض القوانين الجامدة المتصلبة والمعادلات الرياضية الرمزية •

وسواء تحلت الجغرافية بصفة التجويد في الآداء وسجلت الانجاز المجود أو تحلت الجغرافية بقدرة الاضافة والتجديد وسجلت الاضافات المجددة فان المرونة في التغيير والتغيير في المرونة ، قد اطلقت عنان الجغرافية المعاصرة لكي تبحث عن أهدافها وتسجل إنجازها • وما من شك في أن المرونة في التغيير والتغيير في المرونة سبيل من أهم سبل التطوير : ومن شأن هذا التطوير أن يتم من غير أن تتنصل الجغرافية المعاصرة من مغزاها ، أو من غير أن تتجرد من موضوعيتها ، أو من غير أن تتنكر لمرماها •

وبعد رحلة طويلة شائكة وشائقة تلك التي قطعتها مسيرة الفكـــر الجغرافي التي بدأت مبهمة في رفقة أو معية الحياة على الأرض • وهي من غير شك مثيرة ولم تكف عن العطاء لكي ترضى حاجة الانسان الى هذا العطاء • ورحلة طويلة في اتجاه المستقبل لا نعرف مداها بالقطع الا أن الفكر المعاصر يجهز لها • أما عن الشكل والجوهر والمرمى في هذا المستقبل فلن يحدده الا ما تستشعر الجغرافية فيه حاجة الحياة اليه وهي على وفائها للحياة •

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

اولا — المراجع العربية :

١ — امام ابراهيم أحمد : تاريخ الفلك عند العرب (المكتبة الثقافية) ٢٥ ، القاهرة ١٩٦٠ .

٢ — أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب (ترجمة تمام حسان) ، القاهرة ١٩٥٧ .

٣ — البكرى : معجم ما استعجم (تحقيق مصطفى السقا) ، القاهرة ١٩٤٥ .

٤ — جلال مظهر : حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى ، القاهرة ١٩٧٤ .

٥ — جريفيث تايلور : الجغرافية فى القرن العشرين (ترجمة محمد السيد غلاب ومحمد مرسى أبو الليل) الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٤ .

٦ — حسنى محمود حسن : أدب الرحلة عند العرب . المكتبة الثقافية ، القاهرة ١٩٧٦ .

٧ — حسين مؤنس : الجغرافية والجغرافيون فى الاندلس صحيفة معهد الدراسات الاسلامية مدريد مجلد ٧ و ٨ ١٩٥٩ و ١٩٦٠ .

٨ — حورانى ، جورج فضل : العرب والملاحة فى المحيط الهندى (ترجمة يعقوب بكر) القاهرة .

٩ — روجر منشل : تطور الجغرافية الحديثة (ترجمة محمد السيد غلاب ودولت صادق) ، القاهرة ١٩٧٣ .

١٠ — زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٤٥ .

١١ — شريف محمد شريف : تطور الفكر الجغرافى ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ — صلاح الدين الشامى : الجغرافية دعامة التخطيط ، الاسكندرية ١٩٧٦ .

١٣ ـ صلاح الدين الشامي : الاسلام والفكر الجغرافي العربي ، الاسكندرية ١٩٧٩ .

١٤ ـ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية (ترجمة منير بعلبكي ونبيه أمين) ، بيروت ١٩٧٧ .

١٥ ـ محمد رشيد الفيل : أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، الكويت ١٩٧٩ .

١٦ ـ محمد صبحي عبد الحكيم : علم الخرائط ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٧ ـ نفيس أحمد : جهود المسلمين في الجغرافية (ترجمة ، فتحي عثمان) الألف كتاب ١٨٧ ، القاهرة .

١٨ ـ يسرى الجوهري : الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية ، الاسكندرية ١٩٧٢ .

١٩ ـ يوسف أبو الحجاج : الجغرافيـــة مغزاها ومرماها (ترجمة) الألف كتاب رقم ١٨٧ .

ثانيا ـ المراجع الاجنبية :

Arnold, T. & Guillame : The Legacy of Islam, Oxford, 1931.

1. Beazley, R. : The Dawn of Modern Geography, London, 1897.
2. Bunbury, E.H. : A History of Ancient Geography, London, 1883.
3. Cole, J.P. & King, C.A.M. : Quantative Geography, John Wiley, 1968.
4. Freeman, T.W. : Geography and Planning, London, 1958.
5. Gibson. A. : Regional Planning and Development, Leiden, 1955.
6. Hartshorne, R. : The Nature of Geography AAAG. Lancaster, Pennsylvania, 1939.
7. Hartshorne, R. : Perspective on the Nature of Geography, Murry, 1959.
8. Hozayin, S.A. : Arabia and The Far East, Cairo, 1942.
9. Hozayin, S.A. : Some Contributions of the Arabs to Geography, Geog. 1932, Vol. 17.
10. Kimble, G.H.T. : Geography in the Middle Ages, London 1963.
11. Minshull, R.M. : Regional Geography, Theory and Practice, Hull, 1967.
12. Sharaf, A.T. : A Short History of Geographical Discovery. Alex., 1964.

13. Stump, L.D. : Applied Geography, Pelicon, 1960.

14. Scott, Kelti, J. & Howarth, O. R. : History of Geography, London, 1913.

15. Thomson, J.B. : History of Ancient Geography, Cambridge, 1948.

16. Tozer, H.F. : A History of Ancient Geography, Cambridge, 1897.

17. Wooldrige, S.W. & East, W.G. : The Spirit and Purpose of Geography, London, 1964.

18. Taylor, G. : Geography in the Twentieth Century, London, 1953.

فهرس

صفحة

الفصل الثالث

الاسلام والفكر الجغرافى العربى

الفصل الرابع

الفكر الجغرافى الحديث

مراحل نموه وصياغة علم الجغرافية

رقم الايداع : ١٩٩٣/٣٩٤٢
الترقيم الدولى ٩٦ ـ ٧٣٠٧ ـ ٩٧٧

مطبعة اطلس
١١ ، ١٣ شارع سوق التوفيقية
تليفون : ٧٤٧٧٩٧ ـ القاهرة